الاتصـــال

التمهيد

يستشهد كثير من علماء السياسة والعلوم الانسانية بملاحظة طريفة سالية ابداها تاليران Talleyrand من أن الانسان يستطيع ان يفعل أشياء كثيرة جدا بالسيف الا ان يجلس هو نفسه عليه . وكان تاليران يقصد بذلك انه يستحيل على أى نظام من نظم الحكم ان يقوم ويستمر فى الوجود معتمدا فقط على ممارسة العنف والقهر ، وكبت الرأى الاخر ، ومحاولة القضاء على القوى المعارضة ، وانما الامر يتطلب على العكس من ذلك تجاوب الناس مع نظام الحكم وتفهمهم لفلسفته واهدافه ، وخضوعهم (الطوعى) للسلطة ، وتقبلهم للنظم الاجتماعية والسياسية السائدة فى المجتمع واقتناعهم بها . أى ان المسألة تستلزم من ناحية تنازل الافراد انفسهم عن قدر من (فرديتهم) نتيجة للفهم والوعي وادراك اهمية التماسك الاجتماعي ، مثلما تستلزم من الناحية الاخرى ادراك القادة والزعماء حقوق تلك القوى المعارضة فى التعبير عن رايها ، ثم محاولة التغلب عليها عن طريق الحوار والاقناع وليس عن طريق القهر او العنف ، الذى قد يتعرضون هم أنفسهم له اذا تغيرت الاوضاع . اذ ليس ثمة ما هو اقسى على المرء من ان يجد نفسه فى وضع لايتاح له فيه حرية التعبيرَ عن رايه وفكره فيما يدور حوله من احداث تؤثر فى حياته بشكل مباشر .

ومع ذلك فالظاهر انه كان يوجد دائما وفي كل انواع المجتمعات الانسانية خلال جميع مراحل التاريخ نوع ما من الرقابة على الافكار والآراء ومظاهر السلوك ، وان عملية

(الاتصال) بين افراد المجتمع الواحد ، وكذلك أساليبه ووسائله وقنواته كانت هي ايضا تخضع دائما لعنصر من التوجيه والتقييد والتحكم . ولا ترجع هذه التحديدات فقط الى ما قد يفرضه اصحاب القرار من شروط وقيود على (مادة الاتصال) ـ اى نوع المعلومات التى يمكن تناقلها ، والموضوعات التى تباح مناقشتها ، وانما قد تأتى هذه القيود ايضا من (اداة الاتصال) ذاتها ، اى من اللغة التى تستخدم في الحديث وتوصيل مادة الاتصال (المعلومات) . فاستخدام اداة اتصال (لغة) معينة بطريقة معينة ، بل وانتقاء كلمات والفاظ ومصطلحات معينة بالذات من تلك اللغة لاستخدامها في مواقف معينة بالذات ، تساعد مساعدة فعالة اما على الابقاء على الاوضاع والقيم السائدة فعلا في المجتمع ، أو على ادخال قيم وافكار جديدة يراد لها ان تذاع وتنتشر وتسود بين افراد المجتمع ، بحيث يرفضون كل ما قد تحمله اليهم اداة اتصال اخرى (لغة والفاظ وتراكيب مختلفة) وهكذا . وهذا معناه في آخر الأمر ان اللغة من حيث هى اداة اتصال تعتبر عاملا اساسيا ووسيلة هامة من عوامل ووسائل التماسك والتضامن والتكامل في المجتمع ، وذلك اذا عرف ذلك المجتمع كيف يستخدمها بالطريقة التى تخدم ذلك الهدف ، ولكنها في الوقت ذاته قد تكون اداة لاضعاف الصلة والروابط في المجتمع ، وبالتالى تكون عاملا ووسيلة من عوامل ووسائل التخلخل والتفكك والاضطراب اذا هى استخدمت بطريقة اخرى ، بقصد تحقيق ذلك الهدف ايضا ، وهذا هو السبب فيما يذهب اليه العلماء والكتاب من ضرورة توفير حرية التعبير عن الفكر وابداء الرأى عن طريق ادوات ووسائل الاتصال المختلفة التى تعتمد في المحل الاول على الكلمة المنطوقة او المكتوبة ، وما يتبع ذلك من تبادل الآراء ، بل واحيانا التقاء وجهات النظر ، على اعتبار ان ذلك هو خير ضمان لاستمرار التماسك والتضامن والتكامل في المجتمع ، وليس فقط خير وسيلة لاستمرار نظام الحكم على ما يعتقد البعض ان هذا وحده هو ما كان يقصده تاليران من عبارته . فعبارة تاليران اذن تذهب الى آفاق ابعد واوسع مما توحى به لأول وهلة ، لانها تعنى في آخر الامر **ان حرية الاتصال هى العامل الاساسى في التماسك الاجتماعى .**

وكما يقول كلاوس موللر Claus Mueller في كتابه القصير القيم عن « سياسة الاتصال » فان قدرة الانسان على « صنع » الكلمات وصياغة الرموز التى تمثل ظواهر عالمه الخارجى وعالمه الداخلى على السواء هى اهم الخصائص التى تميز الانسان عن بقية الكائنات . ففى محاولته فهم البيئة التى يعيش فيها وحل الغازها يصوغ الانسان انساقا رمزية او لغات

يمكنه من طريقها « بناء هذه العملية » ـ حسب تعبير مولر ـ ونقلها الى الآخرين . فالكلمات تمد الانسان بقوالب يصب فيها أفكاره ومفهوماته وتصوراته ، مثلما تزوده برموز تعبر عن معتقداته وقيمه ... ولكن على العكس من بعض الرموز الاخرى التي لا تتضمن سوى معاني محددة وثابتة كالارقام او الاعداد مثلا ، فان الكلمات تحتمل كثيرا من التأويلات التي تختلف من شخص لآخر ، مثلما تختلف باختلاف الظروف والاوضاع . وهذا هو ما يعطي الكلمات خطورتها واهميتها في عملية الاتصال ... اللغة اذن ، وباختصار هي اداة الاتصال الرئيسية في المجتمع الانساني ، لانها هي الوسيلة الاكثر فعالية في تمكين الفرد من الدخول في علاقات وتفاعلات اجتماعية مختلفة ، مثلما هي اداته الرئيسية في عملية التكامل مع الثقافة التي ولد فيها ، اي ان اللغة التي يكتسبها الفرد اثناء عملية التنشئة الاجتماعية هي الاداة الاساسية في عملية التنشئة او التطبيع الاجتماعي ذاتها . وهذا لا يعني بحال ان جميع افراد المجتمع يفهمون اللغة السائدة في ذلك المجتمع بنفس الطريقة ونفس الدرجة . الا على الرغم من انهم جميعا يتعلمون لغة المجتمع التي تتألف من الفاظ معينة ، والتي لها قواعدها المعروفة وقواميسها التي تضم مفرداتها ، وتحدد بدقة معاني هذه المفردات ، فان ثمة عوامل اجتماعية واقتصادية وسلالية كثيرة تؤدي الى تفاوت افراد المجتمع في ادراكهم للغة وفي طرائق استخدامهم لها . وبذلك فاننا نستطيع ان نقول مع مولر ان (لغة) الفرد هي بمثابة « رقيب داخلي » يتدخل في تحديد ورسم علاقاته بالناس ، بقدر ما هي « واسطة لمنطقة » او « تجربة وسيطة » ـ يستخدمها في توصيل آرائه وافكاره وانفعالاته ، ومن هنا كانت قدرة الفرد على الاتصال تتوقف الى حد كبير على حصيلته من المفردات والتراكيب اللغوية .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا بعد هذا كله ، والذي كان يمكن ان نبدأ به هذا التمهيد هو : ماذا نقصد بالاتصال ؟ ... وليس ثمة ما يدعونا الى الدخول في متاهة التعريفات ، فالكلمة جديدة نسبيا ، وعلم الاتصال هو ايضا جديد ، وكما هو الحال بالنسبة لكثير من المصطلحات المستحدثة في العلوم الاجتماعية والانسانية والمستمدة اساسا من العلوم الطبيعية فان العلماء لم يتفقوا حتى الآن على تعريف واحد للكلمة ، ولذا فقد يكفي هنا ان نقول ان « الاتصال » هو **العملية** التي يتم بمقتضاها تكوين العلاقات بين اعضاء المجتمع (بصرف النظر عن حجم هذا المجتمع وطبيعة تكوينه) وتبادل المعلومات والآراء والافكار والتجارب فيما بينهم . والواقع ان ثمة اجتماعا بين العلماء على اعتبار الاتصال **عملية** اساسية في حياة المجتمع ، وان كل ما يتصل بانتقال الافكار والمعلومات من فرد لآخر او من جماعة لاخرى يدخل ضمن هذه العملية ، سواء أكانت هذه الافكار والمعلومات ذات قيمة اجتماعية او ثقافية او علمية ، وسواء أكانت تتصل بالناس انفسهم او بالبيئة (العالم الخارجي) الذي يعيشون فيه ، او حتى بتجربة الفرد نفسه مع نفسه ، وفي هذه الحالة الاخيرة تكون عملية الاتصال باطنية او داخلية تماما ، بحيث يتم الاتصال بين الفرد وذاته كما هو الحال حين يقلب الفرد في ذهنه افكاره وآراءه الخاصة ، او

حين يدرس ذاته ويضعها موضع التحليل والنقد والمحاسبة والمؤاخذة . فكأن كل عناصر الثقافة التي يمكن نقلها ـ او توصيلها ـ من فرد لآخر او من جماعة لاخرى او من جيل لآخر تؤلف **مادة الاتصال** ، ومن هنا كنا نجد ادوارد هول Edward T. Hall في كتابه عن « **اللغة الصامتة** The Silent Language » يقول ان « الثقافة اتصال » على اعتبار ان العادات والتقاليد والتراث والخبرات والقيم والمعارف المختلفة كلها تنتقل بين الاشخاص والجماعات والأجيال ، وهذا الانتقال او النقل والتوصيل هو ما يعطيها صفة الاستمرار والبقاء في الوجود. ومن هنا ايضا كان معظم العلماء والمهتمين بدراسة الاتصال يعطون جانبا كبيرا من اهتمامهم لدراسة اللغة ، بما فيها اللغة الصامتة (الحركات والاشارات والايماءات .. الخ) واستخداماتها باعتبار اللغة هي اداة الاتصال الرئيسية واداة نقل الثقافة وتوصيلها مثلما هي ـ في الوقت ذاته ـ جزء من الثقافة . وهذا هو ما اخذناه في الاعتبار من قبل في مقال لنا من (حضارة اللغة) ظهر في العدد الخاص بموضوع « الفكر واللغة » من هذه المجلة حين ذكرنا ان الانسان الذي ينفرد باللغة من دون الكائنات الاخرى اقام حضارته على اساس اللغة ، وانه لولا اللغة لما قدر لمثل هذه الحضارة ان تقوم (انظر عالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الاول ، ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٧١) .

وعلى الرغم من الحداثة النسبية لعلم الاتصال فانه علم شديد التعقيد ، يستمد اصوله ومسائله من عدة علوم اخرى لعل اهمها هي العلوم الاجتماعية وعلم النفس وعلم اللغة والسياسة ، فضلا عن كثير من التأثيرات الواضحة فيه من العلوم الطبيعية . الا ان (الاتصال) ذاته كعملية كان بغير شك ملازما لنشأة المجتمع الانساني ، وان كانت عملية الاتصال ومادته تتخذان بطبيعة الحال اشكالا عديدة مختلفة تتفق ومختلف مراحل التطور الاجتماعي والذهني والثقافي للجنس البشري . فالى جانب (الكلام) كانت الجماعات المبكرة ـ ولا تزال بعض الجماعات البدائية حتى الآن ـ تلجأ الى اساليب قد تبدو ساذجة وبسيطة ولكنها تخفي وراءها بغير شك انساقا متكاملة من القواعد والاشارات والرموز التي لها معان واضحة في اذهانهم ، حتى يمكن ارسال الرسائل (مادة الاتصال) بها ، مثل قرع الطبول ، او اشعال النيران ، او ارسال اشارات الدخان ، وما الى ذلك . ومن الصعب قبول النظريات التي تذهب الى ان الانسان الاول لم يكن يعرف اللغة المنطوقة او الكلام ، وهي نظريات كانت تشيع في بعض الكتابات الانثربولوجية المبكرة . ولكن ليس من شك في ان اللغات المبكرة كانت بسيطة للغاية نظرا لبساطة الحياة ذاتها وسذاجتها وكذلك بساطة (مادة الاتصال) اي المعلومات والافكار التي كان يراد توصيلها . ولكن الذي ظهر متأخرا نسبيا هو اللغة المكتوبة .

ومهما يكن من امر الاختلاف في الرأي حول وجود او عدم وجود لغة منطوقة لدى الانسان الاول او الانسان المبكر ، فان اللغة بالمعنى الذي نفهمها به ـ وبخاصة الكلام ـ هي الاداة الرئيسية للاتصال على ما سبق ان ذكرنا ، وذلك على اساس ان الكلمات ليست الا رموزا لما تعنيه

اشياء معينة ، وبذلك فهى تختلف عن مجرد الاصوات التى تصدر بغير قصد ولا تحمل – فى بعض الاحيان على الاقل – معنى محددا . وبقدر ما يملك الانسان ناصية اللغة يكون فى امكانه خلق الاتصال وتوصيل ما يدور فى ذهنه من افكار وآراء او ما يريد نقله من معلومات للآخرين. بل ان اللغة هى الوسيلة التى تمكن الفرد من التوحد مع الثقافة التى ينتمى اليها ، والارتباط عضويا بالمجتمع الذى يعيش فيه . وليس ادل على صحة ذلك من الصراع القائم الآن فى بعض الدول المتقدمة مثل كندا وبلجيكا نتيجة للاختلافات اللغوية بين قطاعات المجتمع المختلفة . ففى هاتين الدولتين بالذات نجد امثلة حية للاقليات التى تعتقد ان ثقافاتها ، وبالتالى كياناتها ذاتهـا ، مهددة بخطر الزوال والاندثار ، نظرا لأن تعليم لغاتها الخاصة يحتل مركزا ثانويا بالنسبة للغة الاساسية السائدة فى الدولة . كذلك مما له دلالته فى هذا الصدد ما تلجأ اليه بعض المجتمعات للتعبير عن معارضتها للسياسة التى تنتهجها ازاءها بعض الدول الاخرى ، فتحرم تدريس لغاتها فى مدارسها ، او تحرق كتبها ومجلاتها ومنشوراتها المختلفة ، وهذه عملية رمزية تعبر عن الرفض والقطيعة عن طريق القضاء على (اداة الاتصال) بين الجانبين . ومثل هذا الاجراء الرمزى ليس قاصرا على مجتمعات العالم الثالث او المجتمعات المستضعفة فى ثورتها على الدول الاستعمارية ، وانما كثيرا ما تلجأ اليه الدول الغربية ذاتها وفى مواقف لا تنم عن الضعف . وخير مثال لذلك هو ما لجأت اليه فرنسا وبلجيكا بعد الحرب العالمية الاولى من منع تدريس اللغة الالمانية فى مراحل التعليم العام فى مناطق الالزاس Alsace ومالميدى Malmedy لكى تقضى على اداة الاتصال (اللغة الالمانية) مع جمهورية فايمار Weimar ».

• • •

ولكن اذا كان الاتصال عملية قديمة قدم المجتمع الانسانى ، واذا كانت هذه العملية اتخذت اشكالا مختلفة واستخدمت اساليب و (ادوات) للاتصال متنوعة تتفق مع درجة تقدم المجتمع ، كما تختلف باختلاف مادة الاتصال ذاتها ومدى بساطتها او تعقدها ، فان الظروف والملابسات والاوضاع العامة التى سادت العالم منذ بداية القرن العشرين بوجه خاص ، وما ارتبط بهذه الاوضاع من مظاهر التغير الكبرى التى تتمثل الى حد كبير فى زيادة الاتجاه نحو التحضر وظهور المدن الكبرى ، والتحول نحو التصنيع والتحديث فى مختلف مجالات الحياة ، وما ارتبط بهذا كله من تقدم هائل فى العلوم والتكنولوجيا وتعقد العلاقات الانسانية وتشعبها وتشابكها ، قد استوجبت كلها حدوث تغيرات جذرية ضخمة فى مجال الاتصال . وقد نجم هذا التغير فى المحل الاول عن ازدياد الشعور بضرورة (الاتصال) بالجماهير الواسعة العريضة المتباينة ليس فقط داخل المجتمع الواحد ، بل فى العالم ككل . ولذا كان من الضرورى ادخال تعديلات وتحسينات

ضخمة على وسائل واساليب الاتصال القديمة،ثم استحداث وسائل واساليب جديدة تتفق مع الاحتياجات الجديدة والاهداف البعيدة التي يراد تحقيقها . فكان التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مر بها العالم المتمد بداية هذا القرن كانت من اهم الدوافع على العمل على تطوير وسائل الاتصال الجماهيري ،وان كانت هذه الوسائل ذاتها كثيرا ما يستعان بها في تحقيق مزيد من التغير في المجتمع . والمهم على اية حال هو ان المجتمع الحديث المعقد يعتمد اعتمادا كبيرا على أساليب ووسائل الاتصال الجماهيري ـ التي كثيرا ما يطلق عليها اسم الاعلام الجماهيري ـ في نقل (مادة الاتصال)التي يراد توصيلها الى الجماهير العريضة وعلى نطاق اوسع بكثير من كل ما عرف خلال التاريخ. وتقوم بهذه العملية مؤسسات ضخمة (قد تكون هي الدولة ذاتها) مستعينة باجهزة متطورة وفعالة (الصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما وغيرها) لنشر تلك المواد الاتصالية . ومن هنا جاءت اهمية وخطورة هذه الوسائل التي تفيد بغير شك فائدة كبرى من تقدم العلم وتطبيقاته في مجال تكنولوجية الاتصال .

ولقد حاول موريس جانوفيتز Morris Janowitz ـ وهو من كبار العلماء المهتمين بدراسة الاتصال ـ ان يحدد في مقاله عن The Study of Mass Communication اهم وظائف الاتصال الجماهيري فذكر ثلاث وظائف اساسية هي : نقل تراث المجتمع من جيل لآخر ، وجمع المعلومات التي تساعد على مراقبة البيئة والاشراف عليها ، ثم المساعدة على ترابط مختلف اجزاء المجتمع في وجه التغيرات الهائلة التي تطرا على تلك البيئة . وقد تبدو هذه (الوظائف) غريبة بعض الشيء ، او على الاقل غير مألوفة للكثيرين ممن يتصورون ان لوسائل الاتصال الجماهيري وظائف واهدافا اخرى غير هذه ، مثل الدعاية السياسية والترويج للمذاهب والايديولوجيات والافكار المتعلقة بنظام الحكم القائم ، او حتى الترويج لانواع معينة من النشاط الاقتصادي عن طريق الاعلان ، وذلك فضلا عن توفير بعض مواد التسلية والترفيه الراقية المفيدة . وربما كانت هذه الوظائف الثلاث التي ذكرها جانوفيتز هي في نظره «الوظائف النهائية » او الوظائف « العليا » التي ينبغي لوسائل الاتصال الجماهيري ان تعمل على تحقيقها في آخر الامر . الا ان اختلاف وجهات النظر وتعددها حول هذا الموضوع خليق بان يكشف لنا عن مدى اهمية الاتصال الجماهيري في حياة الفرد والمجتمع ، وتنوع بل وتغاير وتباين المجالات التي يمكن ان يفيد فيها . وهذا كله يعني في آخر الامر ان اية محاولة لدراسة الاتصال الجماهيري يجب ان تعطي كثيرا من الاهتمام لدراسة وفهم النظم التي تصوغ عمليات الاتصال، والسياسات التي تهدف اليها ، والآثار المترتبة عليها ، ومدى اقتناع الجماهير بما يقدم لهم من مواد ومعلومات .

٨

وهذه مسألة لها اهميتها بغير شك، ويعطيها الدارسون لمشكلات الاتصال الجماهيري ما ستحقه من عناية ، نظرا لما تتعرض له (مادة) الاتصال ذاتها من التشويه والتحريف وتأويلات مغرضة في كثير من الاحيان ، وذلك الى جانب تدخل بعض نظم الحكم تدخلا سافرا في تحديد المادة التي يمكن (توصيلها) وفرض قيود على مناقشة مشكلات ومسائل معينة ، وقصر المناقشات على الموضوعات التي لا تشكل خطرا على كيان السلطة الحاكمة . ولقد ذكرنا من قبل ان المجتمعات المختلفة عانت الشيء الكثير في كل مراحل التاريخ من مختلف صور واشكال الرقابة على الاتصال ، ولا تزال الرقابة تفرض على وسائل الاتصال الجماهيري في المجتمع الحديث ، وتتخذ هذه الرقابة اشكالا متجددة دائما ، ولا يشذ عن ذلك حتى تلك المجتمعات التي تزعم انها بلغت الذروة في اتاحة الفرصة للتعبير عن الراي في حرية مطلقة ودون اية قيود. وقد يمكن ادراك مدى خطورة الرقابة وانتشارها اذا نحن اعتبرنا (الاتصال الموجه) نوعا من الرقابة المستترة التي تضفي عليها السلطات الحاكمة طابع الشرعية ، اذ من طريق هذا التوجيه يمكن لتلك السلطات ان تتدخل في كل وسائل الاعلام الجماهيري ، بل وفي نظام التعليم الرسمي وتوجيهها كلها وجهات معينة بالذات تخدم اهدافا محددة تتفق مع اهداف ومصالح تلك السلطات ذاتها . ويتعرض الفرد العادي في حياته اليومية لهذا النوع من الاتصال الموجه الذي يؤثر بالتاكيد بطريقة او باخرى في تشكيل تفكيره وسلوكه وقيمه ، بل الاكثر من ذلك هو انه حتى في الحالات التي لا تخضع فيها المعلومات او مواد الاتصال الجماهيري لأي توجيه متعمد يؤدي الى تشويه الحقيقة وتحريفها فان هذه المعلومات كثيرا ما يطرأ عليها بعض التغيير و (التلوين) غير المقصود اثناء عملية النقل او التوصيل . ويتوقف **حجم** هذا التشويه :

اولا – على قدرة الشخص او الاشخاص الذين يقومون بعملية النقل والتوصيل (الارسال) على استيعاب المادة وفهمها فهما صحيحا دقيقا، ثم على الاسلوب الذي يتبعونه في الاتصال والتوصيل ومدى كفاءتهم وقدرتهم على استخدام اداة الاتصال (اللغة) سواء اكانت مكتوبة او منطوقة او حتى لغة صامتة (الاشارات والحركات والايماءات وما اليها) . كذلك تتوقف :

ثانيا – على الشخص المستقبل ذاته وقدرته على استيعاب الرسالة (مادة الاتصال) وتتبعها بدقة ومدى اهتمامه بها وقدرته على تأويلها بطريقة سليمة ، وهي عملية تتأثر بتجربته السابقة وخلفيته الثقافية العامة ، بل وايضا خلفيته في المجال الخاص الذي تنتمي اليه تلك الرسالة والمعلومات التي تتضمنها ، ثم باهتمامه الشخصي بهذا النوع من المعلومات بالذات .

ولكن مع التسليم بأهمية الدور الذي تلعبه وسائل الاتصال الجماهيري أو الاتصال الجماعي في حياة الفرد والمجتمع فان الكثيرين من العلماء الذين درسوا اثر هذه الوسائل دراسة حقلية

يرون ان ثمة شيئا غير قليل من المبالغة والمغالاة في تقدير هذا الدور ، وبخاصة حين يصل الامر الى تأثيرها في المعايير الاخلاقية والاتجاهات والقيم السلوكية والدينية ، بل ان بعض هؤلاء العلماء يتشككون في قدرة هذه الوسائل على خلق انطباع عام او صورة معينة لدى الجماهير عن القادة والزعماء السياسيين انفسهم الذين يسخرون تلك الوسائل لخلق صورة مثالية لهم في اذهان الناس . ويقول آخر فان نجاح وسائل الاتصال الجماهيري في ذلك هو نجاح محدود نسبيا ، او على الأقل هو اضعف واهون واضأل بكثير مما يعتقد الكثيرون . والواقع ان عددا من كبار العلماء من امثال لاسويل Lasswell وهوفلند Hovland ولازارزفلد Lazarsfeld وبركوفيتز Berkowitz وباندورا Bandura توفروا على دراسة اثر الاتصال الجماهيري على قطاعات كبيرة من الناس في عدد من المجتمعات المحلية في امريكا بالذات ، وقد استمرت هذه الدراسات مدة طويلة من الزمن تقرب من نصف قرن ، وقد انتهى معظمها الى نتائج عكسية تماما ، اذ تبين منها أنه لا توجد شواهد مؤكدة تثبت فاعلية وعمق هذه التأثيرات على الناس . وهذه في حد ذاتها نتائج طيبة ، لأنها تعني أن الطرف (المستقبل) ــ اي الجماهير ــ لا تتقبل كل ما يقدم اليها بغير مناقشة او نقد ورفض ، وان كان هذا لا يعني في الوقت ذاته انكار كل تأثير لتلك الوسائل على الناس .

بل ان الامر يذهب الى ابعد من هذا بكثير ، اذ تتعرض وسائل الاتصال الجماهيري لكثير من حملات الهجوم والنقد والتشكيك ، وربما كانت اشد هذه الحملات عنفا واكثرها ضراوة هي تلك التي يشنها « المثقفون » او « الصفوة المثقفة » المختارة في مختلف المجتمعات بما في ذلك المجتمعات المتقدمة ، الذين يرون انه على الرغم من كل ما يقدمه الاتصال الجماهيري او (الاعلام) للسامع او المشاهد او القارىء من مواد علمية وثقافية فانه مسئول في آخر الامر مسئولية مباشرة عما اصاب المعايير الثقافية والفكرية والاخلاقية والسلوكية على السواء من تدهور وانحطاط . فالاتصال الجماهيري يخاطب في المحل الاول « الرجل الجماهيري » او « الانسان الجماهيري » ويقدم له بالضرورة ثقافة جماهيرية ، وفي ذلك قضاء على الثقافة الرفيعة الحقة ، وبالتالي قضاء على الحضارة الانسانية الراقية كلها . وهذا الموقف الذي يقفه المثقفون في الوقت الحاضر يختلف اختلافا كبيرا عن موقفهم في بداية هذا القرن ، حين كانوا يأملون ان تسهم اساليب الاتصال الجماهيري ووسائل الاعلام في نشر الثقافة **الرفيعة** بين الجماهير وعلى نطاق اوسع بكثير مما يصل اليه الكتاب او المجلة الراقية ، بل انهم كانوا يتوقعون ان تسهم هذه الوسائل والأساليب اسهاما فعالا في نشر التعليم والارتفاع بمستواه ، مما يؤدي في آخر الامر الى ارتفاع المستويات الفكرية ، وهذا امر لم يتحقق تماما ، بل الملاحظ هو عكس ذلك ، اذ انحرفت هذه الوسائل بحيث اصبحت تقدم (مواد التسالية) على درجة عالية من التفاهة والضحالة وتعتمد

على الاثارة والتشويق بدلا من العمق . ولقد كانت نتيجة هذا كله هو ظهور (المجتمع الجماهيرى) ـ وهى الصفة التى يحب الكثيرون من علماء الاتصال والاجتماع والانثربولوجيا ان يصفوا بها المجتمع الحديث ، وهو مجتمع تنعدم فيه الخصائص والمميزات الثقافية الفردية التى يعطيها المثقفون والمفكرون اهمية بالغة .

ومع صحة هذه المآخذ والانتقادات الا انه لا يمكن ان نعزوها الى وسائل الاتصال الجماهيرى فى ذاتها او من حيث هى كذلك ، بقدر ما يمكن ردها الى القائمين على هذه الوسائل والمسئولين عن اختيار (مواد الاتصال) التى تقدم عن طريقها. فالأمر يتوقف الى حد كبير على السياسة التى توضع منذ البداية لتوجيه هذه الوسائل ، والميادين التى يراد استخدامها فيها ، والمستوى العلمى والثقافى للذين يضعون هذه السياسة وينفذونها ، وعلى مدى فهمهم للدور الذى يجب ان تضطلع به فى ترشيد الفرد والثقافة والمجتمع. ومع ان (رموز) وسائل الاتصال الجماهيرى و (رسالته) تقدم فى الاصل (للاستهلاك الواسع)ـ حسب تعبير جانوفيتز ، فان هذا يجب ان لا يكون مانعا او عائقا عن الاهتمام بنوعيتها ومستوياتها . وعلى اى حال فان الخلاف لايزال قائما حول اذا ما كان ينبغى على وسائل الاتصال الجماهيرى ان تقدم ما تحب الجماهير الواسعة العريضة ان تقراه وتشاهده وتسمعه ، ومايجب قراءاته ومشاهدته وسماعه ، مستهدفة مثالا معينا ينبغى الاقتراب منه بقدر الامكان .

• • •

ومهما يكن من شىء ، وعلى الرغم من كل ما قيل عن الدراسات والبحوث التى اجريت عن اساليب ووسائل الاتصال المختلفة ، وعلى الرغم من كثرة ما كتب وما نشر فى هذا المجال ، فلا تزال هناك ميادين اخرى كثيرة ومتنوعة تحتاج للدراسة والبحث . وبعض هذه الميادين لم يمس حتى الآن وبخاصة فى العالم العربى ، وهى ميادين ومجالات خليقة بأن تجذب اهتمام الباحثين نظرا لاهميتها وعلاقتها المباشرة بحياة المجتمع ومستقبله ومصيره . فالبحوث التى اجريت حتى الآن فى العالم العربى قليلة وضحلة فى معظمها ، وتعالج فى الاغلب مشكلات جزئية او فرعية وفى غير كثير من التعمق .

وبعد ، فمنذ حوالى نصف قرن مضى ، وبالذات فى عام ١٩٣٢ كتب هارولد لاسويل جملة قصيرة ولكنها عميقة وذات دلالة لأنها تلخص بوجه عام كل فلسفة الاتصال ومجالات البحث فيه ، اذ يقول عن عملية الاتصال بعامة ، والاتصال الجماهيرى بخاصة ، انها تدور حول « من يقول ؟ وماذا يقول ؟ ولمن يقول ؟ ولماذا يقول ؟ » ولقد كانت هذه العبارة ، منذ صدرت،

ولا تزال حتى الآن ، تعتبر هى المبدأ الذى يوجه معظم البحوث فى مجال الاتصال . لانها تقدم اربعة ابعاد للمشكلة ينبغى البحث فيها فى اية دراسة متعمقة . وهذه الابعاد هى :

اولا ـ البحث عن طبيعة الشخص المرسل او المؤسسة او المنظمة التى تقوم بعملية الاتصال ، او طبيعة تكوينها وتنظيمها وسياستها .

ثانيا ـ البحث فى محتوى (الرسالة) للتعرف على نوع المعلومات او (مادة) الاتصال التى تتضمنها .

ثالثا ـ دراسة طبيعة المرسل اليه او المستقبل سواء اكان فردا يتلقى رسالة من شخص آخر ، او كان هو جمهور القراء او المستمعين او المشاهدين اذا كانت اداة الاتصال هى الصحافة او الاذاعة او التلفزيون والسينما ، وتركيب هؤلاء (المستقبلين) ومدى التجانس او التباين والتفاوت والاختلاف بينهم فى الخصائص الفكرية والثقافية .

رابعا واخيرا ـ دراسة التاثيرات التى يراد احداثها فى المستقبلين ، والى اى مدى أمكن تحقيق ذلك ، ونوع الاستجابة ورد الفعل عليها . فليست المسالة اذن هى مجرد تاثير وسائل الاعلام او الاتصال فى الجماهير ، وانما هناك جانب آخر كثيرا ما يغفله الباحثون وهو تاثير هذه الجماهير ذاتها فى وسائل الاعلام ، واستجابة هذه الوسائل لهم . وهذه كلها امور لا تزال بحاجة الى مزيد من البحوث الميدانية العميقة حتى يمكن فهم رسالة وسائل الاتصال وبالذات الاتصال الجماهيرى ووظيفتها ، لكى يمكن وضع سياسة ممكنة التنفيذ بما يحقق خير المجتمع .

* * *

بيولوجيا الاتصال

يوسف عز الدين عيسى *

(*) الاستاذ الدكتور يوسف عزالدين عيسى استاذ بقسم علم الحيوان بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية بجمهورية مصر العربية . وهو الى جانب بحوثه العلمية العديدة في مجال تخصصه ، ذو انتاج ادبي غزير في مجال القصة والرواية والدراما المسرحية والاذاعية والتلفزيونية والفيلم السينمائي والمقال . ولقد نشرت له مجلة « عالم الفكر » ثلاث مقالات في هذا المقال .

الاتصال البيولوجي قد يكون اتصالا كهربائيا او كيميائيا داخل جسم الحيوان ، وقد يكون اتصالا ينتج عنه توالي الاجيال او تواصل الاجيال لضمان استمرار بقاء النوع . وقد يكون اتصال الافراد المختلفة من الحيوانات بعضها ببعض .

الاتصال الكهربائي :

يتم الاتصال الكهربائي عن طريق الجهاز العصبي . ويشتمل الجهاز العصبي على : الجهاز العصبي المركزي (المخ والحبل العصبي او الحبل الشوكي) ، والجهاز العصبي الطرفي ويشمل الاعصاب الصادرة من المخ (الاعصاب المخية) واعصاب الحبل الشوكي والجهاز العصبي الذاتي AUTONOMIC ويتركب من الجهاز العصبي السمبتي SYMPATHETIC والجهاز الباراسمبثي PARASYMPATHETIC .

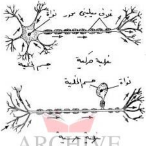
ويحتوي مخ الانسان الذي يزن نحو ثلاثة ارطال على نحو عشرة آلاف مليون خلية عصبية تبعا لتقدير العالم الامريكي « ناثان كلاين NATHAN KLINE » وتوصف الخلايا العصبية بأنها خلايا ارستقراطية ، اذ تختلف في شكلها وتركيبها عن باقي خلايا الجسم . (شكل ١) فهي لاتنقسم كما تنقسم معظم الخلايا . فعدد خلايا المخ عند ولادة الانسان لايزيد خلية واحدة عند وفاته ، ولذا فان الخلايا التي تتلف او تموت في المخ مع مرور الزمن او لاي سبب آخر لايحل محلها خلايا اخرى كما يحدث في خلايا الجلد ، مثلا ، الدائمة التجدد عن طريق الانقسام . وكما يحدث ايضا في خلايا الدم الحمراء التي تموت ويحل غيرها كل نحو مائة يوم وفي عديد من خلايا الجسم الاخرى . ويموت من خلايا مخ الانسان يوميا بعد سن العشرين نحو خمسين الف خلية . ويوجد نحو مائة مليون خلية عصبية في البوصة المكعبة .

والجهاز العصبى فى معظم الحيوانات العديدة الخلايا جهاز اتصال سريع ، حيث تنتقل التعليمات من احد اجزاء الجسم الى اجزاء اخرى على شكل دفعات عصبية NERVE IMPULSES. وهو جهاز شديد التعقيد تركيبا ووظيفة ، ويختلف فى تركيبه ووظائفه فى الحيوانات المختلفة ، ولو انه قد توجد بعض التركيبات والوظائف المشتركة .

ففى حيوان اولى دقيق الحجم وحيد الخلية (اى يتركب جسمه من خلية واحدة) مثل الاميبا او البراميسيوم وغيرهما لا يوجد جهاز عصبى او اعضاء للحس بالمعنى المفهوم فى الحيوانات الراقية ، ولكن على رغم من ذلك نجد مثل هذه الحيوانات تستجيب للمؤثرات المختلفة . فحيوان الاميبا ، وهو يعيش دائما فى الماء ، يسرع مبتعدا عن المواد الكيميائية الضارة ، ويستجيب للضوء الشديد ، ويتحوصل عندما تنضب المياه التى يعيش فيها حيث يتكور ويفرز حول نفسه قشرة ، ويظل كامنا داخل هذه الحوصلة مهما طال الزمن حتى تعود المياه الى مجاريها ، فيذيب حوصلته ويخرج منها ويستأنف حياته المعتادة .

وفى حيوان جوفمعوى مثل الهيدرا HYDRA وهو صغير الحجم اسطوانى الشكل عديد الخلايا لا يزيد طوله عن بضعة مليمترات ، ويعيش ايضا فى الماء يتكون جهازه العصبى من شبكة اسطوانية الشكل من الخلايا العصبية ، تتصل خلاياها العصبية بالخلايا العضلية والخلايا الهاضمة . وتصل من الخلايا العصبية اشارات الى الخلايا العضلية تأمرها بالانقباض او الانبساط ، كما تصل الى الخلايا الهاضمة لتأمرها بافراز الانزيمات الهاضمة . ولا يوجد لهذا الحيوان مخ . ويتدرج الجهاز العصبى فى الرقى حتى يصل الى قمة رقيه وروعته فى الانسان .

ففى الانسان ، وفى غيره من الفقاريات ، نجد المخ محفوظا داخل جمجمة سميكة الجدار . ويتكون من انسجة ليفية هشة . وتمتد من كل خلية من خلايا المخ شعيرات دقيقة توصل كل خلية بالاخرى ، ولكن اطراف شعيرات الخلايا المجاورة لا تتلامس ، وتمر نبضات كهربائية داخل هذه الاعصاب كما يسرى التيار الكهربائى داخل الاسلاك المعزولة . ويمتد من المخ حبل شوكى حتى نهاية العجز . وهذا الحبل الشوكى محفوظ ايضا داخل سلسلة من الفقرات العظمية ذات تجويف يمتد بداخله الحبل الشوكى . وتوجد فى الفقرات ثقوب تمتد من خلالها اعصاب الى الجهات المختلفة من الجسم تتلقى شتى انواع الاحساس ، وتوصل هذا الاحساس الى الجهاز العصبى المركزى ، وتتلقى من الجهاز العصبى المركزى اوامر فورية استجابة لهذه المؤثرات .



(شكل ١)

ويمتد من المخ نفسه اعصاب يوجد منها عشرة الى اربعة عشر زوجا فى الفقاريات. اما عدد الاعصاب التى تمتد من الحبل الشوكى فى الحيوانات المختلفة فيتراوح عددها بين عشرة ازواج فى بعض البرمائيات الى اكثر من خمسمائة زوج فى بعض الثعابين . ويوجد فى الانسان اثنا عشر زوجا من الاعصاب تمتد من المخ ، وواحد وثلاثون زوجا من الاعصاب تمتد من الحبل الشوكى .

الخلايا العصبية وكيفية اتصالها .

قد لا يتصور البعض ان للخلايا العصبية وظائف غير توصيل الدفعات العصبية . فلقد لوحظ وجود بعض الخلايا العصبية التى تفرز مواد كيميائية فى الدم فى بعض شعب الحيوانات. وتوجد فى بعض الاجهزة العصبية خلايا اخرى تسمى الغراء العصبى NEUROGLIAL CELLS وهذه الخلايا لا تسهم فى توصيل الدفعات وتشكل نحو تسعين فى المائة من خلايا مخ الانسان من حيث العدد ، ويبلغ وزنها نصف وزن المخ . وهذه الخلايا تحيط وتدعم الخلايا العصبية التى تنقل الدفعات العصبية ، وما تزال وظائفها الاساسية غامضة . ويظن بعض العلماء ان هذه الخلايا تلعب دورا فى التغذية والذاكرة وتنظيم الخلايا العصبية الاخرى .

والخلايا العصبية التى توصل الدفعات العصبية NEURONS تختلف فى شكلها وحجمها . وتتركب هذه الخلايا من اجزاء ثلاثة : جسم الخلية SOMA الذى يحتوى على النواة ، ويمتد من جسم الخلية شعيرات دقيقة تسمى شجيرات DENDRITES ، وهذه تحمل السيال العصبى او الدفعات العصبية IMPULSES نحو جسم الخلية ، ويمتد ايضا من جسم الخلية ليفة عصبية طويلة تسمى المحور AXON تحمل السيال العصبى من جسم الخلية وتنتهى بتفرعات دقيقة تشبه تفرعات غصن الشجرة ولذا يطلق على هذه التفرعات اسم التفرعات الشجرية الطرفية TERMINAL ARBORIZATIONS شكل (١) . وتفرعات الخلايا العصبية لا تتصل ببعضها اتصالا مباشرا ، ولكن توجد بينها مسافة قصيرة للغاية تسمى « التشابك العصبى » SYNAPSE

القوس العصبى الانعكاسى NEURAL REFLEX ARC (شكل ٢ أ و ب)

يؤدى القوس العصبى الانعكاسى وظيفة هامة ، وهى رد الفعل المباشر لاشارة يفهم منها تعرض احد اعضاء الجسم لخطر مفاجىء . والحركات الانعكاسية العصبية عبارة عن استجابات اوتوماتية عندما يتعرض الجسم لمؤثر معين . وعندما يدق الطبيب بمطرقته اسفل عظمة الركبة تجد القدم يتحرك اوتوماتيا ، واذا سلط على العينين ضوء قوى مفاجىء فان فتحة حدقة العين تضيق اوتوماتيا . واذا وصل الطعام الى الامعاء تجد العصارات الهاضمة تفرز تلقائيا . تحدث جميع هذه الاشياء بدون الرجوع الى المخ لتلقى الاوامر . ويمكن تشبيه استجابة الخلايا العصبية لمثل هذه التنبيهات بالجندى المكلف بحراسة منطقة عسكرية ممنوع الاقتراب منها



(شكل (٢) أ، ب)

وارتيادها . اذ انه في هذه الحالة سيقوم باطلاق الرصاص على اى شخص غريب يحاول دخول المنطقةدون الرجوع الى القيادة العليا . ولا يعني هذا ان المخ لا يعلم شيئا عن هذه الاستجابات التلقائية ، او انه لا يبذل اى مجهود للسيطرة عليها ، ولكن المقصود ان الانسان لا يشعر بانه يفكر في هذا الامر ، اذ يحدث بدون ادنى تفكير .

فاذا لمس شخص موقدا ساخنا باصبعه فان المخ لا ينتظر تقدير الموقف والتفكير فيه ، بل سرعان ما تؤمر عضلات الذراع بدفع اليد بعيدا عن موطن الخطر . ويحدث هذا الانعكاس في سرعة قصوى عن طريق اعصاب الحبل الشوكي . وبعد فترة قصيرة تتلقى اجزاء المخ الواعية اشارة اخرى عن الحروق التي اصابت اليد ، وربما سارع الشخص في هذه الحالة الى وضع اصبعه في فمه . ومن الواضح ان الحركة الثانية تكون اقل سرعة ، ويؤديها الشخص بارادته وتفكيره . ان حركة رد الفعل اللاارادى تدفع اليد بعيدا عن موطن الخطر .

وفي جميع ردود الفعل الانعكاسية التلقائية نجد ان اعضاء الحس والخلايا العصبية والجهاز العصبي المركزي والاعضاء المستجيبة للاحساس مشتركة معا في سلسلة من التفاعلات حيث تنبيه لاعضاء الحس . بعد ذلك تنبعث رسائل خاصة على هيئة نبضات كهربائية عن طريق خلايا عصبية حسية واردة AFFERENT NERVES الى الحبل الشوكي ، وهو جزء من الجهاز العصبي المركزي كما ذكرنا . وللخلايا العصبية الحسية محاور عصبية (الياف عصبية) تمتد من عضو الاحساس الى جسم الخلية العصبية الكائن بجوار الحبل الشوكي . وبناء على ذلك فينبغي ان نتصور ان الليفة العصبية الممتدة من مركز استقبال اللمس في القدم لا بد ان يبلغ طولها عدة اقدام . والليفة الممتدة من جسم الخلية العصبية نحو الحبل الشوكي قصيرة نسبيا وتنتهي بتفرعات شجرية في الحبل الشوكي . وهذه التفرعات تتشابك مع خلايا عصبية صغيرة داخل الحبل الشوكي ، وتسمى الخلايا العصبية الموصلة CONNECTOR NERVES . وهذه الخلايا الموصلة تتشابك بطرفها الاخر مع الخلايا العصبية التي تحمل المؤثرات خارج الحبل الشوكي ، وهي الخلايا الصادرة EFFERENT NERVES . ان الخلية الموصلة تقع بين خليتين عصبيتين ، احداهما واردة من مركز الاحساس والثانية صادرة الى مركز الاستجابة لهذا الاحساس (شكل ٢ أ و ب) . وعندما تنشط الخلايا الصادرة بطريق مباشر او غير مباشر بواسطة الخلايا الموصلة ، فان هذه الخلايا العصبية الصادرة تنظم الاستجابة في الاعضاء المستجيبة لهذا التنبيه مثل الغدد والعضلات (شكل ٢) . والخلايا العصبية الصادرة التي تحمل التأثير في حالة اتصالها بالعضلات الهيكلية (التي تحرك العظام في الهيكل العظمي) تسمى الخلايا الحركية MOTOR NEURONS لانها هي التي تؤثر في العضلات وتجعلها تحرك الهيكل العظمي فتبعد اليد عن النار في حالة لسع اليد بالنار ، او تبعد القدم عن الدبوس الذي يوخزها عن طريق اعصاب الحبل الشوكي ، دون انتظار لتلقي تعليمات من المخ .

ولقد بدأ التفكير في رد الفعل الانعكاسي العصبي عن طريق عالم الرياضيات الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت في القرن السابع عشر . فلقد ذكر ان وحدة الفعل في الجهاز العصبي هي الانعكاس العصبي، وكان يقصد بذلك ان التنبيه، مثل سقوط ضوء على العين، يحدث دفعة عصبية نحو المخ تنعكس الى الخلف من المخ من خلال اعصاب الى عضلات في الذراع او في اماكن اخرى حيث تحدث الاستجابة للتنبيه .

ومن اوائل من اثبت ذلك عن طريق التجربة احد هواة الدراسة البيولوجية وهو ستيفن هيلز STEPHEN HALES (الذى اكتشف ايضا ضغط الدم) . لقد وجد هيلز ان في الامكان اتلاف مخ ضفدعة باية وسيلة دون اتلاف الاستجابة للمؤثرات . اى ان الاستجابة للمؤثرات لا تزول بل تظل باقية بعد اتلاف المخ . اذ لو وضعت قطعة من الورق مغموسة في الخل فوق ظهر هذه الضفدعة التى اتلف مخها فان الضفدعة تدفع هذه الورقة بعيدا عنها بدقة بالغة باحدى ارجلها الخلفية، وهذا يدل على وجود مصدر للاحساس والاستجابة لهذا الاحساس خارج نطاق المخ . واذا اتلف الحبل الشوكى لاحدى الضفادع بادخال سلك في العمود الفقرى المحيط بالحبل الشوكى فان الاستجابة لمثل هذه المؤثرات تتوقف نهائيا، وهذا يدل بوضوح على ان هذه الاستجابة تحدث عن طريق الحبل الشوكى وحده بلا ادنى مساعدة من المخ .

وحدث ان احد الضباط اصيب برصاصة اتلفت حبله الشوكى بين الضلعين الخامس والسادس ومع ذلك احتفظ بقدرته على تحريك ذراعيه . ولكنه عجز عن تحريك ساقيه وفقد احساسه بهما . وعندما وخز احد اصابع قدمه بدبوس انحنت ساقه عند الركبة وجذبت القدم الى الخلف .

ومنذ ذلك التاريخ تراكمت معلومات جديدة عن الانعكاس العصبي . فلقد اكتشف علماء التشريح بعد ذلك المسار الحقيقى للدفعة العصبية في الانعكاس العصبى اللاارادى ، وادركوا ان العصب قبيل دخوله في الحبل الشوكى يتفرع الى فرعين : جذر ظهرى (خلفى في حالة الانسان) وجذر بطنى (امامى في حالة الانسان) ؛ وان الجذر الامامى يشتمل على عقدة عصبية . واتضح من ذلك انه اذا قطعت الجذور العصبية الخلفية المحتوية على الاعصاب المتصلة بالرجل فان الرجل في هذه الحالة تفقد الاحساس ، ولكنها لا تصاب بالشلل . واذا قطعت الجذور العصبية الامامية وحدها فان الرجل تصاب بالشلل ولكنها لا تفقد الاحساس . واستنتجوا من ذلك ان الجذر العصبى الخلفى ذو خلايا حسية ، بينما الجذر العصبى الامامى يشتمل على خلايا حركية .

ومما هو جدير بالذكر ان التيار الكهربائى يسرى في اتجاه واحد داخل الخلية العصبية الواحدة . فالخلايا الحسية تسرى فيها الكهرباء من مكان الاثارة او التنبيه نحو الحبل الشوكى . اما الخلايا العصبية الحركية فيسرى فيها السيال الكهربائى في اتجاه مضاد من الحبل الشوكى الى العضو المستجيب . اى ان هذه الاعصاب تشبه الطرق التى تسير فيها السيارات في اتجاه واحد.

ويوجد خطان تشريحيان في الفقاريات فيمايتعلق بخط سير الخلايا العصبية الصادرة . **النمط الاول** هو الذى سبق ذكره في حالة الخلاياالعصبيةالحركية التى تحرك العضلات . وفي هذه الحالة تمتد ليفة عصبية واحدة خارج الحبل‌الشوكي وتتصل بعضلة من عضلات الهيكل العظمى . ولهذه الخلايا محور قصير يمتد من‌جسم الخلية وينتهي بتفرعات دقيقة . ويقع المحور القصير هذا وتفرعاته في الحبل الشوكي‌ومحور طويل يمتد الى العضلة .

اما **النمط الثاني** فيوجد في الجهاز العصبي‌الذاتي AUTONOMIC الذى يسيطر على الانشطة اليومية للاعضاء الداخلية حيث توجدخليتان‌صادرتان في‌سلسلة تحملان‌عادة التعليمات من الجهاز العصبي المركزي الى الغدد والقلب‌وعضلات الاعضاء الداخلية ، وتتقابل الخليتان العصبيتان في تشابك عند كتلة من النسيج‌العصبي تسمى عقدة عصبية تقع في مكان قريب من الجهاز العصبي المركزي . وينقسم الجهازالعصبي‌الذاتي‌الى قسمين : الجهاز الباراسمبتى والجهاز السمبتى . وفي الجهاز الباراسمبتى‌تكون الخلية العصبية الاولى‌طويلة نسبيا والثانية قصيرة ، وبهذا تتقابل الخليتان بالقرب من‌العضو المستجيب للتنبيه او داخل العضو ، اما في حالة الباراسمبتى فيحدث العكس . وهذايؤدى الى وجود العقدة العصبية **بعيدة نسبيا عن العضو المستجيب للتنبيه** ، حيث تتقابل كل من‌الخليتين العصبيتين المتشابكتين . **ويوجد عدد من العقد العصبية** للجهاز العصبي السمبتى على‌جانبي الحبل الشوكي **وتتصل بعضها بواسطة** خلايا عصبية تسير موازية للحبل الشوكي .

ومعظم الاحشاء مزودة بالياف عصبيةسمبتية وباراسمبتية . ويعمل احدهما ينبه العضو ، بينما الآخر يحد من نشاطه . وتنظيم ضربات القلب من الممكن اتخاذها مثالا لذلك ، اذ عندما ينبه القلب عن طريق العصب الحائر (وهو جزء من الجهاز الباراسمبيتى) يقل‌نشاط القلب . وعندما تصل الى القلب ومضات من الجهازالعصبي السمبتى يزداد نشاطه وتسرع دقاته . وجميع الاعضاء الداخلية منظمة بطريقة مماثلة .

وحتى عهد قريب كان من المعتقد ان‌الاحشاء لاتخضع لارادة الحيوان . ولم يكن من المعتقد امكان تدريبها لسيطرة الارادة . ولكن بعض‌التجارب المثيرة تضطرنا لتغيير هذا الاعتقاد . فلقد ثبت ان الانسان وغيره من الحيوانات من‌الممكن ان يتعلموا كيف يزيدوا او يخفقوا من دقات قلوبهم وتغيير ضغط دمهم وتوسيع وتضييق‌اوعيتهم الدموية والقنوات امعائهم ومعدل ادرار بولهم . وهاهى تجربة نموذجية صممت‌لمعرفة ما اذا كان الفار من الممكن تدريبه لتغيير عدد دقات قلبه :

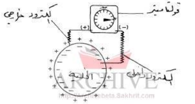
لقد وصلوا لجسم الفار عدة اقطاب كهربائية ELECTRODES لتسجيل دقات قلبه . كان الفار يكافا عندما يتغير معدل دقات قلبه نحو‌الزيادة او نحو النقص تبعا لارادة العلماء الذين يجرون التجربة ، وذلك بتنبيه مراكز البهجة‌والسرور في مخه . كانوا يجعلون الفار يدرك وقت حدوث‌تغيير دقات القلب وذلك‌عن طريق‌علامة‌ضوئية او احداث‌نغمة‌معينة . فاذا استجاب‌استجابة صحيحة قاموا بتنبيه مراكز البهجة في مخه . وبهذا امكنهم ايجاد مجموعتين من الفئران ، كلا

المجموعتين تستجيبان لمؤثر واحد ، ولكن احدى المجموعتين تكون استجابتها على هيئة زيادة معدلات دقات القلب ، بينما المجموعة الثانية تستجيب بخفض معدل الدقات . وأمكن بالتدريب احداث نتائج نوعية للغاية ، حيث تمكنت الفئران من توسيع أوعيتها الدموية في احدى الاذنين دون الاخرى . وهذا يجعلنا نتساءل عما اذا كان في الامكان تدريب الحيوان لتصحيح بعض العيوب التي الت بأعضائه نتيجة لمرض من الامراض .

الدفعة العصبية NERVE IMPULSE

يتكون الاتصال في الجهاز العصبي في الحقيقة من مساحتين : الدفعة العصبية التي تسرى في الخلية العصبية ، ونقل الدفعة العصبية عبر المسافة الضيقة التي تفصل بين تفرعات الخلايا العصبية ، تلك المسافة التي أطلقنا عليها اسم « التشابك العصبي SYNAPSE » .

ولفهم طريقة سريان الدفعة العصبية في الخلية العصبية ينبغي ان نعلم انه في جميع الخلايا يوجد فرق في الجهد الكهربائي بين السطحين الداخلي والخارجي للغشاء الخلوي المحيط بالخلية . هذا الجهد الكهربائي قد يمكن قياسه بواسطة قطبين دقيقين وجهاز لقياس الفولت (شكل ٣) . اذا وضع القطبان معا خارج الخلية او داخل الخلية فان مؤشر قياس الكهرباء لايسجل اي انحراف ، وهذا يدل على عدم سريان الكهرباء . ولكن المؤشر ينحرف اذا وضع احد القطبين داخل الخلية والثاني خارج الغشاء الخلوي . وهذا الفرق في الجهد الكهربائي يتراوح بين عشرة ومائة مليفولت . وفي جميع الحالات تكون الشحنة الكهربائية داخل الخلية سالبة والشحنة خارج الخلية موجبة . وهذا دليل على وجود ذرات وجزيئات ذات شحنات كهربائية سالبة داخل الخلية بالنسبة للسوائل خارج الخلية . وعند تنبيه طرف احد الأعصاب فان التفاعل يسرى خلال العصب عن طريق فرق في التركيب الكيمائي بين الجزء الداخلي والجزء الخارجي للعصب . وكما هي الحال في البطارية الكهربائية فان الفرق بين هذين المركبين الكيمائيين يحدث تيارا كهربائيا كيميائيا يقوم بتوصيل الدفعة العصبية . وتنتقل الاشارات العصبية على هيئة دفعات كهروكيميائية ELECTROCHEMICAL واذا كان مثل هذا الجهد الكهربائي سائدا في جميع الخلايا الحية ، الا انه في الخلايا العصبية والعضلية على جانب كبير من الاهمية فهو لازم لكي تؤدي هذه الخلايا وظيفتها . وقياسه في الخلايا العصبية والعضلية اسهل من قياسه في الخلايا الاخرى ، فمن السهل قياس هذا الجهد في حيوان الحبار SEPIA حيث ان محور الخلية العصبية في هذا الحيوان طويلة نسبيا ، ويبلغ قطره مليمترا في حين ان قطر محور الخلية العصبية في الثدييات (ومنها الانسان) لايزيد عن عدد قليل من الميكرونات (الميكرون يساوي ١/١٠٠٠ من المليمتر) . ومحور الخلية العصبية في حيوان الحبار يعتبر مناسبا لاجراء هذه التجربة ، لانه علاوة على كبر حجمه ، فهو محاط بغلاف من النسيج الضام من الممكن ازالته بسهولة . ومن حسن الحظ ان خواص الخلية العصبية في الحبار لاتختلف عنها في الثدييات .



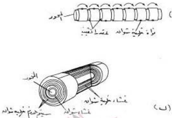
(شكل ٣)

ولم يكشف العلماء عن مصدر تلك الكهرباء الا منذ نحو ثلاثين عاما ، حيث اثبتوا ان الجهد الكهربائي المستقر في الخلايا ينشأ نتيجة فرق في تركيز ذرات وجزيئات معينة مشحونة بالكهرباء تسمى ايونات IONS . وتتكون الايونات عندما يصبح عدد الالكترونات (الحاملة لشحنات كهربائية سالبة) اكثر او اقل من عدد البروتونات (**الحاملة لشحنات كهربائية موجبة (في الذرة .** وبناء على هذا فان ايونات الصوديوم (+ NA) تحمل شحنة كهربائية موجبة لان ذرة الصوديوم فقدت احد الكتروناتها فاصبح بها بروتون زائد عن عدد الكتروناتها . وايون الكلور CL– يحمل شحنة سالبة لان ذرة الكلور حصلت على الكترون زائد . وفقد الكترون والحصول على الكترون (عملية التاين) IONIZATION شائعة في حالة بعض المواد المذابة في محاليل . والعدد النسبي للايونات السالبة والموجبة يحدد الشحنة الكهربائية في السوائل داخل الخلايا وخارجها ، وهذا قد يعطي فكرة عن منشأ الكهرباء في الخلية الحية .

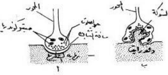
وفي معظم محاور الخلايا العصبية للفقاريات يوجد تركيب معقد . هذه الخلايا العصبية مغطاة بمادة دهنية تسمى ميلين MYELIN . والميلين يكون جزءا من الغشاء الخلوي في خلايا معينة تسمى خلايا شوان SCHWAN CELLS . وتلتف خلايا شوان هذه حول محور (ليفة) الخلايا العصبية مكونة لفافة جيلاتينية عازلة لا يمكن ان تخترقها الايونات بسهولة (شكل ٤) . وعلى مسافات تبلغ نحو مليمتر واحد توجد انفصالات في الغشاء الميليني MYELINSHEATH . وهذه الانفصالات تسمى عقد رانفييه NODES OF RANVIER . ويحدث التوصيل الكهربائي في الخلايا العصبية المحاطة بالميلين بسرعة تبلغ عشرين ضعفا بالنسبة لسرعة التوصيل في الخلايا العصبية غير المحاطة بالميلين . وتقفز الشحنات الكهربائية عبر كل عقدة من عقد رانفييه .

والمسافة القصيرة التي تفصل الخلايا العصبية المتجاورة والتي اطلقنا عليها اسم « التشابك العصبي » ربما تعتبر اهم جزء في الجهاز العصبي ، فهذا هو المكان الذي تؤثر فيه خلية عصبية على خلية عصبية اخرى . وتتفرع امتدادات الخلية العصبية على هيئة تفرعات شجرية على جانبي المسافة التي نسميها « التشابك » . والتفرعات عند نهاية المحاور او عند نهاية الدندرايتات DENDRITES قد تصل الى ارقام مذهلة . فلقد وجدوا الف وثلاثمائة تفرعا عند نهاية محور واحد . ويوجد تشابك عصبي SYNAPSE بين كل فرع من تفرعات هذه الخلية وتفرعات الخلية المجاورة ، وقد تتشابك ايضا مع تفرعات عدة خلايا ، وهذا يجعل تتبع المسار الكهربائي من خلية الى اخرى صعبا للغاية . وتوجد طرق مختلفة للتشابك العصبي ؛ وفي شكل (٥) نرى نوعين من انواع هذا التشابك حيث نشاهد فرعين من التفرعات المديدة لخليتين عصبيتين متشابكتين وبينهما مسافة ضئيلة تجعلهما غير متلامستين .

وانتقال التيار الكهربائي من خلية عصبية الى خلية اخرى عبر التشابك العصبي يخضع لتاثير مواد كيميائية من شانها ان تمنع مرور التيار او تسمح بمروره . اي اننا يمكن تشبيهها بمفتاح النور الكهربائي في منازلنا الذي نضغط عليه فينير المصباح الكهربائي ثم نضغط عليه


(أ)
المحور
عقدة رانفيير
نواة خلية شوان
المحور
غشاء خلية شوان
(ب)
سيتوبلازم خلية شوان
غشاء شوان

(شكل ٤)


المحور
ميتوكوندريات
حويصلات
منطقة التشابك
زائدة شجرية
أ
المحور
الشوكة
شجيرات
ب

(شكل ٥)

فى اتجاه آخر فتنقطع الدائرة الكهربائية ويطفأالمصباح . واذا كانت المواد الكيميائية التى تهيمن على مرور وعدم مرور التيار الكهربائى من خلية عصبية الى اخرى تسير سيرا طبيعيا فى المخ ، فان المخ فى هذه الحالة يكون فى حالة توازن ، فيبدو الانسان طبيعيا . ولكن اذا طرأ خطأ نتيجة اضطرابات كيميائية من شأنها ان تمنع مرور التيار عندما يكون من الطبيعى ان يمر ، فان اضطرابا يعترى المخ ، وقد يعزى مرض الاكتئاب الى هذا الخلل فى المواد الكيميائية التى تنظم مرور التيار أو عدم مروره . ولذا نجد ان مرض الاكتئاب قد يشفى عن طريق تناول مواد كيميائية تصحح الاضطراب الكيميائى فى هذه الاماكن ، ولو اننا لا نعلم حتى الآن كنه هذا التغيير الذى يؤدى الى اعادة تنظيم مرور التيار عبر التشابك العصبى .

بيولوجيا الاتصال فى اعضاء الحس

تعتبر اعضاء الحس SENSE ORGANS امتدادا للجهاز العصبى . فالخلايا الحسية تستقبل الاحساس وتنقل المعلومات الى الجهاز العصبى المركزى عن طريق الخلايا العصبية على هيئة دفعات كهربائية . والانفعال بالمؤثرات طبيعة عامة فى جميع الحيوانات . فاذا تلامس حيوان أولى وحيد الخلية مثل الاميبا مع نقطة من الماء المالح المركز ، او فوجىء بضوء شديد فانه سرعان ما ينسحب مبتعدا . وهذا يدل على ان حيوان الاميبا قد احس بقطرة الملح وبالضوء الشديد اللذين يحاول تجنبهما . وبهذا نجد جهاز استقبال وجهاز استجابة للانفعال فى خلية واحدة دون حاجة الى وجود شبكة من الاعصاب .

واعضاء الحس : العيون والآذان وبراعم الذوق فى اللسان ما هى سوى خلايا متخصصة ذات حساسية لبعض المؤثرات دون الاخرى . وتستخدم وسائل عديدة لاستجلاء أسرار اعضاء الحس . فدراسة التشريح العام لهذه الاعضاء الى جانب دراسة انسجتها عن طريق الميكروسكوب الالكترونى تمدنا بمعلومات هامة لميط اللثام عن اسرار هذه الاعضاء . كما ان ملاحظة سلوك الحيوان ذات اهمية خاصة لدراسة اعضاء الاحساس .

ولاثبات اهمية دراسة سلوك الحيوان لمعرفة وظيفة عضو الاحساس فسوف نناقش باختصار تجربتين : احداهما اجريت على ذبابة والثانية على اخطبوط .

من المعروف ان للذبابة اعضاء احساس للذوق موزعة على الجسم على هيئة شعيرات . وعديد من هذه الشعيرات توجد على الارجل . وعلى ذلك ففى امكان الذبابة ان تذوق طعم الاشياء عن طريق ارجلها . اى ان الشعيرات التى على ارجلها تقابل اللسان عندنا فى القدرة على التذوق . ولاختبار حساسية الذبابة للسوائل السكرية من الممكن اتباع الطريقة الآتية : تخدر الذبابة بواسطة غاز ثانى اكسيد الكربون . وبعد تخديرها ذلك التخدير المؤقت تقص اجنحتها من اعلى بقطعة من الشمع على طرف عصا . وبذلك يمكننا حمل الذبابة الملتصقة بطرف العصا . وعندما تفيق الذبابة من التخدير يمكننا ان نجعل ساقها تلمس قطرة من الماء ، وعندما يحدث ذلك فان الذبابة عادة تدلى خرطومها فى الماء وتشرب ، اذ ان الماء يثير اعضاء

الاحساس الكيميائية الكائنة في شعيرات الساق . وعندما تأخذ الذبابة كفايتها من الماء فانها لن تدلي خرطومها في الماء مرة اخرى . ولكن اذا استبدل الماء بمحلول من السكر فان الذبابة في هذه الحالة تحاول معاودة الشرب . فاذا ابعدناها عن المحلول السكرى قبل ان تتمكن من الشرب وقربناها بعد ذلك من محلول الماء فانها تمتنع عن الشرب ، وتحاول الشرب مرة اخرى اذا قربناها من محلول السكر ، لان رجلها التي تغمسها في المحلول قبل محاولة الشرب توصل اليها الاحساس بأن هذا محلول سكرى وليس ماء صرفا . اى ان الذبابة عن طريق عضو الاحساس الذى في شعر الساق امكنها التميز بين الماء القراح والمحلول السكرى .

ومن الممكن تدريب الحيوانات لتمدنا بمعلومات هامة عن اجهزتها الحسية . فلنفرض اننا نرغب في معرفة قدرة الاخطبوط على تمييز رؤية الاشياء المختلفة . هل يمكنه مثلا التميز بين دائرة ومثلث ؟ وللاجابة عن هذا السؤال ينبغى ان نستفيد من حقيقتين معينتين وهما : ان الاخطبوط يهوى اكل سرطان البحر CRAB ولكنه في الوقت نفسه لا يحب ان تصدمه لمسة كهربائية .

فاذا احضرنا سرطانا مربوطا في عصا وغمسناه في حوض من الماء به اخطبوط وانزلنا مع السرطان صورة لرمز من الرموز ، في احدى المرات يكون الرمز عبارة عن مثلث وفي مرة اخرى يكون الرمز دائرة . من الطبيعى ان الاخطبوط سوف يتقدم لالتهام السرطان بمجرد غمسه في الماء . ولكن من الممكن ان نمنعه عن التهام السرطان اذا ازعجناه بصدمة كهربائية عن طريق لمسه بسلك مكهرب . فلنفرض اننا اطلقنا عليه الشحنة الكهربائية في حالة غمس السرطان والدائرة ، وتركناه يأكل السرطان دون ازعاجه بصدمة كهربائية في حالة غمس السرطان والمثلث . وبعد اعادة هذه التجربة عدة مرات مستعملين المثلث في بعض التجارب والدائرة في المرات الاخرى ، فاننا اذا وجدنا الاخطبوط ينزع نحو تجنب اكل السرطان عندما يرى معه الدائرة ، ويقبل على التهامه عندما يكون معه المثلث ، فاننا في هذه الحالة نستنتج ان لهذا الحيوان القدرة على التمييز بين الدائرة والمثلث . اما اذا لم نلاحظ اى تغيير في سلوكه في الحالتين فاننا لا نستطيع الجزم بأن الاخطبوط لم يميز بين الدائرة والمثلث ، اذ ان امورا عديدة ينبغى ان تؤخذ في الاعتبار ، فالصدمة الكهربائية قد تنفر الاخطبوط من الاقتراب نحو السرطان في الحالتين فيعزف عن التهامه .

وبالاضافة الى الطرق التشريحية والسلوكية لدراسة الاجهزة الحسية ، فان الطرق الالكتروفسيولوجية ELECTROPHYSIOLOGICAL كثيرا ما تستخدم . في هذه التجارب من الممكن قياس النشاط الكهربائي للمخ ، او رؤية الذبذبات الكهربائية لاعضاء استقبال الاحساس والخلايا الحسية . واستخدام الاقطاب الكهربائية الدقيقة تمكننا من متابعة شفرات الخلايا العصبية CODING التى تحدث عندما تنبه هذه الخلايا . وفي بعض الحالات يمكننا الاجابة عن اسئلة مثل : ما هو الفرق بين نمط PATTERN الدفعة العصبية عندما تنبه ساق الذبابة بالماء وعندما تنبه بمحلول سكرى ؟

اساسيات في وظائف اعضاء الاحساس

تتعرض اعضاء الاحساس في الحيوانات المختلفة لمؤثرات عديدة تنفعل بها اعضاء احساسها في البيئة التي تعيش فيها هذه الحيوانات . وبما أن اعضاء الاحساس والاجهزة العصبية تختلف في الانواع المختلفة للحيوانات فمن الطبيعي ان يختلف ادراكها للدنيا التي تعيش فيها عن ادراكنا نحن لها . فالخفاش الذي يعتمد على الاصوات ذات التردد العالي لكي يتبين طريقه في الظلام الدامس ، والنحلة التي ترى لونا لا نراه نحن وهو الاشعة فوق البنفسجية ، والكلب الذي يمكنه اقتفاء اثر اى حيوان عن طريق الرائحة وحدها ، والسمكة الكهربائية التي في امكانها ادراك المجال الكهربائي المحيط بها ؛ كل هذه الحيوانات المتباينة من المحقق انها تعيش في دنيا حسية تختلف عن الدنيا التي نراها ونشعر بها من خلال اعضائنا الحسية . ورؤيتنا للدنيا المحيطة بنا يتوقف على اعضاء احساسنا وبحدد من طريقها ؛ كما يتوقف على مدى كفاءة الجهاز العصبي المركزى في الحيوانات المختلفة والخبرة التي تكونت لديها .

وعلاوة على ذلك فاننا لو في استطاعتنا ادراك منبه معين فاننا لا نستطيع استيعاب شتى انواع الاحاسيس التي تتعلق نحو جهاز احساسنا ، اذ اننا قد نركز اهتمامنا نحو احاسيس معينة دون الاخرى . وهناك تجربة شيقة اجراها احد العلماء على طيور النورس . فلقد قام جريفيث سميث GRIFFITH SMITH بدراسة اربعة انواع من هذه الطيور في كندا ولاحظ انها تميز الطيور التي من نوعها عن طريق تباين اللون بين العين والرأس . لكل نوع من الانواع الاربعة حلقة عين تختلف في لونها عن حلقات عيون الانواع الاخرى . وعندما قام بصباغة هذه الحلقة بالوان مختلفة ولاحظ تقابل الذكور والاناث للتزاوج ، وجد ان الانثى تختار الذكر الذي يتشابه تباين لوني حلقتي عينيه ورأسه ، مع حلقتي عين الانثى ورأسها . وعندما قام بتغيير الوان حلقات العيون بصبغها بصبغات مختلفة امكن خداع هذه الطيور فتقابلت انواع مختلفة من الذكور والاناث للقيام بعملية التزاوج التي من المفروض انها لا تتم الا بين انثى وذكر من النوع نفسه .

تقسيم اعضاء الحس

من الممكن تصنيف اعضاء الحس تبعا لموضعها ، هناك اعضاء حس خارجية EXTRORE CEPTORS مثل العين تستقبل التنبيه من البيئة الخارجية ، واعضاء حس داخلية ENTORCEPTORS التي تدرك التغييرات داخل الجسم مثل درجة الحموضة وتركيز الايونات وتوتر العضلات وغيرها .

ولكن اعضاء الحس تصنف عادة تبعا لوظيفتها ، اي حساسيتها لنوع معين من انواع الطاقة ، كيميائية او ميكانيكية او كهرمغناطيسية ELECTROMAGNETIC ، وهذا التصنيف من شأنه ان ننظر الى اعضاء الحس على انها : اعضاء حس كيميائية CHEMORECEPTORS او ميكانيكية MECHANORECEPTORS او ضوئية PHOTORECEPTORS او حرارية THERMORECEPTORS او اعضاء استقبال الالم PAIN RECEPTORS ، ولا يعنى

هذا ان اي عضو من اعضاء الحس لا ينقل سوى نوع واحد من انواع الطاقة ، ولكنه يعني ان عضو الحس حساس لشكل من اشكال الطاقة اكثر من الاشكال الاخرى . فالعين ، ولو انها مهيأة لغرض معين وهو توصيل الرؤية الى المخ ، الا انها في الوقت نفسه تشعر بالالم عن طريق مستقبلات الضوء .

نوعية التنبيه العصبي .

يأتي التنبيه للاعضاء الحسية اما عن طريق الضوء او الصوت او الذوق او اللمس أو الشم . فعن طريق تنبيه براعم الذوق في اللسان كهربائيا يحدث الشعور بالذوق . وتتوقف نوعية التنبيه بوجه عام على المكان في المخ الذي يصل اليه العصب الصادر . فالبيانات الضوئية تحمل الى الفص البصري في المخ OPTIC LOBE في الحيوانات او القشرة البصرية في الانسان VISUAL CORTEX والبيانات الصادرة عن مستقبلات الرائحة في الانف تحمل الى الفص الشمي OLFACTORY LOBE وهكذا . والتنبيه المباشر للقشرة المخية عن طريق قطب كهربائي ELECTRODE يؤدي الى احساس نوعي . والاحاسيس من اصابع القدم او العينين او الكتفين كائنة في مناطق معينة بالمخ .

الانماط الكهربائية وقوة التنبيه

تعمل خلايا الاستقبال العصبية في محيط محدود . فالاذن غير حساسة لجميع الاصوات ، كما ان العين ليست حساسة لجميع موجات الضوء ، وقبل ان تستجيب الخلية العصبية لا بد من الوصول الى درجة معينة من التنبيه . وعند هذه المرحلة يحدث اختلاف موضعي في الجهد العصبي للغشاء الخلوي في الخلية العصبية . واذا انفعلت الخلية المستقبلة بالقدر الكافي فان جهدا كهربائيا يتكون في التفرعات الشجرية للخلية العصبية الحسية ، وهذه الدفعة الكهربائية العصبية تسير في الخلية العصبية حتى تصل الى الجهاز العصبي المركزي .

ويتوقف عدد الدفعات العصبية المحمولة عبر الخلية العصبية على قوة التنبيه . فالتنبيه الضعيف يسبب دفعات عصبية قليلة ، والمنبهات القوية تسبب عديدا من الدفعات IMPULSES والجهاز العصبي المركزي قادر على ادراك نمط الدفعة العصبية قبل الاستجابة للرسالة الواردة اليه .

الاستقبال الكيميائي

اعضاء الاحساس الكيميائية حساسة لتغير تركيز مواد كيميائية معينة . وبعض اعضاء الحس الكيميائية توجد داخل الجسم والبعض يمكننا رؤيتها خارج الجسم . واعضاء الاحساس الكيميائية الداخلية ذات اهمية قصوى ، اذ تدرك التغيرات التي تطرأ على سوائل الجسم . وعندما تنقل المعلومات الى المخ عن درجة الحموضة وتركيز ثاني اكسيد الكربون والاكسجين والسكر والاملاح فانها تدفع للحركة انماطا عصبية انعكاسية REFLEX PATTERNS تتولى ضبط عمليات التنفس والاخراج والطعام والشرب لكي تحافظ على بقاء كيمياء الدم في الحدود التي يحتملها الجسم .

اما اعضاء الاحساس الكيميائية الخارجية فانها تحافظ على اخطار الحيوان من وجود وموضع الطعام والمواد الكيميائية الضارة بالصحة، فهي لازمة لبقاء الحيوان . واعضاء الحس الكيميائية ليست معقدة ، ففي معظم الاحيان تؤدي احدى التفرعات التشجيرية في الخلية العصبية وظيفة عضو الاستقبال للمؤثر الكيميائي . وفي حالات قليلة تؤدي خلايا وظيفة استقبال المؤثر الكيميائي ، وبرعم الذوق الكائنة في السنة الثدييات (ومنها الانسان) نموذج لذلك. فاعضاء استقبال الاحساس في لسانك او لساني ليست خلايا عصبية ، بل مستمدة من خلايا طلائية EPITHELIAL CELLS (شكل ٦) . ويوجد عدد من هذه الخلايا في تجاويف متناثرة على اللسان ولمتد منها خارج اللسان اهداب دقيقة . وعندما تنبه هذه الخلايا بواسطة وجود مواد كيميائية معينة في سوائل الفم ، فان اغشية هذه الخلايا يزول منها الاستقطاب . واذا كان التنبيه شديدا لدرجة كافية فان خلايا الذوق هذه تؤثر على خلايا عصبية مجاورة لتوصيل الرسالة الى منطقة المخ المتخصصة للتذوق .

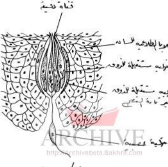
ولبراعم الذوق هذه حساسيات كيميائية مختلفة ولو انها متشابهة في التركيب . فالجزء الامامي للسان اكثر حساسية للاشياء الحلوة ، والجزء الخلفي حساس للمواد المرة . والجانبان حساسان للاشياء ذات المذاق الحامض SOUR . ويصحب الذوق دائما شم رائحة الشيء الذي تذوقه . وحاسة الشم عندنا اقوى من حاسة الذوق عشرة الاف مرة ، ولو انها تبدو ضعيفة اذا قورنت بحاسة الشم عند الكلاب .

وبخلاف براعم الذوق في الانسان نجد ان معظم المستقبلات الكيميائية في الحيوانات عبارة عن خلايا عصبية حسية . ويدرك الانسان رائحة الاشياء بواسطة خلايا العصب الشمي المدفون في بطانة الممر الانفي العلوي . عندما تنبه هذه الخلايا كيميائيا عن طريق الرائحة تنطلق الدفعات العصبية على امتداد الخلايا الى المخ . وكما في براعم الذوق ، توجد خلايا ذات حساسيات مختلفة للمواد الكيميائية ، ولكن لا توجد فوارق ظاهرية في التركيب . وفي بعض انواع الذباب يوجد عند قاعدة كل شعيرة من الشعيرات الموجودة على الارجل واجزاء الفم من خمس الى عشر خلايا عصبية وجميعها ، فيما عدا واحدة منها ، مستقبلات كيميائية (شكل ٧) ، علاوة على خلية عصبية اخرى حساسة لحركة الشعيرة.

المستقبلات الحسية الميكانيكية .

الخلايا الميكانيكية حساسة للتغيرات الميكانيكية . وهذه الخلايا الحسية تسهم في تنظيم عديد من الاحداث الداخلية والخارجية مثل : السمع وضغط الدم واللمس وتوتر العضلات والتوازن وتيارات المياه والهواء . وتتفاوت هذه الاجهزة الحسية الميكانيكية في درجة تعقيدها ، كثير منها عبارة عن خلايا عصبية اولية تقع داخل انسجة تكون عرضة للالتواء . والبعض الاخر عبارة عن اعضاء معقدة مثل الاذن الثدييات .

ومعظم الخلايا الحية تكون عرضة للالتواء والبعض الاخر مثل العضلات والخلايا العصبية قادرة على الاستجابة للمنبهات التي تسبب ازعاجا للحيوان .


الخلايا الطلائية الساندة
خلية مستقبلة للذوق
خلية مستقبلة للذوق غير تامة النضج

(شكل ٦)



شكل (٧)

وتركيب الشعيرات الحساسة في الذبابة واضح في شكل (٧) . يوجد في كل شعيرة من هذه الشعيرات مستقبل ميكانيكي على شكل خلية عصبية حسية . والمستقبل الميكانيكي الكائن عند قاعدة الشعيرة نجده في وضع مناسب للاستجابة عند كل انثناء الشعيرة . ولمعظم الحشرات شعيرات من هذا النوع منتشرة على اجسامها تعمل كأعضاء حساسة للمس . وفي بعض الاحيان توجد شعيرات مماثلة تستجيب لذبذبات ذات ترددمعين وتستخدم للسمع .

وتوجد المستقبلات الميكانيكية في جلد الفقاريات مع مستقبلات الالم ومستقبلات درجة الحرارة . ففي الثدييات ، مثلا ، توجد اطراف عارية لخلايا عصبية حول قاعدة الشعرة وتستخدم للاحساس باللمس بينما تحيط بعض الخلايا العصبية بالاوعية الدموية ويبدو انها تستخدم كمستقبلات للالم .

وتوجد مستقبلات لانبساط وانقباض العضلات في الفقاريات واللافقاريات ، وتكون على هيئة اطراف خلايا عصبية وتنبه عندما تنبسط العضلة او تنقبض ، كما توجد مستقبلات للاحساس في اعضاء اخرى بالجسم مثل الامعاء والرئتين والاوعية الدموية تخضع لحركات دورية .

اعضاء التوازن

تعتبر اعضاء التوازن في الحيوانات اعضاء مستقبلة ميكانيكية MECHANORECEPTORS تستجيب للجاذبية الارضية . وفي امكان هذه الاجهزة ان تدرك اي تغير في وضع الحيوان . وهي عبارة عن غرفة يملؤها سائل وتحتوي على حبيبات من الرمل او حبيبات جيرية . وتضغط هذه الحبيبات بحكم كثافتها على احد جوانب الغرفة لوضع الحيوان وتتحرك من جانب الى آخر داخل الغرفة تبعا لحركة الحيوان . والغرفة مبطنة بخلايا حسية ذات اهداب دقيقة ، وهذه الخلايا تنبه عن طريق الحبيبات التي تضغط عليها حيث تنشأ دفعات عصبية في الخلايا العصبية المتصلة بها . ويدرك الجهاز العصبي مكان الخلايا العصبية المرسلة للاشارة ، وبذا يدرك وضع الحيوان في هذه اللحظة . واذا اجريت عملية جراحية على احد الحيوانات مثل الاخطبوط وازيل منه عضو التوازن فان الحيوان يتخبط ويدور حول نفسه ويفقد الحركة السليمة .

وللحيوان الجمبري عضوان للتوازن يقعان اسفل كل من قرني الاستشعار الصغيرين . ويتصل تجويف هذا العضو بالخارج عن طريق فتحة ، وتوجد بداخل الفجوة حبيبات دقيقة من الرمل ترسو على شعيرات دقيقة . والجمبري يغير جلده عدة مرات في اثناء نموه ، وعندما يتخلص من جلده عند الانسلاخ فان بطانة عضو التوازن ، وهي متصلة بجدار الجسم ، تنسلخ هي ايضا وتخرج حبيبات الرمل مع هذه البطانة المنسلخة ويصبح التجويف في هذه الفترة خاليا من الحبيبات . وفي هذه الحالة يلتقط الجمبري بمخالبه بعض حبيبات من الرمل من قاع المياه التي يعيش فيها وينثرها فوق رأسه بحركة غريزية حيث تنفذ بعض الحبيبات الى تجويف عضو التوازن . فاذا وضعنا الجمبري في محتوى مائي عقب الانسلاخ مباشرة ووضعنا في قاع المحتوى المائي برادة حديد بدلا من الرمل ، فان الحيوان سوف يأخذ بمخالبه بعض هذه

البرادة ويلقى بها فوق رأســه كما يفعل فى حالةوجوده فى البحر ، فتدخل الفجوة فى هذه الحالة بعض حبيبات برادة الحديد بدلا من حبيبات الرمل . فاذا احضرنا قضيبا مغناطيسيا وقربناه من ظهر الحيوان ، فان حبيبات برادة الحـديدتنجذب الى اعلى بعد ان كانت راسية على السطح السـفلى للفجـوة . فى هـذه الحالة نجـد ان الجمبرى ينقلب ويعوم وسطحه الظهرى متجـه الى اسـفل .

اذان الفراشات والجراد وصياح الخفافيش

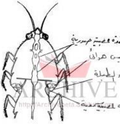
يعض الخفافيش قادرة على تبين طريقها فى الظلام الدامس عن طريق اصدار اصوات عالية التردد لا تستطيع اذن الانسان التقاطها وتستمع الخفافيش الى صدى هذه الاصوات المنبعث من اية عوائق فى طريقها فتعمل على تجنبها . ولقدوضع العلماء فى احدى تجاربهم عددا كبيرا من الخيوط ممتدة عبر غرفة مظلمة اظلاما تـامـاواطلقوا فى الغرفة عددا مـن الخفافيش التى ظلت تطير جيئـة وذهابا فى انحاء الغرفة المظلمةدون ان تصطدم باى خيط من الخيوط .

وبعض الفراشات ، وهى مـن الوجبات الغذائية المحببة للخفافيش ، فى امكانها سماع اصوات الخفافيش التى لا نسمعها نحن ، وبهذا يمكنها ان تنجو من افتراس الخفافيش لها . فاذا سمعت احدى الفراشات صوت الخفاش خافتا دل هذا على بعد المسـافة بينهما ، وعند ذلك تسرع الفراشـة بالطيران فى الاتجـاه المضـاد لمصدر الصوت . واذا كان الصوت قويا وهـذا يعنى قرب الخفاش ، فان الفراشـة وجـهازها العصبى وقدرتها على التقاط صرخات الخفاش ، وهذه الفراشـة على جانب من الاهمية لان اذن الفراشة مكونة من خليتين عصبيتين فقط ، وفى الامكان فحصها بسهولة عند استجابتها للصوت . وهذا التركيب البسـيط للاذن يختلف اختلافا كبيرا من تركيب الاذن المعقـدة التى نجـدها فى الفقاريات .

وللفراشة اذنان واحدة على كل جانب من الجسم (شكل ٨) . وتتكـون هـذه الاذن مـن غشاء طبلة مرن يبدو على سـطح جدار الجسـم يلتقط ذبذبات الهواء . وتوجد غرفة مليئة بالهواء تقع خلف طبلة الاذن مباشرة . وتوجد خيوط من الانسجة مشدودة عبر هذه الغرفة ومثبتة بطبلة الاذن ، وتوجد بداخل الخيوط خليتان عصبيتان احداهما اكثر حساسـية للصوت من الاخرى . ويحدث تنبيه للخليتين العصبيتين عندما يتذبذب غشاء الطبلة وتحمل الدفعات العصبية مباشرة الى الجهاز العصبى المركزى عبر الخلايا الحساسة للصـوت . وفى امكان الفراشة عن طريق ذبذبات الهواء لطبلتى اذنيها معرفـة الاتجاه الصـادر منـه اصوات الخفافيش .

اذن الفقاريات

تشتمل اذن الفقاريات فى الحقيقة على ثلاثة اعضاء للاحساس مجتمعة معا ، واحد للسـمع واثنان للتوازن . واحد عضوى التوازن يعطى معلومات فيما يتعلق بحركة الجسم او الراس ، والثانى يعطى معلومات عن اتجاه الراس بالنسـبة للجاذبية فى حالة السـكون . والاذن الداخليـة للانسـان مثال لذلك (شكل ٩) .



(شكل ٨)



(شكل ٩)

والفقاريات قد تعيش فى الهواء او فى الماء . وفى الحالتين نجد ان الموجات الصوتية سواء انتقلت عن طريق الهواء او الماء تجعل غشاء طبلة الاذن يتذبذب . وهذه الذبذبات ينبغى ان تحرك سائل داخل تجويف عظمى يطلق عليه فى بعض الاحيان اسم « القوقعة COCHLEA » . لانها تشبه القوقعة فى شكلها . وتذبذب هذا السائل يؤثر بدوره على خلايا ذات اهداب تنبه الخلايا العصبية التى فى العصب السمعى .

ففى حالة الاسماك تمر الذبذبات من الماء الذى تعيش فيه الى الجسم مباشرة حيث ان الكثافة متساوية تقريبا فى الاثنين . اما فى حالة الفقاريات التى تعيش فى الهواء فينبغى ان تحول الذبذبات الضعيفة التى يحدثها مصدر الصوت فى الهواء الى ذبذبات فى السائل داخل القوقعة . والتحول من ذبذبات هوائية الى دفعات كهربائية يبدأ عند غشاء طبلة الاذن . وهذا الغشاء قد يكون عند سطح الجلد كما فى الضفدعة او عند قاع قناة فى الاذن . ولمعظم الثدييات اذن خارجية خارج قناة الاذن لجمع الذبذبات الصوتية بينما الطيور والزواحف محرومة من هذه الحلية الخارجية . واول خطوة من خطوات عملية السمع هى تحويل الموجات الهوائية الى ذبذبات فى غشاء طبلة الاذن .

والخطوة التالية لعملية السمع ، وهى تحويل ذبذبات طبلة الاذن الى ذبذبات فى السائل الذى فى الاذن الداخلية ، يحتاج الى عملية تقوية تقوم بها عظام الاذن الوسطى الواقعة بين طبلة الاذن والقوقعة . ويوجد فى الانسان ، ثلاث عظام فى الاذن الوسطى هى : المطرقة والسندان والركاب . ولكن فى الفقاريات الاخرى من ذوات الاربع فلا توجد سوى عظمة واحدة فى العادة . هذه العظام تنقل الذبذبات من طبلة الاذن الى غشاء فى القوقعة يسمى النافذة البيضاوية OVAL WINDOW . وعندما يتذبذب هذا الغشاء تتحرك سوائل القوقعة بنفس التردد .

وتحدث تقوية الصوت فى الاذن الوسطى بطريقتين:

(١) تعمل عظيمات الاذن الوسطى كرافعة حيث تكون النقطة الثابتة لهذه الرافعة فى العظيمة الوسطى (السندان) . فى حين ان العظيمة المتصلة بطبلة الاذن ، وهى المطرقة ، ذات ذراع اطول من ذلك الذى فى الناحية الاخرى من نقطة الارتكاز (شكل ١٠) . وهذا يعنى ان عظيمة المطرقة تتحرك حركة محدودة ولكن بقوة كبيرة .

(٢) والشىء الاهم فى تقوية الصوت هو كون مساحة الطبلة اكبر بكثير من مساحة النافذة البيضاوية ، وعلى ذلك فان دفعة صغيرة فى غشاء طبلة الاذن تترجم الى حركة كبيرة لغشاء النافذة البيضاوية . وتتصل الاذن الوسطى بالانبوبة المسماة « قناة استكيوز EUSTACHIAN TUBE » التى تتصل بتجويف الفم ومن شأنها ان تجعل الضغط متساويا على جانبى طبلة الاذن .

وكل من مارس رياضة صعود الجبال لابد انه شعر بالفرق بين الضغط على جانبى طبلة الاذن عندما يرتفع بعيدا عن سطح الارض ، وكذلك فى حالات الاصابة بنوبات البرد والزكام عندما تقفل الافرازات المخاطية قنوات السمع .


القناة العليا
عظام الأذنه الوسطى
النافذة المستديرة
غشاء
قناة إستاكيوز
قناة الصمية
صيوان الأذنه
كوكليا ممدودة للخارج

(شكل ١٠)

وفي اثناء الخطوة التالية في عملية السمع نجد ان السوائل التي في القوقعة تحدث تنبيها للخلايا الحسية ذات الاهداب بطريقة غير مباشرة يكون من شأنه تكون جهد تنشط في الخلايا العصبية للعصب السمعي . والتركيب الداخلي لقوقعة الاذن الداخلية في الثدييات شديد التعقيد ولكن من الممكن فهمه اذا تصورنا ان لفائف القوقعة قد شدت لتصبح مستقيمة . فنجد ان القوقعة مكونة في الحقيقة من ثلاثة انابيب متوازية (شكل ٩) . القناة المتوسطة مليئة بسائل هو الاندوليمف ENDOLYMPH والقناتان الاخريان مملوءتان بسائل اقل لزوجة هو البريليمف PERILYMPH . وهاتان القناتان منفصلتان عن بعضهما بواسطة القناة المتوسطة MEDIAN CANAL فيما عدا الجزء الطرفي للقوقعة . وبناء على ذلك فان البريليمف متصل في القنوات الثلاث . وخلايا استقبال السمع المسماة الخلايا الشعرية HAIR CELLS تقع داخل القناة المتوسطة كجزء من تركيب يسمى عضو كورتي ORGAN OF CORTI (شكل ٩) . وعند قاعدة عضو كورتي يوجد غشاء يسمى الغشاء البازيلاري BASILAR MEMBRANE يمتد بطول القناة المتوسطة . ويوجد اربعة صفوف من الخلايا الشعرية عند قمة عضو كورتي . واهداب الخلايا الشعرية مدفونة في غشاء يسمى الغشاء التكتوري TECTORIAL MEMBRANE وعندما تنبه سوائل القوقعة بواسطة ذبذبات صوتية فان اختلاف الحركة في الغشائين البازيلاري والتكتوري تحرك ميكانيا بعض الخلايا الشعرية وتجعلها ترسل دفعات عصبية الى المخ عن طريق العصب القوقعي COCHLEAR NERVE وتوصل قوة الذبذبات الى قناة الطبلة TYMPANIC CANAL . وعند نهاية قناة الطبلة يوجد غشاء آخر يسمى النافذة المستديرة ROUND WINDOW . وهذا الغشاء يدفع الى الخلف والى الامام عن طريق ذبذبات السائل . وتحدد الذبذبات الواردة اي اجزاء الغشاء البازيلاري يستجيب واي الخلايا الشعرية تنشط . واذا اجتازت السائل موجات صوتية احدثتها نغمات او اصوات عالية فان اكبر تحرك او ازاحة للغشاء البازيلاري تحدث بالقرب من قاعدة القوقعة . والنغمات الاقل قوة تؤثر في مناطق تمتد من قاعدة القوقعة حتى منطقة متوسطة . والامواج الصوتية الطويلة ذات الانغام المنخفضة تنشط الغشاء بطوله . وبذا نجد تحليلا تقريبيا للنغمات الصوتية عن طريق الاستجابة الفيزيائية PHYSICAL RESPONSE للغشاء . ولكن ذلك لا يفسر قدرتنا على التمييز بين الانغام المختلفة وبخاصة اكثر النغمات انخفاضا وما زلنا في حاجة الى مزيد من البحث العلمي قبل أن نعرف عن يقين كيف تميز الاذن النغمات المختلفة . كما اننا ما زلنا غير قادرين على توضيح كيفية تحليل الاذن لاصوات بدرجات متباينة من القوة . ومن المحتمل ان الخلايا الشعرية المختلفة ذات حساسية متفاوتة حيث يستجيب بعضها عندما تكون الانغام خافتة وتستجيب خلايا اخرى عندما تكون النغمات عالية . ومن المحتمل ان الاصوات العالية تنبه ايضا بعض الخلايا الحسية لترسل دفعاتها العصبية بسرعة اكثر .

ولتحقيق التوازن فى حالة حركة الجسم توجد ثلاث قنوات نصف دائرية SEMICIRCULAR متعامدة مع بعضها (شكل ٩ وشكل ١٠) . ولكل قناة انتفاخ عند أحد طرفيها حيث يوجد عدد كبير من الخلايا الهدبية تتصل بها خلايا عصبية . ويوجد داخل القنوات سائل يتحرك من جهة الى اخرى فى حالة حركة الحيوان . ولوجود هذه القنوات النصف دائرية فى مستويات ثلاثة مختلفة فان الاجزاء المنتفخة منها تنبه بطرق مختلفة تبعا لنمط المشي فى الحيوان . والتكيف للجاذبية الارضية يحدث فى غرفة فى الاذن الداخلية تسمى يوتريكيولاس UTRICULUS تقع عند قاعدة القنوات النصف دائرية وتتصل بالقنوات الثلاث المتعامدة . فى هذه الغرفة توجد مجموعات من الخلايا المستقبلة للاحساس متصلة اتصالا وثيقا بخلايا عصبية ، وتمتد اهداب الخلايا الحسية فى الغرفة مدفونة فى طبقة جيلاتينية . وتستقر فوق سطح هذه الطبقة الجيلاتينية حبيبات جيرية OTOLITHS تقابل حبيبات الرمل فى جهاز توازن الجمبرى . وبهذا نجد فى هذه الاذن جهازا يشبه جهاز التوازن فى الجمبرى . وتغير وضع الراس يسبب ازاحة الحبيبات الجيرية محدثا نمطا جديدا من الضغط فوق الخلايا **المستقبلة الهدبية الكائنة تحت هذه الحبيبات الجيرية .**

وتتصل باليوتريكيولاس UTRICULUS غرفة أخرى مليئة بسائل تسمى ساكيولاس SACCULUS **وتتفرع القوقعة، التى سبق ذكرها من الساكيولاس** . وتوجد مجموعات من الخلايا فى كل غرفة . وتستخدم الخلايا الهدبية التى فى القوقعة للقيام بعملية السمع ، كما ذكرنا . والقوقعة قصيرة نسبيا فى الطيور والتماسيح وليست حلزونية ، اما فى الزواحف والبرمائيات والاسماك فلا توجد قوقعة . ومن الطريف ان الخلايا الهدبية للاذن الداخلية تشبه تماما مستقبلات الاحساس الميكانيكى لجهاز الخط الجانبى فى الاسماك ويرقات البرمائيات . هذه الخلايا المستقبلة للاحساس تلتقط ذبذبات الماء وهذا ما يجعلنا نظن ان الاذن الداخلية قد تكون نتيجة تطور جزء متخصص فى جهاز الخط الجانبي الحساس فى الاسماك .

مستقبلات الضوء PHOTORECEPTORS

تغمر الشمس بالضياء الكوكب الذى نعيش عليه ؛ ذلك الضياء الذى تستخدمه النباتات لتنمو وتنتج الثمار . كما تستخدم الكائنات الحية تعاقب الليل والنهار وتعاقب الفصول لتوقيت دورات حياتهم فازدهار النباتات وهجرة الطيور والتحركات اليومية للكائنات الحية الدقيقة تنظمها الشمس كما ينظم الانغام قائد الفرقة الموسيقية . ويستخدم الضياء للتنظيم والتوصيل : للنحل لكى يهتدى الى الازهار ، والحيوانات المفترسة لتعثر على فرائسها والطيور النورس لتحصل على ازواجها ، والناس لتقرا كتابا او تشاهد فيلما سينمائيا .

ويمكن تصور الضوء على هيئة حزم من الوحدات يطلق عليها فوتونات PHOTONS أو على شكل موجات متحركة ذات اطوال متباينة . والجزء المرئي من الضوء لا يمثل سوى قدر ضئيل لاشعاعات كهرمغناطيسية ELECTROMAGNETIC يطلق عليها الطيف SPECTRUM يتفاوت فى طول موجاته بين اشعة جاما ذات الموجات الدقيقة التي تحسب بأجزاء من المليون من المليمتر وموجات يبلغ

طولها عدة اميال . والضوء الذى تراه العين البشرية يتراوح فى طول موجاته بين اربعمائة الى سبعمائة نانومترات (النانومتر جزء من بليون من المتر) . وجميع الاشعاعات الكهرمغناطيسية ، بصرف النظر عن اطوال موجاتها ، يمكنها السير فى الفراغ بسرعة مائة وستة وثمانين الف ميل فى الثانية . وبهذه السرعة يصل ضوء الشمس الى الارض التى نعيش عليها فى ثماني دقائق .

ويسير الضوء فى خط مستقيم ، الا اذا اعترضه شيء . فى هذه الحالة فانه اما ان يمتص او ينعكس او يسير خلال العائق الذى اعترض مساره . وهذه العمليات الثلاث تحدث فى مستقبلات الضوء . فاذا اصطدمت الاشعة الضوئية بصخرة فان الصخرة تمتص بعض الطاقة الضوئية وتستخدم هذه الطاقة فى رفع درجة حرارة الصخرة بينما تنعكس باقي الطاقة الضوئية والاشياء المختلفة تمتص وتعكس موجات ضوء مختلفة . فاذا وقع على عيوننا ضوء منعكس فان بعضه يدخل العين حيث تمتصه خلايا حسية . وامتصاص الضوء فى هذه الحالة يتسبب فى بدء سلسلة من الاحداث الكيميائية التي تؤدى الى دفعات عصبية يتم توصيلها الى المخ .

عندما يقع الضوء على قرنية العين وسوائلها وعدستها فانه ينكسر طبقا للمبادىء الاولية لعلم الضوء . العدسة المحدبة ، تجعل الاشعة الضوئية تتجمع بينما العدسة المقعرة تجعل الاشعة تتباعد عن بعضها . وكلما ازداد تحدب العدسة ازداد انكسار الاشعة الضوئية التي تنفذ منها . وقرنية العين وعدستها تعملان كعدسة محدبة . والاشعة الضوئية المتوازية الواقعة على عدسة محدبة تنكسر وتتقارب من بعضها حتى تتلاقى فى نقطة خلف العدسة تسمى البؤرة . وعند هذه البؤرة تكون صورة المرئيات فى اقصى درجات وضوحها . واذا كان تحدب العدسة قليلا فان البؤرة فى هذه الحالة تكون اكثر بعدا من العدسة عما اذا كان التحدب كبيرا . والعيون فى تركيبها المثالي تقع بؤرة الضوء الذى يمر من خلال عدستها فوق الشبكية الموجودة فى قاع العين . فاذا تكونت الصورة امام او خلف سطح الشبكية فان الصورة فى هذه الحالة تكون غير واضحة المعالم لان الاشعة الساقطة على سطح الشبكية تكون منتشرة وغير محددة .

استقبال الضوء بدون عيون

تتفاوت مستقبلات الضوء بين اعضاء مفرطة فى البساطة واعضاء شديدة التعقيد . والخلايا بوجه عام حساسة للضوء . فحيوان الاميبا ينفعل بالضوء الشديد على الرغم من ان جسمه مكون من خلية واحدة لا يوجد بها جهاز عصبي او اية اعضاء متخصصة لاستقبال الضوء . وفى الحيوانات عديدة الخلايا نجد ان الخلايا العصبية اشد حساسية للضوء من خلايا الجسم الاخرى . وجلد عديد من الحيوانات نصف شفاف حيث تتعرض للضوء خلايا عصبية فى الجلد . والحساسية الجلدية للضوء اكثر شيوعا فى الحيوانات المائية عنها فى حيوانات اليابسة التى يغطى جسدها الريش او الشعر او جلد سميك . وفى دودة الارض نجد بعض الخلايا الحساسة للضوء منتشرة فى جدار جسم الدودة ، وهذه الخلايا تميز النور والظلام وتوصل هذا الاحساس الى الجهاز العصبي .

ومن الممكن ان يؤثر الضوء على الجهاز العصبي مباشرة دون ان يمر من خلايا مستقبلات للضوء . فضوء النهار يؤثر على تناسل الطيور . اذ تحت الظروف الطبيعية العادية فى الحقل يزداد

حجم خصى الطيور زيادة ضخمة قبل التزاوج وتعود بعد التزاوج الى حجمها الطبيعي . فاذا احضرنا بعض الطيور فى المعمل حيث يمكن التحكم فى الاضاءة فمن الممكن ان تحدث فى هذه الطيور حالة التزاوج فى غير الفصل من فصول السنة الذي يحدث فيه فى الطبيعة . وقد تتصور ان شعور الطائر بتغيرات الضوء فى المعمل حدث عن طريق عينيه ولكن الامر ليس كذلك . فلقد اتضح ان الطيور المعصوبة عيونها والمحجوبة تماما عن الضوء تستجيب للضوء نفس الاستجابة من حيث التأثير على حالتها التناسلية . ويبدو فى هذه الحالة ان بعض الضوء يتمكن من المرور من خلال ريش الرأس والعظام الرقيقة لجمجمة الطائر وينفذ مباشرة الى الجهاز العصبي المركزي .

عين اليوجلينا EUGLENA

من بين الحيوانات وحيدة الخلية لانجد اية اعضاء متخصصة لاستقبال الضوء الا فى السوطيات فاذا اخذنا حيوان اليوجلينا مثالا لذلك نجد عند الطرف الامامي لهذا الحيوان الذي يعيش فى الماء امتدادا بروتوبلازميا طويلا يسمى السوط FLAGELLUM وعن طريق حركات هذا السوط فى الماء يتحرك الحيوان . وبالقرب من قاعدة السوط توجد مجموعة من الحبيبات برتقالية اللون مع احمرار تسمى البقعة العينية STIGMA ، وهي ليست المستقبل الحقيقي للضوء ولكنها تستخدم كحاجب يظلل أحد جانبي المستقبل الحقيقي للضوء الواقع عند قاعدة السوط . وبما ان البقعة العينية تظلل جانبا من جانبي قاعدة السوط فانها تكون وحدة مستقبلة للضوء تشعر الحيوان بالاتجاه فى اتجاه معين يجلب اليوجلينا . وعندما يتغير اتجاه اتجاه حركته فى الماء . والضوء الخافت المنبعث من الشوء يغير الحيوان اتجاهه نتيجة لذلك . اذ ان اليوجلينا تتحرك فى الماء حركة حلزونية وطرفها الحامل للسوط متجهة الى الامام . وتدور اليوجلينا حول محورها الطولي . وطالما اتجهت اليوجلينا نحو مصدر الضوء فان مستقبل الضوء يظل دائما مواجها للضوء . فاذا تغير مكان مصدر الضوء فجأة عند دوران اليوجلينا فان البقعة العينية سوف تحجب الضوء عن مستقبل الضوء الحقيقي عند نقطة معينة فى أثناء الدوران . عندئذ تدرك اليوجلينا ان الضوء محجوب عنها فتغير وضعها حتى يظل الضوء واقعا على مستقبل الضوء بشكل مستمر .

العيون البسيطة

لعدد كبير من الحيوانات عديدة الخلايا مستقبلات للضوء معقدة التركيب يطلقون عليها اسم « العيون البسيطة » . وتتكون هذه العيون من مجموعة من الخلايا الحساسة للضوء تكون غالبا فى فجوة فى الرأس ومحمية بطبقة من الخلايا ذات الحبيبات . وقد توجد لها عدسة لتجميع الضوء . ووظيفة مثل هذه العيون محدودة حيث تقتصر على الشعور بالنور والظلام ولا يمكنها تكوين صور للمرئيات . وتوجد مثل هذه العيون فى الحشرات وبعض الحيوانات الأخرى مثل دودة البلاناريا PLANARIA (وهي من الديدان المفلطحة) . وتتصل محاور الخلايا الحساسة فى دودة البلاناريا بخليتين عصبيتين تمثلان المخ . وهذه الدودة قادرة على ادراك مصدر الضوء . وتوجد عيون بسيطة اكثر تعقيدا مثل تلك الموجودة فى احد انواع القواقع حيث يوجد غطاء من النسيج فوق العدسة هو « القرنية » CORNEA وهذه القرنية والعدسة يعملان معا على تركيز الضوء على طبقة الخلايا المستقبلة للضوء التى يمكن اعتبارها شبكية . ولا يكون معرضا

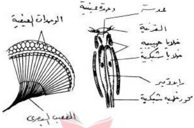
للضوء سوى جزء من الخلية الحسية . وتخترق اطراف الخلايا الحسية طبقة من الخلايا ذات الحبيبات ، بينما تقع اجسام الخلايا الحسية تحت الخلايا الحبيبية مباشرة . وتتصل محاور خلايا الشبكية بالجهاز العصبي المركزي .

توجد شعب في المملكة الحيوانية تتميز بوجود عيون يصفونها بانها مركبة COMPOUND مثل شعبة الحيوانات الرخوة MOLLUSCA وشعبة المفصليات ARTHROPODA وشعبة الحيوانات ذات الحبل الظهري CHORDATA. في هذه العيون نجد مسافة بين العدسة والخلايا الحساسة للضوء (التي) تقابل الشبكية في عيوننا) ، وهذه المسافة تسمح للضوء بتكوين بؤرة . وقد توجد في الحشرة الواحدة عيون بسيطة الى جانب العيون المركبة . وتتركب كالعيون المركبة في الحشرات من عدد كبير من الوحدات يتراوح عددها بين عدد قليل كما في عيون بعض انواع النمل الى الفين (٢٠٠٠) في حشرة الرعاش DRAGONFLIES وتتكون كل وحدة من هذه الوحدات من عدد الخلايا الحساسة في كل وحدة يختلف في الانواع المختلفة .

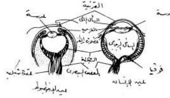
والخلايا الحساسة للضوء في العيون المركبة عبارة عن خلايا عصبية متحورة ملتفة حول محور مركزي . والوحدات الموجودة في كل عين مركبة مرتبة بجوار بعضها وتبدو مثل فصوص البرتقالة اذا شطرناها الى نصفين بعرض البرتقالة والحافة الداخلية لكل خلية حساسة تعتبر منطقة شديدة التخصص تحتوي على انابيب دقيقة تسمى رابدومير RHABDOMERE وفي بعض العيون المركبة تكون الرابدوميرات منفصلة عن بعضها بتجويف مركزي وفي البعض الاخر تندمج مع بعضها مكونة القضيبة المركزية تسمى رابدوم RHABDOME. والضوء المسلط على الرابدوم بواسطة القرنية والعدسة ينبه الخلايا البصرية (الشبكية) الحساسة للضوء فتحدث شحنات كهربائية تنتقل الى المخ عن طريق محاور عصبية . وبما ان العدسات في هذه الحالة مثبتة في مكان معين ولا تستطيع ان تتحرك او تغير تحدبها . فان الصور المرئية بالعيون المركبة في المفصليات لا ترى صورا واضحة . الا اذا كان الشيء المرئي على بعد معين من العين ، وهي ترى المرئيات على هيئة نقط متراصة مختلفة الظلال ، وكل نقطة من هذه النقط منقولة عن طريق وحدة من وحدات العين المركبة .

العيون الشبيهة بالة التصوير

يوجد هذا النوع من العيون في ارقى تركيبة في عين الانسان وباقي الفقاريات وفي الحيوانات الرخوة وبعض الحيوانات الاخرى . وتتشابه الى حد كبير عين الانسان وعين الاخطبوط (شكل ١٢) . في الحالتين نجد قرنية شفافة وطبقة عضلية هي القزحية ويوجد ثقب في وسط القزحية هو انسان العين PUPIL ينظم كمية الضوء التي تدخل العين . وفي الاثنين توجد غرف بها سوائل في الجزء الامامي والجزء الخلفي . الامامي هو السائل المائي والخلفي هو الجسم الزجاجي . والسائل والعدسة والقرنية تختص بانكسار الاشعة الضوئية حيث تتجمع الصورة على الخلايا المستقبلة للضوء في مؤخرة العين .


الوحدات العينية
وحدة عينية
عدسة
القرنية
خلايا حسيه
خلايا شبكية
رابدوم
محور خلية شبكية
العصب البصري

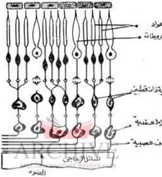
(شكل ١)

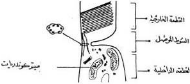

القرنية
العدسة
عدسة
السائل المائي
القزحية
عضلات
السائل الزجاجي
الشبكية
العصب البصري
عقدة شبكية
فوفيا
عين الأخطبوط
عين الإنسان

(شكل ١٢)

والعين مستديرة تقريبا ويوجد عند مقدمتها انتفاخ بسيط . **والعين لا تنمو كثيرا مع نمو الجسم** ، ولهذا تبدو عيون الاطفال كبيرة بالنسبة الى حجم وجههم ، لان الوجه يزداد كثيرا في الحجم بعد ذلك اما العين فلا تتغير كثيرا في الحجم .

ويطلق اسم الشبكية RETINA على الجزء من مستقبل الضوء في الجزء الخلفي من العين . ويوجد في العين البشرية نوعان من الخلايا المستقبلة للصورة في الشبكية يختلفان في الشكل وهما العيدان RODS والمخروطات CONES (شكل ١٢) . والحكمة في اختلافهما في الشكل غير معروفة ، ولكنهما يحتويان على حبيبات تمتص موجات ضوئية ذات اطوال مختلفة . والحبيبات البصرية كائنة على طبقات من الاغشية عند **طرف الخلية ويسمى هذا الجزء الطرف القطعة الخارجية** . والعيدان حساسة للضوء الخافت وهي المسئولة عن الرؤية في النور الضئيل . اما الخلايا المخروطية فهي التي تستقبل الالوان . ويوجد في شبكية العين البشرية اكثر من مائة مليون من العيدان وستة ملايين من المخروطات . وتتكون شبكة عين الانسان من طبقتين من خلايا العصبية . بالاضافة الى الطبقة المستقبلة الضوء (شكل ١٣) . وتتشابك خلايا العيدان والمخروطات مع طبقة اخرى من الخلايا تسمى الخلايا العصبية ذات القطبين BIPOLAR NEURONS وهذه الخلايا ذات القطبين تتشابك بدورها مع خلايا الطبقة العقدية GANGLION LAYER وتتصل المحاور العصبية AXONS لهذه الخلايا في النهاية على هيئة حزمة عصبية هي التي نطلق عليها اسم العصب البصري OPTIC NERVE وتوجد اتصالات جانبية متعددة بين الخلايا العصبية في هذه الطبقات وعلى الاخص في الخلايا العصبية المتصلة بخلايا العيدان . وقد يتصل عدد كبير من خلايا العيدان بخلية واحدة ذات قطبين . وتوجد في عيون بعض الخفافيش نحو الف (١٠٠٠) من العيدان متصلة بخلية عصبية واحدة وبهذا يتضاعف الاحساس . وهذا ما يجعل عيون الخفافيش ذات حساسية شديدة للضوء الخافت . وشبكة عيون الفقاريات ليست مصممة بالطريقة التي قد يتصورها الانسان ، اذ ان طبقة العيدان والمخروطات لا تواجه الضوء مباشرة . فالخلايا العقدية هي الاقرب الى عدسة العين . **وملايين الخلايا الممتدة من الخلايا العقدية تمر** فوق سطح الشبكية وتتقابل معا في نقطة معينة ثم تتحد معا وتغوص في الشبكية على هيئة عصب بصري يتصل بالمخ شكل ١٢ . وعند النقطة التي يتكون فيها العصب البصري لا توجد اية خلايا مستقبلة للضوء فينتج من ذلك نقطة عمياء في هذا المكان . ونتيجة لهذا التنظيم فان الضوء يتخذ المسار التالي في عيون الفقاريات : ينتقل من خلال القرنية ثم السائل المائي ، ثم ينفذ من انسان العين فالعدسية ويمر خلال السائل الزجاجي ويصل الى الخلايا العقدية للشبكية ، ثم الى الخلايا ذات القطبين ثم الى العيدان والمخروطات . وعندما تنبه هذه الطبقة الاخيرة (العيدان والمخروطات) عن طريق الضوء الواصل اليها فانها تحدث دفعات كهربائية ترتد الى الخلايا ذات القطبين والطبقة العقدية لتصل في النهاية الى القشرة البصرية في المخ . وعلى عكس ذلك نجد ترتيب طبقات الشبكية في الاخطبوط والحبار (**شكل ١٢) حيث نجد مستقبلات الضوء هي اول**


أعواد
مخروطات
خلية ذات قطبين
خلايا عقدية
ألياف عصبية
السائل الزجاجي
الضوء


القطعة الخارجية
الشريط الموصل
القطعة الداخلية
ميتوكوندريات

(شكل ١٢)

ما يستقبل الضوء ، وتوجد محاور الخلايا تخرج من الجزء الخلفي للشبكية . وسبب الوضع المعكوس في حالة الفقاريات غير معروف حتى الآن .

الاتصال الكيميائي

الهرمونات

الغدد التي نجدها في الحيوانات المختلفة عبارة عن خلايا مفردة او مجموعة من الخلايا ذات تركيب خاص ووظيفة معينة ، وهي تقوم بانتاج مواد يحتاج اليها الجسم . ومعظم الغدد تصب محتوياتها من خلال قنوات ويطلق عليها في هذه الحالة اسم الغدد ذات الافراز الخارجي . فالغدد اللعابية والكبد لهما قنوات تحمل الافرازات الى اجزاء من الجهاز الهضمي ، بينما نجد ان الاثداء وغدد العرق تفرغ افرازاتها من خلال فتحات على سطح الجسم .

بالاضافة الى ذلك توجد غدد عديمة القنوات تفرغ افرازاتها في الدم مباشرة حيث تحمل تلك الافرازات عن طريق الدم الى الاجزاء المختلفة من الجسم . هذه هي « الغدد ذات الافراز الداخلي » ENDOCRINE GLANDS ويطلق عليها ايضا اسم الغدد اللاقنوية DUCTLESS GLANDS او الغدد الصماء ، اما افرازاتها فهي المعروفة باسم « الهرمونات » HORMONES وكميات ضئيلة من هذه الافرازات ذات تأثير كبير على عديد من وظائف الاعضاء المختلفة في الجسم حيث تقوم اما بتنبيه او بتعويق تكوين ونمو وانشطة الانسجة المختلفة والتأثير على سلوك الحيوان .

والهرمون مادة كيميائية تقوم بتخليقها الغدد ذات الافراز الداخلي وتصب افرازاتها في الدم حيث تصل الى اماكن بعيدة في الجسم لتباشر مفعولها . وقبل الدخول في شرح أساسيات عمل الهرمونات ينبغي ذكر بعض الطرق التي يلجأ اليها علماء الغدد الصماء لتتبع وظائف الهرمونات . فلنفرض ان احد العلماء توقع وجود افراز هرموني في عضو من الاعضاء ، فانه يلجأ الى عمليات جراحية لاستئصال هذا العضو في احد حيوانات التجارب وملاحظة النتائج التي تترتب على ازالة هذا العضو . فاذا حدثت تغيرات معينة نتيجة لازالة العضو او تلفه من طريق المرض فان العالم في هذه الحالة يعيد الى الجسم ذلك العضو عن طريق الجراحة او عن طريق حقنه في دم الحيوان الذي استؤصل منه العضو . فاذا عاد الحيوان بعد ذلك الى حالته الطبيعية فان العالم الذي يجري التجربة يصبح في امكانه ادراك ان العضو المستأصل عبارة عن غدة لاقنوية تقوم بافراز هرمون معين ، كما يصبح في استطاعته تحديد وظيفة هذا الهرمون . وعندما يعرف التركيب الكيميائي للهرمون فان تخليقه صناعيا في المعمل يصبح امرا مستطاعا .

ومعظم انشطة الهرمونات تتآزر معا . ولذا ففي امكاننا تصور وجود جهاز هرموني مترابط شامل ، مثل وجود جهاز عصبي متصل ببعضه . ويعمل الجهاز الهرموني بالتعاون مع الجهاز العصبي لتنظيم وظائف الاجزاء والاعضاء المختلفة بالجسم . ويمكن تمثيل الترابط بين الجهاز

الهرموني والجهاز العصبي بما يحدث في احـد المصانع الكبرى حيث يكون البث السريع في الامور الفنية عن طريق العمال في اثناء العمل مناظر الدفعات الكهربائية في الجسم ، بينما التنظيمات والتخطيط الذي يحدث للمدى البعيد والسياسة العامة للمصنع تتولاها الهيئة العليا من المديرين وهذه تناظر عمل الهرمونات في الجسم ، ويوضح ذلك ، التعاون بين الجهاز الهرموني واجزاء من الجهاز العصبي . ومعظم الهرمونات ذات وزن جزيئي خفيف وتنفذ بسهولة لاحداث استجابات سريعة. ولقد اثبتت التجارب أن الهرمونات ليست نوعية بالنسبة للحيوان . فالهرمونات المستخلصة من احد الحيوانات من الممكن ان تؤثر على حيوانات اخرى . فهرمون الادرينالين مثلا ، ذو تاثير على الحيوانات وحيدة الخلية PROTOZOA ومنها الاميبا والبراميسيوم والقشريات CRUSTACEA (ومنها الجمبري والكابوريا) الى جانب تاثيره هو نفسه على الانسان والفقاريات الاخرى. ولايقتصر الامر على ذلك ، فالهرمونات المستخلصة من حيوانات من الممكن ان تؤثر على بعض النباتات . فهرمون الاوكسين AUXIN وهو هرمون النمو في النباتات يؤثر على اليوجلينا. وبعض الهرمونات المستخلصة من الحيوانات تساعد على نمو اطراف جذور النباتات . وقد توجد في اللافقاريات هرمونات لانظير لها في الفقاريات والعكس صحيح ايضا .

هرمونات الفقاريات

تختلف الغدد اللاقنوية في تركيبها وفي وظائفها . بعضها عديد الخلايا مثل الغدة الدرقية والبعض الآخر وحيد الخلية مثل الغدد الهاضمة التي تبطن الامعاء . ومن بين الغدد عديدة الخلايا نجد ان الغدة فوق الكلوية ADRENAL GLAND وكذلك الغدة النخامية PITUITARY GLAND كل واحدة منهما في الحقيقة غدتان تجمعتا معا على هيئة غدة واحدة . فالغدة فوق الكلوية ذات نخاع داخلي وقشرة خارجية . كل منهما يفرز هرمونات مختلفة ومستمدتان من انسجة جنينية مختلفة . والامر كذلك في الغدة النخامية التي نجدها مكونة من جزئين متميزين مستمدان ايضا من انسجة جنينية مختلفة وتفرزان هرمونات مختلفة . والبنكرياس عبارة عن غدتين ، احداهما ذات قناة والاخرى لاقنوية ، والغدة اللاقنوية هذه على هيئة انسجة متناثرة في البنكرياس وتسمى جزر لانجرهانز ISLETS OF LANGERHANS وهذه الخلايات تفرز هرموني الانسولين والجلوكاجون اللذين ينظمان منسوب السكر والايض METABOLISM . والجزء ذو الافراز الخارجي من البنكرياس يفرز انزيمات هاضمة تصب في المعى الدقيق عن طريق قناة .

وبعض الخلايا العصبية المتخصصة تعتبر غددا لاقنوية (صماء) . هذه الخلايا العصبية المفرزة تفرز مواد كيميائية تنبعث من اطراف محاورها AXONS وتلقى بها في تيار الدم . وتوجد هذه الخلايا العصبية المفرزة للهرمونات في اللافقاريات والفقاريات على السواء . والخلايا العصبية المفرزة للهرمونات في اسفل المهاد HYPOTHALMUS في مخ الفقاريات تسيطر على افراز هرمونات الغدة النخامية ، وبهذا فانها تنظم بشكل مباشر أو غير مباشر افراز معظم هرمونات الجسم .

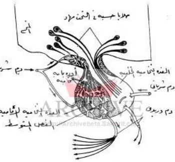
الغدة النخامية :

تتصل الغدة النخامية بالمنطقة المسماة« اسفل المهاد » في المخ عن طريق عنق رفيع (شكل ١٤) . وتتكون الغدة النخامية من ثلاثة فصوص. الفص الخلفي مستمد من نسيج عصبي ، والخلايا العصبية المفرزة التي نجد اجسامها مدفونة في **منطقة المخ المسماة « تحت المهاد » وتصنع** هرمونات ، وهذه الهرمونات تهاجر على هيئة حبيبات افرازية خلال محور الخلية وتصل الى الفص الخلفي للغدة النخامية حيث تنساب في الدم ، ويحدث الافراز عندما يسري جهد كهربائي عبر الخلية العصبية . وفي معظم الثدييات يفرز الاوكسيتوسين OXYTOCIN والفازوبريسين VASOPRESSIN من الفص الخلفي ، والاوكسيتوسين يساعد على انقباض الرحم في اثناء عملية الولادة وهو ضروري لانسياق اللبن من الغدد الثدييه .

والفصان الامامي والمتوسط للغدة النخامية غير مستمدين من خلايا عصبية ، اذ انهما يتكونان في الجنين من سقف الفم الجنيني . ولا تمتد خلايا عصبية افرازية داخل MEDIANINTER (الهرمون المتوسط) ، وهذا الهرمون يجعل جلد الاسماك والبرمائيات وبعض الزواحف قاتم اللون وذلك عن طريق تنبيه الحبيبات الملونة التي في الخلايا فتجعلها تنتشر . والفص الأمامي للغدة النخامية يفرز ستة هرمونات على الاقل **وهذه تؤثر على نمو الجسم وتكوين اللبن في ثدي الانثى** وتسيطر على غدد صماء عديدة اخرى مثل الغدة الدرقية والكظر (الغدة فوق الكلوية) والمناسل GONADS

والهرمونات المفرزة من الفصين الامامي والمتوسط للغدة النخامية تسيطر على افرازها هرمونات عصبية افرازية من تحت المهاد تسمى« عوامل الانطلاق » RELEASING FACTOR ، وهذه يقوم بتكوينها خلايا عصبية مفرزة تقع بأكملها داخل « تحت المهاد HYPOTHALAMUS وتدخل « عوامل الانطلاق » في شبكة دموية تسمى« الجهاز البابي النخامي PITUITARY PORTAL SYSTEM الذي يتصل بالفصين الامامي والخلفي للغدة النخامية . ويمر الدم مباشرة من مجموعة من الشعيرات الدموية في « تحت المهاد » خلال اوعية دموية قصيرة ليتصل بشبكة اخرى من الشعيرات الدموية في الغدة النخامية (شكل ١٤) .

والجهاز النخامي التحت مهادي ذو اهمية كبرى ، اذ يعزى اليه معظم الانشطة الفسيولوجية الكبرى . ولا تقتصر اهميته على عدد وتنوع الوظائف التي يقوم بها ، ولكن تكمن اهميته ايضا في كونه يمثل المكان الذي يتقابل فيه الجهازان العصبي والهرموني . وفي هذا المكان تتم ترجمة الدفعات العصبية الى رسائل كيميائية . وللاهمية القصوى للغدة النخامية فلقد وضعها الله في حصن حصين في قاع الجمجمة . وتسمى احيانا بالغدة الرئيسية او المهيمنة على جميع الغدد اللاقنوية MASTER GLAND تأثيراتها العديدة على عمليات **الجسم وعلى وظائف الغدد اللاقنوية الاخرى .** واختلال افرازات الفص الامامي للغدة النخامية ينتج عنه العملقة المرضية حيث يظل الانسان ينمو في الطول نموا مطردا حتى يصبح عملاقا ذا طول خارج معدل طول البشر وقد ينتهي هذا المرض بوفاة المريض .


خلايا عصبية في التحت مهاد
المخ
دم شرياني
أوعية بابية نخامية
الغدة النخامية الخلفية
دم شرياني
دم وريدي
الغدة النخامية الأمامية
الفص المتوسط

(شكل ١٤)

اساسيات عمل الهرمونات

نوعية الفعل الهرموني

يحدث تاثير الهرمونات باحداث استجابة في عضو بعيد عن مصدر الافراز يسمى « العضو الهدف »TARGETO RGAN. والتحكم العصبي والهرموني ذو تاثير نوعي ، ولكن الجهازين يرسلان تاثيرهما بطريقتين مختلفتين : فالجهاز العصبي يعمل كجهاز الهاتف (التليفون) او التلغراف (البرق) حيث تبعث الرسائل عبر خطوط مباشرة (هي الأعصاب) من نقطة الى اخرى . اما الجهاز الهرموني فيعمل كجهاز الارسال في محطة الاذاعة حيث تبعث الرسائل في كل مكان ومع ذلك فان عددا معينا من البشر يمكنهم « فهم » الرسائل والاستجابة لها . فالارسال الاذاعي المنبث باللغة اليابانية مثلا، لايفهمها الذين لايتكلمون او لايفهمون سوى لغات اخرى كالعربية او الفرنسية او الانجليزية . وبالمثل ، فان الهرمون المنطلق عن طريق الدم في جهات مختلفة من الجسم ، يؤثر على خلايا خاصة . فجزيئات الهرمون الكيميائية يجب ان تتلاءم مع مستقبلات معينة او تتشابك مع جزيئات الزيمات بطريقة خاصة قبل ان تحدث التاثير . فكل هرمون يؤثر على خلايا معينة ولا يؤثر على الخلايا الاخرى . وهذه الخلايا الاخرى قد تتاثر بهرمون آخر . ان تاثير الهرمونات نوعي بالنسبة للاجزاء او الاعضاء المختلفة للجسم . فعامل انطلاق هرمون النمو لايؤثر الا على خلايا خاصة في الفص الامامي للغدة النخامية الذي يفرز هذا الهرمون (هرمون النمو) ولا يؤثر على اية خلايا اخرى . وتوجد هرمونات معينة تحدث تاثيرا عاما بالنسبة للجسم . فالانسولين المنبعث من البنكرياس يزيد من قدرة معظم الخلايا على امتصاص الجلوكوز من الدم . وبعض الهرمونات ذات تاثير سريع بينما البعض الآخر قد تنقضي فترة من الزمن قبل ملاحظة تاثيره . وعلى سبيل المثال عندما يفرز الغدة الكظرية (فوق الكلوية) هرمون الادرينالين فان دقات القلب تسرع ، وتنقبض الشرايين الدقيقة التي في الجلد والامعاء خلال ثوان . وعلى النقيض من ذلك ، عندما تفرز الغدة الدرقية هرمون الثيروكسين فان احداث التاثير قد يحتاج الى ايام .

تواصل الاجيال

تواصل الاجيال جيلا بعد جيل في جميع الكائنات الحية عن طريق التكاثر . والتكاثر قد يتم بوسائل مختلفة ولكن الهدف في جميع الحالات هو بقاء النوع فلا تزول الكائنات الحية من الوجود . والطريقة السائدة في التكاثر هي اتصال الذكر بالانثى في عملية جنسية ينتج عنها اندماج الخلية الذكرية (الحيوان المنوي) بالخلية الانثوية (البويضة) فتتكون الخلية الملقحة التي تنقسم انقسامات متتالية حتى يتكون الكائن الحي .

وقد يحدث التكاثر دون التقاء بين ذكر وانثى . ففي الحيوانات الاولية وحيدة الخلية يتكاثر الحيوان بطريقة غاية في البساطة، اذ ينقسم كل حيوان الى حيوانين ، ويطلق على هذا الانقسام اسم « الانقسام الثنائي البسيط » . فحيوان الاميبا يتكاثر بهذه الطريقة وكذلك يفعل البراميسيوم على التكاثر بالانقسام الثنائي البسيط فانه قادر ايضا على التزاوج حيث يتلاصق

حيوانات من هذه الحيوانات ويتبادلان الانوية فيصبح احدهما وكانه الانثى والآخر وكانه الذكر . وبعد تبادل الانوية واندماج النواتان معا فى كل حيوان منهما ، ينفصل الحيوانان وتنقسم النواة انقسامين متتالين ويصحب انقسام النواة انقسام الحيوان نفسه طوليا فيتضاعف كل حيوان ويصبح اربعة حيوانات نتيجة لهذين الانقسامين . (١)

اما فى الغالبية العظمى للحيوانات عديدة الخلايا فلا بد من اتصال جنسى بين الانثى والذكر حيث تندمج نواة الحيوان المنوى مع نواة البويضة لانتاج البيضة الملقحة ، وهو ما يطلق عليه « التكاثر الجنسى » .

وتتكون الخلايا التناسلية داخل اعضاء يطلق عليها اسم « المناسل » . فالحيوانات المنوية تتكون داخل خصية الذكر والبويضات تتكون داخل مبيض الانثى . وقد تجتمع الخصية والمبيض فى حيوان واحد كما هى الحال فى معظم الديدان المفلطحة وفى دودة الارض وغيرها . فى هذه الحالة يوصف الحيوان بانه خنثى . وفى بعض انواع الاسماك وبعض الحيوانات الرخوة نجد ان المنسل الواحد ينتج حيوانات منوية وبويضات بالتناوب .

والحيوانات المنوية والبويضات تختلف فى الحيوانات المختلفة فى الشكل والحجم . فالبويضة كروية او بيضوية الشكل وغير متحركة وقد تحتوى على مح لتغذية الجنين . واكبر البويضات حجما توجد فى سمك القرش اذ يبلغ قطر الواحدة منها ١٤٠ الى ١٨٠ ملميترا . بينما نجد ان قطر بويضة انثى الانسان نحو ١٥ر. مليمترا .

والحيوانات المنوية متحركة ولديها القدرة على السباحة فى السوائل ، وهى مادة جنطية الشكل واصغر بكثير فى الحجم من البويضات . ويبلغ طول الحيوان المنوى فى الانسان نحو ٥٢ الى ٦٢ ميكرون (الميكرون جزء من الف من المليمتر) وحجم الحيوان المنوى بالنسبة للبويضة فى الانسان هو ١ الى ١٩٥٠٠٠ (واحد الى مائة وخمسة وتسعين الفا) ويمكن ان يوضع فى احدى القبعات العالية TOP HATS عدد من بويضات انثى الانسان يبلغ عدد جميع سكان الكرة الارضية فى الوقت الحالى . والحيوانات المنوية التى تماثلها فى العدد من الممكن وضعها فى الكستبان الذى يوضع فى طرف الاصبع عند الخياطة !

ومن المعروف انه فى انوية خلايا جميع الكائنات الحية سواء اكانت حيوانات او نباتات ، يوجد عدد ثابت من الكروموسومات CHROMOSOMES ويختلف عددها فى الانواع المختلفة . وعدد هذه الكروموسومات فى خلايا جسم الانسان ستة واربعون كروموسوما . وعندما تتكون الحيوانات المنوية والبويضة فى المناسل يختزل الى النصف عدد هذه الكروموسومات فى كل من الحيوانات المنوية والبويضة فيصبح ثلاثة وعشرون كروموسوما . وعند التلقيح ، حيث تندمج نواة الحيوان المنوى بنواة البويضة ، تتكون الملقحة ويعود عدد الكروموسومات الى العدد الاصلى

---

(١) تعمدت تبسيط طريقة التكاثر التزاوجي للبراميسيوم ، الا انها اعقد من ذلك ، لان جسم حيوان البراميسيوم المكون من خلية واحدة يحتوى على نواتين بدلا من نواة واحدة . وهذه صفة عامة للطائفة الهدبيات التى ينتمى اليها البراميسيوم .

الموجود في جميع خلايا جسم الانسان فيصبح ستة واربعون كروموسوما ، وهو مجموع كروموسومات الحيوان المنوى والبويضة (٢٣ + ٢٣) ويطلق على الخلية الملقحة اسم الزيجوت ZYGOTE وتشتمل عملية التلقيح على دخول نواة الحيوان في البويضة (حيث يترك ذيله الطويل الرفيع خارج البويضة) ، الى جانب عمليات فسيولوجية تحدث في كل من الحيوان المنوى والبويضة . ولا يلقح الحيوان المنوى عادة سوى بويضة انثى من نفس نوعه . وعملية التلقيح تنبه الزيجوت لكي يبدأ سلسلة من الانقسامات بطريقة تسمى « الانقسام غير المباشر » حيث يوجد في كل خلية من الخلايا الناتجة عن الانقسام ستة واربعون كروموسوما في حالة الانسان . وتوجد على الكروموسومات ما يسمى بالجينات GENES التي تحمل عوامل الوراثة . ووجود نصف عدد الكروموسومات من الاب والنصف الثاني من الام يهيىء الفرصة لوراثة بعض الصفات من الاب واخرى من الام . وتدل التجارب على ان الجزء الخارجي للبويضة يفرز مادة هي الفيرتيليزين FERTILIZIN تجذب نحوها الحيوانات المنوية . ولا يوجد في الجهاز التناسلي للانثى سوى بويضة واحدة ينجذب نحوها عدد هائل من الحيوانات المنوية التي تتسابق لدخول البويضة ، ولكن حيوانا منويا واحدا هو الذي يفوز بتلقيح البويضة حيث تندمج نواته مع نواة البويضة .

والتلقيح قد يكون خارجيا او داخليا فهو خارجي في بعض الحيوانات وداخلي في حيوانات اخرى . ففي حالة التلقيح الخارجي قد تطرح الحيوانات المنوية والبويضات في الماء الذي تعيش فيه الحيوانات كالاسماك وبعض الحيوانات الاخرى . او قد يوجد الذكر والانثى قريبين من بعضهما عندما تخرج الحيوانات المنوية والبويضات . او قد يتعانق الذكر والانثى وتخرج الحيوانات المنوية والبويضات الى الخارج في هذه اللحظة حيث تتم عملية التلقيح كما يحدث في الضفادع .

اما في حالة التلقيح الداخلي فقد يلقى الذكر حزما من الحيوانات المنوية في قاع بركة او مجرى من الماء ويؤخذ واحد او اثنان منها داخل الحوصلة المنوية كما في حالة السلمندر . او قد يدخل الذكر الحيوانات المنوية داخل مهبل الانثى لتلقح فيما بعد البيض في القناة التناسلية للانثى كما يحدث في الديدان الخيطية NEMATODA وبعض الحيوانات الرخوة والمفصليات وبعض الاسماك وجميع الزواحف والطيور والثدييات . والتلقيح الداخلي ضروري لحيوانات اليابسة ، اذ ان الحيوانات المنوية لا بد لها ان تعوم في وسط سائل وهذا لا يتوافر في هذه الحالة الا داخل الجهاز التناسلي للانثى .

التلقيح الصناعي

قد يكون التلقيح صناعيا لا طبيعيا . في هذه الحالة قد نحصل على حيوانات منوية من احد الذكور ونضعها في مهبل الانثى لاحداث الحمل . وتستعمل هذه الطريقة كثيرا لبعض الثدييات الاليفة التي نعنى بتحسين نتاجها حيث يمكن توصيل عدد كبير من الحيوانات المنوية التي نحصل عليها من احد الذكور الذي يتميز بصفات مرغوب فيها ونلقح بها عشرات من اناث هذه الحيوانات بدلا من قصرها على عدد قليل منها كما يحدث في التلقيح الطبيعي . وبهذا

تنقل الصفات المطلوبة الى عدد كبير من الاناث فينتج بذلك تحسين نسل هذه الحيوانات . والحيوانات المنوية التي نحصل عليها بهذه الوسيلة من الممكن ان تشحن في السفن الى اماكن بعيدة لاستخدامها لهذا الغرض . ونحو سبعة ملايين من الابقار تلقح تلقيحا صناعيا كل عام في الولايات المتحدة . ومن الممكن ايضا تحت رعاية طبية استخدام التلقيح الصناعي في الانسان في حالات خاصة مثل عقم احد الازواج او عندما يتعذر الحمل الطبيعي لاى سبب من الاسباب .

انواع خاصة من التكاثر

قد يحدث التكاثر في بعض الحيوانات عديدة الخلايا دون حاجة الى التقاء الانثى بالذكر ، ويسمى هذا التكاثر بالتكاثر البكرى PARTHENOGENESIS يوجد مثل هذا التكاثر في بعض الحشرات كالمن والتربس THRIPS وبعض الخنافس وعديد من النمل والنحل والدبابير وبعض الحيوانات القشرية . فللمن (قمل النبات) APHIDS دورات ينتج فيها اناثا ، دون تلقيح في فصلى الربيع والصيف ، وبعد ذلك تأتى دورة بها ذكور اناث عن طريق التكاثر البكرى وتتزاوج الاناث والذكور بالطريقة العادية وتضع الاناث بيضا ملقحا يفقس لتخرج منه اناث في الربيع التالى وتستمر هذه في التكاثر البكرى . وتنتج ملكة النحل بيضا ملقحا تخرج منه اناث قد تصبح ملكات او شغالة ، ولكنها تضع ايضا بيضا غير ملقح تخرج منه ذكور .

وقد تنتج يرقات بعض الحشرات يرقات اخرى ، وهذه اليرقات الجديدة تنمو وتنتج يرقات اخرى ، وبعد بضع دورات تكمل اليرقات نموها وتتحول الى عذارى ثم الى حشرات تامة النمو يلقح فيها الذكر الانثى بالطريقة العادية . ثم يتوقف النمو في اليرقات الناتجة عن هذا التلقيح فلا يتعدى الطور اليرقى حيث تنتج هذه اليرقات يرقات اخرى ... وهكذا .

وقد تفشل بعض يرقات السلمندر في بلوغ الطور الكامل فتتكون فيها اعضاء تناسلية وتتزاوج فيما بينها وكأنها حيوانات تامة النمو وتنتج بيضا ملقحا . والبيض التام النمو غير الملقح لبعض قنافذ البحر والضفادع وحيوانات اخرى من الممكن تنبيهه بوسائل خاصة فتجعله يتصرف وكأنه بيض ملقح لينتج حيوانات عن طريق التناسل البكرى دون حاجة الى ذكر . والتنبيه قد يكون عن طريق الحرارة او الاحماض العضوية المخففة او بوضع البيض في ماء به املاح ذات تركيز معين او اذا وخزنا بيض الضفادع بابرة او دبوس .

وقد يفقس بيض بعض الحشرات ليخرج من البيضة الواحدة اكثر من حشرة وهذا يقابل التوائم المتماثلة في الانسان . وفي الحشرات غشائية الاجنحة HYMENOPTERA (ومنها النحل والدبابير) انتج بعض البيض جنينا واحدا ، بينما انتجت البيضة الواحدة في بعض الاحيان نحو الف جنين !

اتصال الحيوانات ببعضها

قد يحدث اتصال بين افراد النوع الواحد من الحيوانات او اتصال بين الانواع المختلفة اما عن طريق الرائحة او الصوت او الرؤية . ولقد كتبت عن هذا الموضوع مقالا بعنوان « لغة الحيوان » نشر بالعدد الثانى من المجلد السابع لمجلة « عالم الفكر » عام ١٩٧٦ .

المراجـــع

BIOLOGY by CLYDE HERREID
GENERAL ZOOLOGY by GAIRNER B. MOMENT
ZOOLOGY by COCKRUM AND MCCAULEY
INSECT HORMONES by V.J.A. NIVAK
AN INTRODUCTION TO ANIMAL BEHAVIOUR by AUBEREY MANNING
FROM SAD TO GLAD by NATHAN KLINE
STUDIES IN INVERTEBRATE BEHAVIOUR by S. M. EVANS.
GENERAL ZOOLOGY by STORER & USINGER.
THE CELL by JOHN PFEIFFER and THE EDITORS OF LIFE.
ANIMAL BEHAVIOUR by DETHIER and STELLERA
ALL ABOUT THE HUMAN BODY by BERNARD GLEMSER.

أسرار الحياة : تأليف أنتولى شفارتز . ترجمة زكريا فهمي .

مشكلات تمير العلم : تأليف سرجون آرثر طومسون ترجمة زكريا فهمي .

جولة عبر العلوم : تأليف ج.ن. ليونارد . ترجمة السيد القمري .

رسالة من المخ : تأليف حاتم نصر فريد .

* * *

وسائل الاتصال الحديثة وأبعاد جديدة لانسان القرن العشرين

طه محمود طه

استاذ الادب الانجليزي بجامعة الكويت
استاذ الادب الانجليزي السابق بجامعة عين شمس

١ ــ الوسائل : ماهي ؟

يقول مارشال ماكلوان (١) : « ان الكلمة المنطوقة تستثير الحواس الخمس في المستمع بشكل درامي » . وفي استفتاء عن الاذاعة قال احد المستمعين : « اني اعيش فعلا داخل الراديو وانا استمع اليه . ان من السهل علي الاندماج مع الراديو اكثر من اندماجي مع كتاب» . ولبرتولت برشت قصيدة يقول فيها :

أيها الصندوق الصغير ، احتضنتك وانا أبغي الفرار

لكي أصون صماماتك من الدمار ،

حملتك من بيت الى سفينة ، ومن سفينة الى قطار

حتى يواصل أعدائي حديثهم لي باستمرار ،

الم ، الم هو ابدا به النهار ،

وهو آخر شيء في ليلي ، عن حلاوة الانتصار ،

وعن همومي وقلقي . سعتني الا تخيب رجائي الحار ،

وتصمت فجأة ، الى الابد ، دون انذار .

ان الاستماع للراديو او مشاهدة التلفزيون او قراءة كتاب ــ وكلها صور من تكنولوجيا العصر الحديث ــ يعني بالضرورة احتضانها كما يقول لنا برشت . ويواصل الانسان الحديث

(١) McLuhan M. : Understanding Media , London 1970 p. 298.

تطوير هذه الوسائل ويتطور بها ، يحبها وتبادله الحب بتلبية رغباته وتحقيق امنياته . « ويصير الانسان ... كالنحلة في عالم النبات حاملا اللقاح في عالم الآلة يساعدها على التوالد والانتاج الجديد المستمر » . (٢) هذا ما يطلق عليه التطور الجديد في عالم وسائل الاتصال . ووسائل الاتصال قديمة قدم الطبول البدائية والايماءات واشارات الدخان . وكان تطورها في بادىء الأمر بطيئا ، ولكنها خطت خطوات سريعة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وها نحن نشاهد ذروتها الآن ، وما خفي كان اعظم .

البداية: ولكي ندرك مداها ومغزاها علينا ان نلم بخطوات تطورها بشكل مختصر . ففي عام ١٧٧٦ عندما اعلنت الثلاث عشرة ولاية امريكية استقلالها انتقلت اخبارها للناس بوساطة الكلمة المنطوقة (شفاهيا) ، وكان معظم الامريكيين من الأميين . كانت المطبوعات قليلة جدا يشتريها قلة تقرأ من الناس . وكانت الصحف تقرأ بصوت عال في البارات والحانات . لم تكن المطبوعات صحفا بالمعنى الذي نعرفه اليوم ، بل كانت تتكون من اربع صفحات صغيرة حروفها ملطخة بحبر الطباعة وتصدر اسبوعيا واحيانا دون انتظام . وغالبا ما كانت تبدأ كمشروع فردي ملك رجل واحد ـ الطباع . وبمطبعة خشبية يدوية وصندوق للحروف وما يلزم من ورق يصبح مستعدا لطبع ما يرى من اخبار ونشرها . كانت المادة الصحفية تتكون من مقالات القراء ورسائلهم وبعض الاعلانات ، ولها جمهور تتراوح ما بين ٥٠٠ الى ٨٠٠ مشترك . لم يكن لديه ما يكفيه لا من الورق ولا من الآلات السريعة ليطبع نسخا اكثر ، فقد كانت وسائل الطباعة التي استعملها جوتنبرج عام ١٤٥٦ هي السائدة ، ولم يكن هناك ما يدعو لتغييرها .

في عام ١٨٤٠ بدأت الاعلانات تغزو المجال الصحفي ، ولمدة طويلة احتلت اعلانات الادوية (خاصة دواء السعال والمروخ ودهان الروماتيزم) مساحة كبيرة ، وجنى منها متعهد الاعلانات ربحا لا بأس به . واثناء الحرب الاهلية استغلت وزارة الخزانة هذه الصحف للترويج لبيع سندات الحرب . ومع زيادة عدد المهاجرين والازدهار النسبي في الصناعة ، وافتتاح مدارس جديدة زاد عدد القراء . وظهر الكارتون الملون المصور ليجتذب مئات الآلاف من القراء . ومع نهاية القرن التاسع عشر اخذت الصحف ترسل مندوبيها للبحث عن الاخبار والاعلانات بدلا من انتظار الانباء تأتي اليها . واختفت « الصحافة الشخصية » وحلت محلها صحافة محايدة ضخمة . وساعدت الآلات الجديدة على نمو العملاق المصور ، وانتشرت المطبوعات التخصصية من صحف ومجلات وكتب .

---

(٢) Ibid. p. 46

الصورة المتحركة : اثار الانجيل المطبوع بطريقة جوتنبرج من حروف طباعة متحركة العجب في ألمانيا اول ما ظهر ، وفي ايطاليا ادهش الناس اختراع آخر . كان هذا الاختراع الإيطالي لعبة لا تمت بصلة من قريب او من بعيد لأي وسيلة جديدة في الاتصال او نشر الأخبار والمعلومات . افاد ليوناردو دافينشي انه اذا دخلت حجرة مظلمة في يوم مشمس في احد حوائطها ثقب صغير امكنك مشاهدة انعكاسات العالم الخارجي من اشياء ثابتة ومتحركة على الحائط المقابل للثقب . وظهر هذا الاختراع في كتابه **السحر الطبيعي** الذى اصدره جيوفاني باليستا ديلا بورتا عام ١٥٥٨ . وبعد سنوات اصبح معروفا انه لو وضعت عدسة بدلا من الثقب لساعدت على توضيح وتحديد الصورة . جمهورنا الموجود اليوم في دار للعرض السينمائي يشبه الجمهور الذى كان يشاهد هذه الصور المنعكسة من خلال ثقب في الحائط في الماضي ، مع فارق واحد : وهو ان الصورة القديمة كانت مقلوبة . وصندوق التصوير الحديث كان يسمى الحجرة المظلمة ، والمجموعة التى تشاهد هذه الصور المتحركة في الصندوق تشبه الاسرة في العصر الحديث وهى تشاهد التلفزيون .

وجاء الطلب لهذه الصورة في اوائل القرن ١٩ بعد ان تطورت علوم الكيمياء وتجح لتحميض الافلام وطبعها . فلزمن طويل كانت الصورة او اللوحة الزيتية على الحائط رمزا للارستقراطية والمكانة الاجتماعية ، وكانت نوعا من **الاعلان** من الذات . وكان من الطبيعى ان يرغب التاجر الثرى او العامل اليدوى الذى اصبح صاحب مصنع متواضع في اقتناء هذا الرمز للمنزلة الرفيعة في المجتمع . ففي مطلع القرن التاسع عشر كان الطلب على هذه الصورة ينمو بشكل ملفت للنظر . واتجه الفنان الويس داجير Louis Daguerre (١٧٨٧ — ١٨٥١) الى الكيميائي جوزيف نيبس Joseph Niepce (١٧٦٥ — ١٨٣٣) وحصل بمعاونته على اول صورة فوتوغرافية عام ١٨٣٨ . واستمر التعاون بين الكيميائي والفنان حتى اصبح في عام ١٨٥٠ اكثر من ٧٠ من استوديوهات التصوير في مدينة نيويورك وحدها . وفي عام ١٨٦٠ استعملت الكاميرا في الحرب الاهلية الامريكية وشاركت في اثراء عمل المراسل الصحفى . وفي عام ١٨٧٠ تراهن محافظ كاليفورنيا ليلاند ستانفورد بان الحصان الذى يسرع العدو يرفع ارجله الاربعة عن الأرض في لحظات معينة دفعة واحدة . ولكي يثبت ذلك لجأ الى ادوارد مايبردج Maybridge الذى وضع سلسلة من آلات التصوير في صف واحد بطريقة تسمح بتصوير الحصان في تتابع سريع وهو يمر بكل واحدة منها . واثبتت الصور صحة نظرية ليلاند وكسب الرهان . وفي عام ١٨٨٠ امكن من ان يعكس هذه الصور على شاشة للعرض واطلق على آلته اسما غريبا Zoopraxiscope « آلة عرض حركات الحيوانات » . ولم يكتب لطريقة العرض النجاح ، فقد كانت تتطلب عددا كبيرا من آلات التصوير . (٢)

في عام ١٨٨٩ سمع توماس اديسون عن انتاج جديد طوره جورج ايستمان : وهو عبارة

---

(٢) Giedion S. : Mechanization takes Command, London, 1970 pp. 20-23.

عن شريط طويل من الفيلم الخام بدلا من لوح واحد لكل لقطة ، وارسل فى طلب احدها ، وبعد اشهر اخترع اديسون ما اطلق عليه Kinetoscope ـ الصورة المتحركة والتى نعرفها بالسينما اليوم : نوع من صندوق الدنيا. وسرعان ما خاطبت الصور المتحركة قلوب المهاجرين الجدد فى امريكا وساعدتهم على تأقلمهم فى وطنهم الجديد . وكان من العناوين المهمة للافلام فيما بين عام ١٩٠٤ ، ١٩١٤ : « معالجة البطالة بالسينما » ، « المواطن الصالح بالصور المتحركة » ، « الصور المتحركة فى الكنيسة وخارجها » « الصور المتحركة تزيد الانتاج » وهكذا .

تطور جديد فى صناعة السينما : حتى عام ١٩٠٨ كانت الكاميرا ثابتة تلتقط المناظر من بعد أو من مسافة متوسطة دون التوكيد على **التفاصيل** ، وكان المشاهدون يرون صور المناظر والممثلين كما لو كانوا على خشبة المسرح. وفجأة وفى اثناء احد المناظر اتت لقطة قريبة ، لتملأ اطار الشاشة ، فأحدثت ضجة بالغة واثارت اهتمام النظارة بفعاليتها المفاجئة : وولد تكنيك **اللقطة القريبة** . وتعتبر **اللقطة القريبة** فى عالم الاتصال محاولة لاشراك **الجمهور فى علاقات حميمية مع الممثلين والابطال فى الفيلم** . وسرعان ما امتلأت الافلام **باللقطات القريبة**. وبدأ الجمهور يتعرف على تفاصيل تقاطيع وجوه **الممثلات بدقة** الحواجب ، العيون ، شكل **الانف والشفتين**. ولا عجب ان اسطورة **النجم السينمائى** بدأت بعد اكتشاف المخرج جريفيث **لأهمية اللقطة القريبة** . وتبع ذلك تطور آخر : ففى الماضى كان يعلن عن الافلام باسمائها فى العناوين الضخمة على دور العرض وفى الملصقات ، اما الآن فقد تصدر اسم النجم او النجمة الملصقات العريض: ماري بيكفورد فى فيلم كذا ، ووقع شارلى شابلن عقدا عام ١٩١٧ بمبلغ ٦٧٠ر٠٠٠ دولار فى العام ، واصبحت مولود عاصمة السينما .

وتطورت آلات التصوير والعرض من ٣٥مم الى ١٦ مم ، بل طرح فى الاسواق آلات للعرض من مختلف القياسات ٢٨ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٥ر١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١١ ، ٥ر٩ مم وادى ذلك الى خلل بل وشلل فى حركة البيع ، الى ان تم الاتفاق عام ١٩٢٣ على ١٦ مم . ودخلت بعض الادارات الحكومية والهيئات والمؤسسات ميدان الانتاج السينمائى . ولكن مع هذا **الازدهار** فى عالم السينما كوسيلة من وسائل الاتصال لم يحدث ان انخفض الاقبال على القراءة والمطبوعات، بل صدرت مجلات سينمائية جديدة تعلن عن الافلام وتروج لها وبدأت الصحف التى كانت تخشى منافسة السينما فى بادىء الأمر فى الاعلان عن اخبار الممثلين لتجتذب عددا اكبر من القراء. وجاء الفيلم الناطق عام ١٩٢٦ ثم الملون ثم السينماسكوب والتلفزيون والمايكروفيلم ليسهل خزن المعلومات ، ومن بعده الفيديو والشريط الممغنط .

الاشارات السلكية واللاسلكية : اشتمل كتاب **السحر الطبيعى** على وصف للتلغراف ، واقترح جيوفانى باليستا تركيب جهاز لارسال الاشارات باستعمال المغناطيسية ، ولقيت هذه الفكرة بعض التحسين ولكنها ظلت مجرد حلم لتحققه فيما بعد المعرفة المتنامية بعلوم الفيزياء والحاجة الملحة لوجوده . وجاءت المعرفة والحاجة فى القرن ١٩، وامكن عن طريق الكهرومغناطيسية الوصول الى اختراع التلغراف . وقد عجل بهذا الاختراع انتشار الانتاج والتوزيع بالجملة،

بل وجعله من الضرورى . فلم يكن هنالك فى قبل ابدا تلك الحاجة الملحة لهذه السرعة فى ارسال واستلام الرسائل لمراكز الانتاج والتوزيع البعيدة . فاينما كانت مراكز الصناعة والانتاج وجد الناس انهم يعتمدون على ما يجرى فى اماكن بعيدة : مراكز الموارد الطبيعية ، الاسواق المالية ، اسواق التوزيع الخ . وتطلب هذا النوع من الاتصال السريع (البرقى فيما بعد) اكثر من حامل رسائل على ظهر حصان ، او رسالة فى رجل الحمام الزاجل ، او مظروف فى عربة بريد فى قطار بخارى . **لقد اصبح الاتصال السريع مسالة حياة او موت .**

هكذا تمهد الطريق لوصول صامويل مورس وهو من اوائل المهتمين بالاتصال ، وكان واحدا من عمال التصوير بطريقة داجير فى عام ١٨٣٠ ، وفى عام ١٨٤٤ دق على مفتاح مورس اول رسالة من واشنجتون الى بالتيمور ، واصبحت ايام « الحصان الاكسبريس » The Pony Express والحمام الزاجل معدودة . وسرعان ما اخذت الاسلاك التلغرافية العلوية تمتد من مدينة الى اخرى — بمحاذاة خطوط السكك الحديدية فى اغلب الاحيان — بل وامتدت الكابلات تحت سطح الماء . واصبحت الاسلاك التلغرافية تنتشر كجهاز عصبى يعتبره كثير من المفكرين وكانه حدث بيولوجى فى غاية الاهمية ، يشبه الى حد كبير انتشار قرون استشعار الكترونية تحتضن الكرة الارضية الآن ، لسبر اغوار الفضاء وتصل الى ما هو تحت الارض .

التلغراف والصحافة : وبظهور التلغراف ظهرت الصحافة الحديثة التلغرافية فى اسلوب تصميم صفحتها **الاولى** التى تتكون من خليط من الاخبار القصيرة المتنوعة لا يوحدها سوى تاريخ الصدور : عرس ينتهى بمعركة ، العربى يحتج والعروس تبكى : **الجدة ، ٥٩ ، تحصل** على الثانوية العامة : تقدم احدى عينيها لزوجها الضرير : فتاة ، ١٢ سنة ، **تفوز بسيارة** ، ولكنها لن تقودها ، هذا بالاضافة مثلا الى الاخبار السياسية والطقس وحكمة اليوم الخ . اما الصفحة التقليدية (فى جريدة الاهرام مثلا) فتختلف اختلافا كبيرا عنها فى جريدة الأخبار . كذلك فى الرسم ، ظهر فى مطلع القرن المذهب الانطباعى عند سيورا الذى لجأ الى الرسم بالتنقيط Pointillisme . والصور التى رسمها سيورا ومونيه ورنوار تشبه الى حد كبير الصور المرسلة باللاسلكى ، وتظهر فى الصحف وبعض المجلات ، والصورة التى تظهر على شاشة التلفزيون من حيث تركيبها من نقط وشرط (شكل ١) وتختلف فى تكوينها عن الصورة الفوتوغرافية .

ولحق التلفون بالتلغراف : ما ان حل عام ١٨٧٦ الا وكان **اسكندر جراهام بيل** يشرح للناس كيف يمكن لهذه الأسلاك ان تحمل الصوت ، بالاضافة الى النقط والشرط فى اشارات المورس التلغرافية . وتعاون التلغراف والتلفون على سرعة انتشار التوسع الجغرافى للعمل والانتاج والتوزيع ، ومن لم اخذا يولدان ضغطا جديدا لمزيد من وسائل الاتصال . وسارت هذه الضغوط فى اتجاهات مختلفة . اوصل اديسون ابرة الى التلفون واخذ يدرس امكانيات حفظ ذبذبات الصوت ، اولا ، على لوح من القصدير واخيرا من الشمع حتى يمكن اعادة استعماله . ووجد مجالات لتطوير اختراعه فى المجالات التجارية والتعليم .



(شكل ١)

وفي عام ١٨٩٦ اكتشف ماركوني ان شفرة التلغراف يمكنها ان تلف حول العالم دون اسلاك او كابلات ، وسرعان ما تمكن الكلام ايضا من الدوران حول العالم . وبدأت التجارب على الموجات اللاسلكية في كثير من الدول .

الراديو : لم تكن المحطات التي انشئت في بادىء الأمر للارسال والاستقبال اللاسلكي تهدف الى بث برامج اذاعية للترفيه والتثقيف . كانت شركات الشحن تستعمل هذه الاجهزة لتوجه سفنها المحملة بالموز وغيره الى اسواق مربحة حسب قانون العرض والطلب ، وذلك بالاضافة الى النشرات الجوية . وكان الراديو يستعمل ايضا بين وحدات الجيش لنقل المعلومات والاوامر والتنسيق بين الوحدات في الدفاع والهجوم . ولكن الحرب العالمية الاولى ابرزت امكانيات الراديو في مجالات اخرى : عمليات الانقاذ في عرض البحر ، التجسس ، اكتشاف المهربين ، توجيه الطائرات الى اماكن الرحالة المفقودين ، تبادل الرسائل بين الجزر . ولكن الى ذلك الحين لم يفطن احد الى امكانيات الراديو الترفيهية ، او في اذاعة الاخبار ، او في الاعلان والاتصال بالملايين ، الا في خيال قلة من الناس . وبتصادمت متطلبات التصنيع والتجارة والانتاج بالراديو في اتجاه معين ، اتجه بعض الحالمين الى آفاق اخرى .

ففي عام ١٨٧٧ وبعد اختراع التلفون ، نشر احد رسامي الكاريكاتير رسما عنوانه «اهوال الهواتف» او خطيب المستقبل وهو يزعق في ميكروفون ليسمع صوته (من طريق الأسلاك في ذلك الوقت) في لندن وباريس ودبلن وبتروغراد وسان فرانسيسكو وبكين وبوسطون وغيرها من العواصم والمدن الامريكية ومدن العالم كله . وبالطبع لم يأخذ الناس هذه الرؤية الكاريكاتيرية على محمل الجد (شكل ٢) . وكان على العالم أن ينتظر حتى عام ١٩١٢ ، وكان ديفيد سارنوف بجوار جهازه اللاسلكي عندما وصلت اخبار اصطدام السفينة تايتانيك بجبل من الثلج . وفي عام ١٩١٦ أرسل هذا الرجل الى رؤسائه خطابا يقول فيه :

« لقد خطرت لي فكرة استعمال الراديو منزليا ... والفكرة هي جلب الموسيقى الى المنزل بطريق الراديو ... فيمكن تصميم الراديو على شكل صندوق موسيقى مزود بمفاتيح لتلتقط موجات مختلفة الطول ، يمكن تشغيلها بالضغط عليها . وهذه الطريقة يمكن استغلالها في مجالات اخرى وعلى سبيل المثال : الاستماع الى محاضرات في المنزل ، وستكون في غاية الوضوح كذلك يمكن بث نشرة عن اهم الاحداث القومية ، كما يمكن لنتائج مباريات البيسبول ان تذاع على الهواء ... هذا الاقتراح سيكون له اهمية خاصة بالنسبة للمزارعين ولغيرهم ممن يسكنون في اماكن نائية » .

كانت هذه الافكار نوعا من الاحلام في عام ١٩١٦ . وحتى في عام ١٩١٩ عندما تشكلت هيئة RCA لم يكن هدفها « الموسيقى ... المحاضرات ... او الاحداث القومية » ــ كلا . كان هدفها هو مراسلات واخبار الشركات الكبرى للانتاج والاعمال التجارية . وتكونت شركات اخرى لمثل هذه الاهداف : جنرال الكتريك ، وستنجهاوس ، اميريكان تلفون آند تلغراف . كان للراديو فوائده في نقل المراسلات ولكنه الهم بانتهاك السرية . فقد اخذ الشبان يتسلون به ،

بعضهم يلهو به والبعض الآخر يصنعه . وأخذوا يستمعون لكل شيء يلتقطونه « من الهواء » بل واخذ بعضهم يشترك فى عملية البث ذاتها .

وكان واحد منهم ، وهو **فرانك كونراد** ، يتسلى ببث رسائله من جهاز ارسال صنعه بنفسه ووضعه فى الجراج ـ محطة ٨ اكس كدى ببتزبيرج لاختبار مدى وقوة الارسال بينما يعاونه صديقه فى مكان آخر . كان كونراد يقرأ من كتاب او يتكلم بصوت عال او يضع اسطوانة على الجراموفون ويكرر هذا عدة مرات . ولم يمض وقت طويل حتى أخذ يتسلم رسائل عديدة من مستمعين يوجهون اليه النقد فى اختياره الموسيقى ، ومن آخرين يطلبون اعادة بعض المقطوعات الموسيقية ، واحيانا كان بعضهم يقترح عليه اسماء بعض الاسطوانات . وساعدت الرسائل كونراد على تحديد مدى جهاز ارساله واخذ يشجعهم بتلبية رغبات **ما يطلبه المستمعون.**

وانتشرت اجهزة الراديو ، واشترى الناس منها الآلاف بملايين الدولارات بين عامى ١٩٢٠ / ١٩٢١ ، ولم تستطع مصانع الراديو تلبية كل الطلبات ، وزاد عدد محطات الاذاعة وساعات الارسال ، ولكن محطات الاذاعة حتى ذلك الوقت لم تفكر فى بيع اوقات للبث للدعاية التجارية والاعلانات ، مع انها انشئت فى بادىء الأمر بهدف تجارى . فقد كان فى استطاعة اى محل تجارى او فندق ان يشترى جهاز ارسال متواضع وبعض الاسطوانات ، ويضعه مع مكبر فى حجرة صغيرة ، ثم يزرع هوائيا للبث فوق السطح ليشارك فى هذه اللعبة الظريفة المربحة . وما عليه سوى أن يوظف فنيا لصيانة الجهاز وتشغيله وتشغيل الاسطوانات وقراءة الأخبار ، وربما يستضيف احد الهواة ليقرأ قصيدة او يحكى قصة . كانت الاذاعة غير رسمية ومفتوحة تماما كالصحف الاولى التى تحدثنا عنها .

كان الاستماع يجرى دون تنسيق . وافترضت كل محطة من المحطات ان المستمعين يجلسون بجوار جهاز الاستقبال يعبثون بمفاتيحه وينتقلون من محطة الى اخرى . ولم تعبأ اى محطة بالاهتمام بالبرامج او بمواعيد الارسال . كان كل مذيع يأمل ان يشد انتباه مستمعيه الذين يجوبون الفضاء يتنصتون على محطته . ومن وسط الضوضاء المنبعث من الراديو والتشوش والتداخل وضعف الصوت واحيانا تلاشيه ، قد تنشأ علاقة صداقة بينه وبين جمهوره . وربما ، فى يوم ما ، وبعد شهر ، قد يصل مسافرى اجازته الصيفية ليقف بسيارته امام هذا الفندق او ذلك المتجر ويدخل على صاحبه منفرج الاسارير ليقول له « لقد التقطنا محطتكم عدة مرات فى الشتاء الماضى وقد حضرت الآن لاقول لكم هالو ! »

وانتشرت محطات البث الاذاعى ، وارتفعت هوائيات الارسال من وكالات بيع السيارات ، والادوات الزراعية والناشرين واصحاب المصانع والبنوك ومحلات بيع الملابس والاثاث المنزلى والمطاعم والمسارح ومنتجات الألبان . ودخلت الجمعيات الدينية فى هذه المنافسة ، الم يقل السيد المسيح (لوقا ١٢ / ٣)

« لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور وما كلمتم به الأذن فى المخادع ينادى به على السطوح . »

وبدأت الجمعيات والمؤسسات التعليمية فى انشاء محطاتها على أمل أن يشد الراديو انتباه الجيل الجديد بعيدا عن التفاهات التى كانت تذاع . وبدأ البث التعليمى فى الكلية والجامعة بحماس فى بادىء الأمر على أمل أن يحضر بعض الأساتذة الى الاستوديو لالقاء محاضرة ، ولكن الحماس فتر فيما بعد . كذلك واجهت المحطات التجارية بعض المشاكل ، فقد أصدر اتحاد المؤلفين والملحنين والناشرين والمغنين فى أمريكا عام ١٩٢٢ تحذيرا : من الآن فصاعدا على محطات الارسال أن تدفع عن حق الأداء العلنى . وكان لزاما على كل محطة أن تحصل من الاتحاد على ترخيص سنوى بعد دفع مبلغ معين . وتذمر أصحاب المحطات ولكن الاتحاد كسب القضية . لهذا أعلنت محطة WEAF فى نيويورك عن بيع وتأجير زمن الارسال ، وفعلا بدأت ببيع وقت البث للاعلان عن بيع أراض للاستثمار فى لونج آيلاند . وانتشرت هذه الفكرة مما حدا بوزير التجارة هربرت هوفر الى توجيه النقد « لهذا الجهاز التعليمى العظيم » لأنه انحرف عن رسالته السامية بالترويج للبضائع والسلع ، ولكن دون طائل . وبينما كان يعلن ذلك ، وبطريق الاذاعة والراديو ، كانت هذه الأجهزة الاعلامية فاتها تبيع أوقات البث للاعلان عن معجون الأسنان والسيجار والسجائر والحلويات والألبان .

الراديو والاعلان : كان الاعلان الاذاعى هادئا فى بادىء الأمر ، ولكن ذلك الحال لم يدم طويلا . وبدأ بعض المذيعين فى تطوير أسلوب مميز صاحب الترويج لبضاعة معينة ، وتوصل بعضهم الى أسلوب يتميز بالهمس والألفة والمودة (ما زال هذا الأسلوب يستعمل الى يومنا هذا) حتى أصبحوا أصدقاء للملايين . وأصبحت الاعلانات جزءا لا يتجزأ من حوار الناس اليومى كبارا وصغارا . وتعددت وسائل جذب المستمعين : المستمع الذى يرسل غطاء علبة المنتوج الفلانى ومعه اسمه وتاريخ ميلاده سيقرأ له المنجم المشهور فلان الفلانى طالعه فى الراديو . وبدأ الاستماع للراديو يتخذ نمطا جديدا . كف المستمعون عن العبث بمؤشر الراديو من محطة لأخرى على غير هدى ، وبدأوا فى تطوير علاقات ولاء لبعض المحطات ، وأصبح بعض المذيعين والمغنين من المشاهير ـ وظهر اصطلاح « معبود الجماهير » فى الراديو كما ظهر فى السينما . وصار لهذه الوثنية الجديدة وترويجها قيمة تجارية . وتأسست شركة NBC عام ١٩٢٦ ومن بعدها شركة CBS عام ١٩٢٧ وعن طريق شبكة كل واحدة منهما كان يمكن الاعلان فى عدة محطات فى وقت واحد فى صفقة واحدة مع الشركة الأم.

وفى سنوات الكساد اختفى الفودفيل والمسرح الترفيهى والغنائى ، وفى عديد من المدن أفلست الشركات المسرحية وأغلقت النوادى الليلية وقلت الحفلات الموسيقية . ولكن ماذا حدث للراديو ؟ كان الناس الذين اختفوا من المسارح والنوادى والحفلات فى منازلهم يستمعون للراديو . والعائلات التى فقدت سياراتها لما توقفت عن دفع الأقساط ، وكذلك أقساط الثلاجة أو المكنسة الكهربية وبعض قطع أثاث المنزل ـ وربما توقفت عن شراء مقرراتها اليومية من لبن وزبد ـ واصلت دفع أقساط الراديو . **كان الراديو وسيلتها للاتصال بالعالم الخارجى ، بالبشر .**

كان أكبر دليل على قوة الكلمة المذاعة ما حدث فى انتخابات الرئاسة ، فقد كانت معظم الصحف تعارض انتخاب روزفلت ، ولكنه فاز على خصمه هربرت هوفر ، ويقال ان فوزه

بالرئاسة يرجع غالبا الى تمكنه من استغلال الاذاعة . وكان لظهور هتلر في المانيا ما يؤكد من جديد قوة الاذاعة والراديو وفعاليتها في التأثير على الجماهير العريضة .

يقول مارشال ماكلوان :

« لم يكن من باب الصدفة ان السناتور ماكارثي لم يمكث سوى فترة قصيرة بعد ان لجأ الى التلفزيون (بدلا من الصحافة) . ولم تدر الصحافة ولا ماكارثي بما حدث . التلفزيون وسيلة اعلام باردة . انه يرفض الشخصيات الساخنة والقضايا الساخنة ورجال الصحافة الساخنة ... لو كان التلفزيون منتشرا على نطاق واسع ايام حكم هتلر لاختفى هتلر بسرعة . ولو ظهر التلفزيون اولا (قبل الراديو) لما كان هناك هتلر ابدا . وعندما ظهر خروتشوف على شاشة التلفزيون في امريكا كان مقبولا اكثر من نيكسون ، كمهرج ورجل ظريف . لقد اظهره التلفزيون ككرتون مضحك . اما الراديو فهو وسيلة اتصال ساخنة وتأخذ الشخصيات الكارتونية بجد . ان مستر خروتشوف في الراديو سيكون موضوعا آخر . » (٤)

مع كل هذا لم يستطع الراديو ان يجتذب الجميع . ومع تزايد عدد الزاعقين والهامسين من المذيعين ، والاغاني الاعلانية ، والمسلسلات الصباحية وبرامج الاطفال العنيفة ثم مسلسلات الجريمة والعنف والرعب والغموض ، وبعد ذلك المسابقات والفوازير وجرب حظك وسين جيم الخ ، أصبح الراديو وبرامجه هدفا للتهديد والسخط والاحتقار ، ولم يكترث معدو البرامج ولكنهم شعروا بنوع من القلق . وفي عام ١٩٣٠ اتخذت مجالس محطات الاذاعة الكبرى لنفسها برنامجا حازما والتزمت بقواعد معينة وزادت من مصروفاتها على البرامج التعليمية والتثقيفية لصالح الجمهور . وكانت هذه الانشطة المتعددة لا تكفلها شركات تجارية ، ومنها الاوركسترات السيمفونية والمسرحيات الكلاسيكية والمسلسلات الوثائقية والندوات والمناظرات والاخبار العالمية وبرامج اذاعية اخرى خاصة . ومن جهة اخرى نشأ خلاف بين الصحافة والمحطات الاذاعية لحد من مدى المسموح به لمحطات الاذاعة في تغطية الاخبار المحلية والعالمية .

ولما بدأ هتلر في تهديد اوروبا امكن لبرامج الاذاعة ان تشد انتباه عدد كبير من المستمعين زاد مع نشوب الحرب العالمية الثانية . ومع الانتاج الحربي في امريكا فرضت الحكومة ضريبة على الدخول والارباح العالية للشركات بلغت ٩٠٪ وكنتيجة لذلك اخذت هذه المؤسسات تصرف مبالغا ضخمة ، كان من المفروض ان تدفع كضرائب ، على الاعلان الحضاري حتى تظل اسماء هذه الشركات حية في اذهان الناس لفترة ما بعد الحرب ، عندما تبدأ هذه الشركات في العودة الى انتاجها المدني . وتبارت هذه المؤسسات في احتضان هذه النشاطات الثقافية ، وكفلت هذه المؤسسات فرقة السيمفونية وفرقة نيويورك فيلهارمونيك اوركسترا . وبدأ الادباء والشعراء يقتحمون استوديوهات الاذاعة بمسرحيات شعرية وعلى رأسهم ارشيبولد ماكليش وستيفن فينسنت . وحظي الراديو بمكانة ادبية مرموقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

---

(٤) Understanding Media, p. 299.

ثم جاء التلفزيون : كان التلفزيون في خلفية الصورة والراديو يواصل تقدمه ، أولا ، كمجرد فكرة ، وبعد ذلك كجهاز في مختبر او معمل . ومع نهاية العشرينات اجريت عليه تجارب كثيرة وبدأ البث التجريبي في أوائل عام ١٩٣٦ في استوديوهات كئيبة كان على الممثلين والممثلات فيها وضع احمر للشفاة ، كما حتمت المشاكل الفنية ، بلون ارجواني ! وبدأ الارسال عام ١٩٣٩ وسرعان ما توقف لاندلاع الحرب وتحولت المصانع للانتاج الحربي للاجهزة الالكترونية . وظل التلفزيون حيا حبيسا لفترة . وبعد الحرب ، وكان التقدم العلمي قد قفز خطوات كبيرة نحو تحسين الارسال والاستقبال ، خرجت شركة آر سي ايه بجهاز يقلل الحاجة الى الاضاءة الشديدة في الاستوديوهات وبالتالي من الماكياج المرعب للممثلين والممثلات ومن درجة الحرارة العالية . وكانت الحانات والبارات اول من روج للتلفزيون ومن بعدها جمهور المشاهدين . وفي يوم وليلة اصبح التلفزيون هو الوليد المدلل يتدافع اصحاب الاعلان للوصول الى الجماهير عن طريقه .

وارتفعت هوائيات اجهزة التلفزيون في كل مكان ، كما اعيد تصميم حجرات المعيشة واحتل التلفزيون مكانا مرموقا في المنزل كانت تحتله فيما مضى المدفأة التي تلتف حولها الاسرة التماسا للدفء واستعدادا للسمر . وحول التلفزيون ظهرت طاولات متحركة تحمل صواني العشاء (التلفزيوني) المجهز سلفا ، وظهرت في الاسواق وجبات جاهزة ، هذا بالاضافة الى اجهزة اخرى مكملة له كالفيديو والشرائط الملونة وشاشات التكبير والهوائيات بموتوراتها التي توجهها لالتقاط برامج من محطات نائية .

وانزعج المطمون والمربون . ففي احصائية ظهر ان بوليس مدينة نيويورك قد رصد (في اسبوع واحد في يناير عام ١٩٥٢) ما وصل الى ٣٤٢١ اعتداء او تهديدا بالعنف ، بمعدل ١٥ اعتداء في الساعة اثناء فترة عرض برامج العنف والجريمة في التلفزيون . لكن ازدهار التلفزيون استمر ومعه الاستماع الى الراديو . وكان يعتقد ان الراديو والتلفزيون سيعملان على الاقلال من حب تعلم القراءة والكتابة ــ ولكن الذي حدث ان الراديو والتلفزيون ــ بعرضهما لاعمال ادبية ــ زادا من بيع الكتب والاقبال على اقتنائها . وكان الاعتقاد السائد في بادىء الامر هو ان نشرات الاخبار في الاذاعة والتلفزيون ستقلل من اهمية قراءة الاخبار في الصحف ولكن الذي حدث هو انها حفزت الناس على مطالعة الجرائد طلبا للمزيد منها . وازدهرت مجلات الاذاعة والتلفزيون مع ازدهار هذه الوسائل الاعلامية الجديدة ، كما ساعد التلفزيون هوليود على الازدهار بعد فترة ركود قصيرة .

ما ان انتصف القرن الا واصبح من الواضح ان كل وسيلة للاعلام ــ راديو ، تلفزيون ، مطبوعات ، مسرح ، سينما ــ تعمل على الرواج وزيادة مبيعات زميلاتها . ففي الولايات المتحدة كان اكثر من ١٠٠ مليون يذهبون الى السينما كل اسبوع ، وكان الامريكيون يشترون الكتب بمعدل ٧٥٠ مليون كتاب في السنة ، ويوزع اكثر من ٣٫٥ مليون نسخة من الدوريات ويقال ان كل رجل وامرأة وطفل في امريكا كان يستهلك اكثر من ٥٠٠ رطل من الورق في العام . وكان التلفزيون يشد انتباه المشاهد لمدة ثلاث ساعات يوميا في المتوسط .

الاعلان : دعونا نلقي نظرة على اعلان قديم ظهر في ١٦ يناير ١٧٨٩ في مجلة NEW YORK DAILY ADVERTISER يقول الاعلان :

اصواف امريكية

وصلتنا حديثا من مصانعنا في هارتفورد بعض قطع الاجواخ الفاخرة التي يمكن الحصول عليها باسعار معقولة من جلبرت افرنجهام ، رقم ٤٤ شارع واتر ــ في اونين مدخن ورمادى .

وقد يبدو هذا الاعلان لاول وهلة لمستمع الاعلانات الحديث ساذجا بسيطا يخلو من عناصر شد الانتباه او اثارة المشاعر . ولكن اذا وضعنا هذا الاعلان الساذج البسيط في اطار حضاري كبير فلن يغيب عنا سره : **لقد كانت الاقمشة الصوفية الفاخرة نادرة في ذلك الوقت** ، لم يكن الانتاج بالجملة قد ظهر الى حيز الوجود ، وعلى مدى العصور كان الطلب دائما اكثر من العرض الى درجة ان المشتري هو الذي كان دائما ينشد البائع ، ولم تكن البضائع او السلعة هي التي تبحث عن مشتر لها . لهذا لم يكن من الضروري لصاحبنا جلبرت افرنجهام أن « يزعق » معلنا عن « اجواخه الفاخرة » في راديو او في تلفزيون . فمجرد وجود البضاعة لديه كان في حد ذاته اعلانا كافيا له . فبعد قراءة هذا الاعلان ارسل جورج واشنجطون رئيس الولايات المتحدة الى احد الجنرالات في نيويورك يطلب منه شراء ما يكفي من هذا القماش لصنع بدلة له حالا ، « وفيما يختص باللون فسأترك ذلك لذوقك » . كان من الممكن لتاجر الاقمشة في عام ١٧٨٩ ان يعرف وبسهولة النتائج التي سيجلبها اعلانه الذي دفع فيه ٣ شلنات . اما المنتج في العصر الحديث فيدفع خمسين الف دولار لاعلان ملون في احدى المجلات وهو غير متأكد من النتائج . وبالرغم من ذلك عليه ان يواصل الاعلان عن منتوجه اذا اراد لبائعيه المتجولين الحصول على عقود بيع من المشترين .

الى الان يتحير اصحاب المشروعات الصناعية الكبرى عندما تزيد مبيعات سلعة من السلع بشكل ملحوظ بينما تظل اخرى كاسدة . هل العيب في السلعة ذاتها ؟ ام في الاعلان ؟ هل يصل الاعلان الى المشتري الخطأ ؟ هل تعني السلعة لبعض المشترين مالا تعنيه للاخرين ؟ وتساوي الاجابة عن هذه الاسئلة الملايين . وترى صاحب المشروع يلجأ الى عالم الاجتماع ويحصل منه على معلومات عن هذا القطاع من المجتمع ماذا يسمع ويشاهد ويقرأ ويشتري ويفضل الخ . ليستغل كل هذه المعلومات ، ولكنه يريد أن يعرف المزيد فتراه يذهب الى عالم النفس ، الى الدوافع المحركة الى سيكولوجية الفرد يسبر اغواره . وفي النهاية تجد ان صاحب العمل يحاول الاتصال بجمهور لايراه ، وندرك ان مشاكل الاتصال في تزايد مستمر ، تنمو مع نمو الانتاج الضخم .

وكما ان لوسائل الاتصال المختلفة اهميتها في توزيع السلع والمنتجات ، فان لها اهمية اخرى وهي نشر الافكار والتشجيع على تداولها . ان وسائل الاتصال تعتبر امتدادا طبيعيا لانشطة الثورة الصناعية . ومن اهم ملامح وسائل الاتصال عامة .

١ ــ كمية الانتاج : من كلمات وصور واصوات .

٢ ــ التوزيع الجغرافي الواسع : ولا فائدة للانتاج الضخم بدونه .

٣ ــ منافذ اسواق التجزئة : محطات التلفزيون والراديو ، الصحف والمجلات ، المسارح ، المكتبات، النوادي، المدارس، ومن خلالها تغازل وسائل الاتصال الجمهور وتخطب وده. عندما كان القماش غالي الثمن في الماضي كانت الكتب كذلك نادرة . وكان الناس يبحثون عن الكتب ويقرأونها بنهم ، اما اليوم فعلى السلعان تعثر على المشتري وتبحث عنه وعلى الكلمة ان تبحث لنفسها عن قارىء . وبتزايد الانتاج الضخم وتنوعه زادت مشاكل الاتصال حتى بين الافراد في عالم كثرت فيه وسائل الاتصال وتنوعت . ولا ادل على اهمية الاتصال **حتى بين الافراد** من ظهور كتاب ديل كارنجي **كيف تكسب الاصدقاء وتؤثر في الناس . (٥)**

٢ ــ الاتصال : كيف ؟

قدمنا بايجاز شديد صورة لتاريخ وسائل الاتصال ، وهي لمرة للمحة الثورة الصناعية ، وقصة الاجيال التي طورت وسائل الانتاج الضخم للكلمات والصور والاصوات ونجحت في توصيلها لاكبر عدد ممكن من البشر على هذه الكرة الارضية . وقد يكون عدد المستقبلين كبيرا أو صغيرا لا يتعدى المائة . ومن بين من نجحوا في الاتصال باعداد قليلة كثيرون كانوا يأملون في الوصول الى اعداد اكبر ، ولكن هناك فئة اخرى قليلة ، كانت تحاول الاتصال بمجموعة صغيرة وذلك لهدف معين ، فهناك احيانا اسباب قوية تدعو للاتصال باعداد قليلة معينة . ومع ذلك يظل الهدف المنشود هو الوصول الى اعداد كبيرة .

ويذهب بعض من حاولوا الوصول الى جمهور عريض وفشلوا الى انك لا تستطيع الوصول الى هذا الجمهور الا عن طريق المبتذل والرخيص ــ ولكن تاريخ الاتصال الجماهيري لا يثبت ذلك بالدليل القاطع . فاذا كان كتاب الشيخ The Sheik (٦) من اكثر الكتب رواجا في العشرينات فكذلك كان كتاب موجز التاريخ The Outline of History للمؤلف هـ. ج ويلز H. G. Wells واذا كان فيلم **الحب يغزو قلب اندى هاردى** Love Finds Andy Hardy قد اكتسح الافلام الاخرى فقد حقق الفيلم التاريخ **حياة اميل زولا** Life of Emile Zola نجاحا منقطع النظير في الثلاثينات . واذا كان كتاب **صدق اولا تصدق** Believe it or not احسن كتاب للجيب في الاربعينات فكذلك كان كتاب الجيب لمجموعة القصص القصيرة Pocket Book of Short Stories

---

(٥) Carnegie Dale : How to Win Friends and Influence People, New York, 1936.

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٦ وتصدر منه طبعات جديدة تباعا آخرها عام ١٩٧٨ .

(٦) صدر عام ١٩٢١ وانتجته هوليود ، ومن بعده فيلم ابن الشيخ The Son of the Sheik **ولعب رودولف فالينتينو الدور الرئيسي .**

واذا كان جاكي جليسون Gleason من نجوم التلفزيون في الخمسينات فكذلك كان موريس ايفان Maurice Evans في ادواره التلفزيونية في **هاملت ومكبث لشكسبير** .

واليوم اذا كانت افلام بوني أم والسوبرمان ودراكولا محببة الى نفوس الصغار والكبار فكذلك نرى اهتماما بالافلام الوثائقية والتسجيلية وحلقات **تقدم الانسان والحرب السرية والحرب العالمية الثانية** (وكلها عرضت على شاشة تلفزيون الكويت) ، هذا بالاضافة الى رواج كتب الدين والتراث والحضارة والتاريخ . ان تاريخ وسائل الاتصال يؤكد لنا ان الاصالة والجدية ليستا حاجزا يمنعنا من الاتصال بشرائح عريضة من الجماهير .

والان آن لنا ان نسأل : ما الذي يشد الجمهور ؟ ما هو السر الذي يجعل الناس تحرص على شراء كتاب معين او الالتفاف حول جهاز التلفزيون ؟ هل هو الترفيه والاسترخاء بعد عناء يوم عمل شاق طويل ؟ واذا كان الترفيه او الترويح عن النفس هو السبب فما هو الترفيه ؟ ما هي التسلية ؟ ولماذا نقول « لمجرد الترفيه والتسلية » ؟ فالام التي تنادي على ابنها خمس او ست مرات ليترك كتاب الرسوم المتحركة وميكي ماوس وسوبرمان ليأتي لتناول عشائه ، والتي تكون قد نادت على زوجها اربع مرات ليترك مكانه امام التلفزيون وهو يشاهد ممثله الكوميدي المفضل او مباراة في كرة القدم قبل ان يستمع لندائها ، والتي ترى ابنتها تبدد مصروفها أسبوعا بعد آخر على مشاهدة الافلام السينمائية كدراكولا مصاص الدماء او في شراء الكاسيت ، والتي هي ذاتها - الام - وليدة شهرين كانت تتبع مسلسلا في الراديو ، هي تؤدي اعمالها المنزلية ، وربما ذات مرة تركت الدجاجة في الفرن تحترق وهي لاتدري . هذه المرأة تعلم جيدا ان القوة التي تشدهم جميعا لوسائل الاتصال هذه كلها لايمكن ان يطلق عليها انها « مجرد » وسائل للترفيه . انه احساس يصل احيانا بالفرد الى حد « الالزام » ، « القسر » او « الاكراه » . ولا يمكن بأي حال من الاحوال اعطاء تفسير « معقول » لهذه القبضة الحديدية التي تمارسها القصة الجيدة او البرنامج او الفيلم الجيد على المشاهدين او القراء الا باللجوء الى تفسيرات علم النفس ونظرية العقل الباطن واللاشعور . فيقول علماء النفس ان الاحباط يبدأ مبكرا ولا تتلاشى الرغبات المكبوتة ولكنها تختفي في العقل الباطن وتظل فيه كشحنة او طاقة تنتظر الانطلاق مالم تروض او تشبع . وتراكم الاحباطات ، كما يقول فرويد ، يولد ضغطا هائلا قد يؤدي الى مخاطر يراها عالم النفس في الاحلام المزعجة عندما يغفو الرقيب الواعي وتتسلل هذه الرغبات المكبوتة الى السطح . ونتغلب على الاحباط بقدرتنا على التخيل ، وهو نوع من التصنع والتظاهر ، ومن هنا تكون جرثومة الفنون والاداب والاشباع الذي يأتي عن طريقها . فالتخيل اسلوب معالجة عن طريقه نحيد الاحباط ونتفس من المكنونات ، صمام امن يخفف ضغوط الكبت الى حد ما . والتخيل او التصنع هذا اسلوب جيد ، ان نجح ، اما اذا فشل فقد يؤدي الى نتائج عكسية ففي المستشفيات العقلية كثيرون يعيشون في هذه العوالم الخيالية ، عوالم ذهبوا ليعيشوا فيها الفترة ولم يستطيعوا العودة منها . التخيل او التقمص لا بأس به ، ولكن بقدر فمثله مثل الكبت ، لا هو صالح تماما ولا هو ضار تماما .

الاتصال والتقمص : Communiction & Identification

يمكن التقمص أن يعمل كصمام الامن الذى يتم من طريقه تصريف بعض من الكبت المتولد والعواطف المحبوسة . والكلمة المكتوبة والافلام السينمائية والتلفزيونية والبرامج الاذاعية هى **المفتاح** الذى يفتح ابواب العواطف ، اما العواطف فيوفرها الجمهور من مستودعات عواطفه الخفية . اذا بكى المشاهدون ، فانهم لا يبكون من أجل البطل او البطلة ، بل من أجل انفسهم ، (قارن ارسطو ونظرية التطهر فى المأساة) ، واذا ضحكوا فهم لا يضحكون لأن البطل قد تخلص من توتره وتعادل الضغط خارجه وداخله ، بل لانهم تخلصوا من توترهم . من هذا نرى ان النجاح الذى يحققه عمل فنى معين يجب ان يعكس بطريقة ما تلك الصراعات الموجودة فى العقل الباطنى لاعداد كبيرة من الناس .

وهنا نتساءل: ما هى الهواجس التى تستبد بمعظم الناس ؟ ونجد ان اولها **المحظورات** ، ويعتبر الوالدان اول مصدر لهذه المحظورات التى تتشكل فى السنوات الاولى من نمو الطفل . وقد تتراكم المحظورات حتى يصبح الاب ، مثلا رمزا لهذه المحظورات وفيما بعد قد يحل رجل الشرطة او المدرس او الرئيس المباشر فى العمل محله ، وتتحول اليهم بالتالى كل نزعات الفرد العدوانية ، وقد تجد هذه النزعات العدوانية لنفسها مخرجا فى الرياضة العنيفة او فى الهوايات او فى العمل ويظل الفرد مسيطرا عليها . ويقول لنا علماء النفس ان هناك عددا كبيرا من الناس يظل نهبا لهذه الصراعات الداخلية التى تفصح عنها اللغة فى بعض المواقف عندما نسمع : « لقد ذبحنى يا رجل » ، « انه يقتل القتيل ويمشى فى جنازته » ، « هذا المثل موتنى من الضحك » ، « لقد قتلت الموضوع بحثا » . فعندما بدأت جريدة Sun فى نيويورك فى عام ١٨٣٣ فى تقديم صورة حية لمحاكمات المجرمين من قاعة الجلسة ــ ممثل الادعاء ، الدفاع ، الشهود ، المحلفين ــ زادت مبيعاتها بشكل ملحوظ واستجاب الاف من القراء لها . وعندما بدأت السينما فى أيامها الاولى ــ افلام تشارلى تشابلن خاصة ــ فى عرض الصراع القائم بين الشرطى والمتسول ، او العسكر والحرامية ، لاقت نجاحا منقطع النظير ما زلنا نلمح استمراره الى الان . وعندما اذيعت دراما الروايات البوليسية فى الراديو وجدت الملايين تتابعها بشغف . وهنا قد يخطر ببالنا سؤال : مع من توجد المشاهد ؟ اى شخصية تقمص ؟ المجرم ، ممثل الادعاء ، الشرطى ، المتسول ، القاتل ، القتيل ، القاضى ؟ سؤال محير . ولكن من الممكن للمشاهد او المستمع ان يتقمص اى شخصية حسب تركيبه النفسى . وقد نجد اجابة مرضية . فى بعض كتب الاطفال او فى افلام الصور المتحركة عندما يتقمص الاولاد شخصية حيوان ــ فيل (جامبو) ، كلب (جو) ، كلبة (لاسى) ، غوريلا (كنج كونج) وهكذا . ليس هناك قاعدة ثابتة لهذا التقمص . المهم فى العمل الفنى ان يشد انتباه جمهور كبير عن طريق معالجة صراعات عاطفية مشتركة بطريقة مرضية .

وثانيها : **القوة المطلقة** ، ويحس بها الطفل بعد ولادته عندما تلبى كل طلباته . ولكن سرعان ما يضعف هذا الاحساس ويلجأ الطفل الى استعمال اشارات صوتية وحركات لجذب الانتباه وعندما يزداد وعيه بما حوله يزداد احساسه بعجزه ويدرك ان من حوله قادرون على الاداء ولديهم القوة لعمل اى شىء . فوالده يرفعه وينقله من مكان لاخر ويوفر له العديد من الطلبات .

ويكبر الصبي ويحس انه على ابواب تحقيق حلم ، ويكتشف فجاة ان الاب ليس لديه قوة مطلقة ، فما هو الا **صورة** لما رسمه الطفل في ذهنه له منذ نعومة اظفاره . ويبدأ الطفل في كراهية والده في عقله الباطن . ويصير الطفل رجلا وأبا وتستمر الدورة التي تتارجح بين العجز والقوة وتكون هاجسا اخر يتطلب ، كهاجس المحظورات ، متنفسا نراه في معظم ابطال المسلسلات والافلام الذين لا يخطئون ابدا ، فتراهم في الرجل الخارق الذي لا يقتل ابدا وينتصر على اعدائه دائما (لاحظ المسلسل الكارتوني **الرئيس الخارق** وفيلم **سوبرمان** الذي عرض مؤخرا في الكويت) .

وتنتابنا ونحن نشاهد مثل هذه الافلام عواطف متباينة ـ اعجاب واشمئزاز في ان واحد وهي من علامات النضوج العاطفي . وقد لا يكون اعجابنا بالرجل الخارق لقوته البدنية ، بل لقوته الذهنية ، لذكائه ، ولهذا قد نجد بطلنا الخارق في شرلوك هولمز او في كولومبو او في كوجاك وحاليا في الصحفي في مسلسل الهدف . وهذه القوة المطلقة هي التي تدفعنا للتجاوب مع بعض الاعلانات : السجائر ، سيارات السباق ، الملابس الفاخرة ، الحبوب المقوية ، وربما التدليك وحمامات سونا والبخار .

وسائل الاتصال الجماهيرية هذه التي تستطيع تسخير هذه الطاقات المكبوتة الهاجسية التي تستبد بالفرد في استطاعتها خلق ابطال بين يوم وليلة ـ ابطال في السياسة وفي الصحافة وفي الفن وفي السينما وفي المسرح . ففي داخل الانسان تكمن قوى خفية تدفعه دائما الى البحث عن بطل ، عن قائد ، عن مخلص يستطيع ان يحمل عنه عجزه ليصل به الى بر الامان والارض الموعودة فعلها هتلر عن طريق ابواق دعايته وعلى راسهم جوبلز . واذا كان لوسائل الاتصال ان تخلق ابطالا بين يوم وليلة ، ففي استطاعتها كذلك ان تحطمهم في غمضة عين . واكثر من نجم سينمائي انطفا بريقه فجاة واكثر من بطل طواه النسيان ، لان هذا النوع له اقدام من خزف ، لان هذا النوع ظل حيا في لا وعي الجمهور طالما هو مرتبط بامالهم ، وطالما ظلت هذه الامال حية يستمر تعلقهم به . فقوة هذا الهاجس كقوة هاجس المحظورات ، يمكن ان تعمل على مستوى الحب او مستوى الكراهية .

وثالثها : **الاحساس بالامن والطمانينة** ، فمسلسلات اللقطاء والهاربين والمطاردين والمتسكعين والمتسولين والحروب التي تزعزع الطمانينة وتهدد الاستقرار في نفس الفرد وبين افراد الاسرة والمجتمع الواحد هي الاخرى سلاح ذو حدين . ويستغلها اصحاب الاعلانات التجارية في الغرب للترويج لبضاعة معينة ولتكن العطور مثلا او مستحضرات التجميل ـ وكان الاعلان يقول للمشاهد ومن طرف خفي : اذا اردت ان تكون كالاخرين فاستعمل هذه الكولونيا ـ فالاعلان يهدد استقرار المشاهد من هذه الناحية على امل ان يسارع المشاهد بشراء هذه الكولونيا . ويحاول مصمم الاعلان ان يجعلك تحس بالخزي والعار ان انت لم تستعمل هذا الرشاش (مزيل رائحة العرق) وانت في المكتب ، وانت في الباص الخ . الا يحسن بنا مثلا ان نعلن عن فوائد النظافة بوجه عام ، او الاستحمام ، او الوضوء قبل الصلاة !

هذه الهواجس ـ ومنها الموت . المرض . الخوف من الجرائم . الشيخوخة . الفاقة . العوز ، الفقر ، كبر السن (مع ظهور التجاعيد ، خاصة عند السيدات) ـ وهي التي تساعد عند اثارتها في الفرد على بيع بوالص التامين على الحياة ، والمضاربة وفوائد البنوك وتنشيط الحملات

الانتخابية وبيع المبيدات الحشرية والمطهرات والكريمات واجهزة الرشاقة وحبوب الفيتامينات، والصابون ومساحيق الغسيل . فالنضال ضد الاحساس الغامض بعدم الاستقرار اهم بكثير عند معظم الناس من النضال ضد الوسخ والقذارة . والمعلن عن الصابون ـ سواء المستعمل في الحمام او في الغسالة ـ يعرف ذلك جيدا ويستغل معرفته باستغلال الاتجاهين : الخوف من الوسخ ـ الاحساس بعدم الاستقرار والقلق . ومعظم الاعلانات تدور حول الحمام (النظافة لابعاد شبح المرض او الموت) والمطبخ (الطعام عماد الحياة ضد الموت) (حرية التنقل والحركة) .

قد يستطيع كثير منا ان يرى هذا البحث اللارادي عن الطمانينة والاستقرار كسبب من اسباب نجاح رواية او مسرحية او مسلسل تلفزيوني او في اجتماع ديني ، ولكنهم قد يجدون صعوبة في ادراكه في عمل كوميدي كالذي يعرض في تلفزيون الكويت ـ القافلة المرحة او مسلسل الامهات ـ ويعتقد ان من يشتغلون بالضحك واضحاك الجماهير تنحصر مهمتهم في التسلية والترويح . ولكن علماء النفس يقولون لنا ان النكتة والموقف الكوميدي لهما جذور في اللاوعي ، وان الضحك على انفسنا صمام امن ضد الاحباط ، وشر البلية ما يضحك ، فالضحك عكس الاحباط ، ومواقف الكوميديا الناجحة والمهزلة مماثلة للتراجيديا . وعلى سبيل المثال : الافلام التي تعرض للتسلية على شاشات الخليج ، وهي مقتطفات من الافلام الصامتة القديمة Laff-a-bits الذي نراه فيها يتارجح على حافة سطوح منزل وهو على وشك السقوط يجعلك تنفجر من الضحك ولكننا نصرخ جزعا من الخوف اذا ظهر نفس المنظر في فيلم بوليسي او في فيلم ماسوي . فالعواطف والانفعالات المبذولة في الحالتين واحدة . ويحلل ماكس ايستمان في كتابه **الاستمتاع بالضحك** كيف ان الاحباط الناجح للاحباط يبدد الاحباط في تلك النوادي التي تستمتع بالنكتة او الموقف الكوميدي فيها ، ويؤكد لنا ذلك فرويد (٧) في كتابه **النكت واللاوعي**، فقبل الانطلاق التشنجي لما نطلق عليه « الضحك » يحدث ما يلي اولا : تهيأ نفسيا لاستقبال شيء ما . ثانيا : ونحن نحاول الوصول الى ما نريد نجد انه اختفى ليحل محله شيء اخر لا نتوقعه . والى هنا ونحن نسير على الدرب المالوف الذي يوصل للاحباط . ولكن في اللحظة التي يتم فيها هذا الابدال نلحظ شيئا : ان البديل يحمل مفاجاة لنا ، عبارة عن جائزة ، مكافاة . ونجد ان هذه المكافاة افضل مما كنا نريد الوصول اليه ، وفي لحظة الاحباط نجد ما يعوض خسارتنا بما هو افضل. **فالنكتة اذن تحرر من الكبت ، ومن التوتر .**

ان نجاح وسائل الاتصال يعتمد في المقام الاول على قدرتها على استغلال عواطف الانسان الكامنة وانفعالاته . ونراها تنجح على نطاق واسع وبين افراد جمهور عريض لانها تستجيب للعواطف المكبوتة في لاوعي اعداد كبيرة من الناس . وقد ثبت انه حينما نجحت وسائل الاعلام في كسب جمهور كبير كان السبب هو اسلوب الاتصال الذي وفر للمستقبل اسباب انطلاق انفعالاته وعواطفه عن طريق **التقمص** .

(٧) Freud, S. : Jokes and their Relation to the Unconscious, London, Routledge and Kegan Paul, 1966 pp. 103-104 & p. 73

متى ينجح التقمص : يلجأ الانسان للتقمص بغية الحصول على مكافأة . ففي قراءة الروايات ومشاهدة المسرحيات والافلام السينمائية والتلفزيونية نشعر بسنوح الفرصة لتجنب المحظورات التي لانجرؤ على البوح بها او التعامل معها ، او نحاول كسب معارك خسرناها من قبل ، او اصلاح ما ارتكبنا من اخطاء في الماضي ، اومداواة جراح قديمة ، او فرصة لتخرج من جلدنا لنعيش اللحظات كما كنا نشتهي . وفي وسيلة الاتصال الناجحة يؤثر الموقف في الرواية او العنوان الصحفي او العمل الفني الى الجائزة الممكنة . واحيانا قد يكون العكس هو الصحيح ، كان يبدأ الفيلم مثلا بمواقف تهدد الزواج والحياة الاسرية او الوظيفة او السمعة . ولكن هذه المواقف تتضمن دعوات لاعادة تجربة المواقف التي انهزمنا فيها ، لاننا نعرف ان في ذلك فرصة لاعادة النظر ، ولو بعد فوات الاوان ، في اسباب هزيمتنا ، هذا الاتصال يعطينا فرصة ثانية وعن طريق الاتصال نعيد تركيب التجربة وننظم ما كان يتسم بالفوضى . فصدمات الفن التي تهددنا وتقلقنا دعوات لابراء الجراح . واذا نجح التقمص في عملية الاتصال هذه ، فهل كان المطابقة في الزمان والمكان واعمار الشخصيات بتفاصيلها اهمية تذكر ؟ يعتقد البعض ان التقمص يكون على اشده اذا كان هناك توافق في الزمان والمكان والسن ، ولكن الادلة غير كافية . فيمكن لطفل في مدينة معينة ان يتقمص شخصية طفل في نفس المدينة ، ولكن الطفل يستطيع ايضا ان يتقمص شخصية جندي روماني او رجل فضاء او لاعب كرة قدم او احد سكان الاسكيمو . ولم يجد الناس في بلدان العالم صعوبة في تقمص شخصية الفلاح الصيني في قصة **الارض الطيبة** وفي الفيلم فيما بعد . ففي كل واحد منا جزء من شخصية والتر ميتي (٨) . وقد يصعب التقمص ان لم تكن تفاصيل الاحداث واضحة . ومع وسائل الاتصال الحديثة اصبحت المسافة عنصرا مهملا ، بل وهناك فوائد لتخيل انفسنا في اماكن بعيدة في الزمان والمكان ، وقد يساعد البعد في الزمان والمكان على التخلص من الكبت ، ومن هذا النوع من الافلام The West Story الذي قام ببطولته بول برايتر ومسلسل ١٩٦٦ الذي عرضه تلفزيون الكويت **وآلة الزمن لويلز** .

ومن المثير للانتباه انه عند اختبار الافلام التدريبية التي تعرض على الجنود خاصة قبل المعركة وجد محللو النتائج ان معظم الجنود قد تقمصوا شخصية **المدرب** لا شخصية الجندي الذي يقوم بالتدريبات . فهل تقمص الجنود شخصية ذات رتبة عالية ؟ لا عجب في ان معظم شخصيات شكسبير من العيار الكبير السامي . الأمير هامليت ، الملك لير ، القائد والملك مكبث ، يوليوس قيصر ، عطيل . لقد نجحت مسرحية **الكرسي العظيم** The Great Chair لانها تتناول حياة مدير جامعة ومناوشاته مع مجلس الامناء ، لانها كانت تعبر عن قصة كل انسان وقلقه ، واكثر من بائع متجول او موظف بسيط في شركة قلق على وظيفته قد استمد لذة عظيمة من الاحساس بالرقي والعظمة من معظم الافلام والمسلسلات والاعلانات وقد يدفع البعض الى الاعتقاد بان الجمهور دائما يفضل تقمص الشخصيات العظيمة النابوليونية ، ولكن الذي

---

(٨) James G. Thurber : **The Secret Life of Walter Mitty**, 1894.
وقد تحولت الى فيلم سينمائي قام داني كاي فيه بدور والترميتي الذي يتقمص شخصيات عديدة طالما استهوته في صباه . ودخلت الكلمة في قاموس اللغة الانجليزية .

يحدث هو أن الجمهور يتقمص الشخصيات الدنيا كذلك ، فنجاح أفلام شارلي شابلن يعتمد على شخصية المتسكع المتشرد ، شخصية توفر مجالا للرثاء للذات . وإذا كان عدد الأفلام والروايات التي تركز على الشخصيات العظيمة أكثر من الأخرى التي تساعد على تقمص الشخصيات الدنيا فإن ذلك يرجع إلى ما يفضله منتجو البرامج التجارية وليس إلى ما يفضله الجمهور . فالتركيز على تقمص الشخصيات الراقية أكثر ترويجا للسلع الاستهلاكية وبتكرار مقولة أن للأغنياء متاعبهم كالفقراء يعمل على استقرار النظم القائمة . هذا بالإضافة إلى أن منظر البطل صاحب الموارد المحدودة وسط ديكورات منزله المتواضع الذي يظهر على شاشة التلفزيون قد يسبب قلقا بالغا لمروج السلع ، فظهوره يسلط الأضواء على السلعة بل على المشاكل الاقتصادية .

مما سبق يتضح لنا أن العلاقة الإنسانية هي أهم عنصر في وسائل الاتصال والإعلان عامة، وما عدا ذلك ـ السن ، الجنسية ، المكان ، الزمان ، الحرفة ، المركز الاجتماعي ـ يعتبر في مرتبة ثانوية . ففي جوهر كل تقمص تكمن رغبة أمنية ، وصراع الدراما يستغل صراع الأمنيات التي نجد بعضها في الوعي وبعضها الآخر في اللاوعي ، ولكن يتم الاتصال والتقمص في رواية أو مسرحية أو مسلسلة لابد أن يحدث هذا التوحد والاندماج في مراحلها الأولى مع شخصية من شخصياتها على الأقل وإلا فلن يكون هناك قصة أو تفاعل درامي .

ومنذ قرون قال أفلاطون إنه من الممكن أن تحكى رواية بطريقتين : إما بأسلوب السرد المباشر أو بأسلوب المحاكاة الدرامية . وقال إنه بإمكاننا استعمال الأسلوبين معا . ولكن أسلوب السرد المباشر أكثر نبلا من طريقة المحاكاة الدرامية ، وكان يرى أنها الطريقة المثلى التي يجب أن يلجأ إليها أفاضل الناس . ولكنه أضاف أن الأطفال ومن يقومون على رعايتهم والسوقة من الناس يفضلون أسلوب المحاكاة الدرامية ، وأكثر من هذا نجدهم يستمتعون على وجه الخصوص بمحاكاة السفهاء والأرذال . ففي المدينة الفاضلة كان أفلاطون يرى أن تلجأ للسرد الرصين الهادىء الذي لا يستغل عنصر الإثارة ، وتمنع المحاكاة الدرامية وخاصة محاكاة الباطل (جمهورية أفلاطون : الكتاب الثالث) .

هكذا عبر أفلاطون عن مخاوف تردد صداها عبر القرون من بعده ، كما عبر عن الرقابة الصحفية الاستبدادية ، ولكنه كان صادقا فيما يختص بما يفضله الجمهور . ففي عصر النهضة لجأ المسرح الديني ، كالمسرح اليوناني من قبله ، إلى أسلوب السرد والمحاكاة الدرامية . فخرج القساوسة من داخل الكنيسة إلى صحنها ليقدموا « الدراما » ـ مناظر مبسطة تصور حكايات من الإنجيل وحياة القديسين . وتولى رجال الكنيسة تفسير الدراما وكان النجاح حليفهم إلى أن خلق هذا التقليد بعض المشاكل : فقد كان « تصوير » سقوط الملائكة أكثر اجتذابا للجمهور من الأسباب التي أدت إلى سقوطهم ، واستحوذ الأشرار على اهتمام النظارة وسرقوا الأضواء من الأخيار ، وتسللت فقرات كوميدية إلى المواقف الرئيسية الجادة وأصبح الممثل « معبود » الجماهير . وفي النهاية عاد القساوسة ـ وقد أصابهم بعض فزع ـ إلى منبر الوعظ ، إلى الشرح والتفسير والموعظة الحسنة ، إلى رصانة السرد .

لتقفز عدة قرون الى الامام ، الى عام ١٩٣٥ حين راى الحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة ان يلجأ **الى الدراما الاذاعية** لكسب عدد اكبر من الناخبين . وأرسل الحزب عام ١٩٣٦ لشبكات الاذاعة الرئيسية يخبرها بقراره لاستغلال الوسائل الاذاعية الحديثة المتاحة الآن فى فنون الراديو لبث رسالته . وانزعجت شركة CBS وشركة NBC وتشاورتا فى الأمر . واخيرا اخطرا اللجنة القومية للحزب الجمهورى بانهما لن يسمحا بالبث الدرامى ، وارفقا مذكرة توضيحية تتضمن موقفا افلاطونيا . وتقول المذكرة (٩) :

« لا بد ان تكون مناشدة الناخبين مناشدة عقلية لا ترتكز على عاطفة او انفعال او تحيز . ونحن نعترف ان المناقشات الحزبية الخطابية قد تشوبها العيوب التى ذكرت آنفا ، ولكن لدينا قناعة بان الاذاعة الدرامية فى الراديو ستدفع بالجملة الانتخابية الى الناحية العاطفية تماما . هذا بالاضافة الى اننا نعتقد ان الاسلوب الدرامى بطبيعته قد ينحو الى زيادة توكيد وابراز حوادث ليس لها اهمية او مغزى الا من الناحية الدرامية فقط . وقد يتوقف مجرى القضايا القومية لا على الوقائع الموضوعية للمسائل المطروحة للمناقشة بل على مهارات اشخاص الدراما المتصارعين . »

ولأن المحطات الاذاعية المحلية لم تتقيد بسياسة الشبكات الاذاعية ، **تمكن الحزب الجمهورى** من اذاعة تسجيلات درامية . وبدات الشعارات الانتخابية فيما بعد والاغانى والالحان المميزة والأصوات الكارتونية تزحف الى البرامج السياسية الاذاعية ، واستمر الاتجاه الى استعمال السرد والدراما رغم الاعتراضات .

دورة وسائل الاتصال : تلاحق وسائل الاتصال الفرد فى العصر الحديث اينما كان ، وبغض النظر عن محتوى عقله الباطن نجده على استعداد وبدرجات متفاوتة لاستقبال هذه الرسائل . فعندما اذاع اورسون ويلز برنامج حرب الكواكب عام ١٩٣٨ دفع المئات من منطقة نيويورك الى تحميل سياراتهم والهرب بها من المدينة . لقد كان رد الفعل متاثرا الى حد كبير بتوقعاتهم : كان هذا العام هو العام الذى اثار فيه هتلر ازمة ميونيخ . وعلى مدار الساعة ، يوما بعد يوم ، كانت محطات الاذاعة تبث اخبار التهديدات وتعبئة الجيوش فى دول أوروبا . ولم يكن غزو سكان المريخ للأرض الا امتدادا لهذه التوقعات والتحسبات . وهكذا تلعب آمال وامانى ومخاوف اللحظة الحاضرة دورها فيما نسمع ونشاهد من اخبار ، ولها القدرة على تغيير مغزاها وشحنها بابعاد جديدة . ويتم الاتصال بالفرد اما عن طريق المقابلة وجها لوجه كما يحدث مع البائع المتجول والمحاضر والممثل فى المسرح ، او من بعد ، بوساطة اجهزة الاتصال. وفى حالة الاتصال وجها لوجه يكون لدى مصمم الرسالة فكرة ما عن حالة الفرد النفسية فالبائع المتجول يدرك عندما تفتح له ربة المنزل الباب اذا كانت هادئة ، سعيدة ، مضطربة ، عجوز ، شابة ، ويمكنه التصرف تبعا لحالتها . والمحاضر والممثل يؤديان ادوارهما حسب جماهيرها . هذا من المستحيل الوصول اليه فى حالة الترويج الدعائى للانتاج الضخم الذى يوزع على نطاق

---

(٩) Political Broadcasts : New York, Columbia Broadcasting System Inc. 1936.

واسع وبوسائل سمعية وبصرية متعددة. ولهذا يلجأ المعلن الى تحضير المستقبل ذهنيا وعاطفيا باستعمال المقدمات والافتتاحيات والالحان المميزة، كنوع من تكييف ردود الافعال، لما سيتبع، حتى في نشرات الاخبار، فهذه المنبهات تعمل على شد انتباه الجمهور وتهيئة توقعاته، كما نرى في العناوين الصحفية المثيرة، والوان الطباعة، وتصميمات الرسوم المصاحبة. ومن هنا يتضح ان كل معلومة تنقلها وسائل الاتصال تتكيف عند استقبالها من منطلق انها تبدأ **بحالة شعورية وتوقعية معينة**. وهذه هي المرحلة الاولى في الدورة.

بعد **التوقع** يأتي **الانتباه** وهو المرحلة الثانية. ولكن كيف تشد الانتباه في هذا الطوفان من وسائل الاعلام ؟ يمكن ان نلجأ الى عنصر الاثارة المتزايد ـ الالوان الصارخة، المؤثرات الموسيقية وتطورها المتزايد من الاحادي Mono الى الثنائي Stereo الى الرباعي Quadrephonic، الصور المجسمة المطبوعة الخ، اغلفة الكتب، تغليف السلع وتعليبها. وربما تتولد لدى الجمهور حساسية ضد هذا النوع من الاثارة فيحجم عن الاستجابة لها وهذا ما توصل اليه احد الباحثين: « احيانا يمكنك ان تشد الانتباه بأن تكون هادئا ».

وهنا يجب ان ندرك ان شد الانتباه ليس مجرد الاندهاش او الانبهار، **لانه وقتي ولحظي**، ولكن شيئا آخر: المشاركة. ففائدة **الجمهور كمستهلك** ليست في انبهاره بل في **السيطرة** عليه واجباره على **الفعل** والمشاركة. لا يكفي ان اعرف ان محمد علي كلاي يستعمل نوعا معينا من الكولونيا بعد الحلاقة، ولكن يجب ان يدفعني الاعلان لشراء هذه الكولونيا. وهذا الدور الايجابي للجمهور قد يتطلب منه استكمال الصورة. فقد تظهر صورة جزئية كاريكاتيرية لشخصية معروفة ـ خط يحدد الانف والفك مثلا، لا اكثر ولا اقل، **ولكنها اكثر فعالية**. فالمشاهد يجبر في هذه الحالة على استكمالها ذهنيا ويضطر للمشاركة الفعالة. (لاحظ صورة المنظر الجانبي لوجه الفريد هتشكوك في مسلسلاته) ونجد في (شكل ٢) الرسوم الصينية خير مثال على عدم ابراز جميع التفاصيل وكما يقول المثل الصيني « ان وجدت الفكرة، قل استعمال الفرشاة ». (١٠) كذلك في الادب، يظهر هذا الاتجاه في الاسلوب التلغرافي الحديث سواء في الشعر او النثر مما يجبر القارىء على ملء الفراغات، تماما كما يحدث عندما **تشاهد الصورة التلفزيونية غير واضحة المعالم**. وهذه العملية تشبه الى حد ما هواية حل الغاز الكلمات المتقاطعة او فك الالغاز. وقد نجبر على المشاركة **وملء الفراغ** في عنوان صحفي: « من هو رجل المخابرات المجهول » ؟ او من مجرد النظر الى صورة غامضة: سيدة شابة في الظلام تحفر حفرة في حديقة منزلها بجاروف كبير. ونبدأ في رسم حبكة: جريمة قتل، انها تخفي جثة. او قد نسمع لحنا جنائزيا او لحن زواج او نوبة بوق للهجوم او الانسحاب وهكذا. وهذه كلها وسائل تثير الانفعالات وتدعو للمشاركة وهي اقوى رابطة للاستحواذ على انتباه الجمهور. ويمكن اعتبار التنبيه كمكبر في العقل. فالاشارات التي تأتي من العالم الخارجي، او **المؤثرات** او المنبهات، مهما كانت عالية وقوية لن يكون لها اثر فعال ما لم يدخل هذا المكبر في الدائرة الكهربية

---

(١٠) Gombrich E.H.: **Art and Illusion**, London, 1968, p. 171



(شكل ٣)

للمخ لتكمل الدائرة ، لتقفل ، وسيزعق المكبر اذا ما مست هذه الاشارات ، **ولو برفق** ، تلك الاسلاك التى نسميها : الامل ، الخوف . وهكذا **ونحن فى حالة شعورية وتوقعية معينة تثير اشارات داخلة معينة انتباها ، فننتقل الى المرحلة الثالثة وهى العاطفة المبذولة .**

هذه الاستجابة للانتباه تشجعنا على بذل مزيد من **العواطف** ! وفى اول الدورة فى مرحلة تكييف التوقعات ، كان لاسلوب السرد فوائده . اما فى هذه المرحلة فنجد ان الاسلوب الدرامى هو الاجدى ، اسلوب العرض لا اسلوب القول . ففى مشاهدة العرض تنبذ اهاب شخصياتنا ، ننسى انفسنا . ويتبع رجال الادب فى الرواية نفس الاسلوب ، فيقول لهم هنرى جيمس « لا تصف ، بل قدم » وكان الرواية (السرد) قد انقلبت الى مسرحية . لقد راينا ان اسلوب المواجهة فى الاتصال افضل الى حد ما من اسلوب مخاطبة الجماهير . اما الآن فيمكن القول بأن اسلوب الاتصال الجماهيرى له من المزايا ما لا يستطيع الاتصال وجها لوجه تحقيقه . التوصيل الجماهيرى اكثر فعالية لانه يجنب المشاهد او المستمع المواجهة . فالمواجهة تربطنا بذواتنا ، بشخصياتنا ، تثير مكنوناتنا الى اقصى حد . اما الاتصال الجماهيرى فيحفظ لنا عزلتنا واسرارنا ، ويتم ذلك والمشاهد او المستمع فى داره ، فى سريره ، فى سيارته ، فى الحمام او فى المسرح . لهذا يتم التقمص بدرجة كبيرة . **الى هنا نجد انه ونحن فى حالة شعورية وتوقعية معنية تثير اشارات داخلة معينة انتباهنا فتلامس مصادر طاقات عواطفنا الخفية لترفع ضغط تيارها** وبهذا نصل الى المرحلة الثالثة : الثارة العاطفة كما راينا .

فى المرحلة الرابعة من هذه الدورة نصل الى مرحلة **تجميع المعلومات** من الموضوع . ومن الواضح ان **المعلومات** قد لعبت دورها فى المراحل السابقة ، ولكن العقل الآن ، وقد دفعناه للبحث ، يبدأ فى الاستجابة بشكل مثير . فتنضخم بعض المعلومات الوثيقة الصلة بالموضوع يستمدها

العقل من مستودع ذاكرته ، وتبرز وتخرج الى حيز الوجود . كما يصبح لدى العقل طاقة متزايدة لجمع معلومات جديدة . فالعقل يجد صعوبة في استيعاب معلومات جديدة ما لم تكن متصلة اتصالا وثيقا بحاجاته ورغباته ، ولا شيء أسهل من تمثل معلومات مرغوب فيها . ولو نجح الاعلان فيما سبق فسيشتري المشاهد السلعة . ولو نجح العنوان الرئيسي في جريدة فسيشتري القارىء الجريدة ويقرأ الخبر لانه يحتاج لهذه المعلومة . ولو نجحت المناظر الاولى في مسلسل او فيلم فيما سبق فسيواصل الجمهور مشاهدته . الا نقول ان الكتاب يعرف من عنوانه !

المعلومات ـ وهي المرحلة الرابعة ـ تلعب دورا هاما في جميع انواع الاتصال ويستطيع الكاتب المحنك ان يحرك الجمهور المهيأ ذهنيا وعاطفيا ونفسيا ويمر به بهذه المراحل : **التوقع، الانتباه ، التعاطف ، المعلومات** . والمعلومات التي تعبر الطريق بين المرسل والمستقبل بطريق الورق او الفيلم او الضوء او الاثير ، لا يتم ادراكها وتمثلها الا اذا كانت تشبع حاجات المستقبل ورغباته . وعندما ينشط العقل هكذا ، لا يتوقف عند استقبال المعلومات وجمعها بل يأخذ في **استنباط الافكار وتكوين الاراء** . وهكذا نصل الى المرحلة الخامسة . فالافكار سواء ظاهرة او باطنة ، واضحة او خفية ، تلعب دورا هاما في الاتصال . فكل رسالة لها تركيب محكم كالمسرحية او الرواية او المقال او الكارتون او الاغنية او الاعلان عادة ما يكون لها فكرة رئيسية . وينقسم الناس الى فريقين ، فريق يعتقد ان الفكرة هي التي تخلق العاطفة وفريق يعتقد ان العاطفة هي التي تخلق الفكرة . وعلى كل حال يبدو ان العقل يتأثر بالفكر والعاطفة معا . ويمكن تشبيه العلاقة بين الفكرة والعاطفة بنهر وشفتيه . فالنهر المتدفق هو العاطفة ، والشفتان الفكرة ، مجرد تنظيم لاحتواء مادة النهر ذاته . ويمكن النهر ان يفيض ويغمر الشفتين ولكنهما تتحكمان في توجيه النهر الى مصبه .

ما ان نصل في هذه الدورة الى المرحلة الخامسة ـ تكوين الافكار ـ حتى نكون على استعداد لاداء الفعل . فالدوافع التي توقظها وسائل الاتصال تتطلب التعبير عنها بطريق الفعل . وخلال الدورة تسري في جسد المشاهد موجات عبر جهازه العصبي تعده للفعل وقد ثبت ذلك في مشاهدي التلفزيون من الصغار ، فيتصبب منهم العرق ويتنفسون بعصبية عند انتهاء فيلم رعاة البقر او فيلم المغامرات والعنف ويتقض الواحد منهم على الاخر ويتلاكمون . ولا ادل على قوة التقمص من النتائج التي توصل اليها ماكورث (١١) . فقد اثبتت الكاميرا المثبتة على رؤوس الاولاد وهم يشاهدون التلفزيون ان عيونهم تتبع ردود الافعال على وجوه الشخصيات ولا تتابع الافعال ذاتها . فتجد أن عيونهم لا تحيد عن وجوه الممثلين حتى اثناء مواقف العنف . وترتكز فعالية الافلام التعليمية على هذه الظاهرة . فالتقمص ينشط الغدد والعضلات ويعدها ويحفزها للفعل والحركة والاداء .

(١١) Understanding Media, p. 309. (Television).

وبعض المواد الاعلامية يحسمها الحديث عنها ، فيكمل التحاور فيها معناها ويزيد من ابعادها . وما الضحك والدموع — في الكوميديا والتراجيديا — الا اساليب اخرى تكتمل بها المعانى بطريق المشاركة . والفعل الفورى المباشر لا يرضى او يشبع الرغبة فحسب بل يحسم ويثبت المعلومة . وهذا ما تصبو اليه وسائل الاعلان ، فغاية ما تريد الوصول اليه هو ان تستعمل ربة البيت الكوبون الموجود على صندوق مسحوق الغسيل أو داخل علبة الشاى . فاذا فعلت ذلك فستتذكر الاعلان ورسالته وفحواه. فهزة لحظية لمشاعر العقل الباطنى فى اعلان ما قد لا تضمن تذكر المشاهد له ، ولكن اذا كان رد الفعل المباشر لهذه الهزة فعلا واعيا فمن المرجح ان يتذكر المشاهد مضمون الرسالة .

وجدنا فى بداية الدورة ما للمواجهة من اهمية فى الاتصال . وفى هذه المرحلة الاخيرة نجد ان المواجهة تلعب دورا هاما مرة أخرى . فما يقوله الناس يزيد او يقلل من فعالية الأثر المنشود . لقد انتهت تمتمات الدراما ، وعدنا الى انفسنا . فالأثر الاخير الذى يخلفه فينا اعلان ما قد يتوقف فى نهاية الأمر على ما يقوله لنا البائع المتجول . ويمكن القول ان وسائل الاتصال ليست غاية فى حد ذاتها بقدر ماهى وسائل او وسائط تغذى وسائل الاتصال بالمواجهة وعادة ما يكون اثر وسائل الاتصال وفعاليتها من خلال ما تثيره من حديث وقيل وقال وفعل ورد فعل ، فهى تكتسب قوتها من هذه التموجات التى تثيرها فى بادىء الأمر حتى تصبح **تيارات فكرية** . ومما يؤكد اهمية المواجهة ان البائع المتجول او الوسيط لا يمكن الاستغناء عنه . فبالرغم من تقدم وسائل الاعلام يتزايد عدد الباعة المتجولين . فوسائل الاتصال ما هى الا القدم التى يحشرها البائع المتجول فى باب المنزل او المكتب أما الباقى فيتوقف على شخصيته ولباقته وفهمه للمواقف . فبدون وسائل الاتصال سنراهم يعملون تحت ظروف معوقة ، ومع ذلك فهى لا تستطيع القيام باعمالهم . ونفس الشىء يمكن أن يقال عن المدرسين ، فقد نادى البعض باستعمال التلفزيون التعليمى والدوائر المقفلة بهدف الاقلال من عدد المدرسين ، وهذا افتراض خطير . فالتلفزيون مثله كمثل السينما والراديو والمطبوعات ، يجب ان يعتبر وسيلة قوية تغذى وتثرى ما يدور فى قاعة الدرس . فبدون المعلومات والخلفيات الحضارية التى توفرها وسائل الاعلام كلها لا يستطيع المعلم ولا الطالب الالمام باطراف حضارة هذا العصر ، ولكن وسائل الاعلام لا يمكنها ان تكون بديلا لهيئة التدريس .

انواع المواد الاعلامية : تتشابه المواد الترفيهية والاخبارية والاعلانية والدعائية والتعليمية فى اوجه كثيرة ، فكلها توجه المشاعر نحو **الافكار والافعال** . ولكنها تختلف فيما بينها فى نوعية الفعل المراد تحقيقه ، كما انها تختلف فى نوع المقاومة التى تهدف للتغلب عليها .

فالمادة الترفيهية توجه عواطفنا نحو تدعيم الافكار المسلم بها وفائدتها المباشرة هى الاقلال من التوتر . والفعل النهائى فيها هو تجديد القبول والتسليم بالحاصل . ولا نواجه فيها مقاومة تذكر . **والمادة الاخبارية** تؤكد اهمية المعلومة — ومن وجهة نظرية بحتة ، اى معلومة من اى حدث جديد . ولكن اذا كان ولا بد ان يكون للخبر قيمة فيجب ابراز الحدث الذى يمس العواطف ويشجع على التقمص ، ولهذا يقابل هذا النوع من الاخبار بمقاومة طفيفة من

جانب الفرد . **المادة الاعلانية** لترويج سلعة أورأى تعول على أهمية الفعل ، فهى توجه العواطف نحو سلع بعينها أو نحو خدمات معينة . وهنا قد تظهر المقاومة من جانب الفرد . ولكن اذا كانت المكافأة واضحة ، واذا كانت السلعة أوالخدمة لا تتعارض مع أفكار مسلم بها ، فقد لا تكون المقاومة كبيرة ، كشراء معجون الاسنان . ولكن عند شراء سيارة جديدة يختلف الأمر . **المادة التعليمية** تدفعنا بطريق خطة عمل آجلة نحو أهداف بعيدة ، فهى توجه عواطفنا نحو البحث الدائب المستمر المنتظم من المعلومات والأفكار . ولأن المكافأة ليست مباشرة فمن الضرورى فى هذه الحالة مواصلة اعادة توجيه الدوافع القوية لكى يمكن التغلب على المقاومة من جانب الفرد . **المادة الدعائية** تدفعنا الى قبول أفكار جديدة وسلوك جديد . وهنا قد تكون المقاومة على أشدها .

ماذا يحدث للجيل الجديد فى هذا الطوفان من الافلام والمسلسلات والمجلات . فشباب اليوم محاط بصور أبطال تدعوه وسائل الاعلام المختلفة وبشتى الطرق الى تقمصها . وفى لحظة ما يجد الشاب نفسه وقد ارتبط بشخصية سينمائية ، تلفزيونية ، اذاعية ، مدرسية ، روائية ، مسرحية . ولما يتضح له التكرار فى هذه الانماط فينفصل عنها ليبحث من جديد من بطل آخر ، دائرة مفرغة ، واخيرا يواصل البحث على غير هدى لا يدرى ما هو الذى يبحث عنه . طاقة تبدد ، وقوة هائلة تبحث عمن يوجهها تبحث عن اتجاه ، وربما عن جذور . من الذى سيوجه هذا التيار الخفى ؟ ما هى الهواجس التى ستتسلط على من هم بدون أهداف ؟ هذه القوة الخفية تترنح مرة فى هذا الاتجاه ومرة أخرى فى اتجاه معاكس . وتصرف الملايين كل عام فى الطباعة والاذاعة والافلام لتحديد اتجاه لهذه القوة . ويدخل فى هذا الصراع للسيطرة على العقل الجماهيرى عدة آلاف من المنظمات والمؤسسات . ولننظر فى الادوات والوسائل التى تلجأ اليها هذه المؤسسات :

١ ـ الصفحة المطبوعة :

« فى البدء كان الكلمة » . والكلمة المطبوعة وسيلة فعالة للوصول الى عقول وقلوب وعواطف الجماهير وبالتالى تؤثر فى الفكر والفعل والسلوك . للصفحة المطبوعة جانب واحد ضعيف ـ انها صامتة تخلو من الصوت ـ ولكن هذا الضعف مصدر قوة لها . فهى الوحيدة من بين وسائل الاعلام التى تمكن القارىء من تحديد سرعة القراءة وايقاعها ، والتمهل واعادة القراءة والتوقف ومعاودة القراءة والتذوق بل وتمزز الكلمات والاستمتاع برنين جرسها . هذا ما تتميز به الصفحة المطبوعة . (وان كان الفيديو وشريط الكاسيت الآن يتنافسان للحصول على هذه المزايا) . وستظل الصفحة المطبوعة ولكثير من الناس (ربما حتى نهاية هذا القرن) هى المصدر الرئيسى للمعلومات (ان لم تقض عليها بنوك المعلومات) . وهناك ضعف آخر فى الصفحة المطبوعة يعتبر مصدر قوة ، فالكلمة المطبوعة تتطلب من القارىء جهدا أكبر من أى وسيلة اعلامية أخرى .

أولا : جهد القراءة ، ولكثير من الناس وبسبب قصور فى التدريب على القراءة السريعة ، يعتبر هذا الجهد مرهقا .

ثانيا : تتطلب القراءة خيالا مستمرا ، ومن يجيد هذا التخيل يكون حصاده من النص أوفر، وبمدى مشاركته في خلق أجواء النص. فالاستمتاع بالقراءة يتناسب تناسبا طرديا مع القدرة على الاشتراك في خلق المعاني عن طريق التخيل . ونجد أن فعالية الشعر وقوته تكمن في هذه اللعبة الطريفة بين الشاعر والقارىء . ولهذا تعتبر الصفحة المطبوعة افضل وسيلة اتصال بالجمهور المنتبه ، فهي لا تحاول أن تشد الانتباه او تجتذب ، فالجمهور هنا هو الذى يبحث عن الكلمة . وربما اطلق عليها افلاطون « وسيلة السرد الرزين » فهي قلما تلجأ الى الاسلوب الدرامى . ومنذ عام ١٨٣٠ زحفت فنون اخرى الى الصفحة المطبوعة ـ فنون درامية كالحوار والرسم والصور والكاريكاتير والالوان ثم الرسوم الهزلية . وهذه الفنون التصويرية توفر مجالات للتعبير عن العواطف عن طريق التقمص . وادى استخراج النسخ الفوتوغرافية وتطور الروتوغراف في الصحافة والاخبار المصورة بكل ما فيهما من طاقات للعرض الدرامى والأبهة والعظمة ، الى البعد بالصفحة المطبوعة الاولى والاقتراب بها من الفيلم السينمائى ، كما يتضح من اساليب الفيلم السينمائية كاللقطة القريبة والبعيدة والمزدوجة . ولكن هذه الفنون التصويرية ساعدت الصفحة المطبوعة في الدخول في منافسة مع السينما والتلفزيون . ففى الفيلم وفى التلفزيون تنحرم الصور ، اما في الصورة المطبوعة فيمكن تثبيت الابتسامة الجميلة التى ترتسم على وجه طفل (وان كانت الات العرض السينمائى والفيديو هى الاخرى تتميز الان بوجود مفتاح لتوقيف الصورة اثناء العرض واللحظة الحاسمة في تسجيل هدف كروى . وهذه الصورة الثابتة يمكن دراستها وقصها والاحتفاظ بها وتامليتها ودراستها والعودة اليها فيما بعد . وعندما يتحرر القارىء والمشاهد من التقيد بزمن محدد للمشاهد الاحظ جهاز الفيديو الحديث الذى يمكن توقيته اليا لتسجيل برامج لمدة ايام) يمكنه اتخاذ القرار الذى يناسبه .

تنتشر الكلمة المطبوعة عبر قنوات عديدة لكل منها جمهورها وتخصصاتها ؛ وتحت سيطرتها المطابع والالوان ومساحات الاعلان . وبالاضافة الى وكالات المطبوعات والنشر يجب أن نشير الى المنشورات واللافتات وبطاقات السيارات والملصقات والروزنامات وعلب الثقاب والسجائر والملابس ، فالكلمة المطبوعة لها القدرة على ان تلتصق بأي شيء حتى الهواء ـ طائرات الاعلان التى تكتب بحروف من دخان اسم سلعة على ساحل بحر في شهر الصيف مثلا تسحب اعلانا يرفرف خلفها .

٢ ـ الفيلم : بدات الافلام بالصور المتحركة ثم اصبحت ناطقة باضافة الصوت . اما الصحافة فقد بدات بالكلمة المطبوعة ثم اضافت الصور . واستطاعت الصحافة الاولى بما لديها من قوة الكلمة ان ترضى الجمهور المتخصص ، واستطاع الفيلم الصامت بما لديه من صور أن يرضى الجمهور العريض . ويجب الا ندهش لهذه الاستجابة الفورية للصور المتحركة (دراما) اذا ما تذكرنا كلمات افلاطون . ظهر الفيلم الصامت قويا منذ البداية ولكنه عجز عن التعامل مع الافكار ؛ وبعد اضافة الصوت اصبح من اقوى وسائل الاتصال الجماهيرية . ولكن ظهر في الفيلم الجديد صراع بين الحركة والكلمة ، وفي صراع من هذا النوع نجد ان الكلمة يجب ان تفشل لانه صراع بين الدراما والسرد ، ولهذا سيطرت الحركة على الفيلم لانها تتعامل مع العقل الباطن وغالبا ما تقول ان سبب نجاح الفيلم يعود الى وجود الحركة فيه Action .

تلعب المعلومات والافكار دورا هاما في الاتصال خاصة في الافلام التعليمية والاخبارية والدعائية ، وفي هذه الافلام تعتبر زيادة الحرص على توصيل المعلومات والافكار حجر عثرة في سبيل توصيلها . كيف ؟ كلما كثر الشرح والكلام في هذه الافلام كلما قلت استجابة المشاهد لها . ان **الحركة** هي التي تشد الانتباه ، وتأتي الكلمات (ويقدر) لتبلور الفكرة ، **ولكن لابد ان يصاحب الكلمة فعل وحركة** ، اي لاكلام بدون صور (والاسبيع التلفزيون في مثل هذه البرامج التعليمية والتثقيفية كالاذاعة) . حتى في الافلام الاخبارية المصورة ، قد يظهر المتحدث لثوان ثم تختفي صورته ، وقد نسمع صوته دون ان نراه .

بدأت الافلام اول ما بدأت بتقليد اسلوب المسرحيات ، اي تصوير المناظر من مكان ثابت لتظهر الشاشة وكأنها المسرح ذاته اي ان الكاميرا كانت تصور المنظر بأكمله ـ جميع الشخصيات الموجودة على المسرح داخل الكادر . وكان الممثلون في الافلام القديمة ، كما في المسرح ، يواجهون الجمهور ، وكانت المناظر تبدأ بدخول الممثلين كما على خشبة المسرح وتنتهي بخروجهم . وللحرص على تقليد المسرح ظلت الكاميرا عاجزة عن الحركة السريعة . واخذت السينما تتحسس طريقها ببطء بتغيير مكان الكاميرا فتصور المنظر من زاوية معينة ثم تنتقل لتصوره من **زاوية اخرى** . ولم يشعر الجمهور بالدوار او الحيرة وبدأ يتكيف مع هذا الاسلوب الجديد في التصوير وفي مشاهدة المنظر الواحد **من وجهتي نظر مختلفتين او اكثر** . وجاءت فكرة جديدة : في وسط منظر معين تأتي اللقطة القريبة ولوقت قصير جدا ، الم تكن هذه الفكرة مخالفة لطبيعة الاشياء بل ضدها ؟ هذا بالاضافة الى ان اللقطة القريبة تلغي كل ما حولها وتركز على مساحة صغيرة ـ **الوجه** ، **العين** اليد مثلا . هل تقبل الجمهور ذلك ؟ نعم ، لقد تحرر الانسان من قيوده الجسدية . نستطيع الان ان نقفز الى اعلى البناية لنشاهد عن كثب وجه الرجل الذي ينوي **الانتحار** ، **ونشاهد** الانفعالات التي ترتسم على وجهه . ورحب الجمهور بهذه الحيل السينمائية الجديدة ـ منظر سقف الحجرة من ارضيتها ، ومنظر ارضية الحجرة من سقفها ، منظر الشارع من النافذة ومنظر داخل الحجرة بالاطلال عليها من النافذة . وتمتع الفيلم بحرية كبيرة في الحركة لم يتمتع بها العرض المسرحي المألوف . واصبح الفيلم مجموعة من اللقطات المحسوبة بدقة متناهية . ولم **تصبح الاشياء** الموجودة على مسرح **الاحداث** مجرد **اشياء** ، بل اصبحت كالشخصيات في المسرحية تدخل الكادر في اللحظة المناسبة لتلعب دورها ثم تختفي . نرى صورة رجل يجلس الى مكتبه وتسلط الكاميرا على شهادة في اطار على الحائط خلفه فنعرف انه طبيب ، وتعود تنظر مع الكاميرا داخل منفضة السجائر التي دخنها . وهذه **الاشياء** على المسرح لم يكن باستطاعة المخرج المسرحي ان يبرزها الا عن طريق الحوار . فالكاميرا توفر الكثير من الجهد ، فاقل تشنج او تقلص عضلي في الوجه يحمل من المعاني ما تعجز الكلمات عن وصفه . وتكتسب هذه التقلصات ابعادا عديدة في نفوس الجمهور كل حسب شدة مشاركته في استقبالها والاستجابة لها . وعن طريق سلسلة من اللقطات الذكية يمكن اشراك الشاهدين في استقبالها حتى لتصبح كل حركة طفيفة فعلا ضخما .

٣ ـ **الراديو** : لفترة طويلة ظلت الكلمة المطبوعة تتنافس مع الكلمة المسموعة ، الى ان اجتذب الراديو الجمهور العريض والكتاب الجمهور المتخصص . والراديو كالكلمة المطبوعة

لا يقدم صورا توضيحية وانما يوحي للمستمعيها . والراديو لا يحتاج الى معدات للتصوير او الاضاءة بل له القدرة على اثارة هذه المناظر عن طريق المؤثرات الصوتية . وفي الراديو ، كما في الكتاب ، يتقبل الناس المذيع او الراوي بسهولة(فنحن نسمعه ولا نراه) . والراديو هو اساسا وسيلة للسرد ، للحكي . المذيع هو الراوي في كتاب ولكن مع هذا الفارق . في الراديو يمكن اضافة اصوات الناس والاشياء ، والموسيقى ،وهي عنصر درامي ، اجتذب الملايين من الناس . ولم يكتف الراديو بان يكون اداة للسرد بل سعى لتقديم الدراما ووجد الراديو قوته في اضعف جانب فيه ، لان الراديو هو وسيلة الاتصال الوحيدة التي لاتحتاج للعين . ولهذا يمكنه ان يخدم جمهورا نشطا متحركا : ياكل ، يستحم ،يعمل ، يذاكر ، يتسوق ، يسافر ، يسترخي ، في النور وفي الظلام . واصبح الراديو رمزا لتصميم وسائل الاتصال المتنافسة على شغل اي وقت فراغ باق للانسان او شد اي جزء من انتباه تبقى له . واصبح الراديو هو الرفيق الدائم .

وظهرت اجهزة الراديو الصغيرة ـ في الالات الحاسبة ، في ساعات اليد ، في علب السجائر المعدنية ، في علب البودرة للسيدات ، في اقلام الحبر ، في الزجاجات في الولاعات ، في اي شيء يمكن تركيبه فيه . وكان من الضروري اعادة التطرق برامجه فانت لا يمكنك ان تستمع الى تمثيلية اذاعية وانت في طريقك الى المطار . وكان لابد من تصميم برامج قصيرة ، وسرعان ما عاد الراديو الى الاعتماد على الراوي في جذب الجماهير ـ مقدم البرامج المنوعة ، وما يطلبه المستمعون ، احسن ٢٠ اسطوانة ، صحافتنا اليوم ، اخترنا لك ، التعليق على الانباء ، على الناصية ، احاديث دينية ، فنجان شاي الخ . وقل عدد البرامج الدرامية ، وما تأثر منها قصر زمنه وطغى عليه السرد (قراءة القصص القصيرة ومن المسرح الغنائي كما في صوت امريكا) . وهذا الاهتمام بالسرد لم يؤثر على جمهور الراديو ، فالراديو يزدهر وينجح كلما كانت برامجه بسيطة سهلة شانه في ذلك شان الكارتون والرسوم المتحركة والقصيدة القصيرة ، تظهر فعاليته كلما اقتصد في وسائله وهي :

١ ـ **المؤثرات الصوتية** : فالاصوات تخلق صورا ، ولكن صور الاصوات تختلف عن الصور المطبوعة لانها توحي بشيء يحدث ، شيء متحرك . والعين ترى الاشياء الثابتة ، اما الاذن فلا تستطيع تمييز ما تعنيه الاصوات بدقة . فيكفي مثلا صوت الضفادع ليوحي الينا بان ما سيحدث سيكون في المساء او ليلا .

٢ ـ **الموسيقى** : وتستعمل غالبا مع السرد ونادرا مع الحوار . فمع السرد تضيف بعدا دراميا للحدث ، ومع الاغاني الشعبية والالحان الناجحة من العوامل المثيرة للعواطف وبالتالي تؤدي الى التقمص .

٣ ـ **الحوار** كما في اي وسيلة اتصال اخرى يساعد على المشاركة ، ويمكنه ان يشجع على التقمص واثارة العواطف اكثر من مجرد السرد . ولكن الحوار في الراديو يفتقر الى شيء هام موجود اصلا في حوار المسرح والفيلم ـ الرؤية . لهذا يجب ان يسمع الجمهور ما يعينه على تحديد المكان والشخصيات المتحاورة ليرسم المشهد في ذهنه . ولهذا يلجأ الراديو الى السرد لتحديد المكان

والزمان ، ويلجأ للحوار لشحن العواطف ، فالسرد يوجه العواطف والحوار يثيرها . وقد ساعد المسجل الراديو على العرض الدرامي ومزج الموسيقى بالسرد في شكل درامي مثير ، خاصة وان المادة المسجلة على الشريط يمكن ترتيبها وانتقائها واعادة ترتيبها وحذف ما نشاء منها . ولكن أهم شيء يتميز به الاتصال الاذاعي في النهاية هو البساطة التي تعتمد في المقام الاول على المذيع . والبساطة تعني ايضا الاقتصاد في التكاليف .

التلفزيون : لايعتبر التلفزيون مجرد راديو + شاشة ، ولا مجرد سينما في المنزل ، فحينما شاهد رجال السينما الافلام العادية على شاشة التلفزيون اتضحت لهم افكار معينة اولها : في التلفزيون لابد من التركيز على اللقطات القريبة ٢، ـ عليهم الاعتماد على عدد قليل من الممثلين ، ٣ ـ عليهم ان ينسوا الاعتماد على حيل وفنون الاضاءة . وفي الحال حدث فصل بين شركات الافلام التلفزيونية . والتزمت الافلام المسرحية بالشاشة العريضة (سينما سكوب) واهتمت بابهة المناظر وبانوراميتها وطلبت من الكتاب روايات بها من الادوار ما يكفي لسبعة او ثمانية ادوار رئيسية . اما التلفزيون فقد اكدت افلامه على المودة والالفة (اللقطات القريبة الحميمة) والمواجهة والاحاديث الخصوصية والحوار ، وطلب من الكتاب روايات بها مالايزيد عن ثلاث او اربع شخصيات . وكما قال احد المخرجين في اذاعة كولومبيا : « التلفزيون مجهر ، وليس كالمنظار » .

كانت الافلام التلفزيونية وليدة هوليود اما التلفزيون الحي او المباشر فكان وليد نيويورك ، والفرق بين تكنيك عاصمة السينما على الساحل الغربي وتكنيك عاصمة الصحافة والمال على الساحل الشرقي كبير . ولكن تقنيات واساليب وفنون الافلام تؤثر في افلام هوليود التلفزيونية ، اما تلفزيون نيويورك فكان متاثرا برجال الاذاعة والصحافة والمسرح . ولكثير من الناس لم يقدم تلفزيون نيويورك اى اضافة ملحوظة على الافلام المسرحية . ولقد قام التلفزيون الحي او المباشر شيئا لم يقدمه الفيلم السينمائي : الزمن الفعلي . فلسنوات كانت الوحدة في الفيلم السينمائي هي « اللقطة » التي اضفت على السينما نوعا من قوة التأثير على المشاهدين بالاضافة الى مرونة هذا الاسلوب في الاخراج . ولكن هذا المكسب للفيلم كان يقابله خسارة من جانب آخر . فلم يكن الممثل في الفيلم السينمائى مدركا لدوره كاملا في الفيلم لانه كان يركز على بضع لحظات من دوره **الكامل** في كل مرة ، وكان همه ينحصر ، وهذا شيء طبيعي ، في الوصول الى كمال **اللحظة**. اما ايقاع الفيلم من اوله الى آخره فكان يعتمد على **المخرج** . والمونتير الذى يمكنه اختزال لحظات مديدة في لقطتين او ثلاث وتكون النتيجة الابتعاد عن العلاقات الزمنية الفعلية ، وهكذا يصبح للفيلم ايقاعه الزمنى الخاص به .

في افلام دور السينما لا يفطن الجمهور لذلك ، فرؤوس الممثلين والاشياء في الفيلم على الشاشة ضخمة (فما بالك بسينما السيارات) والاصوات مضخمة ، ولهذا لا يمكن مقارنة ما يراه بواقع الحياة سواء من ناحية الحجم اوالايقاع . ولكن على شاشة التلفزيون تقترب رؤوس الممثلين ووجوههم من احجامها الطبيعية الى حد ما والمسافة بين الشاشة والمشاهدين مسافة معقولة ، تكاد تكون المسافة التى بين اثنين في حديث ودى وجها لوجه ، ونحس بما

هو غير طبيعى من ناحية المسافة والصوت ونقيس ونقارن هذه المؤثرات ، دون وعي منا ، بوقائع الحياة . ومع التلفزيون يحس الجمهور بواقعية الواقع ، بحقيقة الحقيقة وبوهم الوهم . وقد اعطت الافلام التلفزيونية الممثل وضعا ايجابيا قلما تسمح به الافلام السينمائية التى كان الممثل فيها اداة فى يد المخرج حتى ولو كان نجما مرموقا .

التلفزيون وليد عصر الالكترون ، عصر ثورية الكهرباء . وقد انعكس هذا على اسلوب الاخراج والتمثيل والتصوير التلفزيونى . فبدلا من مصور واحد فى الاخراج السينمائى لديه الوقت لضبط الصورة والزاوية والاضاءة **فى كل لقطة على حدة** ، نرى الاخراج التلفزيونى يستغل امكانيات عدة آلات للتصوير **دفعة واحدة** . وبدلا من المخرج الذى يراجع ويعيد اللقطات على مدى اسبوع او اكثر نجد ان المونتاج فى الاخراج التلفزيونى يتم **اثناء التصوير** .

على مدى نصف قرن تجنبت السينما ، كما تجنب المسرح ايام شكسبير ، اسلوب السرد. وفى الافلام الصامتة كان « السرد » **مطبوعا** على الفيلم . ولكن مخرجي التلفزيون وجدوا ان السرد يناسب التلفزيون اكثر من مناسبته للسينما . لان الوجه الذى يظهر لك على شاشة السينما ليطلب منك التبرع بدمك مثلا وانت جالس فى الصالة لاتستريح اليه نفوس المشاهدين ــ وجه ضخم مساحته ٢ × ٢ متر ، ولكنه « على شاشة التلفزيون ، ومهما بلغ حجمه (اكبر حجم لشاشة التلفزيون ٢٦ بوصة) يبدو وجها عاديا ، مألوفا مثل وجوهنا . هذا الوجه « الطبيعى » يمكنه مخاطبتك بنوع من الالفة وانت جالس فى بيتك ، فهو وجه يخاطبك « شخصيا » . من هنا جاءت اهمية السرد فى التلفزيون ، الواجهة . وتعتمد البرامج التى من هذا النوع على شخصية المتحدث . وعندما يكون الوجه وصاحبه مناسبين يمكن للسرد فى التلفزيون ان يكون اقوى من اى وسيلة اتصال اخرى . ونجحت برامج ادب وادباء ، واوتوجراف ، وغيرها لهذا السبب مع عدم وجود العرض الدرامى . فقد وجه الينا عظماء العالم من امراء وسياسيين وقادة وكتاب وشعراء وادباء انفسهم من خلال الشاشة الصغيرة وان ظل بعض المخرجين يقحمون فى هذه البرامج الناجحة بعض الاغانى او مشهد من مسرحية وقد ينهى المقدم برنامجه بسؤال الضيف : ماذا تحب ان ترى او تسمع ؟ فى هذه البرامج نحب ان نتأمل الوجه الذى طالما رأينا صورته على صفحة رواية رائعة قرأناها ، الوجه الذى لمحناه فى موكب مهيب رسمى ، الوجه الذى طالما سمعنا بصاحبه . نراه من كثب ونسمع صوته ونتأمله وننفذ الى نفسه وكأننا انفسنا فى حوار شخصى معه فى منزلنا مع فنجان شاى . هنا يساعد السرد وهذا القرب من الشخصية على الاستمتاع بدفئها ، على خلق فعالية درامية تعجز عنها وسائل الاتصال الاخرى . ومثل هذه البرامج توضح لنا الامكانيات الضخمة التى يمكن استغلالها فى البرامج التعليمية .

فى النهاية نسأل : من الذى **يخطط** ويصمم لكل هذا ؟ افراد ؟ هيئات ؟ مؤسسات ؟ من الواضح وجود طاقم من المتخصصين بعاونه آخرون متخصصون فى كل ميدان ــ الكتابة ، الرسم ، الاخراج . بالاضافة الى ابحاث علماء النفس والاجتماع والتربويين والفلاسفة . المهم هو وجود مزاج ملائم فى الشعوب يجعلها مفتوحة **ومستعدة** لتقبل الجديد **بحذر** . وهذا تقليد يمنحها حرية البحث من الحقيقة واحترامها .

قبل من جديد ! لننظر الى بعض الأبعاد الجديدة لانسان القرن العشرين .

٣ ـ الأبعاد : الى اين ؟

(١) « تعمل تكنولوجيا الكهرباء والالكترون في عصرنا هذا على اعادة تشكيل واعادة بناء انماط التوافق الاجتماعى وكل جانب من جوانب حياتنا الشخصية . فهى تجبرنا على اعادة النظر واعادة التقييم لكل فكرة ، لكل عمل ، لكل نظام كنا نسلم به من قبل جدلا . كل شيء يتغير ـ أنت ، وعائلتك ، وجيرانك ، وتعليمك ، ووظيفتك ، وحكومتك ، وعلاقاتك بالآخرين . وكل شيء يتغير بشكل درامى مثير The Medium is the Message P. 8.

(٢) « أفاد احد مفتشى الصحة العامة . . هذا الاسبوع ان فأرا صغيرا كان في القالب يشاهد التلفزيون ، هاجم قطة صغيرة وقتلها كاملة النمو . . . لم يصب الفأر او القطة بسوء ، ونحن نسجل هذه الحادثة هنا لنذكر ان الاحوال على ما يبدو قد اخذت تتغير . »

جيمس ريستون في جريدة نيويورك تايمز ٧ يوليو ١٩٥٧

(٣) انتشار حالات هجوم الفئران على الانسان في الكويت

« اكد مصدر مسؤول باللجنة العليا لمكافحة الفئران ان من بين اهم الاسباب التى استدعت الاسراع بتنفيذ الخطة القومية لمكافحة الفئران هي انتشار حالات هجوم الفئران على الانسان في بعض المناطق التى تتميز بكثافة وجود الفئران نظرا لتوافر عوامل ومسببات تواجده .

جريدة السياسة الكويتية : صفحة ٦ : السبت ٢٩ مارس سنة ١٩٨٠ .

يقول مارشال ماكلوان (١٢) ان العالم الغربى ، وبعد ثلاثة الاف سنة من التقدم الحضارى المتسارع الانتشار والتفرع عن طريق التقنيات الميكانيكية المجزئة قد بدا يسعى حثيثا ، ومنذ تطور استعمالات الطاقة والكهرباء ، الى الانطلاق في اتجاه جانب معاكس نحو المركز : تمدد وانبساط يتبعهما الآن تقلص وانقباض . لقد ساعدت سرعة الكهرباء الفائقة على انكماش الكرة الارضية وتقلصها في الزمان والمكان حتى اصبحت قرية Global Village ، وبالتالى زاد وعى الانسان بمسؤوليته الى درجة قصوى . ويمر الغرب الآن بفترة يمكن ان يطلق عليها **عصر القلق** (عنوان قصيدة طويلة ـ ١٩٤٨ ـ للشاعر و . هـ . اودين وهى خليط من الميثولوجيا والتاريخ القديم واغانى حديثة من صندوق الاسطوانات) ، لان الثورة الالكترونية الفورية الجديدة تجبر الفرد على الالتزام والمشاركة ، وبعمق ، وبغض النظر عن « وجهة النظر » التى يتبناها . **فوجهة النظر** الخاصة الجزئية مهما كان نبل مقصدها لن تفيد في عصر الكهرباء والالكترون الآلى الفورى .

---

(١٢) Mc Luhan M. : Understanding Media, London, 1970 pp. 3.5.

في عصور الآلة الميكانيكية المتعاقبة سعى الانسان الى بسط جسده بشتى الطرق على سطح هذه الكرة . أما اليوم وبعد ما يقرب من قرن من التكنولوجيا الالكترونية فقد امكن للانسان من أن ينشر جهازه العصبي المركزي ذاته ليحتضن به الكرة الارضية كلها ، بل وبعض الكواكب الاخرى ــ ويضغط الزمان والمكان . وبسرعة متزايدة نراه يصل الى المرحلة النهائية لابعاد الانسان وحدوده . وأيا كانت ابعاد هذا الوعي التكنولوجي الالكتروني الشامل الجديد ، لابد من الاشارة هنا الى ان هذا الوعي الشمولي الالكتروني لا يمكن دراسته بمعزل عن المجالات الأخرى التي يستطيع الانسان فيها ان يمد احد حواسه في الفضاء ، فاي امتداد لأي جزء من اجزاء جسده ــ الكساء والملابس للجلد ، والآلات لليدين والقدمين والأسنان ، والعملات ووسائل النقل للساقين والظهر ، والمنظار والمجهر للعينين ، والسماعات للأذنين ، ومكبر الصوت للأحبال الصوتية الخ ... ــ لا شك يؤثر في تركيبه النفسي والاجتماعي ككل .

في عصر الماكينات ــ التي اخذت تتخلى عن مركز الصدارة ــ كان يمكن تقبل الحركات والافعال (الميكانيكية) دون أن نهتم بها كثيرا ، فقد كفلت لنا حركتها البطيئة (نسبيا) تاخر ردود الافعال ــ ان وجدت ــ نوعا ما . لم يكن مثلا من الضروري على عامل يشغل آلة قديمة للطباعة ان يكون غاية في الحرص واليقظة ، أو على سائق سيارة من طراز عتيق لا تتعدى سرعتها الثلاثين كيلو مترا ان تكون ردود افعاله فورية ، اما الآن فقد تلتهم آلة الطباعة الحديثة العامل ان تشتت انتباهه ولو لجزء من الثانية ، وعلى سائق الطائرة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت مرتين او اكثر ان يكون هو ذاته عبارة عن آلة قائقة الحساسية . اليوم ، وفي عصر الثورة الكهربية الالكترونية ، فاننا نجد ان الفعل ورد الفعل يحدثان في آن واحد (نضغط على زر النور فتضيء عشرات المصابيح في آن واحد ، ونضغط على ازرار في عملية حسابية معقدة فنحصل على الناتج فورا .

يحس الرجل الغربي بانه يعيش في عصر القلق لانه يشعر انه يعيش على مستوى الماضي (تراثه وجذوره وحضارته الميكانيكية) وعلى مستوى الحاضر (الالكتروني الكهربي الفوري الآني) ، يعيش على مستوى ميثولوجي ومستوى عصري في آن واحد ــ ومن هنا يحدث التمزق . فهو مازال يفكر ويعمل ويتصرف بالاسلوب القديم ، اسلوب عصر ما قبل الكهرباء الذي يجزيء الزمان والمكان . ولقد اكتسب الرجل الغربي من حضارته الميكانيكية القدرة على الفعل دون رد الفعل . فالجراح الذي يتفاعل مع كل عملية جراحية يقوم بها لن يغمض له جفن . لقد تعلم الرجل الغربي فن اداء عمله بمنتهى التجرد والفتور . اما في العصر الالكتروني ، عندما تصبح شبكة الجهاز العصبي للانسان متصلة تكنولوجيا بالمجتمع البشري باسره ، لا يسعنا سوى المشاركة في نتائج كل فعل من افعالنا . لقد اصبح من العسير على الرجل الغربي الآن ان يتبنى موقفا محايدا ، لانه اذا اراد ان يعرف ما يجري في الولايات المتحدة فعليه ان يعرف ما يجري في الشرق الاوسط !

هذه الحيرة الجديدة يقدمها مسرح العبث في اسلوب درامي عندما يصور لنا المأزق الذي يجد الرجل الغربي نفسه فيه : رجل الاحداث والفعل والحركة الذي يؤدي العمل دون ان يورط نفسه فيه . فبعد مئات السنين من العمل المتخصص والتجرد والامتدادات المتنوعة لجسده ،

فجأة يجد هذا الرجل نفسه يعيش في عالم قد انكمش وانضغط على نفسه ، وهذا الانكماش يفرض على الفرد نوعا من المشاركة الايجابية ، ومن هنا تظهر حيرته وعبث ما يقوم به .

لهذا لم تعد وجهة النظر الفردية ملائمة لعصر الكهرباء . فالزاوية المحددة التي ترى منها الأمور لم تعد تفي بالغرض ، فهي جزئية متخصصة ، وعلى مستوى بث المعلومات ونشرها سواء بوسائل الاتصال المرئية او المسموعة او المقروءة ، لاح في الأفق الرغبة في تقديم الصورة المركبة بدلا من الصورة التي من منظور واحد . ويوضح الرسم التالي وجود اكثر من وجهة نظر ، من الامام ، من فوق ، ومن تحت .

وتبع ذلك رواج الكتب والاسطوانات (للموسيقى الكلاسيكية وغيرها) والمجلات التي تقدم مقتطفات ، مختارات ، بدلا من رواية واحدة او اعمال موسيقية لمؤلف واحد . حتى في الازياء ، ظهرت اقمشة « مرقعة » بها « رقع » من مختلف الالوان ، وامتدت الصرعة الى الديكورات المنزلية ، والوان الطعام ومشروبات « الكوكتيل » . فاذا كان القرن التاسع عشر هو عصر كرسي رئيس التحرير والمقال الافتتاحي الذي يحمل وجهة نظره ، فالقرن العشرون هو عصر الصفحة الاولى الفسيفسائية المتنوعة . فالكرسي يشجع على الاستبداد بالرأي والتنظير والتقعيد والعقلنة ، اما الصفحة المبسطة فهي كتبة المحلل النفسي يتمدد عليها الفرد بكامله ، ولهذا يلجأ اليها المحلل النفسي لانها لا تشجع على ابداء الرأي من وجهة نظر خاصة .

ان استعمال اية وسيلة من وسائل الاتصال ـ الكتب ، الراديو ، التلفزيون ، السينما ، الفيديو ، الشرائط المسجلة ، الاعلانات الضوئية ، وكلها امتداد لحواسنا بطريقة او باخرى ، للعين ، للاذن ، للجهاز العصبي ، يترتب عليه نمط حياتي ونفسي واجتماعي معين . والآلة بوجه عام ، ما ان تدخل في حياة مجتمع من المجتمعات حتى تغير من انماط الحياة فيه (١٣) . قد يقول البعض ان الآلة اداة محايدة سواء كانت تصنع السيارات الكاديلاك او المرطبات . ولكن مايهمنا من امرها هنا هو ما تفرضه علينا من تغيير في انماط الحياة وفي سلوكنا . الم نشاهد فيلم العصر الحديث لشارلي شابلن ورأيناه وهو يعمل على خط التجميع حتى اصبح جزءا من الآلة ذاتها الى ان ابتلعته في النهاية ؟

ما يهمنا هو النتائج المترتبة على تكنولوجيا الآلة الميكانيكية التي تجزيء العمل على طول خط التجميع قديما . والآن ، ومع ظهور الأتمتة Automation تتضح اهمية التكامل والنظرة الشمولية التي هي في جوهرها نتيجة من نتائج الثورة الالكترونية الحديثة . فالأتمتة تلغي على الفواصل بين الحضارة والتكنولوجيا ، بين الفن والتجارة ، بين العمل واللهو .

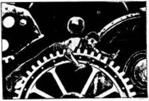
ليست رسالة اي وسيلة من وسائل الاتصال او اي تكنولوجيا هي مضمونها او محتواها ، بل هي التغير او التعديل او التكيف في العلاقة او النسبة او المعدل او النمط الذي تدخله في ميزان الامور الحياتية . فالسكك الحديدية او القاطرة البخارية ، مثلا ، لم تبرز

---

(١٣) انظر Ginestier Paul : The Poet and the Machine, O.U.P., 1961



(شكل ٤)



(شكل ٥)

اهمية السرعة، ولم تقدم وسائل للنقل او عجلات تجرى على قضبان ، أو تربط مكانا بمكان ، ولكنها خلقت انواعا جديدة من الوظائف ، ومدناجديدة ، وانماطا حياتية معينة لملء الفراغ (حانات ومطاعم وفنادق واماكن للتسلية واللهو). ويحدث هذا بغض النظر عن نوع البضائع المنقولة، وبغض النظر عن اماكن امتدادها سواء فى بلدا ستوائى او فى بلاد اوروبا . اما الطائرة فتعمل، من طريق زيادة السرعة وتخطى الحواجز الجغرافية الطبيعية من جبال وبحيرات ومحيطات تعجز السكك الحديدية عن اجتيازها ، على ازالة الفوارق بين المدن بزيادة معدل التغير والتطور ، بغض النظر عن الأغراض التى تستعمل فيها الطائرة .

ونعود الى الضوء الكهربى سواء استعمل فى اضاءة استاد رياضى او فى اضاءة غرفة للعمليات الجراحية فى مستشفى ، فهو لا يهمنا كثيرا طالما انه يفتقد « المحتوى » ، « المضمون » ، « الرسالة » . ولا ندرك اهميته الا عندما نراه على لوحة للاعلان فى ميدان عام ، فحينئذ ندرك انه قد كف عن كونه مجرد « ضوء » ليصبح « رسالة » ، « اعلان » فمثله كمثل « الطاقة » ، لا نحس به الا اذا اصبح له « مضمون » . فالتيار الكهربى والطاقة منفصلان تماما عن استعمالاتهما ومع ذلك يقلصان الزمان والمكان فى التعامل البشرى تماما كما يفعل الراديو والتلغراف والتلفون والتلفزيون ، وبالتالى يخلقان نوعا من الاتصال اللاشعورى العميق .

لقد اوضح ديفيد هيوم (١) فى القرن الثامن عشر ان مبدأ السببية لا يتوفر لمجرد توالى الاشياء والظواهر ، وكون الشىء يتبع الآخر لا يعنى تحتيما فلا شىء يستتبع التتابع سوى التغير . لهذا فان اهم الانعكاسات الفكرية لظهور الكهرباء التى قضت على فكرة التتابع او التوالى او التعاقب ، وبدا العالم والأديب والفنان يتحدثون عن التزامن والتواكب والآنية والفورية. ولم تكن الميكنة اكثر وضوحا فى تجزئتها للحركة كما كانت عن اختراع السينما او **الصور المتحركة**، تلك اللحظة التى نقلتنا نقلة كبيرة من عالم الصور المنفصلة الثابتة للحركة المجزاة الى عالم الحركة المتصلة والعلاقات . فالصورة تعزل ما تصوره وتضع الموضوع فى اطار مكانى محدد دون الروابط الزمانية . وتجىء السينما فى أواخر القرن التاسع عشر وتعمل على ابراز تلاحق الصور وتضيف عنصر الزمان الى المكان ، واصبح الفن السينمائى قادرا على عرض القريب والبعيد فى الزمان والمكان فى آن واحد . وعملت السينما على الاسراع بالحركة الميكانيكية ونجحت فى نقلنا من عالم التتابع بصورة المتتالية (الصور الفوتوغرافية فى البوم للصور والفانوس السحرى) الى العالم البنيوى المكتمل المتحرك الدينامى . فرسالة التكنيك السينمائى ، بغض النظر عن موضوع الفيلم ، هى نقل المشاهد من عالم التتابع والتوالى والوصلات الى عالم الترابط الخلاق والصورة المتكاملة الشاملة الموحية . ووفرت السينما للمجتمعات الغربية الصناعية عالما وهميا وقدمت لهم احلاما يمكن شراؤها . وكما يقول جومبريتش فى كتابه Art and Illusion ، كان الوقت

---

(١) Law is an observed custom in the sequence of events, but there is no necessity in custom.

مواتيا لظهور المذهب التكعيبي ، ففي اللوحة التكعيبية تظهر جميع جوانب المنظر أو الشكل دفعة واحدة وكان الرسام يقف في عدة أماكن في آن واحد ، على اللوحة ذات البعدين ، واختفى أسلوب « المنظور » ، كما في اللوحة (شكل ٦) لسيزان .

وهكذا لابد من لوحة من منظور واحد أو وجهة نظر واحدة ، يتوهم فيها المشاهد الأبعاد المختلفة ، يقدم الفن التكعيبي لوحة تتصارع فيها المستويات والخطوط والأبعاد والأضواء والألوان وتتطلب اندماجا أكثر من جانب المشاهد . ليس هذا فقط ، بل أصر التكعيبيون على ابراز الداخل والخارج بجوانبه الستة بفرد الشيء بأبعاده الثلاثة على لوحة من بعدين لتضحى بقواعد المنظور والنسبة والتناسب في سبيل ادراك فوري بالشيء ككل من جميع الزوايا ، كما يبدو في لوحة من الفن المصري القديم (١٥) (١٤٠٠ ق م) تمثل بحيرة للسمك تحيط بها الأشجار من جوانبها وهو أسلوب في الرسم ما زال الأطفال يستعملونه الى اليوم . ويقول جومبريتش « قد تكيف المصري فنيا ولكننا لن نهزمه ابدا » (شكل ٧) .

وهنا نتساءل : أليس من الواضح أنه في اللحظة التي يفسح التوالي فيها المجال لهذه الفورية في الاحساس ، هذه التلقائية في المشاركة، هذه الدعوة للاتصال يجد الانسان المشاهد نفسه في عالم التكوين والتشكيل والمعاونة في الخلق والابتكار ؟ ألم يحدث ذلك في مجالات أخرى ، في الشعر والمسرح والفيزياء وفي وسائل الاتصال بأنواعها ؟ لقد تكيفت في عقل الانسان فصوص انتباه متخصصة وتحولت الى ادراك مجالات متكاملة . فقبل الثورة الكهربية والمجال المتكامل لم يكن من الواضح أن الوسيلة هي الرسالة . كان يبدو أن الرسالة هي المضمون أو المحتوى ، كما كانت عادة الناس عندما يتساءلون : ما هو موضوع هذه اللوحة ؟ ومن الغريب أن بعض اللوحات الحديثة لا تحمل عنوانا لرسالتها وانما يسميها الرسام : عمل رقم ١ أو ٢ ، أو يطلق عليها تكوينات ؟ ومع ذلك فلا أحد يسأل أبدا عن موضوع قطعة موسيقية أو ما هو موضوع هذه البناية أو هذا المنزل أو هذا الفستان . وفي الرياضيات الحديثة لا يطلب من التلميذ التركيز على « المسائل » أو « التمارين » بل يطلب منه تأمل « العلاقات » ، « المجموعات » . ألم يلجأ اليوت في شعره الى الأساليب السينمائية وموسيقى الجاز كما يظهر بوضوح في « أغنية حب ج . ألفريد بروفرولد ؟ ألم يلجأ تشارلي تشابلن في حركاته في الأفلام الصامتة الى مركب من خطوات راقص الباليه الرشيقة ومشية المتسكع المتهادية ، كما لجأ تشارل بوايه الى خلط الانجليزية بالفرنسية وجيمس جويس في فينيجانز ويك الى نحت لغة خاصة به من ٦٦ لغة ولهجة . ويقول لنا جيرارد مانلي هوبكنز (١٨٤٤ - ١٨٨٩) الشاعر :

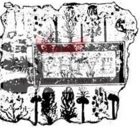
« وفيما يختص بهذه السونيت الطويلة تذكر قبل كل شيء ما ينطبق على قصائدي كلها ، وهو أنها كتبت لكي تؤدى ، ولكي يكون اداؤها لا عن طريق قراءتها بالعين بل بصوت عال ، على مهل ، وبشاعرية (وليس بنبرة خطابية) ، مع سكتات طويلة ، ووقفات مستأنية عند القوافي

---

(١٥) Gombrich, E.H. : The Story of Art, London, 1972 p. 34 & 446



(شكل ٦)



(شكل ٧)

ومقاطع اخرى مميزة ، وهكذا . هذه السونيت يجب ان تنشد . . . خذ نفسا عميقا واقراها باذنيك ، كما اريد لها دائما ان تقرا ، فستخرج قصيدتي على اكمل وجه . » (١٦)

. . . اقراها باذنيك

تزخر الاعمال الادبية بهذا النوع من انتقال من حاسة لحاسة اخرى ومن الغريب ان كثيرا من قراء الادب الغربي الحديث لم يفطنوا الى الحكمة في الاستغناء عن علامات التنقيط punctuation في بعض الاعمال الروائية وكلها وسائل ايضاح **بصرية** تعين القارىء على متابعة النص . ان الغرض من حذفها هو اجبار القارىء السلبي على **المشاركة** عن طريق القراءة (باذنه) بصوت عال . كذلك الشعر الحر ، يجبر القارىء على المشاركة باذنه لا بعينه فقط . فعندما تحتار العين ولا تجد مؤشرات مرئية تعينها على القراءة تلجأ للاذن (شكل ٥) .

لا يمر يوم دون ان يتعامل فيه انسان العصر الحديث مع وسائل الاعلام والاتصال سواء على المستوى الفردي (التخاطب) او المستوى الجماهيري . لا يمر يوم دون ان يكون على مقربة من راديو في سيارته او في جيبه او في منزله او في الشارع ، ولا يمر يوم دون ان يشاهد برنامجا تلفزيونيا ، ونادرا ما يجلس على كرسي في المنزل او عند الحلاق او الطبيب الا ويجد مجلة او جريدة يومية او كتابا بجواره ، ويجد معظمنا متعة في قراءة كتيبات الارشادات لتشغيل جهاز منزلي جديد ، وتلتف الاسرة حول جهاز التلفزيون الذي يحتل مركز الصدارة في حجرة المعيشة ، ذلك المركز الذي كانت تحتله المدفأة فيما مضى في الغرب ، يجلس امامه كما كان الاجداد يلتفون حول الراوي فيما مضى والاولاد حول صندوق الدنيا والحاوي . لا يتحرك انسان العصر الحديث من مكان الى آخر الا ونجده يقرأ الارشادات واللافتات ليلا ونهارا في الشارع وفي الادارات الحكومية والمطارات ومحطات السكك الحديدية والباصات ، لترشده وتوجهه وتنصحه كما نراه يسمع التعليمات من مكبرات الصوت . ولا يمر اسبوع الا ونراه يشاهد فيلما سينمائيا في دار للعرض او في مدرسة او ناد او جامعة .

هل استطاعت كل **وسيلة جديدة** من وسائل الاتصال ـ الطباعة ، الصورة ، الراديو ، التلغراف ، التلفون ، السينما ـ ان تكيف من اسلوب استجابتنا للعالم من حولنا ؟ ان تمارس نوعا من ترويض مدركاتنا الحسية ؟ الاجابة : نعم . سنوجز فيما يلي ما كتبه مارشال ماكلوان تحت عنوان : لماذا لا تستطيع المجتمعات الامية ان تشاهد الافلام السينمائية او الصور الفوتوغرافية دون كثير من التدريب .

« اعد مفتش المرافق الصحية فيلما سينمائيا مبسطا وباسلوب فني في غاية السهولة لارشاد المواطنين في قرية افريقية الى اسهل السبل للتخلص من القاذورات وخاصة الماء الراكد في البرك الصغيرة امام الاكواخ . عرض الفيلم على المواطنين ، وبحركة بطيئة نوعا ما ، حكاية رجل يخرج من كوخه ليرى علبة من الصفيح مملوءة بالماء الراكد فيحملها بعيدا عن الكوخ ويلقي بما

(١٦) John Pick, Ed. **A Garard Manley Hopkins Reader**, O.U.P, London, 1953 p. xxii



(شكل ٨)

فيها على الارض ويوزع الماء بقدمه لكي لا يكون بركة تساعد على توالد البعوض ثم يضع العلبة الفارغة في كيس كبير للقمامة على ظهر حمار . كان الهدف من الدرس هو اهمية جمع هذه الاشياء التي تساعد على توالد البعوض في المياه الراكدة . وتجمع العلب في النهاية وتدفن في حفـرة . ويستغرق عرض الفيلم خمس دقائق .

كان عدد من شاهدوا الفيلم ٣٠ وكان السؤال التقليدى بعد انتهاء الفيلم : ماذا رأيتم ؟

وجاءت الاجابة المذهلة ومنهم جميعا : رأينا دجاجة ، فرخة . ولما طلب منهم التحدث من الفيلم وحكايته قالوا انهم رأوا رجلا ولكنهم لم يستطيعوا ان « يجمعوا » من « مفردات » الفيلم « قصة » ، « مغزى » ، وانما كانوا طول الوقت يتممون النظر ويتفحصون « مفرداتها » ، « تفاصيلها » . **اذن ما هي حكاية الفرخة ؟** قال الخبراء فيما بعد ان الجمهور الذى **تعود** على مشاهدة الصور الفوتوغرافية والافلام السينمائية يركز عينيه عند المشاهدة على نقطة امام الشاشة المسطحة ويبعد عنها لكي يخلق منظورا من ثلاثة ابعاد تكون حدوده اطار الشاشة . وهذا يعنى انه يجب عليك ان « تأخذ » الصورة ككل ، اما هؤلاء الناس فلم يتعودوا على مشاهدة الصور . لم يكتسب الاميون هذه العادة التي تركز العينين عند نقطة خارج الصورة وامامها لتلم المنظر باكمله . انهم « يقرأون » الصورة كما تقرأ نحن الصفحة المطبوعة ـ كلمة بعد كلمة ، وسطرا بعد سطر . فهم لا يكونون وجهة نظر منفصلة عن الشيء المرئي ، بل ترى عيونهم مع الشيء . والعين في هذه الحالة ايضا تمثل مجال « المنظور » وتدخل في مجال « الملموس » .

ومن جانب آخر كشف الفيلم عن مدى من تكيفوا مع اسلوب مشاهدة الصور والافلام ومن لم يتكيفوا . هذه الدجاجة التي دخلت فجاة في اطار الفيلم من الناحية اليمنى ولمدة ثانية واحدة اثارت الانتباه لانها دخلت « دون مبـررات » . كذلك اللقطات البانورامية سواء العموديـة او الافقية كانت محيرة ناهيك عن اللقطات القريبة والبعيدة Close-up-telescopic . كان هؤلاء الناس يعتقدون ان المناظر هي التي تتحرك وليست الكاميرا او تركيب العدسات ذاتها فالفيلم الذى نشاهده يبدأ بصورة المدينة من فوق ثم تتسلل الكاميرا الى احد المنازل وتدخل من النافذة الى حجرة المعيشة مثلا ومنها تنزل الدرج الى الشارع ـ هذا الفيلم يحير من لم يتعود على هذه الحيل السينمائية التي اكتسبنا القدرة على استيعاب فنونها على مر السنين.(١٧)

مما سبق يتضح ان وسائل الاتصال الحديثة تمارس على المدركات الحسية قوى ترويضية وتكيفية وبشكل فعال . ولقد قطعنا الى يومنا هذا شوطا لا بأس به في عصر الالكترون والاتمتة يعادل الشوط الذى قطعه القرن السابع عشر في عصر الطباعة والميكنة . ويتعرض العقل الغربى لنفس الهزات الفكرية والوساوس وهواجس عصر القلق وعدم الاستقرار مثلمـا عاش العقـل

---

(١٧) McLuhan, M. : **The Gutenberg Galaxy**, London, 1969, pp. 3739.

الاليزابيثى فى عالمين فى آن واحد . (تبين **دكتورفاوست** لمارلو هذا الخليط بين العصور الوسطى وعصر النهضة) وكذلك العصر الفيكتورى الذى عبر ماثيو آرنولد (١٨٢٢ – ١٨٨٨) **عن حيرته بقوله « نهيم بين عالمين ، أحدهما ميت ، والاخر عاجز عن ان يولد . »** ولكن ، بينما استطاع الاليزابيثيون ان يصلوا الى توازن قلق بين تجربة العصور الوسطى بتنوعها **المختلط الشمولى** وفرديتها **الجديدة** ، **نرى انسان** العصر الحديث (والانسان الغربى على وجه الخصوص) يعكس النمط الاليزابيثى . فهو يواجه تكنولوجيا الكترونية كهربية تجعل من هذا التفرد على ما يبدو فكرة عتيقة وتشجع بل وتؤكد الترابطية الشاملة المتكاملة .

اليوم يعيش الرجل الغربى فى فترة يسميها فورستر فى روايته **رحلة الى الهند** شفق الرؤية المزدوجة Twilight of the double vision فترة من تاريخ حضارته تتصارع فيها حضارتان مختلفتان وكانت تباشير هذا الصراع واضحة فى كتاب شبينجلر **تداعى العالم الغربى** **The Decline of the West** ١٩١٨ . فالحضارة الغربية الحديثة حضارة متضدة مطبوعة ، علمية ، تعتمد على الملاحظة (العين) والرصد (التسجيل) والتخصص (التجزئة) ؛ وحضارته القديمة (والشرقية عامة) تعتمد على المشافهة والوسائل السمعية (الاذن) ؛ فهى حدسية ، شمولية ، متكاملة ، مترابطة عضويا . وفى عصر الالكترون والاتصال الكهربى الذى بدأ يخلف عصر الطباعة والميكنة تقابل بعض الملامح والتنظيمات الجديدة للعلاقات البشرية والتعبير فى قوالب شفاهية / سمعية كالاذاعة والشرائط المسجلة والاسطوانات وتعليم اللغات بالاسطوانات) . ليس هذا بالأمر الذى يصعب ادراكه ولكنه يتطلب منا اعادة النظر فى اساليب تفكيرنا كما يوضح لنا الفيلم التعليمى السابق عن اليوض والفرخة . فمثل هذه التغيرات فى اساليب وعينا وكيفية ادراكنا لماهية الاشياء كثيرا ما يتاخر الاحساس بها لاستمرار تاثرنا باساليب ادراكنا القديمة وطول تكيفنا لها . فنحن ننظر مثلا الى انسان العصور الوسطى على انه انسان متاخر متخلف حضاريا ونعتبر انفسنا أبناء العصر الحديث ، بينما يعتبرنا احفادنا وربما أولادنا «دقة قديمة» مع اننا نعيش فى القرن العشرين ، فنحن ، بالنسبة لهم ، لم نع اطلاقا تلك الخطوات الهائلة التى قفزها عصرنا فى الخمسين سنة الاخيرة .

الانسان ، من بين صفاته الكثيرة ، حيوان يصنع الالات - ونراه دائما مشغولا يمد واحدة او اكثر من حواسه . فتوير الاسلحة يبدأ بالاسنان وينتهى بالقنبلة الهيدروجينية والصواريخ الذرية ، والملابس بديل لاهابة ولكنها تمتد لتشمل المنزل والمجمع السكنى واجهزة التكييف المركزى وكلها ، الى حد ما ، امتداد لجهاز الانسان البيلوجى فى جسده للتحكم فى درجة حرارته . **الاثاث فى المنزل يكمل الجلوس والقعود والنوم وهكذا** . وتأتى لبعض الالات كالمنظار **والمجهر والراديو** والتلفون والتلفزيون واللاسلكى والتلغراف والكتاب كلها وسائل تحمل الصوت والصورة عبر الزمان والمكان ، وكلها امثلة لهذه الأبعاد المادية للانسان . حتى العملة سواء

الورقية او المعدنية هي بعد آخر من ابعاد اختزان الجهد والعمل . ووسائل التنقل هي الاخرى ابعاد جديدة للانسان فشبكات المواصلات والتنقل من شاحنات وبواخر وطائرات امتداد لنا وتقوم بما كنا نقوم به في الماضي على ظهورنا واقدامنا . ان كل ما صنعه الانسان يمكن النظر اليه على انه امتداد لما كان يقوم به الانسان في الماضي بجسده او بعضو متخصص من جسده . واللغة استعارة بمعنى انها لا تختزن التجربة الانسانية فحسب بل وتترجمها من صيغة او شكل او مظهر الى آخر . فيمكن مثلا لحاسة معينة ان تستقبل رسالة خاصة بحاسة اخرى فنحن نقيس درجة الحرارة مثلا (وحاستها اللمس) بمؤشر لدرجة الحرارة (نراه بالعين) وكذلك الوزن . وكلنا نذكر العين السحرية في اجهزة الراديو القديمة وكنا عن طريقها نضبط المحطات (بالعين) بدلا من ضبطها ، كما كان يحدث من قبل ، بالأذن . وميكانيكي السيارات الذي يستعمل الان عدادات متخصصة لضبط تزامن الاشتعال عن طريق العين بعد ان كان يعتمد في ذلك على اذنه المتمرسة . وورقة عباد الشمس (عن طريق العين) تفرق لنا بين الحامض والقلوي (حاسة الذوق) . فحواسنا ليست نظما او دوائر مقفلة ، ولكن من الممكن ان تتحول الواحدة منها ، وبطرق عديدة ، الى الاخرى . الم نر على شاشة تلفزيون الكويت في فيلم علمي تلك السيدة الروسية وهي ترى باطراف اصابعها ؟ ومسلسل آخر يرى الاعمى فيه بمسام جلده . وتلجأ ادارة المخابرات المركزية الامريكية الى الاستفادة من درجة التركيز الفائقة لدى العميان في تفسير الاصوات المسجلة على الاشرطة التي يعجز المحترفون عن التقاط اي شوء عليها كما تستعين بمن يقدرون على ترجمة حركات الشفاه (بالعين) عن بعد دون سماعها .

لقد ظلت معظم التكنولوجيات الميكانيكية القديمة في القرون الثلاثة الاولى للتصنيع نظما مقفلة ، لا يقدر نظام منها على الانفتاح على الاخر . اما الان ومع انفتاحها مع الثورة الالكترونية الفورية الجديدة فقد اصبح من الممكن للحواس كلها ان تعمل في نظام او مجال متكامل شامل يتطلب من الفرد وعيا شاملا متكاملا بها . فعندما كانت التكنولوجيات بطيئة في الماضي . وبعضها منفصل عن الاخر ، كانت بحكم تصميمها نظما مقفلة ، محددة . اما الان فقد تغير الحال واصبح المرئي والمسموع والمتحرك يعملون بشكل فوري وعلى نطاق واسع يشمل سطح الكرة الارضية واجزاء من الفضاء حولها .

هنالك اذن اتجاه ملحوظ ، سواء في علم الفيزياء الحديثة او الرياضيات او الادب ، او التصوير او الرسم او النحت ، الى ادراك القصور في كل ما تقدمه هذه العلوم والفنون والاداب عندما تزنق نفسها في عوالم مقفلة وتتقيد بما يطلق عليه « وجهة النظر » سواء كانت علمية او ادبية او فنية . ففي الرواية الحديثة يضع الكاتب نفسه على عدة مستويات زمانية ومكانية وينتقل من الوصف الخارجي للشخوص الى الغوص في اعماقهم عن طريق تسجيل تيار الوعي

(١٨) Hall, Edward : The Silent Language, New York, 1959, p. 79.

فيهم . وفى التصوير اخترعنا عدسة عين السمكة بعد العدسة ذات الزاوية الواسعة ، وتستطيع العدسة الاولى أن تلم المنظر على مدى ١٨٠ درجة . وفى التلفزيون نستعمل عدة آلات تصوير فى آن واحد . وفى السينما كانت تعرض علينا لقطات **متتاليه** من العرض القادم فيما مضى . اما الآن فتقسم الشاشة الى مربعات كرقعة الشطرنج ليظهر عليها **ودفعة واحدة** مناظر مختلفة من الفيلم الذى سيعرض . حتى على مستوى مفردات اللغة تظهر فى الانجليزية الكلمات المنحوتة بشكل متسارع يفوق كثيرا سرعة ظهورها فى العربية وكذلك الكلمات المختصرة . فمن افطار + غداء فى الانجليزية نجد كلمة Brunch من Skirt + Skort = Skort, Breakfast + Lunch ومن الكلمات بل والعبارات المختصرة Dr. Mr p.m. UN. N.A.T.O.

ولم تنجح فى العربية الا فى اختصار كلمة دكتور الى د . وصفحة ص . وتلفون ت ، وقبل الميلاد الى ق . م . وميلادية : م وهجرية : هـ . وقد كنا سباقين فيما مضى فى هذا المضمار كما فى البسملة والحوقلة والعبشمى والحيسلة والصهصلق والصلدم .

لم تعد الحبكة (وهى من شد الوثاق ، والمحبوك هو المحكم) فى الرواية بحوادثها المتسلسلة المثالية هى ما يسعى اليه كتاب القصة الحديثة ، ولم تعد القواعد الارسطية الصارمة (الوحدات الثلاث) التى تتحكم فى سرد الاحداث من بداية الى وسط الى خاتمة هى ما يحرص عليه كتاب الرواية . لقد أصبح لدينا الآن فن جديد ينفتق خاتمته ويتشعب ولا تنتهى فيه القصة بوضع نقطة بل علامة استفهام او تعجب ، ولا المسرحية تزول الستار فى الفصل الاخير . هذا الادب الجديد بحبكته الغريبة وتسلسل حوادثه المقوى الفاجىء يصيب القارىء والمشاهد نوعا من الازعاج لانه يخرج قطار فكره من خط سكته الحديدى الذى يشبه تسلسل الحروف الطباعة على السطر ، كذلك التقديم والتأخير فى الزمان والمكان ، وفى أساليب السرد المختلفة ، وفى اختلاف أبعاد المنظور فى الرسم الحديث ، وفى الايقاعات المتنوعة فى الموسيقى الحديثة بل وفى اختفائها احيانا ، كلها أساليب تحير القارىء او المستمع او المشاهد .

هناك اذن تحول ملموس فى هذا القرن من التكنولوجيات الميكانيكية الى اخرى الكترونية تساعد على نوع من الانتكاس فى تطورها من حركة طردية الى حركة تجاذبية ناحية المركز . ومع ذلك نلاحظ اننا مازلنا نتحدث عن **الانفجار السكانى والتوسع فى التعليم** . فكلمتا « انفجار » و « توسع » توحيان **بحركة** طاردة مركزية الى الخارج مع انه ليست الزيادة فى اعداد الناس فى العالم هى التى **تخلق** اهتمامنا بالسكان . الكوارث والمجاعات والأمراض والزلازل والفيضانات كانت **موجودة دائما** . اذن ما هو السبب فى اهتمام المجتمع الدولى بها فى الآونة **الاخيرة** . ما سبب **اهتمام اليونيسكو** (تشكلت عام ١٩٤٦) بالدول النامية ؟ كانت المجتمعات النامية هذه **فى القرن التاسع** عشر تسمى « عبء الرجل الأبيض » ، وكانت افريقيا قارة سوداء بكرا ، حديقة حيوانات كبرى يفد اليها رجل الغرب ببندقية فى سفارى للمغامرة والمتعة والاسترخاء (والنهب) ، ثم يعود الى موطنه بعد فترة لا يحمل معه من ذكريات سوى جلد نمر أو سن فيل ، وربما بعض الصور الفوتوغرافية فماذا حدث ؟ . حقيقة الأمر **الآن** هى ان كل فرد فى هذا **المجتمع البشرى** ـ مجتمع الكرة الارضية ـ يحس بجاره ، وقد يكون جاره هذا فى قارة

اخرى . فجاة ، ومع هذه الثورة الالكترونية في وسائل الاتصال ، وجد كل فرد من افراد هذا المجتمع الدولي نفسه يعيش عن قرب من الآخرين: السمر والصفر . فهو يراهم ويحس بهم . صحيح ان الكثافة السكانية ارتفعت بسبب الزيادة في اعداد البشر ولكننا نحس بهذه الكثافة اكثر من قبل وبشكل مختلف بسبب الثورة الالكترونية في وسائل الاتصال . كذلك في التعليم: ليست الزيادة في اعداد من يرغبون في التعلم فقط هي التي تخلق الازمة بل لان اهتمامنا الجديد بالتعليم يتبع مسارا جديدا يتجه ناحية **العلاقات** بين المعارف ، ناحية ما يعرف الآن بالمعارف المترابطة او المتصلة Border-line or Interdisciplinary Sciences كطب الفضاء ، والهندسة الطبية Medical Engineering والبيوتكنولوجي وفيما سبق Astro-physics, Bio-chemistry Psycho - Linguistics كانت العلوم فيما مضى تدرس الواحد منها بمعزل عن الاخر ، اما الآن فقد تطلبت الحقول المشتركة الجديدة اقساما وتخصصات جديدة مما اضعف سلطات الاقسام القديمة الى حد ما كتذويب الفروق بين الطبقات واضمحلال القوميات القديمة واعادة تشكيلها واستقلالها ، تحت تأثير الثورة الالكترونية ، في تجمعات جديدة (الاحلاف العسكرية والسوق الاوربية المشتركة وهيئة الامم المتحدة واليونسكو الخ) . ان عصر الاتصال الالكتروني يدفعنا الى الاحساس بالبشرية كلها . والفرق بين التطور الميكانيكي والتطور الالكتروني كالفرق بين نظام خطوط السكك الحديدية ونظام اسلاك دوائر كهربية . فالنظام الاول يتطلب محطات بداية ونهاية ومراكز مدنية كبيرة واستعدادا خاصا للشحن والتفريغ والتخزين (الركاب والبضائع والقاطرات) . اما القوة الكهربية فقد تتوفر في مزرعة ريفية او في ناطحة سحاب او في جناح في فندق فخم او في خيمة في البراري فهي تجعل من اي مكان **مركزا** بل ولفوريتها تجعل الانتقال من هذا المركز الى المحيط والاتصال به امرا ميسورا ؛ فهي اذن تشجع اللامركزية ولا تتطلب تجمعات كبيرة . ويقول لنا سيجفريد جيديون (١٩) في كتابه سيطرة الميكنة انه منذ بداية القرن العشرين اخذت الفلسفة الميكانيكية للعالم تتدهور ، وعجزت فلسفة نهاية القرن التاسع عشر التي اهتمت بدقائق التفاصيل عن ايجاد حل لادماجها ، ويحاول القرن العشرون ان يعيد بناء فلسفة علمية متكاملة مجالها التوازن بين المعارف المتاحة كلها . واليوم سواء في الفيزياء او الطب او الاقتصاد او العلوم السياسية نرى هذه النظرة الشمولية ، وفي الصناعة تحل الاتمتة محل التجزئة على خطوط التجميع وتعمل على ربط خطوات الانتاج ربطا عضويا في مجمع الانتاج الضخم ، كما يحل الشريط الكهربي الممغنط محل خط التجميع . وفي عصر بنوك المعلومات والمنتوجات المبرمجة تبدا السلع ذاتها في اتخاذ شكل المعلومات ، تترجم الى «رسائل». الا يطلق على الصفقات ايا كان حجمها Package deal؟

ولو ان هذا الاتجاه لا يظهر بوضوح الا في السلع الاستهلاكية كالسجاير وادوات التجميل والصابون (وهو مزيل لادوات التجميل !) . ويأتي هنا دور الفنان الذي نفاه

(١٩) Giedion, S. : Mechanization takes Command, London, 1970 pp. 717, 719.

افلاطون من جمهوريته والذى حرم من **السلطة** لفترة لتجنده كبرى شركات الانتاج للترويج لسلعها ، كما استغل رجال الحرب علماء الذرة فى اختراع القنابل الذرية والاسلحة الفتاكة .

يقول المزمور (١١٥) :

اصنامهم فضة وذهب عمل ايدى الناس ،
لها افواه ولا تتكلم ، لها اعين ولا تبصر
لها آذان ولا تسمع ، لها مناخر ولا تشم
لها ايد ولا تلمس ، لها ارجل ولا تمشى
ولا تنطق بحناجرها ، مثلها يكون صانعوها
بل كل من يتكل عليها .

يقول المزمور ان الانسان الذى يسمح للآلة باستعباده يصير مثلها . ولقد ترجم الشاعر الصوفى بليك (١٧٥٧ — ١٨٢٧) وكان يجيد الرسم والحفر ، هذه النظرية فى **الاتصال** الذى يؤدى الى « الانغلاق » او « الانغلاق » Closure عندما يقول لنا :

اذا تغيرت حواس الادراك ، تبدو الاشياء المدركة
وكانها تتغير
اذا انغلقت حواس الادراك ، تبدو مدركاتها
وكانها تنغلق هى الاخرى .

ماذا كان الشاعر بليك يعنى بذلك ، لقد ثبت ان الاصوات العالية تساعد على حشو الاسنان بدون الم ! يضع المريض على اذنيه سماعتين ويزيد بواسطة مفتاح من شدة الصوت الى ان يتلاشى احساسه تماما بالالم من آلة الثقب . هنا عندما نختار حاسة واحدة (السمع) للتنبيه الشديد ، او نعزل حاسة واحدة او « نستاصلها » بواسطة اى نوع من انواع التكنولوجيا نجد ان باقى الحواس تضمر ، يصيبها الخدر . وحسب فلسفة بليك يتسلل الخدر الى تكنولوجيات العصر الالكترونى بشكل خبيث ما لم نحذر منها . فعصر القلق هو عصر وسائل الاتصال الالكترونى وعصر العقل الباطنى واللاوعى ، هو عصر الفتور والضجر واللامبالاة وعصر المسكنات وحبوب الهلوسة ، وعصر الاثارة والجريمة وافلام الرعب والعنف والاغتصاب . ومع ذلك هو عصر وعينا باللاوعى ، عصر الادراك الفورى الشامل لما يدور حولنا ، عصر الاحساس الوجودى والمشاركة بعمق ، عصر الالكترون والكهرباء — وقد يكون عصر استنارة جديد .

بعض المراجع

اولا ـ تاريخ وسائل الاتصال :

1— Eder Josef Maria : **History of Photography**, New York Columbia W.P. 1945.

2— Mc Murtie Douglas C. : **The Book** : The Story of Printing and Bookmaking O.U.P. 1942.

3— White Paul : **News on the Air**, New York 1947.

4— Willis Edgar : **Foundations in Broadcasting** : Radio and Television O.U.P.

ثانيا : سيكولوجية الاتصال :

1— Bryson Lyman (Ed.) **The Communication of Ideas**, New York 1948.

2— Wiener Norbert : The Human Use of Human Beings : **Cybernetics and Society**, Boston 1950.

ثالثا : الوسائل :

1— Bettinger Hoyland : Television Techniques, New York 1947.

2— Eisenstein Sergei : The Film Sense, New York 1947.
The Film Form New York 1949.

3— Frey Albert : **Advertising**, New York 1957.

4— McLuhan M. : **The Mechanical Bride** : Folklore of Industrial Man London 1947.

رابعا : ابعاد الاتصال :

1— Kepes Gyorgy : **The Language of Vision**, Painting Photography Advertising-Design Paul Theobald and Co. 1969.

2— Mc Luhan M. & Quentin Fiore : The Medium is the Message London 1970.

* * *

سكيولوجية الاتصال

طلعت منصور

مدرس علم النفس بجامعة الكويت

مقدمة :

تتسم الحضارة الانسانية المعاصرة بالثورة العلمية التكنولوجية وما تنطوى عليه من تغير وتقدم متعاظمين يتفرد بهما هذا العصر الذى يرنو الى حضارة القرن الحادى والعشرين . فهذه الحقبة الفريدة من تاريخ الانسان هي عصر التكنولوجيا الراقية ، وعصر المعلومات والتفجير المعرفى ، وعصر التلاحم العضوى الوظيفي بين الانظمة العلمية المختلفة ، وعصر توالد انظمة علمية جديدة نتيجة لهذا التلاحم ، وغير ذلك من مظاهر تعاظم التغير والتقدم المستمرين .

هذه التغيرات بدورها قد انعكست على الاتصال بعملياته وتكنولوجياته ووسائطه ، حتى اننا نستطيع ان نسمي هذه الحقبة ايضا بـ « عصر الاتصال » . فالتكنولوجيا المعاصرة قد اختزلت الانعزال العقلي المعرق للناس الى الحد الادنى ، وادت الوسائل الحديثة للاتصال والمواصلات الى الاسراع بنشر المعلومات الى الحد الذى نستطيع معه في المستقبل غير البعيد ان نتوقع انه لن يوجد فرد او جماعة سوف يكون في مقدورها الهرب من تلك التاثيرات التي سوف تتلاحق عليها من كل صوب اتصالي .

تتضح تلك الحقائق من انه ابان العقد الاخير قد ازداد تدفق البحوث العلمية الخاصة بالاتصال الانساني بمعدل مذهل . يعزى هذا التدفق الى الاستخدام المتسع لمصطلح « اتصال » ، والى الاهتمام المتزايد ببحوث الاتصال من جانب انظمة علمية عديدة . ففي دراسة التطورات التي جرت

في هذا الميدان يمكن أن نحدد أكثر من عشرين نظاما علميا أكاديميا يوفر المضمون والطريق للبحث في بعض جوانب التفاعل الانساني (١) .

فالعلوم الطبيعية تسهم في دراسة الاتصال عن طريق مجالات فنية مثل السيبرنطيقا ونظرية المعلومات ونظرية التعلم . أما العلوم الاجتماعية فتحتضن الاهتمامات الشاملة لأصحاب الانثروبولوجيا الذين يعرفون الثقافة على أنها اتصال ، ولأصحاب علم النفس الاجتماعي الذين يحددون العلاقات بين نشاط الفرد والجماعة كعملية اتصالية ؛ ولعلماء اللغة الذين يصفون بحوثهم في بنيوية اللغة على أنها جانب من علم الاتصال . وثمة اتجاهات أخرى تلك التي تأخذ بنظام العلاقات المتبادلة بين العلوم المعنية interdisciplinary في دراسة الاتصال ، وفي مقدمتها علم النفس والاجتماع والاتصال الكلامي والعلوم السياسية والصحافة وغيرها كثير . وبالاضافة الى ذلك ، تسهم العلوم الانسانية ـ وخاصة علماء البلاغة والفلسفة ـ في تزويد التفاعل الاتصالي الانساني بتراث غني من التقاليد والتعاليم . من الواضح ، اذن ، أن ما يعرفه بـ « علم الاتصال الانساني » ليس على الاطلاق بنظام علمي واحد . فالاتصال الانساني هو بالدرجة الاولى موضوع للبحث والتنظير العلميين (٢) .

ورغم الانجازات العلمية المدهشة ، فان ميدان الاتصال الانساني لم يتوصل الى اقرار حدود أو مجالات محددة له بدقة (٣) . ويمكن أن نعزو ذلك الى فشل التكامل بين النظريات في هذا الميدان . وقد يتضح ذلك أيضا من الحقائق التالية : ثمة خمس وعشرون تصورا مختلفا لمصطلح « اتصال » يجري استخدامه في البحث في هذا الميدان (٤) ، وقد ظهر فيما ينشر من كتب ودراسات خمسون وصفا مختلفا للعملية الاتصالية . (٥) وعلاوة على ذلك ، فان ثمة تصورات نظرية من شأنها أن تحد المحاولات الكثيرة لتكوين نموذج عام للاتصال . فمنذ أن نشر « شانون وويفر » (١٩٤٩) نموذجهما الرياضي من الاتصال ، ظهر أكثر من خمسة عشر نموذجا مختلفا في تفسير الاتصال .

من الواضح ، والحال هكذا ، أنه حينما يختفي تصور للاتصال الانساني يلقى قبولا عاما ، يكون من غير المستغرب أن يتعرض ميدان كهذا للكثير من النقد على أنه « يتضمن قدرا متراحما

---

1. Krower, F.H. The present state of experimental speech-communication research. In P. Ried (ed.), **The frontiers in experimental speech communication research.** Syracuse, New York, 1966, p. 21.
2. Schramm, W. Communication research in the Unites States. In **The Science of human Communication.** New York, 1963.
3. Thayer, Lee. Communication : concepts and perspectives. Washington, 1967.
4. Thayer, Lee. On theory building in communication : some conceptual problems. **Journal of Communication**, 13 (1963) 216-235.
5. Bettinghaus, E. **Message preparation : The nature of proof** : Indianapolis : 166, p. 31
6. Shannon, C., & Weaver, W. **The mathematical theory of communication.** Urbana, 1949.

من الحقائق والمبادىء ، وعلى أنه « ... غابة من المفاهيم غير المترابطة ... وحشد من البيانات التجريبية (الامبيريقية) غير المنظمة ، والعقيمة غالبا ... »(٧) .

والواقع ان البحث في ديناميات الاتصال الانساني ينبغي ان يرتكز على محورين رئيسيين : اولهما ـ المعرفة المتكاملة التي تاخذ بنظام العلاقات المتبادلة بين العلوم المعنية بالاتصال ، وثانيهما ـ تمايز البحث في الاتصال بمحاولات معينة مثل تكنولوجيا الاتصال ، بيولوجيا الاتصال ، سوسيولوجيا الاتصال ، سيكولوجيا الاتصال ، وغير ذلك من نواحي الاتصال المختلفة التي تستلزم دراسات متعمقة تتوفر عليها علوم متخصصة . وهذان المحوران ينبغي ان يتفاعلا فيما بينهما ، ليعمق بعضهما الآخر ، وليثريا البحث في الاتصال من جوانبه المختلفة ، وصولا الى التكامل النظري للاتصال كظاهرة مركبة متشابكة الأبعاد والمكونات .

• • •

المدخل السلوكي لدراسة الاتصال : يسعى علماء الاتصال خاصة الى البحث عن القوانين السلوكية التي تحكم الاتصال الانساني ، وهم بذلك يهدفون الى اقرار النظام الذي في سياقه يتوالى سلوك الاشخاص المرسلين والمستقبلين في مواقف اتصالية معينة . (٨) والاتصال ـ سلوكيا ـ شرط ضروري لتناقل المعلومات وتنسيق نشاطات الافراد والجماعات ، حيث أن ثمة خطوطا معينة للاتصال في اية جماعة تميل الى الرسوخ والاستقرار فيما يعرف بشبكات الاتصال Communication nets (٩) ويمكننا بذلك ايضا ان نعتبر النظام الاجتماعي كمجموعة من المواقع المترابطة فيما بينها بواسطة قنوات الاتصال Communication channels . (١٠) .

ويسلم المدخل السلوكي في دراسة التفاعل الانساني ان الناس حينما تتواصل فيما بينها ، فانها تفعل ذلك بطريقة كلية . فالأحداث الاتصالية تتضمن الشخص الكلي . ويعني هذا ان السلوك الاتصالي لايمكن اعتباره كشيء متميز تماما عن محددات السلوك عامة : كالادراك ، التعلم الحاجات والدوافع ، والانفعالات ، الاتجاهات ، المعتقدات ، القيم ، المعنى ، الرسائل ، المواقف الاجتماعية ، الخ .

الاتصال الانساني ، اذن ، ليس عملية احادية مفردة ، ولكنه مركب من العمليات ـ اي مجموعة من القوى المعقدة المتواترة التي تتفاعل في مجال موقفي دينامي . بل ان اي نشاط يؤثر

---

7. Wastley, P., & McLean, M. **A conceptual model for communication research. Journalism Quarterly**, 34, (1957) 31-38.
8. Miller, G.A. **Speech communication : A behavioral approach.** Indianapolis, 1966.p. 26.
9. Coleman, J.C. **Psychology and effective behavior.** New York : Scott, Foresman, Co., 1969, p. 277.
10. Lindgren, H.C. **An introduction to social psychology.** New York : Wiley, 1973, p. 326.

في الاتصال الانساني هو في حد ذاته مركب من عناصر متفاعلة فيما بينها . ولنأخذ ، على سبيل المثال ، أحد مستويات التفاعل الاتصالي وهو نشاط الجهاز العصبي المركزي . وفي ذلك يقرر الباحثون في علم النفس العصبي « أن نظريات التفاعل بين النيرونات العصبية ينبغي تناولها ليس على أساس نشاط خلايا فردية ، ولكن على أساس العلاقات الكلية بين الخلايا العصبية . وحتى أبسط نمط من السلوك انما يتطلب نشاطا متكاملا لملايين النيرونات العصبية .. بل اننا لنعتقد غالبا ان كل خلية عصبية في انحاء المخ قد تستثار في كل نشاط ... اما السلوك الفارقي فيتحدد بواسطة تجمع خلايا تعمل مع بعضها اكثر مما يتحدد بواسطة الخلايا التي تسهم فقط في نمط سلوكي معين (١١) .

فاذا اضفنا هذا التعقد الهائل لنشاط الجهاز العصبي الى العمليات الاخرى ـ النفسية والاجتماعية والجسمية وغيرها من العمليات ـ امكننا ان ندرك مدى تعقد القوى التي تكمن وراء عمليات الاتصال الانساني .

مفاهيم اساسية : لكي يستطيع القارىء ان يحسن التوجه في الدراسة الحالية ، من المفيد ان نعرض لبعض المفاهيم الاساسية التي يزخر بها البحث في الاتصال ، وخاصة مفهوم الاتصال ووظائفه ، وكذلك جهاز الاتصال في الانسان .

١ ـ مفهوم الاتصال : لاشك ان مقدرة الانسان على انطلاقية حركته وتعدد براعاته (Versatility capacity) لبدو اكثر وضوحا واهمية في مقدرته على الاتصال . وفي ذلك يقول الفيلسوف الاجتماعي الامريكي « جورج هربرت ميد » ان « اهمية ما نطلق عليه مصطلح « اتصال » تكمن في الحقيقة بأن الاتصال يوفر نوعا من السلوك الذي فيه قد يصبح الكائن الحي او الفرد موضوعا لنفسه (an object to himself) . فحينما لا يسمع الفرد نفسه فحسب ولكن يستجيب أيضا لنفسه ؛ وحينما يتحدث الى نفسه ويجيب عليها مثلما يجيب عليه الشخص الآخر ـ في هذه الحالة يكون قد تكون لدى هذا الفرد سلوك يصبح فيه موضوعا لنفسه » (١٢) ومن الطبيعي ان يكون موضوعه لنفسه هو الأنا او الذات او الهوية التي يتميز بها في تواصله مع الآخرين . ولاهمية هذه المقدرة الانسانية ، ينبغي تحديد مصطلح (الاتصال) كنقطة انطلاق لتناول هذا الميدان من الدراسة .

---

11. Ashby, W.R. The application of cybernetics to psychiatry. **Journal of Mental Science**, 100 (1954).
12. Miller, G.A. **The psychology of communication.** Pelican Books, 1974, pp. 7-8.

يمكن تحديد مفهوم الاتصال على النحو التالي :

« الاتصال هو العملية التي بها يتفاعل المرسلون والمستقبلون للرسائل في سياقات اجتماعية معينة » (١٣)

يتضمن هذا التعريف عددا من الافتراضات عن طبيعة الاتصال . فالاتصال كعملية يفترض ان مكونات التفاعل دينامية وليست ستاتيكية في طبيعتها ، وانه لايمكن اعتبارها كعناصر غير متغيرة من حيث الزمان والمكان . بل ان الاتصال ـ كما يلاحظ « دانس » (١٤) موضوع التغير حتى في اثناء توفرنا على دراسته واختباره . ويعني التركيز على التفاعل في تحديد طبيعة الاتصال ، انه لايمكننا ان نفهم جانبا واحدا من الاتصال بمعزل عن المكونات الأخرى للسلوك ، كما ان التغير في جانب من جوانب العملية الاتصالية قد يؤدي الى تعديل في الاتصال ككل (١٥) . وطالما ان هذه التغيرات المتواترة تتضمن استجابات المرسل والمستقبل على حد سواء ، فلا يمكن اعتبار مبدأ التفاعل على انه عملية نقل من جانب واحد . فالتفاعل هو بالدرجة الاولى عملية تبادلية في طبيعتها ، تبادل مشترك للمؤثرات المتراكبة ، او هو « التوجه المتلازم » (co-orientation) لكل شخص متواصل نحو الاشخاص الآخرين ونحو موضوع تعاطيهم الاتصالي . (١٦) اما الرسائل كوسيط للاتصال فتتألف من اي متغير اتصالي ـ كالمعلومات مثلا ـ يعمل على وصل التفاعل بين الأشخاص المتواصلين ، بما يؤثر في استجابات كل هؤلاء الاشخاص المشتركين في الاتصال . وعلى هذا النحو ايضا يمكن اعتبار السياق الاجتماعي واقعيا على انه جانب متكامل من التفاعل ، بدلا من اعتباره كموقع او مكان يحدث فيه الاتصال .

مفهوم الاتصال اذن ، ينبغي ان يقوم على تصور شمولي يضع في الاعتبار كل المحددات المتعلقة بالفرد والجماعة في عمل اتصالي معين . ويستلزم ذلك تناول الاتصال في اطار يتضمن جوانب متعددة .

ـ **الاتصال كنظام للسلوك** : يقدم مدخل النظم اطارا مرجعيا ينظم مكونات العمل الاتصالي . وقد تقوم أنظمة او نماذج الاتصال على تصور رياضي يصف الاتصال على اساس مضاهاته بالعمليات التي تجري في ماكينة تشغيل المعلومات Information processing machine : **فالعمل او الحدث الاتصالي يتضمن مصدرا او شخصا مرسلا ينقل اشارة او رسالة خلال قناة الى المكان المقصود او الشخص المستقبل** . ولكن في العلم الاجتماعي ، تهتم معظم نماذج الاتصال بتضمين وظائف اكثر من وظائف الارسال ـ النقل ـ الاستقبال . لذا تضع في الاعتبار عوامل مثل طبيعة التفاعل ، والاستجابة للرسالة ، والسياق الذي يحدث فيه التفاعل .

---

13. Gerbner, G. Mass media and human **communication theory.**
14. In F.E.X. Dance (ed.), **Human communication theory. New York : 1967, p. 43.**
15. Sereno, K.K., & Nortensen, C.D. **Foundations of communication theory. New York:** Harper & Row Pub., 1970, p. 5.
16. Newcomb, T.M. Am approach to the study of communication acts. **Psycholo. Rev.,** 60 (1953), 393-404.

ــ الاتصال نشاط قائم على ترجمة الرسالة الى رموز او اشارات يجرى نقلها للآخرين ــ ثم ترجمة الرموز او الاشارات المنقولة فى شكل رسالة (encoding — decoding) . ويهتم بهذا البعد خاصة معظم النماذج او النظم «الاجتماعية» للاتصال .

ــ الاتصال كتفاعل هو عملية وصال linkage process بين المرسلين والمستقبلين للرسائل . وفى العملية تتضافر عوامل ومتغيرات كثيرة .

ــ اما « السياق الاجتماعي » social context الذى يتوافر فيه الاتصال ، فيشير الى تلك القوى التى تؤثر فى الاتصال فى موقف معين ، والتى تحكم تدفق المعلومات ونماذج التأثير من جماعة مرجعية الى جماعة اخرى ومن ثقافة فرعية الى ثقافة اخرى .

الاتصال ، هكذا ، مفهوم مركب متعدد الأبعاد . ويتطلب ذلك ان ينطلق اى « تنظير » او « نمذجة » فى هذا الميدان من هذا التصور .

ب ــ **وظائف الاتصال** : يستخدم الانسان نظام الاتصال لتحقيق عدة وظائف :

ــ استقبال ونقل الرسائل ، والاحتفاظ بالمعلومات .

ــ القيام بعمليات على أساس المعلومات المتاحة بهدف اشتقاق نتائج جديدة لم يكن يدركها الفرد مباشرة ، وكذلك بهدف اعادة بناء الاحداث الماضية والتنبؤ بالمستقبل .

ــ التأثير فى العمليات الفسيولوجية داخل الجسم وتعديلها .

ــ التأثير فى الاشخاص الآخرين والأحداث الخارجية وتوجيه هؤلاء الاشخاص وتلك الاحداث .

وفى الواقع ان وظيفة الاتصال تتسع لتشمل آفاقا أبعد . فكثير من الباحثين يتناولون الاتصال كوظيفة للثقافة ، وكوظيفة للتعليم والتعلم ، وكوظيفة للجماعات الاجتماعية وكوظيفة للعلاقات بين المجتمعات ، بل ويعتبرون الاتصال كوظيفة لنضج شخصية الفرد ، وغير ذلك من جوانب توظيف الاتصال .

جـ ــ **جهاز الاتصال فى الانسان** : يمكن النظر الى جهاز الاتصال فى الانسان (communication apparatus) على انه تنظيم بنيوى وظيفى يعتمد على التموضع التشريحى anatomical localization لعمليات الاتصال ولديناميائها فى الجهاز العصبى المركزى الذى

17. Ruesch, J. Values, Communication, and Culture. In Ruesch, J. & Bateson, G. (eds.), **Communication : The social matrix of psychiatry.** New York : Norton & Co., 1968, pp. 17-18.

18. Ibid, pp. 16-17.

هو أشبه بـ « مركز الاتصال » في الأنظمة التكنولوجية للاتصال . ويتألف جهاز الاتصال في الانسان من المكونات التالية :

– أعضاء الحس (المستقبلات receivers) .

– أعضاء التوريد أو التصدير (المرسلات sender,) .

– مركز الاتصال (communication center) وهو موضع تجمع ومعالجة وحفظ الرسائل أو المعلومات في الدماغ .

– الاجزاء الباقية من الجسم ، وهي هيكل ماكينة الاتصال communication machinary.

• • •

اطار الدراسة الحالية : يتحدد هذا الاطار بالمنظور السلوكي لدراسة الاتصال الانساني باعتباره ظاهرة اجتماعية نفسية مركبة ، تتضافر فيها جوانب ومتغيرات متشابكة . وفي هذا الاطار نتناول الموضوعات التالية :

أولا – أبعاد الاتصال الانساني :

أ – الاتصال كعملية نقل واستقبال المعلومات .

ب – ميكانزمات التغذية الراجعة في العملية الاتصالية .

جـ – التعلم كاتصال .

د – اللغة كاتصال .

ثانيا – أنماط الاتصال الانساني :

أ – الاتصال بين الفرد ونفسه .

ب – الاتصال بين الفرد والاخرين .

جـ – الاتصال بين الجماعات الاجتماعية .

ثالثا – معوقات الاتصال (باثولوجيا الاتصال) .

رابعا – تحسين الاتصال .

وقد جاء تناولنا لهذه الموضوعات استنادا الى تحليل للنظريات والدراسات المختلفة ، بغية استنباط العناصر الاساسية التي يمكن أن تفيدنا في تطوير نموذج سيكولوجي للاتصال الانساني يكون مفتوحا للتفاعل وللاخذ والعطاء مع النماذج الاخرى التي تقدمها العلوم المعنية بالاتصال .

• • •

ابعاد الاتصال الانساني :

اولا ـ الاتصال كعملية نقل واستقبال المعلومات :

الاتصال ، بالنسبة للشخص العادى غيرالمتخصص ، عملية بسيطة نسبيا : فكل فرد يقيم اتصالا او يحاول ذلك . وقد يعتبر الشخص العادى أن الناس تعقد الاتصال لان ثمة شيء يسعون الى توصيله للاخرين : كالمعلومات اوالمشاعر او المطالب او الادلة والبراهين .

ورغم ان نظرة الشخص العادى الى الاتصال تنطوى على قدر كبير من الصدق ، الا ان الاتصال يبدو مختلفا تماما بالنسبة للعالم السلوكي ؛وذلك لعدة اسباب : فالعالم السلوكي يدرك التعقدات المرتبطة بالاتصال ، وهى تعقدات قديغفلها الشخص العادى . كذلك فان ما يقدمه الشخص العادى من تفسير يترك الكثير من جوانب السلوك الاتصالي غامضا . فعلى سبيل المثال ، لماذا يعبر الناس فى اتصالهم احيانا عن الكثير من سوء المعلومات misinformation ؟ ولماذا يعقد الناس اتصالات احيانا بطريق تتوارى فيها المشاعر اكثر من أن تتضح ؟ لماذا يتعثر الاتصال بين بعض الاشخاص او الجماعات ؟

وفى الواقع ان تعقدات الاتصال تصعب على الفهم سواء بالنسبة للشخص العادى او العالم المتخصص ، لاننا ننطوى فيها على نحو موصول مستمر ، فنحن ندمج دائما فى ارسال او استقبال او تدوين او معالجة الرسائل : فوجودنا هو فى مجال نفسى ـ اجتماعى غني بمقومات الاتصال . وفى بعض الاحيان ، قد يكون ذلك مدعاة للتشتت او البلبلة ، لان هناك الكثير من الرسائل المختلفة التي يجرى تلقيها بطريقة متانية .

الاتصال كاداة : قد ينظر معظم الناس الى الاتصال اساسا فى ضوء ما يحققه لهم . والاتصال بهذا المعنى هو عملية تمكننا من توجيه واستقبال الرسائل المحملة بالمعلومات ، وبالتالي من محاولة مباشرة نوع من الضبط والسيطرة على بيئتنا . اى ان الاتصال خادم لنا ، ونحن سادته .

تلك ولا شك نظرة ضيقة للاتصال ، لا يستطيع العالم السلوكي ان يتقبلها لانها لا تضع فى الاعتبار ما يترتب عليها من آثار جانبية عديدة قدتكون فى بعض الاحيان اكثر اهمية مما تحمله الرسائل الموجهة والمستقبلة من معلومات واضحة. وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه النظرة تتجاهل عددا من الطرق التي بها نستخدم الاتصال فيماهو ابعد من نقل واستقبال المعلومات المباشرة .

ومع ذلك ، فمن السهل ان نفسر لماذا ناخذبالنظرة الضيقة للاتصال . فكلما مضينا فى مهام الحياة اليومية ، فاننا قد لا نهتم بالنقاط والتفاصيل الدقيقة والفروق الطفيفة المتعلقة بالسلوك الاتصالي . بل ان ذلك ليبدو غير متسق مع ادوارنا ـ كاباء او كطلاب او كعمال او كمديرين او غير ذلك من الادوار الاجتماعية والمهنية ـ بان تستغرقنا انواع الظاهرات الاتصالية التي يهتم بها العالم السلوكي . فما يعنى العالم السلوكي من مشكلات قد لا تكون موضع اهتمامنا ، فى حين ان المشكلات التي نخبرها فى محاولة الاتصال قدتكون بالنسبة له ذات اهمية ضئيلة .

فمن ناحية، تتحدد المشكلةالتي يحتمل ان تعنينا اكثر من غيرها في ان نجد الطرق التي نعبر بها من انفسنا بطريقة ملائمة ــ كأن نجد المصطلحات والعبارات الملائمة، وتجنب العبارات التي تعطي للاخرين انطباعا خاطئا، ونحاول ان نجعل الاخرين يتحدثون عن اشياء تهمنا، وهكذا. ونحن في هذا نكون على وعي بتلك المشكلات حينما نسعى الى ان نجد الكلمات الصادقة لوصف مشاعرنا الدفينة، كأن تتملكنا الغيرة من صديق لانه يعبر عن نفسه بقوة ويستحوذ على انتباه السامعين.

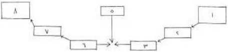
ومن ناحية اخرى، يتحدد الفارق الاساسي بين نظرة الشخص العادي والعالم السلوكي الى الاتصال في ان العالم السلوكي يميل الى ان يعتبر الاتصال على انه «موقف»، فيه يقوم الشخص الموصل communicator باحداث تغيرات في السامعين. (١٩) فاتصال المعلومات، على سبيل المثال، يستثار بواسطة الاعتقاد بان السامع سوف يتقبل المعلومات وسوف يسلك وفقا لها. ويمكن ان نجد المثال الواضح لهذا الاعتقاد في الاعلان من السلع. فالشخص المعلن يزعم بانه اذا كان لرسالته ان تصل الى السامع المقصود، فانه يترتب عليها بعض التغير في سلوك السامع: ان السامع سوف يلجأ الى شراء المنتجات المعلن عنها بدلا من غيرها.

الاتصال كعمل تفاعلي: يميل العالم السلوكي الى النظر الى الاتصال على انه تعامل او عمل تفاعلي (Transaction) والى الزعم بان الاتصال لايتم اذا لم يندمج السامع بطريقة نشطة في العملية الاتصالية (٢٠). ومن امثلة هذا الاندماج الانتباه ــ اى الاصغاء، والتتبع، ومحاولة الفهم. مثال آخر لهذا الاندماج، وهو الدخول في حوار، او تبادل الاراء ووجهات النظر. ومع ذلك، فليس هناك من عمل تفاعلي حقيقي وبالتالي ليس هناك من اتصال حقيقي، الا اذا اعتقد كل من الطرفين ــ الموصل والسامع ــ بان ثمة شيئا سوف يتم تجليته نتيجة لذلك.

ويعرض الشكل رقم (١) رسما تخطيطيا للاتصال كعمل تفاعلي. ففي الفرد المتصل تنشأ حالة من التوتر الى الحد الذي يشعر معه بانه مضطر الى توصيل بعض المعلومات التى ترتبط بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بشعوره بالتوتر. وهو في ذلك يختار وسيطا لنقل المعلومات يحقق به اتصاله. وعادة ما يكون هذا الوسيط هو الكلام او في شكل ايماءات او حركات تعبيرية، او قد يتم الاتصال عن طريق الكتابة او استخدام «نظام مورس» عبر الموجات القصيرة بالراديو. وايا كانت الطريقة التى يختارها الفرد، فان معلوماته ينبغى ان توضع في شكل رسالة ينبغي ان تترجم بدورها الى رموز او اشارات (encoding) بالشكل الذى يتفق مع المعلومات ونمط الوسيط المستخدم في نقلها. اما النقل الحقيقي للمعلومات فيأخذ شكل اشارة يجرى ارسالها من الشخص الناقل للمعلومات الى الشخص المستقبل عن طريق ما يعرف بـ «القناة» channel. ولكن ما يسميه اخصائيو الاتصال بـ «الضوضاء» قد يتدخل في تعطيل الاشارة او اختلالها. واذا تكلمنا من الناحية الفنية، فان اى تغير في الرسالة المستقبلة، انما يعزى الى «الضوضاء»، التى يمكن ان تتدخل في اى لقطة في نظام الاتصال.

---

19. Bauer, R.A. The obstinate audience : The influence process from the point of view of social communication. **Amer. Psychologist**, 19 (1964), 319-328.
20. Ibid.



شكل (١) : رسم تخطيطي للاتصال كعمل تفاعلي transaction ، حيث يحدث الاتصال على النحو التالي :

(١) الموصل او المرسل للرسالة (المصدر) : توجد حالة توتر في الموصل ، تؤدي به الى الرغبة في توصيل المعلومات . لذلك يصبح مصدر الرسالة .

(٢) الرسالة المترجمة الى اشارات : يجري ترجمة المعلومات الى اشارات او رموز يعمل على نقلها للاخرين encoding اي ترجمة الرسالة في شكل رمزي ملائم (عادة اللغة او الايماءات) .

(٣) جهاز الارسال الوسيط : الرسالة ـ في شكلها المترجم الى اشارات ـ يجري تغذيتها ونقلها في جهاز ارسال ملائم (كالجهاز الصوتي) او في مجموعة من اجهزة الارسال (كالجهاز الصوتي والتليفون) .

(٤) القناة : يبعث جهاز الارسال بالرسالة عبر قناة في شكل اشارة .

(٥) الضوضاء : عندما تمر الاشارة عبر القناة ، تكون عرضة للضوضاء ، بما قد يتمخض عنه تحريف في الرسالة المنقولة .

(٦) المستقبل : يلتقط الاشارة من القناة .

(٧) ترجمة الاشارة المنقولة في شكل رسالة decoding

(٨) السامع او مستقبل الرسالة (الغاية او المكان المقصود) : تصل الرسالة ـ كما جرى تحديدها عن طريق ترجمة الاشارة المنقولة ـ الى غايتها او مكانها المقصود ، اي السامع الذي يفسرها لكي يحدد مضمونها من المعلومات .



شكل (٢) : متوسط طول العبارات التي يستخدمها الشخص الذي يجري المقابلة (يمثله في الرسم الخطوط المتقطعة (ـ ـ ـ ـ) في مواقف كان يختلف فيها بصفة منظمة طول عبارات الشخص الذي تجرى معه المقابلة (يمثله في الرسم الخطوط المتصلة) Matarazzo J. D., et al. (1964) Ibid.) .

وحينما يتم استقبال الاشارة ، فان المستمع يدركها على أنها رسالة ، حيث يترجم رموزها أو اشاراتها في شكل رسالة (decoding) ويفسرها . وتنعكس العملية حينما يستجيب الشخص المستقبل للرسالة ، ومن ثم يصبح مرسلا .

وغالبا ما يكون هناك تأثير متبادل في طول الرسائل المتواصلة بين شخصين . وفي ذلك توضح بحوث « ماتارازو وزملاؤه »(٢١) العلاقة بين طول مدة الكلام والعملية الاتصالية لدى أزواج من الاشخاص ، وذلك عن طريق تنظيم مواقف يقوم فيها الاشخاص الذين يجرون المقابلة بضبط أطوال الاسئلة والتعليقات بعناية في خلال مقابلات تستغرق ٤٥ دقيقة مع أشخاص مرشحين للعمل ببعض الوظائف . وقد نظم الباحثون ثلاثة أنماط من المواقف : الموقف الاول ، وفيه تستغرق تعليقات الشخص الذي يعقد المقابلة خمس ثوان في البداية ، ثم تزداد الى عشر ثوان ، وفي النهاية تنخفض الى خمس ثوان . وكما يوضح الشكل رقم (٢) ، يتمخض عن هذه الزيادة التي تبلغ ١٠٠٪ في طول مدة كلام الشخص الذي يعقد المقابلة زيادة مماثلة في طول مدة استجابة الاشخاص الذين تجرى معهم المقابلة . وفي الموقف الثاني ، كانت الاجراءات التجريبية عكس الموقف الاول (١٠ ـ ٥ ـ ١٠) ، وترتب عليها تغير مماثل في طول مدة استجابة المفحوصين . أما في الموقف الثالث ، حيث كان هناك تباين ضئيل في طول مدة كلام الشخص الذي يعقد المقابلة ، فقد أبدى المفحوصون كذلك تباينا ضئيلا في طول مدة كلامهم .

وفي سلسلة أخرى من التجارب ، توصل « ماتارازو وويتز » (٢٢) الى أن مقدار الوقت المنصرم بين انتهاء المفحوص من كلامه وابتداء الشخص الذي يعقد المقابلة بتوجيه السؤال التالي الى المفحوص ، يرتبط وثيقا بتواتر استجابات المفحوصين : فكلما طالت مدة توقف الشخص الذي يعقد المقابلة ، طالت كذلك مدة تأرجح استجابة المفحوص . ويفسر الباحثان هذه الظاهرات في ضوء نظرية التعلم الاجتماعي ، التي تقرر أن الاشخاص المشتركين في محادثة يصيرون « نماذج » لبعضهم الآخر . ويمكن النظر أيضا الى هذا التأثير المتبادل على أنه نمو لمعايير معينة بين أعضاء جماعة.

وسائل الاتصال الساخنة والباردة : تعتبر استثارة السامع واحتواؤه شرطا ضروريا لفاعلية النظام الاتصالي الذي تبثه وسائل الاتصال الجماهيري خاصة . وفي ذلك تؤكد نظرية « مالك لوهان » (١٩٦٤ (٢٣) ، ١٩٦٧) (٢٤) أن طبيعة وسيط الاتصال من حيث التأثير العام

---

21. Matarazzo, J.D., etal. Speech durations of astronaut and ground communication. **Science**, 143 (1964).
22. Matarazzo, J.D., etal. Interviewer influence on durations of interviewee silence. **J. exp. Res. Pers**, 2 (1967), 59-69.
23. Mc Luhan, M. **Understand media : the extension of man.** New York : Mc Graw-Hill 1964.
24. Mc Luhan, M. **The medium is the message.** New York : Benton, 1967.

للرسالة ، تكون في الغالب اكثر اهمية من مضمون الرسالة ذاتها . لذا يصف بعض وسائط الاتصال communication media على انها « ساخنة » hot media لان اشاراتها بسيطة ومباشرة ، وتتطلب انهماكا قليلا نسبيا في شكل اعادة ترجمة رموز الرسالة او تفسيرها من جانب المستمعين . وهناك وسائط اخرى « باردة » coolmedia ، لانها تتطلب انهماكا اكبر وتهيؤا اعظم من قبل المستمعين . ويعتبر « ماكلوهان » الراديو مثالا للوسيط الساخن ، والتلفزيون كوسيط « بارد » . ويزعم بان الدراميين والمرضى الاستثارة وهم الاشخاص « الساخنون » في تاثيراتهم الاتصالية ، ينبغي ان ينقلوا معلوماتهم الى الآخرين واتصالاتهم بهم من خلال الوسائط « الساخنة » ، وذلك لكي يحققوا اقصى تاثير ممكن . فعلى سبيل المثال استطاع الرئيس الامريكي السابق « جون كينيدي » وهو شخص « بارد » ، ان يعطي انطباعا اتصاليا من خلال التلفزيون افضل مما استطاع ان يحققه نظيره « ريتشارد نيكسون » ، وهو شخص « ساخن » .

وقد خضع صدق هذا التفسير للاختبار في تجربة جرى فيها تقديم خطاب سياسي عبر الراديو او التلفزيون بواسطة ممثل يعطي صورة « ساخنة » أو « باردة » عن نفسه . وقد تم بالتالي تنظيم اربعة انماط مختلفة من تقديم الخطاب ، بحيث ان كل خطاب منها كان يوجه الى سامعين مختلفين . ولكن النتائج لم تؤيد توجهات نظر « ماك لوهان » كلية ، لان السامعين قد ابدوا ميلا الى الاستجابة الى الممثل « البارد » بطريقة افضل من الاستجابة الى الممثل « الساخن » والى الاداء التلفزيوني منه الى الراديو . وبقول آخر ، فان الاداء « البارد » عبر الوسيط « البارد » قد لقي الاستجابة الافضل كما تنبأ « ماك لوهان » ولكن الاستجابة الاسوا كانت للاداء « الساخن » عبر الوسيط « الساخن » خلافا لما ذهب اليه « ماك لوهان » . وهكذا يبدو ان درجة تقبل السامعين للرسالة وتوجههم نحوها انما يتأثر بمتغيرات اكثر من مجرد درجة الانهماك التي يتطلبها الوسيط الاتصالي .

فالاتصال لا يمكن ان يتم الا اذا ابدى السامع اهتماما كافيا بالاستجابة . ومن ابرز الاساليب التي تكفل انهماك السامع وانضوائه في العملية الاتصالية ما يتجه فيه الشخص الموصل من تشجيع للتغذية الراجعة .

• • •

(ثانيا) ميكانزمات التغذية الراجعة في العملية الاتصالية :

تعرف العملية التي من خلالها يدرك الفرد نتائج استجابته أو نمط استجابته بـ « التغذية الراجعة أو المرتدة » feedback . وتشير هذه العملية بذلك الى المعلومات التي

يتلقاها الفرد عن ملاءمة وكفاية ادائه . وغالبا ما تؤدي « معلومات التغذية الراجعة feedback information » الى تغيير السلوك وفقا لعدة طرق (٢٥) :

١ ــ بهذه المعلومات يتعلم الفرد أن يميز بين امارات cues الموقف .

٢ ــ قد تؤدي معلومات التغذية الراجعة الى تعديل دافعية الفرد .

٣ ــ قد يترتب على معلومات التغذية الراجعة بعض المعارف التي يمكن ان يستخدمها الفرد في مواقف اخرى في المستقبل .

ويعني ذلك ان معلومات التغذية الراجعة قد تؤدي الى تعديل العمليات الادراكية ، والدافعية ، والمعرفية ، وان هذه العمليات بدورها قد تؤدي الى تعديل السلوك الظاهري للفرد .

ولهذه العملية اساس فسيولوجي عصبي ، يتمثل في بعض الوظائف التي تقوم بها المنطقة الجبهية frontalzone والمنطقة قبل الجبهية prefrontal zone بالدماغ الانساني ، وهي ميكانزمات « التوريد العائد » return afferentation فالاداء يتدعم اذا اتحد واتفق مع التوريدات العائدة المتعلقة بهذا الاداء في خبرة سابقة ، ويتأتى اكتشاف الاخطاء وتصحيحها اذا لم تتحد مثيرات الاداء مع التوريدات العائدة . (٢٦)

وفي ضوء ذلك ، ليس هناك من اساس على لأن نقبل مفهوم الاتصال كعملية من جانب واحد (one-way process) ، فالاتصال عملية تفاعل متبادل بين شخصين او اكثر تلعب فيها التغذية الراجعة دورا كبيرا في توجيه وتدعيم العملية الاتصالية . (٢٧)

التغذية الراجعة كميكانيزم توجهي : ان ما يفعله الشخص المرسل حينما يحاول تتبع رسالته التي يريد بها توصيل معلومات معينة ، هو ان يحدد تأثيرها على الشخص المستقبل ، اي ان يصبح حساسا لما نسميه بالتغذية الراجعة .

التغذية الراجعة مصطلح استعاره علماء النفس من علم هندسة الالكترونات . وهي العملية التي تحدث حينما تجرى لاستعادة البيانات المتعلقة باداء نظام ما (ماكينة او كائن حي مثلا) الى النظام لتغذيته لكي تسمح بتصحيح الاداء وملاءمته . ويمثل هذا الميكانزم ركيزة اساسية لعلم « السيبرنطيقا » (٢٨) فالطائرة ، على سبيل المثال ، تعمل على اساس مبادىء

---

25. Loree, M. R. Psychology of education. New York : The Ronald Press Co, 1970, pp. 409-410.

(٢٦) (طلعت منصور : المدخل البيولوجي في دراسة النشاط النفسي . مجلة العلوم التربوية والنفسية ، بغداد ، العدد الثاني ، ١٩٧٨ .

27. Bauer, R. A. op. cit.

28. Wiener, N. The human use of human beings : cybernetics and society. Boston : Houghton Miffin, 1950.

التغذية الراجعة ، حيث يتضمن تركيب الالات ميكانيزمات عمل الاجزاء المختلفة وتصحيح الاداء وفقا للتغيرات المختلفة . فاذا ادى التغير فى التيارات الهوائية الى تحول فى مسار الطائرة ، فانه وفقا لنظام التغذية الراجعة يجرى تصحيح المسار وتزويد الطاقم الفنى لادارة الطائرة بالمعلومات التى تمكنهم من حسن توجيه واداء هذه الماكينات . مثال آخر ، تؤدى الامتحانات والاختبارات الى تزويد المعلمين بمعلومات التغذية الراجعة . فيستطيع المتعلمون ان يكتشفوا نواحى القصور فى استراتيجيات تعلمهم ، كما يستطيع المعلمون ان يكتشفوا مدى نجاح جهودهم التدريسية ، وبالتالى فان كليهما يتاتى له ان يقوم بالتصحيح اللازم للسلوك فى المواقف اللاحقة .

ويمكن **اعتبار التعلم الاجتماعي كنتيجة للتغذية الراجعة** فالاساليب المختلفة للسلوك ، التى يستخدمها الاطفال فى محاولتهم للتكيف داخل اسرهم وثقافتهم ، من شأنها ان تستدعى استجابات من الوالدين والرفاق ، بعضها ايجابى وتأييدى ، والاخر سلبى اومحايد . هذه الاستجابات ، بدورها ، توفر المعلومات اللازمة لتقييم السلوك من حيث ملاءمته او عدم ملاءمته، اذلك ، فان السلوك الملائم يتدعم ويقوى ، والسلوك غير الملائم يخبو وينطفىء . هذه العملية تستمر معنا فى مواقف الحياة المختلفة وتشكل الاساس فى تعلمنا التكيف مع **المواقف الاجتماعية المتغيرة باستمرار الضغط الاجتماعى كتغذية راجعة** : ان سلوكنا ، **اللفظى او غير اللفظى** ، مصدر للمعلومات التى يلتقطها الآخرون ويستخدمونها كاساس لتعيين ما وراء سلوكنا من دوافع . اي انهم بدورهم يصدرون رسائل توفر تغذية راجعة تمدنا **بمعلومات** عن تأثير افعالنا عليهم . وسواء كنا نسعى الى هذه التغذية الراجعة أو لا نبحث عنها ، فمن المحتمل ان يكون لها نوع من التاثير على سلوكنا اللاحق . فبسبب هذه التغذية الراجعة ، نجد انفسنا مسوقين الى تغيير سلوكنا وفقا لادراكنا لانفسنا ولعلاقاتنا داخل الجماعة .

بقول آخر ، تلعب « المرغوبية الاجتماعية » social desirability دورا كبيرا فى توجيه السلوك الانسانى ، حيث تباشر معايير الجماعة ضغوطا على سلوك الفرد فيسعى الى تعديله مسايرة لهذه المعايير فى بعض الاحيان . وفى ذلك توضح دراسات «آش» (١٩٥٦) (٢٩) ١٩٥٨ (٣٠) مدى تأثير ضغط الجماعة على تعديل احكام الافراد . ففى هذه الدراسات التى تلقى فيها الافراد تغذية راجعة من طريق ملاحظة الاختلاف بين تقريراتهم وتقريرات الاخرين ، عمد معظمهم الى تعديل تقريراتهم واحكامهم فى وقت او آخر اثناء التجربة كنتيجة لهذه التغذية الراجعة .

---

29. Asch, S.E. Studies of independence and conformity. Amminority of one against a unanimous majority. **Psychol. Monogr.**, 70 (1956), No. 9.

30. Asch, S.E. Effects of group pressure upon the modification and distortion of judgments. In Maccoby, Newcomb, & Hartley (eds.), **Readings in social psychology.** (3rd ed.). New York, 1958.

التعاطف كعامل هام في التغذية الراجعة :يعتبر التعاطف empathy من المقومات الرئيسية للتغذية الراجعة . فمهارتنا في ملاحظة التغيرات في مشاعر واتجاهات السامعين تمكننا من تحديد ما اذا كانت رسائلنا تصل الى الآخرين وما لها من تأثيرات عليهم . هذه المعلومات ، حالما تزود بها أنظمتنا المعرفية ،تمكننا أكثر من ـ تغيير طرائقنا ومن أن نجد أساليب للاتصال أكثر فعالية . فعلى سبيل المثال ، يدرك المحاضر انه يفقد اهتمام السامعين بالمحاضرة اذا رأى بعضهم يتحدث الى الآخر ، أويتململون في أماكنهم او ينتقلون منها ، او غير ذلك من الاشارات الدالة على عدم ارتياحهم .هنا يستطيع أن يغير من طريقته ، كأن يتوقف ليحكي قصة ، أو يبرز موقفا ، أو يستخدم ايضاحات أكثر ، أو يستجمع براعته في استيعاب السامعين ، الخ . ويتضح من دراسات «آش» السابق ذكرها ، ان التعاطف يوفر أيضا معلومات قد تؤدي بنا الى تغيير عقولنا وكذلك طرقنا في الاتصال .

ثالثا ـ التعلم كاتصال

اذا كان « التعليم نشاط هدفه استثارة التعلم » ، فان التعلم هو « تغيير ثابت في الميل السلوكي للفرد » ، (٣١) كما أنه « تلك العملية التي تتغير بها مقدرة الفرد او استعداده كنتيجة للخبرة » . (٣٢)

ويمثل هذا التعريف لطبيعة التعلم الاتجاه العام لدى كثير من علماء النفس ، من حيث اعتبارهم للتعلم على انه تغير في السلوك فحسب (٣٣) . ولكن ليس كل تغير في السلوك او في المقدرة على الاستعداد يعكس وظيفة التعلم ، بل ليس كل تغير أيضا يكون نتيجة لنمط معين من الخبرة يعتبر تعلما ، كالتغيرات التي قد يخبرها الفرد نتيجة للشيخوخة او التعب او الحرمان او الادمان او غير ذلك . لكل ذلك قد يميل بعض علماء النفس الى اعتبار التعلم كتغيرات تنتج من التدريب والممارسة (٣٤) او اعتباره « كممارسة متدعمة » ، اي كممارسة تنطوي على ناتج يبعث على الرضا . (٣٥)

والتعلم الانساني على هذا النحو هو بالدرجة الاولى عملية نمائية تقدمية progressive تتمثل في اكتساب مستويات متقدمة من سلوك الفرد واتجاهاته وقيمه ومهاراته ومعارفه وقلسفته في الحياة ، وفي أسلوب حياته بصفة عامة . ويكون مردود عملية التعلم بذلك هو تغير الشخصية نحو مستويات أرقى .

31. Craig, R., Mehrens, W., & Clarizion, H. **Contemporary educational psychology.** New York : Wiley, 1975, p. 8.
32. Ibid, p. 118.
33. Hilgard, E.R., & Bower, G.H. **Theories of learning.** (3rd. ed.). New York : Appleton-Century - Crofts, 1966, p. 2.
34. Carry, R. & Kingsley, H.L. **The nature and conditions of learning.** (3rd ed). Englewood Cliffs, N. J. : Prentied-Hall, 1970, p. 10.
35. De Cesso, J.P. **The Psychology of learning and instruction.** Englwood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1968, p. 243.

والعلاقة بين التعلم والاتصال علاقة وظيفية متبادلة : فالتعلم لا ينشأ من فراغ ، وانما من خلال التفاعل بين فرد وآخر في سياق خبرة ، وقد يكون للآخر حضور مباشر في الموقف التعلمي مثل مواقف التعلم المدرسي ، أو غير مباشر مثل قراءة الفرد لكتاب أو مشاهدته لفيلم . والتعلم بذلك هو عملية اتصالية . ومن ناحية أخرى ، ينطوي الاتصال على عملية تعلم بدرجة كبيرة . فالرسائل والمعلومات المتبادلة في سياق العملية الاتصالية تتمخض عن تغيرات هائلة سواء في سلوك الشخص المرسل للمعلومات أو الشخص المستقبل لها ، وما يرتبط بذلك من تغير في عملية التغذية الراجعة ؛ وهذه العلاقة المتبادلة بين التعلم والاتصال تتضح من الشكل رقم (٣) . الذي يبين كيف ان التعلم المدرسي تحكمه علاقة تفاعل اتصالي بين المعلم والمتعلم في اطار سلسلة من العمليات التي تترابط مع بعضها في دورة التغذية الراجعة لدى المعلم والمتعلم .

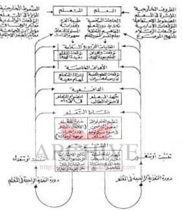
ولهذه العلاقة الوثيقة بين التعلم والاتصال — **التعلم عملية تفاعل اتصالي ، والاتصال عملية تعلم** — مقومات رئيسية نجملها فيما يلي :

الانضواء في الخبرة : فاذا كان كل تعلم يتم اساسا من خلال الخبرة التي تعني تفاعل الفرد مع بيئته في سياق عملية اتصالية ، فان هذا التعلم يتم وفقا لما يخبره الفرد في محاولة اشباع حاجاته والوفاء بمتطلبات المجتمع وضغوطه . وبقدر ما يكون عمق انضواء الفرد في مثيرات بيئته وتوحده معها ، تكون فاعلية الاتصال والتعلم . **ثراء المعنى** : التعلم والاتصال **الفعالان يقومان على** ثرائهما بالمعاني ، فيكون مضمونا التعلم والاتصال معاني غنية حية ، ترتبط بحياة الفرد وباهدافه واهتماماته . فبقدر ما يكون التعلم ذى معنى meaningful learning ، تكون فاعلية التعلم . وكذلك بقدر ما يكون الاتصال ذى معنى meaningful communication ، تكون فاعلية الاتصال .

فالاتصال بدون المعنى او الضحل المعاني meaningless يكون اتصالا آليا ، باردا ، محدودا ، ووقتيا ، بينما يكون الاتصال الجيد غنيا بالمعلومات والبيانات الملائمة وبما تنطوي عليه من « كيفيات » (how's) و « أسباب » (why's) . وتكون استجابات الاشخاص موضع الاتصال مدعمة بالقدرة على تحليل المواقف المختلفة ونقدها والتبصر باحتمالاتها ، اى تنطلق الاستجابات من الوعي ، اى من اعمال الوظائف العقلية العليا ، لا من التقليد او الايحاء .

ومن ناحية اخرى ، يعتبر الاتصال الضحل بالمعاني اقل استثارة للاهتمام ، واقل ارضاء لحاجات الفرد ، وهو بذلك لا يشبع الاشخاص موضع الاتصال ، فيميلون الى صده ورفضه . فهو اتصال لا يحتوي الاشخاص ، وبالتالي يفقد آثاره ونواتجه .

التتابع والاستمرار : يؤدي التتابع المنظم المستمر للخبرة موضوع التعلم والاتصال الى ترابط عناصرها وتماسكها معا لتؤلف شيئا ينطوي على قيمة حقيقية . ومن المقومات البارزة لتحقيق التتابع والاستمرار في التعلم والاتصال تكوين « مفاهيم استراتيجية » strategic concepts « كخيوط للاستمرار في تتابع الخبرة . ولنفترض على سبيل المثال ، ان المعلمين يتفقون على ان مفهوم « التغير » احد الخطوط الاساسية للاستمرار في المنهج ، فان هذا يستلزم تخطيطا لمناشط



شكل (٢) : التعلم المدرسي كما تحكمه علاقة تفاعل اتصالي بين المعلم والمتعلم .

(Morse C. W. **Psychology and teaching.** Bombay : T. B. Taraporevala Sons & Co., 1970, p. 195)

التعلم والاتصال على أساس توظيفها فى اطارهذا المفهوم الاستراتيجي وليس فى اطار منهج متمركز حول الموضوعات curriculum topic-centered . وفى هذه الحالة يكون هناك اختيار واسع لموضوعات من مواد مختلفة تستخدم فى توسيع وتعميق وتأصيل هذا المفهوم بطريقة متتابعة مستمرة ـ كالتغيرات فى الجو وفصول السنة وما يصاحبها من آثار ، التغيرات فى اللون حينما تخلط الالوان ، التغيرات فى استعمال الارض لفترة من الزمن ، التغيرات المصاحبة التفاعل الكيميائى : التغيرات الاجتماعية والمادية التى تتبع الاختراعات والاكتشافات ، التغيرات فى العمليات الحسابية : تغيرات المفتاح فى الموسيقى ، تغيرات الجسم بالتربية الرياضية ، وغير ذلك من أبعاد ومظاهر واحتمالات التغير التى لا تنتهى .

ولعلنا نجد فى نموذج التعلم الذى يقدمه « ا . وايت » (١٩٧٠) ويطلق عليه « التعلم القائم على المشاركة » أو « التعلم التشاركي » (participative learning) ، توظيفا لديناميات العملية الاتصالية الفعالة فى مواقف التعلم المدرسي(٣٦) فبقدر تمكن المعلم من تنظيم وتوجيه التعلم ليقوم على عملية اتصالية حية بينه وبين التلاميذ ، وبين التلاميذ وبعضهم الآخر ، وبين كل هؤلاء وخبرة التعلم ، تتحقق الغاية من التعلم وهى نمو المتعلمين . وفى ذلك يقارن « وايت » بين الدور الاتصالى « للمعلم المشارك » فى عملية التعلم participative instructor وبين « المعلم التقليدى » : فبالنسبة للنموذج الاول تكون عملية الاتصال اكثر تمركزا حول المتعلم learner-centered ، بينما يكون الاتصال فى النموذج التقليدى اكثر تمركزا حول المعلم instructor-centered يتضح ذلك من تحليل الدور الاتصالى للمعلم فى كلا هذين النموذجين للتعلم :

الدور الاتصالى للمعلم فى

نموذج التعلم التشاركي	نموذج التعلم التقليدى
ـ يركز على عملية التعلم ـ تعلم أن يتعلم (learning to learn)	ـ **يركز على تقديم المحتوى والحقائق والمعلومات .**
ـ يحتوى المتعلم بفاعلية كي يضطلع بمسئولية تعلمه على أساس من الدافعية الذاتية .	ـ **يضطلع بمسئولية تقرير ما يحتاجه التلميذ ويدفعه للتعلم وفقا للخطوط التي يقررها المعلم .**
ـ يساعد التلميذ على أن يتعلم أن يكون باحثا نشطا عن المعلومات ، وأن يحدد مصادرها المتاحة ويفيد منها بفاعلية .	ـ **يقرر ما يحتاجه التلميذ ، ويوفره خلال الدروس والتعيينات وانشطة التعلم المختلفة .**

36. Wight, A. W. Participative education and the inevitable revolution. **Journal of Creative behavior**, 4 (1970), 234-282).

ـ يتوقع من التلميذ ان يتعلم التوصل الى المعلومات واستخدامها بقدر ما تكون لازمة لحل المشكلات .	**ـ يتوقع من التلميذ تعلم المادة المقدمة اليه ، بهدف استدعائها في الامتحانات .**
ـ يتوقع من التلميذ ان يتعلم بواسطة الاستقصاء والاستكشاف وطرح الاسئلة والدخول في حوار ، وتكوين الفروض والتحقق من صحتها ، وحل المشكلات .	**ـ يتوقع من التلميذ ان يتعلم اساسا بواسطة عملية خزن المعلومات في الذاكرة وحفظها ، وتكوين استجابات للاسئلة .**
ـ يركز على العملية الابتكارية من حيث تحديد وحل مشكلات قائمة في الواقع الحياتي في اطار حلول ممكنة كثيرة ، فلا يوجد اخصائي او حل واحد صحيح .	**ـ يركز على استكمال التدريبات او المشكلات التي تستند على الكتب المدرسية ، وذلك على اساس وجود «اجابة واحدة صحيحة» ، والمعلم هو الاخصائي .**
ـ يصوغ بوضوح اهدافا محددة قائمة على حاجات التلميذ .	ـ يصوغ اهدافا ، ولكن عادة ماتقوم على تغطية قدر متخصص من المادة .
ـ يحتوي التلميذ في تبني حاجات واهداف التعلم لديه .	ـ يتوقع من التلميذ تقبل الاهداف المعينة للبرنامج .
ـ يحتوي التلميذ في قياس وتقويم خبرة التعلم والمعلومات المستوعبة ، والتقدم نحو تحقيق الاهداف .	ـ يسعى الى قياس وتقويم المادة التي يقدمها التلميذ ، وادائه وتقدمه فيها .
ـ يركز على التحصيل الفردي ارتباطا بحاجات التلميذ واهدافه .	ـ يركز على الاداء ارتباطا بالجماعة ، على اساس التدرج وفقا للمنحنى الاعتدالي .
ـ يركز على مساعدة التلميذ على تعلم العمل بفاعلية مع الآخرين ، في سياق مناشط تعاونية لحل المشكلات .	ـ يركز على التنافس بين الرفاق ، بهدف زيادة التحصيل والدرجات المدرسية وما شابه ذلك من انماط الاثابة .
ـ يركز على المناقشات والمناشط الجماعية التي يقوم التلاميذ انفسهم بتصحيحها وتقويمها .	ـ يركز على الدروس والالقاء والمناقشات وغيرها من المناشط التي يضطلع بها المعلم ويقومها وحده .
ـ يعمل في سبيل « الاتصال المفتوح » بين التلميذ والمدرسة وبين التلاميذ انفسهم .	ـ يركز على الاتصال من جانب واحد ـ من المعلم الى التلميذ ، مع وجود اتصال ضئيل من جانب التلميذ او بينهم .

ـ يتجنب اسداء « النصح » ، ولكن يساعد التلميذ على تكشف البدائل ، وعلى اتخاذ القرارات .	ـ يقدم « النصح » للتلميذ فيما يتعلق بالافعال التي ينبغي ان يقوم بها او حتى المهنة او العمل الذى ينبغي اختياره .
ـ يستثير الاراء والمقترحات والنقد في التلاميذ، ويشركهم في عملية اتخاذ القرار .	ـ يعمل هو القرارات او ينفذ القرارات التي تضعها المدرسة ، ولا يشجع التلاميذ على ابداء النقد او عرض المقترحات .
ـ يشجع اللاشكلية والتلقائية في الفصل ويعمل على اقرار علاقات غير شكلية مع التلاميذ .	ـ يفرض اجراءات شكلية وضوابط محددة في الفصل كما يقيم علاقات شكلية مع تلاميذه.
ـ ينمي في التلاميذ اتجاها تمحيصيا ، وعدم الرضا البناء ، والثقة في احكامهم .	ـ يطلب الاحترام للمعلم كسلطة ، ولا يثق في احكام التلميذ .
ـ يحاول ان ينمي في التلاميذ جوا من الصراحة، والثقة والاهتمام بالاخرين ، مع تزويد كل شخص بمعلومات التغذية الراجعة التي يحتاجها لتقييم ادائه وتقدمه .	ـ ينمي في التلاميذ تنافسا يخلق جوا من عدم الثقة ومن نقص الاهتمام بالاخرين ، ويزودهم بالتغذية الراجعة التي تتعلق بالاداء في الامتحانات .
ـ يبني البرنامج الدراسي بطريقة تساعد على معالجة المشكلات غير المخططة وغير المتوقعة كفرص موالية للتعلم .	ـ يتتبع البرنامج الموضوع بدقه ، ويتجنب المشكلات حتى لا تتداخل مع جدولة البرنامج .

من هذا يتضح ان التعلم الجيد ، كما يتضح من مواصفات الدور الاتصالي للمعلم في نموذج التعلم القائمة على المشاركة ، يقوم على « الاتصال المفتوح » بين الشخص والاخرين وبين الاشخاص وبعضهم الاخر (intra - inter communication) ، وعلى انفتاح مجالات الخبرة ، وتدعيم ما يكتسبه الشخص منها . ومن ناحية اخرى ،يوفر التعلم الجيد فرصا موالية لتحقيق الذات ، فما يتوفر في هذا التعلم من خبرات يؤدى الى توظيف امكانات الفرد والى احساسه بذاته .

• • •

رابعا ـ اللغة كاتصال

اللغة نشاط عقلى راق يعمل كشرط اساسى لتنظيم عملياتنا العقلية المعرفية ، وكوسيط حتمى للاتصال الانسانى . فباللغة يستطيع الانسان ان يجرد هذا الوجود المادى والانسانى في خصائص وعلاقات وقوانين ، وان يتحقق له الوعى بهذا الوجود والتحكم فيه على اساس « انعكاسه » في دماغه في شكل رموز وكلمات ، وفي تكوين « صور مثالية » لموضوعات هذا الوجود وظاهراته

واحداثه . وباللغة ينتقل الانسان من معرفة مجتزأة متبعثرة بعناصر الوجود الى « الانعكاس المعمم » generalized reflection . لها في شكل مفاهيم مجردة . واللغة بذلك توفر للنشاط العقلي المعرفي والسلوك الانساني خاصية « الاقتصاد العقلي » mental parsimony الذي يكمن وراء القدرة المتعاظمة للانسان على التحكم في الوجود . (٣٧)

فاللغة ، كنظام من الرموز ، تحقق وظيفتين متكاملتين :

(أ) الوظيفة الاتصالية ، حيث تعمل اللغة كوسيط للتفاعل بين الافراد ، ولنقل واستقبال المعلومات .

(ب) الوظيفة التجريدية ، فاللغة وسيط لتكوين الافكار التي تجرد الواقع وتختزله في شكل رموز تمكن الانسان من فهمه وضبطه بدرجة اكبر .

بقول آخر ، تتحدد وظيفتا اللغة بالاتصال والتعميم ، وما يقوم بين هاتين الوظيفتين من تفاعل انما يثرى دور اللغة في حياتنا : (٣٨)

فالوظيفة الاولية للكلام واللغة – وهي الوظيفة الاتصالية – هي بالدرجة الاولى وسيلة المعاشرة الاجتماعية ، وسيلة التعبير والفهم . ومن حقائق علم النفس العلمي استحالة التفهم وتواصله بين العقول بدون وجود تعبير توسطي ، ففي حالة عدم وجود نظام للاشارات ، اللغوية او غيرها ، يتحقق الاتصال في أضيق الحدود ويكون اكثر بدائية . اما الاتصال بواسطة التعبيرات الحركية ، التي نلاحظ اساسا بين الحيوانات ، فلا يعدو الا ان يكون تطيرا للانفعال . فذكر الاوز الذي يرتاع خوفا عند رؤيته الخطر ويصيح ناعقا ، لا يخبر الآخرين بما رآه ولكنه يؤثر فيهم بخوفه .

اما التوصيل الرشيد والمقصود للخبرة والفكرة الى الآخرين فيتطلب نظاما توسطيا mediating system ، اصله الكلام الانساني الناشيء من الحاجة الى الاختلاط والمعاشرة الاجتماعيتين والتفاعل الاتصالي بين الافراد في سياق العمل والانتاج . ولكن علم النفس كثيرا ما تناول هذا الموضوع بطريقة مفرطة في بساطتها ، افتراضا بأن الاشارة (الكلمة او الصوت) وسيلة الاتصال ، وبأنه من خلال الاداء المثالي يمكن ان يصير الصوت مرتبطا بمضمون أي خبرة ، ومن ثم يمكن ان يستخدم لتوصيل نفس المضمون لغيره من الاشخاص .

ولكن الدراسة الدقيقة لنمو الفهم والاتصال في الطفولة تبين **ان الاتصال الحقيقي يتطلب المعنى (أي التعميم) ، مثلما يتطلب الاشارات** . فعالم الخبرة – كما يقرر « ادوارد سابير » – ينبغي أن يجرى اختزاله وتبسيطه وتعميمه بدرجة هائلة قبلما يمكن ترجمته الى رموز .

---

(٣٧) طلعت منصور : العلاقة بين التفكير واللغة . المؤتمر الخامس والاربعون للمجمع المصري للثقافة العلمية ، الكتاب السنوي الخامس والاربعون ، ١٩٧٥ .

(٣٨) ل. فيجوتسكي : التفكير واللغة . (ترجمة : طلعت منصور) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥ ، ص ٨٠ – ٨٢ .

وبهذه الطريقة يصير الاتصال ممكنا ، لأن خبرة الفرد تستقر فحسب في وعيه الذاتي وقد لا تكون قابلة للتوصيل . فلكى تصير قابلة للتوصيل ، ينبغى تضمينها فى فئة معينة category يعتبرها المجتمع الانسانى كوحدة .

ومن ثم ، يقوم الاتصال الانسانى الحقيقى على « اتجاه تعميمى » generalizing attitude يمثل بدوره مرحلة متقدمة فى نمو المعانى . وهكذا تغدو الاشكال الأرقى للتفاعل والمعاشرة الانسانية ممكنة فحسب لان تفكير الانسان يعكس والعالم متصورا conceptualized actuality تجريديا ، اختزاليا لظاهرات واحداث الوجود والعلاقات بينها . فى هذه الاشكال الراقية التى تميز الاتصال الانسانى تتجسد وظيفيا وحدة التفكير واللغة ، وحدة التعميم والاتصال ، وحدة التفكير التعميمى التجريدى والتفاعل الاجتماعى الراقى .

وبعبارة اخرى ، تعتبر اللغة ، بوحدة وظيفتها — هى مضمون الوعى الانسانى الذى يتبدى فى الانماط الراقية من السلوك الانسانى . (٢٩)

فالواقع المحيط بنا ينعكس فى ادمغة الناس فى شكل نماذج تفكرية متعددة تلخص العلاقات المتضمنة فى هذا الواقع ، هذه النماذج تتكون وتدعم باللغة ، كما يتم توصيلها بها . ولا تتأتى عملية انعكاس الواقع بدون توسيط اللغة التى تمثل حاملا لمعارفنا المتعلقة بهذا الواقع .

واللغة لا تمكننا من التعبير عن معارفنا عن العالم الخارجي فحسب ، ولكن ايضا عن عالمنا الداخلى — عن اتجاهاتنا نحو موضوعات العالم الخارجي ، ونحو الاشخاص الآخرين ، ونحو ذواتنا وسلوكنا وعواطفنا ونزعاتنا واحساساتنا .

اللغة والهوية الثقافية: تمثل اللغة المشتركة بين اعضاء الجماعة ، تمايزا عن كل اشكال التفاعل الاجتماعى ، اكثر المصادر رسوخا واستمرارا لما يعرف بـ « **الهوية الثقافية** » او «**الذات الثقافية**» cultural identity فالهويات والفروق الثقافية بين الجماعات والثقافات المختلفة تميل الى أن تتبع خطوطا لغوية . فما يوجد من فروق هائلة فى العادات والقيم والاتجاهات والطقوس يصاحب بفروق فى اللغة ، كما ان التشابه فى اللغة يميل الى ان يدعم التشابه فى السلوك الاجتماعى . لهذا كان من الطبيعى ان تكون اللغة العربية فى مقدمة المقومات التى تقوم عليها القومية العربية . ونجد ايضا أن الامريكان يشعرون بتقارب نحو كندا وانجلترا اكثر من البلاد الاخرى بسبب استخدام اللغة الانجليزية كلغة مشتركة . ويسعى الاتحاد السوفيتى ، مع تعدد القوميات والثقافات فيه ، الى ان تسود بينها لغة مشتركة وهى اللغة الروسية . ومن ناحية اخرى ، نجد ان البلاد المجزأة لغويا ، كالهند وبلجيكا ونيجيريا ترتطم بمشكلات مستمرة تتعلق بالحفاظ على الوحدة القومية لان الفروق اللغوية تدعم وتضخم الفروق الثقافية . وقد صارت الوحدة الايطالية فى القرن التاسع عشر ممكنة بسبب الاتفاق على اللغة الايطالية كوسيط تفاق للاتصال .

(٢٩) د. ترابو : علم اللغة ومشكلة الوعى . (ترجمة : طلعت منصور) مجلة العلم والمجتمع . تصدر من مجلة رسالة اليونسكو . القاهرة ، العدد العشرون ، سبتمبر / ١٩٧٥ .

وتتضح اللغة كركيزة للهوية الثقافية ودالة لها فى الثقافات الفرعية sub-cultures فى المجتمع : الطبقات الاجتماعية ، الفئات المهنية، الريف ـ الحضر ، العواصم ـ الاقاليم ، السواحل ـ الدواخل ، وغير ذلك من تنوع الفئات الثقافية فى المجتمع . فالطبقات الاجتماعية والمستويات التعليمية تتكشف أيضا فى أساليب التعبير لاعضاء هذه الثقافات الفرعية . ونستطيع عادة ان نحكم على شخص متحدث بانه ينتمى مثلا ، الى الطبقة الوسطى او الدنيا من خلال طريقته فى الحديث ، واستخدامه للكلمات ، وطريقة التلفظ ، والنحو وما شابه ذلك ، رغم انه من الصعب تحديد الفروق بين الطبقتين الوسطى والعليا . فقد أوضحت دراسة «ستانلى بلوج» (٤٠) كيف أن الخصائص اللغوية ومستوياتها تتباين بعمق وفقا لاختلاف المستويات التعليمية الثقافية . وقد اعتمد فى هذه الدراسة على تحليل للخطابات الواردة الى رئيس تحرير مجلة « هيرالد بوسطون » ، على أساس نوعية الورق المستخدم فى الكتابة والنظافة والنحو والكلمات المستخدمة ودقة الخط . وقد استطاع الباحث ان يتنبأ بالمستوى التعليمى الثقافى بدرجة من الدقة تصل الى ٧٥ ٪ تقريبا . فالخطاب ، كغيره من اشكال الاتصال ، مصدر صريح للمعلومات (ما الذى ينشده الكاتب من الاتصال) ؛ كما انه ايضا مصدر ضمنى للمعلومات . فكاتب الخطاب انما ينقل للآخر شيئا من نفسه من خلال الورق الذى يختاره للكتابة ، ومن خلال نظافته ونظامه وغير ذلك من المؤشرات .

وهنا نتساءل : لماذا تعتبر اللغة دالة للهوية الثقافية للجماعات الاجتماعية ولاعضاء هذه الجماعات ؟ تتضح الاجابة على هذا السؤال من طبيعة اللغة كوسيط للاتصال الاجتماعى وللتجريد العقلى ، وكذلك **من الدور الحاسم الذى تقوم به اللغة فى عملية التطبيع الاجتماعى** . وفى ذلك تكشف دراسات عديدة من مدى تباين الفروق بين الطبقات الاجتماعية فى توظيف اللغة فى تنشئة الاطفال ، وعن انه لا يوجد اختلاف بين الطبقات الاجتماعية فى تاكيدها على اللغة كوسيط لضبط نمو الطفل وتوجيهه ، ولكن يبدو الاختلاف اساسا فى المعانى المتضمنة فى اللغة والمحققة لفظيا ، فالطبقة الوسطى ، مثلا ، تسعى الى مباشرة مزيد من الضبط لسلوك الطفل ولتكوين نظام اخلاقى معنوى لديه ، وذلك من خلال اساليب للتنشئة يلعب فيها الوسيط اللغوى الدور الاكبر . ومن شان الاستخدامات اللغوية ان تنظم « المعانى الثقافية » cultural meanings التى يجرى توصيلها للناشئة بطريقة صريحة او ضمنية .

هذه الاهمية البالغة للغة بالنسبة للهوية الثقافية يبرزها أبو علم النفس العربى « الدكتور عبد العزيز القوصى » ، وخاصة فيما يتعلق **بلغتنا العربية وذاتنا الثقافية ، على النحو التالى : (*)**

---

40. Plog, S.C. A literacy index for the mailbag., Journal of Applied Psychology, 50 (1966), pp. 86-91.

(*) نحيل القارىء الى دراسة الاستاذ الدكتور عبدالعزيز القوصى :

A.H. El-Koussy : The role of education for a healthy world cultural life (with reference to the to the development of mass communication). **The Journal of the Faculty of Education.** Ain Shams University, Cairo, 2, 1979.

« ينبغي ان ننظر الى اللغة على انها مدخل هام ومخرج هـام ، وعلى انهـا اعظم عوامل التوحيد والتكامل قوة . وفي حالة العالم العربي ليس الامر صعبا لان تكون اللغة هكذا ، ولكن في حالة مناطق اخـرى كغينيا الجديدة ـ على سبيل المثـال ـ يعتبر الموقف بالـغ التعقيد . وتمثل وسـائل الاتصال الجماهيري عاملا هاما في التاثير في اللغة . ورغم ان للغة العربية معاييرها التي تيسر القراءات ، الا ان هناك فجوة ذات ابعاد معينة بين اللغة المنطوقة واللغة المعيارية ، كما ان هناك اللهجات المختلفة . وفي هذه الحالة ينبغي ان تتوصل الدول العربية الى اتفاق فيما يتعلق بالتخطيط اللغوي او السياسة اللغوية ـ تلك السيـاسة التي يجب تتبعهـا في وسـائل الاتصال الجماهيري ، وفي الانمـاط التعليمية المختلفة ، وفي الدواوين الحكومية ، وفي التوثيق والمراسـلات . هذه السيـاسـة اللغـوية language policy من شـانها ان تيسر التعليم طالما ان اللغة العربية هي وسيط التعليم في كل المستويات ، او على الاقل ينبغي ان تكون كذلك . كما انها ايضا ينبغي ان تسـاعد على تعضيد الوحدة الوطنية ، والوحدة العربية ، وكذلك حماية وتحصين الهوية الثقافية .

لذا تمثل اللغة ـ كوسـيط للمعرفـة ، وكجانب من جوانب الثقافة ، وكاداة ثقافيـة للثقافة ، وكعامل لتاق توحيدي للثقافة ـ قضية ذات اهمية بالغة في عالمنا المعاصر » .

الاتصل كسلوك لغوى :

تنطوى اللغة على اهمية اجتماعية ونفسية تتجاوز قيمتها الواضحة كاداة لنقل المعلومات من عقل لآخر . وهذه الاهمية تؤكدها دراسات عديدة ـ نذكر منها ، على سـبيل المثـال ، دراسات « ترياندس ، لوه ، ليفين » (٤١) وفيها قارنوا التاثير النسبي للغة (الانجليزية) المنطوقة على آراء واتجاهات الطلاب الجامعيين . في هذه التجارب كان الطـلاب ينصتون الى عبـارات مسجلة على شرائط يجري التلفظ بها اما في لغة ذات مستوى منخفض ولا تراعي قواعد النحو او في لغة ممتازة ذات مستوى رفيع . وفي اثناء الانصات لهذه العبارات يعرض الباحثون على شاشة امام المفحوصين صورة رجـل على انه المتكلم الذي يحدثهم بهذه العبارات ، وقد كان الرجل اما ابيض او زنجي ، كمـا كان يرتدي باناقة او على نحو رديء . وبعد ذلك طلبوا من المفحوصـين ان يوضـحوا رغبتهم في الاعجاب بالشـخص المتحدث ، وفي الترحيب به على ان يكون جارا لهم او ان يرتبطوا به بالزواج ، وفي تقبله كصديق . وقد اوضح تحليل نتائج هـذه الدراسات ان الملبس ومظهره كانا يحتلان اهمية اقل في تحديد استجابات الطـلاب . وقد كان الطلاب الاكثر تعصبا هم الاكثر تاثرا بالسـلالة حينما ابدوا تقبلهم للمتحدث بان يكون جارا او صديقا او قرينا بالزواج . ولكن ، من ناحيـة اخرى ، كان الاسـاس الرئيسي في الاستجابة للشخص المتحدث هو نوعية لغته التي يتواصل معهم بها . فقد كان نوع اللغة التي يستخدمها

41. A.H. El-Koussy : The role of education for a healthy world cultural life (with reference to the development of mass communication). **The Journal of the Faculty of Education,** Ain Shams University, Cairo, 2, 1979.

لتحدث مسئولا من ٨٠٪ من التباين في تحديدهما اذا كان المتحدث سوف يتقبله الطلاب كصديق لهم .

ولاهمية اللغة ولعلاقتها الوثيقة بالدراسات النفسية ، صار « علم النفس اللغوى » Psycholinguistics (يأخذ مكانة كبيرة في علم النفس . ويمكن ان ندلل على ذلك من انه في عام ١٩٧١ كان عدد الدراسات التي تحويها مجلة « ملخصات نفسية » Psychological abstracts ٢٢٫٠٠٠ دراسة ، منها ٦٩ دراسة (بنسبة ٣٪) تنتسب الى ميدان علم النفس اللغوى ، في حين انه في عام ١٩٦١ كان عدد هذه الدراسات ثلاث مقالات فقط من ٧٫٢٥٢ دراسة تحويها المجلة في ذلك العام . وبالاضافة الى ذلك ، قد صار علماء النفس اكثر اهتماما بجوانب معينة من السلوك المرتبط باللغة . من هذه الجوانب ، على سبيل المثال ، ظاهرتا التعلم والتذكر وعلاقتهما باللغة وبالعمليات الرمزية. ومن المجالات الهامة ايضا ، ما تؤكد عليه النظريات والدراسات الأصيلة في تطور نمو الاطفال من ان نمو الكلام واللغة عند الاطفال هو ظاهرة معقدة ترتبط بجوانب وعوامل كثيرة في نمو الطفل ، وليس نموا لغويا فحسب . وهذا ما تكشف عنه بجلاء الاعمال الرائدة لبياجيه في سويسرا ولفيجوتسكى في روسيا (٤٢) .

يحدد « سلوبين » (١٩٧١) الفارق بين علم اللغة وعلم النفس اللغوى في ان علماء اللغة يهتمون بالتراكيب او البنى اللغوية ، في حين يهتم علماء النفس بكيفية اكتساب اللغة وكيف تقوم الانظمة اللغوية بوظيفتها حينما يتكلم الناس ويتم فهمهم (٤٣) ، اى ان علماء النفس اكثر اهتماما بالجوانب **السلوكية للغة** . ولاشك ان فهمنا للغة يعتمد على كل من جوانبها البنيوية والسلوكية على حد سواء ، فلا نستطيع دراسة السلوك بدون الالمام بكيفية بناء السلوك ، ولا نستطيع فهم البنية دون ملاحظة السلوك .

ويعنى ذلك أن علم النفس اللغوى ليس تخصصا قائما بذاته ، وانما يقوم على نظام العلاقات المتبادلة بين العلوم المعنية interdisciplinary . وفي ذلك قام « جورج ميلر » وماك نيل(٤٤) بدور هائل في تنظيم وجمع وبلورة النتائج التي توصل اليها علماء النفس في دراستهم للسلوك اللغوى ، سعيا الى ربط هذه النتائج بطريقة تكاملية مع النظريات الرائدة في ميدان علم اللغة ، وفي مقدمتها نظرية « نوام تشومسكى » .

ويمكننا أن ندلل على ذلك بنظريتين لهما ابلغ الاثر في تقدم البحث في السلوك اللغوى ،

---

42. Triandis, H.C., Loh, W.D., & Levin, L.A. Race, status, quality of spoken English, and opinions about civil rights as determinants of of interpersonal attitudes. **J. pers. Psychol.**, 3 (1966), 468 - 472.

43. Slobin, D. I. **Psycholoinguistics.** Chicago : Scott Foresman, 1971.

44. Miller, G.A., & McNeil, D. Psycholinguistics. In lindzey & Aronson, (eds.), **The handbook of social psychology.** vol. 3. 2nd ed. Readings, Mass : Addison Wesley, 1969.

او ان تشتنا السلوك المرتبط باللغة ، وهما :(أ) نظرية « نوام تشومسكى » (١٩٦٨) (٤٥) عن النحو التولدى التحولى « transformational generative grammer » ، وهي نظرية تعكس احدث الاتجاهات واكثرها شيوعا في علم اللغة ،(ب) ونظرية «تشارلز او سجود» (١٩٥٧ (٤٦) ، ١٩٧١ (٤٧)) ، عن سيكولوجية المعنى وقياسه ،وهى من الانجازات العلمية المميزة لميدان علم النفس اللغوى بخاصة وعلم النفس بعامة .

تذهب نظرية « تشومسكى » الى ان القواعد التى تستخدمها حينما نتكلم او نفسر كلام الآخرين هى القواعد النحوية للغة التي تستخدمها . فالتركيب النحوى الذى تستخدمه وتستجيب له ليس بظاهرة سطحية ، فالانسان قادر على ان يذهب الى ما وراء البنية السطحية للجملة ويحولها الى بنى structures اعمق تكشف عما وراءها من معانى . وتفيد هذه النظرية ان تعلم اللغة عند الاطفال لا يمكن تفسيره كلية استنادا الى نظريتى « تعلم اللغة بالمحاكاة » او « بالتدعيم » ، biologically programmed بطريقة تؤدى به الى ان يستولد لغة مترابطة نحويا تمكنه من التكلم ومن ان يكون مفهوما من الآخرين فى ثقافته . اى ان هذا « الميكانزم التوليدى للنحو » grammer generating mechanism هو جزء متأصل فى الطبيعة الانسانية . وفى ذلك يشير « سلوبين » (١٩٧١) الى ان هذه الاكتشافات عن طبيعة اللغة سوف تؤول حتما الى تغيير مفهوم علماء النفس عن طبيعة الانسان .

اما نظرية « تشارلز او سجود » ، وما قامت عليه من دراسات ، فتبين ان الكلمات ، وحتى الكلمات البسيطة او التى تشير الى اشياء وموضوعات حسية ، تتضمن جانبين : الدلالة المباشرة denotation والدلالة الضمنية cannotation وكثيرا ما يقوم اختيار الكلمات على أساس مشاعر الشخص الموصل واتجاهاته – اى انطلاقا من الدلالة الضمنية وهى ذات صبغة وجدانية ، بينما قد يكون للجانب الآخر – اى ما تشير اليه الكلمات من دلالة مباشرة صريحة – اهمية اقل . يستخدم « او سجود » لذلك طريقة تعرف بـ « التمايز السيمانتى » semantic differential

ففى عام ١٩٥٧ قام اوسجود وزملاؤه بتحليل عاملى للجوانب الوجدانية affective لعدد كبير من الكلمات والمصطلحات ، بهدف قياس التباين فى مضمونها من المعلومات . وقد وجدوا ان حوالى ٥٠٪ من الفروق فى المعانى بين الكلمات يمكن حصرها وفقا لثلاثة عوامل : (١) التقييم evaluation (٢) القوة potency والنشاط activity . وهذه العوامل ، بدورها ، يمكن قياسها بواسطة تقدير المفحوصين الكلمات وفقا لسلسلة من المقاييس . فعامل « التقييم » لموضوع او كلمة يمكن قياسه بواسطة مقاييس مثل « حسن – ردىء » ،

45. Chomsky N. **Language and mind.** New York : Harcourt Brace & Jovanovick 1968.
46. Osgood C.E. etal. **The measurement of meaning.** Urbana : U. of Illinois Press 1957.
47. Osgood C.E. Exploration in sematic space. **J. Soc. Issues,** 27 (1971).



شكل (٤) : تقدير الطلاب الجامعين لـ « الولايات المتحدة الامريكية » و « فرنسا » ، باستخدام طريقة التمايز السيمانتي .

Lindgren, H.C. (1973). op. cit. p. 322.

« نظيف ـ قذر » ، (جميل ـ قبيح) . وعامل « القوة » يمكن قياسه بواسطة مقاييس مثل « ثقيل ـ خفيف » ، « صلب ـ رقيق » ، « قاسي ـ لطيف » ، اما عامل « النشاط » فيمكن قياسه بواسطة مقاييس مثل « سريع ـ بطيء » ، « ساخن ـ بارد » ، « ايجابي ـ سلبي » .

وقد شاع استخدام طريقة « التمايز السيمانتي » في دراسات نفسية عديدة وخاصة فيما يتعلق بدراسة الاتجاهات . ومن هذه الدراسات ، على سبيل المثال ، تلك التي قام بها « لندجرن » في عام ١٩٦٦ (لندجرن ، ١٩٧٣) (٤٨) من استخدام التمايز السيمانتي كمقياس لدراسة « الحالة الادراكية » perceptual set نحو بعض البلاد .
ويتضح ذلك من الشكل رقم (٤) الذي يمثل متوسط تقديرات ٤٥ طالبا بجامعة سان فرانسيسكو ، طلب منهم تقدير « فرنسا » و « الولايات المتحدة » وفقا لتسعة مقاييس . تمثل المقاييس الثلاثة الاولى عامل التقييم ، وفيها كان تقدير الطلاب البلدين متقاربا الى حد كبير ، عدا ان للولايات المتحدة مضمون وجداني (سعادة) اكثر من فرنسا الى حد ما . ومن ناحية اخرى ، ادرك المفحوصون فرنسا بمضمون وجداني (نظافة ، حيوية) اكثر من الولايات المتحدة . الا ان الفروق في هذا العامل طفيفة وغير دالة . وبالنسبة لعامل « القوة » (وفقا للمقاييس الثلاثة التالية) ، كان تقدير الطلاب الولايات المتحدة مرتفعا ودالا ، وان كانت لا توجد فروق في مقياس « الثقل » . فالولايات المتحدة تحمل مضامينا خاصة بالقوة والصرامة اعلى من فرنسا بدرجة كبيرة . اما بالنسبة للمقاييس الثلاثة الاخيرة فتوضح ان الولايات المتحدة اكثر في عامل « النشاط » من فرنسا . ولا شك ان تكون « حالة ادراكية » معينة عند بعض الجماعات تجاه جماعات اخرى يلعب دورا كبيرا في توجيه العملية الاتصالية .

اللغة ، اذن ، كنظام من الرموز وكسلوك اتصالي تنطوي على معان موضوعية اشارية صريحة ، واخرى ذاتية وجدانية ضمنية . ولاشك ان الاتصال السليم القائم على الفهم المتبادل بين الاشخاص والجماعات يستلزم الوعي بالمعاني المختلفة الكامنة وراء الكلمات والعبارات ، وتوظيف الكلمة في خدمة السلوك الاتصالي .

• • •

انماط الاتصال :

ياخذ الاتصال انماطا متعددة ، تختلف وفقا للهدف من الاتصال ، والوسائط المستخدمة ، ولحجم الاشخاص ونوعيتهم الذين يؤلفون العناصر الموصلة ، ولطبيعة الموقف الاتصالي ،

---

48. Lindgren H.C. (1973) op. cit. p. 322.

وغير ذلك من تعدد متغيرات العملية الاتصالية . ومع هـذا التعدد يمكننا ان نحدد **بعض انماط الاتصال من الناحية النفسيـة الاجتماعية على النحو التالي :**

(١) الاتصال بين الفرد ، ونفسه intraindividual :

ونعني به ادراك الفـرد لذاته ولعلاقاتـه بالعالم المحيط به ، ووعيـه بخصاله وقدراتـه وحدوده ، وبجوانب قوته وضعفه ، وبما قـد يعوق انطلاق طاقاته . ولا شـك ان حسـن اتصال الفرد مع نفسـه يجعله اقدر على توظيف امكاناته توظيفا كاملا (fully functioning) ، الامر الذي يضمن بدرجة كبيرة السواء لشخصيته والفاعلية لاسلوب حياة هذه الشخصية .

واننا لنستطيع بذلك تفسير الشخصيـة من هذا المنظور الاتصالي ، مدعمين وجهة نظرنا بما يطرحه احد اتقاة في الفكر الـسيكولوجي المعاصر ، وهو « ج . نوتان » في دراسـة له عـن « الوعي والسلوك والشخصية » (١٩٥٥) ، في تفسـير طبيعة الشخصية الانسانية : (٤٩) .

يقرر « نوتان » ان علماء النفس ، كقاعدة عامة ، يفهمون الشخصية **على انها تنظيم داخلي** لسمات والاتجاهات والاستعدادات والاتساقات السلوكية . حقيقـة ، **الشخصـية هي ذلك** التنظيم الداخـلي ، ولكـن الخاصـية الاكثر اساسية المميزة للشخصية تختفي في ذلك التعريف. **فالشخصية اساسا بنية تتجاوز تنظيمها الداخلي** ـ فابـرز معالمها المميزة تتمثل في تلك الحقيقـة بان النظرة الى العالم والتعرض له تكون متضمنة في تكوينها . الشخصية طريقة للوجود والسلوك way of being and behaving في عالم يوجد بالنسبة للذات . فالنظرة الى العالم او الموقف الحياتي مكون ضروري للشخصية .

بهذا المعنى ـ كما يذهب « نوتان » تكون البنية الاساسية للشخصية **هي « الوحدة الانا ـ العالم »** ، او ان شئنا هي وحدة اتصال الانا ـ العالم . وفي الحقيقة ان الشخصية تتالف من انماط مختلفة من علاقات الانا ـ العالم ومـن اتصالهما الوظيفي، تلك العلاقات اللازمة لتوظيف الشخصية personality functioning ليس على مستوى التفاعل البيوكيميائي بين الكائن الحي ـ البيئة فحسب ، ولكن ايضا على مستوى العلاقات المعرفية والوجدانية بين الانا ـ العالم .

وتحديد طبيعة الشخصية على هذا النحو ينطوي على مفهوم اخر لجانب اساسي من جوانب الشخصية ، ونعني به الوعي ، الذي يضيء كافة اركان الشخصية ، ويرشد سلوكها ، ويستلهم انطلاقتها وتناميها . لا يشير الوعي اساسـا ، خلافا للنظرة الاسـتبطانية ، الى عالم داخلي يتكون من تمثيلات representations ومعـاني . الوعي هو الحضور الفوري للعـالم ذاته ، هو التعرض الى العالم السلوكي الحقيقي والانفتاح عليه ، وليس انحصارا في عالم داخلي من التمثيل . وبالوعي يكـون الانسـان حاضرا بالنسبة لنفسـه ، ذلك الحضور الذي يـؤدي الى تمكينه من ادراكه لنفسـه وفي اتصالها بالعالم ، والى العمل على تكييف ادراكه وسلوكه،

49. Nuttin J. Consciousness behavior and personality. Psychol. Rev. 62 (1955) 349-355

بل والى اعادة تشكيل شخصيته ذاتها . فهذا الحضور يمكن الانسان من التدخل ، بقصد ، في مسار نموه لكي يعيد بناء علاقاته مع البيئة واتصاله بها . تلك هي الوظائف « العليا » للوعي التي تحرر الشخصية من الانغلاقية أو من سوء الاتصال مع نفسها وعالمها . وتلك هي الامكانية الانسانية التي تعتبر أساس تلك الاشكال الراقية من السلوك كالعلم والمعرفة والجهود القصدية الرامية الى تحسين الذات .

يمكننا ان نرى في نظرية « لونان » عن الشخصية مفاهيم عديدة للاتصال : وحدة الأنا ـ العالم ، الوعي ، حضور العالم في الشخصية ، وغيرها من المفاهيم التي تؤكد على الاتصال الوظيفي الفعال بين الفرد والعالم المحيط به .

الاطار المرجعي الظاهري (الفينومينولوجي) : يؤكد انصار المنحى الظاهري (الفينومينولوجي) في علم النفس أنه لكي نفهم سلوك الفرد في موقف ما ، فانه من الضروري أن نفهم معنى ذلك الموقف بالنسبة للفرد . ولذلك فمن النادر ان يؤدي تحديد طبيعة الموقف المثير الى تقديم أساس التنبؤ بسلوك الفرد ، لأن كل فرد يدرك هذا الموقف مشبعه بمعاني مختلفة . يصبح من الضروري اذن أن نفهم كيف يدرك الفرد العالم بالنسبة له لكي نفهم ذلك الفرد ، ولكي نتنبأ بالكيفية التي سوف يسلك بها في موقف معين .

وفي ذلك يسلم « كومبز وسنيج » (١٩٥٩) أن « كل سلوك ، دون استثناء انما يتحدد كلية بالمجال الادراكي للكائن الحي السالك » (٥٠) . ويقصد بالمجال الادراكي perceptual field « الكون الكلي ، بما فيه ذاته ، كما يخبره الفرد في لحظة الأداء » (٥١) . ويعني ذلك أن المجال الادراكي قد يتفق أو لا يتفق مع الواقع الطبيعي ، كما أنه قد يستبعد الكثير مما يحيط بالفرد فيزيقيا . فأنت في أثناء قراءتك لهذه الصفحة قد تكون في هذه اللحظة غير واع تماما بالكثير من الأشياء المحيطة بك ، أي أنه بالنسبة لهذه اللحظة لا تكون تلك الأشياء جزءا من مجالك الادراكي . ولكن اذا أبصرت من حولك فسوف تدخل بعضا من هذه الأشياء في مجالك الادراكي . ومن ناحية أخرى ، قد تكون هنالك أشياء غير حاضرة فيزيقيا في هذه اللحظة ، ولكنها تكون حاضرة نفسيا لأنها جزء من مجالك الادراكي . ويعني ذلك ، **أن المجال الادراكي هو المجال الشخصي والفريد لوعي الفرد .**

وهذا المجال الادراكي الفرد يخضع للتغير المستمر . فالفرد لا يكون واعيا بكل أجزاء مجاله الادراكي على حد سواء ، كما أن الأحداث تتوالى في تتابع سريع وراء بعضها . وبسبب التعلم ، يميل ادراك الفرد لنفس الظاهرة الى التغير . فالتعلم ، بالنسبة للعالم الفينومينولوجي هو عملية التمايز المتوالي repregressove dofferentiation من المجال الادراكي الأكثر عمومية . فثمة معان جديدة يلحظها الفرد بما يلاحظه .

50. Combs A. & Snygg D. Individual behavior. (Rev. ed.) New York : Harper & Row 1959 p. 20.

51. Ibid.

والحقيقة بان المجال الادراكي للفرد خاضع للتغير المستمر لا تعني بانه غير منظم . فالخبرة السابقة الفريدة للفرد تمده بمجموعة فريدة من المعاني التي تؤثر في كل خبرة جديدة ، وما يتخذه الفرد من احكام ويقوم به من اتصال ، انما يجري في اطار هذه المجموعة من المعاني الفريدة . وبقول آخر ، فان المجال الادراكي منظم بطريقة لاشباع حاجات الفرد . **فالناس تميل الى ان ترى ما ترغب في رؤيته .**

لكل فرد اذن ادراكاته المتميزة لذاته . يطلق « كومبز وسنج » على تنظيم كل الطرق التي يرى بها الفرد نفسه مصطلح « الذات الظاهرية » phenomenal self ، اي الذات كما يكون واعيا بها . فكل شخص يدرك نفسه على ان لديه خصائص جسمية معينة ، وطابع معين ، وسمات شخصية معينة ، وقدرات معينة . وهكذا الادراكات الكثيرة للذات تختلف بدرجة هائلة في اهميتها بالنسبة للفرد . ويخصص « كومبز وسنج » مصطلح « مفهوم الذات » self concept لادراكات الذات التي تحمل اهمية رئيسية بالنسبة للفرد .

ويوضح الشكل رقم (٥) رسما تخطيطيا للمجال الظاهري الكلي للفرد ، تمثله سلسلة من الدوائر المتراكزة concentric circles اي المتحدة في المركز وهو مفهوم الذات . في هذا الشكل التخطيطي ، نجد ان الدائرة الكبرى تطوق المجال الظاهري الكلي . ويعرف ذلك الجزء من المجال الظاهري الذي يتضمن كل ادراكات الذات ، والذي تمثله الدائرة الاصغر ، بـ « الذات الظاهرية » ، اما المحور المركزي للذات الظاهرية ، والذي يحمل الاهمية الكبيرة بالنسبة للفرد ، فهو « مفهوم الذات » .



شكل (٥) رسم تخطيطي يوضح المجال الظاهري الكلي للفرد في ثلاث دوائر متراكزة : المجال الظاهري ، الذات الظاهرية ، مفهوم الذات .

Loree, M.R. Psychology of education. New York : (The Ronald Press Co., 1970, p. 46.

ويميل كل فرد الى الدفاع عن مفهومه عن ذاته والى تعزيز هذا المفهوم . وهو في ذلك يتعلم تلك الاشياء التي تحمل معاني شخصية بالنسبة له ، ويرفض الاشياء التي من شأنها ان تهدد ادراكاته لذاته او تقوضها . ومن ثم ، تنشأ المشكلات حينما يجد الفرد نفسه مضطرا الى ممارسة ادوار لا تتفق مع مفهومه عن ذاته . (٥٢) فقد استطاع بعض الباحثين (بونكر ، ١٩٦٧ (٥٣) ، سميلسر ، ١٩٦١ (٥٤)) ان يتحققوا تجريبيا من صحة الفرض الذي يقرر ان اداء الادوار يكون اكثر فعالية تحت شروط التطابق بين الذات والدور self-role congruence مما هو في ظل شروط عدم التطابق بين الذات والدور المنوط بالفرد . ففي دراسة « سميلسر » جرى فرز المفحوصين ، وهم طلاب باحدى الكليات ، الى فئتين وفقا لمقياس للسيطرة احداهما مرتفعة للغاية والاخرى منخفضة للغاية على هذا المقياس . ثم نظموا ازواجا للمشاركة في مهمة تعاونية لحل بعض المشكلات . وفي هذا التنظيم يكلف احد المفحوصين بدور مسيطر يقوم على التخطيط وتوجيه الاوامر ، بينما يتعين على زميله القيام بدور التابع الذي ينفذ هذه الاوامر . وقد اتضح ان الفاعلية الاكبر في الاداء تتحقق حينما يناط بالطالب المسيطر دور مسيطر ويشترك في المهمة مع زميل خاضع له دور التابع . ومن ناحية اخرى ، يتدنى الاداء الى اقصى درجة حينما لا يتفق الدور المنوط بالفرد مع ما يتميز به من سمة السيطرة — الخضوع .

يتضح من ذلك العرض ان اتصال الفرد مع نفسه قوامه فكرته عن نفسه ، وادراكه لخصائصه وامكاناته ، ووعيه بالمطلوب تجاهه ، ويعني ذلك ان اتصال الفرد بنفسه يتحدد بادراكه لذاته . وهذا النمط الاتصالي يمثل ركيزة العلاقات الاتصالية الانسانية ، سواء الاتصال بين الفرد والآخرين او الاتصال بين الجماعة الاجتماعية .

(٢) الاتصال بين الفرد والآخرين interindividual

يرتبط ادراك الفرد لذاته ارتباطا وثيقا بادراكه للآخرين ، وبالتالي فان اتصال الفرد بالآخرين ونظام علاقاته بهم يتحدد بهذا المنظور الفينومينولوجي للاتصال كما يتحدد ايضا بالواقع الاجتماعي الثقافي للافراد . هذا الاتصال بين الفرد والآخرين ينمو عند الطفل من العلاقات الاتصالية والادوار المتبادلة بين اعضاء الاسرة كوحدة اجتماعية ، ويأخذ هذا النمط الاتصالي من التطور عند الفرد ادواره الاجتماعية . ويعني ذلك ان العملية الاتصالية تتطور وتتحقق في سياق الادوار التي يقوم بها الفرد .

---

52. Sarbin T.R. & Allen V.L. Role theory. In G. (Lindzey and E. Aronson (eds.) **The Handbook of social psychology.** vol. I. (2nd ed.) Readings Mass. : Wesley 1968.
53. Bunker G. **Self role congruence and status congruence as interacting variables in dylactic behavior.** Barkley : Univ. Calif. Press 1967.
54. Smelser W.T. Dominance as a factor in achievement and perception in cooperative problem solving interactions. **J. abnorm. soc. Psychol.**, 62 (1961) 535-542.

الادوار والاتصال :

يعتبر « كلوكوهن وموراى وشنيدر » فى كتابهم « الشخصية فى الطبيعة والمجتمع والثقافة » (٥٥) (١٩٥٣) « محددات الادوار » role determinants من ابرز المحددات للشخصية ، حيث يكمن وراء نمو الشخصية وتوظيفها Personality functioning ادوار معينة يباشرها الفـرد .

يحدد « رالف لينتون » الادوار فى ضوء الافعال التى يمارسـها الفرد لكى يدعم الموقع الذى يحتله فى نظام العلاقات الاجتماعية والانتاجية .(٥٦) اما « س. سارجنت » فيحدد الدور على انه نموذج للسلوك الاجتماعى الذى يبدو ملائما للفرد من الناحية الموقفية فى ضوء مطالب وتوقعات الافراد فى جماعته .(٥٧) فالادوار تتاثر بوضوح بتوقعات الفـرد لذاتـه ومفهومه عن نفسـه ، وهذه التوقعات تتوائم مع توقعات الآخرين منه . « فالذات ـ كما يقول « هارى ستاك سوليفان » ـ تتالف من استحسانات الآخرين للفرد او من تقـديراتهم المنعكسـة على سلوكه » . (٥٨) .

اما « دانييـل ميلر » فيشـير ايضا الى ان للادوار تاثيرا معياريا معينا علـى السلوك الاجتماعى للفرد . ويقرر : « ان الاسـتجابات المتبادلة بين شـخصين يمكن تفسيرها ايضـا عن طريق تصوراتهما المشتركة للسلوك الملائم لدوريهما » اكثر مما يمكن تفسـيرها عن طريق خصائصهما النفسية او الصفات الفريدة للتفاعل الاجتماعى (٥٩) . ويذهب « ميلر » ايضا الى ان للادوار الاجتماعية وظيفة ، تتمثل فى وضع حدود لسلوك اعضاء المجتمع . وبذلك تكـون الادوار ضرورية لوجود التـركيب الاجتماعى للمجتمـع .

ويعتبر « ميلـر » الادوار على انها تتابعات متعلمة للسلوك ـ اى انها اساليب مكتسـبة من السلوك تعمل على ترجمة القيم الى انماط مـن العمل والاداء . ويكون « التعلم الاجتمـاعى » بذلك هو العامل الحاسم فى تعلم الادوار التـى تنمو مع الفرد بنمو خبراته فى الوسط الاجتماعى الذى يعيشـه .

---

55. Kluckhohn C. Murray H.A. & Schneider D.M. (eds.) **Personality in nature, society, and culture.** New York : Knopf 1953.

56. Linton R.˙ **The study of man.** New York : Appleton-Cent.-Crofts 1936.

57. Sargent S.S. Conceptions of role and ego in contemporary psychology. New York: Harper 1951 pp. 355-370.

58. Sullivan H.S. **Conceptions of modern psychiatry.** Washington D.C. : William Alanson White Psychiatric Foundation 1947 p. 10.

59. Miller D.R. The study of social relationships : situation identity and social interaction. in S. Koch (ed.) **Psychology : a study of a science.** vol. 5. New York : Mc Graw-Hill 1963 p. 655.

وتنطوى ظاهرة « **تمايز الادوار** » role differentiation على اهمية كبيرة بالنسبة لفعالية الاتصال . فتمايز الادوار يرتبط بنمو قدرة الفرد على التوافق لضغوط المجتمع المتغير ، لان التوافق يتحقق من خلال هذا التمايز — اى من خلال نمو مخزون متسع من الادوار عند الفرد والاستجابة لها . هذا الاتساع فى الادوار وتمايزها يرتبط باتساع نطاق اتصالات الفرد . وفى ذلك يقرر « ساربين وآلين » انه « بقدر ما يزداد مخزون الادوار repertoire of roles عند الفرد ، بقدر ما يكون مهيأ على نحو افضل لمواجهة مطالب الحياة الاجتماعية » (٦٠) فالفرد الذى يتمتع بمدى اكثر اتساعا من الادوار التى يستطيع ممارستها لا يكون قادرا على التفاعل والاتصال بفاعلية مع غيره من الافراد فى عدد كبير من المواقع الاجتماعية فحسب ولكنه يكون قادرا كذلك على التعاطف empathy مع الآخرين . ويدل التعاطف على قدرة الفرد على تخيل دور الآخر وعلى ادراك الموقف بالطريقة التى يراها الاشخاص الاخرون . وهذه العملية لا تنطوى على درجة عالية من الادراك الاجتماعى فحسب ؛ ولكن ايضا على قدرة عالية على الاتصال بالاخرين . ويعزى ذلك الى ان التفاعل الاتصالى الناجح بين الافراد يتوقف بدرجة كبيرة على الحد الذى يكون عنده الاشخاص المشتركون فى العملية الاتصالية على وعى بحاجات بعضهم الآخر وبمشاعرهم واتجاهاتهم وقيمهم والى غير ذلك .

(٢) الاتصال بين الجماعات الاجتماعية :

من الحقائق البارزة فى سيكولوجية الاتصال ، والتى يعنى بها علم النفس الاجتماعى ، تلك الحقيقة بأن الاتصال يعمل كأساس للعلاقات الاجتماعية بكل انواعها . فالاتصال هو بمثابة « الاسمنت » ، ان صح هذا التعبير ، الذى يربط الناس مع بعضها فى انظمة اجتماعية : جماعات ، ثقافات ، مجتمعات ، او ما شابه ذلك . ويذهب « كاتز وكان » الى انه يمكن النظر الى الانظمة الاجتماعية على انها شبكات معقدة من الاتصال — وهى معقدة من حيث ان تدفق المعلومات من وحدة اجتماعية الى وحدة اخرى داخل النظام يجرى تركيزه وتوجيهه لتنقية المعلومات من البيانات غير المتعلقة التى قد تتداخل مع الرسالة الجارى نقلها . (٦١)

والواقع ان الجماعات الاجتماعية تصبح انظمة اجتماعية فعالة بواسطة الاتصال ، كما ان محاولات الاتصال تؤدى الى تكوين الجماعات . فالجماعات الاجتماعية توجد بفضل التفاعل الاتصالى الذى يتواتر بين اعضائها . ويتحدد الاتصال بين الجماعات الاجتماعية وفقا لانماط هذه الجماعات وما يمكن ان يقوم بينها من علاقات وادوار متبادلة .

انماط الجماعات : يتأثر سلوك اعضاء الجماعة بانماط الجماعات التى يحققون فيها وظائف معينة . وسوف نركز باختصار على بعض هذه الانماط ذات التأثير الاكبر على السلوك الاتصالى .

60. Sarbin T.R. & Allen V.L. op. cit. p. 491.
61. Katz D. & Khan R.L. **The social psychology of organization**, New York : Wiley 1966.

ا ـ الجماعات الاولية والثانوية : يتزايد تأثير الجماعة على اتجاهاتنا وسلوكنا وعلاقاتنا ، بقدر ما ننضوى بعمق الجماعة . وتحدد درجة الانضواء الشخصى personalinvolvement فى الجماعة الى حد كبير نمط هذه الجماعة : كجماعة اولية primary group او كجماعة ثانوية secondary group (٦٢) .

فى الجماعات الاولية يتحقق الاتصال وجهالوجه وبصورة متكررة ، وعلى نحو اكثر عمقا وودية . وتبدو الخاصية الرئيسية للجماعاتالاولية فى تأثيرها « على شكل الطبيعة الاجتماعية للفرد » (٦٣) . وتعتبر جماعة الاسرة خير مثالالجماعات الاولية ، ولكن هذا النمط يتضمن كذلك الجماعات الترويحية وجماعات العمل ،بل واى جماعة ينضوى فيها الافراد بعمق . اما الجماعات الثانوية فتتمثل فى المنظمات والاحزابالسياسية والمهن والدواوين الحكومية والجماعات القومية . وتتسم هذه الجماعات بانهاء اكثرلا شخصية impersonal وبأن **العلاقات بين الاعضاء فيها ذات صيغة رسمية وتعاقدية** contractual . وبينما يكون الاتصال فى الجماعة الاولية متصفا بصبغةعاطفية بدرجة كبيرة ، تجد أن الاتصال فى الجماعة الثانوية يقوم على تبادل المصالحوالخدمات والمعلومات والكسب المادى .

ب ـ الجماعات الشكلية واللاشكلية : غالبا ما تعتبر الجماعات الاولية كجماعاتلا شكلية informal group ، والجماعات الثانويةكجماعات شكلية formal groups تتطلب الجماعة الثانوية درجة معقدة من التركيب لكى تحافظ على نفسها وتحقق اهدافها . واذا كانت الجماعة منخفضة فى تركيبها ، فانها من المحتملان تكون غير مستقرة ، وان تنشأ وتختفى فى آن واحد ، مثل تكون جماعة من الطلاب لاحتساءالشاى فى كافتيريا الجامعة . اي أن تركيب الجماعة فى بنيته متشابكة الادوار والاتصالاتيساعد على جعل الجماعة اكثر استقرارا ويمكنها من مقاومة التغيرات الشديدة . وقد ادتالتراكيب او البنيات الشكلية formal structures الكثير من الجماعات الثانوية كالمنظمات الدينية ،الى تمكينها من البقاء لقرون عديدة .

جـ ـ الجماعات المنغلقة والمفتوحة : تعنى الجماعات المنغلقة او المقصورة exclusive groups تلك الجماعات التى تحددالعضوية فيها بفئات معينة وتقصرها عليها . ومن امثلة الجماعات المنغلقة ـ الاتحادات والنقابات أو الرابطات المهنية المختلفة ، فمثلا نقابة المعلمين او المهندسين لا تسمح بالعضوية فيهاالا لاشخاص ذوى اعدادمهنى معين وخبرات معينة . مثل هذه الجماعات تقوم على اساسوظيفى ـ فنقابة المهندسينمثلا توجد لغرض تمكين اعضائها من الاتصال ببعضهم لاخر ، ومنالاشتراك فى مشروعات تعاونية ، ومن التأكد على معايير معينة للتدريب والممارسات المهنية ،وغير ذلك من قضايا ومشكلات تتعلق بالمهنة .

---

62. Cooley C.H. **Human nature and the social order.** New York : scribners 1902 (Reprinted by Free Press New Yor : 1956.

63. Ibid p. 23.

اما الجماعات المفتوحة inclusive groups ، فهى تلك الجماعات التى تفتح ابوابها غالبا لكل من يرغب فى عضويتها ، بل وربما تسعى الى اجتذاب اعضاء اليها . ومن أمثلة هذه الجماعات ـ الجماعات السياسية ، وجماعات الاندية وماشابه ذلك . وهذه الجماعات ، خلافا للجماعات المنغلقة ، لا تفرض مواصفات خاصة للعضوية عدا الاتفاق بين الاعضاء فى الاهتمامات المتعلقة بالجماعة ، وتقبلهم لاهداف وقواعد التنظيم فيها .

د ـ الجماعات المنتمية والمغتربة : ترتبط ظاهرة الاستبعاد exclusiveness فى الاتصال بين الجماعات الاجتماعية بمسمى جماعة منتمية in-groups او كجماعة مغتربة out-groups . يطلق على الجماعات المنتمية فى بعض الاحيان مصطلح جماعات النحن we groups خلافا للجماعات المغتربة التى قد تعرف بـ « جماعات الهم » they groups .

تتصف الجماعات المنتمية باحساس قوي بالتوحد المتبادل وبالمعية بين اعضاء الجماعة ، الى الحد الذى يشعرون معه بالعزلة وبفقدان المكانة اذا خرجوا عن نطاق الجماعة . ومن شان العضوية والمشاركة فى هذه الجماعات ان تستدعى غالبا مشاعر قوية من الاخلاص والتعاطف والتكريس . ومن المحتمل ان يكون اسلوب تفكير مواطنى البلاد ، التى يسود فيها احساس قوى بالقومية ، بشأن العلاقة بين انفسهم وبين الناس فى بلاد اخرى على اساس « نحن » و « هم » . هذه المشاعر تكون اقل وضوحا فى بعض البلاد الجديدة ، حيث يكون من المحتمل أن تمثل « نحن » القبيلة او المجتمع الذى يكون الفرد عضوا فيه ، فى حين يتضمن مفهوم الـ « هم » اى فرد آخر .

وفى العصور الحديثة ، يستخدم مفهوم « الجماعات المنتمية » للاشارة الى تلك الجماعات التى لها قدر اكبر من القوة والفعالية فى المجتمع ، مثل بعض العائلات التى تلعب ادوارا كبيرة فى الحكم والسياسة والاقتصاد ، او بعض الاحزاب السياسية ، او المؤسسات الدينية ، او الشركات او النقابات وغير ذلك . فمثلا ، يعتبر البروتستانتيون البيض الانجلو ـ ساكسونيون كجماعة منتمية كبيرة فى الحياة الاقتصادية الامريكية . وتسعى هذه الجماعات الى المحافظة على سمعتها ومكانتها ، والى مقاومة جهود اعضاء الجماعات المغتربة الرامية الى مشاركتها فى قوتها . ومن الاساليب التى تلجأ اليها الجماعات المنتمية لمواجهة التطفل الحقيقى او المتخيل من جانب الجماعات المغتربة على حقوقهم وامتيازاتهم ، هو زيادة التباعد الاجتماعى بين انفسهم وبين اعضاء الجماعات المغتربة . وفى ذلك توضح دراسات « زيلر ، بهرنجر ، جود شيلز » ان الجماعات التى تسمح بالتغير فى عضويتها ثابتة (٦٤) . وقد اجرى « هوفمان ومابر » دراسة على سلوك حل المشكلات فى نوعين من الجماعات : الاولى وتتالف من افراد متشابهين فى انماط الشخصية ، فى حين كانت الجماعة الثانية تتضمن افرادا ذوى سمات

64. Ziller R.C. Behringer R.D. & Goodchilds J.D. Group creativity under conditions of success or failure and variation in group stability. **J. app. Psychol.**, 46 (1962) 43-49

شخصية متباينة . وقد أوضحت نتائج هـــذه الدراسة ان الجماعة غير المتجانسة قد توصلت الى حلول افضل وكانت تستثير فاعلية اكبر بين اعضائها . (٦٥)

هـ ـ جماعات العضوية والجماعات المرجعية :من الواضح ان الجماعات التي نحتفظ بعضويتها فيها تباشر بعض التاثير على سلوكنا . فالعضوية في جماعة ما تكون متفقة بدرجة أكبر او اقل مع نزعتنا الى تقبل معاييرها وقيمها . وليس من الضروري لذلك ان يكون لجماعة العضوية membership group تاثير على سلوكنا . ومن ناحية اخرى ، نعتبر اي جماعة ذات تاثير معياري على سلوكنا جماعة مرجعية reference group ، لاننا « نرجع » سلوكنا الى معاييرها. ومن الدراسات الكلاسيكية عن تاثير الجماعات المرجعية على السلوك ، تلك الدراسة التي قام بها «نيوكمب» (٦٦) عن تاثير قيم الكلية على قيم الطلاب ، وجد « نيوكمب» ان القيم الليبرالية للكلية قد انعكست على قيم الطلاب وعلى توجههم الليبرالي . وفي دراسة تتبعية لبعض الطلاب المستجدين بجامعة ميتشيجان ،وجد« ليهمان» (٦٧) ان الطلاب لم يصيروا ليبراليين فحسب ، ولكن ايضا اكثر اقتدارا على حل المشكلات ،واكثر استقبالا للافكار الجديدة ، واكثر عقلانية وعلمية ، واقل نمطية في معتقداتهم . اي ان هؤلاء الطلاب قد استخدموا اعضاء الكلية كجماعة مرجعية في احداث هذه التغيرات في سلوكهم .وبمعنى ذلك ، وفقا لمفاهيم التعلم الاجتماعي ، ان اعضاء الجماعة قد صاروا كنماذج السلوك الذي يحتذيه الطلاب ويحاكونه .

التعصب بين الجماعات كمعوق للاتصال :تعتبر ظاهرة التعصب او التحامل حجر عثرة يعوق الاتصال بين افراد المجتمع وادراكهم ،وينحرف بها الى دروب مظلمة ومسالك مغلقة لاتجني منها الجماعة الا « قبض الريح» .

ان المعايير التي ينميها المجتمع تحدد ليس مقدار العداوة التي يمكن التعبير عنها صراحة فحسب ، ولكن ايضا الاشكال التي يمكن ان تأخذها . وبقدر مايزداد المجتمع تعقيدا ، يزداد احتمال توجيه المجتمع للعداوة لكي يجري التعبير عنها بطريقة رمزية وليس بطريقة مباشرة يتضح ذلك في «الاعلان» بالعدوان وفقا لمفاهيم التحليل النفسي ، وذلك عن طريق التخلص منه من خلال الالعاب التنافسية ، والعمل الجسمي الشاق ، والسعي الى حل المشكلات ، والمشروعات التنافسية ، والانهماك في الاعمال الناجحة ، والتقارب الاتصالي بين اعضاء المجتمع اما اسس التعصب بين الجماعات فتتمثل في التنافس بين الجماعات ، عدم الاستحسان المتبادل للقيم والانماط السلوكية ، الفروق في المكانة الاجتماعية ، والتفاعل الذي يؤدي الى الاحباط . (٦٨)

65. Hoffman L.R. & Maier N.R. Quality and acceptance of problem solutions by members of homogeneous and heterogeneous groups. **J. abnorm. soc. Psychol.**, 62 (1961) 401-407

66. Newcomb T.M. **Personality and social change.** New York : Dryden 1943.

67. Lehman I.J. Autobiography of a freshman class. **Measurement in education, Yearbook of the National Council on Measurement in Education,** 20 (1963) 115-123

68. Amir V. Contact hypothesis in ethnic relations. **Psychol. Bull.** 71 (1969), 319-342

واذا كان الباحثون فى الامراض النفسيةوالعقلية يؤكدون على ان لكل عرض غرض ، اى ان الاعراض المرضية ظاهرات وظيفية سواءبالنسبة للفرد او المجتمع ، فان التعصب ظاهرة مرضية وظيفية تقوم بـ «جدولة» او «تصريف»العدوان وتهيئة موضوعه وتبريراته . ويتضح ذلك من التحليل التالى : (٦٩)

ـ فالمجتمع او قطاع منه يعين جماعة اوجماعات معينة « كهدف ملائم » او « كموضوع مناسب » لتصريف العدوان فيها .

ـ وجماعة الهدف target group هذهتكون مختلفة بشكل ما بحيث ان الجماعات المتعصبة تعتقد ان جماعة الهدف ادنى منها مكانة، كان تكون جماعة فقيرة ، او جماعة من صغار السن ، او من الاناث ، او من جنس أو لون اودين أو مذهب مخالف للاكثرية ، او من الاجانب او المهاجرين او غير ذلك من جوانب الاختلاف .

ـ يبدو اعضاء جماعة الهدف : فردياً اوجماعياً ، على انهم مستضعفون غير حصينين وبالتالى فهم عرضة للهجوم والمتعرض vulnerable بشكل ما .

ـ ان المعتقدات النمطية stereotyped beliefsالتى تؤيد الاتجاهات السلبية نحو اعضاء جماعة الهدف هى معتقدات متعلمة ؛ وعادة ما يتم ذلك التعلم فى مرحلة الطفولة .

ـ ان الاتجاهات والانماط السلوكيةالعدوانية تزعم درجة من الشرعية للعدوان وتكون له شكلا من اشكال المؤسسات والمنظمات institutionalized form of aggression التى تدعم هذه الاتجاهات والممارسات ، ومن ثم يكون الفردالمتعصب والجماعات المتعصبة فى تحرر من الحاجة الى الشعور بالالم .

ـ ان المجتمع بصفة عامة يهيىء نوعاً من المنافذ فى شكل سلوك يقره بدرجة او باخرى ، وهذا السلوك ييسر التعبير عن العدوان نحو اشخاص جماعة الهدف . وتتراوح طرق التعبير عن التعصب من العزل الاجتماعى لاشخاص جماعة الهدف الى التخلص منهم أو حتى ابادتهم .

والواقع ان ظاهرة التعصب حاجز يعوق التواصل بين اركان البناء الاجتماعى ، ويمنع الاتصال المنتج بين اعضاء الجماعة . ولذا فان التعصب ضرب من ضروب الحيل النفسية الاجتماعية الفاشلة ، لانه لا يقوم على مبادىء انسانية كالعدالة والمحبة والحرية والاختيار وغير ذلك من المبادىء ، ولا ينطلق من ارضية من الصحة النفسية الاجتماعية ، ولا يسعى الى تعضيد العلاقات الاتصالية الانتاجية والرابطة بين الافراد والجماعات .

• • •

69. Lindgren, H.C. op. cit. p. 441.

صعوبة الاتصال (باثولوجيا الاتصال)

يمكن وصف الاضطرابات السلوكية على أنها صعوبات او اضطرابات فى الاتصال ، تنسحب على كل انماط الاتصال وعملياته ، سواء الاتصال بين الفرد ونفسه او بين الفرد والاخرين او بين الجماعات الاجتماعية . وتتحدد باثولوجيا الاتصال بثلاثة مستويات (٧٠)

أ ـ المستوى الفنى technical level ، ويتضمن وضع جهاز الاتصال ، وأبعاد شبكة الاتصال ، والمتضمنات الوظيفية وكذلك الجوانب الفيزيقية للنقل والاستقبال .

ب ـ المستوى السيمانتى semantic level ، ويتعلق بالدقة الى تنتقل بها سلسلة الرموز المرغوب للرسالة ، بما فى ذلك التحرفات السيمانتية .

جـ ـ مستوى التفاعل interaction level ويشير الى فاعلية نقل المعلومات على سلوك الناس فى محاولة التوصل الى تاثير منشود .

ويعنى ذلك ان صعوبات او اضطرابات الاتصال تتضمن كافة ابعاد الاتصال وعملياته وتوانجه . واذا كنا نستطيع ان تحدد عادة مصادر صعوبة الاتصال او لسوء الاتصال ، الا ان باثولوجيا الاتصال تنبع اساسا من انتهاكات الشروط التى تقوم عليها العلاقات الانسانية الطيبة . يحدد « كولمان » المصادر العامة التى تكمن وراء صعوبات الاتصال على النحو التالى : (٧١)

التوجه المادى : الميل الى اعتبار الافراد الاخرين كأشياء او كموضوعات مادية بدلا من اعتبارهم كاشخاص لهم مشاعرهم واجتهاداتهم . وهذا يعنى عدم القدرة على اقامة علاقات انسانية تتضمن احترام الاخر وتقدير حضوره وعزته وتكامله . كما يعنى ذلك نقص القدرة على التعاطف .

التمركز الذاتى : الانشغال بالاهتمامات الذاتية الى الحد الذى يصبح معه الشخص غير حساس بمصلحة وحقوق الاخرين . والشخص المتمركز حول ذاته غير قادر على اقامة اي شيء عدا العلاقات المصطنعة .

الاستغلال : نزعة مصاحبة غالبا للتمركز حول الذات ، لاتخاذ اتجاه استغلالى فى العلاقات بين الفرد والاخرين ، مع عدم تقدير لحاجاتهم واغراضهم . يتضح ذلك مثلا فى جهود مدير او رئيس للعمل لتناول الناس والمواقف فى اتجاه تحقيق مصالحه . وغالباً ما يتضمن ذلك ميلا الى المخادعة .

70. Ruesch, J. Values, communication, and culture. In Ruesch, J., & Bateson, G. (eds), **Communication : The social matrix of Psychiatry.** New York : Norton & Co., 1968, p. 19.

71. Coleman, J. C. op. cit. p. 434.

المخادعة : الميل الى الاستفادة من الاخرين من خلال الخداع والنفاق . وقد يتضمن ذلك استخدام اساليب تقوم على الكذب والغش والسرقة والاحتيال أو غير ذلك من أشكال عدم الامانة فى العلاقات مع الاشخاص الاخرين .

المسايرة الزائدة (الامعية) : الاهتمام بموافقة الاشخاص الاخرين على حساب التكامل الشخصى . وغالبا ما يصاحب ذلك بميل الى الحظوة بتقدير السلطة ـ ومن ناحية أخرى يكون الشخص المفرط فى المسايرة متسلطا وعدوانيا نحو الاشخاص الاقل مكانة .

الاعتماد الزائد (الاتكالية) : الميل الى الاتكال بشكل متزايد على الاشخاص الاخرين لاجل العون المادى او السند الانفعالى ، والى ان يتركن عليهم فى اتخاذ قراراته الخاصة . والشخص المفرط فى اعتماديته على الاخرين يسهم قليلا او لا يسهم فى تكوين علاقات مع الاخرين وفى تدعيمها ، بل كثيرا ما يفقد احترامه لنفسه واحترام الاخرين له .

التمردية : النزعة الى التمرد ضد كل اشكال السلطة ، والى ان يصير الشخص عدوانيا وغير متعاون . فى بعض الاحيان تأخذ التمردية شكل الاحتجاج ضد كل ما فى المجتمع من عادات وتقاليد ، بهدف اثبات استقلاليته .

العداوة : ميل ، يرتبط عادة بمشكلات السلطة ، يدفع الفرد الى ان يكون عدوانيا ، نحو الاشخاص الاخرين ومرتابا فيهم . وحينما يجرى التعبير عن العداوة صراحة ، فانها تخلق مشكلات مباشرة فى الاتصال بالاخرين . كذلك فان التعبير المغلف أو غير الصريح للعداوة يؤدى الى افساد التفاعل الاتصالى وخاصة على المدى البعيد .

مشاعر النقص : نقص اساسى فى الثقة بالنفس أو احترام النفس ، قد يجرى التعبير عنه اما فى شكل حساسية زائدة ازاء « التهديد » اوفى شكل المبالغة فى بذل الجهود لكى يثبت الشخص كفاءته واستحقاقه عن طريق بعض الاساليب مثل التفاخر والمباهاة والنقد الزائد لغيره .

الانعزال الانفعالى : عدم القدرة على تقديم التأييد الانفعالى اللازم لتكوين العلاقات وتدعيمها وذلك بسبب الخوف من التعرض للايذاء .

التعصب : الاستجابة لاعضاء الجماعات الاخرى على اساس نمطيات غير مرغوبة . وتقوم هذه النمطيات على معتقدات خاطئة عند الاشخاص المتعصبين ؛ أما ضحايا التعصب فهم اشخاص تتكون فيهم مشاعر النبذ والنقص والعداوة والانماط الدفاعية للسلوك .

التوقعات غير الواقعية : توقع نموذج مثالى من الشخص الاخر بدلا من توقعه ككائن انسانى ـ كأن نتوقع مثلا من الشخص المحبوب ان يكون دائما لطيفا ، مجاملا ، صبورا ، معطيا واعيا ، وموضوعيا . ومن شأن التوقعات غير الواقعية ان تؤدى الى الاحباط وخيبة الامل عند كل اطراف العملية الاتصالية .

تلك هى المصادر العامة لصعوبات الاتصال، وخاصة الاتصال بين الفرد الآخرين ، كما يحددها « كولمان » . هى فى حقيقتها معوقات نابعة من داخل الفرد ، يتعثر فيها سلوكه الاتصالى . وبالاضافة الى ذلك ثمة مصادر اخرى تؤدى الى سوء الاتصال يمكن استنباطها من الجزء التالى .

• • ب

تحسين الاتصال (مقومات الاتصال الفعال)

الاتصال عملية مركبة ، تختلف فى طبيعتها وبنيتها باختلاف المواقف والاشخاص وما يتبادلونه من ادوار ووظائف . ولكن ثمة حقائق رئيسية فى هذا الصدد وهى أن الاتصال عملية تفاعلية ترتكز على مقومات نفسية بالدرجة الاولى .

وفى اطار ماسبق عرضه وبالاضافة اليه، يمكننا ان نحدد بعض المقومات النفسية التى تزكي العملية الاتصالية وتوفر لها الفعالية على النحو التالى :

١ ــ التمكن من مهارات الاتصال الفعال :

تستلزم الفعالية الاتصالية تعلما جيدا لبعض المهارات الاجتماعية وتنمية لهذه المهارات التى تمكن الفرد من التعبير الدقيق عن افكاره ومشاعره ، ومن توطيد علاقاته مع الآخرين . ومن هذه المهارات : (٧٢)

أ ــ **حسن الارسال والاستقبال** : لكى يتمكن الاشخاص من بناء علاقات اتصالية فعالة وتدعيمها ، فانهم ينبغي ان يتعلموا وان يتقنوا مهارة الاصغاء والتفسير لما يقوله الآخرون ولما يشعرون به حينما يعبر هؤلاء الاشخاص عن أنفسهم .

والشخص الموصل « كمرسل فعال » يدرك بوضوح ما الذى يسعى الى توصيله ، وكيف يتناول الرسالة بطريقة تمكن الشخص المستقبل لها من تفسيرها بدقة . اما اذا كان الشخص المرسل غير واضح فى الرسالة التى يحاول نقلها ، او اذا اخفق فى جعل مضمون الرسالة يغير ذى معنى بالنسبة للشخص الذى يتواصل معه ، فمن المحتمل ان يكون استقبال الرسالة مشوبا بسوء الادراك او بسوء التاويل ، كما انه قد يصعب احتواء الآخر لتحقيق الهدف من العملية الاتصالية وقد تتضح مظاهر الاخفاق فى تكرار بعض العبارات مثل : « لم اكن اعنى ذلك » ، « لقد اسات فهم ما احاول ان اقوله » ، وغير ذلك من مؤشرات تعويق الاتصال .

وقد يؤدى وجود توقعات معينة عند كل من المرسل والمستقبل الى تحريف الاتصال . فاذا كان الشخص المرسل يعتبر المستقبل على انه متخلف او متحيز ، فان توقعات المرسل بان يساء فهمه قد تعترض طريق توصيله لأفكاره على نحو هادىء وواضح . ومن ناحية اخرى ، اذا كانت فكرة الشخص المستقبل عن المرسل على انه يميل الى المبالغة او التحيز او المعاداة نحوه ، او على

72. Coleman, J.C. op. cit. pp. 432-435.

انه ضعيف بدرجة لا يستطيع معها ان يتخذ موقفا محددا في قضية ما، فان الرسالة – نتيجة لهذه الادراكات القبلية – قد لا تلقى اعتبارا من المستقبل او قد يسيء تأويلها او يرتاب فيها او يتحفظ بشأنها ، يصرف النظر عن قيمة مضمون الرسالة .

ب – **ارهاف الحساسية لمشاعر الاخرين :** تزخر الحياة الاجتماعية بمواقف كثيرة تستدعي منا ليس ادراك الكلمات والعبارات فحسب ، وانما ايضا التفطن الى المعاني الكامنة وراءها والوعي بالمشاعر المتضمنة فيها . اما الشخص غير الحساس فغالبا ما تصدر عنه اقوال او افعال قد تؤذي مشاعر الاخرين او تغضبهم .

ان حساسية الفرد ازاء حاجات ومشاعر الاخرين فن لاصول العلاقات الانسانية يكتسبه من خلال التفاعلات الاتصالية مع الاخرين : ويستلزم ذكاء فن الحساسية لمشاعر الاخرين وارهاقها حسن الاصغاء اليهم . ومن شان يقظتنا الى صوت الشخص الاخر ونبرته وايماءاته وتعبيرات وجهه أن تعيننا على فهم المقاصد الكامنة وراء مضمون الرسالة بالاضافة الى فهم معناها .

والواقع أن الكثير من نقص الاقتدار الاجتماعي انما ينشأ من كثرة التكلم وقلة الاصغاء . وقد يعزى ذلك الى اننا قد نكون مستوعبين بمطامحنا واولوياتنا ومشكلاتنا التي تتملكنا وتحجبنا رؤية حاجات الآخرين ومشاعرهم ومشكلاتهم ، فلا نرى الآخرين الا من خلال ذواتنا . بل وقد نستخدم كل جملة يقولونها كمنطلق لتحويل المحادثة الى انفسنا ، وذلك مظهر من مظاهر نقص النضج الاجتماعي وضعف المهارات الاتصالية .

٢ – الوضوح المعرفي :

يعتمد الاتصال بدرجة كبيرة على عملية نقل واستقبال المعلومات . ولكي تتحقق هذه العملية بفاعلية ، ينبغي أن يكون الافراد المشتركون في هذه العملية واعين معرفيا بكل مكوناتها : وضوح الاهداف والادوار والوظائف والعلاقات .

ويؤكد على اهمية هذا البعد النفسي في ادراكنا وعلاقاتنا نظريتا «التنافر المعرفي» و «التناسق المعرفي» ، اللتان تتفقان في اساس عام وهو : محاولات الفرد في الوصول الى درجة معينة من الاتساق في معارفه ومعتقداته واتجاهاته وسلوكه ، وفي المحافظة على هذا الاتساق .

تذهب نظرية « التنافر المعرفي » cognitive dissonance التي قدمها ليون فستنجر (٧٣) (١٩٥٧) الى أن استقبال الفرد لمعلومات غامضة او غير كافية او غير مناسبة او متناقضة يخلق حالة من التوتر عنده تدفعه الى السعي الى اختزالها . وحينما يحدث التنافر – وغالبا مايحدث كلما ازدادت المجتمعات تحضرا – يتوجه الفرد الى الحصول على معلومات جديدة تختزل او تخفف هذا التنافر . ويمكن خفض التنافر عن طريق تغيير احد العناصر المعرفية ، او اضافة عناصر جديدة ، او تقليل اهمية بعض العناصر .

73. Pestinger, L. **A theory of cognitive dissonance.** New York : Harper & Row, Pub.,1957

ومن ناحية اخرى ، تؤكد نظرية « التناسق المعرفي » (cognitive consonance) ، التى طورها « فريتز هيدر » (١٩٤٦ (٧٤) ، ١٩٥٨ (٧٥)) و « ثيودور نيوكمب » (١٩٥٣ (٧٦) ، ١٩٦١ (٧٧)) ، على ميل الانسان الى تجنب التنافر والغموض بسبب نزعته الى التناسق والاتزان في المعلومات. فنحن نشعر بالارتياح حينما نستطيع ان نسلك حيال الاحداث والمواقف المختلفة في حياتنا كما لو انها متسقة ومترابطة . وبذلك تحاول نظرية « التناسق المعرفي » وصف كيف ان الافراد يسعون الى الموائمة بين المعلومات المتباينة في ادراكهم لعالمهم الاجتماعي ، توجها الى نوع من « التوازن المعرفي » cognitive homeostasis . ولكن لا يعني التوازن او التناسق وجود حالة ستاتيكية ثابتة ، ولكن حالة دينامية مستمرة بين التغير والتوافق ، والتنافر والاتزان ولذا يتضمن التناسق او الاتزان المعرفيان ثلاث حالات متكاملة :

(١) الاتزان او الحالة العادية ، (٢) عدم الاتزان نتيجة لتدخل قوى او احداث معينة تقلب هذه الحالة العادية : (٣) نشاط عمليات او ميكانزمات معينة لاستعادة الاتزان .

والواقع ان نظريتي التنافر والتناسق المعرفيين ليستا متعارضتين ، بل تكملان بعضهما بدرجة كبيرة . وعلى اساس هاتين النظريتين وما اجري حولهما من دراسات عديدة ، يمكن تفسير الكثير من عوامل سوء الاتصال وحسن الاتصال بين الافراد والجماعات . ونسوق لذلك مثالا واضحا من **«الشائعات»** ــ فهي تنمو وتنتشر وتستشري لتنخر في عضد البناء الاجتماعي وتهدد الروح المعنوية والتفاعل الاتصالي بين اعضاء المجتمع ، بسبب المعلومات الغامضة او الخاطئة او الناقصة او المتناقضة التي تصل الى الافراد بشأن حدث او ظاهرة ما . هذه المعلومات غير الصحيحة misinformation تكمن وراء الكثير من مظاهر سوء الادراك الاجتماعي وسوء الفهم لمجريات الاحوال والعلاقات . وبالتالي ، يكون علاج الشائعات وضربها هو باستجلاء التنافر او الغموض المعرفي عن طريق الوضوح المعرفي ــ اى بالتزود بالمعلومات والبيانات الصحيحة والواضحة بقدر الامكان .

٢ ــ مقاومة الغواية والاغراء :

يتسم عالمنا المعاصر بتفجر المعلومات وثرائها ، وبملاحقتها لنا والحاحها علينا من خلال وسائل الاتصال المتنوعة كالصحف والمجلات والراديو والتلفزيون وغير ذلك . ولكن استجابتنا لهذه **المعلومات ينبغي الا تقوم على مجرد الاستقبال** والنقل والمحاكاة . ولا على المسايرة السلبية ، وانما على اساس من « **الوعي** » .

---

74. Heider, F. Attitudes and cognitive organization. **J. Psychol.**, 21 (1946), 107-112.
75. Heider, F. **The Psychology of interpersonal relations.** New York : Wiley, 1958.
76. Newcomb, T.M. An approach to the study of communicative acts. **Psychol. Rev.**, 60 (1953), 393-404.
77. Newcomb, T.M. **The acquaintanceship process.** New York : Holt, Rinehart, & Winston, 1961.

ومن الدلالات البارزة للوعي قدرة الفرد على مقاومة الغواية والاغراء resistence of tempatation – وهي القدرة الداخلية للفرد على العزوف عن الاستجابة للمؤثرات الخارجية التى قد تغويه او تغريه لكى يأتى بسلوك لاتقره المعايير الاجتماعية ولا يقره تكوينه الاخلاقي ، رغم عدم افتضاح أمره او انكشاف فعلته . كما تعنى مقاومة الغواية والاغراء قدرة الفرد على مغالبة المؤثرات والالحاحات الداخلية التى قد توعز اليها « نفس امارة بالسوء » ، وكذلك على طرد الافكار والهواجس التى قد تراوده بشأن فعل او اتجاه او شعور لايتفق مع المعايير الاخلاقية .

وتمثل القدرة على مقاومة الغواية والاغراء نوعا من الضبط الذاتي وهو « ضبط مستدخل » internalized control من نظام المبادىء والاحكام الخلقية والمعايير الاجتماعية السائدة في ثقافة مجتمعة وخاصة في جماعة الأسرة . (٧٨) ويفسر « هيل » (١٩٦٠) نمو هذه القدرة على انها « تعلم احجامى » avoidance learning ارتباطا بخبرات العقاب وأماراته التى يعيشها الطفل في الأسرة . (٧٩)

وهكذا ، من خلال القدرة على مقاومة الغواية والاغراء ، تدفق المعلومات المتباينة والمؤثرات والاتجاهات والمعتقدات المختلفة ، يستطيع الفرد ان يباشر نوعا من « الضبط المعرفى » لكل مايستقبله من العالم الخارجي .

يعنى « كلاين » (١٩٥٤) بمصطلح « الضبط المعرفى » cognitive control ما يتحقق للسلوك من تنظيم وتكامل بواسطة « الانتباه » الذى تعمل ميكانزماته بطريقة انتقائية ــ فنظام المعارف والآراء والمعتقدات الذى يتخذه الفرد نحو البيئة ونحو نفسه وسلوكه يمثل ضوابط معرفية تمكنه من انتقاء المعلومات الملائمة ، ومن « اليقظة » في تفاعله واستجاباته لكل المثيرات التى يتعرض لها . (٨٠)

٤ ـ استثارة السلوك الاتصالي :

يكمن وراء الاتصال ، كظاهرة اجتماعية نفسية ، محركات وموجهات دافعية تستنشط سلوك الاخذ والعطاء بين اطراف العملية الاتصالية وتدعمه وترتقي به . ويستلزم ذلك اقرار السلوك الاتصالي على أساس قوى دافعية تحقق فيه وظيفتين متكاملتين : (١) وظيفة تنشيطية او تحريكية و (٢) وظيفة توجيهية او تنظيمية . (٨١)

---

78. Sears, R.R., etal. **Patterns of child rearing.** New York : Harper & Row Pub., 1957.
79. Hill, W.F. Learning theory and the acquisition of values. **Psychol. Rev.**, 67 (1960), 317-331.
80. Klein, G.S. Need and regulation. In MR. Jones, (ed.), **Nebraska symopsium on motivation.** Lincoln : Nebraska Univ. Press. 1954.
81. Lindsley, D.B. Psychophysiology and motivation. In M.R. Jones (ed.), **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebr. Univ. Press, 1957.

بهذه القوى الدافعية الوظيفية يكون الاتصال سلوكا « نشطا » ، « متحركا » « موجها » ، « منظما » . وفي ذلك يمكن ان نحدد بعض الدوافع الاجتماعية التي تعمل على اذكاء الاتصال:

دافع الاعتماد (dependency) : يظهر هذا الدافع في فترة مبكرة من الحياة ، وقد يكون الاساس لنمو بقية الدوافع ، وهو يعني حاجة الفرد الى ان يقوم الاخرون بمساعدته على حل مشكلاته وتهيئة الامان له واشباع حاجاته التي التواصل مع اعضاء المجتمع . ويعرف « روتر » (١٩٥٤) الاعتماد على انه « الحاجة الى ان يقوم شخص اخر او مجموعة من الاشخاص بمنع الاحباط او العقاب وبتهيئة الاشباع للحاجات الاخرى . (٨٢) اما « كوفر وابلي » (١٩٦٤) فيحددان الاعتماد على انه « سلوك يستدعي من الاخرين العون والمساعدة والراحة وغير ذلك من الحاجات الاجتماعية » (٨٣) .

ويتميز دافع الاعتماد عن غيره من الدوافع المتعلمة الاخرى بانه ليس له هدف مستقل في حد ذاته ، فالاعتماد يعني التحول الى الاخرين طلبا العون او التعضيد في سبيل الوصول الى هدف اخر ، ويكون السلوك الاعتمادي وسيلة للحصول على موضوعات اخرى للهدف . لذا تبدو القيمة الاتصالية لدافع الاعتماد حينما يبدو الاتجاه الى طلب المساعدة من الاخرين اكثر اقتصادية مما لو قام الشخص نفسه بحل المشكلات او تلبية المطالب والحاجات .

ويخضع الاعتماد لمعايير النسبية الثقافية ، فلكل ثقافة ولكل موقف فردي او جماعي معيار للاعتماد ، وان دافعية الاعتماد تتكشف حينما يتجاوز سلوك الفرد هذه المعايير . فمثلا في امريكا لايعتبر الشخص معتمدا الا يسعى الى مساعدة مهنية من محام او طبيب ، ولكنه يعتبر معتمدا اذا كان يسأل الاخرين عن لون رباط العنق الذي يلبسه او كيف يتصرف في احد المطاعم او النوادي ولذا فان مفهوم الاعتماد نسبي وفقا للموقف الذي يوجد فيه الفرد ووفقا لتوقعات المجتمع .

والواقع ان فعالية الاتصال ، وما تقوم عليه من علاقات الاخذ والعطاء وتبادل الادوار ، تتحقق كثيرا بوجود درجة كبيرة من الاعتماد المتبادل بين اعضاء العملية الاتصالية . ولكن هذا الاعتماد ــ كما تبين دراسات « جيلفورد » (١٩٥٩) ــ يمثل قطبا في نهاية « متصل » يوجد في طرفه المقابل قطب آخر وهو « الاعتماد على النفس » self-reliance . وبالتالي فان « الاعتماد على النفس في مقابل الاعتماد » (٨٤) ، يعني تبادل الادوار والعلاقات بين الافراد والتواصل بينهم على أساس ان كل فرد يعتمد على الاخرين بدرجة او باخرى ، كما ان الاخرين يعتمدون عليه . وبذلك تترابط شبكة العلاقات الاتصالية المختلفة ، وتتحقق لها فاعلية الحركة والنشاط بين جوانبها .

---

82. Rotter, J.B. **Social learning and clinical psychology.** Englewood Cliffs, N.J., : Prentice-Hall, Inc., 1954, p. 132.

83. Cofer, C.M., & Appley, M.H. **Motivation : theory and research.** New York : Wiley, 1964, p. 741.

84 Guilford, J.P. **Personality.** New York : Mc Graw-Hill, Inc., 1959, p. 440.

دافع الانضمام او التواد (affiliation) : يمثل احد الدوافع الاساسية للاتصال وللتنشيطة . وقد قدم « موراى » (١٩٣٨) هذاالمفهوم لاول مرة فى علم النفس الحديث (٨٥) ، ولكن يعزى الى « شيلى وفيروف » (١٩٥٢)تحديد هذه الحاجة على انها الرغبة فى الاحتفاظ بعلاقة قائمة على الصداقة والمحبة ، او التوصل الى هذه العلاقة او استعادتها . (٨٦) وتبين دراسات « ماكليلاند وآخرون » (١٩٥٣) انهذه الحاجة تتضمن جانبين : جانب اقدامي لان العلاقة الانضمامية او التوادية (affiliative relationship) مثير سار ، وجانب احجامي لان النبذ مثير مؤلم . (٨٧)

يمثل هذا الدافع مرتكزا رئيسيا لتنشيط الاتصال وتدعيمه . وفى ذلك تكشف دراسات « اتكنسون » (١٩٥٤ (٨٨) ، ١٩٥٦ (٨٩)) انالاشخاص ذوى الحاجة المرتفعة للانضمام كانوا يظهرون ميلا متزايدا وسعيا اكيدا نحو توطيدعلاقاتهم بالآخرين ونحو الحصول على التأييد النفسي من هذه العلاقات التي تتدعم بالصداقةوالمحبة .

دافع الانجاز (achirvement) (*) :لقيت دراسة دافعية الانجاز من علماء النفس اهتماما اكبر مما حظيت به الدوافع الانسانيةالاخرى ، وبالرغم من ان اصل هذا المصطلح يعزى الى « موراى » (١٩٣٨) (٩٠) ، ومن ان تحديدمعناه يرجع الى « سيرز » (١٩٤٢) (٩١) ، الا ان الدراسات فى هذا الميدان قد ارتبطت اساسا باعمال « ماكليلاند » وزملائه .

يعرف الدافع الى الانجاز على انه « السعى او الاجتهاد من اجل مستوى من الامتياز او التفوق » (ماكليلاند وآخرون ، ١٩٥٣) (٩٢) . وقد وجد الباحثون فى هذا الميدان الخصب علاقة وثيقة بين الدافع الى الانجاز عند الافراد وبين المجتمعات الانجازية التى يعيشها هؤلاء الافراد . ويتضمن كتاب « ماكليلاند » (١٩٦١) (٩٣) عن « المجتمع الانجازى » تحليلا للمجتمعات على

---

85. Murray, H.A. **Explorations in personality.** New York : Oxford Univ. Press. 1938.
86. Shipley, T.E., & Veroff, J. A projective measure of need for affiliation. **J. exp. Psychol.,** 43 (1952), 349-356
87. Mc Clelland, D.C. etal. The achievement motive. New York : Appleton -Century-Crofts, 1953.
88. Atkinson, J.W., etal. The effect of experinental arousal of the affiliation motive on thematic apperception. **J. abnorm. soc. Psychol.,** 49 (1954), 405-410.
89. Atkinson, J.W. & Raphelson, A.C. Individual differences in motivation and behavior in particular situations. Journal of Personality, 24 (1956), 349-363)
90. Murray, H.A. op. cit.

(*) ارجع الى المصدر التالى : ابراهيم قشقوش ،وطلعت منصور : دافعية الانجاز وقياسها . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٩ .

91. Sears, R.R. Success and failure : A study of motility. In Mc Nemar & M.A. Merrill (eds.), **Studies in personality.** New York : Mc Graw-Hill, Inc., 1942.
92. Mc Clelland, D.C., etal. (1953). op. cit.
93. Mc Clelland, D.C. **The achieving society.** Princeton, N.J., : Van Nostrand, 1961.

اساس هذه العلاقة الوظيفية . فالتوجه الانجازي المميز للافراد ـ كشخصيات انجازية ـ ولمجتمعاتهم ـ كمجتمعات انجازية ـ يكمن وراء توظيف طاقات الافراد في اعمال متقدمة ، حيث يجتمع الافراد في علاقات انتاجية تنطلق من اهداف متطلعة الى مستويات ارقى ، وحيث تتدعم هذه العلاقات على اساس نواتج الانجاز .

ولا شك ان الاتصال ينشط ويقوى ويتدعم اذا قام على ركيزة من الانجاز الذي يوفر انسب المجالات والمواقف لتوظيف امكانات الفرد والمجتمع في **علاقات اتصالية مترابطة تتوحد بالتوجه الانجازي .**

تحقيق الذات (self-actualization): تحتل الحاجة الى تحقيق الذات ـ وفقا لنظرية ماسلو (١٩٥٤) ـ قمة نظام الحاجات الانسانية ولذا يعتبرها (ماسلو) ايضا (الخبرة الذروية) peak experience الناتجة من سعي الفرد لاشباع حاجاته . (٩٤)

يرتبط هذا المستوى الدافعي الاسمى بما يحفز الفرد الى التحصيل والانجاز والتعبير عن الذات : ان يكون الفرد منتجا ومبدعا ، وان يقوم باعمال وتصرفات مفيدة وذات قيمة بالنسبة له وللاخرين ، وان يحقق امكاناته ويترجمها الى حقيقة واقعة . ولذا يعتبرها « ماسلو » على انها الحاجة الغالبة المسيطرة ، والقوة الدافعة الاساسية ، في حين تمثل الحاجات النفسية الاخرى كالامن والحب والاحترام اجزاء من هذه الحاجة وعناصر في هذه القوة . ومن شان هذه الحاجة الارقى ان « تسيطر على » الحياة الواعية للفرد ، وان تعمل كمركز لتنظيم السلوك عنده (٩٥).

ومن الطبيعي لذلك ان يكون من ابرز مقومات « الفعالية الاتصالية » communicative efficiency هو اذكاء الحاجة الى تحقيق الذات عند الافراد الذين يؤلفون العملية الاتصالية . فالاتصال ـ باهدافه واشخاصه ومواقفه وخبراته وتغذياته الراجعة ـ ينبغي ان يجري تنظيمه وتوجيهه على اساس اشباع هذه **الحاجة التي تمثل قمة الخبرة الانسانية . ومن ثم ، يستطيع الافراد ان يجدوا في الاتصال « معنى » يعيشونه ، وصولا الى مستويات ارقى** من التفاعل الاتصالي .

(٥) المناخ الاجتماعي النفسي الصحي :

ان ما يسود في الجماعة من « مناخ اجتماعي نفسي » معين لفترة ممتدة من الزمن ، ليشكل الاتصال بخصائص متميزة ـ كاتصال دافء اوبارد ، متقبل او عدائي ، متوتر او استرخائي ، مستمر او مؤقت ، فعال او ضعيف ، الى غير ذلك من انعكاسات هذا المناخ على السلوك الاتصالي لاعضاء الجماعة .

---

94. Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed. 1970).
95. Ibid., pp. 91-92.

فمن شان المناخ النفسى الذى يشيع فى الجماعة group climate ان يحدد مدى دقة الادراك الاجتماعى بين اعضاء الجماعة ، وذلك بناء على تكوين « حالة ادراكية » (perceptual set) معينة تلون سلوك اعضاء الجماعة فى تفاعلها الاتصالى بين بعضهم الاخر أو بين الجماعة وغيرها من الجماعات الاخرى (٩٦) .

ويلعب نمط **القيادة** فى الجماعة دورا كبيرا فى تحديد خصائص المناخ الاجتماعى النفسى ، وانعكاساتها على خصائص السلوك الاتصالى بين اعضاء الجماعة . ومن الدراسات الكلاسيكية ذات الدلالة فى هذا الصدد ، تلك التى قام بها « ليفين وليبيت وهوايت » (١٩٣٩) (٩٧) ، و « ليبيت وهوايت » (١٩٤٣) (٩٨) فى هذه الدراسات التجريبية خضع المفحوصون لثلاثة انماط من الاجواء الاجتماعية التى تختلف باختلاف نوع القيادة : الاوتوقراطية ، الديموقراطية ، الفوضوية ، فى الجو الاجتماعى الاوتوقراطى ، كان القادة يسلكون بطريقة استبدادية ، وكانوا يقومون بتخطيط عمل الجماعة وتوجيهه والاشراف عليه . وكان الاتصال أساسا بين القائد والاعضاء ، أما التفاعل بين الاعضاء فلم يكن يلقى تشجيعا . لذا كان الاتصال يتسم بالجمود وبالسلوك القسرى لتحقيق مستويات عالية تحددها القيادة . وعلى العكس من ذلك ، كان الجو الاجتماعى الذى تفرضه القيادة الفوضوية او المتسيبة laissez-faire . فتضاؤل دور القيادة يلقى بالاشخاص فى فوضى وعدم اتزان وفى مظاهر سلوكية غير مسئولة . والادوار الاتصالية فى هذا الجو مشوبة بالغموض المرق وبتناقص عوامل ومعايير الضبط السلوكى . اما فى الجو الاجتماعى الديمقراطى فقد كان دور القادة هو مساعدة اعضاء الجماعة على التخطيط لنشاطهم ، لا التخطيط لهم . وكانوا يتواصلون فيما بينهم على أساس من المساواة بقدر الامكان ، وكان الاتصال يلقى تشجيعا وتأييدا هائلين بين كل أعضاء الجماعة .

وقد أوضحت نتائج هذه الدراسات ان الانماط السلوكية فى الجماعات كانت تختلف وفقا لنوع المناخ الذى تخلقه القيادة . فالمناخ الاوتوقراطى قد اوجد قدرا كبيرا من السلوك الاكثر توجها نحو العمل ، ولكن قد اوجد فى نفس الوقت درجة منخفضة من الاهتمام الشخصى من جانب اعضاء الجماعة ، لانه حينما كان يخرج القائد من موقع العمل ، كان الاعضاء يتركون مهامهم ويختل نظام العمل والانتاج . وقد اصبح هؤلاء الاعضاء ايضا اكثر اعتمادا على القائد ، واقل قدرة على اتخاذ القرارات لانفسهم وعلى العمل التعاونى . كما كانوا أكثر ميلا الى العدوانية بين بعضهم الاخر وخاصة نحو الاعضاء الاضعف فى الجماعة .

---

96. Exline, R.V. Group climate as a factor in the relevance and accuracy of social perception. **J. abnorm. soc. Psychol.**, 55 (1957), 382-388.
97. Lewin, K., Lippitt, R., & White, R.K. Patterns of aggressions behavior in experimentally created „social climates''. **J. soc. Psychol.**, 10 (1939), 271-299.
98. Lippitt, R., & White, R. The „social climate'' of children's groups. In R.C. Barker, etal. (eds.), **Child behavior and development.** New York : McGraw-Hill Co., 1943.

وفى ظل المناخ الديمقراطى، لم يمسل الأعضاء بهذا المستوى من الاجتهاد الزائد ، ولكن كانوا يبدون بمستوى أعلى فى الاهتمام بالعمل والتوحد معه . لذا لم يكن يختل العمل بغياب القائد ، وانما يستمرون فيه ويقاومون عوامل التشتت . وكان الجو الديمقراطى مشجعا على الاتصال والتعاون بين أعضاء الجماعة . ولذا كانت تختفى ظاهرة « كبش الفداء » كموضع لتنفيس عدوان الجماعة فى العناصر الاضعف ، وهى الظاهرة التى تفشت فى المناخ الاوتوقراطى .

اما فى المناخ الفوضوى ، فكانت المسئوليات والعلاقات والادوار غير واضحة ، وتسير بلا هدف او توجيه محددين .

والواقع ان المناخ الاجتماعى النفسى يعتبر نتيجة وسببا لطبيعة اتصال ولدينامياته فى الجماعة ، ولدور القيادة فى توزع الادوار الاتصالية بين اعضاء الجماعة . ومن ثم ، فاذا كانت الجماعة تمثل بيئة الاتصال ، فان هذه البيئة الاجتماعية الاتصالية يمكن ان يتلوث مناخها النفسى بعوامل انفعالية كالخوف والشعور بعدم الامان والحساسية والتعصب والغموض والعداوة وغير ذلك من مثبطات الفعالية الاتصالية . وهذا التلوث الانفعالى للبيئة الاجتماعية لا يقل خطورة عن تلوث البيئة الطبيعية ، ان لم يكن اكثرها خطورة .

(٦) ترشيد العمليات الجماعية :

نعنى « العمليات الجماعية » group processes النظر الى الجماعات كوجود دينامى يتميز بالتغير وبالنشاط المتواتر ، وبانماط سلوكية مميزة للافراد فى الجماعة وللجماعة ككل .

وقد تكشف العمليات الجماعية عن مشكلات او صعوبات تعوق الاتصال الفعال، وهى مشكلات او صعوبات لا تكمن فى الافراد او فى تواريخ حياتهم ، بقدر ما تكمن فى البناء النفسى للجماعة. ويمكن ان نحدد بعض مصادر المشكلات المرتبطة بالعمليات الجماعية كما يلى :

أ ـ **نقص الاستعداد والتهيؤ الاجراءات الديموقراطية :** ليس من المتوقع من الجماعة التى تعودت الخضوع والخنوع للسلطة ان تدرك حقيقة الحرية والمفاهيم والممارسات الديموقراطية ، الا اذا تلقت توجيها واعيا بهذا الاسلوب الرشيد فى الاتصال وخضعت لنوع من اعادة التعلم الاجتماعى فى هذا الصدد . يحكى « شيفياكوف وردل » (١٩٥٦) عن معلمة لجأت الى تطبيق معرفتها الخاصة بالاجراءات الديموقراطية على تلاميذ عرفوا بسمعتهم السيئة وبسلوكهم المنحرف . ولكنها خرجت بنتيجة عكسية ، لأن الجماعة لم تكن فى حالة من التهيؤ والاستعداد تؤهلها لاستيعاب هذه الممارسات الرشيدة . (٩٩)

---

99. Sheviakov, G.V., & Redi F. **Discipline for today's children and youth**, Washington, D.C. : National Education Association, 1956Education Association, 1956.

ب ـ **الاحباط المخزون** : قد تنفجر الجماعة في حالة من التمرد أو الشغب حينما تصل التوترات الى حد من القمع والضغط يكون شديد الوطأة ، كالقطرة التى تؤدى بالمكيال الى الطفح. فمثلا ، قد يلجأ المدير او القائد او المعلم الى مزيد من اثقال العاملين او التلاميذ بالتعيينات والالتزامات والعقوبات . وفى هذه الحالة قد يتشجع احد الطلاب او العاملين أو مجموعة منهم على رفض هذا الاسلوب ، ثم سرعان ما يتبعهم الآخرون . لذا ينبغى على القيادة ان تتصف بالحساسية للتفاعل الدينامى مع اعضاء الجماعة ولما يجرى فى سياق تطور العمليات الاجتماعية .

جـ ـ **الوباء الاجتماعى** : قد يشيع فى الجماعة حالة من التسيب والتميع فى نشاطها وفى ادوار اعضائها ، ومن اللانضباطية فى المناخ الاجتماعى العام ، يشبه « ردل » (١٩٦٦) هذه الحالة بـ « الانتشار العدوى » contagion (١٠٠) وقد يرتبط انتشار الوباء الاجتماعى ـ وخاصة بين جماعات الشباب ـ بوجود بعض العناصر « الفاسدة » أو « المفرطة » التى تباشر نوعا من قوة التأثير والايحاء على بقية الاعضاء . وغالبا ما تصدم الجماعة بهذا التأثير ، ويتملك اعضاءها قلق مرتبط بالشعور بالذنب ، ومن ثم تتراجع عن موقفها لتعود الى وعيها . يطلق « ردل » على ذلك مصطلح « صدمة الاثر » .

د ـ **بنية الجماعة** : قد تسبب بنية الجماعة فى بعض الاحيان صعوبات فى الاتصال . فالتباين الواسع فى المستويات العمرية والنمو العام والقدرات والخلفية الاسرية والثقافية والاقتصادية قد يؤدى الى فرض نوع من التباعد أو الانعزال الاجتماعيين بين اعضاء الجماعة ، وبالتالى الى نوع من سوء الادراك الاجتماعى ، اذا لم تحسن الجماعة تناول هذا التباين فى اطار « التنوع مع الوحدة » ، وعلى أساس احساس كل عضو بقيمته الذاتية بالنسبة للجماعة .

والسؤال الآن : كيف يمكن ترشيد العمليات الجماعية التى تذكى الاتصال ؟

ا ـ تحليل الادوار : قد يتبين الكثير من صعوبات الاتصال بواسطة تحليل الادوار التى يلعبها اعضاء الجماعة . فقد تكون النزعة الى أداء دور القيادة اتجاها مسيطرا على الكثير من اعضاء الجماعة . ومن شأن الجماعة التى تتألف من اعضاء يجدون امنهم فقط فى تبوؤ مكانة الرياسة والسيطرة ، أن يشيع فيها الكثير من التوترات . ويمكن ، من خلال المناقشات والمقابلات الفردية والجماعية ، مساعدتهم على تغيير اتجاهاتهم .

ب ـ **اللعب بالادوار** : من الاساليب الفعالة فى هذا الصدد اللعب بالادوار والتمثيليات الاجتماعية (السوسيودراما) . وتوضح بعض الدراسات ، على سبيل المثال ، أن المعلمين قد وجدوا فائدة كبيرة باستخدامهم لهذه الطرق فى علاج مشكلات النظام والاتصال فى الجماعات

---

100. Redi, F. **When we deal with children.** New York : Free Press, 1977.

الطلابية ، حيث تكتشف الجماعة عن مشكلاتها أو صعوبتها من خلال تمثيلها وتقمص أدوارها، ومناقشة العوامل المسببة لها ، والتخطيط بطريقة مشتركة لكيفية مواجهتها . (١٠١) وقد توصل « روسينثال » (١٩٥٢) ، من خلال تدريبه الطلاب على المبادىء التعاونية الديموقراطية باستخدام المسرحيات النفسية ، الى نتائج تؤكد أهمية هذه الاساليب . فقد أبدى الطلاب تحسنا ملحوظا في تكيفهم الشخصي والاجتماعي ، كما أظهروا زيادة واضحة في الصداقة والتوادية . الآخرين . (١٠٢)

فمن خلال تمثيل الادوار يكتسب المشتركون فيها والملاحظون لها ـ على حد سواء ـ بصيرة بديناميات العلاقات الانسانية ، وقد يرون أفعالهم واتجاهاتهم وكذلك أفعال واتجاهات الآخرين في ضوء جديد . ويكتشف أعضاء الجماعة عن مخاوفهم واحباطاتهم حينما « يدعون » أنها تنتسب لغيرهم .

جـ ـ **فك الجماعة :** في كثير من الحالات يمكن التصدي لانتشار الوباء الاجتماعي في الجماعة كلها اذا لجأت القيادة الى فك الجماعة وتجزئتها الى جماعات فرعية . في هذه الحالة قد تتمكن القيادة من اقامة الحواجز أمام تسرب عوامل التفكك الاجتماعي ومحاصرتها وعزلها . فعلى سبيل المثال ، الطالب أو العامل الذي يقوم بدور المحرض للشغب في جماعة العمال أو الطلاب قد يدرك عدم معقولية سلوكه في حضور مجموعة صغيرة من زملائه .

د ـ **المناقشة الجماعية :** تستطيع القيادة أن تستخدم أسلوب المناقشة الجماعية لتحسين سلوك الجماعة وتعديله . وفي ذلك تشترك القيادة وأعضاء الجماعة في تحمل مسئولية مواجهة المشكلات التي تواجههم جميعا . وتعرف الطريقة التي تسمح للجماعة بمناقشة السلبيات والصعوبات تحت اشراف وتوجيه القيادة بمصطلح « التصريف » ventilation . وهي عملية تتطلب بصفة عامة اتجاها متسامحا لكي يشعر الاعضاء بالحرية في تصريف مشاعرهم المتعلقة بكل ما يجري في الجماعة ، حتى حينما تمتد شكواهم الى قياداتهم .

ولكن ليس التصريف بالعملية البسيطة ، لأن مجرد اخراج المشاعر والنزعات المدفونة قد يؤدي الى مزيد من استثارة القلق ، وقد تصدم القيادة وأعضاء الجماعة بالحقيقة . ومن شأن المناقشة الحرة بين الاعضاء ، خاصة اذا كان هناك صراع داخلي في الجماعة ، أن تزود القيادة ببصيرة عن ديناميات الجماعة ، وأن تساعد الاعضاء على التبصر بأسباب سلوكهم وصعوباتهم .

تفيد أساليب التصريف هكذا في المساعدة على تعيين مصادر المشكلات ، وعلى تحديد طرق البناء . وفي التصريف لا تعد هناك ضرورة للاستجابات الدفاعية ، فأمام كل فرد فرصة

---

101. Chesler, M., & Fox, R. **Role-playing methods in the classroom.** Chicago : Science Research Association, 1966.

102. Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **Journal of Child Psychiatry**, 2 (1952, 302-329.

متاحة للنظر فى المشكلة ولمقاسمة المسئولية والاسهام فى الحل . ولكن الجماعة لا تستطيع مناقشة وحل المشكلات بفاعلية ، وخاصة السلوكية منها ، الا اذا كان هناك تحديد وفهم واذعان لمعايير السلوك المقبول فى الجماعة لدى كل عضو فيها . واعظم معايير الجماعة فاعلية تلك التى يشترك اعضاؤها فى وضعها واقرارها ، بسبب احساسهم بالمسئولية نحوها وبالتوحد معها .

• • •

والخلاصة أن الاتصال الناجح مع النفس ومع الآخرين ينطوى على امكانات النماء والارتقاء للفرد وللجماعة : ففى الاتصال خبرات التعلم الباعثة على النمو ، وتقويم السلوك وتصحيحه بالتغذية الراجعة ، واحساس خلاق بالذات وبالآخرين وبالجماعة الاجتماعية ، وتوظيف لطاقات الفرد والجماعة فى علاقات ادوار متبادلة ترتقى بالتأييد والتدعيم للآخر وبالتوجه الانجازى كاسلوب حياة مميز للفرد ولجماعته .

الاتصال الناجح اذن قوامه « الاقتدار » أو « التمكن » الفعال للفرد من نفسه ومن تفاعله مع الآخرين ، كما أن الاتصال ذاته دالة هذا الاقتدار والتمكن . ويكون الاتصال هكذا أيضا بالنسبة للمجتمع ، هو لحمته وسداه .

* * *

المراجـع

اولا ـ المراجع العربية :

(١) ابراهيم الشنقوش ، طلعت منصور : دافعية الانجاز وقياسها . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٩ .

(٢) ارابو : علم اللغة ومشكلة الوعي . (ترجمة : طلعت منصور) . مجلة العلم والمجتمع . تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو . القاهرة ، العدد العشرون ، سبتمبر١٩٧٥ .

(٣) ر . بيرد : جان بياجيه وسيكولوجية نموالاطفال . (ترجمة : فيولا الببلاوي) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

(٤) ل . فيجوتسكي : التفكير واللغة . (ترجمة عن الروسية : طلعت منصور) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥ .

(٥) محمد عماد فضلي : سيبرنطيقا الجهاز العصبي. المجمع المصري للثقافة العلمية . الكتاب السنوي الاربعون ، ١٩٧٠ .

(٦) طلعت منصور : العلاقة بين التفكير واللغة . المجمع المصري للثقافة العلمية . الكتاب السنوي الخامس والاربعون ، ١٩٧٥ .

(٧) طلعت منصور : المدخل البيولوجي في دراسة النشاط النفسي . مجلة العلوم التربوية والنفسية . بغداد : الجمعية العراقية للعلوم التربوية والنفسية ، العدد الثاني١٩٧٨ .

(٨) طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

ثانيا ـ المراجع الاجنبية :

9. Alkire, A.A., Collum, M.E., Kaswan, J., & Love, L. Information exchange and accuracy of verbal communication under social power conditions. J. pers. soc. Psychol., 9, 310 - 203, 1968.

10. Amir, Y. Contact hypothesis in ethnic relations. Psychol. Bull., 71, 319-342, 1969.

11. Asch, S.E., Studies of independence and conformity. A minority of one againsta unanimous majority. Psychol. Monogr., 70, No. 9, 1956.

12. Asch, S.E. Effects of group presure upon the modification and distortion of judgments. In Maccoby, Newcomb, & Hartley (eds.) **Readings in social psychology.** (3rd ed). New York : 1958.

13. Ashby, W.R. The application of cybernetics to psychiatry. Journal of Mental Science, 100, 1954.

14. Atkinson, J.W., R.W., and Veroff, J. The effect of experimental arousaal of the affiliation motive on thematic apperception. **J. Abnorm. Soc. Psycho.**, 49, 405-410, 1954.

15. Atkinson, J.W., and A.C. Raphelson. Individual differences in motivation and behavior in particular situations. Journal of Personality, 24, 349-363, 1956.

16. Bauer, R.A. The obstinate audience : The influence process from the point of view of social communication **Amer. Psychologist**, 19, 319-328, 1964.

17. Bettinghaus, E. **Message preparation : The nature of proof.** Indianapolis : 1966.

18. Bunker, G. **Self ro[illegible] [illegible] tus congruence as interacting variables in dydactive behavior.** Berkley : Univ. Calif. Press, 1967.

19. Chesler, M., & Fox, R. **Role - playing methods in the** classroom. Chicago : Science Research Association, 1966.

20. Chomashy, N. **Language and mind.** New York : Harcourt, Harcourt, Brace, & Jovanovich, 1968.

21. Cofer, C.M., & Appley, M.H. **Motivation : theory and research.** New York : Wiley, 1964.

22. Coleman, J. C. **Psychology and effective behavior.** New York : Scott, Foresman & Co., 1969.

23. Combs A., & Snygg D. **Individual bahavior.** (Rev. ed.) New York : Harper & Row 1959.

24. Cooley, C.H. **Human nature and the social order.** New York : Scribners, 1902. (Reprinted by Free Press, New York, 1956)

25. Craig, R., Mehrens W., and Clarizio, H. **Contemporary educational psychology.** New York : Wiley 1975.

26. Dance, F.E.X. Toward antheory of human communication. In F.E.X. Dance (ed.) **Human communication theory,** New York : 1967.

27. De Cecco, J.P. The psychology of learnign and instruction. Englewood cliffs N.J: Prentice-Hall, 1968.

28. El-Koussy A.H. The role of education for a healthy world cultural life (with reference to the development of mass communication) **The Journal of the Faculty of Enuation** Ain Shams University, Cairo 2 1979.

29. Exline, R.V. Group climate as a factor in the relevance and accuracy of social perception. *J. abnorm. soc. Psych.,* 55, 382-388, 1957.

30. Festinger, L. **A theory of cognitive disonance.** New York : Harper & Row, Pub.. 1957.

31. Garry, R., & Kingsley, H.L. **The nature and conditions of learning.** (rdr ed.) Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1970.

32. Gerbner G. **Mass media and human communication theory.** New York : 1967.

33. Guilford, J.P. **Personality.** New York : Mc Graw-Hill, Inc. 1959.

34. Heider, F. Attitudes and cognitive organization. J. Psychol. 21, 107-112, 1946.

35. Heider, F. **The psychology of interpersonal relations.** New York : Wildy, 1958.

36. Hilgard, E.R., & Bower, G.H. **Theories of learning.** (3rd. ed.). New York : Appleton Century :- Crofts, 1966.

37. Hill, W.F. Learning theory and the acquisition of values. Psychol,. Rev.. 67, 317-331, 1960.

38. Hoffman, L.R., & Maier, N.R. Quality and acceptance of problem solutions by members of homogeneous and heterogeneous groups. **J. abnorm. sec. Psychol.**, 62, 401-407, 1961.

39. Katz, D., & Khan, R.L. **The social psychology organization.** New York : Wiley, 1966.

40. Klein, G.S. Need and regulation. In M.R. Jones (ed.). **Nebraska symposium on motivation.** Loncoln : Nebraska Univ. Press. 1954.

41. Kluckhohn, G., Murray, H.A., & Schneider, D.M. (eds.), **Personality in nature, society and culture.** (rev. ed.) New York : Knopf, 1953.

42. Knower, F.H. The present state of experimental speech-communication research. In P. Ried (ed.), **The frontiers in experimental speech communication research,** Syracuse, New York : 1966.

43. Lehmann. I.J. Autobiography of a freshman class. **Measurement in education, Yearbook of the National** Council on Measurement in Ecudation, 20, 115-123, 1963.

44. Lewin, K., Lippitt, R., & White, R.K. Patterns of aggression Behavior in experimentally created „social climates''. **J. soc. Psychol.**, 10, 271-299, 1939.

45. Lindgren, H.C. An Introduction to social psychology. New York : : Wiley : 1973.

46. Lindsley, D.B. **Psychophysiology and motivation.** In M.R. Jones (ed.). **Nebraska** symposium on motivation. Lincoln : Nebr. Univ. Press, 157.

47. Lonton, R. **The study of man.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1936.

48. Lippitt, R., & White, R. The „social climate'' of children's groups. In R.G. Barker, etal. (eds), **Child behaviour and development.** New York : Mc Graw-Hill Co., 1943.

49. Loree, M.R. **Psychology of education.** New York : The Ronald Press Co., 1970.

50. Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed., 1970).

51. Mc Clelland, D.C., et al. The projective expression of needs. J. exp. Psychol., 39, 242-255, 1949.

52. Mc Clelland, D.C., Atkinson, J.W., Clark, R.A., & Lowell, E.L. **The achievement motive.** New York : Appleton-Cent.Crofts, 1953.

53. Mc Clelland, D.C. **The achieving society.** Princeton, N.J., : Van Nostrand, 1961.

54. Mc Luhan, M. **Understand media ; the extension of man.** New York : Mc Graw-Hill, 1964.

55. Mc Luhan, M. **The medium is the message.** New York : Benton, 1967.

56. Matarazzo, J.D., etal. Speech durations of astronanut and ground communicator. **Science**, 143, 1964.

57. Matarazzo, J.D., etal. Interviewer influence on durations of interviewee silence. **J. exp. Res. Press.**, 2, 59-69, 1967.

58. Miller, D.R. The study of social relationships : situation identity, and social interaction. In S. Koch (ed.), **Psychology : a study of a science.** vol. 5. New York : Mc Graw-Hill, 1963.

59. Miller, G.A. **The psychology of communication.** Pelicon Books, 1974.

60. Miller G.A. **Speech communication : A behavioral approach.** Indianapolis, 1966.

61. Miller, G.A., & Mc Neill, D. Psycholinguistics in Lindzey & Aronson (eds.), **The handbook of social psychology,** vol. 3. 2nd ed. Readings, Mass. Mass : Addison Wesley, 1969.

62. Morse, C.W. **Psychology and teaching.** Bombay : T.B. Taraporevala Sons & Co., 1970

63. Murray, H.A. **Explorations in personality.** New York : Oxford Univ. Press, 1938.

64. Nuttin, J. Consciousness, behavior, and personality, **Psychol.,** 62, 349-355, 1955.

65. Newcomb, T.M. **Personality and social change.** New York : Dryden, 1943.

66. Newcomb, T.M. An approach to the study of communicative acts. Psychol. Rev., 60, 393-404, 1953.

67. Newcomb, T.M. The acquaintanceship process. New York : Holt, Rinehart, & Winton, 1961.

68. Osgood, C.E. Exploration in semantic space. J. Soc. Issues, 27, 1971.

69. Osgood, C.E., etal. The measurement of meaning. Urbana : U. of Illinois Press, 1957.

70. Plog, S.C. A literacy index for the mailbag. J. appal. Psychol. 50, 86-91, 1966.

71. Redi, F. **When we deal with children.** New York : Free Press, 1966.

72. Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **Journal of Child Psychiatry,** 2, 302-329, 1952.

73. Rotter, J.B. **Social learning and clinical psychology.** Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall Inc., 1954.

74. Ruesch, J. Synopsis of the theory of human communication. **Psychiatry,** 41, 1953.

75. Ruesch, J. Values, Communication, and Culture. In Ruesch, J., & Bateson, G. (eds.), **Communication : The social matrix of psychiatry.** New York : Norton & Co., 1968.

76. Sarbin, T.R., & Allen, V.L. Role theory. In G. Lindzey and E. Aronson (eds.) The Handbook of social psychology. vol., I., (2nd ed.), Reading, Mass. : Wesley, 1968.

77. Sargent S.S. **Concpetions of role and eto in contemporary psychology.** New York : Harper 1951.

78. Sears, R.R. Success and failure : A study of motility. In McNemar & M.A. Merrill (eds.), **Studies in personality,** New York : Mc Graw-Hill 1942.1942.

79. Sears, R.R., et al. **Patterns of Child rearing.** New York : Harper & Row Pub. 1957.

80. Schramm, W. Communication research in the United States. In **The Science of human communication.** New York 1963.

81. Sereno K.K. & Mortensen, C.D. **Foundations of communication theory.** New York : Harper & Row Pub. 1970.

82. Shannon, C. & Weaver W. **The mathematical theory of communication.** Urbana 1949

83. Sheviakov, G. V. & Redi F. Discipline for today's children and youth. Washington D.C. : National Education association 1956.

84. Shipley T.E. & Veroff J. Aprojective measure of need for affiliation. **J. exp. Psychol.** 43, 349-356, 1952.

85. Slobin, D.I. **Psycholinguistics.** Chicago : Scott Foresman 1971.

86. Smelser, W.T. Dominance as a factor in achievement and perception in cooperative problem solving interactions **J. abnorm. soc. Psychol.,** 62 535-542 1961.

87. Smith R. **General models of communication,** Communication Research Center Purdue University 1962.

88. Sullivan H.S. **Conceptions of modern psychiatry.** Washington D.C. : William Alanson White Psychiatric Foundation 1947.

89. Thayer, Lee. On theory building in communications some conceptual problems, **Journal of communication,** 13 217-235 1963.

90. Thayer, Lee. **Communication : Concepts and Perspectives.** Washington 1967.

91. Triands, H.C. Loh W.D. & Levin L.A. Race status quality of spoken English and opinions about civil rights as determinants of interpersonal attitudes. **J. pers. soc. Psychol.,** 3, 468-472, 1966.

92. Westley, B., & McLean, M.A. conceptual model for communication research. **Journalism Quarterly,** 34, 31-38 1957.

93. Weiner N. **The human use of human beings : cybernetics and society.** Boston : Houghton Mifflin 1950

94. Wight A.W. Participative education and the inevitable revolution. **Journal of creative behavior,** 4, 234-282, 1970.

95. Ziller, R.C., Behringer, R.D., & Goodchilds, J.D. Group creativity under conditions of success or failure and variation in group stability. **J. appl. Psychol., 46, 43-49, 1962.**

* * *

ماهية التحرير الاعلامى

عبد العزيز شرف

دكتور عبد العزيز شرف ـ المحرر الادبي لجريدة الاهرام ـ استاذ الاعلام بجامعة القاهرة ـ (جريدة الاهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة) .

(« يسعى التحرير الاعلامى دائما الى الاجابة عن سؤالين اساسيين هما : ماذا نقول ؟ ـ وكيف نقول .. »)

قد لاتكون هناك كلمة ابتعدت عن معناها الاصلي عبر التاريخ ، واستخدمت فى دلالات مختلفة ، مثل كلمة « الحرية » وهي الكلمة التي تهيىء للانسان الحرية فى مختلف مجالات حياته الروحية ، فنيا وعلميا ، وحرية الممارسة الخلاقة في ميادين الاعلام والثقافة .. ولكن الانسان لايستطيع ان يعيش داخل مجتمع ويكون منفصلا عنه ، كما أن القدرة على الابداع الفني تتطلب سنوات طويلة من الصقل والمران .

وهنا يبحث « المحرر » فى وسائل الاعلام عن « حريته » فى تقليد الاشكال المأثورة عن المحررين القدامى ، وفى ابتكار اساليب وأشكال جديدة ؟ وهل يتجه المحرر الى الاعتماد على الاسس العلمية والسيكولوجية التي اكتسبها من ممارسته هو للمهنة ؟

ان المحرر يجب عليه ان يبدأ بالاشكال التحريرية المأثورة ، ولكن حرية الممارسة الخلاقة تتيح له بعد ذلك ان يطور ويجدد من خلال رؤياه الذاتية وملاحظاته ، فى ضوء المأثور من جهة ، وفى ضوء ماتوصل اليه علماء النفس من جهة اخرى .

ويمكن ان تصبح محررا اكثر نجاحا لو انك قمت بتحليل ما تكتب فى ضوء النظريات المسبقة اى ان تتسائل دائما : لماذا كتبت هذا « الخبر » بالذات وبهذه «الكيفية» دون غيرها ؟ .. وربما تصبح ناجحا اكثر فى المستقبل في تكييف تجاربك وممارساتك وفقا للمتغيرات الاجتماعية والتكنولوجية التي تؤثر فى قراءة الاخبار . (١)

---

(١) Chilton R. Bush : Newswriting and Reporting, pesnsyluania 1972.

وتأسيسا على هذا الفهم ، فاننا نسعى ـ بداءة ـ الى التعرف على ماهية التحرير الاعلامى وليس بخاف علاقة التحرير بالاعلام ، وفى ذلك مفتاح التعرف على الماهية ، حيث يختلف مفهوم التحرير الاعلامى عن مفهوم التحرير الصحفى التقليدى ، فمنذ الحرب العالمية الثانية أعطى التغير التكنولوجى والاجتماعى معنى جديدا لتعبير قديم ، الا وهو « وسائل الاعلام » ففى وقت من الاوقات كانت كلمة « صحافة » كافية لتعريف ووصف وسائل الاتصال . ويعتبر قاموس « ويبستر » من المصادر الاساسية التى عرفت الصحافة بأنها « عملية الادارة والتحرير او الكتابة للدوريات ، او الصحف ، وهى ايضا الدوريات ، » او الصحف بالمعنى الجمعى » . فالصحافة اذن كانت كلمة عامة لوصف الوسائل فى تلك السنوات التى كانت فيها معظم الاتصالات تتم بوساطة المجلات والصحف . اما اليوم فاننا نستطيع ان نتحدث عن وسائل الاتصال ، او وسائل الاعلام ، وهما اصطلاحان اكثر دقة من اصطلاح « الصحافة » حينما نشير الى الوسائل الاخرى غير الصحف والمجلات . وكل اتصال ـ بطبيعة الحال ـ يستخدم وسيلة اى انه يلتزم باستعمال قناة للارسال . فالاوراق و المذكرات ذات العناوين المستخدمة فى المراسلة والموجات الصوتية المستخدمة فى المحادثة تعتبر قنوات او وسائل . غير انه فى الاعلام ، تصبح المؤسسة باكملها حاملة للرسالة ـ كالصحيفة ـ او المجلة او محطة الاذاعة ـ وهى تستطيع حمل رسائلها الى الالاف او الملايين من الناس فى وقت واحد تقريبا . وهى تتعرض ايضا للمشكلات التى تجابهها بوصفها مؤسسة اجتماعية ، كالمراقبة ، والقيود الحكومية ، والدعم الاقتصادى وغيرها . (٢)

وماهية التحرير الاعلامى ترتبط باصطلاح الاعلام ، الذى يمكن تعريفه احيانا بطريقتين (٣) هما : الاتصال عن طريق الوسائل والاتصال بالجماهير .. ومع ذلك ، فالاعلام لا يعنى الاتصال بكل شخص ، فالوسائل تنحو نحو اختيار جماهيرها ، كما ان الجماهير تختار من بين الوسائل ... وعلى ذلك فان التحرير الاعلامى يعنى اعداد رسائل واقعية موحدة بحيث تصل الى اعداد كبيرة من الناس يختلفون فيما بينهم من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، وينتشرون فى مناطق متفرقة ، ويعنى بالرسائل الواقعية ـ فى التحرير الاعلامى مجموعة الاخبار والمعلومات والتعليمات التى تدور حول الاحداث ، وتنشرها الصحف ، وتذيعها الاذاعة وبقية وسائل الاعلام .

(٢ ، ٣) وليام ل . ريفرز وزميلاه (ترجمة الدكتور ابراهيم امام) : وسائل الاعلام والمجتمع الحديث ص ٢٠ وما بعدها .

ومن اهم الخصائص المميزة للتحرير الاعلامي انه ذو اتجاه واحد غالبا وقلما يكون هناك طريق سهل او سريع للقارىء ، اوالمشاهد ، او المستمع ، لكي يرد او يسال اسئلة او يتلقى ايضاحات ، اذا هو احتاج اليها . وبالتالي فهذه الخصائص تنبع من ان الاعلام يتضمن قسطا كبيرا من الاختيار . فالوسيلة ، مثلا تختار الجمهور الذي ترغب في الوصول اليه (٤) . فصحيفة « الاهرام » تستهدف جمهورا مثقفا وحضريا من القراء وصحيفة « تعاون الفلاحين » تستهدف المزارعين في أنحاء مصر . أما « الاخبار » و « اخبار اليوم » فتتوجهان الى الجماهير الشعبية . وهناك طبعة عربية من « اخبار اليوم » تستهدف الجماهير العربية ، ومن الملاحظ في مصر ان صحف الصباح تفوق في انتشارها صحف المساء .

انواع التحرير :

ولم تعد مهمة الاعلام محدودة في الصياغة الانشائية ، بل تعدتها الى جميع العناصر التي يشملها الاعلام ، ولقد كانت بهذا الوضع قبل ان تتطور فنون الاعلام الى الحد الذي وصلت اليه اليوم ، والاتجاه يسير نحو اعتبار الكلمة المطبوعة و المذاعة مجرد عنصر من عناصر التحرير الاعلامي ، خاصة وان الاراء والافكار وعلى الاخص تلك التي تتصل بالاحاسيس يمكن ان تنقلها فنون الاعلام عن طريق الرسم واللون والصوت والصورة . ولقد اكتسب التحرير الاعلامي معنى اعم فأصبح ينطوي على الرسالة الاعلامية بجميع عناصرها .

ونحن نعرف ان الكتابة العربية الصادرة منذ نشأتها الى الان بعاملين كبيرين هما : ديوان الانشاء في العصر الوسيط ، وظهور الصحافة ووسائل الاعلام في العصر الحديث ، ولقد وجدنا في تراثنا الاسلامي ، ابا العباس القلقشندي (٥) – يتعرض في موسوعة صبح الاعشى لفنون شتى من التحرير الرسمي او الديواني ، كفن تحرير (الولايات) وتحرير (العهود والمبايعات) وتحرير (الايمان) جمع يمين ، وتحرير (كتب الامان) وتحرير (عقود الصلح) وتحرير (كتب الهدنة) وتحرير (الوصايا الدينية) التي تلقى باسم الخليفة من اعلى المنابر العامة ، وهكذا الى مايقرب من عشرين فنا .

ويتعرض التحرير الصحفي الحديث لفن تحرير المقال بانواعه المختلفة ، وتحرير (العمود) بصوره المتعددة ، وتحرير القصة الخبرية داخلية كانت أم خارجية ، وتحرير (التحقيق الصحفي) و « الماجريات » الخ .

---

(٤) المرجع السابق ص ٣١ .

(٥) د . عبد اللطيف حمزة : القلقشندي في كتابه صبح الاعشى ص ٨ .

ويمكننا اليوم ان نتحدث عن التحرير الاعلامي في وسائل الاعلام جميعا ، ونتخذ منه مصطلحا عاما عندما نشير الى التحرير في وسائل اخرى غير الصحف والمجلات . على اننا يمكن ان نميز بصفة عامة بين ثلاثة انواع من « التحرير » يمثل كل منها «نوعا» قائما بذاته وهذه انواع تقوم على اساس من تصنيف الاتصال وفقا لاهدافه ووظائفه ، ومايحاول نقله للجمهور . وتقوم هذه الانواع على اساس من الفهم القائل بان اللغة في حقيقتها ليست سوى نشاط انساني يتمثل من جانب ، في مجهود عضلي يقوم به فرد من الافراد ، ومن جانب آخر في عملية ادراكية ينفعل بها الفرد او افراد آخرون . (٦) فاللغة امر وسط بين الغناء والكلام ، او بين مجرد التنغيم الصوتي ، وبين كونها وسيلة لنقل الافكار والمعلومات بين فرد وآخر . ولو صح ـ كما يقول اوتوجسبرسن (٧) ـ ان هذا هو الوضع المبكر للغة فليس هنالك ما يمنع من أن تكون اللغة البشرية قد تطورت في العصور اللاحقة لطور اجعل منها وسيلة دقيقة للتفاهم ونقل الافكار .

فالتحرير الاعلامي اسلوب من اساليب الاتصال بالجماهير ، التي تضم : التحرير الاقناعي والامتاعي التعبيري ، وهو يتوسل بعدة وسائل يصل من خلالها الى الجمهور . ومن هذه الوسائل الصحافة والمطبوعات ، والاذاعة والتليفزيون والسينما ، ولكل وسيلة ـ من هذه الوسائل خصائصها ومميزاتها ، والتحرير الاعلامي بين التحرير التذوقي الجمالي المستعمل في الادب والفن ، والتحرير العلمي والنظري التجريدي المستعمل في العلوم والتحرير الاقناعي المستعمل في الاعلان والدعاية والعلاقات العامة ، هو ـ بطبيعة الحال ـ كما تشير الدلالة العربية «اوسطها واطيبها» ، لان التحرير الاعلامي يتوسل بما يسميه المحدثون (٨) : المستوى العلمي الاجتماعي العادي في التعبير ، وهو الذي يستخدم في وسائل الاعلام .

واذا كان التحرير يعني دائما امرين هما التفكير من جهة ، والتعبير من جهة اخرى ، فان تعريف التحرير الاعلامي يذهب الى انه جزء من عملية الاعلام ، يقصد به اعداد «الرسالة الاعلامية» التي تنتقل الى الجماهير عن طريق احدى وسائل الاعلام ، بهدف تزويد الناس الاخبار الصحيحة ، والمعلومات السليمة ، والحقائق الثابتة ، من خلال عملية عرض فني تساعد الناس على تكوين راي صائب في واقعة من الوقائع او مشكلة من المشكلات ، بحيث يعتبر هذا الراي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم . ومعنى ذلك ان غاية التحرير الاعلامي هي تيسير عملية الاقناع عن طريق عرض المعلومات والحقائق والارقام والاحصاءات ونحو ذلك . ويقدم اوتوجروت تعريفا للاعلام يشمل التحرير بالضرورة ، يقول :

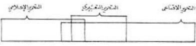
« الاعلام هو التعبير الموضوعي عن عقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت » . (٩)

(٦ ، ٧) اوتوجسبرسن : (ترجمة د . عبد الرحمن ايوب) : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥ ، ٦ .

(٨) د . ابراهيم امام : دراسات في الفن الصحفي ص ٤١ .

(٩) د . ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ص ١٢ .

وعلى هذا الاساس ، فان الكلمة المكتوبة والمنطوقة تمثل القاسم المشترك الاعظم بين هذه الانواع ، ولذلك نجد ، رغم التمييز التصنيفي بينها ، ان هناك تداخلا بين هذه الانواع التحريرية وبعضها البعض :



ومن هذا الشكل يبين لنا ان هذه الانواع التحريرية هى :

١ ـ التحرير الاقناعى Parsuasine
٢ ـ التحرير التعبيرى Evocatine
٣ ـ التحرير الاعلامى Informatine

وان هذه الانواع الثلاثة يتداخل بعضها في البعض الآخر على طول السلم التحريرى على الرغم من ظهور انواع يستقل كل منها عن الآخر ، ولكن هذا التصنيف التعسفي انما يقصد به التأكيد على وظيفية كل فن من فنون التحرير .

فالكلمة المنطوقة او المكتوبة ، تكون النمط الاعلامى اذا كانت الوظيفة السائدة في نوع التحرير تضيف الى معرفة الجمهور معلومات جديدة بسيطة ، من خلال النظرية العملية للجمهور ، او التقرير الاعلامى الخالص حول حادث سيارة سوف يحدد ما هو معروف من اسباب الحادث وكيفية حدوثه ، ونتائجه او آثاره الخ . وليس في مقدورنا ان نتكهن بما سيحدثه الحادث من اثر في حياة القارىء ، او اقناعه بشيء ما ، على الرغم من ان التقرير قد يؤثر تأثيرا عرضيا على بعض القراء .

فالتحرير الاعلامي تعبير موضوعي ، وابتعاد تام عن الذاتيه التى يتصف بها الاديب كما في النمط التعبيرى من التحرير ـ مثلا . فالاديب ـ كما يقول الدكتور امام ـ يعنى بنفسه ، ويقدم لنا ما يجول بخاطره ، ويسجل مايراه وفقا لرؤيته الخاصة ، وبرموز تنم عن ثقافته وعقليته وهو في هذا الصنيع انما يصف النفس الانسانية ويتعمق اسرارها ، ويكشف عن حسناتها وسوآتها ، ويكون لاوصافه صدى في نفوس القراء من كل جنس وفي كل عصر ، ماداموا قادرين على قراءته وفهمه ، والاستفادة منه . فالاديب حر في اختيار ما يقول ، والقراء احرار في قراءة ما يكتب الاديب .

ولكن التحرير الاعلامي ملتزم بالموضوعية ،لانه يعكس مشاعر الجماعة وآرائها ، وهو مقيد بمصلحة المجموع . وفي حرية الادب وذاتيةالتحرير التعبيري ، وتقيد التحرير الاعلامي وموضوعيته يقول عبد القادر حمزة :

« يجب أن يكون الصحفي (او الاعلامياليوم) حاضر البديهة . حاضر الجواب على كل ما يدعى لان يكتب فيه ، وهو في كل ذلكلايختار ـ كما يفعل الاديب ـ بل الحوادث هي التي تختار له كل يوم الوانا جديدة ، وتدعوه الىان يتجه اليها ، وينتهي به الامر الى أن يتسع افق الادب والعلم والخبرة عنده فيصبح وكأنهالموسوعة ، بينما يكون الاديب بجانبه وكأنه كتاب في فن معين » .

فالتحرير التعبيري اذن يبحث عن الحقيقةالخالده على المستوى الجمالي ، في حين أن التحرير الاعلامي فن موضوعي يقرر الواقعويرصده بصدق وامانه وفن . لانه يقوم على الوقائع المشاهدة ، وينأى عنالمبالغات والتهاويل. وهو يميط اللثام عن الاحداث الآنية فورا ، بحيث يجعلها ملكا مشاعا للامة . ان واجبالتحرير الاعلامي هو واجب المؤرخ بنفسه ـ أن يبحث عن الحقيقة ويقدمها ـ فوق كل شيء،وأن يقدم الى جمهوره لا تلك الاشياء التي يتمنى من السياسة ان يقدمها اليهم ، وانما ـ بتعبير بوند ـ الحقيقة كأوثق ما يستطيع تقديمها .

وكما يبين من الشكل المتقدم فان التداخل بين أنواع التحرير امر يجعل من العسير التمييز بينها . ولذلك يجد الجمهور العادي نفسه مرتبكا في التمييز بينها . فهو يجد انتاج كبار الكتاب المعاصرين في جرائده ومجلاته ، ويدعوهصحافة ، وبعد مضي أشهر يجد المادة نفسها مغلفة بين دفتي كتاب ويدعوها أدبا وتقفالتعاريف عاجزة ـ كما يقول بوند ـ دون تقديم العون الكافي له . فان « الادب » كما يقول جورجسانتيانا «هو عملية تحويل الاحداث الى أفكار» . ويحاول جميع الكتاب في فضليات الجرائدوالمجلات ووسائل الاعلام والاتصال بالجماهير اتباع النهج نفسه . أما جيمس م . بري فقدجزم بأن الصحافة هي ذلك النوع من الكتابة التي تشرف صاحبها بعد أن يتخلى عنها . وكانيعني ذلك الجيش الضخم من الادباء الذين ابتدأوا ككتاب في الصحف الدورية ثم تحولوا الى« الادب » والتمييز هنا لايقوم على أساس الطريقة والاسلوب . فان افضل ما يكتب فيعصراحيانا هو ما يكتب للجرائد والمجلات . كما يقول بوند أيضا ، وقلما نستطيع ان نجعل المادةاساسا للتمييز على رغم الفرق الواضح الذي يبدو بين المقالات الصحفية والكتابات الادبيةوالفلسفية والتاريخية . اما الفرق الاساسي فهو يسير كما تقدم ، الى الغرض او الوظيفةالتي يرمي الكاتب الى تحقيقها . فالمؤلف يعبر عن افكاره وتجاربه الخاصة ، والاعلامي يعبر عنافكار المجتمع وتجاربه ، ثم يمكن للاديب الا يكون مرهونا بزمن ، بينما نجد ان التحرير الاعلاميمقيد بالظرف الزماني .

ان قائمة الصحفيين المجيدين الذيناسهموا في صنع الادب الجيد قائمة طويلة ، والقائمة التي تشكلت منهم في انجلترا خلالالقرنين الماضيين تحملنا على الاعجاب . فهي تبدأ بدانييل ديفو ، وجوزيف اديسون ، وستيلوسويفت . ويدخل فيها ديكنز وثاكري ، وتتضمن كبلنج ، وباري ، وأرنولد بينيت ،وجالسوروي ، وكشسترتون ، وولز ، وشو .

وفي مصر والبلاد العربية قائمة موازية تبدأ بداية طيبة برفاعة رافع الطهطاوي وتدخل فيها اسماء مثل الاستاذ الامام محمد عبده والمويلحي ، وعبد الله نديم ، وفريد وجدي واحمد لطفي السيد والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر والمازني وتوفيق الحكيم ، وكتاب معاصرون مثل يوسف السباعي ونجيب محفوظ واحسان عبد القدوس ، وغيرهم كثيرون .

ومن هاتين القائمتين الجزئيتين يتضح ما تستطيع ممارسة الصحافة النظامية أن تفعله من حيث تعزيز المواهب الادبية للصفتين المرغوب فيهما جدا في الاسلوب ، وهما الوضوح والقوة . ولقد اقترح مرة سيمون ستروتسكي في مضمار التعليق على ترك الصحافة والانقطاع للادب ، قائلا : « يكون شيئا ممتازا للاديب الامريكي ، ولو من الناحية الشكلية على الاقل ، لو ان المؤلفين يرسلون من جديد لتلقي دورة دراسية شاملة على مستوى المتخرجين تحت اشراف رئيس قوي بقسم الاخبار المحلية، عندئذ تستقل كثيرا نسبة الكتابة الجميلة التي تستدر اعجابا بكل هذا الاستمرار » .

اما التحرير الاقناعي ، فانه قد يتوسل باساليب التحرير الادبي والتحرير الاعلامي ، ولكنه يتوسل بهذه الاساليب بهدف التاثير على الناس عن طريق النواحي العاطفية والانفعالية لاقناعهم بوجهة نظر معينة ، او براي او بفلسفة محددة .

وهكذا نجد ان التقسيم الوظيفي للتحرير هو انسب انواع التصنيف العلمي ، على الرغم من ان الفصل بين الاهداف المعرفية التي يؤديها التحرير الاعلامي من حيث توصيل المعلومات والخبرات الى الجمهور ، وبين الاهداف الاقناعية ، واهداف التحرير التعبيري وهي اهداف جمالية في المحل الاول ، فان الفصل بين هذه الاهداف قد لا يتحقق في الحياة العملية . فالتحرير الاعلامي من حيث وظيفته الاعلامية لا يمكن ان يحقق اهداف ما لم يصحبه بعض الجوانب الاقناعية ، كما ان التحرير الادبي عادة ما يتضمن بعض جوانب المعرفة وجوانب الاقناع.

ويبين التداخل بين انواع التحرير كذلك ، حين تنظر اليها كوسائل منقولة عن طريق وسائل الاتصال بالجماهير ، وتثير اهتمام اكبر عدد من الناس ، ولهذا فقد بذلت جهود كبيرة لبحثها ، وفي الفصل الذي كتبه فرانكلين فيرنج Fearing بعنوان التاثير الاجتماعي لوسائل الاتصال الجماهيرية ، في الكتاب السنوي الثالث والخمسين (الجزء الثاني) للجمعية القومية لدراسة التعليم ، نجد الشواهد المتعلقة بهذا الجانب : ـ

أ ـ ان الاستجابات لمضمون وسائل الاتصال بالجماهير تتحدد بواسطة عدد كبير من العوامل ، والمضمون ليس الا واحدا منها .

ب ـ على وجه التخصيص فان علاقة المفسر ويقصد به فيرنج : الجمهور مستقبل الرسالة ، بالنسبة للمضمون لها الخصائص المميزة للادراك الذي يحدد منهجه نظام « الحاجة ـ القيمة ـ الدافع » الخاص بالمستقبل ، والموقف الذي تحدث فيه عملية الاتصال ، والمضمون نفسه .

جـ ـ ان نتائج التعرض لمضمون معين متباينة جدا ، ولا يمكن التنبؤ بها في اية حالة خاصة الا على اساس المعرفة الشاملة بالمضمون نفسه ونظام « الحاجة ـ القيمة » ـ بالنسبة للمفسر او مستقبل الرسالة التي تحوي المضمون والخصائص المميزة للموقف الكلي كما يدركه هذا المستقبل .

د ـ ان نتائج التعرض لمضمون رسالة اعلامية قد يأخذ وقد لا يأخذ صورة السلوك الصريح .

هـ ـ مهما كانت صورة الاستجابة للمضمون صريحة او غير صريحة evert or covert فهي تتميز دائما بأنها تخدم الحاجات النفسية الاجتماعية لمستقبل الرسالة .

و ـ يعكس مضمون رسائل الاتصال الجماهيري ـ بصفة عامة ـ نظم القيمة السائدة في المجتمع الذي تحدث فيه الاتصالات .

ومن بين النتائج المقبولة للاتصالات الجماهيرية يفترض بصفة عامة ما يأتي : (١١)

١ ـ تكامل المجتمع Integrating Society تنمية الاتفاق بين افراده وجماعاته ، على السياسات الاساسية .

٢ ـ تثبيت المجتمع Stabilizing Society بتأييد الاغلبيات ضد الاقليات المخالفة في الرأي .

٣ ـ تيسير الادارة العامة Facilitating Public Administration بتعريف المسؤولين بمشكلات المجتمع ، وتعريف المواطنين بالسياسات والاجراءات الرسمية .

٤ ـ تدعيم قوى الدفاع القومية باعلام المواطنين بالتهديدات الخارجية والداخلية المواجهة للامن القومي .

٥ ـ توسيع مجال الحديث او التخاطب بترويج الاصطلاحات الجديدة المتعلقة بالنواحي التكنولوجية والثقافية .

٦ ـ تدعيم العادات الاجتماعية مثل آداب السلوك واساليب المحافظة على الصحة النفسية .

٧ ـ اثارة البدع وموضات الازياء .

ومن خلال هذه الشواهد المختلفة للتأثير الاجتماعي لوسائل الاعلام والاتصال ـ بالجماهير ، تتبين التداخل الوظيفي بين انواع التحرير المختلفة من حيث تحقيق هذا التأثير .

على أن التحرير الاعلامي يتميز بتأثيره الكبير في الرأي ، وهو تأثير يفوق تأثير التحرير الاقناعي ، بمعنى أن الاخبار قد تكون ذات قوة اكبر في تشكيل الاتجاهات العامة من المقالات والاعمدة

---

(١٠) امين مطوة : « الاتصال » مجلة الفن الاذاعي ع ٤٦ م ١٢ في يناير ١٩٦٩ .

السياسية ، والاخبار تسجل الاحداث ، وقد تغير الاحداث التى تقدمها اكثر مما تغيره انماط التحرير الاقناعي وهى : الاعلان والعلاقات العامة والدعوة المقصودة : كالمقالات الافتتاحيه ، والرسوم الكاريكاتورية والاعمدة والمقالات التفسيرية التى تؤدى بالقارىء الى الوصول الى استنتاج. وكذلك النمط الذى يراد به اساسا الترفيه او الاعلام بحيث يكون الاقناع منتجا فرعيا محتملا .

ويقدم هودلى كانتريل فى كتابة « قياس الراى العام » قاعدة عامة تقول : « ان الراى يتحدد عموما بالاحداث اكثر مما يتحدد بالكلمات ما لم تفسر هذه الكلمات ذاتها على انها حدث » ويشيف ويفرز وزميلاه الى ذلك ، ان الاحداث تنزع الى ترسيخ تغيرات الراى العام الناتجه عن الكلمات ، وقد يكون التغير فى الراى قصير العمر ما لم تسانده بعض الاحداث .

ولكن برنارد بيرلسون يذهب الى ان هذه القواعد العامة تستدعى تعليقين : أولهما انه يكون من الصعب التمييز بين الاحداث والكلمات ، فهل الخطاب الهام الذى يقدمه رئيس الجمهورية حدث ام مجرد كلمات ؟ وثانيهما ان كثيرا من لاحداث لا تحدث تاثيرها نتيجة حدوثها فحسب، وانما بمعاونه من الكلمات ايضا ، اى ان اهمية الحدث فى اقناع الجمهور قد تشحذ كثيرا من خلال التفسيرات التى يقدمها معلقو التليفزيون وكتاب الافتتاحيات والاعمدة السياسية .

وتتضمن الظروف التى تساعد التحرير الاعلامى على تحقيق التغير ما يأتي :

١ ــ عندما يكون الاتصال بالجمهور المخاطب مباشرة بواسطة وسيلة الاعلام ، وعندما يكون الجمهور متفتحا ذهنيا للموضوع .

٢ ــ عندما يركز مضمون واسلوب التحرير على الاحداث اكثر مما يركز على الآراء ، ــ وعندما تخاطب العاطفة اكثر مما يخاطب العقل ، وعندما يتم التحدث الى جمهور بلغته (استخدام المفهومات المألوفة لديه فى اطاره الدلالى) ، وعندما لا تحجز الرسالة الاعلامية اتصالات اخرى منافسة ، وعندما تتم مهاجمة الآراء المعارضة بصورة غير مباشرة .

٣ ــ عندما تكون الوسائل او القنوات المستخدمة ذات طابع شخصى Personal وموجهة الى قادة الراى ، ومتخصصة ، اى مركزة على الجماعات المقصودة موضع الاهتمام .

٤ ــ عندما يكون الموضوع (او المشكلة) موضع التحرير بعيدا زمانيا او مكانيا قليل الاهمية للشخصيات المتضمنة .

موضوع علم التحرير الاعلامى :

راينا ان اضافة صفة « الاعلامي » الى فن « التحرير » جعلته فنا متميزا بين فنون التحرير الاتصالية ، الاخرى ، او بلغة المناطقة فى الصلة بين المفهوم والما صدق ، نقول ان زيادة صفة « الاعلامى » الى فن « التحرير » من شانها تضييق نطاق الافراد الذين يصدق عليهم تصور « فن التحرير » كالتحرير الاقناعى او التعبيرى او الاعلامى ، وعلى العكس من ذلك اذا استبعدنا صفة « الاعلامى » من مفهوم « التحرير » فان هذه الانواع التحريرية جميعا تدخل فيه فيزداد بهذا

عدد الافراد الذين تصدق عليهم اللفظة وهذا ما يعبر عنه في صيغة عامة بقولهم : (١١) « في سلسلة من الحدود المشتركة التي يوجد بينهارابطة تداخل يتناسب الما صدق والمفهوم تناسبا عكسيا » .

وقد تعرفنا على ما هية التحرير الاعلامي ورأينا ان جوهره هو الاعلام ورواية الاحداث وتفسيرها باستخدام الاشكال والفنون التحريرية المختلفة . ووجدنا ان هذه الماهية تنص بالضرورة على ارتباط التحرير الاعلامي بالجمهور . ولذلك كانت اهم خصائصه معالجة الامور الصعبة بأسلوب سهل ، وتفسير الاحداث العظيمة بعبارات سلسة بسيطة ، وتعرفنا على التحرير الاعلامي عن طريق تمييزه عما عداه ، والدال على الماهية مميزا ايضا ، كما يقول المناطقة .

وهكذا يمكننا ان نعرف موضوع علم التحرير الاعلامي بالرجوع الى جوهره وهو الاعلام ورواية الاحداث وتفسيرها ، ونشر الاخبار والمعلومات الصادقة التي تنساب الى عقول الناس وترفع من مستواهم وتنشر تعاونهم من اجل المصلحة العامة ، فهو يخاطب العقول لا الغرائز . ولما كان التحرير الاعلامي ، يستخدم اسلوب الشرح والتفسير والجدل المنطقي فقد اخذت الدول ـ كما يقول الدكتور امام ـ تفضل كلمة « الاعلام » وتنبذ كلمة الدعاية ، على اعتبار ان الاولى تعبر عن الدقة والموضوعية والصدق .

وتدور ابحاث علم التحرير الاعلامي حول هذه المسألة ، ولذلك يعترضنا دائما هذان السؤالان اللذان يشكلان موضوع هذا العلم .

كيف نقول ؟

و

كيف نقول ؟

والاجابة عن السؤال الاول تتناول القواعد الخاصة بمادة الاعلام من حيث موضوعاته وافكاره، وملابساته ، كما ان الاجابة عن السؤال الثاني تقوم على طريقة التعبير عن هذه المادة وادائها في رسالة اعلامية .

ويجب ان نلاحظ ما اكد عليه البلاغيون(١٢) ـ من ان قوانين التعبير تشمل المادة او تمسها ، اذ كانت المادة مقياس العبارة وسبب نوعها ، فالاسلوب يختلف خبرا عنه موضوعا اعلاميا ، او تعليقا تفسيريا ، وكذلك دراسة المادة لا تخلو من القول في التعبير ، فالمادة لا تدرس في التحرير ـ من حيث انه : تفكير وتعبير ـ على انها شيء منفصل مستقل ، وانما يراعى انسبها ، وصلته باللغة التي تؤديه ، ومعنى هذا ان ركني التحرير الاعلامي يلتقيان كما نرى ، وقد يفترقان افتراقا جزئيا ، ومع ذلك فان الدراسة العلمية تبيح لنا ان نتناول كل جانب ونخصه بدراسة خالية فيه . وبذلك ينحصر موضوع التحرير الاعلامي في بابين او كتابين : الاسلوب ولغة التعبير الاعلامي .

---

(١١) دكتور عبد الرحمن بدوي : المنطق الصوري ص ٧٢ .

(١٢) احمد الشايب : الاسلوب .

الفنون الاعلامية من حيث ارتباطها بكل وسيلةمن وسائل الاعلام ، مع بيان كيفية التجسيد والتبسيط التى يقوم بها الاعلامى فى الصحافةوالاذاعة المسموعة والمرئية والسينما والوسائل التى تساعده على ذلك .

وتأسيسا على هذا الفهم ، نذهب الى انالتحرير الاعلامى علم وفن فى آن واحد ، ذلك ان التحرير الاعلامى كعلم يدرس الاسس النظريةوقواعد الكتابة والتنظيم لكل فن من الفنون الاعلامية، وهو علم وفن لانه يستقرىء ويستنبطويضع القواعد لتوجيه المحرر الاعلامى ويبين المناهج العلمية ، ولان الذين يقيدون بين هذهالقواعد انما يريدون تطبيقها فى وسائل الاعلام وذلك تقول ان هؤلاء يعالجون «فن » التحرير .فالعلم هو المعارف الانسانية فى أسلوب منسق ، والعلم هو هذه المعارف فىشكل عملى تطبيقى .وهناك كلام كثير فى الفرق بين العلم والفن ليس هنا موضع الخوض فيه . (١٣) وانما نذكر فىهذا الصدد ان تقدم العلوم دفع علماء الاعلام الى تغيير موقفهم من التحرير بوصفه فنا فحسب ،فقد وجدوا ان التحرير لا يفرض على المحرر فكرا وتعبيرا ، ومناهج تحريرية ومعنى هذا انهمادركوا ان مهمة علم التحرير الاعلامى الاساسية ليست فى وضع قواعد للتحرير الصحيح ، بلدراسة انواع التحرير الاعلامى الصحيح .

ويذهب هربرت ميز Herbert R. mayes (14)الى ان الاصل اللغوى الذى يوحد بين المحرر والناشر يرجع الى ان كليهما [illegible] فى التحريرالشخصى ، ويشبه المحرر بالبستانى الذى يقلب النبات الاخضر بابهامه ، معتمدا على مقدرته الخاصة التى تتطلب براعة فائقة . ويريد من ذلك ان يؤكد على أن التحرير فن ، مؤسسا رأيه على اساس انه حتى الآن لا توجد كلية للاعلام تمنح درجة الدكتوراه فى فن التحرير There is no college to offer a doctorate in editing وهو يشير الى ان التحرير الاعلامى فن تجريبى empirical art ولم يحظ بعد بدراسات علمية احصائية ، وهى اشارة تستوجب توجيه العناية الى الدراساتالتجريبية فى التحرير ، لكيلا يظل فنا بدهيا يعتمد على الخبرة والتجربة والبديهة فحسب .وحين نتفق على ان التحرير علم وفن معا ، فان ذلك يقتضى بالضرورة ، تطبيق اساليب العلمومناهجه ، على فن التحرير كما طبقت على غيره من الفنون .

التحرير والاتصال بالجماهير :

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن تعريفاصطلاح « التحرير الاعلامى » بطريقتين : الاولى الاتصال بالجماهير ، والثانية عن طريق الوسائل، وتعريف التحرير الاعلامى عن طريق ــ الاتصال بالجماهير يحدد نطاق مفهوم «الاعلام» كما تقدم ، او بعبارة اخرى فان الفارق بين مصطلحى : اتصال و « اتصالات » ، فالاتصالهو عملية الاتصال ، والاتصالات هى الوسائل

---

(١٣) راجع ــ احمد الشايب : اصول النقد الادبىص ٦٥ ط ٢ .

(١٤) Saturday Review (February 10, 1968 P,. 12.

التكنولوجية المستخدمة لتنفيذ هذه العملية .والاتصال ، هو حقيقة أساسية الوجود الانسانى والعملية الاجتماعية . بل ان الاتصال هو حامل العملية الاجتماعية ، وهو الذى يجعل التفاعل بين الجنس البشرى ممكنا ، ويمكن الناس من ان يصبحوا كائنات اجتماعية . وفى عملية الاتصال « تهدف » الى احداث تجاوب مع الشخص المتصل به . وبعبارة أخرى نحاول ان نشاركه فى استيعاب المعلومات او فى نقل فكرة او اتجاه . (١٥)

ويمكن القول أن التحرير الاعلامى بهذا المفهوم يحقق مفهوم البلاغة العربية التى تنبىء لغة عن « الوصول والانتهاء » ، يقال : بلغ فلان مراده اذا وصل اليه ، وبلغ الركب المدينة اذا انتهى اليها ، وابلغه هو ابلاغا ، ومنه قول ابى قيس بن الاسلت السلمى :

قالت ولم تقصد لقيل الخنى   مهلا فقد ابلغت أسماعى

اى قد انتهيت فيه وانعمت ، والبلاغ ما يتبلغ به ويتوصل به الى الشىء المطلوب ، والبلاغ ما بلغك وتقول « بلغت الرسالة » ، والبلاغ والابلاغ وفى التنزيل « الا بلاغا من الله ورسالاته » اى : لا اجد منجدا الا ان ابلغ عن الله ما ارسلنى به ، والابلاغ : الايصال ، وكذلك : التبليغ ، والاسم منه البلاغ . وفى الحديث : « كل رافعة رفعت عنا من البلاغ فيبلغ عنا » يروى بفتح اللام وكسرها ، وقيل من اراد من المبلغين . وبلغت المكان بلاغا . وصلت اليه ، وكذلك اذا شارفت عليه ، ومنه قوله تعالى : « فاذا بلغن أجلهن » اى قاربنه ، وقوله تعالى : « ان الله بالغ امره » وامر بالغ : نافذ يبلغ اين اريد به ، وبلغ من الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فى قلبه . (١٦)

وفى عملية التحرير الاعلامى نهدف الى احداث تجاوب مع القراء او المستمعين او المشاهدين ، او بعبارة اخرى نحاول ان نشركه فى استيعاب المعلومات اى نقل فكرة او اتجاه (١٧) فالتحرير الاعلامى يهدف الى « الابلاغ » وتحقيق « الاتصال » ، الذى يعرف قاموس « ويبستر Webbster » على انه « عملية يتم فيها تبادل المفاهيم بين الافراد وذلك باستخدام نظام الرموز المتعارف عليها » ومن اجل ذلك ينظر الى عملية التحرير الاعلامى على انها تتضمن تفاعلات متبادلة فى ارسال واستقبال الرسائل من جهة ، وفى تحرير وفهم تلك الرسائل من جهة اخرى ، ومن جهة ثالثة فى المشاركة والاستمتاع بأفكارها . وهذه التفاعلات قد تتشابه فى المراحل المتداخلة متضمنة الهندسة وعلم النفس والاجتماع . (١٨)

---

(١٥) الرجع السابق ص ٢٨ .
Wilbur Schranam ed., The process and Effects of Comm.

(١٦) شروح التلخيص جـ ١ ص ٧٢ م السعادة بمصر .

(١٧) Straues, G. and Sayles L : Personnal Huma Problems of Management fourth Printing PrintingHall, N. Y. P. 196.

(١٨) Wilbur Sekramm ed., The Process and Effects of Communication (1960). P. 3.

ومن أجل ذلك ننظر الى عملية التحرير على انها تتماثل مع نظرية الاعلام التى توصل اليها الرياضيون فى مجال هندسة الكهرباء ، من حيث ان « المحرر » معتبر « مرسلا » والجمهور « مستقبلا » ، فالمحرر يبعث « برسالة » محررة الى « المستقبل » برموز متفق عليها ، ويختارها بحيث يقلل من الغموض او التباس الفهم ، ذلك ان دوره ــ كما تحدده اللغة ــ فى اصطلاح « التوصيل » : هو ان يتلطف حتى يصل الى جمهوره ، وفى لغة القرآن الكريم (١٩) .

وصله يصله وصلا : بره وتودد اليه ولم يجفه . ويقال من هذا وصل رحمه وقرابته والمؤمنين : قام بما ينبغى لهم من حسن المعاملة والبر ، واصل ذلك ان يقال : وصل الشىء بالشىء اذا لامه به وربطه وجمعه عليه ، فكانك اذا احسنت الى امرىء ربطته بنفسك وجمعته عليك . ومن هذا يقال فى ضده : قطعه اذا جفاه وساءه . ويقال : وصل الى كذا وصولا : بلغه وانتهى اليه .

فالمحرر اذن فى عملية التحرير الاعلامى ـ يرتب رموزه فى « شكل » يتطلب اقل قدر من الجهد الى جانب المستقبل ، حتى يبلغه وينتهى اليه برسالته ، ومن الممكن ان يصبح ذلك سهلا ميسورا ، اذا كان جميع المستقبلين الذين يتلقون الرسالة الاعلامية لديهم الثغرات الدلالية التى تشترك مع المرسل فى اطار دلالى واحد .

واذا لم يكن هناك « تشويش » فى قناة الاعلام . ولكن الواقع يؤكد ان المحرر ــ المرسل هو فى العادة شخص على مستوى من الثقافة يتيح له قدرا كبيرا من الرموز التى يختار من بينها ، فى حين ان الكثيرين من افراد الجمهور المستقبل ، لا يملكون الا بقدر محدود من المفردات ، وبقدر اقل من الخبرة ، عندما بحيث الا يقدم المحرر الاعلامى معنى واضحا وسريعا الى القارىء او المستمع او المشاهد . لذلك ينبغى الا يكون تعارض فى رموز الاتصال « اللغة » بين كل من المحرر والمستقبل .

فالتحرير الاعلامى ــ اذن ــ حقيقة اساسية من حقائق الاتصال فى العملية الاجتماعية ، وهو يمثل شتى الطرق التى يؤثر بها المرسل فى المستقبل او يتاثر بها « بالبر والتودد وعدم الجفاء » ، كما لو كان « يصل رحمه وقرابته والمؤمنين » .. وقد تكون هذه الطرق مباشرة وشخصية او غير مباشرة ولا شخصية ، فالاعلام هو حامل العملية الاجتماعية ، والتحرير الاعلامى هو الذى يحقق الوصول الى الجماهير من خلال قناة الاتصال ، وهو لا يقدم المعلومات اليهم دفعة واحدة ، وانما يجعل اجزاءه متتابعة ، اسوة بما جاء فى نظرية الاعلام فى القرآن الكريم : :

« ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون »٥١/القصص ، فتوصل القول لهم هنا : اتباع بعضه بعضا فى التنزيل .

والتحرير الاعلامى بهذا المعنى نسق من الاشارات يختص لنقل الرسائل الاعلامية ، واذا كان ذلك ينطبق على معنى «الشفرة» فى نظرية الاحتمالات فى الاعلام التى وضع اساسها العالم

---

(١٩) محمد على النجار : معجم الفاظ القرآن الكريم جـ ٦ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤ .

الامريكي كلود شانون عام ١٩٤٨ ، فان اعدادحده «الشفرات » وتنظيمها في نسق من الاشارات وبثها هو المقصود بالتحرير في عملية الاعلام ، وعلى ذلك يغدو عنصر « الرسالة » من عناصر الاعلام وهو صلب التحرير الاعلامي ، الذي يفيدمن مدلوله اللغوى « خير » العملية الاعلامية و « وسطها » كـ « حر الرمل » و « حر الدار » و « التسوية » من « حر الارض تجدها حرا » اي : سواها ، و « التقويم » و «اصلاح السقط» فتحرير الكتابة : اقامة حروفها واصلاح السقط وفي « اساس البلاغة » للزمخشري : حرر الكتاب : حسنه وخلصه باقامة حروفه واصلاح سقطه .

ولعل في ذلك ما يشير الى غاية العملية الفنية في التحرير الاعلامي ، وهي الغاية التي تتيح للاعلام ان « يصل » الى الجمهور ، او بعبارة ادق «فالتحرير وصل الاعلام بالجمهور» اذا لامه به وربطه وجمعه عليه ، حتى يكون اكمل الناس اغزرهم عرفانا للحق ، واقدرهم على العمل بما يوافق الحق » على حد تعبير العالم الاسلامي ابو الحسن محمد بن يوسف العامري المتوفى سنة ٣٨١ هـ ـ ٩٩٢م في كتابه المسمى « الاعلام بمناقب الاسلام» ، والذي يقول ان « العلم مبدا العمل ، والعمل تمام العلم ، ولا يرغب في العلوم الفاضلة الا لاجل الاعمال الصالحة .. ولو جعل الله تعالى الجبلة البشرية مقصورة على تحصيل العلم دون تقويم العمل لكانت القوة العملية اما فضلا زائدا ، واما تيما عارضا . . . ولو انها كانت كذلك لما كان عدمها ليخل في عمارة البلاد وسياسة العباد » .

فالتحرير الاجتماعي فمن على الجتماعي يقصد الى التبسيط الجماهير من خلال واقعيته وعموميته ، فالتحرير الاعلامي فن تطبيقي يهدف الى الاتصال بالجماهير ونقل المعاني والافكار اليهم فهو فن وظيفي وليس فنا جماليا يقصد لذاته ، ذلك ان الطبيعة البشرية كما يقول « العامري » مزودة بقدرتين : قدرة على تحصيل العلم « او قدرة نظرية » وقدرة على تقويم العمل « او قدرة عملية » . ويقرر ـ منذ حوالي الف سنة ـ فكرة هي الصق ما تكون بعلم التحرير الاعلامي ، وهي ان العلم انما يطلب من اجل العمل به والاستفادة منه في تحسين الحياة الانسانية وتقدمها ، كما ان الاعمال المثمرة او « الصالحة » انما هي تلك التي تقوم على الدراسة العلمية . والاعمال النافعة ـ في راي العامري هي : النافعة للانسان كفرد ، والنافعة للانسان كعضو في مجتمع ، والنافعة لسياسة الناس كجماعة . وعلى ذلك فان التحرير الاعلامي يسعى الى « الاحاطة بالشيء على ما هو عليه من غير خطا ولا زلل »

واذا كان « المجتمع الحديث لا يقع في مجال الرؤية المباشرة لاحد ، كما انه غير مفهوم ـ على الدوام ، واذا فهمه فريق من الناس ، فان فريقا آخر لا يفهمه » . (٢٠) فان التحرير الاعلامي يالى للشرح والتفسير والتكامل ، كنتيجة لازدياد نمو المجتمع ، وتنوع تخصصاته وتعقد مشكلاته ، الامر الذي يجعل التحرير الاعلامي حلا لصياغة المعرفة بطريقة عملية واقعية . وهو الامر الذي

---

(٢٠) د . ابراهيم امام : دراسات في الفن الصحفي ص ٧ ،

Walter Lippmann, Public Opinion (1972) PP. 29-81.

تنبه اليه « العامرى » (٢١) حين قال : « ان من أعظم مواهب الله تعالى لعباده أن خلقهم من انفسهم محبين للعلم . ثم لما كانت الجبلة البشرية في طباعها بحيث لا يقوى الانسان على ضبط جميع اقسامه ، جعل بين طباع البشر وبين أصناف العالم علامة خفية ، ومناسبة ذاتية . أعنى ان الواحد منهم ينجذب بهمته الى قسم من اقسامها اما باختيار نفسه ، او باختيار من يلى التقدير عليه ، فيتأكد الفه له ، ويقوى شغفه به ، فيخصه من قلبه بشدة المحبة ويفضله على غيره وان كان مفضولا ، حتى قيل : ان المرء لما جهله عدو » .

لقد أصبحت وسائل الاعلام بالنسبة للانسان المعاصر شيئا مفروغا منه ، ولكنه مع ذلك لا يتدبر فى اثر هذه الوسائل على تفكيره وسلوكه ، او على سير مجتمعه ، غير ان هناك ما يدل على ان الكثيرين فى مجتمعنا المعاصر قد اصبحوا يدركون — على الاقل — اثر وسائل الاعلام . ففى السبعينات ظهر مدى النضج فى النقد ، بحيث يبدو ان طوائف عديدة من الناس قد بدأت تفكر فى الاعلام مليا ، وليس معنى ذلك ان كل نقد موجه الى الاعلام مقنع .

التحرير جزء من عملية الاعلام :

ان الاتصال بالجماهير يمكن تعريفه بانه « بث رسائل واقعية او خيالية موحدة على اعداد كبيرة من الناس ، يختلفون فيما بينهم من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، وينتشرون فى مناطق متفرقة » (٢٢)

ويقصد بالرسائل الواقعية مجموعة الاخبار والمعلومات والتعليقات التى تدور حول الاحداث ، وتنشرها الصحف ، وتذيعها الاذاعة المسموعة والمرئية ، اما الرسائل الخيالية فهى القصص والتمثيليات والروايات والاغانى وغيرها من المبتكرات الفنية التى قد ترتكن الى الواقع ، وتنسج منه صورة فنية او قد تكون من نسج الخيال ، وحتى فى الحالة الثانية لا بد من ارتباط التحرير الاتصالى بواقع المجتمع وما فيه من اتجاهات ومبادىء ومعتقدات وقيم . وفى الاتصال الجماهيرى الحديث تتعرض الجماهير المختلفة باختلاف الحالة الاقتصادية او السن او المكانة الاجتماعية او الثقافية لنفس المؤثرات الاعلانية والفنية الموحدة مهما تباعدت مناطق اقامتهم . (٢٣)

والاعلام شكل من اشكال الاتصال بالجماهير ، التى تضم الدعاية والاعلان والتعليم والعلاقات العامة والامتاع الفنى الى جانب الاعلام . وللاعلام عدة وسائل يصل من خلالها الى الجمهور . ومن هذه الوسائل : الصحافة والمطبوعات ، والاذاعة والتليفزيون والسينما ولكل وسيلة من هذه الوسائل خصائصها ومميزاتها التى توفر الباحثون على دراستها . (٢٤)

---

(٢١) الاعلام بمناقب الاسلام ص ٨٦ .

(٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) دكتور ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ص ٢٨ .

وتأسيسا على هذا الفهم ، فان التحرير الاعلامي جزء من عملية الاعلام ، والاعلام بدوره جزء من كل اكبر هو « الاتصال بالجماهير » Mass Communication ويقصد بالتحرير الاعلامي اذن اعداد الرسالة التي تنتقل الى الجماهير من طريق احدى وسائل الاعلام ، بهدف تزويد الناس بالاخبار الصحيحة والمعلومات السليمة ، والحقائق الثابتة ، من خلال عملية عرض فني تساعد الناس على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع او مشكلة من المشكلات بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير وميولهم واتجاهاتهم . ومعنى ذلك ان الغاية الوحيدة من التحرير الاعلامي هي تيسير عملية الاقناع عن طريق عرض المعلومات والحقائق والارقام والاحصاءات ونحو ذلك . ويقدم أوتوجروت Otto Groth تعريفا للاعلام يشمل التحرير الاعلامي بالضرورة ، يقول : « الاعلام هو التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت » . فالتحرير الاعلامي تعبير موضوعي وليس ذاتيا من جانب الاعلامي يقدم حقائق مجردة بعضها سار وبعضها غير سار . والاعلامي ليس له غرض معين فيما ينشره على الناس اللهم الا الاعلام في ذاته ، بينما يهدف الداعية الى غاية معينة . والمفروض ان الاعلام يقوم على الوضوح والصراحة ودقة الاخبار مع ذكر مصادرها ، كما انه يشترط الالتزام بمعايير الصدق والامانة . فالاعلام يتوسل بالتحرير في عرض وتقديم اكبر قدر ممكن من المعلومات الصحيحة او الحقائق الواضحة التي يمكن التثبت من صحتها أو دقتها بالنسبة للمصدر الذي ينبع منه او تنتسب اليه . وبقدر ما في الاعلام من حقائق صحيحة ومعلومات دقيقة منبثقة من مصادر امينة ، بقدر ما يكون هذا الاعلام سليما قويا . لذلك نجد ان الصحف والاذاعات وغيرها من اجهزة الاعلام تصر دائما على نسبة الاخبار الى وكالات الانباء أو غيرها من المصادر حتى يكون الجمهور على بينة من الامر . (٢٥)

والاعلام يخاطب العقول لا الغرائز ، وكذلك يقوم على التنوير والتثقيف ، ونشر الاخبار والمعلومات الصادقة التي تنساب الى عقول الناس وترفع من مستواهم وتنشر تعاونهم من اجل المصلحة العامة . ويذهب الدكتور ابراهيم امام (٢٦) الى انه لما كان الاعلام يتوسل في تحريره باسلوب الشرح والتفسير والجدل المنطقي ، فقد اخذت الدول تنبذ كلمة الدعاية وتفضل عليها كلمة الاعلام ، على اعتبار انها تعبر عن الدقة والموضوعية والصدق .

والاعلام في اللغة من مادة « علم » (٢٧) .. والعلم : نقيض الجهل ، علم علما وعلم هو نفسه ، ورجل عالم ، وعليم من قوم علماء فيهما جميعا . قال سيبويه : يقول علماء من لا يقول الا عالما . قال ابن جني : رجل علامة وامرأة علامة ، لم تلحق الهاء لتأنيث الموصوف بما هي فيه ، وانما لحقت لاعلام السامع ان هذا الموصوف بما هي فيه قد بلغ الغاية والنهاية ، فجعل تأنيث الصفة امارة لما اريد من تأنيث الغاية والمبالغة ، يدل على ذلك أن الهاء لو كانت في نحو امرأة علامة انما لحقت لان المرأة مؤنثة لوجب أن تحذف في المذكر فيقال رجل فروق .

(٢٥ ، ٢٦) المرجع السابق ص ١٢ .

(٢٧) لسان العرب جـ ٢ ص ٨٧ .

وقوله تعالى : الى يوم الوقت المعلوم الذى لا يعلمه الا الله ، وهو يوم القيامة . وعلمه العلم واعلمه اياه فتعلمه ، وفرق سيبويه بينهما فقال : علمت كاذنت ، واعلمت كاذنت ، وعلمته الشيء فتعلم . وليس التشديد هنا للتكثير .

ويقال تعلم فى موضوع اعلم . وفى حديث الدجال : تعلموا ان ربكم ليس باعور بمعنى اعلموا ، وكذلك الحديث الاخر : تعلموا انه ليس يرى احد منكم ربه حتى يموت . كل هذا بمعنى اعلموا ، وقال عمرو بن معد يكرب :

تعلم ان خير الناس طرا   قتيل بين احجار الكلاب

قال : واستغنى عن تعلمت بعلمت . قال ابن السكيت : تعلمت ان فلانا خارج بمنزله اى علمت . وتعالمه الجميع اى علموه . وعالمه فعلمه يعلمه ، بالضم ، غلبه بالعلم اي كان أعلم منه . وحكى اللحياني : ما كنت راني ان اعلمه ، قال الازهري : وكذلك كل ما كان من هذا الباب بالكسر فى يفعل فانه فى باب المغالبة يرجع الى الرفع مثل ضاربته فضربته اضربه .

وعلم بالشيء : شعر : يقال اما علمت بخير قدومه اى ما شعرت . ويقال : استعلم لى خبر فلان واعلمنيه حتى اعلمه ، واستعلمني الخبر فاعلمته اياه . وعلم الامر وتعلمه : اتقنه ، وقال يعقوب : اذا قيل لك اعلم كذا قلت قد علمت ، واذا قيل لك تعلم لم تقل وقد تعلمت ، وانشد :

تعلم انه لا طير الا   على متطير وهى الثبور

وعلمت يتعدى الى مفعولين ، ولذلك اجازوا علمتني كما قالوا ظننتني ورايتني وحسبتني تقول : علمت عبد الله عاقلا ، ويجوز ان تقول علمت الشيء بمعنى عرفته وخبرته ، وعالم الرجل خبره ، واحب ان يعلمه اى يخبره . وفى التنزيل : واخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم .

واحب ان يعلمه اى ان يعلم ما هو . واما قوله عز وجل وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر .

لقد انبثقت هذه النظرية عن مشاكل عملية خالصة فى محاولة للكشف عن اكثر شفرات البرق ايجازا واقتصادا وتكفل فى نفس الوقت اتصالا لاسلكيا صادقا وامينا وتقضى على كل مظاهر التداخل والتشويش فى نظم الاتصال ونقل المعلومات وما الى ذلك .

وبعد ان وضع العالم الامريكى كلود شانون عام ١٩٤٨ اساس نظرية الاحتمالات فى الاعلام بدا عديد من الباحثين تطبيقها فى مجالات واسعة من العلوم . ونجد من هؤلاء الباحثين علماء فى الاحياء واللغات وفلاسفة وعلماء وراثة ومشتغلين بالفنون وعلماء رياضيات وعلماء نفس . وتحدد معنى الشفرة بانها اى نسق من الاشارات يختص لنقل الرسائل . وتاسيسا على هذا التعريف الفضفاض بدا العلماء ينظرون الى اللغة البشرية والاحماض الامينية حاملات المعلومات الوراثية فى الجسم والفنون باعتبارها شفرات نوعية ويمكن قياسها بالارقام . واعداد هذه الشفرات

وتنظيمها ونقلها هو المقصود بالتحرير فى نظرية الاعلام . فالرسالة هى العنصر الذى يختص علم التحرير الاعلامى بدراسته التى يحتويها اختيارنا لاحداث بعينهامن بين سلسلة كبيرة من الاحداث تقع وفق احتمالات مختلفة . وقـد كان السائد قبل ذلك ان الاختيار لا يكون الا من بين احداث متعادلة من حيث احتمالات وقوعها .

ففى عام ١٩٢٨ قدم لاول مرة مهنـدس امريكى يدعى هارتلى مفهوم القياس الكمى للمعلومات التى يتضمنها اختيارنا لاحداث مـن بين مجموعة من احداث متساوية الاحتمالات .

مثال ذلك اوجه النرد الستة فهى جميعامتساوية الاحتمالات . بيد ان هذا القياس لا يكون ملائما صالحا الا عندما تتساوى امكانيات وقوع كل الاحداث اى تكون متسوية الاحتمالات ولقد ادرك هارتلى بطبيعة الحال ان احتمـال حدوث نتيجة معينة من شانه ان يؤثر على كمية المعلومات التى تتضمنها الرسالة . واقترح شانون صيغة معادلة تسمى الان باسم معادلة شانون ، يمكن استخدامها لقياس كمية المعلومات من الاحداث التى تقع بنسب مختلفة من الاحتمالات ، ونص هذه المعادلة هو :

هـ١ = − (ح١لو٢ح١ + ح٢لو٢ح٢ + ... + ح ن لو٢ح ن) .

حيث تكون هـ١ هى كمية المجهول الذى تمحوه الرسالة ومن ثم تكون قياسا لكمية المعلومات (ذلك لان المعلومات من شانها ان تمحو المجهول) ... وحيث هى عدد النتائج ، ح١ ، ح٢ ، ... ح ن هى احتمالات حدوث النتائج .

ولا بد للمرسل ان يضع رسالته فى شكل معين او صيغة محددة من الرموز او الكلمات ، ومن الطبيعى ان تحتاج هذه الكلمات الى اجهزة نقل ، او وسائل اعلام . كالصحف والاذاعة والتلفزيون وغيرها ـ لكى تنتشر بسرعة عديدة . ويتوقف ذلك بطبيعة الحال على مدى التناغم بين



المرسل ، والمستقبل ، فاذا كان المرسل ضعيفاق كتابته او غير واثق من نفسه ، او ليست لديه معلومات كافية عن موضوعه فان ذلك يؤثر على الاتصال . واذا كانت الرسالةغير محررةبالطريقة الفعالة ، فانها تقف فى سبيل نجاح الاتصال .وعنصر الرسالة فى عملية الاعلام هو العنصر المحورى فى دراستنا للتحرير الاعلامى .

وهو عنصر منفصل كما يبين مما تقدم عن بقية العناصر الاخرى ، ولكنه وثيق الصلة بالمرسل والمستقبل ومعرفة الهدف وفعالية وسيلة الاتصال ، وقدرة المستقبل على حل الرموز .

ويمكن تصوير انتقال الرسالة الاعلامية من المصدر الى الجماهير ، خلال المرسل ووسيلة الاتصال التى يهيمن عليها المسئول كرئيس التحرير مثلا ، لكى يتلقاها بعض الجماهير مباشرة ، او يتلقاها بعض القادة وحاملى المعلومات ، لتنقلها الى اصدقائهم او اتباعهم على النحو التالى : (٢٩)



ويدل اسلوب التحرير الاعلامى كما يفهم من المصطلح على المعاونة التى يقدمها المحرر لجمهوره مباشرة فى القراءة والاستماع والمشاهدة فى عملية نقل المعلومات والاراء والحقائق والوقائع .

واذا كانت الحياة عملية اتصال ، فان التحرير ـ كما تقدم ـ هو صلب هذه العملية ، وقد درس (رانكين) مقدار الوقت الذى يصرفه كل فرد فى كل مرحلة من مراحل الاتصال بأن طلب من ٤٧ شخصا أن يدونوا فعالياتهم اللغوية خلال ٤٩ يوما فوجد بأن ٤٧٪ من وقتهم يصرف على الاصغاء و ٢٨ر٥٪ يصرف على الكلام و ١٧ر٣٪ يصرف على القراءة و ٧ر٢٪ يصرف على الكتابة . ثم درس الوقت الذى تصرفه المدارس على كل فعالية فوجد ان ٥٢٪ من الوقت يصرف على القراءة و ٣٠٪ من الوقت يصرف على الكتابة و ١٠٪ يصرف على الكلام و ٨٪ يصرف على الاصغاء . فدل استنتاجه على ان التأكيد فى المدرسة كان عكسيا من ناحية مهارات الاتصال بالحياة . (٣٠)

(٢٨ ، ٢٩) المرجع السابق ١٢٥ ، ١٢٧ .

(٣٠) Paul T. Rankin, Listening Ability," Chicago School Journal, vol. 12, PP. 177-179, January 1930.

واذا كنا ندرك ارتباط التحرير الاعلامي بالحياة ، فاننا نجدان التأكيد فيه مواز من ناحية علاقة مهارات الاتصال بالحياة . وقد وجد من دراسات اخرى مشابهة انه يمكن معاونة المحررين الاعلاميين على محاولة التأكيد على نواحي الاتصال الاكثر حاجة ، فالمحرر الكفء لا يغفل دور اللغة في نظرية التحرير ، كما لا يهمل اثارة الاهتمام لانه يدرك ان القابلية على جميع المعلومات والمواقف ونقلها امر حيوي لجمهور الوسائل الاعلامية على اختلافها ، وهذا الجمهور يحتاج الى القراءة الدقيقة المتمثلة ، ويحتاج الى المشاركة في الكلام المسموع المذاع .

وليس في مقدور المحرر ان يخترع المعجزات عند استخدام الاتصال ، الا ان عليه ان يفهم الاسلوب فهما صحيحا ، وينبغي ان يكون كالمدرس من حيث مساعدته للجمهور على فهمه ايضا ، كما ينبغي ان يؤكد على التعاون في الاتصال كما هي الحال في المناقشة كذلك . فمن الواضح اننا نتصل بعضنا بالبعض عن طريق الكلمات ، وقد ذكر جون لوك ، ان الكلمات تثير الشك والغموض ، ومعنى اغلبها غير مؤكد ، بحيث اننا لو شغلنا افكارنا وبقينا نحوم حول اسماء الاشياء فلن يكون غريبا ان تضل الكلمات السبيل . فالجمهور يعرف القليل من اهمية معاني الكلمات ومن اهمية الارتباط الناشيء عن تفسير كلمات الاخرين ، فيكون اذن على الاعلامي ان يساعد جمهوره على القدرة القرائية والاستقبالية في وسائل الاعلام المختلفة .

ويذهب شرام الى اننا عندما نتصل بغيرنا نحاول ان نقيم مشاركة مع من نتصل به ، او بتعبير اخر ، اننا نحصل على المرسل والمستقبل لرسالة معينة . فالمرسل ، على حد تعبير شرام ، يحاول توصيل معلوماته او مشاعره التي يحولها الى كلمات مسموعة او مكتوبة ، وبعد ان ترسل الرسالة يتوقع المرسل انها قد رسمت في ذهن المتسلم الصورة نفسها التي كانت في ذهنه(٣٢) . وهكذا يدرك المحرر الاعلامي بان توصيل المعلومات للاخرين يعني اكثر من نقلها اليهم .

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن ان نتبين موقع اللغة في نظرية التحرير ، التي تتضمن عددا من العناصر ، في مقدمتها عنصر المصدر الذي قد يكون شخصا او عددا من الاشخاص ووراء هذا التحرير هدف او سبب يدعو اليه ، ومع فرض وجود مصدر للتحرير مزود بالافكار والاراء وله حاجات واغراض معينة ولديه قدر من المعلومات وغرض يسعى الى تحقيقه ، فان التحرير جزء من عملية الاتصال الام ، التي لا يمكن كما راينا ان تتم بغير مستقبل Receiver لرسالة المحرر الاعلامي .

ورسالة المحرر الاعلامي هي صلب العملية التحريرية ، التي تعبر عن غرض واهداف المرسل او المصدر ، حيث يترجم آراءه واغراضه ورغباته في صورة رمزية . وهذه الصورة الرمزية قد

---

(٣١) ولتكن ولتكن (ترجمة الدكتور طه الحاج الياس) تربية العقل الناقد ــ بغداد ص ١٦٩ .

(٣٢) Wilbur Schramm, ,,How Communication Works'', ,,The Process and Effects of Mass Communication, University of Illinois Press, Urbanq, III, 1955 P. 3.

(٣٣) Ibid., P. 40.

تكون لغة منطوقة او مكتوبة ، وقد تكون في صور ارقمية او رسوم او موسيقى(٣٤) ، ولكن كيف يمكن تحويل وترجمة اغراض وهدف المصدر الى صور رمزية (لغة مثلا) ؟ ان هذا يتطلب اضافة عنصر ثالث(٣٥) الى عملية التحرير ، ويمكن ان يطلق على هذا العنصر اسم : المحرر ــ الرمز Encoder وهو الذي يعمل على ترجمة افكار وراء واغراض المصدر (المرسل) ووضعها في صورة رمزية لغوية ، وينتج عن ذلك رسالة تحريرية معينة .

على أن اللغة في نظرية التحرير لا تنفصل عن القناة Channal أو الوسيلة الاعلامية التي تنقل الرسالة ، وهي عبارة عن وسيط ، لا بد من اختياره بدقة لنقل الرسالة بنجاح وقد تعرضنا على الارتباط الوثيق بين التحرير والجمهور ، وضرورة التناغم والمشاركة بينهما ، وهذا الجمهور هو الذي يستقبل رموز التحرير ويعمل على ترجمتها الى آراء وافكار . فعندما يكتب محرر ما في صحيفة من الصحف فلا بد من وجود جمهور يقرأ ما يكتبه المحرر . وعندما يتحدث اذاعي في الراديو فلا بد من وجود مستمع له ، وهذا الشخص الموجود عند الطرف الاخر من العملية التحريرية يمكن ان نستعير له من علم الاتصال (٣٦) اصطلاح «المستقبل» وهو الهدف من عملية التحرير .

وعلى هذا الفهم ، فان التحرير الاعلامي يمثل صلب العملية الاعلامية الاتصالية ، والرسالة الاعلامية هي جوهر التحرير الاعلامي الذي يمكن ان نميز فيه جانبين : العناصر التي تتكون منها الرسالة ، ثم يأتي بعد ذلك البناء او التركيب الخاص بوضع هذه العناصر سويا لتنتج لنا رسالة معينة مطلوب توصيلها الى جمهور وسائل الاعلام .

ولكل رسالة محتوى Content ويختلف اسلوب تحرير المحتوى من وسيلة اعلامية الى وسيلة اخرى . وهذا ما نشاهده في معالجة الصحافة والاذاعة مثلا لموضوع معين بطريقة تستمد من خصائص كل وسيلة ، كما سيجيء ، كما تستخدم كل رسالة اسلوبا ورمزا معينا يناسب القراء او المستمعين او المشاهدين والمهم ان تكون الرسالة ــ على حد قول الدكتور على احمد على ــ مناسبة للافراد المستقبلين لها من ناحية قدراتهم العقلية ومستواهم الثقافي والاجتماعي والاقتصادي حتى تترك هذه الرسالة فيهم الاثر المطلوب .

وعلى المحرر الاعلامي وهو يتفحص اسلوب التحرير ان يدرك واجبه الاول وهو مساعدة جمهوره على فهم الكلمات كوسائل لنقل الرسائل التي تتضمن المعلومات والمواقف ، بمعنى انه يستخدم اللغة في مستواها العملي المرتبط بالجمهور ، كما عليه ان يدرك ان الاراء التي لا يعبر عنها لا تنظم التفكير ، اذ ان المحرر الذي لا يستطيع التعبير عن الافكار والحقائق لا ينجح في الاتصال الاعلامي ، ولذلك على المحرر ان يدرك العلاقة الوثقى بين المعرفة والكلام .

(٣٤ ، ٣٥) دكتور على احمد على : اسس العلوم السلوكية والنفسية ص ١١١ .

(٣٦) نفس المرجع ص ١١٢ .


المرسل
ويتأثر ب :
مهارات
التحرير
الاتجاهات
المعرفة
النظام
الإجتماعي
الثقافة
الرسالة الإعلامية
التحريض
الإعلامي
القناة
الصحافة
الراديو
التلفزيون
السينما
النشرات
المستقبل
ويتأثر ب :
مهارات
الإتصال
الإتجاهات
المعرفة
النظام
الاجتماعي
الثقافة

كتب مارفن بارلون يشرح اسلوبه فى تدريس الكتابة فى موضوع الاقتصاد قائلا : « ان اللغة هى المادة التى يتكون منها الموضوع ، اذ ان الفكرة واللغة واحدة . ففى حصول الطالب على المهارة فى كتابة مايعنيه نجد انه يتعلم مايعنيه . يضاف الى ذلك ان الطالب الذى يجد نفسه احيانا عاجزا عن التعبير كتابة يتعلم بانه لايعنى شيئا ، ولذا تراه يفضل ترك الصحيفة دون كتابة . (٣٧)

وقد اظهرت بعض الدراسات بانه كلما اكثر المحرر الناشىء من الكتابة ازداد قدرة على التعبير . وقد استنتج (كولفرس) بعد اجراء دراسات عدة حول تدريس القواعد بان التعبير يتم اذا ماجعلت القواعد عملية ، اى اذا ماهيا المدرس فرصا عديدة للكتابة والكلام ثم قام بتصحيح الاخطاء فى الكلام والكتابة ، لان ذلك سيعطى معنى للمفاهيم اللغوية التى تدرس (٣٨) ، **وهو الامر الذى يجب ان يعنى بـه معلمو فن التحرير الاعلامى بالجامعات .**

العلامات والرموز :

ان افضل الطرق الوقوف على مكان اللغة فى نظرية التحرير ، هى طريقة الاسلوب السلوكى ، على نحو مافعل الاستاذ ليونارد بلومفيلد .

حيث نظر الى اللغة على انها سلسلة من المثيرات والاستجابات ، فالمثير الخارجي (د) يستدعي رد فعل لغويا R ، يتمثل فى نطق المتكلم بمجموعة معينة من الاصوات وحينئذ تصل الموجات الصوتية الى السامع وتعمل فيه كمثير لغوى (د) ، وهذا المثير اللغوى يؤدى بدوره الى رد فعل خارجي عملى (R) من قبل السامع . ويمكن تمثيل هذا الموقف بالشكل الاتى . (٣٩)

مثير اصلى ــ رد فعل لغوى . . . مثير لغوى ــ رد فعل عملي ونلاحظ هنا ان تبادل لغويا ــ اى الكلام الفعلى والاستجابة له ــ قد وضع وضعا مناسبا بين المثير الاصلى والاستجابة النهائية . ومعنى هذا ان الخطوة النهائية انما يقوم شخص آخر غير الذى استقبل المثير الاول او الاصلى . وبعبارة اخرى ــ كما يقول بولمان (٤٠) ــ سوف يصبح تقسيم العمل بين المتخاطبين امرا مضمونا ومؤكدا .

ويحلل « اولمان » (٤١) هذا الموقف اللغوى البسيط ، ويزودنا بمزيد من المعلومات التى لها صلة بالتبادل اللغوى فى عملية التحرير . اذ يتضح لنا ان هناك ثلاثة عناصر يتضمنها اى حدث لغوى . هذه العناصر هي المتكلم والسامع والرسالة المرغوب توصيلها . **فالحدث اللغوى بالنسبة للمتكلم** هو تعبير او وسيلة لتوصيل افكاره اوشعوره اورغباته ومعلوماته وهو بالنسبة للسامع مثير

---

(٣٧) Maruin J. Barloon" How to Teach Students to write clearly in courses other than English", AAUP Bulletin, vol. 39, PP. 286-292.

(٣٨) Walter V. Kaulfer " Four Studies in Teaching grammer from the Socio-psychological Viewpoint" Stanford Univ, Press, 1945.

(٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) ستيفن اولمان (ترجمة الدكتور كمال بشر) دور الكلمة فى اللغة ص ١٠ .

يدفعه الى القيام بعمل ما او الى اختيار ضرب معين من السلوك . اما فيما يتعلق بالرسالة نفسها فالحدث اللغوى او الكلام يعمل من اعمال نقل الافكار وتوصيلها . ويمكننا هنا ان نستعمل عبارة العالم النمساوى بوهلر وهى : ان الكلام دليل على الحالة العقلية للمتكلم ورمز للرسالة وتنبيه للسامع .

وعن طريق هذا التحليل يظهر لنا « اولمان » بوضوح الوظائف الاساسية للكلام الانسانى . فكما ان هناك ثلاثة مصطلحات وثلاثة جوانب ، كذلك توجد ثلاث وظائف وهى ان الكلام معبر وموصل ومؤثر . ويتوقف الامر على ما اذا كان الموضوع ينظر اليه من زاوية المتكلم او الرسالة او السامع .

ومهما يكن من امر ، فقد بقيت نقطة مهمة فى هذا الموقف اللغوى لم تفسر بعد ، وهى الصلة بين العلامات والرموز ، حيث انه من المعروف ان هناك علامات ورموزا كثيرة غير لغوية ، ومن المعروف كذلك ان كلمات اللغة انما تحتل مكانا واحدا فقط فى الاطار العام للعمليات الرمزية (٤٢) ويعرف اولمان العلاقة بانها ذلك الجزء من الخبرة الذى فى استطاعته ان يستدعى بقية الخبرة . ويعرف اوجدن وريتشاردز بانها « تلك العلامات التى يستعملها الناس فيما بينهم للايصال والتوصيل » وهذه الرموز ـ كما يقسمها اولمان من وجهات نظر متعددة قد تجذب اليها الحواس المختلفة . ومن الطبيعى ان يكون السمع والرؤية ـ اعظمها منزلة ، اذ ان اعضاءها اكثر الاعضاء رقيا . وقد وجد من وجهة نظر اخرى ، ان الرموز اما طبيعية او تقليدية عرفية . فالرموز الطبيعية لها نوع من الصلة الذاتية بالشىء الذى ترمز اليه . فالهلال يعد رمزا طبيعيا للاسلام ، ولكن هذا ليس راجعا الى اى مغزى تشبيهى ، او هو لم يكن فى الاصل كذلك . ومن جهة اخرى فان الكلمة منطوقة او مكتوبة ، والصفارة كاداة لضبط الوقت او للانذار ، واستعمال اللون الاسود علامة على الحزن وهز الراس دليلا على الرفض وعدم الموافقة ـ هذه كلها ما هى الا وسائل ورموز تقليدية عرفية بحيث تصبح غير مفهومة خارج البيئة التى وجدت فيها . (٤٣)

وتؤدى الكلمات وظائفها بنفس الطريقة التى تتبعها الرموز والعلامات الاخرى ، غير ان خاصيتها المميزة هى انها تستخدم اصواتا واضحة المعالم لاداء هذه الوظائف . ويكون العنصران ـ الاصوات والمدلول ـ كلا او وحدة ترابطية متكاملة بالتدريج . فاذا ماتكون هذا الترابط وثبت اصبحت الكلمة بوصفها جزءا من الخبرة الكلية ـ ذات قدرة على ان تقوم مقام هذا المدلول . وكذلك العكس ، فان فكرة المدلول تستدعى الكلمة الدالة عليها بالطريقة نفسها .

التحرير عن طريق الوسائل :

واذا كنا قد حاولنا تعريف التحرير الاعلامى عن طريق الاتصال بالجماهير ، فان المحاولة الاخرى قد تتمم هذه المحاولة ، ذلك ان وسائل الاعلام هى الوجه الآخر للاتصال بالجماهير ، وعلى ذلك يغدو التحرير الاعلامى ذا وجهين ، الوجه الاول هو ما فرغنا من محاولة دراسته ، والوجه الاخر هو محاولة التعرف على ماهيته عن طريق وسائل الاعلام وما نسميه هنا ـ الاجناس الاعلامية ـ ذلك

(٤٢ ، ٤٣) اولمان : المرجع السابق ص ١٦ ، ١٩ .

ان الوظائف الاعلامية هي التي خلقت الوسائل ، فلم تتغير هذه الوظائف على مدى القرون فيما بين الثقافة والحضارة العصرية ، وانما على حد تعبير « شرام » برزت مستحدثات وهياكل لتكبير هذه الوظائف ومد نطاقها تميت الكتابة حتى يحتفظ المجتمع برصيده من المعرفة فلا يضيع في اعتماده على الاتصالات الشخصية أو على ذاكرة الشيوخ ، ونما فن الطباعة حتى تضاعف الآلة مايكتب الانسان ارخص واسرع مما يستطيع الانسان نفسه ان يفعل . حول هذه الآلة نهضت كل مؤسسات الطباعة والنشر والمدارس العامة . والدور الذي قامت به الكتابة والطباعة في سبيل البحث عن الحقيقة ، وهما كما هي الحال في اللغة ، على نحو ما يذهب اليه « فنفريس » الى ذلك خليط من اختراعات عديدة قد حوكيت وتوقلت وطبعت بالطابع الاجتماعي ، فالكتابة قد خلقت اشياء متكلمة والطباعة اكثرت من عددها الى غير ما حد وخلدتها . وهكذا امكن للفكر أن ينتصر على المكان والزمان والموت ، ولكن كثيرا ما ينتهي التفكير المجرد الى سراب والى الابتعاد عن الجادة . فالفكر في هذه الحال يجول في « شيء غير مخلوق يرجع الى عهد الانسان البدائي » عالم الافكار الذي هو ايضا عالم الالفاظ .

وكما استطاعت الالة في الثورة الصناعية ان تضاعف القوة البشرية مع انواع الطاقات الاخرى ، كذلك تستطيع وسائل الاعلام الالية في ثورة الاتصال ان تضاعف الوسائل الانسانية الى درجة لم يسمع عنها من قبل ، يقول « شرام » : في اول الامر جاءت آلة التصوير والكاميرا ، واجهزة العرض ، ثم جاء طبع السينما واستوديوهات السينما والتوزيع ودور العرض كذلك اخترعت الالات التي تجعل الانسان يسمع ويسمع على بعد مسافات هائلة وحول ذلك قامت شبكات التليفون والتلغراف والتسجيل الصوتي والراديو . ولما انضمت الات الاستماع الى الات المشاهدة وجد الاساس للافلام الصوتية والتليفزيون : فاكتشف المجتمع فيما بين ايام القبيلة وعهد الحضارة العصرية كيف يشارك في الاعلام وكيف يخزنه متخطيا بذلك المكان والزمان ليصون التاريخ من الضياع وليزيد كم المجتمع الفعال من العشرات الى الملايين .

وقد ينظر الى وسائل الاعلام على انها مظاهر تمثل ثورة ، بيد انها تمثل ثورة في فنون التحرير الاعلامي الذي يقوم على نشر الافكار والمعلومات والوسائل التي يسرت هذه الثورة قديمة تمتد جذورها الى قرون غابرة . ولكن تقدمها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كان سريعا سرعة فجائية بفضل التغيرات الاجتماعية ، وما لم كان هذا التقدم ـ على حد تعبير « بارتو » (٤) واسع الخطى كسلسلة من الانفجارات الصاروخية فيها تكمن ثورة التحرير الاعلامي التي هي جزء من ثورة وسائل الاتصال بالجماهير الامر الذي يجعل التحرير عن طريق وسائل الاعلام يشمل :

ـ **الانتاج الكمي / الكلمات والظلال والاصوات .**

ـ **التوزيع الجغرافي الواسع** : وبدونه لايكون للانتاج الكمي اي معنى .

---

(٤) اريك بارتو (ترجمة صلاح عز الدين وآخرين) : الاتصال بالجماهير ص ٢٥ وما بعدها .

ـ التوزيع بالقطاعي : عن طريق محطات التليفزيون ، ومحطات الاذاعة ، والصحف والمسارح ، وغيرها من وسائل الاتصال بالجماهير .

من هذا نرى أن التحرير الاعلامي يحذو حذو الانتاج الصناعي من ناحية يشير اليها « بارنو » تتلخص في ان الكلمة المطبوعة كان القارىء يسعى اليها ، ويقرأها بنهم ، ـ ويقتنيها ويعتز بها . أما اليوم فلا بد للكلمة ان تبحث عن الجمهور . فلا يكفي في عصرنا أن ينتج التحرير انتاجا بالجملة للكلمات والظلال والاصوات ، مهما تكن جميلة وصادقة بل لا بد كذلك ان توصلها الى المستهلك وان تجعله يلتفت اليها لا بد ان تحملها وسائل الاعلام اليه اينما يكن ، وان تلاحقه وان تلازمه ، وقد تكون الجماهير التي تصل اليها على هذا النحو ضخمة ، وقد لا تكون . وقد تضم عشرات الملايين ، او الملايين ، أو مئات الالاف ، او عشرات الالاف ، او الالاف ، او المئات . وما من وسيلة من وسائل الاعلام الا شقت لنفسها قنوات للوصول الى مثل تلك الجماهير ، يكون « التحرير » هو صلبها ومنطلقها ، في سير دورة الاتصال ، التي تشمل : التوقع ، والانفعال والانتباه ، والاعلام ، والفكرة ، والفعل • (٤٥)

وفي كافة مراحل الدورة يلعب التحرير الاعلامي دوره ، فاذا قام عنوان الصحيفة والمقدمة والصورة بوظائفها ، اقبل القارىء على مطالعة الحقائق التالية لانه يريدها ويحتاج اليها . واذا ادت المشاهد الافتتاحية في فيلم تسجيلي وظيفتها ، تمكن الجمهور من تحصيل المعلومات التالية لانه يريدها ويحتاج اليها . ويلعب التحرير دورا في كافة وسائل الاعلام بمراحلها كلها . غير ان المحرر لا يجرؤ على اعطاء المعلومات الهامة الا في اللحظة التي يريد فيها الجمهور هذه المعلومات ويحتاج اليها .

ولعريف التحرير الاعلامي عن طريق الوسائل اذن ـ يعني وفقا لنظرية الاجناس ـ الاعلامية التي نطرحها في هذا الكتاب ـ ان « التحرير هو الوسيلة » بحيث لا تغدو « الرسالة » هي المضمون فحسب ، وانما تغدو « الرسالة » في التحرير الاعلامي هي « فن تطبيق الكلام المناسب للموضوع والحالة والجنس الاعلامي على حاجة القارىء أو السامع أو المشاهد » فالتحرير في كل وسيلة من وسائل الاعلام يتميز بطبيعة جنسها الاعلامي ، ينحو نحو اختيار لغته واسلوبه وبلاغته . فطبيعة الجنس الاعلامي هي التي تحدد طريقة وضع الفكر في رموز تتفق وخصائص الوسيلة الاعلامية ، التي ترتبط بدورها بقدرات المتلقي وقدرات المصدر في آن واحد ، ولذلك فان التحرير للجنس الصحفي يختلف عنه في الجنس الاذاعي المسموع مثلا ، وليس ثمة تعارض بين الاجناس الاعلامية فالجنس الاذاعي المسموع لم يقض على الجنس الصحفي وقد أثبتت دراسات حديثة أن الاستماع الى الراديو لا يتنافى بالضرورة مع قراءة المادة المطبوعة ، وان كان يتكامل معها .

---

(٤٥) المرجع السابق ص ١٢٨ .

فالتحرير عن طريق وسيلة الاعلام ، يعنى أن نظرية التحرير العامة تتفرع الى فروع تطبيقية ، فى كل جنس اعلامى على حده ، وتشير الابحاث الاعلامية الى أن المقدرة الاقناعية تختلف باختلاف الاجناس الاعلامية ، كما تشير الى أن لكل جنس امكاناته وخصائصه ومميزاته فيذكر الباحث الامريكى « ستوفر » مثلا ، ان المطبوع يصل الى جمهور يرتفع مستواه التعليمى عن مستوى جمهور الجنس الاذاعى المسموع . بشكل عام وان كان الواقع يشير الى ان الجماهير تقسم الوقت بين الاجناس الاعلامية ، للحصول على الاعلام والترفيه والتثقيف والتوصية وفقا لامكانات كل جنس اعلامى ورغبات كل مستقبل . وعلى ذلك تبين اهمية التحرير التطبيقى فى كل جنس على حده ، فالجنس الاعلامى المرئى فى التليفزيون والسينما يتميز عن الجنسين الصحفى والاذاعى المسموع ، لان التحرير فيه يتوسل الى العين والاذن معا ، الامر الذى يزيد من قدرته فى التعليم والاقناع . او بعبارة اخرى فان التحرير فى كل جنس اعلامى يتوسل بخصائص الوسيلة ليقدم رسالة تتميز بالحيوية والواقعية ، فالتحرير الصحفي مثلا ، يسمح للقارىء بالسيطرة على ظروف التعرض الاعلامى ، وقراءة الرسالة اكثر من مرة ، فضلا عن ان لديه فرصة تطوير الموضوع فى مساحة اكبر وفقا لاهميته ، وتشير التجارب الى ان المواد المعقدة من الافضل تقديمها مطبوعة عن تقديمها شفهية ، ولو ان نفس المزية تسرى على المواد البسيطة السهلة . (٤٦) ومن الافضل استخدام التحرير الصحفى لمخاطبة الجماهير المتخصصة والجماهير صغيرة الحجم ، لانه يقتضى من القارىء جهدا اكبر من ذلك الذى يقتضيه التحرير فى الاجناس الاعلامية الاخرى .

فالقارىء لا يحس بأنه شخصيا جزء من عملية التحرير الاعلامى ، كما يشعر مستمع الراديو او الشاهد للسينما ، لانه لا يشعر بأن الحديث موجه اليه شخصيا ، ولكنه فى نفس الوقت جزء من العملية او مشترك فيها لانه مضطر الى المساهمة الخلاقة فى نوع من انواع الاتصال غير الشخصى – ويفترض بعض الباحثين ان مثل هذه المساهمة الخلاقة لها مزايا اقناعية . (٤٧)

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن القول ان تعريف التحرير الاعلامى عن طريق الوسيلة يعنى ان التحرير للاجناس الاعلاميه لا يستقل عن تكنولوجية وسائل الاعلام ذاتها ؛ فالكيفية التى يتم التحرير بها فى كل جنس على حده ، تؤثر وتتأثر بمضمون تلك الوسائل وهذه الوسائل التى هى امتدادا لحواسنا – كما يقول « ماكلوهان » هى اجناس اعلاميه لكل جنس منها فنه الاعلامى فى التحرير . ويقتضينا ذلك ان نعرف طبيعة كل جنس حتى نتمكن من السيطرة عليه واستخدامه الاستخدام الامثل فى تطبيقات البلاغة الجديدة .

---

(٦) Marry Boldstein, ,,Reading and Listening comprehnsion at various controll.d Rates'' (N. Y. 1940).

د . جيهان رشتى : الاسس العلمية لنظريات الاعلام ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٤٧) د . جيهان رشتى : نفس المرجع ص ٢٤٢ .

طبيعة التحرير الاعلامي وخصائصه :

التحرير الاعلامي طريقة في التفكير والتعبير ، فعملية التحرير هي التي تشمل مجالات التفكير من جهة وطرق التعبير عن هذه الافكار من جهة أخرى ، وهو على ذلك رؤية خاصة متميزة للحياة . فالاعلامي كما يقول الدكتور امام (٨) ـ ينظر دائما الى جمهوره ويقرر اذا ما كان قادرا على فهم ما يقول أو غير قادر على ذلك ، وهو لذلك يضفي على عمله الفني ابعادا ماكان ليضفيها عليه ، لولا هذه النظرة العملية للجمهور . ان فن التحرير الاعلامي هو جعل الاحداث والمعلومات والثقافة بل والفلسفة والعلم في متناول الجميع ، بطريقة واضحة مشوقة درامية .

وكلمة التحرير كما تبين مما تقدم في معناها الاعلامي تختلف عن المعنى اللغوي الذي يجانس بينها وبين « الكتابة » فكتابة الخبر هي افراغه في القالب الكتابي ، ونقله من باب الفكرة الى باب التدوين على الورق وفقا لاساليب الصياغة الاعلامية ، أما تحرير الخبر مثلا ، فيعني مراجعته ، مع احتمال اعادة كتابته ووضع العناوين الملائمة له واعداده للنشر أو الاذاعة في المكان الملائم له من الصحيفة او نشرة الاخبار .

ومع ذلك ، فان عملية التحرير الاعلامي تشمل الكتابة كعنصر من عناصرها وجزئية من جزئيات الكل التحريري ، لابراز معطيات الشكل والمضمون في الكيان التحريري : كرؤيا واتصال ، وهذه العملية التحريرية يتداخل فيها التفسير والتحليل والتقويم . وهذه العوامل الثلاثة هي السبيل الذي يسلكه المحرر الاعلامي في طريقه الى الاستكشاف وتكوين الرؤية ، التي تغدو بدورها أهم أسباب نجاح العملية الاتصالية الام ، التي يعتبر التحرير جزءا لا يتجزأ منها . فالتحليل مثلا يجعل الدارس للتحرير يستكشف موضوعه ليسبر اغوار المضمون الذي ينشد توصيله to communicate وليشيد العناصر التي تحتوي هذا المضمون في نسق اتصالي اعلامي ثم ينتقل الدارس الى مرحلة الكتابة ليتمرن على صياغة افكاره ، كخطوة اساسية للانتقال الى مرحلة التحرير الاعلامي .

والعلاقة بين التحرير والكتابة هي علاقة الكل بالجزء كما تقدم ، وهي تشبه من قريب ، علاقة التفكير بالكلمات ، فان الاعلام لا يتم بدون تحرير الرسالة الاعلامية المقصود نقلها وتلقيها كما أن التفكير لا يتم من غير استخدام الرموز ، فالتحرير كعملية تشمل التفكير والتعبير ، يعنى بصياغة الافكار من خلال الرموز ، سواء كانت الرسالة الاعلامية مسموعة او مطبوعة ، فانها تنقل الافكار والمعلومات والحقائق من خلال الرموز ليتلقاها الاخرون بالاذن او بالعين ، او بهما معا .

---

(٨) دراسات في الفن الصحفي ص ٢٧ .

ويأخذ توصيل الاخبار بصورة مادية معنى أبعد من الظاهر ، على ضوء العلم المادي ، فالعلم المادي يقرر أن كل ما يجري في الطبيعة ، انما يجري وفق النواميس المقررة ، وهذا التقرير يدفع تاريخ الكتابة الى اعماق الازل ، حيث كانت أعمال الانسان مسجلة قبل وقوعها ومقررة في اللوح المحفوظ . جرى بها قضاء الله ، وهي في مكنون علمه من قبل ان يولد الانسان ، او توجد الحياة الانسانية من اساسها . (٤٩)

وصلة التحرير باللغة هي صلة اللغة بالحياة ولكن « الكثير ممن لا يستطيعون قبول هذا يذهبون خطوة ابعد الى الاعتراف بان الكثير من المسائل الظاهرة في طبيعة التفكير ليس في الحقيقة اكثر من مسائل لغوية . ويوافقون على ان المنطق وما وراء الطبيعة ، بل حتى الرياضيات كلها في جوهرها بيئة اجتماعية ذات طبيعة لغوية في اساسها . وان دراسة اللغة لظاهرة غالية في كثير من حقول الفكر في يومنا هذا التي لم تكن من قبل نكاد نحس ان اللغة كانت ذات خطر بالنسبة لها .

وهكذا يتضح الان شيئا فشيئا اننا اذا اردنا ان نفهم الفكر والنتاج الفكري فالواجب ان ندرس اللغة ، واذا اردنا ان ندرس اللغة فعلينا ان ندرس عملها في المجتمع » . (٥٠)

ويمكننا اليوم ان نتحدث عن التحرير الاعلامي في وسائل الاتصال بالجماهير ، وهو اصطلاح اكثر دقة من اصطلاح التحرير الصحفي التقليدي عندما نشير الى التحرير في وسائل الاعلام الاخرى غير الصحف والمجلات . وكل نوع من انواع التحرير ـ التعبيري او الاقناعي او الاعلامي ـ يستخدم وسيلة ما ، اي انه يلتزم باستعمال قناة للارسال . وفي الاعلام ـ كما يذهب الى ذلك ريفرز وزميلاه ـ تصبح المؤسسة باكملها حاملة للرسالة التي يدور حولها فن التحرير الاعلامي ـ كالصحيفة ، او المجلة ، او محطة الاذاعة ـ وهي تستطيع حمل رسائلها الى الالاف او الملايين من الناس في وقت واحد تقريبا . وهي تتعرض ايضا للمشكلات التي تجابهها بوصفها مؤسسة اجتماعية ، كالمراقبة ، والقيود الحكومية ، والدعم الاقتصادي وغيرها .

فاصطلاح التحرير الاعلامي اذن يشمل التحرير في جميع وسائل الاعلام التي تنقل الخبر والتعليق الى الجمهور ، وكل ما يجري في العالم مما يهم الجمهور ، وكل فكر وعمل ورأي تثيره تلك المجريات يكون المادة الاساسية للتحرير الاعلامي ، وكما اشار ملتون في ندائه العظيم من اجل الحرية للنشر ، يستحيل علينا ان نعين اي رأي هو الذي سيقرر للجمهور ما هو الجيد والجدير بالقراءة ، وليس غير مناصرة الجمهور قياسا مأمونا يمكن قبوله .

---

(٤٩) احمد حسين : « الطاقة الانسانية ص ١٥٣ ـ ١٩٥٤ » .

(٥٠) م . م لويس (ترجمة الدكتور تمام حسان) : اللغة في المجتمع ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

وليست حرية القول وحرية الاعلام غايتين في حد ذاتهما ، فهما كما يقول « بوند » في كتابه عن الصحافة – انما تمكنان الناس من التعبير بحرية عن افكارهم حول الاحداث بحيث يمكن اتخاذ افضل قرار مستطاع من بين جميع الوان الاراء الواردة وهي ليست مجرد « تحرر » بل هي « تسويغ » ايضا . والمرء قد يسبب شرا لا بما يفعله فحسب ، بل بما قد لا يفعله ايضا . وكما قال اندرو هاملتون عام ١٧٣٥ ، في محاكمة الطابع والناشر بيتر زنجر « . . . اني استأذن في ان ارسى هنا قاعدة ، مؤداها ان طمس البينة ينبغي ان يؤخذ كاقوى بينة » .

وهذه الحرية الاعلامية انما يقصد من ورائها ان يقوم الاعلام باداء دوره الحقيقي . وبالقياس الى التحرير الاعلامي ، نجد ان المجتمع الذي يزداد نموه وتتنوع تخصصاته وتتعدد مشكلاته ، لا يلبث ان يجد في التحرير الاعلامي ضرورة حتمية ، لبعد كل البعد عن الخبرة الفردية المباشرة . ذلك ان هذا المجتمع المتحضر كما يقول الدكتور امام (٥١) لا يلبث ان تظهر فيه علوم وفنون وتخصصات بالغة التجريد والتعقيد فيصبح التحرير الاعلامي حلا لصياغة المعرفة بطريقة عملية واقعية . وهنا يكون الاعلامي وسيطا اجتماعيا بين الخبير المتخصص من ناحية ورجل الشارع او الرجل العادي من ناحية اخرى . وفي هذا الصدد يقول الكاتب الامريكي والتر ليمان . (٥٢)

« ان المجتمع الحديث لا يقع في مجال الرؤية المباشرة لاحد ، كما انه غير مفهوم على الدوام ، واذا فهمه فريق من الناس ، فان فريقا آخر لا يفهمه » .

وهكذا يأتي التحرير الاعلامي للشرح والتفسير والتكامل . فالتحرير الاعلامي ، اذن هو فن حضاري ، يرتبط بالتقدم العلمي ويتطلب انتشار التعليم ، لكي يجعل المجالات البعيدة والمعقدة في متناول الجمهور ، والاعلامي الناجح في المجتمع الحديث – هو – كما يقول الدكتور امام (٥٢) ايضا – الذي يتقن مهارة الاتصال من خلال نشر الاخبار والتعليق عليها وتفسيرها ، وتبسيط المعلومات وتجسيدها ، وتقديم صور العالم واحداثه بشكل واضح ومجسد ودرامي ، وفي اشكال خالية من التجريد او الاكاديمية او التعقيد .

ومثال ذلك البحوث الاكاديمية او العلمية الجادة ، بمصطلحات العلم المجردة ، واساليب التعبير الاكاديمية ، وطرق الاستدلال المنطقية ، لا تعتبر من التحرير الاعلامي في شيء ، حتى لو نشرت في صحيفة سيارة ذات توزيع مرتفع ، ولكن عندما يأتي الفنان الصحفي ، ويأخذ هذا

(٥١ ، ٥٢) دكتور ابراهيم امام : دراسات في الفن الصحفي ص ٧ ،

Walter Lippmann Public Opinion (1922) PP. 29-81.

(٥٢) نفس المرجع السابق .

البحث الاكاديمي المجرد ، ليعالجه علاجا جديدا بالتبسيط ـ والتجسيد والتصوير ، والتشبيه الواقعي الحي ، مستعينا بفنون الاخراج الصحفي من عناوين وصور ورسوم وكاريكاتور ، واهم من ذلك كله لغة واقعية خالية من التعقيدات المجردة فيصح القول بان هذه هي بداية التحرير الاعلامي (٥٤) .

وهكذا يمكن اعتبار التحرير الاعلامي رؤية جديدة للعالم ، تنطبق مع رؤية الشخص العادي بمعنى ان الفنان الاعلامي يترجم المصطلحات الجامدة المجردة المعقدة الى مصطلحات الواقع العملي النابض بالحياة . وهنا نجد أن التحرير الاعلامي فن ابتكاري بمعنى الكلمة . فالسؤال الذي يطرحه المحرر الاعلامي دائما هو :

كيف يمكن ان تصل هذه المعلومات الى الجمهور بطريقة مفهومة مستساغة ؟ ومن اهم الخصائص المميزة في وسائل الاعلام ، ان جماهير المستقبلين يختارون من بين تلك الوسائل ، فهم يقررون ما اذا كانوا سوف يشاهدون التليفزيون ، او يقرأون كتابا او صحيفة . وهم يختارون ما يشاءون من المضمون المتاح لهم ، فقد يشاهدون برنامجا تليفزيونيا اخباريا ، أو انهم قد يحولون مفتاح الجهاز الى قناة أخرى حيث يعرض برنامج ترفيهي ، كما انهم يختارون الاوقات التي يستخدمون فيها وسائل الاعلام (٥٥) .

وثانية هذه الخصائص في وسائل الاعلام عمل جماعي وليس عملا فرديا يصدر عن منظمة هي الصحيفة او محطة الاذاعة او التليفزيون الخ ، فالصحيفة مثلا تحلل الرموز الواردة اليها من الاخبار والتقارير وتحديد صورتها ، ثم تعيد صياغتها وتحدد مكانها في اعمدة الصحيفة بعد تحريرها ، ثم تتولى طباعتها وتوزيعها . وتلك العملية يقوم بها الفرد في الاتصال الشخصي بمفرده ، على حين تقوم جماعات العاملين في الصحيفة بكل ذلك . (٥٦)

وثالثة هذه الخصائص ان التحرير في وسائل الاعلام يشتق طابعه من طابع الوسيلة وخصائصها ومميزاتها في ارسال الاف الرسائل في وقت واحد ، لجمهور ينعدم التفاعل المباشر او رجع الصدى بينه وبين وسيلة الاعلام ، كما ان التحرير الاعلامي يحكمه قانون الاختيار في تحقيق المنفعة للجمهور ، باقل جهد يبذل ، والقانون الذي وضعه « فرانك موت » يبين ان الاختيار يتوقف على العلاقة بين الفائدة التي ينتظرها المستقبل من جهة ، والجهد الذي يبذله من جهة اخرى ، ومعادلته هي (٥٧) .

---

(٥٤) دكتور ابراهيم امام : نفس المرجع ص ١١ .

(٥٥) ويلبرز وزميلاه : نفس المرجع ص ٢١ .

(٥٦ ، ٥٧) د . زيدان عبد الباقي : اساليب ووسائل الاتصال ص ٢١٨ ،

Quoted by O'Kara, R. C. Media for the Millions (N. Y. 1961)

الاختيار = المنفعة او الاستمتاع المتوقع من الرسالة / بذل اقل جهد ممكن للحصول على الرسالة

والمستقبل من وجهة النظر هذه يفضل الرسالة المنتقاة من طابع الوسيلة والمكتسبة لمميزاتها والمرسل الجيد هو الذى يستغل مكانات الوسيلة لتحقيق القانون ، وذلك بهدف تحقيق وظيفة الاعلام الاساسية من حيث تزويد الجماهير بالاخبار والمعلومات الصحيحة الدقيقة ، التى تيسر لهم فرصة لتكوين رأى عام يعبر موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتها .

ورابعة هذه الخصائص ان الامر يحتاج فعلا الى عدد من وسائل الاعلام اقل مما كان مستخدما من قبل ، وذلك لان الوسائل تستطيع الوصول الى جماهير ضخمة ومنتشرة انتشارا عريضا . فلكي تحرر رسالة اعلامية لتبعث بها عبر البلاد العربية كلها عن طريق الصوت البشرى وحده ، يحتاج الامر الى اعداد هائلة وهائلة من المتحدثين . ولكن شبكة اذاعية واحدة تستطيع ان تصل الى الملايين من الناس فى نفس الوقت . (٥٨)

وخاصة هذه الخصائص ان وسائل الاعلام تسعى دائما لاجتذاب اكبر عدد ممكن من الجمهور ـ تتوجه الى نقطة متوسطة افتراضية يتجمع حولها اكبر عدد من الناس . ونادرا ماتكون هذه النقطة هى ادنى المستويات ، فهى انها ترتفع عادة الى المستوى المتوسط فى كثير من اجهزة الاعلام .

وهنا يغدو التحرير الاعلامى طريقة تفكير ورؤية خاصة متميزة للحياة . فالاعلامى ينظر دائما الى جمهوره ، ويقرر اذا ماكان قادرا على فهم مايقول او غير قادر على ذلك وقد درج رؤساء تحرير الاخبار على توجيه المندوبين الناشئين بالكتابة الى ذلك « الشخص الذى يحرك شفتيه عندما يقرأ » ، وهو الشخص الذى يمثل ادنى مستوى بين قراء الصحف واذا كان هذا الشخص يستطيع فهم الاخبار الصحفية ، فان القراء الاكثر تعليما يستطيعون ذلك ايضا (٥٩) والاعلامى لذلك يشفق على عمله الفنى ابعادا ماكان ليضفيها عليه لولا ، هذه النظرية العملية للجمهور . ان فن التحرير الاعلامى هو جعل الاحداث والمعلومات والثقافة بل والفلسفة والعلم فى متناول الجميع ، بطريقة واضحة مشوقة ودرامية . (٦٠)

ولما كانت وسائل الاعلام تخاطب قارئا ، اومستمعا ، أو مشاهدا افتراضيا ، فانها تفقد روح الالفة التى تسود عند الاتصال بشخص واحد من الاشخاص . فالتقرير الذى تنشره صحيفة عن حدث ما يفتقد كثيرا من الالفة التى يتميز بها خطاب يرسله صديق الى صديقه عن هذا الحدث .

(٥٨) وسائل الاعلام والمجتمع الحديث ص ٢٢ .

(٥٩) دكتور ابراهيم امام : المرجع السابق ص ٢٧.

(٦٠) ريفرز : المرجع السابق ص ٢٢ .

ولذلك يسعى التحرير الاعلامى ، بدوريةوسائله وعموميتها وشمولها واستمرارها ، الى اضفاء اهتمام انسانى على احداث العالم بطريقةتثير الجمهور ، وتشحذ قواه ، وتملك مشاعره . على أساس من الافتراضات اليومية الوثيرية ،وتأكيد الوجه الدرامى ، والاهتمام الانسانى عن طريق احداث العالم اليومية . (٦١)

وسادسة خصائص التحرير الاعلامى ، انه يتم فى الاعلام بواسطة مؤسسة اجتماعية تستجيب الى البيئة التي تعمل فيها . وهناك — كما نعلم — تفاعل بين وسائل الاعلام والمجتمع . ولاتؤثر وسائل الاعلام فى النظام السياسي والاقتصادى والاجتماعي الذى تعمل فيه فحسب ، وانما تتأثر ايضا بذلك النظام . ومن ثم فعلينا — كمايقول ريفرز وزميلاه — ان نفهم المجتمع لكى نفهم وسائل الاعلام التى تعمل فيه صحيحا . ولكى تفهم المجتمع لابد من دراسة تركيبه وافكاره الكبرى ومعتقداته الرئيسية . وكل ذلك معناه ان معرفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والفلسفة ضرورة لكى نفهم التحرير الاعلامي فهما حقيقيا .

ويذهب « بلسكت » وزميله (٦٢) الى تشبيه هذا الفن بالكلمات المتقاطعة من حيث الدارته المعرفة ودلالات الكتابة والصياغة والتحرير والتنقيح والاعداد للطبع والتجميع والترتيب والتنظيم والملائمة ، والايجاز ، والتأليف ، والتصور العام ، والانتقاء والاعداد للنشر وطواعية القراءة والاستماع .

وعلى الرغم من الالية الذاتية (Automation) توفر للصحف ادارة الاجهزة بالوسائل الميكانيكية والالكترونية التى تحل محل حواس الملاحظة عند الانسان وتوفر عليه العناء والجهد ، وفى ذلك مايمكن من اصدار الصحيفة على نحو افضل من مصادر معدة من قبل ، فان تلك الوسيلة تتطلب انتقاء افضل ، ومحاكمات عقلية وتمييزا قاطعا من القائمين على التحرير . فالالية الذاتية تزودنا فوريا باسترجاع خلفية المادة التى تفسرها وهى بذلك تكون قد اسهمت اكبر اسهام فى تزويد مكاتب التحرير Desks بالمعاني المنشودة لتحقيق الوضوح والتكامل فى التقارير الاعلامية الى انها تجعل فن التحرير فنا راسخا متماسكا ،متوقد الذهن ، سريعا ، وتمكن المحرر والمراجع من تحرير النص على شاشة مرئية . ومن هذه العملية يتضح ان العنصر البشرى فى التحرير جزء لايتجزأ من العملية التحريرية The editing Process ، بل انه يشكل صلبها ومنطلقها . (٦٣)

---

(٦١) دكتور ابراهيم امام : المرجع السابق ص ٢٧ .

(٦٢) Playd K. Basketts and Tack Z. Sisoors. The Art of Edition P. 2.

(٦٣) ريمون روية (ترجمة عادل العوا) السيبرنيطيقا وآصل الاعلام ص ١٢ .

وتفسير ذلك سوبرناطيقيا، انك عندما تبعث برسالة فانت الذى الفتها وحررتها قبل ايداعها الالة . وان الحس السليم يعتبر انك اصل الاعلام، وان الالة قناة نقل وقد يجرؤ هذا الحس السليم على أن يضيف ، بدون ارتياب ، اذا ماتركنا له وقتا كافيا للتفكير بان « الانا » هي المبدع المطلق للاعلام . فهو يعرف حق المعرفة ان الرسالة ليست ابداعا صرفا ، حتى ولو لم يستعن المنشىء ب « دليل » في الانشاء التجارى ولا بكتاب متبادل من كتب التبصير في السلوك الجيد في الحياة . ولكن الحس السليم يعرف ان موضوعات موحية قد اسهمت في انشاء الرسالة بحسب طراز خاص . فال « انا » ليست بالاصل المطلق، ولكنها في الوقت ذاته ليست مجرد عضو نقل . ونحن ندرك بجلاء ان امر اعداد اكثر الرسائل تواضعا ليس لمجرد افساح المجال امام العقل ليعمل بل انه اقحام « غذاء » ما في مجال ما ، « غذاء » تقدمه للالة ولا يمكننا ان نستمده من اى جزء من اجزاء مجال آخر .

وليس هنالك من الناحية النظرية ، مايحول دون بلوغ مردود كامل مائة بالمائة ، لان استخدام الاعلام ، من جهة اولى ، بقراءة الرسالة ، لايشوهها ، او انه لايشوهها الا تشويها متناهي الصغر ، ولان من الممكن ، من جهة اخرى ، ان نقلص بمايشبه حركة الخط المقارب ، كل ضجيج القاع وكل الطفيليات المشوشة الطارئة على الاعلام او ان نزيلها جميعا عندما تتعرض عناصر الرسالة لخطر الانحدار الى مادون عتبة امن معينة . وهذا المردود الجيد ، بل هذا المردود الكامل من الناحية النظرية ، هو الذى يتيح نشر اعلام معطى الى ما لايحده حد . ان في وسعنا ان نضاعف ، بصورة غير محدودة تقريبا ، نسخ جريدة او صورة شمسية . وفي وسعنا ايضا توسيع بنية اعلامية . ولكن عادة نسخ بنية او توسيعها لايعني زيادة الاعلام ذاته . ولئن خلصت الات الاعلام من الرضوخ لمبدا « كارنو » ولسقف المردود الذى يحدده ، فانها لاتخلص من مبدا حفظ الاعلام فليس في قدرتها ان تخلق بالمجان اعلاما ، كما ان الالات البسيطة تعجز عن خلق عمل بالمجان .

وعلى ذلك فان المناهج الجديدة لم تغير الشكل والمضمون تغييرا جوهريا ، كما يشير الى ذلك احد كتاب « النيويورك تايمز » حين يقول ان هذه المناهج قد تبدل ـ الحبر الاحمر بحبر اسود على صفحات الجريدة المتوازية ، وهي حين تعاون الناشرين على الاستعمال الافضل لخصائص « السلعة » فانها في المقابل لايمكن ان تلغى العقول البشرية ، او بتعبير ادق لايمكن ان تحجب الجهد البشرى للمحررين الاكفاء . (٦٤)

---

(٦٤) Nathaniel M. Gerstenzang. ,,The News paper's Biggest Personnel Problem'' Columbia Jouralism Review, 4 : 40 (Winter 1966).

ذلك ان القدرات التحريرية لهؤلاء لايمكن ان تستبدل بالحاسبات الالكترونية ، (٦٥) ومن هذه القدرات مثلا : القدرة على تحرير النص ، أولا ، ثم القدرة على تأليف العناوين بعد ذلك . ولاتقل الثانية من الاولى في درجة الاهمية ، ان لم تزد عليها ، ذلك ان فن التحرير الاعلامي يتطلب بالضرورة الاعتماد على عنصر « التقويم » غير الملموس ، وعلى رصيد من الثقافة كبير ، واستخدام الذاكرة الانسانية memory ويتميز بالمبادأة وتحويل النص المراد تحريره الى نص ممتع ، يثير الخيال وحب الاستطلاع ، وفن التحرير يقتضي من المحررين القدرة على التصرف والاختيار والتمييز والتعبير الساخر والنزوع الى التأكد من الحقائق ، ومايرتبط بهذه القدرات من صفات تميز هذا الفن الاعلامى .

وتأسيسا على هذا الفهم ، فان المحرر الجالس في مكاتب التحرير بوسائل الاعلام Deskman يعتبر رجل الاتصال الاول Prime Communicator (٦٦) ذلك لانه ينوب عن القارىء مؤقتا ، وهو من اجل ذلك يلتزم بما يفرضه الضمير ، من جهاد ونضال مع المادة التحريرية ليخلق منها قصة واضحة المعالم ، ذات مغزى ومعنى ، ومبنية على اساس منهجي ، وفي اسلوب مباشر امين ، واضح ، دقيق . فتقويم الاخبار يرمي اساسا الى تيسير الفهم بالنسبة للقارىء ، حتى يدرك مغزاها وآثارها . ثم ان المحرر يحاول بهذه ملاحقة الجمهور من طريق العنوان المنشود ، وهنا نجد تقاربا واضحا بين المحرر editor والكاتب الابداعي Creative writer من حيث ان كليهما يتحدث الى الجمهور بصورة صحيحة ، ويطارحه الافكار والعواطف ، في الفة وايناس .

ويقتضى ذلك ان نراعى في عملية التحرير معالجة مايسميه خبراء نظرية الاعلام «بالتشويش» او الاضطرابات التي تعترى قناة الاتصال والتي من شأنها ان تغير من الرسالة بعد أن — تنطلق من المرسل . وهناك تماثل للتشويش في الاتصال الخبرى News communication فالتشويش يتدخل غالبا في الاتصال الاخبارى ، لان القراءة او الاستماع يجريان عندما يكون المستقبل منشغلا بعمل آخر ، كأن يكون على مائدة الطعام او في سيارة او ما الى ذلك . فالقارىء او المستمع ايضا اقل التزاما عند قراءة الصحيفة او الاستماع الى الاذاعة مما هو عند قراءة كتاب . ويرجع ذلك الى ان الوقت المتاح لقراءة الاخبار والاستماع اليها محكوم عليه غالباً بنمط الحياة الخاص بالمستقبل . فالاتصال الاعلامي يجب أن يأخذ مكانه بين الوان النشاط الاخرى التى تتطلب التزاما جادا او التى تقدم عائدا ذا قيمة . وعلى ذلك فان قراءة الاخبار تحدث اثناء الافطار او في القطار او قبل وقت التسويق او مشاهدة برامج التسلية في التليفزيون .

(٦٥ و ٦٦) Floyd K. Op. cit. P. 2.

ولكي يقدم المحرر الاعلامي تعويضا عن التشويش الذي يتوقع حدوثه في قناة الاتصال او وسيلة الاعلام عليه ان يختار الرموز ويرتبها على النحو الذي يجعل فهمها ميسورا .

والتكرار في نظرية الاعلام هو ذلك الجزء من الرسالة الذي يبدو غير ضروري ، ولقد اوضح علماء الاعلام بطريقة رياضية ان التكرار يزيد من احتمال ان يصبح التحرير الاعلامي مفهوما ، واذا حدث ان فقدت اجزاء من الرسالة بسبب التشويش مثلا فان الرسالة يمكن ان تكون مفهومة على الرغم من ذلك ، في حالة ما استخدم التكرار في تحريرها استخداما فنيا فان رموز التكرار تزودنا بدلالات سياقية كافية بحيث تعوض المستقبل عن الاجزاء المفقودة .

ويمارس التكرار على نطاق عالمي في الريبا وفي مخاطبة الجماهير ، ولكن بعض المحررين الاعلاميين يتخوفون على نحو مبالغ فيه من التكرار . الا ان المحرر الاعلامي يستطيع ان يستخدم التكرار ان يكون مملا بدرجة مزعجة . فهناك فارق حقيقي بين تكرار الكلمات باسلوب رتيب وبين التكرار الذي يهدف الى زيادة فعالية الاتصال ، ومن هنا كانت مشكلة المحرر الاعلامي هي كيف ييسر الفهم السريع دون ان يجعل القارىء او المستمع او المشاهد يشعر كما لو كان يستمع الى موسيقى الغرب التي لا يعمل فيها الا مزمار واحد بعض تقاسيمها !

وكما يقول فاولر Fowler (٦٧) ان التجنب السيء للتكرار يفسد ١٢ جملة مقابل كل جملة تفسد بسبب التكرار السيء ، او بعبارة اخرى فان التكرار السيء يفسد جملة واحدة ، ولكن تجنب التكرار يؤدي الى افساد ١٢ جملة . ان الاقلال من احتمال الملل هو ما اسماه « هربرت سبنسر » منذ مائة عام : « الاقتصاد في انتباه القارىء » عندما كتب يقول في كتابه : « مقال حول فلسفة الاسلوب :

« ان القارىء او المستمع ليس لديه سوى طاقة محدودة من القوة الذهنية المتاحة في اية لحظة ، اذا اتخذنا من اللحظة مقياسا ، ومن اجل ان يتعرف على الرموز المعطاة له ويفسرها ، فان ذلك يتطلب جزءا من هذه القدرة الذهنية ، ومن اجل التنسيق والجمع بين الصور المراد توصيلها اليه فان ذلك يتطلب جزءا آخر من هذه الطاقة الذهنية . اما ذلك الجزء الذي يتبقى بعد ذلك فهو فقط الذي يمكن استخدامه للتحقق من الفكرة المراد نقلها اليه . ومن هنا فكلما زاد الوقت والانتباه اللذان يبذلهما من اجل الحصول على فهم لكل جملة كلما حدث هذا ، قل الوقت والانتباه اللذان يستطيع ان يعطيهما للفكرة المتضمنة في الرسالة وقل ايضا الوضوح الذي يدرك به تلك الفكرة . . واذا استخدمنا الاستعارة التي تذهب الى ان اللغة هي عربة تنقل الفكر فانه يبدو معقولا ان نعتقد بانه في جميع الحالات ان الاحتكاك والقصور الذاتي لهذه العربة وباختصار

---

(٦٧) Dictionary of Modern English Usage.

ـ فانه فى التكوين العام للرسالة نجد ان الشيء الرئيسى ان لم يكن الشيء الوحيد الذى يجب عمله هو الاقلال من هذا الاحتكاك والقصور الذاتى الى اقل كمية » .

ويعنى التحرير الاعلامى بالتعرف على عمليات : القراءة والاستماع والمشاهدة ، فاذا فحصنا عملية استخدام العين فى القراءة ، مثلا ، فسنجدانها تستوعب الكلمات فى مجموعات ، بمعنى ان العين تتحرك من اليمين الى اليسار مع التركيز على نقاط معينة فى السطر ، وحين تتخذ وحدة زمنية ، فانها تتضمن عدة كلمات وفى حالة القارىء البطيء قد تتضمن جزءا فقط من كلمة واحدة طويلة . ومن وقت لآخر تحدث ارتدادات ، فالعين تعود الى الوراء لكى تعيد قراءة جزء من سطر او بضع كلمات طويلة ، وتظهر البحوث العلميــة ارتدادات اكثر من ـ جانب القارىء البطيء عنه عند القارىء السريع ، ومهما كانت سرعة قراءة المرء فان عينيه تركزان على كلمات ومجموعات مــن الكلمات ، حيث يختزن فى ذاكرته المعانــى المؤقتة الى ان يصل الى نهاية الجملة ، وهــذه عملية نشطة يفكر القارىء خلالها جنبا الى جنب مــع الكاتب يستوعب الصور ويقومها . وهــو يستوعب كل كلمة او مجموعة من الكلمات فى اطار المضمون الذى تقدم اليه فى الكلمات او الجمل ومن اجل ذلك يعنى التحرير الاعلامى كذلك بالسياق Context ويقصد به تلك الاجزاء من نص محرر للقراءة او الاستماع التى تسبق او تلى تعبيرا محددا وترتبط بشكل مباشر ، ويسهل الاتصال عندما يدرك المحرر كيفية اجراء السياق وبنائه فى رسالته ، وعلى ذلك فقد يستخدم المحرر كلمــة غير مألوفة الا انه ما عنى بتزويدها بسياق جيد .

ان مساهمة السياق فى المعاونة على الفهم قد اظهرها بطريقة عملية « ويلسون تيلور » الذى ابتكر مقياسا للقدرة على القراءة Read ability يختبر به قدرة القارىء علــى التزود بالكلمات المفقودة « التى اتشغل عنها » فى اى نص مــن النصوص التى تسقط منها كلمة بعد كل عــدد معين مــن الكلمات ، ثم يطلب مــن القارىء ان يستنتج هــذه الكلمات الضائعــة او المفقودة . والنجاح فى معرفة الكلمات المفقودة فى نص معين هو مقياس القدرة على قراءة ذلك النص ويرتبط النجاح بطبيعة الحــال بالسياق الذى ضــمنه المحرر نصه . كذلك فان « تيلور » قد مضى ابعد من ذلك واوضح بطريقة عملية الاســهام الهام للسياق فى الفهم عندما قدم موضوعات فيها نصوص من كتابات « جرتوشتاين » و « جيمس جويس » ، فمثلا يستخدم الاخير كلمات غير موجودة فى القاموس ، ولذلك سجل المبحوثون فهما منخفضا فى كتابات « شتاين » و « جويس » رغم ان نفس النصوص سجلت قدرة عالية على القراءة على نحــو معقــول على اســاس مقياس « فليش Flesh » الذى يقاس به متوسط طول الجملة ـ ومتوسط طول الكلمة ، ومن اجــل ذلك فان اختبار «تيلور» يعاون التحرير الاعلامى فى قياس مدى ارتباط استقبال او اســتيعاب المستقبل لرسالة ما وفقا لطريقة المحرر الاعلامى فى تحرير الرسالة ، اما الســياق غير اللفظى فانه

يمثل أيضا عنصرا من عناصر التوصيل ولكن أهميته بالنسبة للصحف وخاصة عند عزو الاخبار الى مصادرها (٦٨) كما يحدث عندما تورد صحيفة ما بيانا لشخص من الاشخاص ، فهذا الشخص الذي نقل عنه البيان أو التصريح هو السياق غير اللفظي للبيان أو التصريح، وبعض القراء يفسرون اي بيان في ضوء الشخص الصادر عنه (٦٩) .

قدم آش Asch بيانا حول الرأسمالية والمساومة الجماعية الى مجموعتين من المبحوثين ابلغت اولاهما بأن البيان صادر عن « اريك جونستون » رئيس الغرفة التجارية للولايات المتحدة ، وابلغت الاخرى بأن صاحب البيان هو « هاري بردجز » وهو زعيم عمالي راديكالي وحيث ان البيان كان اكثر اتساقا مع الزعيم العمالي كمصدر له فان خمس المبحوثين الذين ابلغوا بأن **«جونستون»** هو مصدر البيان تشككوا في أن يكون هو الذي اصدره ، الا أن اربعة اخماس المبحوثين فسروا البيان على انه يمكن ان يكون متسقا مع المصدر ، اي انهم غيروا محتوى الاتصال لكي يلائم السياق المفترض . وهذه الحقيقة الخاصة بعلم النفس الاجتماعي يجب أن تؤخذ في الاعتبار من جانب التحرير الاعلامي .

* * *

---

(٦٨) Chilton R. Bush : Newswriting and Reporting public Affair PP. 87-90.

(٦٩) Asch : Social pocsyology, Newyork 1962 P. 420-426.

نظرية الخيال عند جاستون باشلار

محمد علي الكردي

رئيس قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

يعد جاستون باشلار (١٨٨٤ – ١٩٦٢) من كبار أساتذة فلسفة العلوم المعاصرين في فرنسا ، وكانت له ، في الوقت نفسه ، اهتمامات كبيرة بالشعر والشعراء جعلته يكرس لموضوع الخيال والصور الشعرية عددا لا بأس به من الكتب القيمة ، وهي التي نقوم بدراستها في هذا البحث .

يقوم الخيال عند جاستون باشلار على مبدأين أساسيين هما مبدأ **المادة** ومبدأ **الإرادة**، ويتيح **أولهما** ، – وهو المبدأ الذي يجعل من الإنسان كائنا عميق الجذور ، راسخ القيم – للكاتب أن يقيم نظريته عن الخيال المادي بانتقاء القوالب الصورية التقليدية التي أضفى عليها طول الاستعمال والتكرار طابعا أليفا مرفقا . أما **ثانيهما** ، وهو دفعة نفس مرهفة ، دقيقة وشفافة ، فيمكنه من صياغة الجانب الآخر من النظرية ، وهو ما يسمى بخيال الحركة أو الخيال « الدينامي » . وعلى هذا النحو ، يستطيع الكاتب ، بخياله المزدوج ، أن يحلق بين الأرض والسماء كما يحلو له ، وأن يصنع ما يروم من الصور الفريدة المبتكرة ، وأن يحول – بفضل « كيمياء » لا حاجة فيها إلى حجر فلسفي – أبسط الأشياء إلى عالم مدهش رائع .

تقوم إذن هذه النظرية على مدخلين مختلفين ومتكاملين معا ، نظرا لارتباطهما وتداخلهما بطريقة جدلية تسهل الانتقال من مستوى إلى آخر ، إلا أنهما يتطلبان منذ البداية تمييزا دقيقا بين حلم النائم وحلم اليقظة ، وبين عمل الناقد الأدبي ، الذي يعنينا هنا ، وعمل المحلل النفسي الذي لا يرى في النصوص إلا جانبها « الاكلينيكي » . ونلاحظ منذ البداية أن باشلار يفضل حلم اليقظة على حلم النائم **والمنهج الظاهري** Le méthode phénoménologique القائم على دراسة الظاهرة في علاقتها التكوينية الحية بالوعي أو الشعور المدرك على منهج التحليل النفسي الصرف ، فالحلم الذي يعنى به المحلل النفسي ليس إلا

الوجه المجهد الكالح والقناع العابس الثقيل الذى تحمله الرغبة بعد افلاتها من ظلمات اللاشعور . وهو ، من جهة اخـرى ، لا يستطيع بعد ان عذبه الكبت الطويل وانتشاه الوصول الى وهم الخلاص ، الا ان يقدم لنـا جروحا لم تندب بعد ، واحاسيس مؤلمة شاغلة لا تصلح الا مادة للكوابيس . الا انه هناك ، مع ذلك ، تحليل نفسي وتحليل نفسي ، وباشلار لا يرفض كل تحليل نفسي . ويجدر بنا ان نشير ، فى هذا الصدد ، الى عنوان أول كتاب الفه الكاتب من الخيـال وهـو : **« التحليل النفسي للنار »** (١)

ان التحليل النفسي الذى يرفضه باشلار فى مجال الشعر والخيال هو تحليل فرويد ، حيث يرتبط الكبت بضرورة عضـوية مؤلمة وشاقة ، والتحليل الذى يكلف به ويقبل عليه هو ذلك التحليل الذى يقوم على مفهوم ما قبل الشعور (le préconscient) وليس على اللاشعور ذاته ، وهو يحدد لهذا المفهوم منطقة وسطى بين الشعور واللاشعور ، وهذا ما ينسجم والطريقة الظاهرية التي لا تؤمن بالدوافـع الحتمية . ويقول باشلار فى هذا الموضوع : **« على وجه الدقة ، ان احدى مميزات تحليل المعرفة الموضوعية الذى نقترحه يبدو لنا انه تبين منطقة اقل غورا من تلك التى تدور فيها الغرائز والدفعات الاولية ، ونظرا لان هـذه المنطقة متوسطة الموقع ، فهى ذات تاثير بالغ على الفكر الواضح والفكر العلمى . »** (٢)

وكما اشرنا الى ذلك يمكن رد هذا النوع من التحليل النفسي وممارسـاته الـى نمط ظاهرى او وجودى نظرا لاعتقاده على ذات مدركة او شبه مدركة تمتلك حرية التخيل والقدرة على الخلق والابداع . (٣) الا ان هذه الحرية التي يتمتع بها الخيال ، والتى تعد من اهم خواصه ، لا يمكن لها ان تعمل فى فراغ . لذلك نراها تخضع لمجموعة من الاطر المحركة يستعيرها الكاتب من مذهب يونج فى التحليل النفسي ، هذه الاطر هي **النماذج** (archétypes) **الخيالية الاولية ومركبات او عقد** (complexes) **الثقافة** التى تفترض وجود نوع من اللاشعور الجمعى (٤) . ولقد اكتشف يونج هذا النمط من اللاشعور اثر اكتشافه لوظيفة **التجاوز** (transcendance) التى تتطور خلال عملية التنوع النفسى للفرد (individuation) وتكوين الشخصية ، الامر الذى يدعو يونج الى القـول بـأن : **« الاحلام ليست مجرد خيالات واوهـام ، لانها » ، على الاكثر ، نوع من التمثل الذاتى لتطورات لا واعية ، وهذا التمثل هو الذى**

---

(١) Caston Bachelard, **La psychanalyse du feu.** Paris, Gallimard, 1949

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٠

(٣) Vincent Therrien, **Le révolution de Gaston Bachelard en critique littéraire.** Paris, Klincksieck, 1970.

يعتبر مؤلف هذا الكتاب ان التحليل النفسي الذى يقبله باشلار من النوع الوجودى نظرا لاعتماده على مفهوم الحركة او الايقاع الدينامي الذى يجعل من الصورة الشعرية مجموعة متناسقة من الذبذبات النفسية . انظر ص ـ ٣٠٠

(٤) الترجمة الفرنسية : Carl Gustav Jung, **Dialectique du moi et de** l'inconscient. Paris, Gallimard (Idees), 1964,p.40

بالرغم من ذلك لم يفت فرويد الاشارة الى نوع من اللاشعور القديم فى كتابه عن الحلم وتفسيره . راجع الترجمة الفرنسية : Sigmund Freud, **Le reve et son interpretation.** Paris, Gallimard, (Idees), 1973, p. 114.

يتيح لنفسية الفرد انضاج وتجاوز الطابع غير المتسق لبعض العلاقات الشخصية » (٥)

ومن خلال هذا التجاوز الفردى الى الجمعى ومن الشخصي الى ما هو عبر الاشخاص ، يصل اللاشعور الى بعض القوالب العقلية القديمة ، وذلك عامة بواسطة عدد من الصور البدائية ، ومن لم يتبين ان هناك طبقتين من اللاشعور : طبقة شخصية تصل الى الوعى وترقى الى الادراك عن طريق مجهود الذات وطبقة جمعية تقدم للاولى رصيدا من الصور الاولية وذخيرة من النماذج الخيالية الكامنة التي لا تعتبر ، فى نظر يونج مجرد تصورات موروثة فحسب ، **بل ابنية ومقولات وراثية تحكم حركة الحياة النفسية ذاتها .** (٦)

ان الظاهرة الخيالية التى يتوصل اليها باشلار تتميز بخطواتها الخاصة وسماتها المحددة ، فهى ليست ادراكا شبقيا ، مغلقا على ذاته لعدمية الاشياء وغيبتها ، كما هو الحال فى فلسفة سارتر (٧) ومنحاه فى دراسة الخيال،بل هى ادراك مباشر لجوهر الموجودات . لذلك يقول لنا « مارجولين » : **« ان ترجمة الصورة فى لغة اخرى غير لغة الشعر يعد فى نظر باشلار خيانة حقيقية ، لأن ذلك معناه اننا نرفض ان نرى الوجود ذاته فى الصورة . »** (٨)

ان الخيال عند باشلار اشبه بعملية ديناميةمنظمة للنفس البشرية وبعنصر تنسيق للتصورات العقلية لا يمكنهما ، باية حال من الاحوال ، ان يكونا انعكاسا لعملية الادراك او وظيفة بدائية من وظائف العقل ، كما كان يظن بعض المفكرين امثال « **لوسيان ليفى ـ برول** » صاحب فكرة العقلية البدائية ، لأن الخيال فى جوهره هو فعل التصور نفسه بمحوريه الجذريين **التصور الاستعمارى** (métaphorique) **والتصور التجاورى** (métonymique) ، وعلى هذا الاساس تظهر الصورة كنوع من « **التناسق الدينامي** » او « **التوافق الجدلى** » بين المعنى والرمز ، وهى تسبق فى الزمان ، بفضل كيانها ذاته ، كل تصور عقلى مركب وكل تفكير انعكاسى . ان هذه الاسبقية ، اللازمة للنفس البشرية ، تحدد الخيال « **كاطار اولى ينطلق منه كل فكر وما يواكبه من دلالل** » (٩) ، الا اننا مع ذلك كله لا نعتقد شخصيا ـ فيما يخص اضفاء طابع الوجود على الصورة واعتبارها ادراكا مباشرا ممثلا لجوهر الموجودات ـ ان هذا التمييز الذى يباعد بين باشلار وبين

---

(٥) مصدر يونج السابق ، ص ـ ٣٨ ـ ٣٩

(٦) نفس المصدر ، ص : ٤٤ ـ ٤٥

(٧) Jean-Paul **Sartre**, L'imaginaire. Paris, Gallimard, 1940, p.24.

يقول سارتر : « ان اى ضمير مدرك يطرح موضوعه بطريقته،فالادراك مثلا . perception يطرح الشيء كموجود ، والصورة ايضا تحتوى على عملية يقينية او فعل اثبات . ان هذا الفعل يتخذ اربعة اشكال فقط ، يمكنه ان يطرح الشيء كغير موجود او غائب ، كموجود فى مكان اخر او انه يحيد نفسه اى لا يطرح موضوعه كموجود . اثنان من هذه الافعال عمليات نفى والرابع نوع من تعليق الاثبات او تحييده ، اما الثالث ، وهو فعل ايجابي . فيفترض نفيا لمضيا للوجود الانى والماثل للشيء . ان افعال الاثبات هذه وتلك ملاحظة رئيسية ـ لا تضاف الى الصورة بعد تكوينها الا ان فعل الاثبات و المؤسس لعملية الادراك ذاتها . وايةنظرية اخرى ، بالاضافة الى مناقضتها لمعطيات التفكير ، سوف توقعنا ، من جديد فى خدعة الكمون » .

(٨) Jean-Claude Margolin, **Bachelard.** Paris, Ed. du Seuil, 1974, p. 57.

(٩) Gilbert Durand, **Les Structures anthropologiques de l'imaginaire.** Paris, Bordas, 1969, p. 27.

سارتر هو ذو قيمة عملية كبيرة . ان رأي باشلار ، في الحقيقة ، يعمل فقط على تضييق المسافة بين الضمير المتخيل والصورة وعلى استبعاد ربط هذه الاخيرة بغياب الموجودات ، اذ ان المتول الممتلىء الصورة لا يمكنه ، بأية حال من الاحوال ، ان يضفي عليها الوجود مثلما يضفيه الضمير المدرك على موضوعه ؛ ومهما كان الامر فان كيان الصورة لا يمكن ان يكون الا كيانا نفسيا ، بينما كيان الموجودات الحقيقية يمد جذوره الى الواقع الفعلي والموضوعي . ان ايجابية الصورة اذن عند باشلار ليست دليلا على واقعيتها او رسوخها في عالم الفعل فهي في الحقيقة لا تتعدى كونها ، في هذا المقام ، **حكم قيمة او تأكيد موقف نظري وخلقي** . وعلى كل حال ، هذا الموقف لا يختلف جذريا ، من حيث النتيجة ، مع موقف سارتر ، لأن هذا الاخير لا يقابل بين العدم والوجود مقابلة الذاتي بالعالمي فهو لا يعرف التقييمات الراسخة ، بل وعلى العكس مما قد نظن لاول وهلة فان العدم عند سارتر يلعب دورا ايجابيا كبيرا اذا كنا نفهم الايجابية على انها فعل الحرية والخلق . ان صاحب كتاب « **الوجود والعدم** » يرى في الحقيقة ، **ان العدم هو اساس الحرية** ، بل الشرط الاساسي لقيامها ، اذ انه نقيض الشيئية المطابقة لذاتها ولا يخضع لقوانين السببية والحتميات الموضوعية ولا يمكن ان يوجد على طريقة الكائن (l'être) الاسم ، الشوائي ، الموجود ها هنا من غير تبرير .

ان الصورة كذلك ، عند باشلار ، بالرغم من انتمائها الى نسق فلسفي وخلقي آخر ، هي نتاج للحرية وتعبير عن دينامية خلاقة وارادة بروميثية ، فبفضل الصورة ومن خلالها يبحث باشلار عن انبثاق الدهشة في ضمير التيقظ وتفتح الذات على روعة الخلق وجمال الوجود . الا ان هذه الصحوة وهذا التفتح لا يتمان الا في نهاية مجهود ايضاحي جدير ، عبر التقائه بالصورة الشعرية ، بإيصالنا الى منبع الخلق في ضمير الشاعر ويردنا الى مصدر الوجود وبالتالي الى مصدر ادراكه . يقول باشلار : « **متطلبات الفينومنولوجيا (الظاهرة) بالنسبة للصور الشعرية غاية في البساطة : اذ ان المقصود هو ابراز فضيلة من خلالها ، والتقاط جوهر التجديد بها ، والافادة ، على هذا النحو ، من القدرة الانتاجية العالية للطاقة النفسية .** »(١٠)

ان البحث عن المصدر ، الذي يقود الانسان الى النماذج القديمة والاطر النفسية ـ الخيالية الاولية التي يشير اليها يونغ ، والانذهاش امام الابتكار في التصوير والابداع في الخلق لا يمكنهما ان يتما خارج « **فرحة الكلام** » حي تفجير الكلمة الجديدة وابراز لجوهر اللغة المكنون ، الامر الذي لا يتفق وتعريف فرويد للصورة على انها تعبير مقنع او غير مباشر للرغبات المكبوتة . يقول باشلار: « **ان الصورة الشعرية تضيء الضمير لدرجة** انه من العبث ان تبحث **لها عن جذور غائرة في اعماق اللاشعور ، او على الاقل تقوم الفينومنولوجيا على التقاط الصورة الشعرية في مستوى كيانها ذاته من حيث ينفصم عن الكيان السابق ، وعلى اعتبارها كسبا تعبيريا ايجابيا للكلام . ونحن لو استمعنا الى المحلل النفسي لبلغ بنا الحال الى تعريف الشعر بانه لبس كلامي كبير .** » (١١)

يجدر بنا الآن ان ندرك الصورة الشعرية في ذاتها وفي نقاء جوهرها ؛ فهي لا نتاج الماضي ولا انعكاس للاشياء ، وعلينا ايضا ان نلتقطها في بساطتها الاولية بصفتها قوة انبثاق عظيمة تتيح للناقد ، بعد ان تحول الى قارىء ساذج ، ان يحيا من جديد عملية

(١٠) Gaston Bachelard, **La poetique de la reverie.** Paris, P.U.F., 1965, p. 2.
(١١) نفس المصدر ، ص ـ ٣

الخلق الشعرى فى مصدره وأن ينفتح على الوجود بحيث يصير ضمير التفتح ذاته . وقد يبدو لنا فى عملية الانبثاق او التفتح هذه أن نفوسنا تتمدد لدرجة التشتت وفقدان طاقتها ، الا ان هذا التصور لا يمكن ان يكون صحيحا فى راى باشلار اذ يقول : « **كل صحوة للضمير هى تقوية له ، اضافة الى نوره ودعم لتناسق النفس .** » (١٢) لذلك لا يمكن لحلم اليقظة أن يتحول الى عملية استرخاء لانه ، على النقيض من ذلك ، يسد أو تار النفس، ويلهب الحواس ، ويفجر طاقات الخيال الكامنة ، فهو فى جوهره تدفق لصيرورة وانبثاق لرؤية مستقبلية فكيف به لو ارجعناه الى جدلية الكبت والفراغه التى تميز حلم النائم . يقول الكاتب : « **حلم اليقظة ظاهرة روحية طبيعية جدا ــ ومفيدة جدا ايضا للتوازن النفسى ــ حتى نعالجها كعملية متفرعة عن حلم النائم او لكى ندخلها، بلا نقاش ، فى سياق ظواهر الاحلام .** » (١٣)

ان خيال الشاعر ــ بانفتاحه على العالم وعلى سحره الاخاذ ، لا بد له ان يمجده ، وأن يرتفع به الى مرتبة المثالية وان يحوله ، بتعبير آخر ، الى كون عظيم هائل : وهو بابعاده النفس عن ذاتها المتقوقعة ، التى اثقلتها الهموم واضنتها الشجون ، يحررها من الواقع وضغوطه القاسية المؤلمة ليلقى بها فى احضان عالم شفاف ترفرف عليه السعادة وتملأه الراحة والثقة . انه يلغى عنصر الزمان ويردنا الى وحدتنا الاولية ، وحدتنا الطبيعية التى تجعل من الانسان مخلوقا كونيا عظيما ، وهو بما يتضمنه من ميل الى السكينة ونزعة الى الطمأنينة والهدوء يشبه طبيعة الانثى التى يحمل كل منا بعضا منها بين جوانحه ، ويرتبط بما يطلق عليه يونج (١٤) **روح الانثى** (Anima) التى تعبر ، على النقيض من **روح الذكر** (Animus) عن حب حميم يكاد يستوعب الوجود كله وعن رغبة دفينة قوية فى الاتحاد مع الطبيعة والذوبان فيها .

ان الخيال ، حينما يرتبط بحلم اليقظة ويبتعد من اغوار اللاشعور المعتمة ، يصبح بلا مراء ظاهرة مباشرة تحيا فى مستوى السطح وتتالق امام الابصار جلية واضحة ، واذا كانت فى الوقت نفسه لا تخلو من عمق ولا تنقصها ابعاد الزمان والمكان ، فذلك لا يخرج عن مستوى اللغة نفسها ، لأنها فى الحقيقة قوة من قوى اللغة وحياة دافقة متفجرة فى الذات، تلك الكلمات التي لا تكتسب معناها ولا تبين عن اسرارها الا عند النطق بها او كتابتها . ليس الخال ، بعبارة اخرى ، قناعا لغويا

(١٢) نفس المصدر ، ص ــ ٥

(١٣) نفس المصدر ، ص ــ ١٠

(١٤) نفس مصدر يونج السابق ، ص ١٣٨ ــ ١٥٩
روح الانثى ، فى نظر يونج ، استعداد ذاتى عند الانسان وهى جزء من طبيعة الانثى الكامنة فيه والتى تعرف نوعين من الاسقاط : الاول فى صورة الام والثانى الر عملياتحويل ــ فى صورة الحبيبة . الا ان باشلار يعطى لهذه الخاصية قيمة فى ذاتها بينما لا يعتبرها يونج ايجابية الافى حالة واحدة وهى حالة تحقيق التوازن بين الشعور واللاشعور خلال عملية تكوين الشخصية . وتذكرنا هذه الثنائية القايلة فى فلسفة التاوية (le Taoisme) حيث يتوازن العنصر المذكر (le Yin) مع العنصر المؤنث(le Yang) فى قلب الوجود الكلى . راجع ، ص ١٢٠ :
Roger Garaudy, **Dialogue des Civilisations.** Paris, Denoel, 1977, p. 120.

تلبسه الغريزة (١٥) أو يختفي وراءه الكبت لانه قوة وضاءة وقدرة هائلة على التسامي والارتفاع بالذات ، كذلك هو كشف لازدواجية الانسان الاول صاحب الطبيعتين : طبيعة الذكر وطبيعة الانثى، وهل أسطورة الرجل ـ الانثى (Androgyne) الا تعبيرا عن امل الوحدة بين الطبيعتين ورغبة فى تحقيق التكامل والتجانس التام بينهما ! ان طبيعة الانثى تعبر عن حالة الراحة والسكينة الاولى التي كدرتها طبيعة الرجل بما ادخلته على الحياة من روح التنافس والتناحر والصراع، اذ ان روح الرجل فى مضمونها تعبر عن الايقاع المتقطع وعن المجهود الممزق المؤلم الذى بثته الضرورة الاجتماعية فى قلب السكينة فوضعت حدا لهذا الحلم العذب الرقيق الذى يملأ الذات زهوا وخيلاء حينما ترد اليها مرآة النرجسية صورتها فى أجمل ثوب واحلى رونق . الا انه اذا كان من طبيعة الامور ان تتميز الطبيعتان وان تتنافرا ، فمن الطبيعي ايضا ان تتكاملا لانهما لا تفترقان، ففى الجدلية التى تربط بينهما وتباعد بينهما تسقط كل منهما رغباتها واحكامها التقييمية على الاخرى خالقتين بذلك حركة انفلات من الواقع وتناقضاته هى لب النزعة الى السمو وجوهر لدفعه الى المثالية . وما هذه الحركة فى صميمها الا وظيفة من وظائف « اللاواقع » اذ يقول باشلار : « **تجد وظيفة اللاواقع استعمالها الاصيل فى عملية ارتقاء متسق الى المثالية والى السمو بالحياة ، وهي عملية تدخل الدفء على الفؤاد وتضفى طابعا حقيقيا على الحياة ...** » (١٦) بالاضافة الى ذلك ، ليس من شك فى ان عملية الاسقاط المتبادل بين الطبيعتين تربطنا على الدوام برؤية مستقبلية للوجود وتنقلنا الى عالم متجدد أبدا وتتميز دوما عن واقعنا الكئيب الرتيب ، بل وتدخل التغيير على النفوس الى درجة تتبدل فيها الطبائع وتتحول الحقائق الى آمال والآمال الى حقائق ، ومن ثم ظهرت شخصية **القرين** فى الادب الرومانسى (le Double) وهى ظاهرة تتجلى فى ابداع صورها **عند الفريد دوموسيه وجيرار دى نرفال** كما توجد لها جذور عند **شكسبير** وهاين .

ان حلم اليقظة ، حينما يغمر نفوسنا ويملأها بومضاته ، انما يرجع بنا فى الحقيقة الى جذور الوجود وينبوع الحياة الاول فيكشف لنا بذلك عن نواة كامنة للطفولة فى اعماقنا لا تتأثر بكر الزمان ولا بضربات الخطوب لانها تعيش خارج الزمن والتاريخ اللذين نألفهما ـ ولا تحيا الا فى لحظات نادرة سامية هى لحظات الالهام الشاعرى وانبثاقه فى ضمير الشاعر او الفنان الاصيل ، هذا الحلم الجميل يربط الحالمين بالكون ويفجر فى نفوسهم انطلاقة هي خلاصة الحياة المتدفقة وجوهر الرغبة الجامحة الى التمدد والتضوع الى ما لا نهاية، وحينما يرتكز حلم الطفولة على **دفعة الزمان**

---

(١٥) Paul Ricoeur, **De l'Interpretation. Essai sur Freud.** Paris, Ed. du Seuil, 1965, pp. 13 44

يرى المؤلف ان كل منهج في التفسير ينطلق من مبدأ اساسي وهو ان للكلام معنيين ظاهر وباطن وان اللغة ـ بالتالي ـ ذات وظيفتين : وظيفة تعبيرية ووظيفة رمزية . وللرمز هنا مستويان فهو دلالة واثر : دلالة لشيء اخر او لما هو كامن وخفي ، واثر او نتاج لشيء اخر ـ كذلك ـ او هو كامن او خفي ، ومن ثم ظهرت مدرستان كبيرتان فى التفسير : الاولى تقول بتجميع المعنى واعادة بنائه على اساس ظهوره مشتتا في البداية ، وتتمثل فى مناهج الفينومنولوجيا الدينية وفي طريقة الكاتب نفسه ، والثانية هي مدرسة الشك او سوء الظن وتضم من الاقطاب ماركس ونيتشه وفرويد الذين يقومون في البداية بتحليل (تجزئة) المعنى المتجمع (في شكل ايديولوجيا مثلا) ثم رده الى خلفيات كامنة وراءه .

(١٦) باشلار ، المصدر السابق ، ص ٦٣ (ملاحظة رقم ١٠)

الراسية وعلى لحظة تالقها (١٧) المفاجىء فى الضمير ، يستبعد تلقائيا مفهوم **الاستمرارية الزمنية للوجود عند برجسون** ، لان السيولة المستمرة للزمن تعود النفس على الرتابة وعلى السير فى اتجاه خطى بينها وبين هذه اللحظات المركزة التى تتفجر فيها فجاة احاسيس الدهشة ومشاعر التعجب التى تعد اساس التساؤل الانسانى ومصدر تطلعه الى المعرفة ، الامر الذى يفترض ضمنا حالة من البساطة والسذاجة تذكرنا ببساطة الاطفال وبراءتهم المحببة . واذا كان حلم اليقظة يحقق لنا ، على هذا النحو ، املنا فى الحرية المطلقة ، فهو فى الوقت نفسه يحيى فى نفوسنا الحنين الى الماضى البعيد الذى تحيط به فى مخيلتنا حالة الاسطورة وسحرها العجيب ، فالماضى الذى نتوق اليه وترغب فى العودة اليه ليس بالطبع مجموعة الاحداث والتواريخ التى تحفظها الذاكرة ؛ فهذا الماضى الموضوعى لا يخلو من آلام ومن لحظات قاسية ومن رضوض نفسية خلفتها عقد **الفطام والخصى واوديب** . ان الماضى الذى يبعثه حلم الطفولة هو جوهر الطفولة واصل الاصول والامل الاعظم فى العودة الى الجنة الاولى ، ان حلم الطفولة يدفعنا ، على هذا النحو ، الى اعماق الوجود الابدى حيث تتوقف الصيرورة ويلقى بنا فى قرار الزمان السحيق يفقد الزمن معناه وتتبدد صورة مسيرته المطردة فلا يحتفظ الا بشكله الدائرى وليه المتجسد فى الفصول الاربعة ، فالفصول حينما تلتحم بالطبيعة تكون الصورة المثلى لاندماج الزمان بالمكان او هكذا على الاقل بالنسبة للذكرى الصافية ، البعيدة عن الشوائب (١٨) .

وليس من شك فى ان **هذا الشكل الدائرى للزمان** يذكرنا فى قراره العميق **بالزمان المقدس** لدى الشعوب القديمة وهو الزمان الاسطورى الذى هو الزمان الاول ، زمان الخلق الذى لا يسبقه زمان لانه البداية التى تتجدد كل عام فتاخذ بالتالى شكلا دائريا ، لان العام دورة كاملة ودائرة مغلقة لها بداية ونهاية فى حركة مستمرة وتجدد دائم (١٩) .

كذلك يسمح لنا حلم الطفولة بان نحس بوجودنا احساسا مطلقا بعيدا عن زيف العرض ووهم الحادث الطارىء ، احساسا بالهدوء الشامل والسكينة التامة التى هى جوهر **الوجود المطابق لذاته ، المستقر فى راحة ابدية** . ان هذا الحلم ، بتحققه خارج حدود الزمان الواقعى وابعاد التاريخ المعروفة ، ليس الا نموذجا عاليا للسعادة البسيطة الساذجة . ويعد نموذج حلم الطفولة مصدرا حيا لكثير من الصور المشرقة السعيدة : صور النار والضياء والماء لانه همزة الوصل التى تربط بينها والعقدة السحرية التى ترتكز عليها . وهو المصدر الاسطورى لاحساس النقاء والطهارة الذى يلازم مواقف الانذهال

---

(١٧) Gaston Bachelard, **L'intuition de l'instant.** Paris, Gonthire, 1932, p. 104.

يقول باشلار : « يمكننا ان نجد اذا ، فى كل قصيدة صادقة، عناصر زمن متوقف لا يعرف القياس ، زمنا سوف نسميه راسيا لكى نميزه عن الزمن العادى الذى ينساب افقيا مع النهر ومع الريح العابرة ؛ ومن ثم فكرة غريبة لابد ان نمليها بوضوح : فبينما يعد زمان الصياغة الشعرية افقيا ، يعد زمان الشعر نفسه راسيا ، اذ ان الصياغة لا تنظم الا نغمات متتالية وايقاعات ولا تحكم فى اغلب الاحيان ـ للاسف ـ الا شطحات وجدانية وانفعالات غير متناسقة . ومع ذلك فان فن الصياغة ، بقبوله نتائج اللحظة الشعرية يسمح لنفسه بالالتقاء مع النثر ، مع الشروح العقلية . قواعد النظم ليست الا وسائل ، مجرد وسائل جد قديمة . ان الغاية الشعرية تبقى العمودية والعمق او العلو ، انها اللحظة الثابتة حيث تنتظم كل المتتاليات لتدل على ان اللحظة الشعرية ذات بعد ميتافيزيقى . » ص ١٠٤

(١٨) Gaston Bachelard, **La poétique de la reverie** ; op. cit., pp. 94-100

(١٩) Mircea Eliade, **Le sacré et le profane.** Paris, Gallimard, (Idees), 1965, p. 66.

والدهشة عند المتخيل الحالم ، انه الحياة الهادئة التي لا تعرف الكدمات ولا الصدمات النفسية ، الحياة التي لا يحدث بها شيء ولا يكدر فيها شيء صفاء الوجود واتحاده البهى بذاته ، اللهم الا مس رقيق من كآبة يذكرنا بهذا لاحساس العميق القاطن في جوانحنا الا وهو الحنين ، الحنين لا الى طفولة بعينها ، ولكن الى الطفولة على الاطلاق ، الى أصل الوجود . (٢٠)

ان الفرق الجوهرى بين حلم النوم وحلم اليقظة هو **الطابع اللا شخصي** للحلم الاول بينما لا يستطيع الحلم الاخير ان يعيش خارج ذات حالمة او ضمير متخيل ، كذلك يعد حلم النائم ـ فى قراراته ، نوعا من غروب الحياة وانعدام الوجود : انه هوة الضياع السحيقة وليل الضلالة الدامس ، اليس هذا الحلم ، كما يقول باشلار : **« دليلا على الكائن الضائع او فى سبيل الضياع ، الكائن الهارب منا . »** (٢١)؟ فهو لابتعاده عن كل ركيزة وتنكره لكل الوشائج يصبح مثل هذا النقاب القاتم الذى يحجب الضياء ويكدر النظر ، ويرده الانسان الى شبحه او ظله لا يمكنه أن يشبع نهم دارسي الظاهرية الذى يبحث ، لا عن القوى الضاغطة التي تخنق الانسان وترده الى وظائفه الحيوانية الصرفة ، ولكن عن طاقات التيقظ والصحوة . لذلك كله يفضل هذا الدارس حلم اليقظة طالما تبقى وميض فى ضمير ومثل حالم فى حلمه . ويعد هذا القدر الادنى من الوعي ومن حضور الذات ضروريا لكى لا يتردى الحلم فى ظلام الاحداث والوقائع ولكى يبقى متلألئا فى سماء القيم الذاتية ، بعبارة اخرى ان ما يبحث عنه هذا الدارس هو عملية التقييم الذاتية للصورة الخيالية ، وهى عملية منشطة للنفس ومحفزة لطاقات الوجدان . وعلى هذا النحو يرتبط حلم اليقظة بتضوع الذات وزيادة الاحساس بالراحة فهو ليس استحضارا للاشياء على طريقة الفكر ـ الأمر الذى يفترض مسافة او بعدا بين الضمير المدرك وموضوعه ، انه قوة الهام مباشرة (٢٢) تغمر الوجدان بنورها الكامل فى لحظة من لحظات السمو النادرة ، لذلك لا يمكن للصورة التي تنبثق به الا ان تكون برقا خاطفا ، تدفقا مفاجئا يوقظ الغافل ويثير الدهشة . ان المتخيل ، حينما تستغرق هذه الومضة الساطعة ذاته ، يحس بأن حياة دافقة تملأ عليه جوارحه وبانه فى باطن لا ظاهر له . وما معنى أن ينزوى الانسان فى دخيلته ؟ معناه انه يسعى الى توحده ، وليس التوحد بحثا عن العزلة من اجل العزلة وانما هو تجنب لعالم التكلف والرياء وابتعاد

---

(٢٠) باشلار ، نفس المصدر ص ١١١ (ملاحظة رقم ١٨)

(٢١) باشلار ، نفس المصدر ص ١٢٦

(٢٢) صلاح عبد الصبور ، حياتي فى الشعر - دار العودة ، بيروت ١٩٧٧ يشبه هذا الالهام المباشر في قمته مفهوم الوارد الذى يستعيره الشاعر من كتابات المتصوفين المسلمين • ويقول صلاح عبد الصبور معلقا : « وكلمة الوارد ادق دلالة من كلمة الحدس كما يستعملها فيلسوف كبرجسون فى مقدمته للميتافيزيقا - فالحدس عند برجسون لا يستطيع ان يعمل مستقلا عن العقل وان كانت له طبيعته المخالفة لطبيعة التفكير العقلى • وعند برجسون ان الحدس لا يستطيع ان ينبثق ما لم يجمع العقل المواد الاولية التي يرتبها في وحدة او تناسق ، ثم ينبثق الحدس بعد ذلك ليعلن النتيجة ، فالحدس البرجسوني نوع من الفطنة الثاقبة التي تسبقها مقدمات عقلية وتركيبية متعددة ••• » ويضيف صلاح عبد الصبور : « والقصيدة كوارد قد تكون حين يرد الى الذهن مطلع القصيدة ، او مقطع من مقاطعها بغير ترتيب فى الفاظ موسيقة ، لا يكاد الشاعر نفسه يستبين معناها • قد يأتى هذا الوارد بين الناس او فى الوحدة ، فى العمل او فى المضجع ، لا يكاد يسبقه شيء يماثله او يستدعيه • ويعيده الشاعر على نفسه ، فيجد أن هذا الوارد قد يفتح له سبيلا الى خلق قصيدة ، وقد يعيده مرات ومرات حتى تتفتح أمامه احدى السبل ، لقد تم الحمل بالقصيدة فى صورة ما ، والذات تريد أن تعرض نفسها فى مرآتها • » ص ١٤ ـ ١٥

من مجتمع التصنع والنفاق ، هو انغماس في الكون ــ في حدوثه العميق وصمته السحيق حيث يرقد مطمئنا زمان السكون . وما معنى العودة الى الكون والى عالم الطبيعة المطهر ؟ معناه اللقاء المجدد مع شاعرية العناصر : مع تأجج النار المحفز للحياة ، مع ينبوع المياه الرائقة ، مع امومة التربة العميقــة . ان العودة الى احضان الوجود معناه ان يقظته الانسان من جديد ، أن يتنفس فيــه ، ان يتحدث اليه كما هو يتحدث اليه في صوت خافت رقيق هو صوت الشعر . (٢٣)

الخيال المادى :

لقد عرف عالم الخيال عند باشلار ، كما سبق ان اشرنا الى ذلك في بداية هذه الدراسة ، ميدانين رئيسيين خلال تطوره : مبدأ **العناصر** او المادة ومبدأ **الحركة** . وسوف نكرس هذا الجزء لدراسة المبدأ الاول .

ان الكتب التي يتحدث فيها باشلار عن عنصر من العناصر او مادة من المواد لا تتجاوز الاربعة وهي مجمل دراساته عن النار والماء والتربة والفضاء .(٢٤) ويبدو جليا ان الكاتب لم يبلور بعد في اول كتاباته عن الخيال ، اى في دراسته التي اسماها « **التحليل النفسى للنار** » والتى انتهى من تحريرها عام ١٩٣٧ ولكنه لم ينشرها الا في عام ١٩٤٩ ، مجمل افكاره ومفاهيمه المتعلقة بعالم الخيال . الا انه ، مع ذلك ، كان قد فطن الى الخلافات التي تميز منهجه عن مناهج التحليل الفرويدى . لذلك نراه يتحدث ــ على سبيل المثال ــ عن كبت « واع » **او عن لون من** **الجدلية يتغلب فيها الظريف والممتع عنه قوانين الضرورة العضوية** ويجمع افكاره حول مجموعة من المحاور الخيالية ، المستلهمة من يونج والمسماة **بالمركبات الثقافية** ، وهذه الاخيرة تمثل في نظر باشلار مجموعة **من المواقف او الاستعدادات القبلية التي تحكم عملية التفكير** نفسها وتوجه المادة الخيالية الى اطر وقنوات تنفق وروح الثقافة التى تنضوع من خلالها .

في كتاب « **التحليل النفسانى للنــار** » تسترعى انتباهنا اربعة مركبات ثقافية وهى مركبات « **بروميثوس** » ، « **نوفاليس** » ، « **امبدوقليس** » و « **هوفمان** » ؟ **ومن المعروف** ان اسطورة بروميثوس ترتبط في الاصل بسرقة النار الا انها سرعان ما بلورت معانى اخرى مثل التمرد والثورة والاعتداد بالنفس والتحدي ويضيف باشلار الى هذه المعانى النزعة الى مساواة وتجاوز الاباء والاجداد والمعلمين في مجال المعرفة والحياة العقلية ، الامر الذى يجعل من هذا المركب المرتبط بحب التعلم والرغبة في المعرفة مكملا لعقدة اوديب الموضحة للحياة الغريزية الصرفة . اما مركب **نوفاليس** فهو يبلور مجموعة من الصور المتصلة بالاحتكاك المولد للحرارة والنار وما يتعلق بها من مشاعر الدفء والحنان اذ انه ليس من شك في ان عملية الاحتكاك كانت ، قبل ان تصاغ في قالب فكرى او عقلاني ، ذات دلالات عاطفية وحسية تتناسب مع الرغبة في المداعبة واللمس اللذين هما في قرارهما نوع من الاحتكاك الرمزى المتسامى . اما مركب امبدوقليس فيمثل الحلم امام نار المدفأة ،

---

(٢٣) باشلار ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ ــ ١٦٠

(٢٤) Gaston Bachelard, **La psychanalyse du .** Paris, Gallimard, 1949.
Gaston Bachelard, **L'eau et les reves. Essai sur l'imagination de la matiere.** Paris, J. Corti, 1942.
Gaston Bachelard, **La terre et les reveries du repos.** Paris, J. Corti, 1948
Gaston Bachelard, **La poetique de l'espace.** Paris P.U.F., 1957

وهو الحلم الذي يجمع في دفعته البراقة المتلألئة نحو الآفاق البعيدة بين غريزة الحياة وغريزة الموت، فالنار هي القوة الحية النابضة المتأججة التي لا تعرف الهدوء ولا السكينة، وهي القوة المدمرة الهائلة التي تبلور ارادة التغيير والتجاوز، واخيرا يعد مركب **هوفمان** خير معبر عن شاعرية الشعلة ومن الاحاسيس التي تجمع بين الصور النارية والمائية من خلال المشروبات الكحولية، الامر الذي يقود الى مبدأ عام من مبادىء الخيال وهو قدرته على **الازدواجية والتنافر**، اذ ان الماء نقيض النار الا ان الخيال يستطيع، مع ذلك، ان يربط بينهما من خلال بعض الصور، ولنذكر، على سبيل المثال، صورة السيولة: الا تبدو لنا الحمم البركانية وهي تتدفق من البركان كانها مياه تتدفق في قوة من قدر يفور ويدور او لبث تشبه، بعد ذلك، في انسيابها من فوهة البركان الثائر الى الوادي المنبسط النهر الذي يتهادى مختالا بين شاطئيه؟ (٢٥)

غير ان باشلار لا يبلور نظريته عن الخيال المادي بصورة متكاملة الا ابتداء من كتابه عن «**الماء والاحلام**»، فهو في هذه المرة يؤكد بوضوح انه يريد تجاوز ما يسميه «سيكولوجيا» المفهوم او الاطار، وهو الامر الذي يتضح من قول ميشيل مانسوي: «**كل ذلك مرجعه، باختصار، الى اعتبار العناصر او المواد كنوع من المحفزات القوية للخيال، ليس عن طريق الاشكال التي تتخذها، ولكن شحما ولحما.**» (٢٦) يقصد ان التأثير الذي تحدثه المادة في الخيال لا يتم من خلال تصورات عقلية او اطر شكلية بحتة ولكن من خلال تجربة حسية نمر بها في حياتنا الجارية فعلا. ما هي اذن السمات المميزة لهذا النوع من الخيال؟

على خلاف الخيال الصوري، الذي يظل على السطح ويعتمد احداث المفاجأة والتأثيرات القائمة على الظرف المحبب والابداع اللفظي، يغوص الخيال المادي الى اعماق الوجود والى قراره المكين حيث يلتحم بالابدية ويستقر في مصدر الديمومة وينبوعها الاول. واذا كان الخيال الصوري يقوم على العلاقات الظاهرية والتشابه الخارجي بين الاشياء، فان الخيال المادي هو نوع من الالهام الحدسي او اللقطة المباشرة للمادة في الصورة، واذا كان الاول خفيفا، فاترا وحيا، فان الثاني ظليل. كثيف وطيء. ان الخيال المادي يضفي قيمة على معاني العمق بينما الخيال الصوري يحبذ صور الانطلاق. لذلك يعتقد الكاتب ان باستطاعته ارجاع الصور المادية الى عناصر الفيزياء القديمة الاربعة: النار والهواء والماء والتربة التي كانت تقابلها في الطب القديم الامزجة الاربعة: الصفراوي، البلغمي، السمقاوي، والدموي. (٢٧) وعلى هذا النحو، اذا ساد عنصر او تركيب ما من هذه العناصر – لان الجمع بين عنصرين جائز – العالم – الخيالي لاحد الشعراء، فان ذلك يعكس بلا شك مزاجه الشاعري، الامر الذي يتيح، وفقا لباشلار، نوعا من التحليل «النفسي – الفيزيائي» والتحليل «النفسي – الكيميائي» للخيالات والاحلام. (٢٨) البحث اذن عن العنصر او مادة الصور بالغ الاهمية لان **الباعث المادي** هو الذي يحدد، في راي باشلار، البواعث الشكلية اي عملية اختيار الصور والصيغ، **الا انمادية الصورة لا تعني**

(٢٥) Gaston Bachelard, **La psychalyse du feu.** op. cit., p. 144

(٢٦) Michel Mansuy, „Maintenir et prolonger le Bachelardisme'', in**Revue d'Historire litteraire de laFrance.** 1970, no. 5-6, p. 877

(٢٧) نفس المصدر، ص ٨٧٥

Gaston Bachelard, **L'eau et les reves.**, **op. cit.**, pp. 1-6

بالضرورة عودتها الى عرى الطبيعة الاول اذ انها لا تستطيع الانبثاق الا عبر « طعم » ثقافى ، فهذا الاخير هـو الذى ينقـل الـى الخيـال الصـورى خصوصـة المـادة وكثافتها . (٢٩) واذا كنا نعـلا بصـدد ثقافـة أصيلة ، فـان ذلك سـوف يبين لنا ان المادة لا تخضع للادراك المباشر وان الصورة ليست نسخة من الواقع لانها لا تتم الا من خلال نسق قيمى .

• • •

ان قراءة باشلار للصور المائية فى كتابه **« الماء والاحلام »** تتيح لنـا ، بفضـل مبـدا ازدواجية الخيال ، تحديد مالا يقل عن اثنى عشر موضوعـا او مركبـا ثقافيا لهـا علاقـة بالعنصر المائى ، وهكذا تتاح لنا فرصة القيام برحلة ممتعة شيقة نستبطن فيها حواسنا ونرتقى فيها مشاعرنا درجات .

ان **« المياه الصافية »** فى مياه الربيع حيث تعكس اشعة الشمس الوضاءة خيوطها الفضية على صفحات الجداول والانهار ، ومرآة الطبيعة المختالة فى ثوبها القشيب حيث تتولد نرجسية لا حدود لها تسمو بذاتنا وتنطلق بها الى ما لا نهاية . ان هذه النرجسية ، التى تتيح لنا الالتقاء بصورتنا الذاتية وصـدى صوتنا المحبب ، ليست مجرد شعور بالزهو والخيلاء ، انها أكثر من ذلك وابعد عمقا ، فهى تعبر عن رغبة أصيلة فى التضوع والتالق ، والتحليق خارج الزمن على أجنحة الامـل المداعبة ، وهى ، حينما تعرض الذات نفسها فى مرآة العيون المائية ، تمثل طموحات الانسان الراقية نحو التمدد والاتحاد بالرحابة الكونية ، اذ يحـب الانسان نفسه ، وهو فى قرار ماء لاقرار له وفى قلب صورة رائعة الصفاء ، كانه مركز الوجود وبذرة الجمال السرمدى . أضف الى ذلك ان المياه الصافية لا تفترق من مشاعـر الانتعـاش واحـاسيس اليقظـة والمـرح ، فالمـاء السلسبيـل فى انسيابـه والجدول الرقراق فى جريانه نغمات يرددها الخرير ، والحان تعرف فى قلوبنا لحن الطفولة المبهج ، وهى كذلك ببياضها الناصع ، جسد السابحة المضىء او روح بديلها طائر البجع الذى يمثل غناء احتضاره قمة الاغراء وهـو الموت حبا . (٣٠)

اما **« الماء الراكد »** فيرتبط ، على العكس من ذلك ، برؤيـة قاتمـة هى رؤيـة المـوت هذه الهوة السوداء الرهيبة ، ويذكر الماء عند **« ادجاربو »** بالذات ، بالموت على مستويين : « مجارى السيولة » الذى يربط ، مـن الناحية الدينامية ، بين ظاهرة الانسيـاب والزوال ، **ومستوى الركود** الذى يربط ، من وجهة نظر نفسية الاعماق ، بين المـوت والسبات ، والتذكر بالموت ، كذلك ، عقـدة « قارون » وعقدة « اوفيليا » . اذ يرمز قارب قارون ، وهو موضوع يصوره « دانتى » فى جحيمه ، و « دولاكروا » فى احدى لوحاته ـ الى الاسى والعذاب ، وهو يربط بين صورة الموت وصورة الماء بواسطة فكرة الرحلـة ، ويقول باشلار فى ذلك : **« ان الخيال المادى يريد ان يكون للماء حصة فى الموت ، وهو فى حاجة الى الماء ليحتفظ للمـوت بمعنـى الرحلة . » (٣١)** اما العقدة الثانية فتتمثل فيها شخصية **« اوفيليا » لشكسبير** الصورة النسائية للانتحار او الموت غرقا فى البحيرة . ان هذه الصورة جد رائعة لكى نصدقها ، فهى لذلك اقرب الى حلم الموت ورغبة الانسـان الدفينة فى الراحة الدائمة منها الى الفزع أمام حادث مروع . بالنسبة لهذه العقدة

---

(٢٩) نفس المصدر ، ص ١٤

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٢٩ ـ ٥٣

(٣١) نفس المصدر ، ص ١٠٤

الاخيرة ، نرى أن خصلات الشعر المتطاير : **التي تحرك مادة ولا تعبر عن شكل ،** هي اساس هذه العلاقة الحميمة بين الماء والموت . ولهذه العقدة ابعادها الكونية ايضا ، خاصة حينما يلتقى القمر بالموج ويتحد ضوؤه بثنايا الماء ، اذ يصير القمر نفسه حينئذ « اوفيليا » ويصبح الوجود كله في حالة احتضار ، الامر الذى يملأ قلوبنا رهبة ويبث فيها اجواء التامل والكآبة . (٣٢)

وهناك **«المياه المركبة »** التي تنتج من قدرة الخيال المادى على التاليف بين العناصر ، وهو امر ـ كما قلنا ـ جائز بين عنصرين : بين الماء والارض وبين الماء والنار ، بين الأرض والنار وبين الهواء والنار . وقد يرجع مصدر هذا التزاوج بين العناصر الى الطابع « الجنسي » الملازم لكل تركيب ثنائي ، والامثلة على ذلك كثيرة . هناك ـ مثلا ـ التالف السابق الذكر بين الماء والنار ، وهو تالف تجسده المشروبات الكحولية التي تبلور بشدة ، شوشات الاحاسيس والانطباعات الناتجة عنها ، ويمكن لتشخيص الليل او تجسيده ، مع انه ليس جزءا من العناصر ، حال اتحاده مع الماء ، وهى الامكانية التي ولدت تعبيرا قويا مثل « بحر الظلمات » الذى كان يرمز الى الفزع عند كثير من الملاحين القدماء . كذلك يوحى التقاء التربة بالماء بكثير من صور العجائن ، كما انه يعد أساسا ماديا متينا لتغذية مشاعر الالفة ، ورغد علاقات الحب والود الحميم . اضف الى ذلك ، ان هذا التزاوج يثير في نفوسنا احساسا باللزاجة ، الامر الذى يضفى على حياة الحلم كثافة ، انطولوجية » كبيرة ، ومن ثم يتبين **لنا ان الاتحاد القوى بين احاسيس اللمس وبين الصور المرئية هو أساس الطابع الحسى الجذرى الذى يقوم عليه خيال العناصر .** (٣٣)

اما بالنسبة لمياه « الامومة او الانوثة » فهى اسقاط لصورة الام ومدلولاتها ، الطبيعية ، فهذه تصير حينا امنا الطبيعة ذات الصدر الحنون ، وحينا آخر ـ عندما تتراوح مشاعر الامومة الى الانوثة ـ فتاة احلامنا الجميلة . وعلى كل حال ، ان معظم هذه الاحاسيس تعبر عن رغبتنا العميقة او توقنا الشديد الى الامتزاج بمادة دافئة حنون تغمرنا بعطفها وتشملنا برعايتها . بهذه الطريقة ، يمد حلم الماء جذوره العميقة الى قلب المادة بانا فيها روحه الخلاقة وانفاسه الحية . من جهة اخرى ، يذكرنا الماء بالام حتى ولو نظرنا اليه نظرة ديناميه ، فهو مثلها عنصر معطاء هزار يملأنا رخاوة ويغذينا في احضان الطمانينة والراحة . ماء الانوثة ، كذلك ، ماء عذب يحتل صورة الينبوع على صورة البحر المحيط ، فعين الماء ترتبط اساسا بمصدر حسي ورغبة في اللمس بينما المحيط يوسع الآفاق ويثير الرؤية البعيدة ، والماء الحلو ذو طبيعة اسطورية ممتدة الجذور الى احلام الطبيعة الاولى بينما ماء البحر المالح قاس وغير مجد يربط البحر بالاهوال والمخاطر والحكايات الغريبة . (٣٤)

ونحن اذا استبعدنا اى تقييم اجتماعى أو قدسى ، فان الماء يبقى رمزا أصيلا للنقاء ومصدرا طبيعيا للطهارة ، وعملية التطهير ـ كما يقول باشلار ـ : « **لا بد أن تصور كفعل لمادة ، اذ ان سيكولوجيا التطهير تنتمى الى الخيال المادى وليس الى تجربة خارجية .** »(٣٥) الا أن فعل المادة لا يمكن تخيله ، مع ذلك ،

(٣٢) نفس المصدر ، ص ١٠٥ ـ ١٢٤

(٣٣) نفس المصدر ، ص ١٣١ ـ ١٥٠

(٣٤) نفس المصدر ، ص ١٥٦ ـ ٢٠٧

(٣٥) نفس المصدر ، ص ١٩٣

منفصلا عن الفحوى او المغزى الخلقي الذي يحويه ضمنا ، فهذا المغزى، في الحقيقة، هو الذي يفتق حلمنا ويضفي عليه صورته الطيبة او الخبيثة . وبواسطة رد الفعل ، من جهة اخرى ، يمكن لنا ينتمي الى السريرة او النية ان يصير خاصية او ارادة للعنصر ذاته ، ومن ثم يصبح الماء شريرا او رقيقا لطيفا ، ويمكنه ان يغرى بالهلاك كما يمكن ان يدعو الى الانتعاش والتجديد . وليس من شك في أن الاحساس بالانتعاش والتجديد ينتمي الى عالمين : عالم الحس وعالم الاخلاق ، وان التقييم الخلقي هو الاساس الذي يعطى الماء القدرة على شحذ الطاقة والارادة وعلى الشفاية والتطهير الديني الذي يجمع بين الحياتين المادية والخلقية في صورة حياة اكبر واعظم وهي الحياة الكونية . (٣٦)

وبما انه من الصعب الفصل الكامل بين خيال المادة وخيال الحركة ، فان الكاتب لا يستطيع ان يتجنب التصورات المتصلة بالفعل الخيالي للماء ، وهو ما يظهر بجلاء عندما ننظر الى الماء من منظور المقاومة اذ ان العمق يمكنه أن يبرز الجوانب النشطة او الفعالة في الخيال وان يطور القوى او الطاقات الكامنة فيه وان يصوغ علاقاتنا مع الوجود على اساس من النضال او الصراع . لذلك اذا كانت الذات هي الارادة ، كما يذهب « شوبنهور » ، فان العالم يصير - مقابل ذلك - مصدر اثارة واستفزاز ، ولظهور هذه الجدلية بين الانسان والعناصر في مركب « سوينبورن » الذي يلخص التجربة المزدوجة للسباحة حيث يختلط التعب بالفرحة وتجتمع السادية مع المازوكية . وانه لتوجد فرحة فعلا في قهر عنف الموجه كما توجد لذة في الشعور بسياط الماء وهي تلهب اجسادنا ، الا انه يبدو ان المكونات السادية اكثر قدرة على اثارة التخيلات الحركية وعلى تفجير ارادة القوة عند الانسان ، وهي الارادة التي مكنته من السيطرة على الطبيعة . واخيرا ، اذا رجعنا الى صورة اكثر هدوءا ، اليس هذا الترابط بين الماء والانسان دليلا على مصدرهما الواحد ونفسهما المشتركة ؟ ان هذه العلاقة الحميمة تبدو جلية في الصورة المائية المأثورة من الكلمة الشعرية اذ يقال عنها : « انها تتدفق من منبع » (٣٧)

وفي كتاب « **الارض واحلام الراحة** » (٣٨) تتدرج الصور تحت لواء الشاعر الحميمة واحاسيس الاعماق اذ اننا هنا بصدد خيال يمجد بواطن العناصر ويتيح للصور الشعرية المتصلة بها نوعا من التجاوز الهابط الى لب الوجود والى نوع من اللاشعور المتسامي . وبفضل هذا الغوص الى قرار المادة والى جوهرها المكنون ، نستطيع الوصول الى حالة من النشوى الهادئة السعيدة والى نوع من السكون الكوني هو بمثابة روح المادة الاصيلة . ولا شك ان هذه الرغبة في الراحة وما يقابلها من توق الى الهدوء الجذري هي الاساس النابض الحي لكل طموحاتنا الى المأوى والاندماج والاستقرار ، وهي احاسيس تحكمها جميعا نفسية الالتفاف على الذات ورفض الانسلاخ عنها لما في ذلك من مشقة على النفس وجهد وعسر . الا انه ، مع ذلك ، لايمكننا ، بسبب ازدواجية الصور الخيالية ، ان نفصل بين رغبة الاعماق وارادة النفاذ ، وعلى هذا النحو ، يسهل تخيل هذا القوس الى لب الوجود على انه نوع من اغتصاب اسراره . وبهذه الازدواجية ، تستطيع الاحلام ان تعبر ،

(٣٦) نفس المصدر ، ص ١٩٥ - ٢٠٢

Gaston Bachelard, **La terre et les reveries du repos., op. cit.,**

(٣٧) نفس المصدر ، ص ٢١٣ - ٢٥٠

(٣٩) نفس المصدر ، ص ١٠ - ٢٢

على السواء ، عن رغبة قوية فى الراحة وعن تطلع الى المعرفة عارم . ولننظر الان الى الابعاد الاربعة التي تشكل ـ لدى باشلار ـ نواة المشاعر الحميمة والتيتعد اساس سيكولوجيا الاعماق ، ان الكاتب يسميها على التوالي :

ـ بعد الالغاء او الرفض
ـ البعد الجدلي
ـ بعد الانذهال والدهشة
ـ بعد الكثافة المادية المثلاثية

يقوم بعد الالغاء على رفض كل عمق وكل نظرة تتجه الـى بواطن الاشياء ، امـا البعد الجدلي فيتارجح بين ظاهرة الكشـف ونزعة الاخفاء ، بين حب الظهور والرغبة فى التخفي محققا بذلك نوعا من التذبذب والاخذ والعطاء بين الكون الصغير والكون الكبير ، بين ظاهر المادة وباطنها . ويعد هذا البعد الاخير ايضا اسـاسا لعلاقات التنافر التي تميز بين حلم الخـدر الحيي وحـلم الـنفور والتصوع . وبالنسبة لبعد الانذهال ، فهو يكشـف عن ابداع الخلق وروعة الاعماق ، عن النعاس الحريرى للجمال النائم وتألق الالوان الزاهية ، عن بهاء الطلعة وافراد المظاهر . والبعد الرابع هو ، لاشك ـ اعمقها جميعا واكثرها رسوخا ، لانه يغوص الى اعماق الوجود ، هناك حيث ترقد الاسرار الكونية وتقيم الابدية . (٣٩)

ان خيال الاعماق لايـستطيع ان ينفصل عن عمل الكيميائي القديم الذى لايعني بالظواهر السـطحية او بتألق الاشكال وانما يبحث عـن قوى الصيرورة التي تحكم المادة وتوجههـا ، ويتبلور هذا التقييم الدينامي لنشاط الخيال عنده فى نزعته الى غسل بواطن العناصر ، الامر الذى يتفق مع اتجاه ثابت للنفس البشرية الا وهو حبها اللامتناهي للتطهير . ويبدو ان حب التطهر هذا يرتبط برغبة قوية فى الالفة الحميمة وفى وجـود دافيء كاتم للاسرار . لقـد ادرك التحليل النفسي حلم الاعماق هـذا ورغبـة الاختباء هذه فيما يـسمى بنزعة **« العودة الى الام »** التي تعبر ، فى الواقع ، عن حالة رفض للتطور ، والتي يصحبهـا عادة رفض الرؤية والامتناع عن النظر ، وفي هذا الصدد يقول باشلار : « **فى هذا الاتجاه نجد ، فعلا ، صور الكائن النائم ، الكائن ذى العيون المغلقـة او نصف المغلقة ، الرافض دوما للنظر ، وصور اللاشـعور الاعمى الذى يشـيد كل مقوماته الحسية على مشاعر الدفء والراحة .** »(٤٠)

ان خيال الاعماق والعلاقات الحميمة ، حيث يصعب فصل الذات الحالمة عن موضوع الحلم ، يتيح للكاتب تجاوز منظور علم النفس التقليدى الذى يعد الصورة نوعا من المعرفـة المنقولـة عـن الصفات الحسية للمادة . ان باشلار يرفض اية قيمـة موضـوعية لهـذه الصفات الحسـية لان هذه لا يمكن ان تنفصل عن عملية التقييم التى تقوم بها بالذات ولانها مشحونة بالعواطف والمشاعر الى درجة تؤثر على معرفتها بطريقـة مجردة . ويتم فعـل الذات اما فى اتجاه **المزايـدة والتفخيـم** ، واما فى اتجاه **التركيز** ، وهو الامر الوارد فى حالة خيـال الاعمـاق ، واذا كان ذلك كذلك يصبح فعل الذات هو الـسبب الحقيقى الـذى يفجر دفعة الصـورة وانبثاقها فى الضمـير المرهف ، الامر الذى يجعله فى اتساق وتوافق مع وظيفة « **اللاواقع** » التى تحرك الحيـاة النفـسية ، ولا تجعل من الصورة مجرد رمـز او قالب لاحساس او فكرة وانما حياة زاخرة بنفسها . **ويلتقط باشلار وظيفة اللاواقع هذه فى مستوى الذات المعبرة ، فى مستوى اللغة نفسه بحيث لا يرتـد الضمير المتكلم عـبر الصورة الى ما « يمكن » خلفها اذ انه لا وجه لها ولا خلفية ، فهى قائمـة فى ذاتها ومطابقة**

(٤٠) نفس المصدر ، ص ٤٧ ـ ٥٥

لذاتها ولا حياة لها خارج نسيج اللغة . ومن الواضح ان الصورة تحدد ، على هذا النحو ، كفعل خيالى صرف ونحس بها كلذة كلامية او متعة تعبيرية بحتة ، اما وظيفة اللاواقع فتظهر لنا كنوع من التوافق التام ، التلقائى والساذج مع موضوع الخيال فى لحظة انبثاقه ، غير انها لا تتجمد فيه او تذوب بسبب قوتها الدافقة ودفئها الغامرة . لذلك يصعب تصور هذه الوظيفة خارج عملية « تقوية » تبرز من خلال فعلين : **الدفعة والاهتزاز** ، تعبر الدفعة عن توتر الكائن الشامل الذى يتفجر فجأة فى صورة مضيئة بالغة التركيز فائق توترا وبالتالى انسب للتعبيرات المجازية والايقاعات المركبة . **اذا كانت الدفعة هى قوة انبثاق الصورة ، فالاهتزاز هو تطويرها خلال سلسلة من الاستعارات والتشبيهات .** (٤١)

يقدم لنا الكاتب فى هذا الكتاب ايضا مجموعة من الموضوعات والمركبات الثقافية الخاصة بخيال الاعماق والمشاعر الحميمة والراحة . منها نموذج بيت الميلاد وهو اساس البيت المثالى الذى نحلم به وعقدة « يونس » التى تدور حول موضوع البلع وعقدة الكهوف والمغارات والمتاهات التى تفجر احلام الاغوار وموضوع الثعبان والجذر والكرمة وما يرتبط به من احلام الطبيعة بشعبها الثلاث : الحيوانية ، النباتية والمعدنية .

يمد بيت الميلاد جذوره العميقة الى الطفولة البعيدة ، الطفولة المثالية الحالمة ، ويقول باشلار فى ذلك : **« اننا بدلا من ان نحلم بما كان ، نحلم بما كان يمكنه ان يكون ، ربما كان فى مقدوره تثبيت احلامنا الحميمة الى الابد .** (٤٢) ويحمل هذا النموذج ـ بالقوة ـ معظم صور الاعماق والاحلام التى تدور فى فلكها ، فهو القادرة السعيدة والمتاهة التى تحيى مخاوف الطفولة ، واذا نظرنا الى هذا النموذج الخيالى من منظور التحليل النفسى ، وجدناه يرمز الى مجمل الحياة النفسية : فالقبو الغارق فى الظلال يمثل اللاشعور والسطح الغارق فى الضياء يمثل الحياة الواعية ، كذلك يعد البيت الاول مهدا للحرارة والدفء وملجأ نأوى اليه فيحمينا من الظلمات وقوى الطبيعة الخفية ويوفر لنا احلام الراحة والسعادة والسكينة .

وبالنسبة لعقدة « يونس » فترتبط الى حد بعيد بامكانيات الخيال اللامتناهية ، لانها اذ تبلور اكبر قدر من السذاجة الممكنة تعد اعظم مورد للقصص الخرافية والروايات الخيالية ، وهى على وجه التخصيص ، بؤرة تلتقى فيها معظم الرموز المتصلة بلذة البلع وتصوراته وتتولد منها غالبية الحكايات العجيبة التى تثيرها هذه التصورات . ويربط باشلار بين هذه القصص الخيالية عن الابتلاع وبين ما يسميه ارادة المزاح التى تعبر عن احدى وسائل الدفاع الذاتى عن النفس ضد خشية تمتد جذورها الى اعماق اللاشعور الجمعى او الاولى . ويربط ، كذلك ، بين هذا الموضوع وبين لذة التذوق والهضم من جهة وبينه وبين عقدة الانطام فى حالة التخوف ورضوض الميلاد من جهة اخرى . الا ان اهم ما يستخلصه الكاتب من هذه التصورات جميعا هو صورة المأوى الذى يتمثل لنا على هيئة دائرة « اولية » وقدرة احاطة وشمول

(٤١) نفس المصدر ، ص ٨١ ـ ٩١

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٩٨

عظيمة ، ولا شك أن هذه الدائرة التى نحلم بها تذكرنا ، لاشعوريا ، ببطن الام (٤٢) النابض بالحرارة والعامر بالراحة والامن ، كما يعد انغلاق الدائرة على نفسها ، وفى رمز الثعبان الذى يعض ذيله ، وبفضل اندماج الباطن بالظاهر ، قوة سحرية بالغة التأثير . يقول باشلار فى هذا الصدد : « **ان اكثر الصور ظاهرية مثل النهار والليل تصبح صورا داخلية حميمة ، وانها لتجد فى هذا الطابع الحميم قدرتها على الاقناع : اذ انها تبقى فى الظاهر وسيلة من وسائل الاتصال المعلن ، بينما الاتصال الباطنى ارسخ واعظم قيمة . ان عقدة يونس وبيت الاحلام والكهف الخيالى تعد من النماذج التى لا تحتاج الى تجارب فعلية لتؤثر على النفوس ـ فالليل يغمرنا بسحره وظلام المغارة والكهف يضمنا الى صدره الحنون .** » (٤٤) أضف الى ذلك ان هذه الصور التى تمثل لنا الاغوار والظلام كقوى من قوى العطف والود والحنان ـ لا شك ـ تذكرنا بوجه آخر من وجوه الموت ، بالوجه الرقيق الحنون الذى ينم عن الراحة الابدية ، اذ ان هذا الموت هو رمز السعادة الازلية وسر عظيم تتلألأ فى اعماقه السحيقة ضياء النشور . ان الخروج من البطن ـ كما يقول باشلار ـ هو الميلاد والخروج من التابوت هو البعث او الميلاد الثانى . (٤٥)

أما صورة المغارة فترتبط ، هى الاخرى ، برغبة عميقة صادقة فى الراحة والسكينة ، وهى بفضل الخمائل الخضراء التى تحجبها عن الناظرين ـ سواء اكان ذلك حقيقة ام خيالا ـ تعد تطويرا لصورة المسكن الهادىء المصون وتعبيرا مكثفا عن حلم الانزواء والتأمل الداخلى الذى يتناقض مع الجرى وراء « القصور الخيالية » المعبرة عن نزعات الهرب والانطلاق . كذلك تفجر المغارة الخيالية موجة من الاصوات الخافتة والهمسات الناعمة مغلفة بصمتها الحريرى ومتوجة بمهابة ليلها الوقور . ان المغارة الخيالية رمز البصيرة وعينها المبصرة فى احلك الظلمات : اشعاع الجنة الاولى وشوقنا المنيم الى صدر الامهات ، وهى ، أخيرا ، موقع السحر من لا شعور الانسان حيث تتمثل لنا المنية فى صورة عطاء طبيعى تقدمه لنا الارض ـ امنا الحنون . (٤٦)

وعلى العكس من ذلك ، تقدم لنا صور المتاهة رؤى هى اقرب الى التشاؤم والتعاسة منها الى التفاؤل والتيمن نظرا لارتباطها بصعوبة الحركة وضيق الصدر ، فالمتاهة ، فى الواقع ، هى بلورة خيالية لتجربة الانسان الضائع او فى سبيل الضياع ، كابوس الكائن الحبيس ورهبه الزنزانة العميقة السوداء . يقول باشلار فى ذلك : « **ان المتاهة زنزانة مطولة ودهليز الاحلام خيال حالم ينزلق ويتمدد .** » (٤٧) ولقد لاحظ الكاتب ايضا

---

(٤٣) لقد عالجت الزميلة الدكتورة سلوى ببراعة فائقةهذا الموضوع فى رسالتها عن الكاتب السويسرى الاصل « بليز ساندرار » : Salwa Matar, **L'univers imaginaire de Blaise Cendrars**, Alexandrie, 1978.

ولقد عني كذلك الكاتب الفرنسي المعاصر «كلودروا» بهذاالتصور الذى يعبر من خلال رمز البطن عن حاجة دفينة الى الغاء الزمن والعيش في قلب الوجود الدائم الذى اخرجنامنه الميلاد بعذابه ورضوضه.راجع الفصل الاول :«اللاذكرى» :

Claude Roy, **Moi Je**, Paris, Gallimard (NRF), 1969, pp. 11-28

(٤٤) جاستون باشلار ، المصدر السابق ، ص ١٣٠ ـ ١٧٧

(٤٥) نفس المصدر ، ص ١٨٢

(٤٦) نفس المصدر ، ص ١٨٤ ـ ٢٠٨

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٢١١ ـ ٢٢٦

ان خيال المتاهة يمكنه ان يجمع بين احساسين مختلفين : **الصلابة والليونة** . ترمز الصلابة الى بداية الكابوس وتعبر عن التصلب المفاجيء لجدران المتاهة الخيالية ، الامر الذى قد يعنى لتنكر المادة لخصائصها المعروفة وخيانتها لتوقعاتنا او شعورا بالضيق المتزايد اما الليونة فترمز الى ظاهرة الخروج من الكابوس لما يصاحبها من احساس بالرحب والشد المؤلم للجسد . ومن الواضح ان خيال المادة ، بالتقائه هنا مع خيال الحركة ، يضفى على هذا الاخير طابعا تجسيديا راسخا واصيلا . (٤٨)

ويعد الثعبان اقرب الحيوانات الى الارض لانه يوحى بصورة الجذور ويلعب دور همزة الوصل بين عالم النبات وعالم الحيوان كما انه يبلور خوفا عميقا ورهبة ترجع بنا الى ظلام الماضى السحيق . وهو، بجانب ذلك ، يرمز الى كل صفات الرائحة والاشمئزاز والبرودة الكريهة ، كما انه علامة الشر والغواية والضياع . ويربط التحليل النفسى بين صوره وبين المحرمات الجنسية. كما يصوره لنا خيال الحركة على هيئة قيد او حبل يتلوى ويلتف حول عنق الانسان فيخنقه . وهو اخيرا ، رمز الغموض والتحولات الغريبة وطالع شؤم ونحس . (٤٩)

اما الجذر فهو موطن التناقض والتنافر : هو كائن ميت بطبيعته الغائرة فى التربة وينبوع للحياة بقوته التى يبثها فى قلب النبات ، هو جلمود صخر تعتز بصلابته ، وطرة شعر تزهو بطلاوتها ، هو مبدأ الاحياء ومصدر الكلام ومنطوق الرغبة الدفينة فى حاجتها الى التعبير وتوقها الى الظهور . ويستطيع الجذر ، فى عالم الزراعة ، أن يحيى مجموعة كاملة من الصور المتحركة ، فهو بمقاومته للخلع يعد رمزا لعالم صعب المراس، شديد البأس ، يستفز الزارع ويحنقه ، يدفعه الى مضاعفة جهده والى التوحد والسباب ، لذلك يصعب تخيله بعيدا عن صورة لا يمتزج فيها العمل بالصياح . ويرمز الجذر ، كذلك ، الى الاصل البعيد ، الى الماضى ، الى المصدر القديم حيث نستمد طاقتنا ونستقى خبرتنا ، ثم هو قوة عظيمة من قوى الاندماج والتركيز وسند متين لشجرة الحياة التى تمثل فى انطلاقها نحو اللانهاية تضوع الحياة الروحية وشراقة النفس السامية . واذا كان التحليل النفسى، الذى تؤرقه دائما قضايا الجنس ، يريد ان يرى فى الجذر مدلولاته الخفية التى تتصل بحياة الرغبة المتشعبة فى اللاشعور ، فان الكاتب يأبى الا ان يبقى فى مستوى الصورة الادبية الواعية ، الصورة الواضحة المنضبطة. (٥٠)

كذلك يعنى الكاتب بالصور الخيالية للنبيذ ، وخاصة ما يتعلق منها بتصورات قدماء الكيميائيين (les alchimistes) ، وتنتمى هذه الصهباء الى عالمين : عالم النبات وعالم المعادن والاحجار النفيسة ؛ فهى العنقود والياقوت ، الضوء المذاب والذهب السائل . ولو كان باشلار ملما بالادب العربى لبهرته الصور الرائعة والتخيلات الفريدة لشعراء الخمريات ، أو لم يقل ابوتمام حول هذه المعانى التى يألفها الكاتب الفرنسى ويشغف بها ايما شغف :

« صبية ذهبية سكبت لها
ذهب المعانى صاغة الشعراء »

---

(٤٨) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ــ ٢٤٠

(٤٩) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ ــ ٢٨١

(٥٠) نفس المصدر ، ص ٢٢٩ ــ ٣٢٠

وتبلور الخمر ، كذلك ، عند الكيمائيين صورة الجسد الحى الذى تلتقى فيه الارواح السماوية الخفية وارواح الارض الثقيلة ، قوة النار والطاقة الغذائية للدم ، فهى بنت السماء الذى تقطر منه الذهب والشهاب الذى تستمد منه الماء العلوى ، هى سائل خلاق ومبدأ كونى . (٥١)

يعد باشلار من أحد الكتاب الذين لا يكفون عن مراجعة النفس وتجديد اعمالهم السابقة ، فهو لا يستطيع ان ينغلق على نفسه ولا ان يثبت فكره مرة واحدة فى منهج ثابت جامد ، لذلك نراه فى كتابه « **شاعرية المكان** » (٥٢) ، يعمق رؤيته الظاهرية ويحاول اقامة شاعرية أصيلة لصور البيت والمأوى . وينصحنا الكاتب ، لكى ندرك طبيعة الصورة الشعرية ، باعداد انفسنا لنوع من المثول الشامل المباشر امام تلقائية الصورة واصالتها؛ **لان هذا المثول وحده هو القادر على دفعنا الى اعماق الوجود وقلب** الحركة والى الانفتاح **الصادق على صدى الصورة** ورنينها الكونى ، ووظيفة هذا المثول ان يخفف من اثقالنا وان يرفع عناء الاعباء التى ترزح على صدورنا بحيث يمكننا التحرر من المنظور القديم الثقيل للعناصر الاربعة . على هذا النحو ، تصبح **الصورة ملتقى لشفافية النفوس وصفائها ، حقلا لانعتاق قوى العناصر وانطلاقها ، قدرة اولية وتعبيرا مباشرا عفويا للضمير الحالم .** كذلك لا يعرف كيان هذه الصورة وجسدها الى عتمة ما او كثافة خاصة لانه لا ينفصل بمستوييه : وقع الصورة المباشر ورنينها المتبقى فى الضمير ، عن كيان اللغة نفسها . ان الصورة ، كما يقول باشلار : **تعبر عنا بالقدر الذى تشكلنا وتصوغنا فيما نعبر عنه .** » (٥٣) هى اذن لا توجد **قبل او بعد اللغة وانما تعيش فى تطابق تام معها** . لذلك لا يجدر بنا ترجمتها او تفسيرها ، وانما علينا ان ننظر الى القصيدة على انها المكان الامثل الذى تتضوع فيه وتحيا . **ان موطن الصورة ليس الانسان ولا التاريخ ولكن الكلمة نفسها** ، الصورة ، مثل الكلمة ، تعيش فى عالم الممكن وتأتينا من حيث لا ندرى ... فلا توقع ولا انتظار .

تقوم الصورة فى علاقتها بالمكان على اساسين : الاساس الاول يتعلق بحب المكان topophilie وما ينشأ حوله من صور السعادة والحبور ، والاساس الثانى يختص بعدوانية المكان apocalypse وما يتولد عنها من صور الحقد والاستفزاز . ان المكان السعيد الذى يكلف به باشلار كلفا شديدا يوحى لنا او لنقل يوحى بصورة البيت الذى يؤوينا والذى يفجر فى نفوسنا طاقات خيالية كامنة ترتبط بالمأوى الاول ووظيفة اساسية لدى الانسان وهى حاجته الى الاستقرار والارتباط الغريزى بالتربة . (٥٤) تعبر صورة البيت عن رغبة عميقة فى السكينة والهدوء وتبرز فى ضميرنا على هيئة مهد دافىء يوفر لنا الحماية والامن ، وفى صورة أم تضمنا بجناحى رحمة وحنان . وتمثل ، كذلك ، الذكرى المكثفة فى لحظة المطلق ، لحظة الباطن الخالص والسماء الظليلة التى تقدم اطارا دائما لاحلامنا ، وقد تزدوج الصورة ، بسبب انعدام المنطق فى عالم الخيال ، فيقدم لنا سطح المنزل رمزا لضوء الشمس الساطعة وسماء القمر المذهب ، ويقدم لنا القبو خلاصة المخبأ الارضى وليل اللاشعور الحالك

٥١) نفس المصدر ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٩

Gaston Bachelard, **Lapoetique de l'espace.** Paris, P.U.F., 1957.

(٥٣) نفس المصدر ، ص ٧

(٥٤) نفس المصدر ، ص ٨ ـ ٢٤

وقد سرت فيه رعشة الرغبة الجامحة . كذلك تغنى هذه الصورة اضعاف اضعاف وتكتسب اعماقا واحاسيس لا حصر لها حينما يتوطد ارتباطها بالطبيعة وتقوى علاقتها بفصول السنة ، فالشتاء يدعم وظيفتها السكنية ويبرز طابعها المثالى كجنة الاحلام بالنسبة للطبيعة الخارجيةالتى اشتد بأسها بعد ان تجمد فى ثوبها الجليدى . ويرمز الشتاء ، بجانب ذلك ، الى شيخوخة الطبيعة وقد ابيض « شعرها » والى الماضى البعيد الذى يكلل الذكرى بهيبةالشيب ... وبالرغم من ان باشلار لم يعن كثيرا ببقية الفصول ، الا انناتستطيع ان نحرص على العلاقةالتى قد ترتبط بين صورة البيت وبين بقية الفصول . فالصيف والربيع يعملان — لا شك — على دمج هذه الصورة بفرحة الطبيعة وسعادة الوجود، اما الخريف فهو فصل الحزن والكآبة الذى يتملك النفوس امام عدم الطبيعة العام كذلك يتفرع بيت الاحلام الى تشعبات فهو تارة قصر يغذى فينا مطامح العظمة والظهور ، وتارة اخرى كوخ يطوينا فى عزلته البسيطة ويبعث فينا نوازع النسيان الدفين . (٥٥)

ان صورة « **البيت البسيط** » لا بد ان تذكرنا بصورة العش الهادىء الذى يوفر لنا الامان والدفء والحنان ، فالعش مأوى الاحبة وملتقى الود والالفة ، رمز الوفاء وباعث الذكرى والحنين الى الماضى . انه الركن المصون حيث تحظى السعادة باكبر قدر من التركيز ، ويزودنا النعيم باغزر طاقات الانكماش فى قلب اللامتناهى فى الصغر . كذلك توفر حياة **الواقع** صورة المخبأ الغامض العجيب اذ انها تحمل بين طياتها حلم الغرابة والاندهاش ... البيت مرتبطة بهذا الاعجاز الذى يمثله تفجر الحياة من الصخور والذى يجعل من حادث الظهور طلعة قدسية ! **ان القوقعة تبلور حياة الاجسام المصغرة التى تنبثق منها المخلوقات الهائلة** ، فهى مأوى الجنيات ومستودع الخيالات والاحلام اللامتناهية وسجن تنفك منه نوازع الحرية . (٥٦)

غير ان المكان السعيد ليس العالم المصغر الذى يتحقق فيه اكبر قدر من التكثيف فحسب ، بل انه ايضا موطن احلام التمدد والاتساع ورغبات التضوع والانطلاق الى ما لا نهاية . لهذا يمكن القول بان الاتساع الذى لا يكون لهعدف واضح ومحدد هو كيان الخيال الخالص وعين جوهره الصافى . ان البحث فى الاتساع العظيم المهول هو مردود ارادتنا القوية ونزعتها الجامحة الى العظمة وتجاوز الوجود ، فالاتساع تعبير صادق عن رغبة التضوع والاتحاد مع الامتداد الكونى ، وهو ، كما نرى فى شعر « **بودلير** » امكانية كالن شاسع يحتوى الوجود ويشمله ، ويقول باشلار فى هذا الصدد : « **ان قدر الانسان الشاعرى هو كونه مرآة لاتساع الوجود ، او بصورة ادق ، ان يعى هذا الاتساع فى ضميره ذاته .** » (٥٧) وليس الاتساع ، الذى نتحدث عنه ، نتاجا لتجربة مكانية او نقلا لانطباع يساور الانسان امام المشاهد العظيمة ، انه فى الحقيقة بناء من ابنية الخيال التكوينية وحاجة « انطولوجية » لدى الانسان الى التضوع والامتداد ، وبتعبير ادق ، هو البؤرة التى يلتقى فيها بصورة متسقة ومتوازنة الامتداد الظاهرى بالامتداد الباطنى . ان الاتساع يسمح لنا بتخطى الوجود المباشر وبالعيش فى المجال الاولى او القبلى . وبفضل جدلية الباطن والظاهر ، تتوفر لدينا امكانية اعلى ، امكانية ادراك الوجود والعدم ، الايجاب

(٥٥) نفس المصدر ، ص ٢٥ — ٧٢
(٥٦) نفس المصدر ، ص ١٠٦ — ١٠٩
(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٧٩

والسلب ، وتعد هذه الجدلية شرطا أوليا من شروط الخيال المكاني اذ انها تتيح لابسط الاماكن تجاوز وضعه في اتجاه الاساس الاول وتحقق قيمته الى عالم المطلق . لذلك تأخذ ابسط الكلمات في حياة الوجود ، مثل كلمة « هنا » قيمة عليا ، اذ انها ترده الى مصدر أصيل ومثبت عميق الجذور في الحياة ، الا انها لا تستطيع ، مع ذلك ، أن تثبت كيانه على الدوام ، فهذا الكيان يتجاوز كل محاولة لتحديد ابعاده المكانية أو لتقليص امكانياته في التجسد والظهور . وليس من شك **في أن المكان الخيالي يختلف في جدلية مثل هذه عن نظيره في علم الهندسة او في مجال التناسق وتناسب الاحجام لانه ، في مضمونه ، رمز الغموض ومجال الالتباس** حيث تتارجح النفس **ويفقد العقل روح التناظم** ، وهو ، من جهة **اخرى ، مكان يثبت** فيه الانسان على **سطح الوجود ولا يعرف** فيه التكامل والتوازن **الا من خلال الكلمة ، الكلمة القاهرة** . الا أن **هذه الكلمة لا تعبر** عن الوجود دفعة واحدة والا **جمدته وقتلته ، فهي** مقر السذاجة والغموض **ومأوى التكتم والسفور** (٥٨) .

خيال الحركة

لقد كرس جاستون باشلار لهذا النوع من الخيال دراستين يمكن اعتبارهما من افضل الدراسات التي قام بها في هذا المجال ، وهما كتابه عن « **الهواء والاحلام** » (٥٩) وكتابه عن « **الارض واحلام الارادة .** » (٦٠) .

يصور لنا المؤلف في كتابه الاول الخيال في شكل طاقة متحركة وقدرة هائلة على تبديل وتعديل الصور التي توفرها لنا وظيفة الادراك ، وبدلا من أن يربط بين هذه الوظيفة الجديدة للخيال وبين عملية التخزين التي تقوم بها الذاكرة وتكرسها العادة فانه يسعى الى ابراز الطابع الدينامي للخيال كقدرة تصويرية عالية وعملية خلق وابتكار لا حدود لها ؛ على هذا النحو ، لا يستطيع الخيال أن يستمد وجوده من الاسس الحسية للصورة ولا أن يرتكز على قوالبها المنبثقة واشكالها الجامدة ، **ان الخيال يصير ، في هذه الحال ، ادراكا مباشرا لحركة مجردة وتجسيدا حيا لصيرورة الكلمة الشعرية . ويقول باشلار في هذا الصدد بلهجة تكاد تشبه لهجة سارتر في كتاباته عن الخيال : « ان الادراك والتخيل** يتناقضان تماما كما **يتناقض المثول مع الغياب فالتخيل هو الغياب وهو الانطلاق الى حياة جديدة .** » (٦١) والغياب المقصود هنا هو تجرد خيال الحركة عن عالم المادة وابتعاده عن المحسوسات ، اذ انه يصير ، في هذا المنظور الدينامي البحت ، دفعة خالصة نحو المستقبل وتحليقا في سماء حلم بلوري ساحر . ان هذه الانطلاقة من الواقع الى الخيال تتحقق بفعل « شاعرية » موضوع يؤثر في النفس ويهز الضمير باحداث حالة من حالات الحنق والرفض والسارة احساس تتجاوب فيه العواطف الجياشة مع حالات من الايقاع او التنغيم الداخلي ، ولا شك اننا ، بهذه الطريقة نصل الى جوهر فعل التجاوز في الشعر ، والى قدرته العظيمة على تخطي الواقع ، وكلها امور تتفق ووظيفة « اللاواقع » الذي سبق الاشارة اليه . (٦٢) الا ان هذه الوظيفة تشمل ، بالرغم من ذلك ، ما يشبه تسلسل

---

(٥٨) نفس المصدر ، ص ١٩٠ ـ ٢٠٠

(٥٩) Gaston Bachelard, **L'air et les songes. Essai sur l'imagination du mouvement.** Paris, J. Corti, 1943.

(٦٠) Gaston Bachelard, **La terre et les reveries de la volonté.** Paris, J. Corti, 1948.

(٦١) الهواء والاحلام (ملاحظة رقم ٥٩) ص ٧ ـ ١٠

(٦٢) نفس المصدر ، ص ١١ ـ ١٣

النسب بين خيال الحركة وبين العناصر ولكن من غير ان يحكم عليها ذلك بالسكون أو الثبات. فكل مادة تسمو الى مرتبة الخيال الدينامي تصبح قوة من قوى التسامي وقيمة عالية من قيم المثالية ، ويمكن القول في هذا **بان الحركة تحرر المادة وتحولها الى روح خالصة** . (٦٣)

ان خيال الهواء ، حينما يصور على هذا المنوال ، يجعلنا نعيش في عالم اللامتناهي في الكبر حيث ترتقى النفس الى تجربة فريدة تحرر فيها المادة من كل أبعادها ، وتسمح هذه التجربة القائمة على مبدأ التسامي بابتكار ما يسميه الكاتب « **سيكولوجيا الصعود** » التي تعتمد على اثارة مشاعر الخفة وانطباعات النشوى والفرح ، وهي تقوم جميعا على مبدأ **الزمان العمودى** ، وليست هذه العمودية الا محور عملية **التجاوز** الشاعرى ومبدأ **عملية التقييم الثانى والخلقى** الذى نستمتع به في الاستعارات والتشبيهات التي تدور حول الارتفاع والعلو او العمق والسقوط . (٦٤) وتعتبر هذه العمودية ، بالقدر الذى يعيشها الضمير المرهف ، مصدرا لذات ديناميكية تدفع بخيال الشاعر في اتجاهين جد مختلفين : الاتجاه الاول هو الاثراء والاخصاب ، والثانى نحو التحرر والانطلاق . يشمل الاتجاه الاول القيم الراسخة ذات الوزن والثقل التى تبلورها الصور المادية الترابية ، والثانى يضفى قيمة المحور المضاد ، محور الخفة والصعود الذى يتجسد في الصور الهوائية ، غير ان الاثراء المادى لا يمكن الحصول عليه ، في الحقيقة ، الا بقدر معين من افتقار الحركة ، كما ان الاسراع في الحركة الخيالية لا يمكن ان يتم الا باضعاف دور المادة ، اى ان الفعل الاول عملية ترسيخ وتعميق ، بينما الفعل الثانى عملية : تجريد وتحليق . وليس من شك في أن كلا المنظورين ليس في مقدورهما ان يتحققا الا باختيار أولى ، ناتج عن حكم مسبق ، لاحد القطبين اللذين يعبران عن حاجتين أساسيتين في نفسية الانسان : حاجته الى الخضوع وحاجته الى الانكماش والانطواء على الذات . وليس من الضرورى ان يبقى هذان القطبان في تنافر تام اذ انه يمكن تصورهما كلحظتين في عملية شد وجذب وحالتين من حالات التبادل الجدلى . (٦٥)

ان خيال الهواء او خيال الخفة يتشكل فيما يسمى **بحلم الطيران** . ويفسر التحليل النفسى هذا الحلم على انه رمز لحالة توق وشوق الى الحلم نفسه ، وهذا امر يرفضه باشلار ، لان الرمز يردنا هنا الى تصور مثالى ومفهوم مسبق . اما المنظور الدينامى فيجعل منه رحلة خيالية حقة وانسيابا ناعما لحركة من حركات الرقة ، ومن ثم تحدث المعجزة ، معجزة قلب الادوار بين الحالم وحلمه ، اذ ان الحالم الذى يتأمل تصاعد منحنى الظرف والخفة ، يصير نفسه ظرفا متصاعدا وقوة سابحة من **قوى اللطف المحب** ان اضفاء الحركة ، **بهذه الطريقة** ، على ذات الحالم بواسطة قلب القطب الموضوعى للحلم ، لا شك سوف يتضمن ـ على العكس من عملية التعميق والشد الى اسفل الذي يعنى به التحليل النفسي ـ جهدا فكريا ما ، ومستوى معينا من العقلانية والادراك .

ولا شك ان هذا الجهد الذى يتطلبه خيال الحركة هو جوهر عملية التجاوز ذاتها ومضمون حركة الاسقاط على المستقبل البعيد الذى يجد في الاتجاه الخطى لحلم الطيران افضل تجسيد له . ولكننا ، حينما نتحدث عن الجهد فانما نتحدث عن السهولة والرشاقة

(٦٣) نفس المصدر ، ص ١٤ ـ ١٥

(٦٤) نفس المصدر ، ص ١٦ ـ ١٨

(٦٥) نفس المصدر ، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٢

والفرحة بالقدر الذي تتحدث فيه عن الاقلاع والانتزاع والعذاب . يقول باشلار : **« يخضع حلم الطيران ، بطبيعته ، الى جدلية الخفة والثقل . لهذا السبب يتفرع حلم الطيران الى نوعين مختلفين تماما : هناك احلام خفيفة وهناك احلام ثقيلة . وتتراكم حول هاتين السمتين معظم جدليات الفرحة والالم ، الانطلاقة والتعب ، السلبية والنشاط ، الندم والامل ، الشر والخير . »** (٦٦) على هذا النحو ، يمثل حلم الطيران ، لدى باشلار ، تركيبا حيا يلتقي فيه خيال العناصر مع خيال الحركة ، الامر الذي يسمح بتخيل ، وفقا لتعبير الكاتب ، نوع من **« الخفة المادية »** التي تعمل على تحريك الضمير ، وبث روح الانطلاق والتحرر فيه . (٦٧)

وخفة المادة هذه ، التي يشير اليها الكاتب ، هي العامل الاساسي الذي يساعدنا على مشاركة الطبيعة ظواهرها مشاركة حية وفعالة ، اذانه بفضل هذه الخفة ، التي تشبه انعدام الوزن ، نستطيع ان نحلق مع الريح والهواء ، وان نتالق مع القبة ، وان نعوم مع الورود الزكية العطرة ، تماما كما هو الحال في شعر « شيللي » ، وبفضل دينامية الخيال عند هذا الشاعر المرهف تسمو الصور الجوية الى درجة عالية من الشفافية الروحانية : فصورة « القارب » او « الجزيرة العائمة » تحدث لدينا لفعل الحركة المستمرة والمستبطنة ، احساسا قويا بالصعود الى السموات البعيدة ، وليس هذا الصعود الا نتاجا لمطامحنا في السمو والارتفاع وحاجتنا الاصيلة الى التحرر والخفة ، وهذا الصعود نفسه يتحقق عند « **بلزاك** » في صورة « **السهم المنطلق** » التي عثر عليها باشلار في قصة « **سيرافتيا** » الحالمة ، ولكن بطريقة بالغة القوة بحيث تنتقل الحركة من دور العلة الى دور المعلول ، ويصبح السبب ، بفضل عملية التقييم الذاتي والخلقي ، هدفا وغاية . هنا يصير الخيال ، كما يقول باشلار : **« خاضعا لغائية هائلة القوة ، فالسهم الانساني لا يحيا دفعته فحسب ، بل يحيا غايته ويعيش سماءه كذلك . وحينما يعي الانسان قدرته الصاعدة ، يعي قدره الكلي ، وبعبارة ادق ، يدرك انه مادة الرجاء وعنصر الامل . »** (٦٨)

بالاضافة الى هذه الرغبة في التخفف والانطلاق ، يستطيع خيال الجو ، بواسطة « **شاعرية الاجنحة** » ، أن يشبع حاجات نفسية اخرى متعددة ، ومن خلال هذا المنظور ، يمكن لحركة الطيران ان تحاكي عملية التجريد فكلاهما يشكل في عالم الخيال دفعة الى اعلى ، لم تحليقا متباعدا عن عالم المرئيات والمحسوبات ، ويمكن جوهر حلم الطيران في تخطي الانطباعات الشكلية وتعديلها الى لب عملية الطيران التي لا تخرج ، في نظر باشلار ، عن كونها عملية رائعة وبديعة ، فالتجريد هو الخفة ذاتها ، الخفة في طهارتها الاولية وفي بساطتها ، الا أن التجريد ظاهرة تتميز عموما بفقرها ، فمن يقل بساطة ، يقل فقرا ، ويظهر التجريد في اغلب الاحيان بعيدا عن كل تنميق شكلي ، اذ ان الطيران الخيالي ينتج ، في الواقع ، زينته الخاصة به ، والوانه المتعلقة به والتي لا تتعدى ، في حالة الطائر الخيالي ، اللونين : الازرق والاسود . يمثل الازرق ، الذي يعبر عن جوهر الطهارة ، انطلاقة العصفور وبالتالي دفعة الحلم التصاعدية ، اما الاسود ، لون الظلال ، فيجسد حركة السقوط او الهبوط ، وليس من شك في ان الطائر وحده يملك ، وفقا

(٦٦) نفس المصدر ، ص ٣٠

(٦٧) نفس المصدر ، ص ٣٨

(٦٨) نفس المصدر ، ص ٧٢ ــ ٧٤

للكاتب ، مقدرة الكشف عن مصدر « **الخفة الوجودية** » فى نفس الانسان وفى الطبقات العميقة الساكنة لحلم النضارة والشباب . ويفضل هذه الرؤية الاولية فى الخفة والتخفف التى تمثل « **شهوة الطهارة** » كما يذهب باشلار ، يكتسب العصفور قيمته الادبية والخيالية العالية . وهكذا تستطيع جميع الانطباعات الكامنة فى اللاشعور من خفة وحيوية وشباب وطهارة ورقة أن تتبادل فيما بينها القيم والدلالات الرمزية . اما جناح الطائر ، فهو فى الحقيقة يأتى لاحقا ليجسد هذه المعانى والدلالات ولينقلها الى عالم الوجود النابض الحى . لذلك يصبح طائر الخيال طائرا خفيفا ، ذا لون أزرق صاف يجذبها معه فى رحلته خارج اطر الزمان الى بلاد الاحلام السعيدة . (٦٩)

ويقوم حلم الطهارة والصفاء ، الذى يمثل جوهر حلم الطيران ، من جهة أخرى ، باحداث تبديلات رائعة وملاءمة بين الصور الخيالية التى يفجرها ، فحرارة الطائر الداخلية ، مثلا ، تصبح « **نار الصفاء الاولى** » ومصدر الطاقة الدافعة له . كذلك هى تكمن وراء تصورنا للطيران على انه « **دفعة ساخنة** » الا ان هذه الصفات المادية للصور ، ان جاز هذا التعبير ، لن تفلت من عملية التقييم . لذلك يقوم طيران العصفور الازرق ، الذى يستمد من السماء لونه وشفافيته ، بتمثيل حلم السعادة المضىء ، بينما يمثل الخفاش نوعا من الكابوس الاسود ويرمز الى معانى الدناءة والتشاؤم والشر . (٧٠)

وبما ان حلم الطيران حلم مجرد ، فان خيال الشاعر لا بد أن يستمد من العناصر بعض سماتها التصويرية . على هذا النحو ، نرى فى عالم الرسم ، مثلا ، ان حلم الطيران يستمد مادته أو يستلهم صوره من « **حلم السباحة** » ، فالملاك الطائر هو ، فى الحقيقة ، ملاك « سابح » يشق عنان السماء ، الا ان الاتجاه الصاعد لا يضيع ، مع ذلك ، لاننا ننتقل من عالم الثقل الى عالم الخفة والرشاقة كذلك ينقل خيال الحركة محتفظا باهميته ، بالنسبة للخيال الصورى ، لان الرسام غالبا ما يصور عملية الصعود فى خطوط رقيقة متصاعدة ، واجمل مثال لطغيان صور الحركة على الجوانب التشكيلية ، هو هذا البيت الجميل الذى يختاره باشلار من شعر « **وليم بليك** » : « لقد اتخذ طائر البحر من دفعة انواء الشتاء رداء . » (٧١) حيث تستمد الحركة صورتها الرائعة من ثنايا الرداء الذى جعلت تعبث به الرياح والامطار . كذلك يلعب طائر القبر فى شاعرية الفضاء عند « شيلى » دورا كبيرا فى اضفاء الحركة والصوت على السماء : « **فالقبرة ، مثل السحاب النارى ، تعير اجنحتها للعمق الازرق . وبالنسبة لقدرة شيللى ، تعد الاغنية انطلاقة ، كما تعد**

---

(٦٩) نفس المصدر ، ص ٨٠ ـ ٨٣

(٧٠) نفس المصدر ، ص ٨٦ ـ ٩٠

(٧١) الخيال الدينامى بالغ الاهمية فى الشعر العربى ،وتشوق للتدليل على ذلك بعض الامثلة الطريفة من شعر المتنبى . يقول الشاعر فى ذم اسحق ابن الاعور :

« واذا اشار محدثا فكأنه — قرد يقهقه أو عجوز تلطم

يقلى مفارقة الاكف قذاله — حتى يكاد على يد يتعمم

حيث تمتزج الاصوات المعبرة مثل صوت القهقهة وصوت اللطم المكتوم مع صورة الحركة الهزلية التى لا تخلو من عملية تقييم اذ ان قذال الهجو يقلى اى يبغض الابتعاد عن صفعات اليد . وانظر كذلك الى هذا البيت الذى يشبه فى تركيبه بيت « وليم بليك » المذكور :

يهز الجيش حولك جانبيه — كما نفضت جناحيها العقاب

الانطلاقة الفنية ، فالانطلاقة هى السهم المدبب الذى يخترق دوائر الفضة » (٧٢)

أما القطب المناقض للصعود فهو ما يسميه باشلار « **بالسقوط الخيالى** » الذى يبلور ، عادة ، نوعا من **الخوف البدائى** لدى الانسان ، وهو خشية السقوط او التردى من منحدر ، ولا شك ان هذه الخشية تعتبر العامل المحرك لما ينتابنا احيانا من خوف وما يصيبنا من هلع حينما يسدل علينا الظلام ستائره السوداء القبضة . هذا الخوف يرادف سقطة حقيقية فى هوة الدياجير ليتبعها ارتداد وهمى الى اصل النوع او النشأة الاولى . غير اننا لا يجب أن ننسى قط ان المحور الحقيقى للخيال الدينامى يتجه الى اعلى وليس الى اسفل ، اذ ان صور السقوط ليست ، فى الواقع ، غنية بمعانيها او بمجازيها بل على العكس ، انها تكثر من وحدة الدفعة ولتعترض عملية الصعود العمودى للصورة ، علما بأن عملية الصعود هى ارادة الحلم نفسه وغايته المنشودة . ان هذا الصعود يعد انتصارا على الثقل والجاذبية اللذين يشدان الانسان الى الارض ويعوقان ـ بالتالى ـ عملية نموه وازدهاره . ويمكن لصورة السقوط ، من جهة اخرى ، أن تعكس السمة المميزة لدينامية الخيال ، فتمثل لنا ضربا من « الحنين » الى العلو ، اذ حينما تكتسب هذه الصورة حركة وفعالية ، تصبح قوة مفجرة للمتحدرات والمساقط ، وحينما تتفاعل مع القيم الروحية لتنسج خيوطا متينة مع الاحساس بالذنب وتصبح رمزاً للقلق . يقول باشلار : **انها تجمع بين القلق والسقوط ، وتوحد وحدة عضوية ـ من خلال وحدتنا المادية ـ بين ما يضغط علينا وما يطرحنا ارضا ، حينئذ يصير الفضاء القريب ، الفضاء الذى يجدر به ان يمثل حريتنا ، سجاننا ، سجنا ضيقا ، كما يصير الجو خانقا . »** (٧٣) الا أننا اذا كنا ، كما هو الحال فى تجربة « نوفاليس » ، الرباط المتين الذى يربط بين الارض والسماء ، سوف نصير حينئذ « مادتين فى فعل واحد » ، وفقا لازدواجية الخيال التى اشرناالبها من قبل ، فالحركة الخيالية ، كما يقول باشلار : « **حينما تبطىء تخلق الكائن الارضى ، وحينما تسرع تخلق كائن الفضاء .** » (٧٤) هكذا يصبح الثقل عند **نوفاليس** ، بفضل التوازن الدينامى ، علاقة غير مرئية تحافظ على تناسق الوجود وسلامة توزيع عناصره ، اي انها تلعب دور الجاذبية الارضية ، التى لولاها لتطايرت الاشياء وتبددت فى السماء . ويقوم الخيال ، بفضل هذه الخاصية ، بدور الوسيط بين الارض والسماء ويستطيع ان يبرز العناصر المشتركة والسمات المتقاربة بين الكائنات الارضية والكائنات السماوية ، فاذا كانت زرقة حجر السفير هى لازورد السماء ، فان زرقة السماء هى نوع من هذا الياقوت المركز ، على هذا النحو ، نحصل على نوعين من الخيال : **خيال التضوع والتفخيم، وخيال الكثافة والتركيز.** (٧٥)

ان صورة الصعود تمثل ، عامة ، القطب الايجابى لخيال الحركة ، وهو الامر الذى حدا بعالم النفس « روبير دوزوال » Robert Dosoille الى اللجوء الى هذه الخاصية النفسية ، وفق طريقة فنية تعتمد على خيال الصعود ، لمعالجة ظواهر الانطواء وازالة

---

(٧٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٢

(٧٣) نفس المصدر ، ص ١٠٧ ـ ١٢٢

(٧٤) نفس المصدر ، ص ١٢٧

(٧٥) نفس المصدر ، ص ١٣٠

العقبات النفسية التي تحول دون تفتح الشخصية وانفراجها ، وتقوم منهج « دوزوال » على عملية التسامي او تطوير خط تصاعدي يسمح بتحويل طاقة الاحلام الخيالية الى طاقة خلقية ونفسية . الا ان الخيال « الخلقي » هذا وارادة الاستقامة تلك ينتميان اكثر ، في نظر باشلار ، الى عنصر المادة منهما الى عنصري التعقل والاهم . لذلك يقول : « **ان السببية المثالية يمكنها ان تصبح سببية مادية حينما يتخيل الانسان انه على اتفاق مع قوى العالم . وسوف يشعر الشخص الذي يحاول المساواة بين حياته وخياله بنوع من النبل المتزايد في قرارة نفسه حينما يحلم بنمو عنصر او يحلم بصعوده في الجو .** » (٧٦) وغالبا ما ترافق ظاهرة الصعود هالة جوية من الالوان الزاهية المضيئة اذ سرعان ما يصبح الهواء ذهبا ولا زوردا . كذلك يفيد الصعود — لدى التحامه بخفة الهواء ورقته البللورية — من رمزية الضوء ، فيغمرنا حينئذ بضوئه السماوي (٧٧) .

ان ظاهرة الصعود الخيالي تلعب دورا كبيرا في العالم النفسي والخيالي « لنيتشه » فيلسوف ارادة القوة : الذي يرى في عنصر الهواء مادة غنية لسعادة « فوق انسانية » ، فالفضاء العلوي ، بالنسبة لهذا الفيلسوف ، يعد الوطن الاسمى بدعامتيه **البرودة والعلو** . ويمثل الهواء ، لديه ، مادة الحرية ولبها الاصيل ، المتجرد عن كل صفة بالقدر الذي يسمو بنا على كل تجسيد واقعي ، لذلك يمكنه ان يبلور ، بجدارة ، رؤية الفيلسوف للانسان في تطابقه مع حركة الصيرورة الشاملة . وبما ان الهواء ، من جهة اخرى ، يعد رمز الارادة الخالصة ، ففي قدرته طرد الروائح الكريهة وما يلازمها من احاسيس ارضية ثقيلة . اننا في عالمه اللافح نستيقظ على اللحظة الحرة ، اللحظة القوية ، المحفزة ، وبما انه لا يتضوع الا في الاعالي الشاهقة ولا يتنفس الا على القمم الشامخة . فهو موطن البرودة والصمت . كما انه ، بفعل ازدواجية الخيال ، نار التوتر الشفافة ، مجهود الصعود ، غضب الصاعقة وبريق السيف المصلت . هكذا يكتسب الهواء ، بفضل «عملية التقييم الخيالي » صفتين اساسيتين : صفة **المادة** وصفة **القوة** . (٧٨)

ان الهواء يذكر الالباب بموطنه الشاسع ومملكته السماوية الزرقاء حيث يتيه ويصول بل انه ليصبح هو ذاته ، بعد تحول رائع وعجيب ، جزءا من القبة الزرقاء التي سرعان ما ترمز ، في لغة الخيال الدينامي ، الى ارادة التحرر من اسار المادة والى الرغبة القوية في الخفة والرشاقة والشفافية . ان هذه الزرقة في نظر باشلار ، لون يميل الى الشحوب ، كما ان الشحوب يتوق الى النعومة ، نعومة الثوب الحريري الذي يكاد يذوب رقة وليناً وحينما تصبح زرقة السماء عنصرا هوائيا صرفا ، اي حينما تتقمص اقل العناصر سمكا او كثافة ، فانها تستطيع التعبير ، كما هو الامر عند « كولردج » ، عن جوهر الشعور ، الشعور العائم الذي لا موضوع ولا حدود له . والكتابة عن نزعة التسامي ، هذه القوة المركزية الطاردة في الانسان . اما عند الشاعر « اليوار » ، فالزرقة تمثل الطهارة عينها وقد التقطها حدس الشاعر وحسه المرهف في دفعة واحدة غامرة وشاملة . **وهذه الطهارة بالنسبة لشاعر الهواء ، «اصباح مطلق» وشفافية لامتناهية تلتقي فيها ذات**

(٧٦) نفس المصدر ص ١٣٠

(٧٧) نفس المصدر ص ١٣٧

(٧٨) نفس المصدر ، ص ١٥٢ — ١٦٠

الحالم بحلمه حتى ليصيرا كلا متكاملا لا فاصل بينهما ولا عائق . (٧٩)

اما **الكواكب والنجوم** فتثير انماطا اخرى من الاحلام والخيالات يرتكز معظمها على صورة«البطء والسفر البعيدين» فلألاء «السماء المضيئة ولألائها المتناثرة . ويلعب هذا البطء في السماء المرصعة بالنجوم دورا مهدئا بالنسبة للنفس القلقة ، اذ أنه يضفي عليها مسوح الهدوء وسمات السكينة والوقار . ان هذا البطء الخيالي يوقف لدينا عجلة التفكير الدؤوب ، ويذيب المشاغل والهموم السريعة المتتالية التي تملأ علينا صدورنا وتمسك بنا في دوامتها الصاخبة ، حتى تتاح لنا ، في لحظة من لحظات الخلاص المفاجيء، ان نتأمل جدية الحياة ووقارها وان نعجب بطابعها الرصين المهيب . ان النجوم ، حينما تتلألأ في السماء ، تثير لدينا احلام الرؤية البعيدة وخيال النظرة الممتدة الى اغوار الزمان السحيقة ، اذ ان كل جسم له ضياء او بريق هو نظرة ، نظرة عميقة نافذة توحد بيننا وبين السماء . (٨٠)

وتثير **السحب** ، من جهتها ، احلام السهولة والحركة وخيالات الخفة والنزق . والخفة ، كما نرى هنا ، تكتسب معنى التقلب والطيش ، بينما كانت في الصورة السابقة تعني خفة الوزن والتحرر من قيود الجسد ، الا ان السحب تستطيع ان تقوم ايضا ، بسبب قدرتها الفائقة على التحول والتغير ، بدور الخيال الخلاق ، صانع المعجزات . وهي لا ترتبط فقط بالصور المرئية وانما تتحكم كذلك في صور اللمس التي تعبر ، عند الكاتب « **سوبرفيل** » مثلا ، عن حركات الفنان او الصانع التشكيلي . ونظرا لقدرة السحاب الأبيض على تمثيل حلم الحركة والمهارة وخيال الطراوة والالوان الباهتة ، فانه يرمز ، في يسر ، الى صور الصعود والتسامي بالرغبات التي لا تكف عن التوالد . اما السحاب الرمادي، المثقل بالمطر ، فانه ، على العكس من ذلك ، يمثل تهديدا لنا وقوة سوداء مسلطة على رؤوسنا ، فبدلا من أن نصعد معه الى عليين ، نصعق او نخفس في أسفل سافلين . (٨١)

وتقوم احلام « المجرد » مثل احلام النجوم ، على تصورات التحول البطيء والتبديل الفوضوي ، كما انها بما تحتويه ــ في دنيا الخيال ــ من عناصر لزجة ورخوة، تذكرنا باللبن والعجائن ، الامر الذي يساعد على انبثاق خيالات الانفتاح والغليان . ويذكرنا باشلار في هذا الصدد باقوال « **اندريه ارنيفالد** » الممتعة : « **كنت ارى نوعا من الفوضى النابضة بالتوهج، وعجينة من السحب النارية متغيرة الأبعاد والكثافة والامتداد ابدا.** وكانت خصلات شعر **اللهيب المدببةوانتفاضات** طرته تمتد في كل صوب ، **كما كانت افرازاته الفائرة تتطاير ، عند التقائها ببرد الفضاء ، في صورة رذاذ من الجمر المتقد .** » (٨٢)

بالنسبة لاحلام الصعود ، تستطيع كذلك صور الشجرة توليدها ، لأن هذه الصورة توحي بالعمودية والاستواء ، والشجرة المقصودة هي ، بالطبع ، الشجرة الباسقة التي تطل براسها شامخة على الاجواء العليا . ان هذه الشجرة تطلق احلام الانسان المتكيء الى جذعها نحو آفاق تلتقي فيها السماء الممتدة مع قمم الاشجار البعيدة والفضاء الكوني . وهي ، من جهة اخرى ، باحتوائها

(٧٩) نفس المصدر ، ص ١٩٢

(٨٠) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ ــ ٢١٠

(٨١) نفس المصدر

(٨٢) نفس المصدر نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٩

في اعاليها « **العش المعلق** » تفجر خيالات التسلق وحلم الحركة المتارجحة فوق الهوة السحيقة التي نخشى السقوط في فتحتها المترقبة . الا أن هناك اهتزازا آخر اكثر اتزانا تبعثه صورة العصفور المتارجح على الفرع المائس . كما ان الشجرة ، بالاضافة الى ذلك كله ، كائن حي يعيش وينبض ويئن تحت وطاة الريح العاتية كما يتعذب ويكافح ويقاوم ، غير أن هذا الكائن ، بفضل ماء الحياة الذي يدب في عروقه ، اقوى من الزمن ، الا نراه يتحدى العصور ويتيه مختالا على نغمات الأبدية ! (٨٣)

اما الريح ، فهي تمثل غضبة الهواء وثورة الكون الخالصة ، ثورته العفوية التي لا تقوم على حجة ظاهرة ولا تستند الى سبب واضح . ويبدو ان هذه الثورة او الغضبة العفوية هي المبدأ الأول للارادة والخيال ، اليست أساس « الزوبعة » الاولى التي بثت الحياة في الكون ومصدر « **الصرخة** » التي ولدت الكلمة وفجرت شباه الفكر . الا أن الصرخة ليست دائما علامة القوة او رمزا لغضب الرجولة اذ غالبا ما نراها ممزوجة باصوات الشكاية وانفاس القلق المتقطعة . ان الريح في جبروتها كائن عات وقوى ، ولكنها حين ترق وتهدأ سورتها تصبح كائن النسيم الرقيق الحنون الوديع . (٨٤)

والهواء ، اذا نظرنا اليه نظرة اعمق ، نراه يجسد نفخة الروح ولفحة الوجود ، انه ينبوع الالهام الذي تتدفق منه القصيدة وتستمد منه حياتها وايقاعها . وهو حياة الشهيق ونفس الزفير في جدلية التنفس الثنائية . **لذلك نراه ينفذ الى صميم العملية الشعرية في صورة نبضات وحركات تتآلف مع ايقاعات الابيات وتنسجم مع تتالي المقاطع.** ان الشعر في صورة الهبوب الذي يبدع نغمات العنصر الهوائي ، يبدو كانه « **الظاهرة الاولى لارادة الانسان الجمالية** » ، فهو يعد ، في قلب السكون الشامل ، **المفجر الأول لهذه الجلرية لدى الانسان ، الا وهي حاجته الى تاكيد الذات والغناء** . (٨٥)

• • •

يتابع الكاتب في مؤلفه عن « **الارض واحلام الارادة** » **(٨٦)** ، رحلته على اجنحة خيال الحركة . ونحن هنا بصدد تصور للمادة يربط بينها وبين **القوة العضلية** وبينها وبين **المجهود** والعمل الخلاق . ومن الواضح ان صورة المادة ، التي تبدو هنا كانها اكثر التصاقا بالحياة الأرضية ، ليست انعكاسا لعملية الادراك ولا وظيفة تابعة للذاكرة . انها ترتبط كالمعتاد ، على ضوء منهاج يونج ، بنموذج اولي ، غير انها تصوغه وتعيد تشكيله بطريقة جديدة . وليست هذه النزعة التجديدية ، في الواقع ، الا ابرازا لظاهرة الخلق والابتكار الملازمة – بالضرورة – للغة الشعر . **ان تصور الشعر هنا يقوم على مفهوم « ارادة الجمال » التي تعد في نطاق الخيال « طاقة سحرية حقيقية » (٨٧)**

تقوم الطاقة الخيالية على محورين او اتجاهين رئيسيين . الاول ، نحو الظاهر ، والثاني **نحو الباطن** . ويقود الاتجاه الاول الى الاحلام الديناميه الفعالية التي تقوم **بتحويل**

---

(٨٣) نفس المصدر ، ص ٢٣٢ – ٢٥٥

(٨٤) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ – ٢٦٥

(٨٥) نفس المصدر ، ص ٢٧١ – ٢٧٨

(٨٦) Gaston Bachelard, **La terre et les reveries de la volonté., op. cit.,**

(٨٧) نفس المصدر ، ص ١ – ٩

المادة وتمجيد ارادة الذات الحالية . اما الاتجاه الثاني ، فيرتبط بعملية استبطان الخيال وارتداد الحلم الى ذات الحالم معبرا بذلك عن رغبة عميقة في الراحة والتمتع بجوهر النفس الحميم . ولقد راينا ، في كتاب باشلار السابق من « **الارض واحلام الراحة** » ، امثلة عديدة على هذا الاتجاه الاخير . لذلك لن نعنى هنا الا بالاتجاه الدينامي الظاهري .

ان مقاومة المادة تتخذ شكلين من اشكال العناصر : **الليونة والصلابة وهما** شكلان من السهل تحويلهما الى استعارات وصور شعرية انه يجب ان ندرك ، مع ذلك ، **ان تصور المقاومة ليس موضوعيا خالصا اذ انه لا يمكنه ان يلغى كل علاقة مع ارادتنا** « القصادة » للاشياء . وليس من شك في انه من خلال هذه العملية الجدلية ، التي تخلقها المقاومة بيننا وبين الاشياء ، يستطيع كياننا ان يسقط على « **اسرار الطاقة** » وان يلتقي مع تدبره الكوني . ان المقاومة الخيالية ، في الحقيقة ، ليست مجرد مقاومة ، فهي تفترض في العناصر عمقا معينا وطورا خاصا ، كما انها تضفي على العالم والوجود نوايا من الصراع والتحدي والعناد . يقول باشلار في ذلك : « **لا بد للخيال من حيوية جدلية ، تعاش على انها اجابات الموضوع على اعمال عنف مقصودة ، كما تعطى للعمل دوره كمبادرة استفزازية .** » (٨٨)

ان مقاومة المادة ترتبط بالعامل او الصانع من طريق فعل العمل نفسه ، الذي لا يمكنه الانفصال من ديمومة معينة للمقاومة . ومن خلال هذه الديمومة « المادية » يمكن للكائن ان يتحقق كبعد من ابعاد الصيرورة وان يحقق نوعا من الارتقاء الاصيل .. ان الشيء باختصار ، يقدم مادة معينة للارادة واطارا زمنيا لنشاطها ، الامر الذي يدعم قوته ويزيد من حدته من جهة ، كما يدفعنا الى مضاعفة الجهد وقبول التحدي من جهة اخرى . ان مقاومة المواد الصلبة تفجر نوعا من العنف الشديد القاسي ، بينما مقاومة المواد اللدنة تتطلب بعض المرونة او ما يسميه باشلار « القوة الخبيثة » . وهكذا يستمد شعور العداوة صفاته من المادة ذاتها ، التي تزودنا ، على هذا النحو ، قوة خلاقة جبارة وتملانا بمشاعر الخلق العظيمة . كما انه يبدو من خلال علاقاتنا الجدلية مع العناصر ، ان المقاومة الحقة تثير كثيرا من الاحلام الدينامية التي تثير ، بدورها ، مقاومة كامنة في قلب الاشياء . **لذلك لا بد لجدلية المادة المشغولة واليد الصانعة ان تنتمي الى خيال الطاقة وقوى التجاوز والنمو الوجودي ، فهي في جوهرها عملية تحد وارادة تغيير وتمجيد .** (٨٩)

تطور المقاومة ، اذا نظرنا اليها من المنظور الاجتماعي ، نوعا من « سيكولوجيا التضاد » ، التي تقوي روح التحدي والممارسة كما تثير الصراع النفسي بين الانا والانا الاعلى ، اي بين الذات والمجتمع بما يمثله من عادات وقوانين ضاغطة ، الامر الذي يدعم قوة الشخصية ويحول بينها وبين الطمس والاندثار من قبل القواعد والتقاليد الجمعية . ان الشخصية تكتسب قوة ومناعة في حالات التوحد ، كما تكتسب نفاذ البصيرة والقدرة الفائقة على التغيير والتجديد . انه يوجد هنا ، وفقا لباشلار ، جانب « مادي » يزج بالارادة الانسانية في مواجهة مباشرة مع الطبيعة بعيدا عن حياة الجماعة وتقاليدها ، الامر الذي يتيح « **لوظائف اليد الدينامية** البزوغ من « **لا شعور الطاقة البشرية** » ، بعيدا عن كل ضبط عقلاني وبمنأى عن كل ضغط واع . ان الارادة ، التي يعنيها الكاتب ، هي هذه « **الارادة العاملة** » **التي تمثل قوة**

(٨٨) نفس المصدر ، ١٠ ـ ٢١

(٨٩) نفس المصدر ، ص ٢٢ ـ ٢٧

فعلية من قوى التحويل والتشكيل ، والتى تتجلى فى العمل المباشر والاتصال الملموس مع المادة بعيدا عن جميع المظاهر والتقاليد الاجتماعية . تضع هذه الارادة العامل فى قلب الوجود ، وليس فى قلب الجماعة ، وهى تخضع لقوتين من قوى الخيال : **قوة اللهب وقوة البلل** ، بعبارة أخرى ، انها تتوزع بين عالم الحداد الذى يعالج المواد الصلبة وعالم صانع الفخار الذى يشكل الاجسام الرخوة . هى ، باختصار ، قوة الخلق التى تفجر فرحة الصانع وتعد احدى محفزات عمله الأساسية ، والمجهود المرح الذى يصاحب العمل ، اكثر من كونها علامة الرضا التى تبرز فى نهاية العمل المتقن . (٩٠)

ان المعالجة اليدوية للمادة تعد بمثابة نفاذ الى قلب العناصر وانفتاح للخيال على ثروات هائلة سواء أكان الأمر متعلقا بالذات الحالمة او بموضوع الحلم ، انها تشبه ، فى عالم الخيال ، حركة النغم او الايقاع الذى يربط بين المستويين : مستوى الباطن ومستوى الظاهر ، فيبعث فى نفوسنا تارة أحاسيس التوقع والاستبطان ، وتارة اخرى مشاعر التالق والظهور . ان الاحاسيس الاولى تفجر ضروبا من الحيلة والمهارة فى مواجهة المقاومة العنيدة والخفية للمادة ، أما الاخيرة فتبلور نوازع القوة التى تتطلبها المقاومة الصريحة والمباشرة لبعض العناصر . (٩١)

ان مقاومة المادة او العالم تحرك « ارادة عاملة » ، وتثير موقفا ديناميا يتعارض مع حالة التامل لدى الفيلسوف او الحكيم . الا ان العالم ، بالنسبة لليد العادية ، قوة عاتية ، ويمثل بالمقارنة الى عجزها مجموعة من القوى الغامضة المجهولة والطاقات السحرية اللاعقلية . اما بالنسبة لليد المسلحة بالآلة ، فان مقاومة الأشياء تصبح محفزة ، دافعة الى مزيد من الجهد ومطورة للخيال المبدع والارادة الخلاقة المبتكرة . لذلك نرى أن معظم احلام الارادة ترتبط بتصورات الآلة وقدراتها اللا متناهية ، كما نرى أن الارادة العاملة تعنى بالوسائل بقدر ما تعنى بالغايات ، اى أن الغاية والوسيلة لديها تمتزجان . أن هذه الارادة الصانعة تعتبر هجوما مباشرا وصريحا ضد الواقع . لذلك يقول باشلار فى ذلك : « **يرتقى عالم المقاومة بالذات الى مرتبة الوجود الدينامى والى صيرورة الوجود النشطة الفعالة ، ومن ثم الى وجودية القوة** . » (٩٢) وتتخذ هذه الوجودية اشكالا مختلفة ، فهى تصير ، على المستوى الاجتماعى اشبه بما يسميه « **جا نبول سارتر** » « سوء النية » La mauvaise foi اى انها تلبس رداء النفاق وتضع قناع المداراة والحيلة ، وهى ، على المستوى العضوى او الطبيعى ، تشكل ضربة جانبية ونوعا من السادية الملتوية . (٩٣)

ونحن اذا نظرنا الى عصرنا العلمى على ضوء تاريخ التقنية وفنون الصناعة ، نجده قد ابعد الانسان عن اوليات او قبليات المادة ، لأن التقنية تعد المواد وتجهزها بحيث تتلاءم مع حاجات محددة ، بيد ان الامر يختلف تماما فى العمل البدائى ، اذ ان المادة هى التى تحدد فيه وظيفة الآلة على هذا النحو ، تساعد العظام ، كمادة صلبة ، على صنع الادوات الثاقبة ، كما تساعد عروق الشجر ، كمادة لدنة ، على صنع الاربطة ، ومع ظهور فنون النار تبزغ الى النور قدرات

---

(٩٠) نفس المصدر ، ص ٢٩ ـ ٣٢

(٩١) نفس المصدر ، ص ٣٣ ـ ٣٥

(٩٢) نفس المصدر ، ص ٣٧ ـ ٣٩

(٩٣) نفس المصدر ، ص ٤١

تحويلية أخرى ، لأن النار قد هزمت المادة فى الصميم ونفذت الى أسرارها الاولية . وهكذا يمكن للخيال الدينامى أن يخضع وأن يحلق ، كما يمكن للتصور الدينامى للوجود أن ينشأ ويترعرع . وتمثل هذه اللحظة ، لحظة ظهور خيال الحركة النشط الخلاق بداية دخولنا الى عالم « **القوة المنظمة** »وبداية قدرتنا على قهر بواطن العناصر الخفية وعلى تحرير الصانع من كل « **اوهام الدفعات البدائية** » وبهذه الطريقة ، يستطيع الصانع، بعد أن تحرر ، وبفضل مجهوده وطاقات عمله المبدع ، **ان يتجاوز موقف الفيلسوف التاملى الكسول** . (٩٤)

ان الاداة او الآلة لا تنفصل ، فى خيال الحركة ، عن المادة ومقاومتها بالقدر الذى تتجاوب فيه هذه مع دفعة اليد وديناميتها الخلاقة ، وهذا أمر يجعل من كل قدرة على البراعة والمهارة مصدر احساس بالقوة لا تنفصل فيه الارادة عن الخيال ، فكل خيال مادى ــ فى نظر باشلار ــ يدفعنا الى الحركة ويلزمنا بها . والمادة ، بالفعل ، لا تكون جامدة أبدا ، لأن الصورة التى نضفيها عليها لا يمكن فصلها عن قدر من « **التوتر المادى** » الذى نعيشه فى علاقتنا معها ، والذى يشكل ، ان صح هذا القول ، معناها ومغزاها بالنسبة لنا . (٩٥)

ان خيال المقاومة يتجسد فى شكل استعارات تبلور صفات الصلابة والليونة ، وهى صفات لا يمكن فصلها ، فى حد ذاتها ، عن عملية التقييم التى تقوم بها تلقائيا الذات الحالمة . لهذا السبب ، يعتقد باشلار أن صورة الصلابة تتحكم فى ظاهرة ادراكها نفسه بحيث تصبح الذات : « **مصدرا للقوة انسانية، علامة للغضب او للكبرياء واحيانا للاحتقار**» (٩٦)

ويذهب باشلار الى حد القول **بان عملية التقييم الذاتى هى ، فى حد ذاتها ، أساس الواقع الموضوعى لأنها هى التى تحدد معناه وتضفى عليه طابع الصلابة كسمة مميزة** . بهذه الطريقة ، لا تستطيع صورة شجرة الصنوبر ذات العقد ان تكتسب كل قيمتها التعبيرية الا محمولة ضمنا بصورة الحبل المعقود أو العقدة المحكمة . وخيال الصلابة ــ عامة ــ ذو طبيعة مزدوجة ، فهو اما تعبير عن قوة دعم ومساعدة ، واما بلورة لحالة من النفور على اثر توقف لدفعة أو تحطيم لانطلاقه . وفى كلتا الحالتين ، لا يتعلق الأمر بموقف معين بقدر ما يتعلق بحركة أو طاقة خيالية تضفى طابعا ديناميا على المحيط . الى هذا النحو ، تصبح الصلابة لونا من النشاط او الفعالية التى توقظ الضمير النائم وتقضى على حالة الرخاوة اللازمة لحلم النائم . (٩٧)

وتعبر صورة العجائن عن أحلام وسطى تجمع بين الصلابة والليونة وعن مزيج فعال يؤلف بين الماء والتربة ، الأمر الذى يتيح لها ، فى منظور التحليل النفسى ، القدرة على الكناية عن الجنس والاشارة الرمزية الى ملابساته . غير أن باشلار **لا يعتقد بان الرمز مطابق لذاته مثل الصورة ، اذ ان قدرته التعبيرية تكمن فى حالته او اشارته الى الآخر** ، أى أنه ذو طبيعة مفارقة بالضرورة . اما

---

(٩٤) Pierre Quillet, **Bachelard**. Paris, Seghers, 1964.

تسمح هذه المفاهيم لهذا الكاتب بتقديم « الباشلاروية » على انها فلسفة للعمل الخلاق من اجل ذاته ، وليس كصيغة كشف للوجود او كمشروع لتجاوزه بالتأمل على طريقة هيدجر... » راجع ص ١٠

(٩٥) باشلار ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ــ ٥٦

(٩٦) نفس المصدر ، ص ٦٤

(٩٧) نفس المصدر ، ص ٦٥ ــ ٧٢

الصورة ـ كما يفهمها باشلار ـ فلا يمكنها ، على العكس من ذلك ، ان تحصر فى دور ثانوى او ان تعبر على مستوى الوعى عما هو ضمنى أو غير معلن . ان باشلار ، يحدد ، بهذه الطريقة ، **وظيفة الصورة الدينامية فى ذروتها على تحريك الامكانيات الخيالية الكامنة فى مستوى الكلام فقط . ونستطيع** ، مع ذلك على ضوء هذه المفاهيم الظاهرية ـ وبفضل الصفتين الأساسيتين للعجائن وهما الصلابة والمرونة ـ الوصول الى حياة خيالية خصبة، ولكنها فى جوهرها لا تخرج عن نطاق هاتين الصفتين ، فالمرونة ـ مثلا ـ توقظ فينا مشاعر الرقة والحنان ، والصلابة ، التى نجربها او نحس بها خلال عملية الخبز ،يسهل تصورها فى هيئة صيرورة العجينة وتطورها. يقول باشلار : « ان عملية الخبز تبدو لنا هكذا كصيرورة كبرى للمادة ، صيرورة تنطلق من الشحوب الى الحالة الذهبية، ومن العجينة الى قشرة الرغيف . » (٩٨) بالاضافة الى ذلك ، تقدم عملية الخبز بالتالى مجموعة متنوعة من الصور التى تربط بين الخباز وبين نار الفرن ، فهذه النار ، بدلا من ان تفزع الخباز وتدفعه الى التقهقر ، تحفزه وتثيره وتلهب حماسه وتشعل حميته . ان الصانع ، على هذا النحو ، يشارك فى عملية الاشتعال والحرارة مشاركة فعالة وليس مشاركة تقوم على التأمل والترقب ، انه يشارك العجينة نموها وتطورها ، ويمر بجميع المراحل التى تمر بها من حالة الرخاوة والضعف الى حالة الصلابة الذهبية والمتانة المتباهية . (٩٩)

أما الرخاوة ، فيمكن للصانع ، الذى يجمع بين الارادة والخيال فى عمله الخلاق المجدد ، ان يتصورها كمرحلة انتقالية عليه أن يتخطاها ، وكوضع مؤقت عليه أن يتجاوزه الى ما هو اسمى وامتن ، فسمك المادةوطابعها اللزج اللدن صفات لن تكون ابدا ، بالنسبة له ، غاية فى ذاتها ، اذ انها لن تتعدى كونها جزءا او مرحلة من العمل الواجب انجازه . ومع ذلك ، فبالنسبة لفيلسوف مثل **سارتر،** الذى يفضل البقاء ، فى رواية « الغثيان » بالذات ، فى حالة الرخاوة على أن يقوم بتشكيلها ، فان لزاجة المادة تصبح لديه مرضا من امراض النفس وعلامة من علامات الضمير الشقى . (١٠٠) **ان اللزاجة تمثل لديه الانحلال التام للكائن ـ من ـ اجل ـ ذاته** Le pour-soj **اى الانسان وذوبانه فى الكائن ـ فى ـ ذاته** Le'en-soi **اى المادة او الموضوع المتشىء الأمر الذى يعوق قيام علاقات فعالة بين الانسان وعالم العناصر والأشياء .** الا ان باشلار يتغاضى للأسف فى هذا المجال عن حقيقة هامة وهى ان القيمة الاخلاقية عند سارتر ، وان كانت تقوم على اسس تاريخية ، ليست فى لزاجة الكائن ـ فى ـ ذاته وانما فى المجهود الذى يبذله الانسان لانتزاع حريته منها ، وعلى هذا الاساس ، نرى ان معظم القيم الحقيقية فى رواية الغثيان تكتسب صفات الصلابة مثل اللحن الجميل والعالم التاريخى الخيالى الذى يعيش فيه البطل ليهرب من واقعه الرتيب البغيض (١٠١)

---

(٩٨) نفس المصدر ، ص ٧٥ ـ ٨٥

(٩٩)نفس المصدر ، ص ٨٥

(١٠٠) نفس المصدر ، ص ١٠٨ ـ ١١٣ ، و ١١٥ ـ ١٢١

(١٠١) Marguerite Iskandar, **Les modalités de l'en-soi dans la Nausés.** Université d'Alexandria, 173, pp.33-43.

وفقا للباحثة ، التى اعدت هذا البحث تحت اشرافنا ، تعبرحالة اللزاجة عند سارتر عن مجموعة الصفات السلبية مثل الكسل ـ العفونة ، عدم الاستقرار عدم التناسق ـ القلق ـ العجز والتحلل ، بينما كل القيم المحررة للانسان تتخذ شكل الصلابة .

ان المادة المشغولة تثير احلاما وخيالات تصبح فيها الحركة العنيفة للايدى المدعمة بالادوات او الآلة قوة هائلة من قوى الخلق والتحويل . وهذه الصورة تتحقق ، بشكل مدهش ، من خلال عملية **الحدادة** ، اذ ان عمل الحداد يتطلب ، بالفعل ، درجة كبيرة من المهارة والدقة ومجهودا محسوبا ، من القوة العضلية ، وسيطرة عظيمة على النفس . لهذه الاسباب جميعا ، يقول لنا باشلار بأن **«صور الحدادة فى الادب تعد من اعظم احلام الارادة .»** (١٠٢) وتستطيع هذه الارادة ان تبلغ ابعادا كونية فى صورة **«الشمس القارية»** التى تعمل عمل **« مطرقة اسطورية »** وسحرية على **« سندان الأفق »** الارجوانى . الا ان هذه الصورة الغريبة ، التى لا يألفها الذوق العربى ، لا تكتسب معناها العميق ، بالنسبة للكاتب ، الا انطلاقا من خيال بروميثى ، مضاد لمبدا السكون او **«النيرفانا»** فى الديانة البوذية ؛ اذ انه بدلا من ان يصور الشمس فى هيئة كائن مسالم وهادىء الى يستريح على صدر الليل الحنون ، يتخيلها فى صورة مخلوق مكافح عنيف ، يرغب فى الحصول على طاقة الفجر الكامنة خلف نيرفانا الليل الذى يغلفا . » (١٠٣)

اما صورة الصلابة ، فيمثلها الصخر خير تمثيل ، لأنه يلازم فكرة الصلابة ، ويقدم اعظم نموذج لها فى شكل **« الجرانيت »** . اما ما تمثله الصلابة فى صورة الاحجار الضخمة ، عامة ، فمرتبط بمشاعر العظمة والجبروت واحاسيس المهابة والسيطرة ، وهو ما نراه جميعا فى الاهرامات وكثير من الآثار المصرية القديمة التى تشعر حيالها بالضآلة والانسحاق كذلك يمثل الصخر ، فى الأرض الوعرة المليئة بالمرتفعات والمنحدرات ، قوى الضغط والضيق ويبث فى نفوسنا احاسيس الانزعاج والخوف . اضف الى ذلك انه بصمته وجموده الخارق يمثل قوة غامضة تتهددنا ، ولغزا محيرا مثل تمثال ابى الهول الذى يروعنا بصمته اللامتناهى وترتبط الصخرة عند كاتب مثل « رابلية » بصورة الضخامة المضحكة التى تعبر بدعوتها الى الهزل والمزاح ، عن رغبتنا فى حماية انفسنا ضد مخاوف الانسحاق ، وهذا هو عين ما نعبر عنه بالعربية حينما تقول عن طويل البنية بانه « هبيل » . واخيرا تمثل الصخرة ، فى المحيط البحرى ، بكفاحها المستميت ضد الامواج العاتية ، نموذجا رائعا للشجاعة والشهامة ، كما تعطينا درسا عظيما فى التحمل والصمود . (١٠٤)

ويثير خيال الصخور ، من جهة اخرى ، صور التحجر والجمود التى تقضى على نضارة الحياة وتبث فينا احاسيس العنف والعداوة ، وهو خيال اسود يغلب على شاعرية « هيزمانس » Huysmans الذى يكلف بالخبث والقروح وتقوم الملائمة عند هذا الكاتب ، بين الجرح والحجر على اساس التشابه الذى يربط بين صلابة هذا الاخير وبين بطء الحركة ، او فقدانها الذى ينتاب الجريح . ان هذا التشاؤم الملازم لفعل التحجر ، يجعل من ضوء القمر لونا ابيض شاحبا يشبه شحوب الموتى ، ومن الصمت الكونى موانا عالميا . ويمكننا ، كذلك ان نكتشف فى ظاهرة التحجر صورة من صور الغضب المكتوم والرغبات المكبوتة . الا ان ظاهرة التحجر تعبر عامة عند **« هيزمانس »** ، عن الاحلام القمرية القاسية الصعبة وعن احاسيس النتوء والخشونة والبرودة القارسة ،

(١٠٢) باشلار ، نفس المصدر ، ص ١٣٤ ــ ١٥٦

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ١٥٧ ــ ١٦٥

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ١٨٣ ــ ١٩٩

وهي ظواهر تعبر جميعا عن تشاؤم الكاتب الجذرى . (١٠٥)

تعبر الصور المعدنية ايضا عن الطباع الصلابة ، الا ان هذه الصور تبدو فقيرة في الاداب المعاصرة ، لان التقدم العلمى قد غلب المفاهيم العلمية على التصورات الخيالية للمادة . ولا شك ان باشلار يقصد هنا بالصور المعدنية تلك التي تقوم على تصور الخيال في شكل طاقة عاملة او صانعة والا لما اغفل اهمية الصورة المعدنية للجمال عند شاعرمثل **بودلير** الذى يولع بتصوير عشيقته السوداء « **جان دوفال** » في هيئة التمثال المتناسق ويغرم بالاشارة المتكررة الى الحلى والاحجار النفيسة. اما بالنسبة للشعوب القديمة ، فان « **حلم المعادن** » كان يعبر عن ثورة النار وتأججها ، كما كان يبلور القوة البهيمة . وبالنسبة للكيميائى القديم ، فان النار لا تنفصل لديه عن الزئبق ، لان سيولة الزئبق ضرورة لاذابة المعدن . الا ان المعدن ، خارج اطار هذا التأثير القائم على مبدأ السيولة ، يعد كذلك رمزا للقوة والشباب الدائم ، وهو ، بفضل ماضيه الممتد الى اعماق الزمان البعيد ، يرتبط بنشأة الحياة وبداية الزمان والوجود (١٠٦) .

اما بالنسبة للبلور ، فهو يطور احلاما تتجاوز العنصر الارضى لانه يمزج في مرآته الصافية معظم العناصر من ماء وارض وهواء ونار . وتجمع البللورة بين ضياء الشمس الساطعة وبين صلابة الماس ، اما بريق الماس فيصل الحلم البللورى باحلام النجوم ، لان الاحجار النفيسة هي نجوم الارض كما ان النجوم هي احجار السماء النفيسة. وبما ان البللورهو النور الشفاف والضياء الرائعة النقية فانه لا ينفصل عن حلم « اللانهاية » . انه يدفع الخيال الى التحليق في السماء الزرقاء ، في البحر اللامحدود في خضرة الغابة العميقة وفي الليل المرصع بالنجوم . وهو من جهة اخرى ، قوة تركيز عظيمة تلتقى فيها الورود مع الجواهر والجمال السماوى مع روعة الوجود الخيالية . وهو كذلك ، بصلابته وشفافيته ، ماء متجمد ، وبنقاوته وطهارته ، زرقة السماء الصافية وقد تجمعت اشعتها في حجر السفير . اما الماس ، الذى يجمع بين ضوء النهار ونور الحجار وبين لألاء النجوم وبريق العيون الفاتكة ، فيبلور ، على السواء ، ارادة الهيمنة وقوة التنويم . (١٠٧) كذلك تحظى الجواهر والحلى بقدرات خارقة اخرى . فهى صافية شفافة مثل ماء الينبوع ، ملساء ناعمة مثل الحرير ، تبهاء متقدة في لون اللهب . وهى تعبر ، على مستوى الذات الحالمة ، عن رغبة في التألق والظهور ، والزهور والجلاء ، اذ انها تردنا الى مسرة الطفل المباهية وعين الفتنة الزاهية . ان الماس يوقظ لدينا فضلا ويثير فينا احاسيس الشهوة والطمع وحب المشاركة في بريقه وفي جماله السرمدى . اما اللؤلؤة فماء مقطر وندى الصباح البلورى الذى اودع جواهره السماويه بين ايدى ازهار الحديقة ، وفجر صبوح منعش يحقق للانسان السعادة والفرحة والنعيم (١٠٨) .

وكما سمح خيال الهواء باعداد نوع من « سيكولوجيا » الصعود ، فان خيال التربة يسمح باعداد مايمكن تسميته « **بسيكولوجيا الثقل** » . وهذه الصورة الاخيرة ليست الا الحركة المقابلة للحركة الاولى في جدلية

(١٠٥) نفس المصدر ، ص ٢٠٦ ـ ٢١٥

(١٠٦) نفس المصدر ، ص ٢٣٣ ـ ٢٤١

(١٠٧) نفس المصدر ، ص ٢٩٠ ـ ٣٠٧

(١٠٨) نفس المصدر ، ص ٣٠٩ ـ ٣٢٠

الصعود والهبوط والتجاذب بين الاعلى والاسفل ، اذ أنه من الصعب ادراك الثقل من غير تصور الخفة أو العالي من غير تصور العالي . ويعرفنا الكاتب كذلك ان « **نواة ثقلنا** » و « **حياة خفتنا النباتية** » تتكونان في سريرتنا على شكل حالة نفسية أشبه ما تكون الى صورة المحيرة ، وغالبا ما يقوم الدوار ، بالنسبة لخيال الثقل ، بتحريك احاسيس السقوط السريع التي تدخل على نفوسنا الهلع والشعور بالوحدة المفاجئة ؛ وليس الدوار ، على كل حال ، الا حركة السقوط وما تجره من فزع أولي كامن في اعماق اللاشعور . (١٠٩)

وتقوم سيكولوجيا الثقل ، من جانب آخر ، على ثنائية جدلية تجمع بين حركتين هما **حركة الطاعة والخنوع وحركة المقاومة والتمرد** . وتقابل الحركة الاولى الصور الدينامية لعملية السقوط . اما الثانية فتمثل حركة الانتفاضة والانطلاق . وتعبر ارادة الانتفاضة عن عملية التسامي التي يمكن اعتبارها من اهم وظائف النفس الدينامية ؛ ويسهل على هذه الوظيفة أن تجد لها صدى في حالات الصراع ضد احاسيس السحق والاختناق وحالات « **الطفرة العضلية** » امام قوى الطبيعة والوجود . وهنا يمكن ايجاد مكان لما يسميه باشلار « عقدة اطلس » . في هذه العقدة ، التي يحدث خلالها عملية تقييم شاعرية الحمل وحامله ، يكتسب اطلس ابعاد السيادة الكونية التي تتيح له السيطرة على العالم والتلذذ بمهمته الشاقة العسيرة . ويقول باشلار بأن هذه العقدة : **تمثل التعلق بالقوى الخارقة .. بالقوى الهائلة ولكن غير الضارة ، بقوى لا يقصد منها الا مساندة الاخرين ..** » (١١٠) الا أن احب الناس لا يعد الوتر العاطفي الوحيد الذي تستطيع هذه العقدة أن تحركه ، اذ ان له أيضا جانبه العنيف والسادي ، فالصراع ـ مثلا ـ ضد الجبل هو رغبة في ازالته وفي السيطرة عليه. لذلك لا تنفصل هواية التسلق عن ارادة القوة والتعطش الى الهيمنة والسيادة . واذا امتزجت هذه الهواية برغبة النظر الى الابعاد اللامتناهية وحب التمركز في قلب الوجود ، فانه ـ لا شك ـ سوف ينضم اليهما اغراض وحاجات أخرى . مثل الشغف بالمشاهد العظيمة والبحث عن التفوق والسمو . (١١١)

• • •

هل يمكننا الان ، بعد تتبع مراحل نظرية أو فلسفة الخيال عند جاستون باشلار ، أن نتحدث عن تطور ما في مفاهيم هذه النظرية ، وخاصة فيما يتعلق بتعريف الصورة الخيالية وتحديد موقعها من الضمير المتخيل . اننا ، في الحقيقة ، لا يمكن ان نصل الى ذلك عبر هذه الدراسة التي كرسناها فقط لما كتبه باشلار صراحة عن شاعرية الخيال ، المادي منه والدينامي . الا اننا اذا ادخلنا في الاعتبار موقفه في الدراسات «الابستمولوجية» سوف نرى **انه كان في البداية ينظر الى الصورة على انها عقبة في تاريخ تطور العلوم**، وهذا صحيح في موضعه ، لان تأسيس العلوم الحديثة تطلب ، كما يرى الكاتب بحق ، نوعا من « **القصم المعرفي** coupure epistemologique الحاسم بين ماضيها وحاضرها ، وهكذا كان الامر بالنسبة الكيمياء الحديثة التي أسسها « لافوازيه » ، فهي ليست لها اية علاقة بكيمياء العصر الوسيط أو بالكيمياء « الفلوجستكية » phologistique وبالنسبة للطب الذي انفصل نهائيا عن

---

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ٣٤٢ ـ ٣٥٢

(١١٠) نفس المصدر ، ص ٣٥٥ ـ ٣٧٢

(١١١) نفس المصدر ، ص ٣٧٣ ـ ٣٨٦

الخلفيات الفلسفية في القرن التاسع عشر وبالنسبة للرياضيات التي نقلها نيوتن من مستوى الباطن الى مستوى الظاهر ، ولقد كانت حتى ديكارت وسبنوزا على انها ادراك لجوهر الاشياء كانما للوجود طبيعة رياضية او جوهر رياضي ، وقل ذلك تقريبا بالنسبة لمعظم العلوم . اما نظرة باشلار بعد ذلك ، الى **الصورة على انها قيمة في ذاتها** ، وكائن ممتلىء بذاته ، كما نرى ذلك بوضوح من خلال هذه الدراسة ، فلا نعدها تطورا حقيقيا بقدر ما نعدها اضافة الى ما سبق او — بعبارة ادق — نوعا من رد اعتبار الصورة والخيال اللذين كانا يعدان اقل شانا واحط قدرا من المعرفة العقلية . كذلك بالنسبة لنظرته الى فرويد واعتماده على يونج ، واذا كان لا يمكن ، بأية حال من الاحوال ، اضافة كلام يونج وخاصة ما يؤمن به من تصورات اولية ونماذج قبلية الى كلام فرويد ، الا ما يأتي به باشلار ، لتضيع ... دعائم الفرويدية ، التي ما زالت تتجدد حاليا على يد «لاكان» ومدرسته البنيوية ... يضيف اليها ، في نظرنا ، ابعادا كانت تهملها . **الخطأ اذن هو ان نقدم الحقيقة النفسية التي لا تكون حقيقة في الواقع الا بقبولنا اياها واقتناعنا بها ، من جانب واحد ، وان نصور بعد ذلك على انها المطلق الذي لايقبل التناقض او الجدال .**

نظرية باشلار في الخيال **لا تضع حدا اذن للتحليل النفسي الفرويدي ، انها** توضح فقط جانبا اخر من جوانب النفس البشرية ، وربما الجديد فيها خلال عبورها من اللاشعور الى الشعور — وهو عبور يخضع الحكم عليه للخطأ والصواب لانه في ذاته حكم قيمة — هو **في احلالها التفسيرات الغائية محل التفسيرات السببية** ، الا ان هذا المنحنى لا يلغي ، مع ذلك ، كل الجوانب الاخرى المعتمة في حياة اللاشعور ولا يلقي الضوء بالذات على تلك المنطقة من الظلال التي يرد اليها باشلار احلام الراحة والانكماش على الذات . والحقيقة ان الاضواء « الباشلاردية » لا تبدد ظلام اللاشعور ، وليس ذلك ايضا من مصلحتها ، لانها في حاجة اليه لتقيم الجدلية الثنائية التي يكلف بها الكاتب ويقيم عليها مجمل نظريته . نقول باختصار : **ان الجوانب المشرقة — لا شك — موجودة في الانسان ، ولكنها لا تكتسب جل معناها الا اذا اخذنا** في الاعتبار الجوانب المظلمة فيه . وهذا هو عين العلاقة الفرقية التي ابرزها علم اللسان البنيوي ، والتي سبق ان اشار اليها بحدسه وحسه المرهف شاعرنا الكبير ابو الطيب المتنبي حين قال :

(وندمهم وبهم عرفنا فضله
وبضدها تتبين الاشياء)

اما بالنسبة للخلاف في وضع الصورة الخيالية من الناحية « الانطولوجية » بين باشلار وسارتر ، فهو خلاف لا وجود له ، في الحقيقة ، خارج تصور محدد الشاعرية اللحظة . واللحظة المقصودة هنا هي المطلق عينه الذي يتسنى لنا أن نعيشه من خلالها في حالة تطابق تام بيننا وبينها ، فلا امام ولا وراء ، ولا سابق ولا لاحق ، هي المطلق ، لانها لحظة الدفعة الحيوية ، لحظة الإلهام المفاجىء التي يغمر الضمير بنوره ويملأ عليه كل دروب الوعي فلا يفلت منه الا بالصحوة أو باليقظة التي تهدد أركان الجسد وترخي النفس رخا فيصبح الشاعر اشبه بحالة النبي الذي ترتعد فرائصه تحت وطأة الوحي . وهذه الحالة لا تقضي جذريا على مفهوم العدم السارتري ، **لان الضمير المملوء بذاته في الصورة لايستطيع ان يظل على هذا الوضع الا مدة لحظة ، وهي لحظة التطابق بين الذات وموضوعها والغاء الزمن** . ويقول باشلار ، مناقضا نفسه مؤيدا هذه الفكرة ضمنا في نقده لمفهوم الاستمرارية الزمنية عند برجسون : « **لا نعرف الاستمرار**

في الشعور او في التأمل او في التفكير او في الارادة ، ان كيانها لا يعرف الاستمرار أصلا . لماذا اذن الذهاب بعيدا بحثا عن العدم ؟ ولماذا نبحث عنه في الاشياء؟ انه موجود بداخلنا ومتناثر على طريق ديمومتنا بحيث يقطع في كل لحظة ما تعكس به من حب اوايمان او ارادة او تصور . » (١١٢)

ان العدم بهذا المفهوم لا يقل اهمية عن الكينونة ، اذ انه علامة اقوى على صدق الحياة وسمة اليق بحرية الضمير ، **وان كانت الحرية ، عند سارتر ، صفة مجردة في حد ذاتها لا تكتسب قيمتها ومعناها الا عبر « موقف » يحدد هويتها ويدعم جذورها .** واني لفكرة العدم ان تكون غير ذلك عند باشلار صاحب مفهوم « القصم المعرفي » الذي لا يمكن ان تكون له قائمة الا استنادا على فكرة انقطاع الاستمرارية التي تقوم بتحطيم سلسلة الفكر الخطي بحيث يتاح للعقل المبتكر ان يحدث طفراته المبدعة الخلاقة . ان الادراك الانطولوجي للصورة الخيالية ، عند باشلار ، يشبه كثيرا ، في رأينا ، تعريف الحدس الذي يقدمه لنا « كونشفسكي » في كتابه عن **« السيكولوجيا الدينامية والفكر المعاشي »** (١١٣) حيث يبرزه كصورة دينامية ، متحركة فجائية وقصيرة . ان الحدس ، عنده، يستمد جذوره من المادة ويفيد من الاحاسيس . لذلك يمكننا ان نقول عن الصورة الخيالية ، عند باشلار ، ما يقوله الكاتب المذكور عن الحدس بأنها « تفيد من كل احساس يعمل على التوازن الداخلي ويعمق الحساسية ويثير الاحلام . » (١١٤)

* * *

(١١٢) Gaston Bachelard, **La dialectique de la durée.** Paris, P.U.F., 1963, p. 29

(١١٣) C. Konczewski, **La psychologie dynamique et la pensée vécue.** Paris, Flammarion, 1970, p. 302.

(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٠٦

مطالعات



النصوص والاشارات
قراءة فى فكر رولان بارت

« الادب يمثل عالما لا متناهيا ، اما النص فانه يمثل لانهائية اللغة » .

احمد ابوزيد

استاذ الانثربولوجيا بجامعة الاسكندرية
عميد كلية الاداب السابق بجامعة الاسكندرية

ربما كان رولان بارت Roland Barthes (١٩١٥ ــ ١٩٨٠) اكثر المثقفين الفرنسيين المعاصرين تأثيرا فى الفكر الفرنسى بعد سارتر الذى توفى على اية حال بعده باسابيع قليلة .

وحين مات بارت يوم ٢٦ مارس ١٩٨٠ وهو لم يكتمل الرابعة والستين ، بعد ان دهمته سيارة يوم ٢٥ فبراير وظل طريحا فى المستشفى شهرا كاملا ، شعرت فرنسا والعالم المثقف بفداحة الخسارة ، وكان شعور من عرفه من المثقفين فى مصر بالذات اليما للغاية ، فقد عرفته جامعة الاسكندرية استاذا بكلية الاداب فى آخر الاربعينات واول الخمسينات ، وهو لا يزال فى بداية حياته الفكرية الخصبة التى بدأت متأخرة بعض الشىء عن اقرانه نتيجة للمرض الطويل فى صباه وشبابه الاول . ولكن بارت لم يكن مع ذلك كاتبا عاديا كغيره من الكتاب الكثيرين الذين يملئون الحياة الادبية والفلسفية والفكرية فى فرنسا ، وانما كان مفكرا نافذ النظرة عميق الفكرة ، بحيث تجد ادوارد روثشتاين Edward Rothstein يقول فى عرضه لكتاب « **برج ايفل واساطير اخرى** » الذى يضم بعض مقالاته المترجمة ، وهو العرض الذى قدر له ان يظهر بعد موت بارت باسبوع واحد « ان بارت لم يكن (متفرجا) عاديا حين كان ينظر الى باريس من اعلى برج ايفل الذى كان يعجب به اشد الاعجاب . ولقد شغل بارت فى الحياة الادبية والفكرية فى فرنسا نفس المكانة التى يشغلها برج ايفل فى حياة باريس . فكما ان المرء لا يستطيع ان يذهب الى اى مكان فى باريس دون ان يحس بوجود برج ايفل العملاق ، كذلك لا يمكن المثقف ان يذهب الى اى مكان فيها دون ان يحس بوجود بارت الذى يتغلغل فى كل الاوساط الادبية والفكرية ، ودون ان يسمع اسمه يتردد فى هذه الاوساط ، ودون ان يرى كتبه معروضة فى المكتبات » ... ولقد عرفت تلك الاوساط الفكرية الراقية بارت كاحد « جماعة النقاد الادبيين » ، بل ومن اكبر ممثلى تلك الحركة

النقدية الحديثة ، ولكنه لم يكن **مجرد** ناقد ادبي بالمعنى القديم الشائع للكلمة ، وانما كان **بطلا** من ابطال الفكر حسب تعبير جون وايتمان John Weightman الذي يقول في مرثيته التي نشرها في **الاوبزرفر** يوم ١٦ ابريل ١٩٨٠ : انه ليس من المبالغة في شيء ان نقول ان فرنسا فقدت بموته « بطلا قوميا » واحد « نجوم الفكر والثقافة » الذي انتخب منذ ثلاث سنوات فقط ، وهو في الثانية والستين من عمره ـ لشغل كرسي « علم الاشارات » او السيميائية Semiologie (١) ـ كما يحب جاك بيرك Jacques Berque ان يسميها . وقد انشيء ذلك الكرسي خصيصا له في الكوليج دوفرانس ، وكان ذلك بمثابة اعتراف جماعي بمكانته وتاثيره في الحياة الثقافية . ولذا فقد شعر الكثيرون من المثقفين في انجلترا بالذات بأن **جريدة التايمز** Times لم تكن منصفة حين وصفته بعد موته بانه كان « ناقدا عميق التاثير » فحسب ، وراوا في ذلك القول (وصفا) شديد البرودة يبعث القشعريرة في الجسم لانه لايعطي فكرة واضحة عن مدى ما اسهم به في الحياة الفكرية داخل فرنسا وخارجها على السواء ... فعلى الرغم من ان فرنسا تتغير ـ كغيرها من المجتمعات ـ بسرعة فائقة فانها لا تزال ـ حسب قول وايتمان ايضا ـ تحتفظ بخاصية اساسية فريدة ومميزة ، الا وهي القدرة الفائقة على خلق الشخصيات الفذة العملاقة ، او الشخصيات الكاريزمية ، الذين يمكن وصفهم بانهم « ابطال الفكر » ، بنفس الطريقة والمعنى الذي « تنتج » بهما روسيا « ابطال الشطرنج » ولا تزال عبارة ديكارت الشهيرة : « انا موجود مادمت افكر » ـ لا تزال هذه العبارة الشهيرة

(١) كان اول من استخدم كلمة « سيميولوجيا Semiologie » والترح قيام علم يحمل هذا الاسم الذي يعني « علم الاشارات » او علم العلامات هو العالم اللغوي الشهير فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussure الذي يقول في كتابه (دروس في علم اللغويات العام Cours de Linguistique Générale) الذي نشر عام ١٩١٥ : « ان من الميسور قيام علم يدرس حياة العلامات او الاشارات في المجتمع ، على ان يكون جزءا من علم النفس الاجتماعي ، وبالتالي جزءا من علم النفس العام . وسوف اطلق على هذا العلم اسم علم الاشارات Sémiologie (من الكلمة اليونانية Semeion اي اشارة او علامة) . وسوف يعنى هذا العلم بتبين مكونات الاشارات او العلامات والقوانين التي تحكمها . ونظرا لان هذا العلم لم يقم حتى وقتنا هذا فيجب ان نخصص له مكانا من الآن . والواقع ان اللغويات ذاتها لن تكون سوى جزء من علم السيميولوجيا العام ، كما ان القوانين التي تكتشفها السيميولوجيا سوف تطبق على اللغويات التي سوف تختص بمجال محدد وواضح ضمن الدراسات الانثربولوجية » (صفحة ١٦) . ومع ان دو سوسير يرى ان تدخل السيميولوجيا في نطاق علم النفس الاجتماعي فان الكتاب المحدثين يرون ان مجال هذا العلم الجديد يمتد الى موضوعات لا تدخل في علم النفس الاجتماعي او علم النفس العام مثل التحليل الفني . ولكن المهم هنا هو ان علم الاشارات يهتم في المحل الاول بدراسة انساق الاشارات او العلامات والرموز Signes بنفس الطريقة التي يدرس بها علم اللغويات Linquistics اللغة . ولقد تبنت المدرسة البنائية وبخاصة في فرنسا هذا العلم الجديد وارتبطت به اسماء عدد كبير من المفكرين والكتاب والادباء والبنائيين الفرنسيين ، ومن اهمهم بطبيعة الحال رولان بارت ، وقد ظهر ذلك واضحا حتى في كتاباته المبكرة ، واعني بها سلسلة المقالات التي ظهرت في Combat عام ١٩٤٧ ، والتي اعاد كتابتها ونشرها عام ١٩٥٣ في اول كتبه « الكتابة عند درجة الصفر » الذي سوف نشير اليه فيما بعد . بل انه كتب كتابا خاصا في الموضوع عام ١٩٦٥ بعنوان « مبادىء علم الاشارات Elements de Semiologie » كما اعتمد على السيميولوجيا في كتابه « اساطير Mythologies » حيث يحلل بعض الاساطير الماثلة وراء عدد من الظواهر الحديثة في المجتمع الفرنسي مثل الموضة والرياضة والاعلانات وغيرها من اساليب التعبير غير اللفظي التي تستخدم للتعبير والاشارة من بعض المواقف والاوضاع الاجتماعية . (انظر في ذلك ايضا :

Philip Pettit ; The Concept of Structuralism ; p. 33)

قائمة وصادقة وتمثل ركيزة من ركائز العقل الفرنسى ، ومبدأ من مبادئه العامة .

ويذكر لنا وايتمان انه حين كان (وايتمان نفسه) لا يزال في مقتبل شبابه كان هناك (ثلاثى) - او على الاصح (ثالوث) رائع من كبار « اساتذة الفكر » فى فرنسا يتألف من أندريه جيد André Gide وبول فاليرى Paul Valéry

والان Alain ، ثم ظهر بعد الحرب العالمية الثانية « ذلك الثنائى المتعادى » المؤلف من جان بول سارتر Jean-Paul Sartre والبير كامى Albert Camus ، ومن بعدهما جاء (مزيج) من المفكرين يضم كلود ليفى ستروس Claude Lévi-Strauss وجان لاكان Jean Lacan وميشيل فوكو Michel Foucault وبارت نفسه ومن بين هؤلاء الاربعة الاخيرين كان بارت يحظى - فى راى وايتمان - باكبر قدر من الاتباع والمعجبين داخل فرنسا . (ويلاحظ هنا ان وايتمان يعطي لبارت اولوية فى هذا الصدد على كلود ليفى ستروس نفسه الذى ارتبط اسمه اكثر من غيره بالبنائية ، وذاع صيته ذيوعا كبيرا بين علماء الانثربولوجيا بالذات) (٢) . وقد بلغ هؤلاء الاربعة جميعا درجة عالية جدا من الشهرة والمكانة والعظمة الفكرية ، كانت تجعل الكثيرين من صغار الكتاب والمريدين يشفقون على انفسهم من ان يتعرضوا لهم ولأسمائهم واعمالهم بالنقد او التجريح . وهذه هى خاصة (الكاريزما) التى يتكلم عنها عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر Max Weber والتى انتقلت الى غيره من الكتاب ، والتى

---

(٢) ليس من شك فى ان بارت اسهم اسهاما واضحا مع عدد من كبار المفكرين والكتاب الفرنسيين المحدثين من امثال ليفى ستروس فى وضع اسس « البنائية » التى تحتل فى الوقت الحالى مكانة مرموقة فى الفكر الفرنسى رغم كل ما يوجه اليها من انتقادات . وكثيرا ما يخطىء الكتاب والمثقفون وبخاصة فى العالم العربى فيعتبرون البنائية مذهبا فلسفيا كالوجودية مثلا . والواقع ان البنائية هى منهج للبحث والتفكير وموقف يلتزم به المفكر فى معالجة الاشياء وتفسيرها ، اى انها ليست فلسفة او طريقة للسلوك او اسلوبا للحياة . وكما يقول ستاروك : ان الانسان لا يمكنه ان يكون بنائيا بنفس المعنى الذى يستطيع ان يكون به وجوديا ، وانه ليس هناك « نواد ليلية بنائية ولا ملابس بنائية ولا اسلوب للحياة بنائى مثلما كانت هناك نواد وملابس واساليب سلوكية وجودية (ستاروك : صفحة ٢) . ومع ان الاتجاه البنائى ازدهر فى باريس فى الستينات الا انه ظهر فى حقيقة الامر قبل ذلك فى اماكن اخرى . وعلى اى حال فقد ارتبطت البنائية وبخاصة فى مجال البحث الانثربولوجى باسم كلود ليفى ستروس . ومع ان بارت يدخل ضمن زمرة المفكرين البنائيين الكبار فى فرنسا فالظاهر انه هو نفسه لم يكن شديد التمسك بهذا (الوصف) خاصة وان تفكيره وقراءاته وثقافته الواسعة كانت (انتقالية) او (انتخابية) ، ويظهر ذلك واضحا فى المنهج الذى اتبعه فى دراساته الادبية وكذلك ايمانه العميق بالحاجة الدائمة الى الانتقال من موقف نظرى معين الى موقف اخر ، بحيث انه كثيرا ما كان يتبنى المناهج التى تعلمها من مجالات العلوم الاخرى . وزيادة على ذلك فان بارت على عكس الكثيرين من البنائيين ، لم يكن يقتنع بالدراسة الاستاتيكية وانما كان يعطى جانبا كبيرا من اهتمامه للبعد التاريخى للفكر وتطوره خلال الزمن ومتضمناته بالنسبة للمجتمعات الانسانية مما كان يجعله بالضرورة ينظر الى الاشياء نظرة نسبية . وهذه كلها امور سوف نعود اليها فى المقال . ولقد كانت اداة بارت فى موقفه البنائى ، ودراسة كل ما يتعرض له من موضوعات دراسة بنائية ، هى اللغة ، وذلك من طريق الرجوع الى ما يسميه « معجم المعانى » . فالمفكر او الكاتب البنائى الجاد او الملتزم انما يستخدم فى تحليله مصطلحات فنية معينة يستمدها من اللغويات البنائية . واحد المصطلحات الاساسية التى أصبحت بمثابة المحور فى كتاباته هو مصطلح « الاشارة Signe » او العلامة . وكما هو الحال بالنسبة لكل البنائيين الفرنسيين بالذات فان هذا « المعجم » كان مستمدا الى حد كبير من اعمال دو سوسير النظرية من اللغة « الطبيعية » او اللغة الانسانية . فهذه الاراء والنظريات التى وضعها دو سوسير فى بداية هذا القرن كانت هى اساس البنائية الحديثة ، ومن هنا كان اهتمام البنائيين الفرنسيين باللغة ، وبخاصة بالوحدة الاساسية فى اى لغة ، وهى ما يسمونه « العلامة اللغوية » او « الاشارة اللغوية » ، وهو مصطلح من الصعب جدا تعريفه باعتراف البنائيين واللغويين انفسهم . وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو ان اى كلمة فى اى لغة هى « اشارة » او « علامة » وان اللغة عبارة عن نسق من هذه الاشارات او العلامات .



لاتكاد تجد لها ترجمة عربية دقيقة ، وانما اصبحت الكلمة على اي حال مصطلحا يستخدم في كل اللغات بغير ترجمة ... لقد اصبح هؤلاء الكتاب الاربعة « موضوعا للحب العقلي او الكراهية العقلية فحسب » ، لدرجة ان تلاميذهم واتباعهم يقسمون بهم ويحلفون باسمائهم ، في الوقت الذي يثير مجرد ذكر اسمهم - من الناحية الاخرى - السخط والحنق في نفوس اعدائهم (العقليين) . وهذه الحماسة لبعض المفكرين او ضدهم تعتبر ايضا من اهم ملامح الحياة الثقافية في فرنسا ، ولا تكاد تجد لها مثيلا في اى بلد آخر .

وعلى الرغم من اشتغال بارت في شبابه بالتدريس بجامعة الاسكندرية ، ومن قبلها بجامعة بوخارست ، فانه لم يهب نفسه تماما للحياة الاكاديمية ولم ينقطع كلية للتدريس باحدى الجامعات . وقد يكون ذلك راجعا الى الظروف الصحية السيئة التي منعته في شبابه من ان يسلك طريق التعليم الذي يؤدي بصاحبه في آخر الامر الى تلك الحياة الاكاديمية ، ومع ذلك فلم يكن هذا شرا كله ، بل ربما كان فيه الكثير جدا من الخير بالنسبة لبارت وتطوره الفكري ، لانه اتاح له الفرصة للتحرر من القوالب الفكرية الاكاديمية التقليدية التي لا تخلو من بعض الجمود . ومع ذلك فقد كان لبارت حلقته الدراسية الخاصة به (سيمينار) في مدرسة الدراسات العليا بباريس Ecole des Houtes Eutdes منذ عام ١٩٦٢ ، وقد انتشر اسمه وذاع صيته منذ ذلك الحين سواء عن طريق محاضراته او كتاباته .

ولقد كان لبارت اسلوبه الخاص المتميز جدا في الكتابة ، وهو اسلوب مليء بالالفاظ والتعبيرات اللغوية الجديدة مثلما كان يتميز بالدقة الشديدة في انتقاء الكلمات . وقد حاول الكثيرون تقليده ومحاكاته . ومع ذلك فان تحديد مكانته بين المفكرين الفرنسيين يعتبر في نظر الكثيرين مسألة سهلة وصعبة في الوقت ذاته ، على الرغم مما قد يبدو في هذا القول من تناقض . فهو يعتبر - من ناحية - مثالا طيبا للكاتب المفكر البورجوازي الذي يقف موقف العداء من البورجوازيين ، وشأنه في ذلك شأن اندريه جيد وسارتر ، بحيث كان يسخر كل مصادر ثقافته الواسعة العريضة المتنوعة في الهجوم على المجتمع الفرنسي المعاصر الذي كان يعتبر في نظره ، ونظر الكثيرين غيره من المفكرين والمثقفين ، مجرد مجموعة هائلة من (الافتراءات) ، مما كان يثير التساؤل عما اذا كان من الحكمة الابقاء على هذا النوع من المجتمع ، واذا لم يكن من الافضل تدميره والقضاء عليه تماما . ولقد تناول بارت في كتابه « اساطير Mythologies » كثيرا من مظاهر الحياة في هذا المجتمع الفرنسي البورجوازي محاولا بطريقته الخاصة ان يبين لنا كيف يعمل هذا المجتمع وكيف يتصرف الناس فيه ، ونوع الاوهام التي تتحكم في حياته وحياتهم ، وهو امر سوف نعود اليه فيما بعد . ولقد دفعه ذلك الى ان يتخذ اتجاها في صف كتاب « الطليعة » ويعمل على تشجيعهم ، لانهم يمثلون الحركة وكل ما هو جديد ومثير ووجودي ، في مقابل (الماهيات) التي كانت النزعات الانسانية (الهيومانيزم) البورجوازية التقليدية تعتبرها اهم خصائص الطبيعة البشرية ... ولكن من الناحية الاخرى فان بارت كان يتمتع بذلك النوع من العقلية المتوثبة غير المستقرة والقادرة على الارتياد وعلى التمييز والاختيار والانتقاء والتوفيق بين ما تجمعه من مختلف المدارس والنظريات والاتجاهات والمواقف ، بحيث استطاع ان يستخدم هذا كله في صنع نسيج موحد يضم خيوطا من الماركسية والفرويدية والوجودية السارترية وفينومنولوجيه باشلار **(انظر مقال الدكتور الكردى في هذا العدد)** ولغويات دوسوسير De Saussure وما بعد البنائية وغير ذلك ومن كل هذا المزيج الثقافي والفكري الهائل المعقد حدد موقفه من العالم ومن الثقافة ، وهو موقف يعتبر العالم وكل ما فيه مجرد اشارات او علامات Signes . فالانسان يحيا بالاشارات والعلامات والرموز

التى تتجمع بشكل او بآخر وتنتظم فى شكل انساق وانماط تسمى احيانا بالدين ، واحيانا اخرى بالسياسة او الادب او الاقتصاد السياسي او ما الى ذلك ، وكلها تعتمد فى آخر الامر على اللغة التى هى نسق الاشارات الاساسى .

والواقع أن كل انتاج بارت الفكرى وكل كتاباته ، ابتداء من كتابه Le Degré Zéro de l'ecruture حتى آخر اعماله وهو كتابه الغريب Fragments d'un Discours Amoureux يمكن اعتبارها نوعا من التأمل الطويل المتنوع فى اللغة .

• • •

ووعلى الرغم من ارتباط اسم بارت **بعلم الاشارات** فان معظم ما كتب عنه حتى الان يدور حول اسهامه الغزير العميق فى المجال الادبي . وفى ذلك يقول جون ستاروك John Sturrock فى الكتاب القيم الذى نشره مؤخرا (١٩٧٠) بعنوان : Structuralism And Since « بقدر ما اسهم بارت فى احياء واستثارة العقل الادبى بشكل لا يدانيه جهود غيره من الكتاب ، وبقدر ماكان يخاطر ويجازف فى ارتياد مجالات جديدة من أجل الوصول لصياغة مبادىء مستحدثة لفهم الادب ، فانه كان يثير عليه نقمة الاخرين لرفضه المبادىء القديمة ومهاجمتها » . وخليق بقراءة كتاباته ان تدفع القارىء الى التفكير بطريقة اكثر ذكاء وعمقا ومتعة فى ماهية الادب وممارسة الكتابة ووظيفتها على السواء . ولقد جدد بارت النقد الادبى فى فرنسا بحيث اصبح مجاله الان اكثر تنوعا مما كان عليه من قبل ، بل ان آراءه تجاوزت فرنسا واصبحت الأثر فى تحديد النقد الادبي وتوجيهه في انحاء كثيرة من العالم ، نتيجة لترجمة كتبه الى عدة لغات . والطريف فى الامر هو ان بارت لم يحقق ذلك كله عن طريق تكوين موقف نظرى محدد وثابت ازاء الادب والتمسك بهذا الموقف والالتصاق به فى عناد طيلة الوقت ، بل ان الامر كان على العكس من ذلك تماما . فبارت مشهور بتنقلاته وتحولاته ، وبقدرته على تجاوز المواقف **والاتجاهات القديمة** ، بما فى ذلك مواقفه السابقة هو نفسه ، ثم اعتناق مواقف ووجهات نظر جديدة لم تكن متوقعة منه ، بحيث يمكن القول ان كل كتاب من كتبه كان يمثل نقطة انطلاق فى اتجاه جديد اكثر مما هو توكيد لموقف قديم كان يعتنقه من قبل ،ولكن ذلك لا يعنى ابدا ان كتاباته ككل تفتقر الى الاتساق والاطراد والتماسك والانسجام ، وهذه حقيقة كثيرا ما تفوت على الكثيرين ممن يقنعون بتتبع الجوانب الجديدة فى فكره او مظاهر التجديد فى كل كتاب من كتبه على حدة دون أن يأخذوا اعماله كلها **كوحدة** . وتكشف هذه التحولات والمواقف الجديدة بغير شك عن رغبة اكيدة فى متابعة الاحداث والاتجاهات مثلما تكشف عن مدى حيوية تفكيره ، بحيث انه لم يكن يسمح اطلاقا لافكاره واتجاهاته وآرائه وتفسيراته وتأويلاته للادب ان تبقى لفترة طويلة داخل قالب نظرى جامد ومتزمت . **ولقد انتبه بارت نفسه الى هذه الخاصة الاساسية فى تفكيره** بحيث نجده يقول فى كتابه الذى اصدره عام ١٩٧٥ بعنوان (**رولان بارت بقلم رولان بارت** او **رولان بارت ينظر الى نفسه** Roland Barthes par Roland Barthes » ان رولان بارت يرفض تماما أن تكون له صورة محددة واضحة ، ولا يحتمل أن يكون له تعريف محدد » . وهذا معناه بقول آخر ـ حسب رأي ستاروك ـ « انه كان يقف ضد اية محاولة تستهدف جعله موضوعا يثير الاهتمام ويعارض ذلك اشد المعارضة ، لان الموضوعات والاشياء هى وحدها التى يمكن تعريفها وتحديدها وتوضيحها بحيث تصبح خالية من الغموض، دون أن يكون لها فى الوقت ذاته القدرة على تغيير نفسها تغييرا جوهريا . وهذا موقف،

مألوف فى الحياة الفكرية فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ، ويتمثل الى حد كبير فى الاتجاهات الوجودية بعد الحرب ، وهى الفلسفة التى كان لها اكبر تأثير فى فرنسا منذ عام ١٩٤٥ حتى اواخر الخمسينات » .

ولقد ولد رولان بارت عام ١٩١٥ ، وبذلك كان عمره ثلاثين عاما عند نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولكنه كان قد قاسى طويلا من مرض السل وبخاصة بين عامى ١٩٤٢ و١٩٤٧ وهى فترة أمضاها فى احدى المصحات . ومن هنا جاء نضوجه الفكرى متأخرا بعض الشىء عن اقرانه كما سبق أن ذكرنا . ولقد خضع بارت فى أول الامر لتأثير وجودية سارتر ، ويبدو ان ذلك التأثير كان قويا وعميقا بحيث بقيت بعض ملامحه واضحة حتى فى كتاباته المتأخرة ، وتمثل هذا بوجه خاص فى رفضه ونفوره الشديد من الفلسفة التى كانت تعارضها الوجودية ، وتعنى بها « الجوهرية » Essentialism التى تقول بتقديم الجوهر على الوجود وترى انه يوجد فى كل فكرة انسانى جوهر او ماهية نهائية لا تتغير ، وتملى عليه ان يسلك ويتصرف ضمن اطار او حدود يمكن التنبؤ بها بشكل او بآخر على ما يقول ستاروك . فهى بذلك فلسفة جبرية الى حد كبير ، بعكس الوجودية التى تبشر بحرية الفرد الكاملة للتغير باستمرار والتخلص من القيود التى يفرضها عليه ماضيه ، وكذلك الهروب من اية تحديدات او « تعريفات » نهائية يفرضها عليه الآخرون . فالوجود اذن اسبق على الماهية او الجوهر ، والانسان لا يصبح ماهية « الا بعد أن يموت بالفعل ... فكان بارت كان يعظم ويبجل الوجود المتغير المرن الذي يختلف كل الاختلاف عن جمود الجوهر والماهية ، ومن هنا كان رفضه لتلك الفلسفة التى كانت تعتبر بمثابة ايديولوجيا يؤمن بها الكثيرون من المفكرين والمثقفين الفرنسيين التقليديين الذين ينتسبون الى البورجوازية او يؤازرونها ، فالجواهر والماهيات ، وكذلك كل اشكال « التوازنات » من شأنها أن تؤدى الى جمود العقل وشلل حركته ، ولذا فهى أشبه شىء « **بالابراج الفلكية** » التى تحدد مسبقا للعالم مصيره ومستقبله .

ولقد ذهب بارت فى ذلك الى أبعد مما ذهب اليه سارتر . فلقد كان سارتر يؤمن على الاقل ـ بأن الفرد الانسانى يتمتع بقدر من التماسك والوحدة ، بينما كان بارت على العكس من ذلك تماما ، يؤمن بالتفكك والتحلل والتفسخ والتعدد ، ويذهب الى أن الوحدة « المزعومة » للفرد لا تلبث أن تتحلل وتذوب وتختفى فى التعدد والكثرة ، ولذا كان بارت يميل الى توكيد كل ما هو متعدد وغير متواصل ويبدو ذلك واضحا من موقفه من كتب « سيرة الحياة » Biographies « كشكل من اشكال الادب ، فقد كان يرفضها على زعم أنها تعطى انطباعا « بالتكامل المزيف » للشخص الذى تدور حوله وبصفها بأنها « ذكرى موبعة « للشخص لا يزال حيا ، ويرد ما فيها من زيف الى انها لا تبدو منطقية » بشكل يتناق مع الحقيقة والواقع وظروف الحياة .

ولقد أصبح هذا « التفضيل » لغير المألوف للتعدد والتشتت بدلا من الوحدة والالتئام والتماسك من اهم ما يميز كتابات بارت ، وازداد هذا الميل وضوحا بتقدمه فى الكتابة ... لقد كان يرفض منذ البداية ان يتقبل « وجهة النظر السائدة » عن الاشياء ، لان مثل هذه النظرة ، التى يقبلها الناس فى العادة بغير مناقشة ويسلمون بها ، كثيرا ، ما تعمى أبصارهم عن احتمال وجود وجهات نظر اخرى عن تلك الاشياء ذاتها . ولذا كرس بارت جانبا كبيرا من جهده وفكره لنقض وجهات النظر المقبولة الراسخة فى الادب ، وهى فى العادة وجهات النظر التى كان يتمسك بها الاكاديميون من اساتذة الجامعات . وبلغ فى معارضته ونقده لتلك الاراء (التقليدية) حدا دفع بالبعض الى الاعتقاد بانه لم ينجح فى تدمير اسمه لانه جعل من نفسه (سوطا)

يلهب ظهر النقد الادبي الاكاديمي . وكان من السهل عليه ان يفعل ذلك على اي حال ، خاصة وانه لم يكن استاذا جامعيا ، رغم كل ماذكرناه عن اشتغاله بالتدريس في اواخر الاربعينات في بوخارست والاسكندرية ، وما قلناه عن حلقته الدراسية في مدرسة الدراسات العليا في باريس ، ومن انه انهى حياته استاذا في الكوليج دو فرانس . فلقد اعطاه (حرمانه) من العمل الاكاديمي قدرا من الحرية ومن الدافع لان يضع لنفسه نظرية مستقلة في الادب ، وهي نظرية تحاول في حذق ومهارة وواقعية ان تملأ الثغرة التي كانت تفصل بين الدراسة الاكاديمية والممارسة الفعلية للكتابة (Sturrock, p. 55) .

• • •

ولقد كان بارت يأخذ على النقد المعاصر عددا من المآخذ . وقد اثارت هذه النظرة المعارضة عليه حين بدا هو نفسه في الكتابة وظهرت واضحة في كل مؤلفاته . ويلخص ستاروك هذه المآخذ او الانتقادات في اربعة انتقادات رئيسية هي :

اولا ـ ان النقد الادبي في فرنسا كان **نقدا لا تاريخيا** ، بمعنى انه كان يصدر من الناقد وينظر الى العمل الادبي ويعالج **النصوص** كما لو كانت القيم الاخلاقية والقيم الصورية او الشكلية المتعلقة بهذا النص غير مرتبطة بزمن معين ولا تعتمد بحال على طبيعة المجتمع الذي (افرز) هذه **النصوص** او الذي كتبت فيه هذه **النصوص** اولا ونشرت وقرئت لاول مرة . وهذا ، كما هو واضح ، هو موقف ماركسي ، او على الاقل اعتراض الماركسية الجديدة ، ولو ان بارت لم ينتم ابدا الى الحزب الشيوعي . من هنا كان بارت ينبذ كل الكتب التي تحاول التاريخ للادب الفرنسي على انها مجرد سجلات للاسماء والتواريخ وبذلك فانها تخلو من المعنى ، وتعتبر لغوا وهراء ... انها مجرد **تاريخ وضعي** ، بأسوأ معاني هذه الكلمة . وتكشف عن جهل مؤرخي الادب بالاسلوب السليم الذي يجب اتباعه ، وعدم ادراكهم للتغيرات التي طرأت على طريقة دراسة التاريخ دراسة (حقيقية) وان اتباع مناهج بعض المؤرخين العظام من امثال لوسيان فيفر Lucien Febvre كان خليقا بان يجعلهم يفهمون ما كان بارت يسميه « الوظيفة الادبية » او « وظيفة الادب » La fonction literaire ويقصد بها الدور الذي يلعبه الادب في اي مجتمع من المجتمعات عن طريق دراسة بعض الظاهر الاجتماعية المعينة ، مثل طبقات الناس الذين يكتبون الكتب ، وطبقات القراء الذين يشترون هذه الكتب ، وما الى ذلك فمثل هذا (التاريخ) للادب يمكن ان يبدأ بدراسة الحقائق والوقائع الاجتماعية او الاقتصادية ، ويصعد الى الظواهر الادبية الخالصة ، وبذلك يعطي صورة واضحة عن العلاقة الجدلية بين الادب والمجتمع الذي انتجه ، او بين مرحلة ادبية معينة والمرحلة التي تليها وهكذا . وقد تمثل هذا الى حد كبير في اول كتاب كتبه وهو « الكتابة متدرجة الصفر Le Dégré Zéro de L'écriture » الذي نشره عام ١٩٥٣ وهو في الثامنة والثلاثين من العمر . وهذا الكتاب هو اقرب الى المقالة المطولة منه الى الكتاب ، وقد حاول بارت ان يبين فيه كيف ظهر ما يسميه « الكتابة البورجوازية » مشيرا بذلك الى الكلاسيكية الفرنسية ، وكيف ان هذه الكتابة (البورجوازية) بدأت تتهاوى ليحل محلها « كتابات » عديدة متنوعة يمكن للكاتب ان يختار من بينها ، وهذا الاختيار انما يصدر

من فعل معين من افعال « الالتزام » ، كمايتم عليه .

ونحن نعرف الى اي مدى كانت كلمة(الالتزام) تتردد بكثرة في كتابات سارتر والوجوديين بوجه عام ، ولكننا نجد بارت في هذا الكتاب يذهب الى القول بأن عدم التزام الكاتب في كتابته لن يترك امامه فرصة الا الكتابة (المحايدة) التي تعني عدم قدرته على تحمل اية مسئولية . ومثل هذه الكتابة (المحايدة) لن تكون في افضل صورها الا كتابة (جوفاء) فارغة من المعنى وخالية تماما من اى محددات تاريخية ... وعلى الرغم من قصر الكتاب وصعوبته فان قوة حجته وعمقه وبلاغةاسلوبه ساعدت على ان يحتل بارت مكانا لابأس به في الادب اليساري او بين « اليسار الادبي » . الا ان بارت لم يفلح مع ذلك في الكشف بوضوح عن تلك المحكات التي يمكن الاعتماد عليها في التمييز بين (كتابة) واخرى ، او بين اسلوب واخر — اذ يبدو انه كان يستخدم كلمة écriture بمعنى اسلوب Style ، كما ان الكثيرين من الكتاب يتشككون فيما اذا كان يمكن وصف اعمال جميع الكتاب الفرنسيين الذين ظهروا خلال قرنين كاملين بين عامي ١٦٥٠ و ١٨٥٠ بأنها كتابات « برجوازية » .

المأخذ الثاني الذى كان بارت يأخذه على النقد (الاكاديمي) هو انه كان نقدا يتميزبدرجة عالية من السذاجة من الناحية السيكولوجية كما انه كان نقدا (جبريا) الى حد كبير — ان صحت هذه الصفة ، وكانت هذه السذاجة وتلك (الجبرية) تصلان الى حد (الابتذال) — كما يقول — حين كان الناقد يحاول تفسير مضمون النص في ضوء المعلومات المتوفرة عن حياة الكاتب وبالاشارة اليها ، لان هذا معناه تفسير العمل الادبي بالحياة ، وهو امر يرفضه بارت ، وان كان يعلم في الوقت ذاته ان هذه الطريقة في التفسير لم تكن قاصرة على النقاد الفرنسيين ، وانما كانت شائعة بين كثيرين جدا من النقاد في مختلف انحاء العالم . وكان بارت يذهب ، كما يذهب البنائيون ، الى ضرورة فهم عناصر العمل الادبي في علاقتها بعضها ببعض ، اى تفسير العمل الادبي بالعمل ذاته وليس بعناصر من خارج الادب تماما . (وهذا يعيدالى الاذهان عبارة اميل دوركايم Emile Durkheim المشهورة عن ضرورة تفسير ما هو اجتماعي) . فمن الخطأ الاعتقاد بأن الحقائق السيكولوجية في العمل الادبي هي تمثيل مباشر للحقائق السيكولوجية في الحياة ، لان هذا — كما يرى بارت — يتناقض مع ما اثبته التحليل النفسي ، او على الاصح يتنافى مع الحقائق الاولية في التحليل النفسي الذى يبين أن الصلة بين هذين المجموعتين من الحقائق ليست على كل هذه الدرجة من البساطة ، وان اى حقيقة سيكولوجية ، سواء كانت هي الرغبة اوالشهوة او الزمت او الاحباط ، قد ينجم عنها « تمثيلات » مناقضة لها تماما ، وانه كثيرا ما ينجم من احد الدوافع الحقيقية سلوك يناقض تماما ذلك الدافع . وهذا معناه ببساطة انه من الخطأ ان نحاول تفسير الافكار بالرجوع الى حياة المؤلف . **فهناك فصل قاطع وحاسم الآن بين النص والمؤلف او الكاتب ، وانه من الممكن تحليل النص ذاته سيكولوجيا وتبيين ما فيه من نوازع وعصابات وانحرافات وما الى ذلك دون ان نزعم اننا حللنا في الوقت ذاته الكاتب نفسه سيكولوجيا** . وكما يقول ستاروك فان بارت كان يحترم الغموض البالغ المتطرف الذى يلف علاقة الكاتب بما يكتب .

المأخذ الثالث الذى يأخذه بارت على النقاد الاكاديميين هو انهم — كفئة — او سلالة race كما يصفهم — يعانون مما يسميه

باللارمزية اوضد الرمزية a-Symbolia وذلك لانهم لم يكونوا يستطيعون ان يروا في النص الا معنى واحدا يهتمون به ويركزون عليه . وهذا المعنى الواحد كان في الاغلب هو « **المعنى الحرفي** » البسيط ، معتقدين انه هو **المعنى الحقيقي** للنص ، وانه من غير المجدى ، بل ومن العبث ، محاولة البحث للنص عن معاني اخرى بديلة او حتى معاني مكملة لذلك المعنى « الحرفي » البسيط الواضح .

ومن هنا كان بارت يرى في هؤلاء النقاد الاكاديميين رجالا على جانب كبير من الميل الى التسلط وضيق الافق والتزمت والغرور ، بحيث كانوا يتصورون تزمتهم نوعا من الدقة « العلمية » . لقد كانت عقول هؤلاء النقاد الاكاديميين قاصرة ـ في رأيه ـ عن أن تتغلغل الى أسرار اللغة ، وتعجز عن فهم غموضها ، بل انها كانت تضيق بتلك الاسرار وترفض فكرة امكان وجود معاني كثير مختلفة ومتنوعة داخل الصيغة اللغوية الواحدة ، وهذا معناه ببساطة انه لم يكن في امكانهم ادراك ما تتضمنه الصيغ اللغوية من رمزية . وهنا نجد ان بارت يغير موقفه القديم الذى كان يعتنقه في كتابه « **الكتابة عند درجة الصفر** » ويفصل فصلا تاما بين « العمل الادبي » والظروف التى احاطت بانتاجه ، **فالادب غامض بالتعريف** ، والعمل الادبي ، كما يقول في كتابه « **النقد والحقيقة** Critique et Verité » الذى صدر عام ١٩٦٦ لايمكن اخضاعه او تحديده او توجيهه باى موقف معين ، كما انه لا يمكن الاستدلال على معناه من ظروف الحياة العملية واحداثها . والنقاد الذين يفشلون في رؤية الرمزية التي يتضمنها الاستخدام الادبي للغة لن يمكنهم الوصول الى حقيقة النص ، او التغلغل الى اعماقه ، وحتى اذا امكنهم التعرف على اكثر من معنى النص فانهم يميلون الى توكيد وابراز احد تلك المعاني والاغضاء عن المعاني الاخرى واهمالها ، لانهم يؤمنون بوجود معاني « صحيحة » واخرى « خاطئة » . وهذه ناحية معيارية ينكرها بارت كل الانكار . فهو يرى انه كلما كان النص يحتوى على عدد اكبر من المعاني كان ذلك افضل بالنسبة للناقد ، ولكنه يعترف في الوقت نفسه بانه ليس ثمة ما يسوغ او يبرر اعطاء احد تلك المعاني اولوية على المعاني الاخرى . فالنص الجيد يزخر عادة بالمعاني ، ولذا فليس من المعقول ان نزعم ان القارىء يخرج بمعنى واحد نهائي واخير حين يفرغ من قراءة ذلك النص .

والمآخذ الرابع والاخير الذى كان يأخذه على النقاد التقليديين **هو انهم لم يعلنوا** قط عن الايديولوجيا التي يؤمنون بها ، وانهم في كثير من الاحيان لم يكونوا يعترفون بأن نقدهم كان صادرا عن موقف ايديولوجي معين ، او انه كان موجها توجيها ايديولوجيا ، اى انهم لم يكونوا يفصحون عن القيم التي كانوا يطبقونها في دراستهم للعمل الادبي ، متظاهرين بأن موقفهم موقف (وضعي) بحت ، وزاعمين ان القيم (الوضعية) قيم (عامة) او كلية لايمكن تحديها او التشكيك فيها لانها لاتنتمي الى طبقة او فئة معينة ، او الى قطاع معين من مجتمع معين في زمن معين . وهذه في نظره ـ وكما سبق ان ذكرنا ـ هي الوضعية في اسوأ صورها . وكان بارت يعتبر ذلك الموقف نوعا من التهرب والتغرير و (التعمية) والالغاز والتضليل الذى لا يخلو من عنصر غير اخلاقي لانه يحاول ان يضفي على الظواهر التاريخية طابع الظواهر الطبيعية ، وان هذا الالغاز وتلك التعمية يجب توضيحها وكشف الغطاء عنهما عن طريق (فضح) المناهج والاساليب

(المنحرفة) الملتوية التي يتبعها هؤلاء النقاد .
(٣) بل انه كان يذهب الى حد اعتبار تقسيم هذه المناهج نوعا من التنوير الاجتماعي والسياسي .

هذه اذن هي المآخذ الاربعة الرئيسية التي كان بارت يأخذها على النقد والنقاد التقليديين الذين كان يرميهم بالتعنت وضيق الافق ، وهو في الاغلب نوع النقد الذي كان يصدر عن اساتذة الادب في الجامعات الفرنسية . ولكن هذه الانتقادات ذاتها لا تخلو من المبالغة والمغالاة ، اذ ليس ما يدل على ان النقد في فرنسا كان « محافظا » أو « رجعيا » فقط كما يحب بارت ان يوهمنا في كتاباته . ومع ذلك فقد كان لهجوم بارت وحملاته التي شنها على النقد هو **وبعض الكتاب الآخرين الذين لم يكونوا ينتمون لهيئات التدريس في الجامعات** تأثير قوى وفعال في ظهور حركة « النقد الجديد La Nouvelle Critique » التي سبقت الاشارة اليها .

وهذه التسمية هي مجرد (شعار) ـ على ما يقول ستاروك ـ أكثر مما هي مدرسة واضحة المعالم ومتكاملة وتضم اشخاصا متشابهين في الفكر . ومع ذلك فان (وجود) هذا (الشعار) وترديده والاشارة اليه بكثرة في مختلف الكتابات توحي كلها بأن هناك أكثر من شكل واحد للنقد ، وأنه يتعين على « الوضعيين » في المستقبل ان يبرروا وسائلهم ومناهجهم في النقد بدلا من الاكتفاء بفرضها فرضا على القراء Sturrock, pp. 55-60

• • •

ولقد كرس بارت كثيرا في اهتمامه في بداية حياته الفكرية المشكلات السياسية والفكر السياسي ، وكان في ذلك يرفض كل ما يبدو لاول وهلة وضعا « طبيعيا » ومسلما به ويعارضه أشد المعارضة ، على أساس ان كل ما يبدو طبيعيا ، او ما يؤخذ كقضية مسلمة ، هو في الحقيقة وضع مفروض من

---

(٢) يمكن توجيه هذا النقد الى « الوضعيين » في مختلف الدراسات الانسانية ، الذين يزعمون ان آراءهم وافكارهم ومعالجتهم للموضوعات التي يتناولونها لا تصدر عن مواقف ايديولوجية مسبقة وانها في موجهة توجيها ايديولوجيا . ويصدق هذا بوجه خاص على العلوم الاجتماعية والانثربولوجية حيث يحاول العلماء (الوضعيون) معالجة الظواهر الاجتماعية بنفس الطريقة والنهج والاسلوب المتبع في دراسة الظواهر الطبيعية والبيولوجية ويذهبون في ذلك الى القول بانهم لا يتأثرون بالايديولوجيات السائدة في مجتمعهم مع ان الامر على العكس من ذلك تماما في الواقع والحقيقة . فعلم الاجتماع بالذات يدين بظهوره كعلم متمايز الى الظروف والملابسات والحركات الفكرية والتحررية التي لازمت القرن التاسع عشر بصفة عامة ، كما ان النظريات الاجتماعية الكبرى التي ظهرت في اواخر ذلك القرن واوائل القرن الحالي اخذت في اعتبارها ـ الى حد ما على الاقل ـ الايديولوجية الاشتراكية الماركسية « ودخلت معها في حوار يختلف بين اللين والشدة ، بين القبول المتحفظ والرفض القاطع ، ومحاولة التوفيق بين مختلف وجهات النظر » ، بحيث يمكن ان تقبل ما يذهب اليه زايتلين من ان « الماركسية لعبت دورا هاما في تطور النظرية الاجتماعية ليست فقط من حيث الآراء والافكار التي طرحها ماركس والماركسيون في ذلك الميدان ، بل وايضا ... من حيث استثارتها الكثير من وجهات النظر المعارضة والمناوئة التي ادت في آخر الامر الى قيام عدد كبير من مدارس علم الاجتماع » . والواقع ان هناك من بين مؤرخي الفكر الاجتماعي المحدثين من يذهب الى القول بأن الحركة الوضعية في العلوم الانسانية بعامة وفي علم الاجتماع بخاصة ، انما هي رد فعل للماركسية بالذات ، بل ان الاستاذ زايتلين ... يرى ان الكثيرين من كبار علماء الاجتماع كتبوا وامامهم ما يسميه (شبح ماركس) او ان كتاباتهم وآراءهم على الاصح كانت نوعا من (المناظرة) مع ذلك الشبح ... وعلى الرغم من كل ما يقوله اتباع المدرسة الوضعية من ضرورة الابتعاد عن الايديولوجيات المختلفة التي تبعد الباحث عن الطريق العلمي الصحيح وتلون نظرته الى المجتمع الذي يدرسه فان هذا الاتجاه ذاته الذي يختفي وراء دعوى الوضعية الموضوعية يمكن ان يؤخذ على انه تعبير عن النظرة المحافظة التقليدية او حتى الرجعية . » (انظر في ذلك مقالنا عن : « العلوم الانسانية والصراع الايديولوجي » ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثاني ، العدد الثاني ، صفحات ٤٢٩ وما بعدها .)

قوى أعلى من الفرد الانساني . وهذا هو ما يدفع الانسان الى الاغتراب . ويبلغ هذا الاغتراب ذروته حين تعمد الطبقة الحاكمة في المجتمع الى تضليل الشعب والتغرير به وخداعه عن طريق الايحاء اليه بأن الاوضاع الاجتماعية السائدة في المجتمع ليست من صنع البشر ، وانما هي من صنع الطبيعة او حتى من خلق الله ، لان هذا سوف يعني حرمان الناس من ممارسة حقهم الطبيعي المشروع في مناقشة تلك النظم وفحصها ونقدها والعمل على تغييرها . وسوف يترتب على كل هذا قبول الناس للامر الواقع ، بل الاخطر والادهى من ذلك هو اقتناع الناس بضرورة التمسك بتلك الاوضاع وعدم تغييرها ، على الرغم من أن المستفيد الوحيد من استمرار هذه الاوضاع في الوجود هو الفئة الحاكمة وحدها التي افلحت في أن توحي للشعب بأن تلك الاوضاع باقية بالضرورة وانها غير قابلة على الاطلاق للتغيير ... ان **صوت « الطبيعي » كما يقول بارت ، هو بالضرورة صوت في صالح « الامر الواقع »** ، ولذا كان التعرض لهذا الامر الطبيعي او الواقعي بقصد كشفه وفضحه وتعريته يعتبر دائما عملا ثوريا ، او على الاقل تحريضا ضد النظام القائم في المجتمع . **ومع ذلك فلم يكن بارت كاتبا ثوريا بالمعنى الدقيق للكلمة** على الرغم من كل ما يقوله عن ضرورة ازالة الغموض والكشف عن محاولات التعتيم والتعمية . ومع ان كتاباته المبكرة بوجه خاص تحفل بالازدراء والاحتقار للبورجوازية والتحامل عليها فانه لم يطالب قط بالقضاء عليها ، او حسب تعبير ستاروك ــ لم يطالب برؤوس البورجوازيين ، وانما كان على العكس من ذلك تماما رجل سلام ، وهي نزعة ازدادت قوة ووضوحا عنده بتقدمه في السن ، كما انه كان يجد لذة عميقة في محاولة التوفيق بين وجهات النظر المتنافرة ، بحيث تتعايش معا بدلا من ان تحاول احداها القضاء على الاخرى وازالتها . فلقد كانت اهتمامات بارت اهتمامات ثقافية في المحل الاول ، وليست اهتمامات سياسية خالصة ، كما أن دعوته الى تعرية الاوضاع المسلم بها في المجتمع ، والكشف عن محاولات التعتيم والتعمية انما كانت تقصد لذاتها نظرا لما يعطيه ذلك له من متعة ذهنية عميقة ، وليس بهدف الافادة منه في القيام بأي عمل سياسي عنيف .

فالمجتمع « مشهد مسرحي » يمكن شرحه وتفسيره عن طريق الكشف عن الميكانيزمات التي استخدمت في اخفاء ما فيه من افتعال وتصنع . ولقد كان بارت حريصا ، وبخاصة في كتابه Mythologies على فضح « الاساطير » التي يتعلق بها المجتمع ويسلم بها في ايمان ، والكشف عن الاسس التي قامت عليها هذه « الاساطير » وتوضيح الغموض والاسرار التي تحيط بها . ويرى ستاروك ان هذا الكتاب **« اساطير »** هو اعظم اسهامات بارت في مجال محاولة ازالة الغموض الثقافي . وكانت وسيلته في ذلك دراسة عدد من الامور العادية المألوفة في الحياة اليومية التي يتقبلها الناس ويسلمون بها بغير مناقشة او تفكير واخضاع هذه الامور للبحث والتحليل من زاوية جديدة لتبيين « الاخلاقية الخفية » التي تتضمنها هذه الامور المعتادة وربما كانت مقالته النظرية عن « الاسطورة في الوقت الحاضر » التي يستشهد بها ستاروك تصلح اساسا ومثالا لتوضيح منهج بارت ، لانه في هذه المقالة يضع منهجا خاصا « لقراءة » الاساطير وتتبعها بنفسه بدلا من ان يخضع للمناهج والاساليب التقليدية التي جرى العرف على اتباعها في دراسة الاساطير وتحليلها . ويستمد بارت ذلك المنهج ايضا من علم التوريات او بالاحرى **علم الاشارات** Semiologie وهو علم يعنى ــ كما رأينا ــ بدراسة انساق الاشارات ومعانيها . والطريف في هذا المنهج هو بساطته وعدم اغراقه في المسائل الفنية المعقدة لانه لا يتطلب سوى قدر اكبر من الانتباه واليقظة من جانب دراسي الاساطير

للاختلاف بين الدلالة أو المعنى الحرفي denotation للعلامة أو الاشارة ومعناها الاسطوري connotation الذي يمكن ان نصنفه ضمن الرمزيات ، أي ما ترمز اليه الاسطورة ، لان هذا المعنى الاسطوري هو معنى اضافي يوجد الى جانب المعنى الحرفي للاشارة أو العلامة التي هي موضوع الدراسة .

ويضرب لنا بارت لتوضيح ذلك عددا من الامثلة . والمثال الذي نستشهد به هنا هو احدى « العلامات » أو « الاشارات » التي ظهرت في احدى المجلات الفرنسية ، وهي عبارة عن صورة بالالوان لجندي اسود في ملابسه العسكرية يحيي العلم الفرنسي ، فهذه (علامة) بسيطة ومألوفة قد لا توحي للعقل (الساذج) بأكثر من دلالتها الظاهرية ، وبخاصة اذا اخذنا بالاعتبار الجملة التوضيحية المطبوعة اسفل الصورة والتي لا تخرج في معناها عن ذلك .. ولكن بارت يتخطى هنا المعنى الحرفي ويتجاوزه يكتشف (المعنى) الحقيقي الذي يكمن وراء الصورة والتعليق المكتوب اسفلها ، اي انه كان يبحث عن معنى الصورة (ككل) . ويذهب بارت الى القول انه لكي نصل الى هذا المعنى الحقيقي فان الامر يتطلب منا ان نعرف اولا اين ظهرت الصورة ومتى ظهرت . وكانت الصورة قد نشرت على غلاف مجلة Paris-Match التي تصبح بذلك هي **حاملة المعنى او الاشارة الدالة** Signifiant ، أي ان الدلالة تستمد في هذه الحالة من المجلة ككل وليس من العناصر المختلفة التي تكون الصورة . ولكن ما المعنى المقصود او المتضمن Signifié من هذه الاشارة الدالة ؟ (١) يرى بارت ان

(١) المصطلحان « العلامة الدالة Signifiant » و « العلامة المقصودة أو المدلول عليها Signifié » مستمدان هنا ايضا من دو سوسير الذي يحلل الاشارات او العلامات الى عنصرين مكونين ، الاول منهما هو الصوت او العنصر الصوتي acoustique بينما العنصر الثاني عنصر عقلي او تصوري . ويتجاهل دو سوسير في هذا التحليل الاشياء ذاتها التي تستخدم « العلامات اللغوية » للاشارة اليها . فالمعنى المتضمن في العلامة او المعنى المقصود ليس شيئا وانما هو « فكرة عن شيء » ، اي ما يتوارد الى الذهن (ذهن المتكلم او السامع) حين تذكر العلامة او الاشارة الدالة Signifiant . وعلى ذلك فان الاشارة او العلامة الدالة تؤلف المظهر او الجانب المادي للغة . ففي حالة اللغة المنطوقة (الكلام) تكون العلامة الدالة هي اي صوت له معنى ، اما في حالة اللغة المكتوبة فان العلامة الدالة تكون هي العلامة التي لها معنى والتي توضع على الورق . اما العلامة المقصودة او المتضمنة Signifié فهي الجانب العقلي للغة . والفصل بين المظهرين اي بين العلامة الدالة والعلامة المقصودة او المتضمنة فانه فصل نظري يهتم به المشتغلون بالنظرية اللغوية ، اما في الواقع وفي الحياة العملية فان هذين المظهرين لا ينفصلان . وبطبيعة الحال فان الصوت الذي لا معنى له لا يعتبر اشارة او علامة دالة لانه لا يدل على شيء ولا يعني شيئا ، اذ لا يمكن ان يكون هناك رمز دال دون ان يكون ثمة ما يدل عليه ، وبالتالي فانه لا يمكن ان يكون هناك تصور ما concepte الا اذا كان يمكن التعبير عنه داخليا كفكرة او خارجيا في الكلام ، اي انه لا يمكن ان يكون هناك شيء مدلول عليه بدون علامة او اشارة دالة تدل عليه . وعلى اي حال فان العلامة او الاشارة Signe وعنصريها المكونين تؤلف معا « معجم المعنى Lexicon of Signification » الذي سبقت الاشارة اليه والذي يعتبر وجوده — في نظر بارت وبعض اللغويين البنائيين — دليلا كافيا على انتماء الكاتب الى المدرسة البنائية . كذلك فان التمييز بين هذين العنصرين لا يقتصر على اللغة وانما يصدق على كل العلامات والاشارات التي تزخر بها الحياة اليومية ، اي انه يصدق على كل المواقف والرموز غير اللفظية كالصور والرسوم وما الى ذلك . وهذا معناه ان يمكن اعتبار كل شيء تقريبا في حياتنا اليومية بمثابة علامة او اشارة مادام يمكن استخدامه لتوصيل رسالة ما ، او للدلالة على شيء ما . فالزهرة التي تنمو في الخلاء بعيدا عن الناس بحيث لا يراها انسان او يستعملها لا تعتبر علامة او اشارة مادام لا يوجد شخص يراها بالفعل ويستخدمها بالفعل كعلامة او كرمز .. ولكن الزهور تصبح علامات واشارات في اي ثقافة حين تستخدم في شكل باقات ترسل للتهاني او في شكل اكاليل ترسل الى الجنازات ، لانها في هذه الحالة تحمل رسالة ويكون لها دلالة ومعنى .

المعنى الخفي او الرمزي للصورة هو « النزعة الفرنسية الاستعمارية » ، وهذا المعنى الحقيقي او الرمزي يصعب التوصل اليه الا اذا اخذنا في الاعتبار الملابسات التاريخية التي عاصرت نشر الصورة على غلاف المجلة . فقد ظهرت الصورة اثناء الفترة التي كانت فيها الامبراطورية الفرنسية تتفكك وتتهاوى وبخاصة حين كان الرأي العام داخل فرنسا ذاتها منقسما حول اذا ما كان يجب منح (الاستعمار) وللزرار الامبريالية ، كما أن الجندي الزنجي في هذه الحالة يرمز الى اندماج ابناء المستعمرات الملونين مع جنود فرنسا البيض في خدمة العلم الفرنسي ذي الالوان الثلاثة . ويقول اخر فان الصورة هي « العلامة الدالة » البريئة على ما يسميه بارت بالرسالة التي تستحق الازدراء وهي ان « فرنسا امبراطورية عظيمة وان ابناءها جميعا ، بصرف النظر عن لون بشرتهم ، يخدمون تحت العلم الفرنسي بولاء واخلاص ، وانه ليس هنالك من رد على اعداء الاستعمار (المزعوم) افضل واوقع من هذا الحماس الذي يبديه ذلك الجندي الزنجي في خدمة (اسياده ومضطهديه المزعومين) . فهذا اذن مثال جيد لما يريده بارت من قراءة الاسطورة التي هي في هذا المثال مجرد صورة ياخذها الرجل العادي على انها مسالة « طبيعية » لا تستوقف نظره ولا تحتاج منه اية مناقشة او تساؤل عن معناها **الرمزي او الاضافي** . وماقيل عن هذه الصورة يمكن أن يصدق على غيرها من الصور المماثلة ، بل وعلى كثير من المواد **التي تحفل بها اساليب الاتصال الجماهيري ووسائل الاعلام** التي يقبل الناس (الرسائل) التي تحملها اليهم دون أن يحاولوا من ناحيتهم سبر اغوارها للتعرف على معانيها الرمزية الكامنة وراء ذلك المعنى الحرفي الظاهر . ومن هنا فانه يقع على عاتق دارسي الاساطير عبء ومسئولية توضيح الطرق والوسائل التي يمكن بها الكشف عن هذه المعاني الرمزية ، وبالتالي تغيير الثقافة (الطبيعية) باخرى (تفسيرية) . وهكذا يلقي بارت على المثقفين (الفرنسيين) اعباء ومسئوليات جديدة نحو مجتمعهم في مجالات طريفة ومفيدة . وعلى اية حال فان احد الاهداف الرئيسية التي تهدف اليها دراسة (الاساطير) بهذه الكيفية هو اثارة شكوك الناس وايقاظ تفكيرهم وشحذ حواسهم ازاء الامور التي يتقبلونها بغير تردد او مناقشة باعتبارها مسائل مسلم بها .

كذلك يذهب بارت في « الاسطورة في الوقت الحاضر » الى القول بأن الاسطورة تتكون نتيجة لغياب الخاصة التاريخية للاشياء أو حتى ضياعها تماما . ففي الاسطورة تفقد الاشياء « ذكرى صنعها » ـ وفي هذه النقطة بالذات ـ اي عملية الصنع ـ يلتقي بارت دارس الاساطير **ببارت المفكر الادبي** ، حسب تعبير ستاروك . ذلك أن بارت وشأنه في ذلك شأن جميع الادباء المفكرين من ابناء جيله ـ لا يؤمن بامكان دراسة الاعمال الادبية بمعزل عن طريق (صنعها) ، او انتاجها فالاعمال الادبية هي **اعمال** قبل كل شيء يمكن تشبيهها بالمنتوجات التي ينتجها اي مصنع او ورشة . **وانشاء اي عمل ادبي ـ اي الطريقة التي يصنع بها ـ لها اهمية قصوى بالنسبة للناقد البنائي** ، لان اغفال هذه العملية سوف يؤدي الى الغموض والتعمية ، اذ سوف يؤخذ العمل الادبي في هذه الحالة على انه « كل طبيعي ومكتمل » ونتائج للالهام او حتى (السحر) بدلا من أن يعتبر نتاجا للمجهود الذهني الشاق .

والواقع ان الاخفاق في اعتبار الكتابة نوعا من (العمل) يرجع الى ذلك « التحالف غير المقدس » بين الرومانسية والواقعية ، لان الرومانسية تميل الى عدم الخوض في الكلام عن الجهد المبذول في عملية التكوين والانشاء ، وتنظر الى الادباء المبدعين على انهم كائنات اسمى واكثر اصالة من ان تربط بينهم وبين انواع وفئات (العمال) الادنى ، بينما الواقعية تعتبر الكتابة مجرد تمثيل لشيء

كان موجودا بالفعل قبل أن يشرع الكاتب في العمل ، وان هذا الشيء هو اما الحقيقة في ذاتها ، واما الافكار السائدة عن الحقيقة والتي يختزنها الكاتب في راسه لحين الحاجة ... وهذه تصورات يرفضها بارت تماما لانها تعطى فكرة فجة عن ماهو الادب وتفشل في التمييز بين ما هو ادب وما هو غير ذلك ، وهو تمييز يرتكز على النظرة الى **اللغة** . ولقد كان بارت يقف موقفا عدائيا صريحا من المذهب الواقعي أو المدرسة الواقعية لانها نوع من « تشيض الفن » ولانها تجعل من الادب خادما للواقع والحقيقة وذلك نتيجة لنظرتها (الآلية) للغة، اي اعتبارها اللغة مجرد اداة ووسيلة . انها تعتبر اللغة « شفافة » ــ ان صحت هذه الكلمة ، وانه من « خلال » الكلمات يمكن النظر الى الحياة وبذلك فهي تضحي بالعلامات الدالة Significants في سبيل الامور المقصودة أو المتضمنة Signifiés ولزعم انه في ممارسة الكتابة فان المعاني تسبق الاصوات او الكلمات ، وان الكلمات التي يستخدمها الكاتب انما يتم تحديدها مسبقا عن طريق المعنى الذى يريد نقله او توصيله للقراء ، وبذلك تكون لغته لغة هادفة او مغرضة وخالية من الغموض ... ويعترف بارت بان اللغة كثيرا ماتستخدم بهذه الطريقة اذ قد يكون للكاتب هدف أو مرمى يهدف اليه ولذا فانه يرتب كلماته لكي يحقق هذا الهدف، ويحدث ذلك بوجه خاص حين يكون لدى الكاتب شيء يريد أن (يخبر) القاريء عنه او ينبئه به ، **ولكن هذا ليس استخداما ادبيا للغة بالمعنى الصحيح للكلمة ، اذ ليس من وظيفة الادب الاخبار او الانباء او الاعلام بهذا الاسلوب (البرجماتي) المبتذل ، وانما يحاول الادب على العكس من ذلك تخليص اللغة وتحريرها من الاستخدامات اليومية العملية . فلغة الادب اذن ليست لغة هادفة ، وحين نقراها فاننا لا نشعر باننا مطالبون بان نؤدى اشياء معينة بالذات كنتيجة مباشرة لهذه القراءة** . وعلى اي حال فان الكاتب الحقيقى المبدع يجمع بين وعي الكتابة : الكتابة الهادفة التى ترمى الى توصيل معنى مسبق ، والكتابة الادبية الخالصة التى **هى نوع من اللعب** باللغة للتعرف على ما يمكن ان يؤدى اليه ذلك في آخر الامر ، ولو أن الاهتمام بالجانب الثاني هو الاهم في نظر بارت . وربما لم يكن المجتمع على استعداد لتقبل مثل هؤلاء الكتاب الذين يعطون للغة والالفاظ ــ **او النص بقول آخر** ــ كل هذه الاهمية والاولوية المطلقة . ولكن بارت يرى ان هذا النوع من الكتابة سيكون بغير شك هو ادب « المستقبل » . وليس معنى هذا انه يدعو الى انزواء الكاتب في « برجه العاجي » ، اذ على الرغم من أن مثل هذا الكاتب الحقيقي قد يبتعد من المجتمع اثناء ممارسته الفعلية للكتابة التى تتطلب كثيرا من المعاناة في تناوله اللغة واللعب بالالفاظ ، فان هذا لا يعنى ابدا انه ينبذ المجتمع او (يغسل يديه) منه ، كما يقال . انما هو العكس من ذلك يعتبر (ضمير المجتمع) خاصة وانه يعكف اثناء عمله على اختبار المدى الذي يمكن للغة القومية أن تصل اليه . ان الكاتب الحقيقي ــ ببساطة ــ لا يبدا من المعاني ، وانما هو يعمل للوصول الى المعاني ، او كما يقول بارت في ذلك ، ان المعنى يأتي « فيما بعد » . فالكاتب المبدع يعتبر الادب غاية في ذاته . اننا نفترض دائما ان عملية توضيح المعنى تبدأ من الشيء الذي يرادتوضيح معناه الى العلامة الدالة على المعنى Signifiant ، وان الكاتب يعرف اولاما يريد ان يقوله ثم يقرر الطريقة التي يقول بها ما يريد قوله ، ولهذا فلن يكون من السهل علينا أن نتقبل ما يذهب اليه بارت من ان الكاتب يقرر اولا الطريقة التي يقول بها ما يريد توصيله ثم يكتشف بعد ذلك فقط الشيء الذى يريد ان يقوله .. وقد يبدو لاول وهلة ان مثل هذا الكلام الذىهو عكس المألوف فيه افتئات وامتهان لكل فكرة التاليف بالفعل لا نه على اقل تقدير لا يفترض وجود الامور التى يراد نقلها ، والتىقدلا يكون لها وجود الا

فى ذهن الكاتب ، قبل ان يتم العثور على الرموز والعلامات والمعانى التى تدل عليها .

وكما تختلف اهداف ونشاط **الكاتب العادى** écrivant **والكاتب المبدع** écrivain كذلك تختلف (السلع) التى ينتجها كل منهما . فالكاتب المبدع ينتج **نصا** Texte ، اما ما ينتجه الكاتب العادى فهو مجرد **عمل** . والذى يهم فى نظر بارت هو **النص** : والنص على اية حال هو مجرد فرض او احتمال للمستقبل ، ولكنه فى الوقت ذاته يعتبر مقياسا تقاس اليه اعمال الماضى والحاضر ... ان النص كمايقول عبارة عن (مهرجان للكلمات) ، يتم فيه **انتقاء الكلمة** واختيارها بدقة وعناية بحيث تبرز عن بقية الكلا م العادى الذى يصدر عن الانسان فى الحياة اليومية . فالمعاناة التى يخوضها الكاتب المبدع مع اللغة ينتج عنها الان نوع من (المشهد) اللغوى ، وعلى القارىء ان يستمتع بهذا المشهد فى ذاته ، ولذاته ، بدلا من أن يحاول أن يتوصل الى العالم من خلال تلك الكلمات . ان **النص** ينجم فى الحقيقة عن (مداعبة) العلامات او الاشارات الدالة Signifiants دون أن يعطى اهتماما كبيرا للامور والمسائل المقصودة او المتضمنة فيه Signifiés ... **النص هو نوع من « شعر النثر » ان صحت هذه التسمية .**

ولعل اقرب شىء الى ما يعنيه بارت بالنص الحقيقى هو Finnegans Wake للكاتب الايرلندى الشهير جيمس جويس James Joyce ، وهو عمل وجد له بعض الرواج فى فرنسا نتيجة لنظرية بارت ، ولو انه يعتبر عملا شاذا فى نظر القارىء الانجليزى الذى تعود على أن ينظر الى الاعمال الادبية على انها **(اعمال) وليست نصوصا** ، ولهذا فان هذا القارىء ـ كما يقول ستاروك ـ يقاسى من هذا الكتاب ويعانى اشد المعاناة ويعتبره خاليا من المعنى ، لانه لا يكاد فى الاغلب يعطى اى قدر من اهتمامه لما فى الكتاب من ابداع قوى يقتضى منه ان يأخذ كلمة كلمة وجملة جملة ، لان هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تكتشف بواسطتها المعانى التى يضمها هذا العمل الصعب . فالكتاب اذن عمل (نصى) حسب تعبير بارت نفسه ، وعبقريته تتمثل فى انه **يساعد على تشتيت ذهن القارىء بدلا من ان يعمل على تركيزه ...** انه عمل بدون غاية على ما قد يبدو للقارىء ، وكل ما ليس له غاية يعتبر عملا جيدا وطيبا فى نظر بارت . ويكفى ان قراءة هذا النص تعطى القارىء لذة ومتعة تتزايد تدريجيا وباستمرار كلما تقدم فى القراءة ، وهذه متعة لا تعادلها متعة اخرى .

هذا الكلام ذاته يصدق على كتاب بارت Fragments d'un discours Amoureux الذى نشر عام ١٩٧٧ والذى يوصف فى كثير من الكتابات التى ظهرت عن بارت واعماله بانه كتاب غريب ، فهو ايضا يكاد (يخلو من الغائية) ويبدو للقارىء بانه لا هدف له ، وانه يصدر عن منطق يكاد يختلف تماما عن المنطق السائد بين الناس . ففى هذا الكتاب يقول بارت : « انى اشعر بالسعادة والشقاء معا وفى وقت واحد برغم ما قد يبدو فى هذا القول من تناقض ... اننى اقبل الامور بل واجزم بهادون نظر الى ، او اعتبار ، للصدق والكذب او النجاح والفشل . اننى بعيد تماما عن الغائية . اننى اعيش كيفما اتفق » ... ولقد حاول بارت من ناحية اخرى أن يبعد الكتاب بقدر الامكان عن الشكل القصصى او الروائى المألوف ، بحيث نجد ستاروك يقول فى ذلك : ان شكل الكتاب جاء كما لو كان يهدف الى « تثبيط الهمة عن البحث عن معنى » . **فالحب ـ كالنص ـ كلاهما يؤدى الى لا شىء ولكن كلا منهما ملىء دائما بالمعنى العميق المركز** ، كما ان العاشق يجد نفسه فى **« اتون المعنى »** ـ وهو تعبير بارت ـ نظرا لحاجته الشديدة الملحة التى لا تقاوم لتقسيم

العلامات والاشارات الغامضة التى يزخر بها سلوك المحبوب . فالعاشق هو ايضا قارىء ، ولكنه قارىء من نوع خاص ، هو ذلك النوع الذى يستحقه نص يكتبه كاتب مبدع حقيقى ، لان ما يحاول العاشق ان يفعله هو ان يفهم النص من الداخل وأن يعيد « كتابته » أو « نسخه » لنفسه . فالنص ـ بالتعريف ـ قابل لان تعاد كتابته او نسخه او نقله Scriptible ، بعكس « العمل » المطبوع الذى لا يعيد القارىء نقله وانما يكتفى بقراءته.

ويميز بارت بين نوعين من الاستجابة للنص : اللذة Plaisir والمتعة او الاستمتاع Jouissance ، ومع ان المعاني الاضافية او الرمزية Connotations المتعة فى اللغة الفرنسية هى معان جنسية الى حد كبير ، الا ان بارت يعتبرها اساسية هنا بالنسبة للتمييز الذى يقيمه بين نوعى الاستجابة . . فاللذة احساس عادىء لطيف عادى ومألوف ، بل انه يمكن القول انها احساس برجيوازى يتلاءم مع الجلسة الهادئة بجوار المدفأة ، ومع كتابة ما يمكن قراءته lisible ، وذلك بعكس المتعة التى هى احساس عارم وعميق وتتلاءم مع كتابة ما يمكن نقله ونسخه Scriptible اى النص . « ان اللذة يمكن الكلام عنها ووصفها بعكس المتعة التي كثيرا ما تؤدى الى شعور المرء بالحيرة بل والضياع وعدم الارتياح الذى قد يصل الى حد الملل ، كما انها تهز اركان الاسس التاريخية والثقافية والسيكولوجية للقارىء وتصدم ذوقه وقيمة ذكرياته ، وقد تؤدى الى خلق ازمة فى علاقاته مع اللغة » كما يقول فى كتابه (**لذة النص** Le Plaisir d Texte) الذى نشره عام ١٩٧٣ والذى يصفه ستاروك بأنه كتاب محير وغير قاطع فى كثير من المواضع . ومع ان بارت يعترف بأن كثيرا من القراء لم يمروا بمثل هذه

التجربة (المتعة) أثناء قراءاتهم ، بل وقد لا تتاح لهم الفرصة ابدا لان يمروا بها ، الا انها تجربة يمكن استثارتها عن طريق العكوف على دراسة الالفاظ ودلالاتها ، وهو امر خليق بالاهتمام على اية حال ، كما ان الجهد الذى يبذل فى ذلك جهد غير ضائع . الا ان الكثيرين ممن تعرضوا لآراء بارت من امثال ستاروك وفيليب بيتيت Philip Pettit فى كتابه **The Concept of Stracturalism : A Critical Analysis** يرون ان ما ذهب اليه بارت من توجيه الكتاب المبدعين فى المستقبل جانبا كبيرا من جهودهم للعب باللغة والكلمات وما سوف يترتب على ذلك من اثارة **المتعة** فى اذهان قراء **نصوصهم القابلة للنسخ والنقل** ليست سوى « عصا يستخدمها بارت لضرب الحاضر » ، وبخاصة ما يعتقده الكتاب المعاصرون من ضرورة تكامل ووحدة الاشخاص والاعمال الادبية على السواء . وبناء على ذلك فان بارت لا يتصور ان الكاتب المبدع يعبر عن « نفسه » حين يكتب ، لان هذا سيكون ضربا من المثالية Idealisme التى تؤمن بأن الكاتب له « نفس » او « ذات » مستقلة عما يكتب ولها وجود سابق على كتاباته ، وانه حين يكتب انما يشرع فى تمثيل نفسه او تصويرها مستخدما اللغة كأداة لذلك ، وهو ما لا يقبله بارت الذى يعتقد ان الكاتب لا يستطيع أن يكتب نفسه ، وانه بمجرد أن يحاول ذلك فان هذه (النفس) أو (الذات) تتضاءل وتنكمش وتصبح عديمة الجدوى ، ولذا نجده فى كتابه (**رولان بارت بقلم رولان بارت**) يستخدم دائما ضمير الغائب (هو) او الحرفين الاولين من اسمه (ر.ب) وذلك بعكس الحال فى كتابه « **شذرات** » **Fragments** فانه يستخدم دائما ضمير المتكلم (انا) على الرغم من انه لم يقصد من ذلك الكتاب ان يكون ترجمة ذاتية له او ان يكون سيرة حياته

هو . فاستخدام (أنا) في الكتاب هو من قبيل استخدام ذلك الضمير في الكتابات الفلسفية مثلا حين يريد الكاتب ضرب الامثلة لتوضيح ما يريد أن يقوله (لو فعلت أنا كذا وكذا ...) ، أي أنه يستخدم على المستوى المجرد دون أن يقصد الكاتب من استخدامه الاشارة الى ذاته هو بالفعل . **انها (أنا) غير مشخصة ، أو (أنا) بنائية** ، وعلى هذا الاساس فانها تعتبر (صورة فارغة) يمكن لاي شخص أن يستخدمها . والمهم هنا هو أن يؤخذ النص في ذاته دون نظر الى صاحبه أو محاولة التعرف فيه على مؤلفه كما كان الحال في (الماضي) حين كان النقاد يتصورون أن للمؤلف وجودا ماديا يمكن التعرف عليه (وراء) النص ، غير منتبهين الى أن الكاتب (يسكن) أو (يقيم) كصورة فقط في النص الذي يكتبه ، وأن (الانا) الحقيقية لا يمكن أن تظهر ابدا في كتابته رغم انها تتبدى في كل موضع منها .

وفي هذا الكلام كثير من الغموض المتعمد فلم يكن بارت يهتم كثيرا بمسألة الوضوح بل ويراه عيبا يجب على الكاتب المبدع أن يتخلص منه . (٥) وليس ثمة شك في أن فكرة (النص بدون مؤلف) فكرة لا يستسيغها الكثيرون ولا يتقبلونها بسهولة . فالنص يعتبر في الاغلب علامة أو رمزا خارجيا يعبر عن وجود ما (مؤلف) كامن وراءه . ولكن بارت يرى أن هذه هي النظرة الغربية للاشياء ، وأن هناك وجهات نظر مخالفة في ثقافات ومجتمعات أخرى تتفق مع رأيه وتؤكد وجهة نظره .

واليابان هي احدى هذه الثقافات التي تتوفر فيها الامثلة على صدق ما يذهب اليه . فحين قام بارت برحلته الى اليابان وجد من الدلائل مايشير ــ في رأيه ــ الى وجود ميتافيزيقا مناقضة للميتافيزيقا الغربية ... ميتافيزيقا الفراغ . فالثقافة اليابانية ــ في رأيه أيضا ــ ترى أن ظاهر الشيء هو الشيء ، أما باطن الشيء فهو عنصر غير مرئي وبالتالي لا يمكن الاستدلال منه على الشيء . واليابان بلد مليء بالرموز أو العلامات والاشارات الدالة signifiants التي تستمد اهميتها وسحرها من عدم وجود مضمونات أو مدلولات يراد الدلالة عليها Signifiés . ومن هنا كان كتاب بارت عن هذه الرحلة يظهر بعنوان له مغزاه في هذا الصدد : « **امبراطورية العلامات** » L'Empire des Signes » . وقد صدر الكتاب في جنيف عام ١٨٧٠ وعالج فيه بارت كثيرا من الممارسات واحداث السلوك اليومي ومظاهر الثقافة كالطعام والاهتمام بالحدائق والزهور واسلوب تقديم الهدايا أو على الاصح طريقة تغليف الطرود وما الى ذلك . ووجد أنها كلها تعكس نفس النمط من « اغفال المعنى » على مايقول . فهي جميعا عبارة عن ظاهر أو سطح بدون اعماق حقيقية أو مستترة ، كما أنه لايوجد فيها « مركز » أو « روح » . ففي حالة تقديم هدية مثلا أو استلام احدى اللفائف أو احد الطرود يسارع الاوربي « المثالي » بازالة الغلاف لكي يصل بأسرع ما يمكن الى محتويات الطرد ، أما في اليابان فالظاهر أن الغلاف ذاته

---

(٥) لا يهتم بارت كثيرا بمسألة الوضوح clarté **في كتاباته ، أو على الاصح لا يوافق على أن مسألة الوضوح هي أمر لازم أو واجب في الكتابة . وقد يبدو موقفه غريبا في ذلك ، خاصة وأن الفرنسيين عموما ينظرون الى وضوح الفكرة والكتابة على أنه من العلامات المميزة للعقلية الفرنسية ويعتبرونها احدى « الخصائص القومية » التي يفخرون بها . ولقد عني بارت منذ وقت مبكر في كتاباته بالتهوين من شأن عنصر الوضوح ، بل وعمل على تسخيف الجهود التي يقوم بها الكتاب لتوضيح أفكارهم الى حد الاسفاف في ذلك ، وذهب الى أن التمسك بالوضوح انما جاء نتيجة رغبة البورجوازية المتطلعة الى فرض ارادتها على الطبقات الاخرى الادنى منها في السلم الاجتماعي ، وكانت وسيلتهم في ذلك هي الوضوح في الحديث من أجل الاقناع وبالتالي السيطرة .**

هو الذى يهم وهو الذى يلقى الاستحسان والتقدير ، اما المحتويات فقد تكون اشياء تافهة او لاوجود لها على الاطلاق . بل ان مقارنة وجه الرجل اليابانى ووجه الرجل الغربي تعكس نفس النمط : فعيون الغربيين تظهر غائرة فى الوجه وتعتبر علامات واشارات على الروح الكامنة فى الاعماق ،اما عيون الرجل اليابانى فانها تقوم على نفس مستوى الوجه ولا تكشف عما يدور بداخله . وقد يكون لليابانيين انفسهم تفسيراتهم الخاصة وآراؤهم فيما يتعلق باسلوب تصرفهم ازاء استلام الهدايا والطرود ، او فيما يتعلق بمدى دلالة وضع عيونهم فى وجوههم على مايدور بداخلهم ، ولكن المهم هنا هو ان بارت ، الذى عاش مغتربا الى حد كبير عن المجتمع البورجوازى فى فرنسا وجد فى ذلك الاغتراب الذى جعله يلجأ الى ثقافات اخرى مثل الثقافة اليابانية ماساعده على القاء بعض الاضواء على الثقافة الفرنسية ذاتها ، تماما مثلما وجد فى ملامح تلك الثقافات مايعزز وجهة نظره فى ضرورة الاهتمام بالنص لذاته ودون محاولة التعرف على الكاتب الذى يكمن وراءه .

• • •

ان احد الدروس التى كان بارت يحرص على ان يلقنها لنا هو اننا لانكاد نملك الحق فى ان نزعم ان لغتنا هي ملك لنا ، لان اللغة نسق ينبغى ان ننزل له عن جانب كبير من فرديتنا اذا اردنا ان ندخل فيه (٦) . ان الشخص ـ اى شخص ـ حين يتكلم او يكتب ، لايكون ـ حسب تعبيره ـ اكثر من مجرد « ظرف خطاب كبير فارغ » حول الكلمات . وفى ذلك يقول ستاروك : « ان بارت ـ المؤلف ـ قد لايكون سوى اسم لظرف خطاب ، ولكن ليس هناك شخص فى السنوات الاخيرة استخدم اللغة الفرنسية بطريقة اعمق واكثر اصالة وذكاء منه » . (ص٧٩) .

★ ★ ★

(٦) تحتل اللغة مكانا هاما فى تفكير بارت وكل البنائيين الفرنسيين نتيجة لتأثرهم بكتابات فردينان دو سوسير كما ذكرنا . والواقع انهم جميعا كانت تسيطر عليهم مشكلة طبيعة اللغة باعتبارها نسقا اجتماعيا وثقافيا ، كما شغلتهم مسالة جدوى استخدام اللغة وطرق استخدامها وما يمكن ان يؤدى اليه (اللعب) بالكلام من نتائج . وينظر البنائيون عموما الى اللغة على انها (نظام) او نسق اجتماعى وبالتالى لا يرتبط وجوده بوجود الفرد ، بل ان الفرد هو الذى يدخل الى هذا النسق منذ الولادة فيتربى فيه ، وبذلك تعتبر اللغة اهم عنصر فى عملية التنشئة الاجتماعية ، كما انها توصف فى العادة بانها (لا شخصية) لانها تعلو وترتفع وتسمو علينا وتتجاوزنا كافراد . وهذه على العموم هى النظرة السائدة الى اللغة فى كتابات مدرسة علم الاجتماع الفرنسى.

المراجع :

المرجع الأساسي الذي اعتمدنا عليه في هذا المقال هو كتاب :

John Sturrock (Ed.) ; **Structuralism and Since : From Levi-Strauss to Derrida,** Oxford U.P. 1979.

وذلك بالإضافة الى المعلومات القيمة التي استمددناها، وبخاصة فيما يتعلق بتأثر البنائية باللغويات ، من الكتب التالية :

Boudon, R. ; **The Uses of Structuralism,** Heinemann, London, 1971.

De George, R. and De George, F. (eds) **The Structuralists from Marx to Levi-Strauss,** Doubleday 1972.

Douglas, Mary ; **Natural Symbols ;** Penguin 1973.

Ehrmann, J. (ed.) ; **Structuralism,** Doubleday, 1970.

Lane, M. ; **Structuralism ; A Reader,** Cape, 1980.

Petit, Philip, **The concept of Structuralism ;** A Critical Analysis, California U.P., 1975.

Piaget, Jean, **Structuralism,** R.K.P. 1971.

Saussure, F. De ; **Course in General Linguistics,** Mc Graw-Hill, 1966.

أما من كتب بارت نفسه فان الكتب التالية تتصل اتصالا مباشرا بالموضوعات التي عالجناها في المقال :

Le Degre Zero de I'Ecriture, 1953.

Mythologies, 1957.

Elements de Semiologie, 1965.

Le Plaisir du Texte, 1973

Roland Barthes Pur Roland Barthes, 1954.

وقد نقلت كلها الى اللغة الانجليزية .

* * *

اضواء جديدة على "ملاح" فاسكو دي جاما

محمد عبد العال احمد

مدرس التاريخ الاسلامي بمعهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة .

بدأ النشاط الصليبي في الظهور ، واخذ في الاشتداد من جديد خلال القرن التاسع الهجري (١٥ م) حتى اذا ما اوشك هذا القرن على الانتهاء ، كان ذلك الصراع قد بلغ مداه. ففي اقصى الغرب الاوربي ، ركزت مملكة قشتالة على تصفية الوجود الاسلامي في الاندلس ، وذلك بالقضاء على مملكة غرناطة — آخر المعاقل الاسلامية فيها — واسفرت هذه الجهود عن سقوط تلك المملكة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٦٢ م (١) ، واجبر المسلمون فيها على الفرار منها ، أو الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية ، تفاديا للتعذيب الوحشي والقتل (٢) .

اما البرتغال ، فقد تجددت الروح الصليبية فيها ، ولهذا عملت على تطويق العالم الاسلامي (٣) ، وتوجيه الضربة اليه من الخلف، بعد أن فشلت المواجهات الامامية المتكررة من البحر المتوسط ، في انتزاع المناطق التي كانوا يسيطرون عليها في الشام وخاصة بعد سقوط آخر معاقلهم في عكا سنة

---

(١) السلاوي : الاستقصاء لاخبار المغرب الاقصى — الدار البيضاء ١٩٥٤ — ج٤ ص ١٠٣ — ١٠٤ ، احمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ١٩٦٨ ، ص ٤٦٨ .

(٢) احمد دراج : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠ ، ٧٠ ، ٩٤ — ٩٨ ، ١٠٢ ، ١١١ — ١١٢، ١٢٧، ١٢٤٠.

(٣) Macro (E.): Yemen and the Western World Since 1571, London, 1968, p. I.

٦٦٠ هـ / ١٢٩١ م (٤) . فبعد أن استولى الملك البرتغالي خوان الاول على سبتة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، واقطعها لولده الامير هنرى الشهير بالملاح ، والمعروف بحقده وكراهيته التناهية للاسلام والمسلمين (٥) بدات الجهود البرتغالية التي تبناها هذا الامير ، وكرس حياته لاكتشاف طريق جديد حول افريقية لتحقيق احلامه في ضربهم . وكانت أولى حملات الكشف البحرية سنة ١٤١٨ م لسواحل غرب افريقية (٦) .

ومع استمرار الحملات البحرية البرتغالية على طول الساحل الافريقي الغربي ، تمكن بارتلميو دياز Bartholomew Diaz من الوصول الى اقصى نقطة لهذا الجانب من افريقية ، واكتشاف منطقة (راس العواصف) سنة ١٤٨٧ م (٧) ، وهي التي اطلق عليها ملك البرتغال اسم راس الرجاء الصالح ، لانفتاح الطريق الى الهند بعد ذلك على مصراعيه ، مما ساعد فاسكودى جاما Vasco de Gama على اتمام الدوران باسطوله حول افريقية سنة ١٤٩٧ م (٨) ، اى بعد تسعين عاما من بدء حركة الكشوف .

وبهذا اخذ امل البرتغاليين يزداد في امكان تحقيق اهدافهم الرئيسية ، التي تمثلت في العمل على السيطرة على مواطن التوابل (٩) ، وفرض الحصار الاقتصادى وخاصة على البحر الاحمر ، كبداية اساسية لانتزاع احتكار تجارة الشرق من مصر ، وحرمانها من المكاسب الكبيرة التي كانت تشكل الجزء الاكبر من اقتصادها الذى تعتمد قوتها عليه ، والعمل على الاتصال بالحبشة المسيحية ، وتحقيق التعاون معها من اجل ضرب مصر عسكريا من الخلف ، والقضاء على المسلمين ومقدساتهم ، مما يؤكد ان حركة الكشوف

---

(٤) ابن تغر بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ص ٨ ، ١٠ ،

Stevenson : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907, pp., 354 f.

(٥) السلاوي : نفس المصدر ، ج) ص ٩٢ ، احمدمختار العبادي : نفس المرجع ، ص ٥٥) وما بعدها .

(٦) سونيا هاو : في طلب التوابل ، ترجمة محمدعزيز رفعت ، ومراجعة د . محمود النحاس ، الكتاب رقم (٩٨) من مجموعة الالف كتاب ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٧) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ،بانيكار : اسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٩ ،

Kammerer : La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis L'antiquité, Essai d'hist. et géogr. hist. T. II, p. 75.

(٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ،ترجمة د. احمد عزت عبد الكريم ، و د. توفيق اسكندر القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٤٥ ، بانيكار : نفس المرجع ، ص١٩ ، احمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ، القسم الثاني ، ص ٢٦٦ .

(٩) Ingham (Kenneth) : A History of East Africa., ed. Longman, p. 6.

البرتغالية كانت ـ في حقيقتها ـ امتدادا للحروب الصليبية (١٠) .

ولما كان كشف البرتغاليين عن اهدافهم في تلك المرحلة ، من شأنه ان يثير مشاعر العداء ضدهم ، ويهدد بالقضاء على جهودهم وآمالهم ويعرضها لاخطار محققة ، لهذا عمل دي جاما على معاملة اهالي المناطق التي يصل اليها بالحسنى ، ولم يلجأ الى العنف الا اذا اقتضت الضرورة ذلك . يتضح ذلك من بعض تصرفاته فقد حدث اثناء تقدمه على الشاطىء الافريقي الشرقي ، شمالا ، ان وجد قاربا عند موزمبيق ، على متنه بعض الزنوج واحد البحارة ، ظنه البرتغاليون في بداية الامر من المغاربة ، فلما اقتربت السفن البرتغالية ، هرع الزنوج والقوا بانفسهم في البحر وفروا الى الساحل ، اما البحار فقد تم نقله الى سفينة القيادة البرتغالية ، حيث احسن دي جاما استقباله ، واكتشف ان الرجل هندي ، وليس عربيا مغربيا ، وانه من اهل كمباي (Cambay) بالهند ويدعى داڤان ، وقد اتخذه دي جاما مستشارا له ، لانه كان خبيرا بالتوابل ومن سماسرتها . وقد وافق هذا الملاح على مرافقة البرتغاليين الى الهند ، وتعهد بتزويدهم بحمولة من التوابل نظير توصيله الى بلاده ، (١١) . وفي ميناء موزمبيق ، كان وصول الاسطول البرتغالي ، في وقت كانت فيه أربع سفن محملة بالتوابل وغيرها من بضائع الهند راسية في الميناء ، فلم يتعرض البرتغاليون لها بسوء ، بل على العكس من ذلك ، فقد استضاف دي جاما طاقم هذه السفن الهندية ، وقدمت لهم الانبذة ، التي قيل ان اقبالهم عليها كان كبيرا (١٢) . كما استجاب شيخ موزمبيق لطلب دي جاما ، وزوده باثنين من المرشدين ، الا انهما تمكنا من الفرار والعودة عندما تأكدا ان البرتغاليين من المسيحيين ، مما ادى الى استخدام البرتغاليين العنف ضد الاهالي (١٣) . ولهذا لم يغامر دي جاما بالرسو باسطوله في ممبسة ، عندما شك في احتمال قيام ملكها بتدمير سفنه واغراقها انتقاما لما فعله ضد اهالي موزمبيق (١٤) .

ولما وصل البرتغاليون بعد ذلك الى ميناء مالندي ـ الواقعة حاليا في كينيا ـ لقي دي جاما فيها ترحيبا من ملكها ، خوفا او ضعفا (١٥) فلما عزم على مغادرتها بعد عدة أسابيع ، طلب من صاحبها امداده بملاح يرشده الى الهند ، فاستجاب له الملك وامده بملاح ماهر ، قاد

---

(١٠) Serjeant (R.B.) : The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 1963, p. 2.

(١١) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(١٢) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٢ ، ١٩٥ .

(١٣) Strandes (J.) : The Portuguese Period in East Africa, trans. by Wallwork, Nairobi, 1961, pp.21-24.

(١٤) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

(١٥) The History of Kilwa, ed. from an Arabic MS. by Arthur Strong, (J.R.A.S.), London, 1895, pp. 397, 428.

اسطوله الى قاليقوط ، فوصلها في مايو سنة ١٤٩٨ (١٦) .

وعلى عاتق هذا الملاح ، ألقى البعض مسئولية وصول البرتغاليين الى الهند ، وما ترتب على ذلك من نتائج . ولا شك ان هذا الحكم جاء غاية في القسوة ، وهو بعيد كل البعد عن التفسير العلمي السليم ، ذلك ان البرتغاليين تستروا ـ خلال تلك الفترة ـ بالواجهة التجارية ، ولم يكشفوا عن اهدافهم الحقيقية ، ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم ، طالما كانت معاملتهم حسنة ، وتكفلوا باعطاء الأجر المناسب . واذا كان البعض قد امتنع عن التعامل معهم او لجأوا الى الهرب والفرار عندما اكتشفوا انهم مسيحيون ، فان ذلك لم يكن عند البعض الآخر سببا كافيا لانتهاج هذا المسلك معهم ، اذ لم تخل منطقة شرق افريقية او الهند من المسيحيين الذين كانوا يعيشون جنبا الى جنب مع مسلمي تلك المناطق . ومن ناحية أخرى ، فانه لو لم يتيسر لفاسكو دى جاما الحصول على الملاح المنشود ، فلن يكون ذلك ـ بالطبع ـ نهاية للجهود البرتغالية ، بل من المؤكد ان تلك المحاولات كانت ستستمر مهما كانت التضحيات ، اذ كيف يمضي البرتغاليون تسعين عاما دون كلل أو ملل في اعمال الكشوف للسواحل الافريقية ، معتمدين على انفسهم وخبراتهم البحرية وما اكتسبوه من خبرات تدريجية خلال عمليات الكشوف حتى توصلوا الى الساحل الافريقي الشرقي ـ وهي مرحلة من أصعب المراحل ـ ثم يتوقفون بعد ذلك ، لمجرد امتناع المرشدين عن قيادة اسطولهم الى الهند ! . وحتى لو سلمنا جدلا بامكان مقاطعة الملاحين لهم ، فقد كان في الامكان الاهتداء ببعض السفن المتجهة ـ في موسمها ـ الى تلك المنطقة ، واقتفاء اثرها دون كبير عناء ، أو اختطاف الملاحين واجبارهم على ارشادهم بالقوة .

والموضوع الذي نعرض له بالمناقشة في هذا المجال يتعلق بمحاولة التعرف على ملاح فاسكو دى جاما وجنسيته .

ويعتبر النهروالي ، أول من اشار ـ من المؤرخين العرب ـ الى موضوع الملاح وحدد اسمه ، قال :

« وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول الفرنقال (البرتغال) اللعين من طائفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند . وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ، ويلجون في (بحر) الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القمر ... ويصلون الى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق ، أحد جانبيه جبل ، والجانب الثاني بحر الظلمات ، في مكان كثير الامواج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة ، وهم

---

(١٦) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، نقله الى العربية يوسف كمال ، الطبعة الاولى ١٩٢٧ ، ص ٢٠٩ ، سونيا هاو : في طلب التوابل ، ص ١٩٧ ، كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ١٩٦٥ ، القسم الثاني ، ص ٥٧٢ ، جورج فاضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة د . يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٣٧ ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، سلسلة اعلام العرب ، العدد ٦٣ ، مارس ١٩٦٧ ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (١٣) ، يناير ١٩٧٩ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، جمال زكريا قاسم : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٧٠ ،
Strong : op. cit., pp. 397, 428.
Ferrand : Introduction à l'astronomie nautique Arabe, Paris, 1928, pp. 183-184, Le Pilote Arabe de Vasco de, Gama et les instructions nautiques des arabes au XVe siècle, Annales de Géographie, Paris, 1922, p. 292.

يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند ، الى ان خلص منهم غراب الى الهند ، فلا زالوا يتوسلون الى معرفة هذا البحر ، الى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ـ وكان يقال له الى ملندى ـ وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم ، : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر . ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . فكثروا في بحر الهند ... وصارت الامدادات تترادف عليهم من البرتغال. فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين اسرا ونهبا ، ويأخذون كل سفينة غصبا ، الى ان كثر ضررهم على المسلمين ، وعم اذاهم على المسافرين (١٧) .

وعلى هذا النص اعتمد المستشرق الفرنسي جبريل فران (G. Ferrand) فيما ذهب اليه ، من ان احمد بن ماجد العربي المسلم هو الملاح الذى قاد اسطول فاسكو دي جاما من مالندي الى موطن التوابل في قاليقوط (١٨) .وبذلك حمله اصحاب هذا الراى وزر ما ترتب على ذلك العمل من نتائج ضد المصالح العربية والاسلامية (١٩) . بعد أن تمكن البرتغاليون من سرعة تثبيت وجودهم وسيطرتهم ، ولم يتمكن العرب من التصدى لهم ، أو لمن جاء بعدهم من العناصر الاوروبية الاخرى او منافستهم (٢٠) .

في حين ينفى آخرون تورط ابن ماجد المسلم التقى الورع في معاونة البرتغاليين الصليبيين ، ويستبعدون ان يتسبب ملاح عربى كبير مثله في تسهيل تثبيت الوجود البرتغالى في المنطقة ، والقضاء على الملاحة العربية في المياه الشرقية . وقد استند اصحاب هذا الراى على عدم تعرض المصادر العربية المعاصرة للاشارة الى ابن ماجد ، سواء بالتصريح او التلميح (٢١) . اذ ان النهروالى (ت ٩٩٠ هـ/١٥٨٢ م) متاخر كثيرا ، ثم انه لم يوضح المصدر الذي اعتمد عليه فيما اورده . يعزز ذلك أن المصادر البرتغالية التى ارخت لتلك الحوادث ، قد نصت على غير ذلك ، ولم تذكر شيئا عن اتصال فاسكو دي جاما بابن ماجد .

وفيما بين الاثبات والنفى ، أصبح موضوع ابن ماجد قضية ، يتمسك كل طرف فيها برايه ويتحمس له ، في حين يحاول

---

(١٧) البرق اليماني في الفتح العثماني ـ اشرف على طبعه حمد الجاسر ، الطبعة الاولى ١٩٦٧ ـ ص ١٨ ـ ١٩، وقارن ، الشلي اليمني : السنا الباهر بتكميل النور السافر في اخبار القرن العاشر ، مخطوط رقم ٢٠٣٢ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ، ص ٧ ـ ٨ ، (فعلى الرغم من ان الشلي لم يشر الى النقل عن النهروالي ، الا انه يتضح بالمقارنة اعتماده عليه والنقل حرفيا عنه) .

(١٨) Ferrand : Le Pilote Arabe de Vasco de Gama ; pp. 290-307, Art. Shihab AL-Din, p. 368, in ENC. of Islam,vol. IV.

(١٩) شوموفسكي : مقدمة كتاب (ثلاث ازهار في معرفة البحار ، لابن ماجد) ترجمة د. محمد منير مرسي ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٩ .

(٢٠) جورج فاضلو حوراني : نفس المرجع : ص٢٣٧ .

(٢١) انظر ، انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ١٣٢ . (حيث عدل عن رايه السابق). قارن كتابه ، ابن ماجد الملاح ، ص ٧ ، ٥١ ـ ٥٢. (واعتبران موضوع قيادة ابن ماجد للاسطول البرتغالي ، ما هو الا اسطورة روج لها كل من جابر يبل فران والمستشرق الروسي تيودور شوموفسكي من بعده) . ويقرر الدكتور عبد العليم ، : « بكثير من الثقة والاطمئنان بان ابن ماجد لم يكن هو الدليل او المرشد الملاحي لمراكب دي جاما ، ولا لغيره من الاميرالات البرتغاليين » .

آخرون هدم القضية من أساسها ، بانكار وجود ملاح عربي بهذا الاسم .

على أن الامر ليس اجتهادا في توجيه اتهام باطل ، أو نفي حقيقة ثابتة ، وانما المفروض أن تستهدف الدراسات والبحوث التاريخية الوصول الى الحقائق المجردة ، أو الاقتراب منها قدر المستطاع ، مع تدعيم ما يتم التوصل اليه بالادلة والبراهين ، مع بيان الظروف التي احاطت بالواقعة او الوقائع ، والاسباب التي ادت اليها ، مما يضع الامور في نصابها دون أدنى خجل ، ومهما كانت النتائج مؤسفة . اذ لا يجب أن ينصب الاهتمام على نقاط معينة من التاريخ دون غيرها ، كما انه ليس من الضروري أن تكون الحوادث الهامة ، أو ما يمكن وصفه بالجانب المشرق للتاريخ ، هو وحده الذي يثير الاهتمام أو تقتصر الدراسات عليه ، فالتاريخ بحوادثه المختلفة ـ المشرقة أو غير المشرقة أو المؤسفة ـ كل لا يتجزأ ، عظة وعبرة . وليس الامر مباراة أو مناظرة يجتهد كل طرف فيها باقناع الطرف الآخر ـ بالحق أو الباطل ـ بوجهة نظره . وفيما يتعلق بموضوعنا ، فانه لا يجب أن يبلغ الاشتطاط الى حد انكار وجود احمد بن ماجد . اذ انه من الواضح أن أصحاب هذا الرأي انما يستهدفون تخليص العرب ـ ممثلين في ابن ماجد العربي المسلم ـ من تهمة قيادة الاسطول البرتغالي ، وما يترتب على ذلك من آثار .

فابن ماجد ، حقيقة واقعة لا مراء فيها . فهو شهاب الدين احمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن ابي معلق السعدي بن ابي الركائب النجدي (٢٢) وهو وان كان اصلا من نجد الحجاز ، الا انه ولد وشب في ظفار بعمان ، وهو سليل أسرة عريقة في الملاحة ، ضليعة في علوم البحار ، فقد كان أبوه وجده من الملاحين المشهورين (٢٣) وقد سجل والده تجاربه البحرية في مصنف ضخم اطلق عليه « الارجوزة الحجازية » ، في وصف الملاحة في البحر الاحمر ، فعرف بـ « ربان البرين » (٢٤) (أي العربي والافريقي للبحر الاحمر) .

ولهذا ، فلم يكن غريبا أن يبرع ابن ماجد ويعلو نجمه في هذا المضمار ، حتى أصبح فريد عصره في هذا الفن ، وقد نيفت مؤلفاته على الثلاثين (٢٥) . فيها من التواريخ ما يثبت تواجده في ذلك العصر بالتحديد .

وهكذا حاز ابن ماجد شهرة كبيرة استمرت الى ما بعد عصره بقرون ، فقد

---

(٢٢) شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٧٧ ـ ٩٥،٧٨ ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ١٢ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٣٩ ، وانظر ، محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٥٠ ، ج ١ ص٣٣٩ (حيث لقب ابن ماجد بـ « البصري ») .

Ferrand : Art. Shihab AL-Din Ahmad B. Madjid, p. 365.

(٢٣) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، القسم الثاني ، ص ٥٧٢ ،

Ferrand : Introduction a I, astronomie nautique Arabe, pp. 221-222, L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes des XVe et XVIe siècles, (J.A., vol. 204, 1924), pp. 197-209.

(٢٤) كراتشكوفسكي : نفس المرجع والصفحة ، انورعبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ١٢ ،

Ferrand : Art. Shihab AL-Din. p. 365.

(٢٥) شوموفسكي : الدراسة التاريخية ، لكتاب (ثلاث ازهار) ، ص ٧٧ ، وانظر ، انور عبد العليم : نفس المرجع ، ص ٦٤ ، (حيث ذكر أن مؤلفات ابن ماجد بلغت الاربعين) .

شاهد الرحالة الانجليزي ريتشارد بيرتون (Richard F. Burton) عند رحلته (٢٦) من بندر المثي في عدن سنة ١٨٥٤ ، ان ملاحي عدن كانوا يقرأون الفاتحة على روح ابن ماجد كلما اقلعوا منها اعترافا بفضله (٢٧) ، اذ استمر الاعتماد على مصنفاته الى ما بعد ذلك ، وانه كان معروفا ايضا في الهند وجزر الملديف في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فقد ذكر جيمس برنسب (James Prinsep) انه كان يبحث عن بوصلة عربية ، فلما اخفق في مسعاه ، قدم له احد اصدقائه الملديفيين رسما لها ، انتزعه له من احدى المخطوطات لابن ماجد ، وقد فضل الناخوذة — الذي كان المخطوط في حوزته — قطع ورقة الخريطة ، لانه لم يكن يستطيع الاستغناء عن المخطوط او التفريط فيه لاهميته (٢٨) .

هذا فيما يتعلق باثبات حقيقة وجود شخصية ابن ماجد . اما فيما يختص بتلقي قيامه بقيادة اسطول فاسكو دي جاما الى الهند ، فان اصحاب هذا الرأي يعتمدون بالاضافة الى ما وجهوه من نقد لرواية النهروالي — على ما ذكرته المصادر البرتغالية من ان ملاح فاسكو دي جاما ، كان ربانا مسلما من كجرات بالهند (٢٩) ، تعرف عليه دي جاما في مالندي ، وذكرت تلك المصادر ان هذا الملاح هو : (معلم كانا Malem Cana) (٣٠) ، او (معلمو كاناكا Malemo Canaque) (٣٠) ، او (معلمو كاناكا Canaqe) او (كاناك Kanak) (٣١) ، وان هذا الربان هو الذي دل دي جاما ، واوصل سفنه الى ميناء قاليقوط

---

(٢٦) First Footsteps in East Africa or an Exploration of Harar, (London, 1856, p. M.

(٢٧) كراتشكوفسكي : نفس المرجع والصفحة ، انور عبد العليم : نفس المرجع ، ص ٢٦ .
Ferrand : Introduction a l'astronomie Arabe, PP.227-228,& Art. Shihab AL-Din Ahmad B.Madjid,P. 368.

(٢٨) Ferrand : Art. Shihab AL-Din, p. 368.

(٢٩) Barros : The Book of Duarte Barbosa, ed. M.Longworth Dames, Hakl. Soc., 1921, II, pp. 61f. Pearce (F.B.) : Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, 1967, p. 59.

(٣٠) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٦٩ ، شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٨٥ — ٨٦ ، انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ .
João da Barros : Decade Primeira de Asia (Thelittle ed. 1778), BK. IV., ch. VI, pp. 319f. Pearce: op. cit., p. 97.

(٣١) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٦٩ ، شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٨٦ ، الدو ميلي : العلم عند العرب ، واثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ومحمد يوسف موسى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٣٥ ، انور عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ابن ماجد الملاح ، ص ٤٨ ، ٤٩ .
Castanheda : Historia do descrobimento e Conquista da India Pelos Portuguezes, 1833, BK. I, p. 41. Damiao de Goes : Chronica do Serenissimo Rei D. Manuel, Coimbra, 1790, vol. I, ch. XXXVIII, p. 87, Ferrand : op. cit., 183f. Strandes : op. cit., p. 30, Ingrams (W.) : Zanzibar, its history and its People, (London, 1931) p. 97.

(٣٢) Kammerer : La Mer Rouge, p. 75.

الهندى . واستنادا على ذلك ، يكون الملاح هنديا وليس عربيا ، مما ينفى قيام احمد بن ماجد بهذه المهمة .

غير ان هـذه الالفاظ التى اطلقتها تلك المصادر على هـذا المـلاح ، تبـدو غامضة للوهلة الاولى ، فكلمة (معلمو Malemo) ، كلمة سواحلية ماخوذة من الاصـل العربى (معلـم) (٣٣) ، وهى تعنى (الاستاذ) . واستخدمت لدى ملاحى تلك الفترة بمعنى (الريس) او (الربان) (٣٤) .

امـا كلمـة (كانـا Cana) او (كاناكا Canaque او مترادفاتهما ، فيذكر المستشرق الفرنسى فـران (Ferrand) انهـا كلمات مسـتخدمة فى مليبـار وهـى ترجـع الى الاصل السنسكريتى (Ganaka) اى (الحاسب) او (المنجم) (٣٥) . وعلى ذلك يكون اصطلاح (معلمو كانا) او (كاناكا) بمعنى المـلاح او الربان المتمرس فى الملاحة الفلكيـة (٣٦) ، اى الـذى يسترشـد بالنجوم (٣٧) .

وربما تكون الكلمة ماخوذة من (جنـك Junk) وجمعها (جنـوك) ، وهـو الاسم الذى عرفت بـه المواكب الصـينية الضخمة (٣٧) . وعلى ذلك يكون المقصود ملاح او ربان الجنـك . وباعتبـار ان تلك المراكب من اضخم المراكب العاملة فى بحار الصين والهند ومياه جنوب الجزيرة العربية ، وشرق افريقية ، وان ربان تلك السفن من شانه ان يكون ذا خبرة كبيرة بالمياه الشرقية

---

(٣٣) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٦٩ ،

Ferrand : op. cit., pp. 182f, Le Pilote Arabe de Vasco da Gama, p. 292, n.2.

(٣٤) شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٨١ .

(٣٥) Ferrand : Art Shihab AL-Din (Ency. of Islam) vol. IV, p. 363.

(٣٦) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ٥٦٩ ـ ٥٧٠ ، الدو ميلي : العلم عند العرب ، ص ٥٣٢، انور عبد العليم: ابن ماجد الملاح ، ص ٤٩ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٢٧ .

Ferrand : Le Pilote Arabe de Vasco da Gama, p. 292, Kammerer : La Mer Rouge, p. 75.

(٣٧) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

(٣٨) الجنوك ، سفن كبيرة ضخمة ، ذات اربعة ظهور فيها البيوت (الغرف) والمصاري (غرف النوم) والغرف للتجار ، وهذا النوع من السفن مجهز باثنى عشر قلعا ، ونحو عشرين مجذافا كبيرا كالصوارى ، يجتمع على الواحد منها العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويجذفون بهاوقوفا صفين متقابلين ، وفى كل مجذاف حبلان عظيمان ، ويخدم المركب الواحد الف رجل ، منهم ستمائة من البحارة واربعمائة من المقاتلة (انظر ، ابن بطوطة : تحفة النظار ، القاهرة ١٩٢٨ ج ٢ ص ١١٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ـ ٦٢ ، درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٤ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

Kindermann (H.) : Schiff im Arabischen untersuchung Uber Vorkommen und bedeutung der Termini, Zwickau. i. sa. 1934, pp. 20f. Dozy (R.) :

Supplément Aux Dictionnaires Arabe, (Reproduction de l'Édition Originale De 1881) Beyrouth 1968, T. I, p. 225.

الى بلاد الصين (٣٩) . واذا كانت الجنوك صينية الصنع ، الا ان امتلاكها او العمل عليها ليس قاصرا على الصينيين (٤٠) .

وايا ما كان الامر ، فان ما اطلقته المصادر البرتغالية ليس اسما لملاح فاسكو دى جاما ، وانما صفة لمهنته او خبرته وتمريفا بها .

وقد اخذ كراتشكوفسكى بما ذهب اليه فران (Ferrand) من تفسير ما اطلقته

(٣٩) عرفت الجنوك الصينية طريقها ـ منذ زمن طويل ـ الى عدن وغيرها من موانىء منطقتي جنوب الجزيرة العربية وشرق الافريقية ، وشاركت غيرها من مراكب الهندوالسند وكرمان وفارس وعمان فى نقل السلع والبضائع من والى موانىء تلك المناطق (ابن الوردي : خريدة العجائبوفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ هـ ، ص ٥٦ ، ابو الفدا: تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ٧٨ ، الدمشقي :نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليزج ، ص ٢١٦) وكانت عدن تمثل حلقة الوصل ، ومركز التبادل التجاري بين بلدان الشرق ومصر عبر البحر الاحمر . ونشطت الحركة التجارية نتيجة اهتمام سلاطين اليمن بها ، مما كان لـه اعظم الاثر فى ازدهار حركة التجارة العالمية فى عدن والبحر الاحمر ، وقد استمر الامر على ذلك بصفة عامة حتى القرنالتاسع الهجري (١٥م) ، فمع بداية العقد الثالث من ذلك القرن تغيرت سياسة سلاطين اليمن ، وتعسفوا معالتجار ، واساؤوا معاملتهم ، واضطر القيمون فيها من التجار الى الفرار منها الى جدة والهند ومليبار ، تخلصامن تلك المظالم (با مخرمة : قلادة النحر فى وفيات اعيان الدهر ـ مخطوط بمكتبة بنى جامع بالاستانة رقم ٨٨ مصور بدار الكتب برقم ١٦٧ تاريخ ، ج ٢ ، ص ١١١٢ ، تاريخ ثغر عدن ، تحقيق اوسكار لوفغرين ، ليدن ١٩٣٦ ـ ١٩٥٠ ، ج ١ ص ١٢) ، وكان ذلك سببا لما قام به احد تجار الهند من التوجه رأسا ـ ولاول مرة ـ الى باب المندب سنة٨٢٥هـ /١٤٢٢ م لتحقيق التعامل المباشر مع جدة ، وبعد عدة محاولات ، تكللت جهـوده بالنجاح ، بعد اقتناع السلطان برسباي وترحيبه بهذه الفرصة التي سنحت له بالتعامل مباشرة مع تجار الشرق ، مما ادى الى انقطاعوصول المراكب الى عدن (بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٢ ص ١١٠٣ ، الفاسي : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ،القاهرة ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ٢١٠ ، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عاشور ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢ ، ج ٤ ص ٦٨١ ، ٧٠٧ ـ ٧٠٨ ، ابن شاهين الظاهري : كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولسراڤيس ، باريس ١٨٩٤ ، ص ١٤ ، ابراهيم علي طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول وتحولت السفن مباشرة الى جدة التى ازدهرت وارتفعمحاضرات الجمعية التاريخية ، ١٩٦٨ ، ١٨٧ ،

Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, p. 310, Wiet (G.) : Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV, (L'Egypte Arabe) Paris, 1937, pp. 573-576).

وتحولت السفن مباشرة الى جدة التى ازدهرت وارتفعتشأنها واصبحت بندرا عظيما ، واحتلت مكانة عدن التى تأثر مركزها التجاري ، وتدهورت احوالها ، اما بالنسبةللمراكب الصينية (الجنوك) فقد بعث ملك الصين سفارة الى سلطاناليمنالناصر احمد الرسولي سنة ٨٢٢ هـ/١٤٢٠م الناه بضرورة حسن معاملة التجارة (الخزرجي : العسجد المسبوك ـ مخطوط ـ ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦ ، ابن الديبع : قرة العيون فى اخبار اليمن الميمون ـ مخطوط ـ ورقة ١١١ ؟ ، بغية المستفيد فى اخبار زبيد ـ مخطوط ـ ص ٧٨ ، يحيىبن الحسين : غاية الاماني فى اخبار القطر اليماني ـ تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٥٦٥) وقد بلغ منضعف عدن انه لم يمكن تصريف حمولة سفينتين صينيتين سنة ٨٣٥ هـ/١٤٣٢م ، فاضطر ربانهما الى مراسلة ناظرجدة الذي اذن له فى الوصول (المقريزى : السلوك ، ج ٤ ص ٨٧٢ ـ ٨٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،طبع دار الكتب ، ج ١٤ ص ٣٦٢

De La Roncière (Ch.) : Le découverte de l' Afrique au Moyen Age, Le Caire, 1925-27, T.II, p. 118, Lewis (B.) : Egypt and Syria (The Cambridge History of Islam,) Camb. 1970, vol. I, p. 224).

ـ فكانت تلك هى المرة الاولى التي وصلت فيها الجنوكالصينية الى البحر الاحمر ، وبداية التعامل المباشر بين ميناء جدة واليمن .

(٤٠) ذكر ابن بطوطة « ان من اهل الصينمنيكون لهالمراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه ، الى البلاد » ثم اشار الى الجنوك الثلاث عشر التي كان يمتلكها صاحب قاليقوط،وكان وكيل احد هذه الجنوك رجل من اهل الشام يدعى سليمان الصفدي (تحفة النظار ، ج ٢ ص ١٢٧) كما اشارالى انه عندما اراد العودة من ميناء الزيتون بالصين الى الهند وجد جنكا « للملك الظاهر صاحب الجاوة ، اهلهمسلمون » (نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٧٢) .

المصادر البرتغالية ، من ان الملاح (مسلم من كجرات) ، ان ذلك لا يعنى جنسيته او موطنه ، وان المقصود هو خبراته البحرية ، النظرية والتطبيقية او العملية الكبيرة ، المتعلقة بصلته وارتباطه بالهند ، من حيث كثرة تردده عليها . أما عن تلقيبه بالكجراتي ، فربما لكون كجرات كانت مركزا لعملياته البحرية (٤١) . وكنتيجة لهذا التفسير ، فان هذه الخاصية تنطبق على احمد بن ماجد « رئيس علم البحر » علميا ، و « أسد البحر » عمليا في تلك الفترة . لذلك راى فران (Ferrand) أن ابن ماجد هو الذى ارشد دى جاما ، واوصله الى الهند ، ويدعم رايه ـ كما سبق أن ذكرنا ـ باعتماده على نص النهروالى ، الذى ذكر الاسم صراحة .

على انه من اجل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، او الاقتراب منها ، نرى ان ذلك يستوجب العودة الى نص النهروالى ، نتامله كله ، او الجزء الأخير منه على الأقل ، في محاولة للتعمق في فهمه وتحليله قدر الطاقة . فقد أشار هذا المؤلف الى المتاعب التى تعرض البرتغاليون لها ، ثم استطرد موضحا ومؤكدا عجزهم عن التوصل لمعرفة الطريق الى الهند ، وجهلهم اسرار الملاحة في هذه المياه ، وان الفضل انما يرجع الى الملاح العربى احمد بن ماجد فيما تحقق لهم من الوصول الى مواطن التوابل ، وقال ، :

« فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ـ وكان يقال له ، الى ملندى ـ وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق فى حال سكره . وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من سفنهم » .

ولا شك انه من الضرورى ـ قبل الخوض فيما حدده النهروالى عن ابن ماجد ـ تفسير او نقد بعض النقاط ، وتحديد مفاهيمها ، مما يساعد على توضيح النص والوصول الى المعنى الحقيقى او التقريبى الذى استهدفه المؤلف .

فقد حددت المصادر البرتغالية ـ كما سبق ان ذكرنا ـ ان فاسكو دى جاما تعرف على ملاحه في ميناء مالندى (٤٢) ، في حين لم يشر النهروالى الى مكان هذا اللقاء ، واطلق ـ في نفس الوقت ـ كلمة (الى ملندى على كبير الفرنج ، وهى كلمة تبدو غير عربية ، الا انها تشبه اسم المدينة ، مما قد يثير نوعا من الشك حول حقيقة هذه الكلمة عند النهروالى ، لاحتمال وقوع خلط عنده بين اسم المدينة واسم القائد او لقبه . الا انه يمكن القول بان المقصود فعلا بهذا التعريف هو (كبير الفرنج) دى جاما وليس المدينة ، فقد ذكر فران (Ferrand) أن كلمة (الى ملندى) أو (الاملندى) ما هى الا تحريف للفظ البرتغالى (الميرانتى (Almirante)) (٤٤) الذى يقابل في

---

(٤١) كراتشكوفسكي : نفس المرجع ، ص ٥٧٢ ،

Ferrand : Introduction a l'astronomie nautique arabe, p. 228, L'Element Persan dans les textes nautique arabes, p. 194.

(٤٢) انظر ما سبق .

(٤٣) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي ، ص ٥٧٠ ، ٥٧١ ، شوموفسكي : نفس الدراسة ، ص ٤٨٧ انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٥٠ ، ٥٢ ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص ١٢٨ .

Ferrand : Introduction a l'astronomie nautique Arabe, pp. 188f. Art. Shihab AL-Din Ahmad B. Madjid (ENCY, of Islam) vol. IV, p. 362.

الانجليزيـــــة (Admiral) (٤٤) ، اى اميرال او امير البحر . الا ان الاختلاف قد يبدو كبيرا بين كلمتى (الـى ملندى) و (الميرانتى) ، غير انه بالرجوع الى تاريخ كلوة ، المعروف باسم « السلوة فـى اخبار كلوة » نجد انه عنـدما تعرض لذكر اخبار وصول البرتغاليين الى ميناء مالنـدى ، يقول ، : « واسم ناخذاهم المرتى » (٤٥) ، وعلى ذلك يكون المقصود فعلا بهذه الاشارة هو القائد البرتغالى ، وكلمة (المرتى) وان بدت مختلفة ومحرفة عما ذكره النهروالى ، الا انها اقل تحريفا بالنسبة للفظ البرتغالى، وتتفق تحديدا ومعنى معه ، مما يدل على ان الكلمة لم يقصد بها اسم المدينة ، وانما كانت لقبا بحريا كان فاسكو دى جاما يحمله على ما يبدو .

اما ما ذكره النهروالي عن ابن ماجد ، وان كبير الفرنج « عاشره فى السكر » ، فانه وان كان معروفا ان كثيرا من البحارة ، قد درجوا — فى كل زمان ومكان — على شرب الخمر ، الا انه نظرا لما هو معروف عن تدين ابن ماجد ومتانة خلقه وعفته — وهو ما يظهر جليا فى مؤلفاته (٤٦) فان تهمـة تعاطى ابن ماجد الخمر لتكون مستبعدة ، اذ قد يكـون النهروالى قد وضعها لتبرير قيامه بتعريف البرتغاليين اسرار الطريق الى الهند (٤٧). كما انه لا يعقل ان يتولى ابن ماجد قيادة الاسطول البرتغالى ، وهو فى حالـة سكر مستمرة ، قرابة شهر من الزمان ، وهى الفترة التى استغرقتها الرحلة مـن مالندى الى قاليقوط (٤٨) .

وفيما يتعلق بما ورد فى النص ، مـن ان ابن ماجد « دلهم » الى معرفة هذا البحر ، بعد ان « صاحبه كبير الفرنج » ، فان كلمة (دل) هنا ، لا تعنى قيادة سفنهم ، بل هى بمعنى (اشار عليهم) او (وضح لهم) ما كان مستغلقا عليهم . اما كلمة « صاحبه » ، فهى بمعنى (قربه) واظهر المودة نحوه ، وعمـل على اكتساب صداقته .

وان نظرة الى النص ، لكافية لتأييد هذا التفسير ، فكلمـة « صاحبـه » وضحهـا النهروالـى ذلك بكلمـة « عاشره » ، امـا كلمة دله او « دلهم » ، فجعلها بمعنى « علمه» او علمهم . يؤكد هذا التفسير ويدعمه مـا اورده المؤلف نفسه عندما حصر عمل ابن ماجد فى القول دون القيادة ، وهو ما يتضح من قوله « ان ابن ماجـد : « قال لهم ، لا تقربوا الساحل ... وتوغلوا فى البحر ، ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من سفنهم » .

وبهذا يتحدد ان ما قـام به ابن ماجـد — طبقا لنص النهروالى — ينحصر فى تعليم البرتغاليين الطريق قـولا ووصفا ، وليـس عملا وقيادة ، اى ان الامر لم يتعد مجـرد اسداء النصح وتقديم المشورة ، وامدادهم بالمعلومات التي من شانهـا تسهيل مهمـة الوصول الى الهند .

---

(٤٤) Lamb (N.J.) : Collins Pörtuguese Gem Dictionary., 1974.

(٤٥) Strong : The History of Kilwa, pp. 396, 398, 427, 428.

(٤٦) انظر ، احمد بن ماجد : ثلاث ازهار ، ص١٨ ، ٥٢ ، ٦٨ ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٥٢ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٣٢ .

(٤٧) كراتشكوفسكى : تاريخ الادب الجغرافي ، ص ٥٧١ ، Ferrand : Art. Shihab AL-Din ,p. 362

(٤٨) شوموفسكى : الدراسة التاريخية ، ص ٨٦ .

وبهذه المناسبة ، فانه لا بأس من وقفة عند موضوع السكر مرة اخرى ، اذ لو صح ما اشار اليه النهروالي في هذا الصدد ، لكان دليلا على رفض ابن ماجد التصريح بسر الطريق ، وانه لم يبح به الا بعد ان اجبره دي جاما على شرب الخمر ، او انه استطاع ـ عندما قدمها له ـ اقناعه بانه ما هو الا شراب وطني مفيد ، فشربه ابن ماجد دون ان يدرك حقيقته ، ربما لان مذاقه لم يثر الشك في نفسه (٤٩) . فلما لعبت الخمر براسه وفقد سيطرته ، اصبح من السهل على فاسكو دى جاما انتزاع السر منه .

واذا كان ابن ماجد قد اشار الى الافرنج (البرتغاليين) في مؤلفاته ، وبالتحديد في « الارجوزة السفالية » (٥٠) الا انه لم يضمنها ما يمكن الاستناد اليه ، او الحكم بموجبه بانه هو الملاح الذى قاد الاسطول البرتغالى ، او حتى مجرد الاتصال بفاسكو دي جاما . الا انه ليس من المستبعد ان يكون قد قام بزيارة للاسطول البرتغالى في ميناء مالندى ، لسبب او اكثر مما يلى : ـ

١ ـ قد تكون الزيارة استجابة لدعوة دى جاما ، الذى عمل خلال تلك الرحلة على توطيد اواصر الصداقة مع الوطنيين ، او اطقم السفن التى يجدها في الموانى التى يرسو باسطوله فيها ، فكان يدعو سلاطين او حكام تلك الموانى ، واطقم السفن الراسية فيها ، فيحتفى بهم ويكرمهم (٥١) ، ويعمل على التقرب اليهم ـ وهى سياسة سار البرتغاليون عليها خلال تلك المرحلة ـ من اجل ادخال الطمأنينة في نفوس من يتعامل معهم في تلك المناطق ، واكتساب ثقتهم وضمان عدم التعرض لمقاومتهم ، مما يساعد على تسهيل مهمته .

٢ ـ او ان الزيارة كانت مجاملة من ابن ماجد لصديقه ملك مالندى الذى رحب بالبرتغاليين (٥٢) خوفا أو ضعفا (٥٣) ، او ان ملك مالندي كان يهدف الى توطيد العلاقات معهم ، لامكان الاستفادة منهم ضد عدوه ملك منبسة . ولهذا طلب من دى جاما المرور بمالندى عند عودته من رحلة الهند (٥٤) ليبعث معه وفدا رسميا الى ملك البرتغال للتحالف معه (٥٥) ولهذا كان على

---

(٤٩) اشارت سونيا هاو ، الى ان دي جاما كان قداستضاف عند وصوله الى موزمبيق بعض بحارة اطقم السفن التى كانت راسية في الميناء ، ودعاهم الى مادبة على ظهراحدى سفنه ، وقدم لهم « اجود الانبذة التى اقبل الضيوف عليها باستحسان » (في طلب التوابل ، ص ١٩٣) مما يدل على ان مذاقها لم يكن مالوفا لديهم ، او انه كان مقبولا مما يبرر ما قد يكون من اقبال ابن ماجد عليها ـ اذا كان ذلك قد حدث فعلا بدون ان يشك في امرها .

(٥٠) احمد بن ماجد : ثلاث ازهار ، ص ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٩٦ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٥١) سونيا هاو : في طلب التوابل ، ص ١٩٢ ـ ١٩٤ .

(٥٢) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

(٥٣) The History of Kilwa, pp. 397, 428.

(٥٤) Strandes : The Portuguese Period in east Africa, pp. 30, 32.

(٥٥) جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، ص ٢٠٩ . (وقيل بانه عندما عاد دى جاما من رحلة الهند الى مالندي ، طلب منه ملكها السماح لاثنين من المرشدين بمرافقته الى البرتغال لاتاحة الفرصة لهما لدراسة الشاطئ وملاحظة معالمه ، ليتمكنا من مساعدة من يأتي من البرتغاليين بعده ، فاستجاب له دى جاما) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٠٣ (ذلك ان الصداقة كانت قد توطدت بين القائد البرتغالي وملك مالندي ، وكان من بين الهدايا التى اهداها ملك مالندي كتلة من العنبر الثمين ، طولها اكثر من متر » وعرضها كعرض خاصرة الرجل لايمانويل دى جاما الهدايا معه ، وقدم له عشرة صناديق ، وهي معظم السلع والهدايا التى كان قد اعدها قبيل رحلة الطواف حول طريق راس الرجاء الصالح ، ولم يكن قد تصرف فيها) سونيا هاو : نفس المرجع والصفحة .

ابن ماجد ان يجامل ملك مالندى ، ويستجيب له في الاتصال بالقائد البرتغالي .

٣ — او كانت مقابلة ابن ماجد لدى جاما، بتكليف من ملك مالندى او استجابة لرجائه من اجل تخليص احد اقرباء ذلك الملك ، الذي كان دي جاما قد اختطفه واحتجزه رهينة الى ان يدبر له الملك من يمده بالمعلومات التي تساعده على الوصول الى الهند (٥٦) .

٤ — او انه وافق على الاجتماع بفاسكو دى جاما — كما يقول شوموفسكى نقلا عن فران (Ferrand) وقبل التعاون مع البرتغاليين نظير مكافأة مجزية (٥٧) بالاضافة الى حرصه على ارضاء ملك مالندى من اجل ضمان استمرار العلاقات الطيبة معه (٥٨) . الا انه يمكن الرد على موضوع الاجر — على ضوء ما تقدم — بأنه يتعلق بالملاح الذى توجه فعلا مع البرتغاليين الى قاليقوط .

وايا ما كان سبب تلك الزيارة ، فلا شك ان حديثا دار — عن طريق مترجم برتغالى ممن يجيدون العربية — بين القائد البرتغالى وابن ماجد حول الالات الملاحية التى كان البرتغاليون يستخدمونها ، او تلك التى كانت مستعملة في البحار الشرقية ، وان الحديث تطرق بالضرورة الى الموضوع الاساسى وهو كيفية الوصول الى الهند ، « فعلمه الطريق » « وقال لهم » : لا تقربوا الساحل ... وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من سفنهم » . وبهذا تنتهى مهمة ابن ماجد عند حد تقديم المعلومات القيمة لفاسكو دى جاما .

واذا كنا قد توصلنا بعد هذه الدراسة التحليلية ، الى هذه النتيجة الجديدة ، فانه تبقى لدينا نقطتان ينبغى استيفاؤهما :

أولاهما : — لماذا اقتصر ابن ماجد على تقديم المشورة لفاسكو دى جاما ؟ ، وما هى اسباب عدم قيامه بقيادة الاسطول البرتغالى الى الهند بنفسه ؟ .

وثانيتهما : — من هو الملاح الذى استعان به القائد البرتغالى ، وتولى القيام بهذه المهمة ؟ .

فيما يتعلق بالنقطة الاولى ، فانه يمكن القول بان ابن ماجد كان موجودا في مالندى وقت وصول البرتغاليين اليها ، او انه جاءها اثناء تواجدهم في مينائها . ومن ناحية اخرى فانه اذا كان قد وصلها باعتباره مرشدا لبعض السفن التجارية ، فمن المعروف ان قواعد واصول الملاحة تقضى بمسئولية الربان الكاملة على سفينته وحمولتها ، بالاضافة الى ضرورة المحافظة على ارواح طاقمها وركابها، وضمان وصول كل ذلك بسلام الى الميناء المقصود ، كما ان الربان هو آخر من يتخلى عن سفينته ، ومن اهم واجباته الا يتركها حتى الرمق الاخير (٥٩) . قال بزرك ابن شهريار ، : « نحن الملاحين نصعد على

---

(٥٦) انظر ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٥٢ .

Strandes : op. cit., p. 30.

(٥٧) Ferrand : Art. Shihab AL-Din B. Madjid, p. 362.

(٥٨) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ، ص ١٠، هامش ١٥ .

Strandes : op. cit., p. 30.

(٥٩) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ، ص ٧٩ ، انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار ، ص ٢١٦ — ٢١٧ .

ظهر السفينة ، وبهذا ترتبط بها حياتنا ومصيرنا فاذا نجت السفينة نجونا ، واذا هلكت هلكنا معها » (٦٠) . والمعلم (اى المسئول عن قيادة السفينة ، او الربان) هو كالامام ، ولا يمكنه اينما كان ، ان يحصل على اذن بترك السفينة (٦١) .

وهكذا فان تخلى ابن ماجد عن سفينته وترك قيادتها ، وانتقاله لقيادة الاسطول البرتغالي لما يتنافى مع قواعد واصول الملاحة .

اما اذا كان تواجد ابن ماجد في مالندى بغير سفن ، فقد يكون نازلا في ذلك الوقت ضيفا على صديقه ملك مالندى ، ومن المحتمل في تلك الحالة ان يكون قد اعتزل الارشاد ، ولهذا فان قراره بعدم قبول القيام بالسفر مع البرتغاليين وقيادة سفنهم ، قد يرجع الى انه اكتشف انهم مسيحيون ، وانه شك في نواياهم ـ لانهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد اطلعوا عن اهدافهم ـ ولهذا كان من السهل عليه الاعتذار بكبر سنه وعدم قدرته على القيام بهذا العمل ، لانه كان قد تجاوز الستين من عمره (٦٢) .

اما بالنسبة للنقطة الثانية والاخيرة في هذا المجال ، والمتعلقة بالملاح الذى شارك فاسكو دى جاما رحلته الاولى الى الهند ، فربما كان احد مساعدى ابن ماجد ، او غيره ممن تصادف وجوده في مالندى ، وانه اضطر الى تقديمه او ترشيحه ليتولى القيام بدله بتلك المهمة من اجل التخلص من البرتغاليين الذين لا بد وانهم اصروا على الاستعانة به شخصيا ، ولا شك انه اختلق المعاذير حتى قبلوا البديل ، مكتفين من ابن ماجد بما اسداه لهم من معلومات اساسية ، سهلت لهم عملية متابعة ما قام به ذلك الملاح الذى انتهت مهمته الملاحية بالوصول بهم الى الساحل الغربي للهند عند قاليقوط .

ويبدو أن ذلك الملاح لم يكن على درجة كبيرة من الكفاءة ، أو لم يكن متمرسا في الملاحة بين شرق افريقية وقاليقوط مباشرة ، وان اعتماد البرتغاليين كان مركزا على المعلومات التى امدهم بها ابن ماجد . يؤيد ذلك ما ذكرته المصادر البرتغالية من ان ملاح مالندى قال ـ عندما اشرفت السفن البرتغالية على الساحل الهندى عند قاليقوط ـ : « لو ان فنى لا يخدعنى ، امامنا ذى دولة قاليقوط » (٦٣) ، وهى عبارة محاطة بظلال من الشك وعدم التاكد ، لا يعقل ان تصدر من مثل ابن ماجد الذى كان رائد عصره في الملاحة عملا ، وصاحب اشمل واكمل موسوعة ملاحية ، اعتمد في تاليفها على خبراته الشخصية العملية بصفة خاصة .

ومما يدل على ان ملاح فاسكو دى جاما لم يكن عربيا ، ما ورد صريحا فى المصادر البرتغالية التى شارت الى زيادة للاسطول البرتغالي بميناء مالندى ، قام بها جماعة من التجار الهندوس ومعهم احد مسلمى كجرات ، اطلقت تلك المصادر عليه اسم

---

(٦٠) كتاب عجائب الهند بره ، وبحره ، وجزائره ،نشر النص العربي P. A. Vandder Lith وترجمه الفرنسية L.'Marcel Devic, Leyde, 1883-1886, p.

(٦١) Ferrand : Introdution a l'astronomie nautique Arabe, pp. 182-183.

(٦٢) انظر ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ،ص ١٧ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٤١ .

(٦٣) انظر ، شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية، ص ١٤٠ هامش ٤٩ .

(معلمو كانا Malemo Cana) (٦٤) أو (معلمو كاناكا Malemo Canaque)

وقد وجد دى جاما فى ذلك الرجل بغيته ، فاتفق معه على قيادة الاسطول وارشاده الى الهند . ومما يذكر ان هذا الملاح اخبر القائد البرتغالى بان بحارة كمباى ــ شأنهم فى ذلك شأن جميع بحارة الهند ــ يسترشدون بالنجوم فى رحلاتهم البحرية (٦٦) ومن الملاحظ أن الحديث لم يتطرق الى الملاحين العرب ، واقتصر على أخبار الملاحة عند الهنود . ولو كان ذلك المرشد عربيا لتضمن حديثه ــ الذى نقلته تلك المصادر ــ ما يدل على ذلك .

وعلى الرغم من اعتراف المستشرق الفرنسى فران Ferrand بانه ليس للمصادر البرتغالية مصلحة فى اخفاء حقيقة امر ذلك الملاح ، الا انه يعجب فى نفس الوقت لكون ما وردته يناقض ما يعتقده ، استنادا لتفسيره لنص النهروالى من ان الملاح الذى قاد البرتغاليين هو الملاح العربى احمد بن ماجد وليس ملاح كجرات المسلم معلمو كانا (Cana)أو(Canaque) (٦٧) .

ويعتمد شوموفسكى على ما توصل اليه فران Ferrand ويزيد عليه باتهام المصادر البرتغالية بالجهل لنسبتها الملاح الى اصل هندى (٦٨) .

على انه يمكن القول بان فران Ferrand ومن حذا حذوه ، كانوا متأثرين بدوافع سياسية كشف شوموفسكى نفسه عن جانب منها عندما تطرق الى اسباب الاهتمام بموضوع الملاحة فى المحيط الهندى ، ففى دراسته التاريخية التى الحقها بتحقيقه لكتاب « ثلاث ازهار فى معرفة البحار » لابن ماجد والتى انتهى من تجهيزها سنة ١٩٤٧ اي عقب الحرب العالمية الثانية ، حيث قال ، : « وقلما راودنا حتى الان التفكير فى هذا الجانب من الثقافة العربية ، فالمحيط الهندى بعيد عنا ، ولم يكن لنا به اهتمام مطلقا ، وغالبا ما كانت صوره التى وصلت الينا قائمة على أساس متزن من البحث العلمى ، احتجبت فيه العناصر الشاعرية » . ويستطرد شوموفسكى متهما الفرنسيين بقوله ، : « وقد اخذ المبادرة منا فران Ferrand وزملاؤه من العلماء الممثلين للامبراطورية الفرنسية ، والذين ساعدوا على تغلغل نفوذها الى الشرق . وطمنا يحركه فرض نبيل نحو شعوب الشرق ، ويجب ان نسمع صوته ، ونملى كلمته فى مجال ادب الملاحة العربية » (٦٩) .

ويلقى هؤلاء التبعة على ابن ماجد ، ويتخذ شوموفسكى مما ذكره ابن ماجد من اشارات لاخبار البرتغاليين فى « الارجوزة السفالية » دليلا على صحة تفسير فران Ferrand لنص النهروالى من ان ابن ماجد هو الذى تولى مهمة ارشاد البرتغاليين ، الذين يعتبر ذكره لهم فى تلك الارجوزة من باب « تأنيب ضميه المر لما شاهده من سياسة البرتغاليين » (٧٠) ذلك أن الوجود البرتغالى اثار فيه

---

(٦٤) Joao da Barros : op. cit. pp. 319f.

(٦٥) Castanheda : op. cit., p. 41, Damiao de Goes : op. cit., p. 87.

(٦٦) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ، ص٨٥ ، Joao da Barros : op. cit., pp. 319

(٦٧) Ferrand : Art. Shihab AL-Din, pp. 362f.

(٦٨) شوموفسكي : نفس الدراسة التاريخية ، ص٧٨ .

(٦٩) نفس الدراسة التاريخية ، ص ٧٦ ــ ٧٧ .

شعورا بالمرارة (٧١) ، لان ما حدث ادى الى فتح باب الاستعمار على مصراعيه ، وكان « بداية الاستعباد الاستعمارى لشعوب الشرق » (٧٢) .

الا انه على ضوء ما سبق من تفسيرنا الجديد لنص النهروالى ، اتضح ان فران Ferrand ومن اخذ عنه ، قد حملوا هذا النص فوق طاقته بكثير . كما رفضوا ماأوردته المصادر البرتغالية دون الاستناد الى ادلة قاطعة او مقنعة لتبرير هذا الرفض . اذ ليس من المقبول شكلا او موضوعا ان يصل الشك في تلك المصادر ، دون سند ، الى هذا الحد . ذلك ان تلك المكاتبات كانت في حقيقتها تسجيلا لوقائع ، ولهذا كانت بمثابة المرشد والمعين للرحلات التالية ، ولو كانت تتضمن اخبارا او معلومات خاطئة لحدث مالا يحمد عقباه ، ولمنيت الكشوف البرتغالية ـ في المياه الهندية ـ بانتكاسات شديدة ، لاعتمادها على معلومات غير صحيحة ، ولكن الوقائع تثبت ان كل رحلة استفادت من التجارب والخبرات السابقة لها ، وان كل قائد بنى على ما اسسه سابقوه ، مما يدل على صحة معلومات تلك المصادر .

وفيما يتعلق بالملاحين الذين استعان البرتغاليون بهم ، فقد وردت بشأنهم اشارات متفرقة ، ذلك انه كلما تقدم البرتغاليون الى منطقة جديدة في المياه الشرقية ، كان رائدهم البحث عن ملاح خبير بها ، وركزت المدونات البرتغالية على ذكر جنسية الملاحين في اغلب الاحيان ، وقلما ذكرت اسمه ، كما حرصت على صحة تلك المعلومات ، ونعرض ـ فيما يلى ـ لبعض الامثلة المؤيدة لذلك : ـ

فبعد نجاح دى جاما في الدوران حول افريقية ، عثر على الملاح الهندى (داقان) (٧٣) بالقرب من موزمبيق ، ولم تتحرج المصادر البرتغالية من التصريح بما كان معتقدا في بداية الامر ، من ان الملاح مغربي (أى عربي) ثم تبينوا انه هندى من كمباى ، فاشاروا الى ذلك وذكروا اسمه .

وفي موزمبيق ، امدهم سلطان الجزيرة بمرشد اوصلهم الى مالندى (٧٤) ، ولم تشر تلك المصادر الى اسمه او جنسيته .

وعندما وصل بدرو الفاريز كبرال Pedro Alvarez Cabral الى موزمبيق سنة ١٥٠٠ م حصل على مرشد للاستعانة به في الوصول الى مالندى ، لم تشر المصادر البرتغالية الى اسمه او جنسيته ، في حين ذكرت انه حصل في مالندى على اثنين من المرشدين من اهل كجرات ـ لم تذكر اسمها ـ وذلك لارشاد اسطوله الى قاليقوط (٧٥) .

وعندما هاجم دالبوكيرك d'Albuquerque جزيرة سقطره سنة ١٥٠٧ ، ذكرت تلك المصادر انه امسك ملاحا عربيا من هرمز اسمه عمر ، واستولى منه على خريطة

---

(٧٠) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٧١) المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٧٢) المرجع السابق ، ص ٩ ، وانظر ، جورج فاضلو حورانى : نفس المرجع ، ص ٢٣٧ .

(٧٣) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٩٢ ـ ١٩٢ .

(٧٤) المرجع السابق ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

(٧٥) انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٥ ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٢٢ ،
Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p. 92.

ملاحية هامة ، من تصميمه ، لشواطيء جنوب الجزيرة العربية والخليج (٧٦)

وعندما وصل دالبوكيرك الى جزائر ملوك ، استعان بواحد من تجار جاوه ، لم تذكر المصادر اسمه ، ليعلم البرتغاليين طريقةالتعامل مع اهالي هذه الجزر (٧٧)

وفي سنة ١٥١٣ استعان دالبوكيرك بمرشد هندي ـ كان قد اسره من ميناء شول ـ لم تذكر المصادر اسمه ، وقد تولى ذلك الملاح مهمة ارشاده من جزيرة سقطره الى عدن (٧٨)

وعندما أراد دالبوكيرك اكتشاف الخليج الفارسي سنة ١٥١٤ ، استعان بمرشدين من هرمز ، لم تذكر المصادر اسماءهم (٧٩)

اما الملاح الذى قاد دالبوكيرك عبر المحيط في طريق عودته من الهند الى موزمبيق ، فكان عربيا ولم تشر تلك المصادر الى اسمه (٨٠).

ولما توجه لوبو سواريز Lopo Scares في حملته على البحر الاحمر سنة ١٥١٧ ، وكان قد تمكن من توطيد علاقاته بالامير مرجان الظافرى ـ حاكم عدن من قبل السلطان الطاهرى الظافر عامر الثاني ـ ابدى هذا الحاكم استعداده لارضاء البرتغاليين وتلبية رغباتهم ، حتى أنه عرض مفاتيح البلد على القائد البرتغالي . ولكن ذلك القائد كان قد ركز اهتمامه وفتنه على تحقيق مفاجأة الاسطول المصرى في مياه جده ، ولذلك اكتفى بطلب مرشدين لقيادة اسطوله في البحر الاحمر فبادر حاكم عدن على الفور بالاستجابة اليه وتلبية طلبه ، وامده باربعة من اكفا المرشدين (٨١)، لم تذكر المصادر البرتغالية جنسياتهم او اسماءهم ، أما المصادر اليمنية ، فانها وان لم تحدد عددهم او اسماءهم ، الا انها ذكرت انهم من اهل الشام ، وان الامير مرجان سلمهم للبرتغاليين ، واكرههم على العمل في الاسطول البرتغالي بالقوة « كفاية لشر الفرنج (البرتغاليين) » (٨٢)

وهكذا يتضح من تلك الامثلة ، ان تركيز المصادر البرتغالية ، كان منصبا ـ فيما يتعلق بالمرشدين الذين استعان البرتغاليون بهم ـ على ذكر جنسياتهم اكثر من الاهتمام بأمر اسمائهم .

وعلى ذلك يمكن الاخذ بما ذكرته المصادر البرتغالية ، من ان ملاح فاسكو دى جاما كان ملاحا هنديا ، خاصة وان تلك المصادر لم تكتف بنسبته الى الهند بصفة عامة ، اذ لو حدث ذلك ، فربما كان في ذلك نظر ، الا ان

(٧٦) انظر ، انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٥٧، الملاحة وعلوم البحار ، ص ١٣٦ ، Kammerer : op. cit., p. 82.

(٧٧) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٢٠ .

(٧٨) Kammerer : op. cit., p. 185.

(٧٩) Danvers : The Portuguere in India, being a history of the rise and decline of their Eastern Empire, London 1894, vol. I, pp. 303f, Kammerer : op. cit., p. 206.

(٨٠) Kammerer : op. cit., p. 105.

(٨١) Kammerer : op. cit., pp. 266f.

(٨٢) با مخرمة : قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر ، مخطوط رقم ٨٨ بمكتبة يني جامع بالاستانة ، مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٧ ، لوحة ١٢٠٥ .

الامر لم يقتصر على ذلك ، او على انمن كجرات ، بل بالتحديد من احدى مدنها وهي كامبي (٨٣) ، مما يدل على الدقة ، خاصة وان الذين انيط بهم مهمة تسجيل تلك الاحداث انما دونوا ما شاهدوه دون أن يكون لهم حق الحذف او الاضافة او التغيير او التبديل ، حتى اذا ما اتضح خطأ ما دونوه ، لم يحذفوه ، وعادوا الى ذكر ما تبين لهم صحته طبقا للواقع .

اما فيما يتعلق بما اطلقته المصادر البرتغالية ، من ان ذلك الملاح هو (معلمو كانا) او (معلمو كاناكا Malemo Canaqua) ، وان ذلك ليس اسما له ، فيبدو ان البرتغاليين اكتفوا بتعريف الملاح بصفته ، باعتباره خبيرا بالملاحة الفلكية ، وهو ما استلفت انظارهم باعتبار ذلك اسلوبا جديدا عليهم ، مما جعلهم يهتمون باطلاق هذا المصطلح ، الذي اصبح علما عليه، وبذلك لم يعد اسمه يشكل لديهم اهمية تذكر ، اذا ما قورن بصفته كملاح يستخدم النجوم في العمليات الملاحية .

ونخلص من ذلك كله الى التوفيق بين الروايات ، واثبات صحة ما اوردته المصادر ، عربية كانت أم برتغالية .

فطبقا لرواية النهروالي ينحصر دور ابن ماجد في اسداء النصح وتقديم المشورة للقائد البرتغالي فاسكو دى جاما ، وامداده بالمعلومات التي تساعد على سلامة سفنه ، وتعليمه الطريق قولا ووصفا ، وليس عملا وقيادة .

اما الملاح الذى قام بمهمة ارشاد الاسطول البرتغالي الى الهند ، فهو ذلك الملاح المسلم الذى اشارت اليه المصادر البرتغالية ، وذكرت انه من مدينة كمباى باقليم كجرات بالهند ، وان اغفلت تلك المصادر اسمه ، اكتفاء بصفته كملاح متمرس في الملاحة الفلكية .

* * *

(٨٣) Strandes : The Portuguese Period in East Africa, p. 30.

المصادر والمراجع :

اولا : العربية

ابراهيم علي طرخان (دكتور) : مصر في عصر المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ .

احمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٦١ .
ايضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري ، محاضرات الجمعية التاريخية المصرية ١٩٦٨ .

احمد بن ماجد : ثلاث ازهار في معرفة البحار تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي ، ترجمة وتعليق د. محمد منير مرسي ، القاهرة ١٩٦٩ .

احمد مختار العبادي (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ١٩٦٨ .

تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، بالاشتراك مع الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ، ١٩٧٢ .

الدو ميلي : العلم عند العرب ، واثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ومحمد يوسف موسى ، القاهرة ١٩٦٢ .

انور عبد العليم (دكتور) : ابن ماجد الملاح ، سلسلة اعلام العرب ، العدد ٦٣ ، مارس ١٩٦٧ .

الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣ يناير ١٩٧٩ .

بانيكار : اسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦٢ .

بزرك بن شهريار : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره نشر النص العربي وترجمة الى الفرنسية ، ليدن ، ١٨٨٣ - ١٨٨٦ .

ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، القاهرة ١٩٢٨ .

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة القاهرة .

جمال زكريا قاسم (دكتور) : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ١٩٧٥ .

جورج فاضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة د. يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ .

جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، ترجمة يوسف كمال ، الطبعة الاولى ١٩٢٧ .

الخزرجي : العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط رقم ١٢٦٥ ب بمكتبة بلدية الاسكندرية .

درويش النخيلي (دكتور) : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، طبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٤ .

الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣ .

ابن الديبع : قرة العيون في اخبار اليمن الميمون ، مخطوط رقم ١٢٥٥ تاريخ بدار الكتب المصرية .

السلاوي : الاستقصاء لاخبار المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

سونيا هاو : في طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت ومراجعة د. محمود النحاس ، الالف كتاب ، رقم ٩٨

شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة د. احمد عزت عبد الكريم ود . توفيق اسكندر ، ١٩٤٨ .
ابن شاهين الظاهري : كتاب كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ .

الشيلي اليمني : السنا الباهر بتكميل النور السافر في اخبار القرن العاشر ، مخطوط رقم ٢٠٢٢ تاريخ تيمور .
الفاسي : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ، القاهرة ١٩٥٦ .

ابو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ .

كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٥ .

محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٥٠ .

بامخرمة : قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر مخطوط بمكتبة يني جامع بالاستانة رقم ٨٨ ، مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٦٧ تاريخ .

تاريخ ثغر عدن ، تحقيق اوسكار لوفقرين ، ليدن ١٩٣٦ .
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ .
النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، الرياض، اشراف حمد الجاسر ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ .
ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ هـ .
يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ .

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية : ـ

Barros : The Book of Duarte Barbosa, ed. M. Longworth Dames, Hakl. Soc., 1921.
Castanheda : Historia do descrobimento e Conquist da India Portugues, 1883, BK. I.
Damiao de Goes : Chronica do Serenissimo Rei D. Manuel, Coimbral, 1970, vol. I.
Danvers : The Portuguese in India being a history of the rise and decline of their Eastern Empire, London, 1894.
De la Roncière (Ch.) : Le découverte de l'Afrique au Moyan Age, Le Caire, 1925-27.
Dozy (R.) : Supplement Aux Dictionnaires Arabes, (Reproduction de l'Édition Originale De 1881), Beyrouth 1968.
Ferrand : Introduction à l'astronomie nautique Arabe, Paris, 1928.
—Le Pilote Arabe de Vasco de Gama et les instructions nautiques des arabes au XVe siécle, Annales de géographie, Paris, 1922.
—Shihab AL-Din Ahmad B. Madjid (ENC. of Isl.)
—L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes des XVe et XVIe siécles (J.A.) vol. 204, 1924.
Ingham (Kenneth) : A History of East Africa, ed. Longman.
Ingrams (W.) : Zanzibar, its history and its People, London, 1931.
Joao da Barros : Decada Primeira de Asia (The little ed. 1778), BK. IV, Ch. VI.
Kammerer : La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis L'antiquité, Essai d'hist. et géogr. hist., 1929-1935.
Kindermann (H.) : Schiff im Arabischen untersuchung Über Vorkommen und bedeutung der Termini, Zwickau, i. sa, 1934.
Lamb (N.J.) : Collins Portuguese Gem Dictionary, 1974.
Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.
Lewis (B.) : Egypt and Syria (The Cambridge Hist. of Islam) Camb. 1970.
Macro (E.) Yemen and the Western World Since 1571, London, 1968.
Pearce (F.B.) : Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, 1967.
Richard F. Burton : First Footsteps in East Africa or an Exploration of Harar, London, 1856.
Serjeant (R.B.) : The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford 1963.
Stevenson : The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.
Strandes (J.) : The Portuguese Period in East Africa, trans. by Wallwork, Nairobi, 1961.
Strong (Arthur) : The History of Kilwa, ed. from an Arabic MS. (J.R.A.S.), London, 1895.
Wiet (G.) : Hisoire de la Nation Egyptienne, T. II, (L'Egypte Arabe), Paris, 1937.

صدر حديثاً

سياسة وسائل الاتصال *

عرض وتحليل : د. محمود ابوزيد

يتميز العصر الحديث بسيطرة وسائل الاتصال على الانسان ، وخضوعه بشكل يكاد يكون لا شعوريا لتأثيراتها المختلفة .

ولما كانت عملية الاتصال هي العملية التي تتم بها ومن خلالها التغييرات السياسية والاجتماعية والحضارية المتعددة ، مما يجعلها ميدانا لتنازع القوى المسيطرة التي تسعى الى توجيهها الوجهة التي تخدم مصالحها واغراضها ، فقد اتجهت جهود الباحثين والعلماء الى دراسة العملية الاتصالية والكشف عن تأثيراتها والوقوف على طبيعة العلاقات والروابط التي تقوم بين أطرافها .

والكتاب الذي نحن **بصدد عرضه واحد من الكتب** التي تتخذ **من مجال الاتصال موضوعا للبحث ، وتجعل من سياسة الاتصال في** المملكة المتحدة **موضوعا للدراسة** فيناقش المؤلف الدور المتعاظم الذي يقوم به الاتصال في بريطانيا ، ويبحث في طبيعة القوى والمؤثرات التي تتحكم فيه وتسيطر عليه ، وتحدد له اتجاهاته ومضامينه ، وبالتالي يكشف عن مظاهر الصراع بين هذه القوى وهي تحاول أن تفرض نفسها وتحدث ما تريده من تغييرات .

ويعتبر الكتاب حصيلة معرفة أكاديمية واسعة ، وخبرة عملية طويلة . فمؤلفه « جون وال » تعلم في ونشستر وفي كلية كوربس كريستي Corpus Christi بجامعة اكسفورد . وعمل في عام ١٩٥٨ مذيعا بالقسم الانجليزي في الاذاعة الفرنسية ثم اشتغل في الفترة من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٦٦ صحفيا بقسم الاخبار بالتلفزيون ، قضى منها اربعة اعوام كمراسل سياسي ، وعامين آخرين مراسلا من واشنطن . ومنذ هذا التاريخ وهو يتمتع بشهرة مرموقة كمعلق في **الصنداي تايمز** Sunday Times

* Whale, John :. The Politics of the Media, Fontan, 1977

حيث وضح لديه اهتمام خاص بالسياسة البريطانية والايرلندية وبقضايا الدين والاتصال . وله مؤلفان فى هذا المجال التخصص هما :

ـ العين تصف المغمضة (السياسة والتلفزيون فى بريطانيا وامريكا)

ـ الحكومة والصحافة .

ويقع الكتاب فى ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط ، منها ١٦٨ صفحة خصصها المؤلف للمتن وثمانى صفحات للتعليقات والتذييلات . وينقسم الكتاب بوجه عام الى مدخل قصير من صفحتين اثنتين ، وثلاثة أقسام تضم تسعة فصول يعالج فيها المؤلف العديد من القضايا والموضوعات ذات الدلالة ، والتى لها اهميتها النظرية والعملية على السواء .

ففى القسم الاول من الكتاب ، الذى يشتمل على ثلاثة فصول ، يعرض المؤلف لابعاد مشكلة الاتصال فى المملكة المتحدة ، والتطورات التى لحقت بهذا الميدان منذ الحرب العالمية الثانية . وفى تأصيله للمشكلة يرى المؤلف أن الاتصال فى بريطانيا طوال هذه الفترة كان يمثل القضية المحورية فى السياسة البريطانية ، ومن ثم الاهتمام بالكشف عن مصادر القوة والسيطرة والنفوذ فى هذا المجال ، وطبيعة العلاقات القائمة بينها .

وقد خصص المؤلف **الفصل الاول** من هذا القسم للحديث عن الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٥٥ . ويبدأ بتحديد مصطلح وسائل الاتصال Media فيقصد به مصادر الاخبار الرئيسية فى المملكة المتحدة وهى الصحف القومية والاذاعة الصوتية (الراديو) والاذاعة المرئية (التلفزيون) . ثم ينتقل من ذلك الى توضيح فكرة اساسية مؤداها ان رجال السياسة ، وهم يحركون الرأى العام ويسعون الى التأثير فيه ، يعتقدون تماما أن بمقدور وسائل الاتصال ، وبخاصة الصحافة ، ان تكون أدوات لها فى تحقيق هذه الغاية . ونظرا لاهمية هذه المسألة بالنسبة اليهم من حيث أن مشاركة الصحفيين لآرائهم واحكامهم تعتبر أمرا حيويا للغاية ، فان هذا يفسر محاولاتهم المستمرة التى يدفعون بها الحكومات الى السيطرة على وسائل الاتصال واحداث ما يرونه من تغييرات فى اداراتها بغية ضمان مساندة الصحفيين لهم والاطمئنان الى مؤازرتهم .

ويخصص المؤلف جانبا كبيرا من هذا الفصل لتطور العلاقة بين الصحف والحكومة البريطانية ، فيعرض بالتفصيل للاطار القانونى لهذه العلاقة ، وللتغييرات التى طرأت على قوانين الرقابة والتراخيص والتمغة ، الى أن اصبحت الصحافة منذ وزارة بالمرستون الاولى فى ١٨٨٥ مستقلة تماما عن الدولة . وذلك بخلاف الحال بالنسبة الى الاذاعة التى كانت خاضعة منذ البداية لمناورات الحكومة وسيطرتها . ويبين المؤلف أن هذه الاتجاهات لم تكن مجرد صدى لسياسات حزبية معينة بقدر ما كانت قضية عامة تستهدف صون مصالح الدولة ، خاصة فى وقت الحرب ، اذ كان على رجال السياسة باستمرار أن يبحثوا عن الوسائل التى يضمنوا بها خضوع الصحافة المناوئة لنفوذ الدولة ، وهو ما أسفر عن سلسلة من القوانين والقواعد المنظمة لملكية وسائل الاتصال ولطرق واساليب ادارتها . وبعد ذلك ينتقل الى مناقشة الظروف التى دعت فى أواخر الاربعينات الى تكوين لجنة روس Ross الخاصة بالصحافة ولجنة بيفريدج Beveridge الخاصة بالاذاعة (وهما أولى ثلاث لجان مزدوجة تشكلت لدراسة احوال الاتصال فى بريطانيا ، واللجنتان الاخريان هما لجنة شوكرس Shawcross

وبيلكنجتون Pillbington في أوائل الستينات ولجنة انان Annan وماكجريجور Mcgregor في منتصف السبعينات) فيبرز الميول الاحتكارية التي تسيطر على هذا المجال، وظهور ما يسمى بالصحف السلسلية Chain Newspapers التي تركزت ملكيتها في أيدى قلة من الحافظين وابتلعت كثيرا من الصحف في قلب لندن وغيرها من المدن الرئيسية مثل ابردن وكارديف وبريستول. ثم يناقش التضمنات التي اشتمل عليها تقرير اللجنة، ويعرض للتوصيات التي اتخذتها لاصلاح الاحوال وتطويرها في الصحافة وفي الاذاعة كما يعرض أيضا للعقبات التي اخرت الاخذ بها، والتي تمثلت في مواقف واتجاهات المحافظين بوجه عام، وكذلك تزايد الدعوة الى الاذاعة التجارية، تلك الدعوة التي دعمتها مجموعة واسعة من المصالح المرتبطة بالدعاية والاعلان من ناحية وبمروجي اللهو والتسلية من ناحية ثانية.

وفي **الفصل الثاني** يتحدث المؤلف عن الظروف التي عاشها الاتصال البريطاني في الفترة من ١٩٥٥ الى ١٩٦٦، فيعرض للاستجابات التي لجأت اليها وسائل الاتصال لكي تعوض خسائرها في علاقاتها بالحكومة، ولتكيف نفسها مع الوضعيات الجديدة. ويبين كيف أن الاذاعة مع وجود المنافسة قد اضطرت الى أن تعدل من برامجها وفقا لهذه الاوضاع، وأن تخضع كثيرا لأذواق الجماهير. كما يعرض لمراحل النزاع بين الاذاعة والبرلمان الانجليزي بصدد رغبة الاولى في أن تنقل الى المستمعين والمشاهدين جلسات مجلس العموم، ورفض الاخير لهذه الرغبة « خشية أن يرى الناخبون ممثليهم وهم يغطون في سباتهم العميق ».

كذلك لم تكن الصحافة بعيدة عن المتاعب التي كان يطلها روى تومسون Thomson ملك الصحافة والتليفزيون الامريكي. فمع تزايد المنافسة اشترى تومسون Scotsman في خريف عام ١٩٥٣ والتليفزيون الاسكتلندى في مايو ١٩٥٥، كما اشترى أيضا صحف لورد كيمسلى Kimsley في سبع مدن هامة، بالاضافة الى بعض الصحف القومية التي تمثلها مجموعة الصنداى. وقد بلغت وطأة الاحتكارات ذروتها خلال الستينات عندما ابتلعت امبراطورية تومسون **الصنداى جرافيك** في لندن والامباير نيوز Empire News في مانشستر. كما أغلقت الكرونيكل News Chronicle أبوابها واختفت معها في الوقت نفسه صحيفة « الستار » Star التي تعتبر واحدة من أكبر ثلاث صحف مسائية في لندن. ذلك بخلاف المتاعب المالية التي أخذت تواجه مختلف الصحف وفي مقدمتها الديلى هيرالد والصنداى بيبول والديلى ميرور والهيرالد. ويقول المؤلف ان هذه الظروف جميعا كانت داعية بشدة الى البحث من جديد في ظروف الاتصال وأحواله، فتشكلت لجنة بيلكنجتون لتقصى الامور في الاذاعة في سبتمبر ١٩٦٠ ولجنة شوكروس في فبراير لدراسة أحوال الصحافة.

وبعد ذلك يناقش المؤلف تقارير هاتين اللجنتين ويركز بصفة خاصة على ما انتهت اليه من أن المنافسة التي اشتدت حدتها نتيجة التحلل من القيود التي فرضتها ظروف الحرب في الخمسينات هي القاتل الحقيقي لدور الصحافة. ولكنه عارض في الوقت نفسه دعوتها الى اعادة النظر في توزيع حصص الصحف من الاعلانات التجارية كوسيلة لتعويضها بعض خسائرها، فمثل هذا الاجراء يمثل من وجهة نظره سيفا مسلطا على حرية الصحافة لا يجب الاعتراف به.

وفي ختام هذا الفصل يعرض المؤلف لأوضاع الاذاعة في ضوء تأثرها بالاعلانات التجارية ، ويناقش التوصيات التي حاولت انقاذها من براثن المعلنين ، ولكنه يوضح كيف أنه لم تطرأ أية تغيرات جذرية على العلاقة بينها وبين الحكومة خاصة بعدما عاود البرلمان الانجليزي رفضه لدخول عدسات التليفزيون وميكروفون الراديو الى قاعاته لنقل جلساته وتصويرها .

أما الفصل الثالث فيركز فيه المؤلف على تلك الظروف العصيبة التي عاشتها بريطانيا اثناء العقد الثالث بعد الحرب بسبب التدهور الاقتصادي الناجم عن أزمة الاسترليني التي تعرضت لها في عام ١٩٦٦ ، والتي اعتبرت سببا كافيا لتوتر العلاقات بين الحكومة والصحافة وكل منهما يكيل الاتهامات الصريحة والضمنية ويلقي بها في وجه الآخر . وهنا يعرض المؤلف نماذج لما اعتبرته الحكومة تهجما عليها وجرأة في افشاء ما ينبغي الاحتفاظ به من أسرار ، ويشير في هذا الصدد الى الضجة التي أقامتها الصحافة حول اتهام جيرمي ثورب Thorpe بحكومة كالاهان بالانحراف الجنسي ، والتي تسببت في احراج العمال وأدت في النهاية الى استقالته . ويربط المؤلف بين هذه الظروف جميعها وبين ما أصاب الصحف من تدهور في أحوالها المالية وفساد في اداراتها ، مما جعل الاصوات ترتفع مطالبة بتقصي الامور في هذه النواحي ، واعتبر هذا كافيا لتشكيل لجنة ملكية ثالثة ، يقول المؤلف انه كان عليها أن تواجه ثانية المشكلات ذاتها التي التقت بها اللجنتان السابقتان ، وهي تحاول بحث طبيعة القوى التي تتنازع السلطة في ميدان الصحافة ومدى تأثير هذه القوى على ظروف النشر السياسي بوجه خاص وسلوك العاملين بميدان الاتصال بوجه عام .

أما القسم الثاني من الكتاب ، فيشتمل على خمسة فصول يعرض فيها المؤلف النظم والجماعات والمؤسسات التي تمثل مناطق النفوذ والتأثير . ونزولا على اتساق الترتيب العددي لفصول الكتاب فقد بدأ في **الفصل الرابع** (الاول في هذا القسم) يناقش بناء واتجاهات جماعة الملاك Owners الذين تتركز في أيديهم ملكية وسائل الاتصال .

ويطرح المؤلف تساؤلات كثيرة تتعلق بطبيعة علاقة هؤلاء الملاك بالاجهزة الصحفية والعاملين بها من ناحية ، وبأجهزة الدولة واداراتها من ناحية ثانية . ويوضح كيف أنهم كانوا ذوي مواهب خاصة في جمع المال أكثر منهم في صنع السيارات التي تسير عليها صحفهم ، وهي المهمة التي تركوها في أيدي كبار المحررين . كما ناقش مزايا وعيوب الملكيات الضخمة المسيطرة تماما على الصحافة، وعرض لمظاهر السيطرة ، وأبرز كيف أن خضوع ميدان الاتصال لأصحاب رؤوس الاموال الخاصة قد جعل من الصحافة بالذات بؤرة من بؤرات الصراع السياسي . ثم عرض العلاقة بين هؤلاء وبين الاحزاب البريطانية المسيطرة فذهب الى أنه لما كان معظم أصحاب دور الصحف والمؤسسات الصحفية الكبرى من المحافظين ، لذا كانت الصحافة بوجه عام أميل الى هذا الجناح المحافظ وأكثر تعاطفا معه في مختلف القضايا والمسائل . وان كان المؤلف قد أشار مع ذلك الى دور القراء باعتبارهم قوة أخرى لها تأثيرها على سياسات هذه الصحف التي تجد نفسها مطالبة دائما ـ بالرغم من نزعتها المحافظة ـ بأن تقدم للقارىء ما يريده ويتطلع اليه من معلومات وأخبار ، ومن هنا تتأكد طبيعة الصلة المعقدة بين رأس المال المحافظ وادارته ، وبين الرغبة في ارضاء جماهير القراء والعمل على توسيع قاعدتهم ، الامر الذي يجعل منهم في النهاية عاملا من عوامل استمرار الجريدة أو المؤسسة الصحفية لا يمكن تجاهله .

وفى الفصل الخامس يتحدث المؤلف عن دور المعلنين Advertisers باعتبارهم – سواء أكانوا أفرادا أو منظمات أو مؤسسات – الجماعة الثانية التى تمارس ضغوطها على الاتصال . ويضع المؤلف مشكلة الاعلان فى الصحف فى صورة تبرز أبعادها المتشابكة ومن حيث المبدأ تستطيع الجريدة عن طريق بيع المساحات الاعلانية أن تدبر المال اللازم لدفع نفقات المحررين والكتاب والفنانين ومئات العاملين بها . ويعنى هذا فى الظاهر أن المعلن يدفع قيمة المساحة التى يشتريها ، وفى الوقت نفسه يساهم فى نفقات المادة التحريرية من أخبار ومقالات ، والتى يجب أن يدفع القارىء نفقاتها ، وهذا يثير تساؤلا : لماذا لا يتحمل هؤلاء نفقات المساحات التحريرية التى اعدت من اجلهم ويكون على المعلن أن يتحمل فقط من الاسعار ما يكفى لقيام ادارة الاعلانات بعملها ، فيدفع النفقات الفعلية اللازمة لطباعة اعلاناته !!

ولكن هذا غير ممكن التطبيق فى الواقع لانه أيا كان المبلغ الذى يكفى لاصدار الجريدة فان القراء يمكن أن يتوقفوا عن شرائها لسبب أو لآخر ، واذا حدث فالمتوقع تماما أن توزيعها سوف يهبط الى رقم لا يكاد يذكر وتنتفى بالتالى قيمتها كوسيلة اعلانية ، وفى هذه الحالة فان أي سعر يدفعه المعلن فى المساحة الاعلانية مهما كان ضئيلا سيكون اسرافا لا فائدة من ورائه . بمعنى آخر يذهب المؤلف الى أن المعلن عندما يشترى بضعة سنتيمترات أو مساحة ما بيضاء فهو يشترى التوزيع كله ، سواء من ناحية كمه أو نوعه الخاص والعام ، أي انه يشترى اهتمام القراء الذى ينشأ عن المساحات التحريرية ، وهو ما لا يتأتى الامن طريق تنظيم تحريرى باهظ النفقات . بل ان المعلن يشترى انتباه المستهلكين والذى يوجده مكان معين للاعلان يتم انتقاؤه بعناية فى علاقة مع الاخبار والمواد المقروءة فى الجريدة . فكأن الصحيفة تقدم للمعلن فرصة معينة لعرض بضاعته بتكلفة معينة ، وتقدم للقارىء مادة تحريرية معينة بسعر معين ، والحصيلة التى تتحقق من كل منهما تصب فى النهاية فى وعاء واحد يستخدم فى استمرار انتاج الصحيفة بطريقة مجزية لكل من القارىء والمعلن معا . ففى نفس الوقت الذى تصبح فيه الجريدة ضعيفة القراء تزول قيمتها الاعلانية، وكان الايراد الذى يأتى من المعلن وينفق على التحرير ينفق فى الحقيقة والى حد بعيد على مصلحة المعلنين انفسهم الذين دفعوه .

ومن أهم النقاط التى ناقشها المؤلف فى هذا الصدد أن نمو الاعلان بهذه الصورة اثار صراعا مستترا بين المحررين أو ادارات التحرير من ناحية وادارات الاعلانات من ناحية ثانية . فلما كانت المؤسسات الصحفية تسعى بكل السبل الى الاحتفاظ بكبار المعلنين لديها ، فقد اعتبر هذا سببا كافيا ليثير لدى الصحفيين غير قليل من القلق والمخاوف من ان تكون قوة العملاء وتزايد سيطرتهم ، أو على الاقل الرغبة فى ارضائهم على حساب المساحات التحريرية . وعلى الرغم من ان المؤلف قد حول التخفيف من حدة اثار هذا الاحساس باعتبار انه من مهام الادارة الصحفية الناجحة ان تحقق التوازن المطلوب الذى يضمن غايتها فى الاعلان باعتباره مصدر التمويل الرئيسى ، وفى الوقت نفسه الارتقاء بمستوى المواد التحريرية حفاظا على القارىء، الا انه ينتهى فى مناقشته لهذا الموضوع الى الاعتراف بأنه من المؤسف حقا ان اصبحت

للاعلانات مثل هذه الخطورة ، وهي مسألة يرى في النهاية انها حتمية ، ومن ثم فينبغي أن تتحمل كافة الاطراف مساوىء هذه الوضعية التي لم يكن هناك مفر منها .

بعدذلك يخصص المؤلف **الفصل السادس** للاتحادات العمالية التي تقف على الناحية الاخرى في مواجهة رأس المال الذي تمثل في الملاك والمعلنين . ويعرض المؤلف هنا لنشأة هذه الاتحادات وتطورها ، ويوضح ابعاد العلاقات المتبادلة بينهما وبين غيرها من التنظيمات والجماعات ذات التأثير الحقيقي في ميدان الاتصال والعطية السياسية بوجه عام .

ومما هو جدير بالذكر انه يبدي بعض التحفظات بالنسبة الى الطريقة التي تمارس بها هذه الاتحادات نشاطها حيث انها لا تمارس دورا ضابطا او تنظيميا بقدرما تكتفي نفسها بالوظيفة التقليدية التي تنحصر في المحاولة لتطوير ظروف العمل والنزول في عمليات المفاوضات لاجل تحسين الاجور وضمان المستويات اللائقة بالعاملين في الميدان . وان كان هذا له ولا شك تأثيره غير المباشر على كافة العلاقات .

وفي الفصل السابع يناقش المؤلف علاقة الدولة State وادارتها الحكومية بوسائل الاتصال ، فاوضح انها علاقة ذات طابع معين مثير التساؤل ، فهي تعكس من ناحية توترا ملحوظا يفصل ويباعد بينهما ، ومن الناحية الثانية عددا من الصلات والروابط التي تقترب بينهما وتجمعهما .

وقد عرض للعوامل التي غذت التنافر بين الصحفيين ورجال السياسة ، فأشار الى تعطي الاسباب التقليدية لهذا الموقف ، ومن اهمها سعي الصحافة الدائم وراء تلك الامور التي يعتبرها رجال السياسة اسرارا يحاولون جهدهم لاخفائها . اما الروابط التي لا يمكن تخطيها فتتمثل في ان الدولة هي التي تهيىء الاطار العام القانون الذي لا تستطيع الصحافة ان تعمل بدونه ، بالاضافة الى ان ممثلي الدولة هم في الواقع الاصحاب الحقيقيون للاذاعة ، كما ان الحكومة بكافة اجهزتها واقسامها وادارتها هي المصدر النهائي لكافة المعلومات والاخبار التي تعتبر المادة الاساسية للصحافة علاوة على ان عملية الادارة والحكم ذاتها تصبح شيئا مستحيلا دون مساعدة الصحافة والاذاعة ، باعتبارها قنوات الاتصال اللازم قيامها بين الدولة وبين الجماهير . واخيرا فان الدولة هي صاحبة الولاء الذي يشعر به الصحفيون باعتبارهم مواطنين . ثم يتناول ناحية التمويل التي يعتبرها من اشد جوانب هذه العلاقة حساسية ، ويوضح انه بسبب اعتماد الاذاعة اعتمادا كاملا على الدولة في هذه الناحية فقد اعتبرت دائما اداة لها ولسانا لحالها . وبالرغم من أن الصحافة من هذه الزاوية تبدو اسعد حظا نظرا لاستقلالها المادي فان المؤلف يرى أن هذا الوضع يخلق لها كثيرا من المشكلات ، خاصة من حيث ان هذا الاستقلال يجعلها اكثر حرية وجرأة في مراقبتها لاعمال الدولة وتصرفاتها ، وبالتالي في تقديم ما تراه مادة مناسبة ومشوقة لقرائها ، حتى وان كان على غير ما تريد الدولة أن يكون . وفي ضوء هذا يذهب المؤلف الى انه من الخطأ الآن التسليم تماما بأن الصحافة والدولة غريمان متقاربان ، ولكنهما بالاحرى غريمان يعتمد كل منهما على الآخر ولا يستطيع منه فكاكا .

اما الفصل الثانى فقد عالج فيه المؤلف موقف القانون وعلاقته بميدان الاتصال . وعرض للأسس التى تقوم عليها هذه العلاقة وحدد فى ذلك نقطتين جوهريتين هما اولا ان الدولة هى التى تضع القانون وتفرضه ، وثانيا ان هذا يجعل الصحفى فى موقف الخصم الاضعف باستمرار .

صحيح ان القانون فى الدولة الديموقراطية يحمى كافة المواطنين ويرشدهم بدرجة واحدة باعتباره نتاج الحكمة الجمعية ، ولكن هذا لم يحل فى كثير من الاحايين دون وقوع غير قليل من الضرر بالصحافة والصحفيين امام سمع القانون وبصره .

وتزولا على هذا ينتقل المؤلف الى مناقشة الابعاد المرتبطة بالمسألة ، فاكد على حرية الصحافة أمام القانون ، وعرض للاتهامات التى طالما وجهت الى الصحافة كتدخلها فى المنازعات القضائية ، وافشائها اسرارها اثناء عرضها ، وغير ذلك من المواقف التى تندرج تحت بنود القذف والطعن وكلها ذات حدود دقيقة للغاية ، خاصة اذا ما مست الامور المتعلقة بالسرية وامن الدولة وايضا خصوصيات الافراد . واوضح فى ذلك كله ان المناخ القانونى الذى تعمل الصحافة من خلاله هو مناخ يتصف بالتغير وبعدم الوضوح والاستقرار . فعلى الرغم من ان حرية الصحافة مكفولة بحكم القانون ، الا ان هذا القانون نفسه ليس منحوتا فى الصخر ، بمعنى انه يتأثر بكل التغييرات التى تدخلها الهيئة التشريعية عليه ، فضلا عن انه عرضة للاختلاف فى الشرح والتفسير مما يجعل الصحفيين فى كل الاوقات فريسة لغير قليل من القلق ، الذى يرجع اساسا الى عدم الاتفاق على ما يعينه القانون حتى بالنسبة الى المواقف المتشابهة او الواحدة .

اما القسم الثالث من الكتاب وهو بعنوان بدائل السياسات والتطورات المحتملة فيتكون من فصل واحد افرده المؤلف اساسا للحديث عن المستقبل . وقد حاول فيه ان يبين كيف انه منذ الحرب العالمية الثانية لم يطرأ على موازين القوى فى ميدان الاتصال تغيرات مؤثرة رغم كل الجدل والنقاش اللذين دارا من حول قضاياها . فخلال ثلاثة عقود بقيت العلاقة بين القوى المختلفة وكذلك سياساتها على ما هى عليه ، فلم تستطع اى منها ان تطغى على الاخرى او تهزمها تماما . ويستثنى من ذلك القارىء الذى اصبح يمثل قوة حقيقية واعية يعمل حسابها فى الصحافة وبدرجة اقل بالنسبة الى الراديو والتليفزيون فقد اصبح لهؤلاء دورهم فى تحديد البرامج وتحديد مضمونها رغم انها مؤسسات تابعة للدولة اساسا ، او ان الدولة تتدخل فى الاشراف عليها اذا كانت محطات اهلية .

وقد حاول المؤلف ان يقدم نموذجا للعلاقة السليمة يتمشى مع التغيرات الجديدة التى يشهدها المجتمع الانجليزى المعاصر ، ويهدف فى الوقت نفسه الى تحقيق توازن اكثر فاعلية وتأثيرا فناقش الدعوة الى الاخذ بمبدأ التعدد والتغاير ، وابرز عيوبها وفوائدها ، ونبه الى ما تضمنته من اتجاهات محافظة تسعى الى السيطرة والرقابة والتحكم . كما اوضح ان الشىء المهم ليس هو ان يتم تفتيت الوحدات ، وانما الاهم من ذلك كله هو ان او انشاء وحدات او محطات اذاعية جديدة ، او حتى ادماج ما هو قائم فى عدد اقل من الوحدات ، وانما الاهم من ذلك كله هو ان

يتبع التطوير من الداخل ، اي عن طريق النمو الذاتي بالتأثير في الظروف المحيطة ، وتغيير علاقات الاجهزة بمراكز القوة المسيطرة ، واقتراح السياسات الصالحة وتنفيذها .

اما بالنسبة الى الصحافة فقد يلوح موقفا معارضا تماما لاية صورة من صور التدخل الحكومي التي تختفي وراء حجج الاصلاح والتنظيم والتطوير ، ففي اعتقاد المؤلف انه لكي تكون الصحافة اقدر على القيام بدورها فينبغي ان تكون للعاملين فيها حرية الكلمة وحرية الراي والتعبير ، بعيدا عن اي لون من الوان الرقابة او الضغوط الا مايمليه ضمير الصحفي واخلاقيات المهنة وشعوره بالانتماء الى الوطن . فالصحافيون ينبغي ان يظلوا سادة انفسهم وسادة اقدارهم ، وهم وحدهم المسئولون عن تحسين وتطوير مهنتهم حتى وان تجشموا في سبيل ذلك كل المشقة والعناء .

• • •

وعموما فيعتبر الكتاب رفضا صريحا لكل ما من شانه ان يمس حرية الصحافة ، ففي كل فصل من فصوله نرى ايمانا بشرف الكلمة وقدرتها على احداث التغيير ، فقط اذا ما تحررت من الخوف ومدت لها اسباب الحياة ومن هنا تاتي قيمة الكتاب واهميته العلمية والتطبيقية في ميدان اصبح اليوم من اخطر الميادين وابعدها تاثيرا في حياة الانسان .

* * *

ميكانيكا العقل

تأليف: كولين بليكمور

عرض وتحليل: د. عبد المحسن صالح

ليس هناك ما هو أكثر غموضا من أسرار المخ، وخبايا العقل، اذ كلما تعمقنا في تلك الاسرار، زادت حيرتنا، وتشعبت متاهاتنا .. فرغم البحوث الكثيرة والعميقة التي قام بها العلماء على امخاخ الحيوان والانسان، الا ان احدا لم يستطع أن يصل الى القول الفصل في هذا المجال .. فالانسان يريد أن يدرك ذاته، ويعرف نفسه من خلال هذه الكتلة اللينة من الخلايا التي تسكن رأسه، لكن ذلك — كما يبدو — امر بالغ الدقة والصعوبة، او ربما كانت نجوم السماوات اقرب الى مداركنا من المدارك التي نريد أن نحصل عليها من امخاخنا.

اذكر انني قرأت كتابا حديثا نسبيا بعنوان «طبيعة الذاكرة الجزيئية» وهو كتاب يتناول — بالشرح والتعليق والتحليل — مئات البحوث التي تمت على ذاكرة الانسان والحيوان من الناحية النفسية والتشريحية والكيميائية والبيولوجية، ورغم انني لهث مع المؤلف في تلك المعمعة التي ليس لها من قرار، الا انني احسست براحة مشوبة بالاسف عندما يفاجئنا مؤلف الكتاب ادوارد جوروفيتز في النهاية باستنتاج يقول فيه «بعرض كل المراجع التي تناولتها في هذا المجال المعقد، فان الحقيقة التي تبدو لنا الآن واضحة، هي تنقص الوضوح»!

والواقع ان هناك كتبا كثيرة — متخصصة وغير متخصصة — قد ألفت في هذا الموضوع الذى سنتناوله هنا بالعرض والتحليل، الا ان ذلك لا يعني أن مؤلفيها قد وضعوا بين ايدينا صورة واضحة عن المخ او العقل او العقل والمخ، او المخ الذى اظهر العقل، او العقل الذى اظهر المخ، اذ ان هناك آراء

ونظريات علمية وفلسفية عميقة تتناول هذا الموضوع الشيق من زوايا عديدة ، دون ان يستطيع احد ان يحدد ما الذى اظهر الآخر : هل العقل نبع من المخ ؟ .. او المخ هو الذى وهب العقل ؟ .. ام انهما شيء واحد ؟

الكتاب والكاتب

والكتاب الذى بين ايدينا الآن ـ ميكانيكا العقل ـ Mechanics of the Mind من الكتب الممتازة فى هذا المجال العويص ، ورغم ان الموضوع معقد ، الا ان مؤلفه قد عرضه عرضا طيبا وسلسا وشيقا وبعيدا ـ فى معظم الاحيان ـ عن التعقيدات العلمية ، ولهذا فهو مفيد المتخصصين ولغير المتخصصين والكتاب يقع فى ٢٠٨ صفحات ويحتوى على ستة فصول ، ومزود بحوالى ١٨٠ شكلا توضيحيا وصورة ، وبعض هذه الصور ملونا ، مما اضفى على الكتاب جاذبية خاصة ، وبالكتاب ايضا قائمة باكثر من مائة وعشرين مرجعا ليرجع اليها من يريد الاستزادة من هذا الموضوع ، وبعض هذه المراجع كتب عامة ، وبعضها بحوث متخصصة حديثة ، اذ ان الكتاب طبع حديثا ـ اى فى عام (١٩٧٧م) .

وسر جاذبية هذا الكتاب انه كان فى الاصل سلسلة من الاحاديث الاذاعية التى القاها مؤلفها فى الاذاعة البريطانية ، فكان لها بين الناس صدى واسع ، وطبيعى ان الكاتب قد بذل قصارى جهده ليتعرض لسرد اغرب ما اكتشفه العلماء فى امخاخ الحيوان والانسان ، وكيف تؤثر هذه الامخاخ فى سلوك المخلوقات ، فتحدد شخصيتها ، وتشعرها بوعيها ، وبما يدور فيها وحولها ، كما ان الكتاب مزيج من العلم والادب والفلسفة ، وهو يتعرض فيه لآراء القدماء ، ثم كيف تطورت هذه الآراء حتى وقتنا الحاضر ثم نراه لا يغمط العلماء العرب حقهم فى هذا المجال ، فيذكر آراء ابن سينا وابن الهيثم وابى الفضل ... الخ ، ولا شك ان الكتاب ـ فى مجمله ـ قد جمع شتات هذا الموضوع فى عمل واحد مركز وشيق ، ليغرى بالقراءة ويدعو للتأمل فى اسرار ليس لها من قرار ، لكن الشيء الذى يمكن اخذه على هذا الكتاب ، انه ازدحم بقضايا علمية كثيرة ، دون التعمق فى قضية واحدة ، وقد يكون للمؤلف عذره ، اذ ان معظم ما جاء فى الكتاب ـ كما سبق ان ذكرنا ـ كان قد ظهر على هيئة احاديث اذاعية وهو يريد بذلك الا يشق على القارىء العادى او المثقف ، او يزج به فى معمعة علمية قد يحيد بهذا الكتاب عن الغرض الذى جاء من اجله ـ اى ليفيد اكبر عدد ممكن من الناس الذين يميلون الى معرفة ما يجرى فى مجال العلوم دون الزامهم بالتعمق فى تفاصيلها ، فهذا التعمق لا يهم ـ فى اغلب الاحيان ـ الا العلماء انفسهم .

ومؤلف كتاب ميكانيكا العقل هو دكتور كولين بليكمور Colin Blakemore الذى يعمل محاضرا فى الفسيولوجيا بكلية داونتج Downing College التابعة لجامعة كمبريدج ببريطانيا ، وهو فى الوقت نفسه يشغل منصب مدير للبحوث الطبية بالجامعة ذاتها ، وزميل الجمعية الملكية للبحوث ، ولقد قامت دار نشر جامعة كمبردج بطبع الكتاب طباعة انيقة ومريحة ، فجاء عملا ممتازا للمتخصصين وغير المتخصصين .

ويجدر بنا الآن ان نعرض ملخصا لاهم ما ورد فى فصول هذا الكتاب .

ففى الفصل الاول وتحت عنوان « اقدس او اسمى جزء فينا » يستهل تقديمه بفقرة من اقوال افلاطون التى يشير فيها الى ان رؤوسنا

ــ على حسب نظرة فلاسفة اليونان القدامى ــ بمثابة كرة او دائرة او كون اصغر من داخل كرة او دائرة او كون اكبر !

ويدخل بليكمور الى الموضوع بمقدمة ذكية فيقول ان عام ١٨٤٨ شهد ثورة سياسية واجتماعية هائلة عندما نشر كارل ماركس وفريدريك انجلز المبادىء الاساسية للشيوعية، لكن هذا العام ايضا شهد حادثة مثيرة فتحت لنا الباب لكى نبدأ ثورة علمية لندرك بعض اسرار المخ البشرى من خلال حادثة لا يكاد العقل يصدقها . ففى اثناء انشاء احدى خطوط السكك الحديدية بامريكا الشمالية انفجرت عبوة ناسفة ، وحملت قضيبا من الحديد طوله حوالى متر ، وقطره حوالى ثلاثة سنتيمترات ، ووزنه ١٣ رطلا ، فاصاب الشاب فينياس جيج تحت عينه اليسرى مباشرة ، ثم تدخل راسه ، وتخترق مقدمة مخه ، لتخرج من اعلى جبهته كقذيفة تستقر على مسافة ٥٠ يارة من الضحية !

وطبيعى ان جيج قد سقط فى الحال وهو يتلوى ، ولقد ظن الذين شهدوا هذه الحادثة المروعة انه ميت لا محالة ، لكن الغريب والمثير حقا ان جيج قد قام بعد عدة دقائق، واستطاع ان يتخاطب مع من حوله ، وعندما وصل الخبر الى طبيبى المنطقة، لم يصدقا ما سمعا، لكنهما عندما شاهدا الحالة تعجبا وسارعا بنقل جيج الى المستشفى ، حيث تم شفاؤه بعد اسابيع ثلاثة .. لكن فينياس جيج لم يخرج من المستشفى كفينياس جيج ، اذ تغيرت شخصيته ، واختلف سلوكه ، ولم يعد هو ذلك الشاب الهادىء الرزين الطموح المحبوب ، بل كان على العكس من كل هذه الصفات ، واخذ يجوب البلاد على غير هدى ، حتى مات فى سان فرانسيسكو .. ولغرابة هذه القصة ، فقد حفظت جمجمة جيج المثقوبة وكذلك القضيب الحديدى الذى اخترق راسه بمتحف مدرسة الطب بجامعة هارفارد كشاهد على غرابة ما قد كان !

ولقد كانت نظرة العلماء والاطباء للمخ فى القرن التاسع عشر تختلف اختلافا بينا عن نظرة علماء القرن العشرين ، ففى بداية القرن التاسع عشر يجىء الطبيب النمساوى فرانز جوزيف جول ويحاول ان يربط بين العقل وبعض الصفات الظاهرية على الراس والوجه، فهو مثلا يعتقد ان العيون الكبيرة البارزة دليل على قوة الذاكرة ، وانه قد عرف هذا منذ ان كان صبيا ، ثم بدا فى شبابه يضع نظرية تقول : ان شكل رؤوسنا ووجوهنا يعكس ما يجرى داخل امخاخنا ، او انه ــ اى الشكل ــ يحدد شخصيتنا ، ومن اجل هذا طاف البلاد طولا وعرضا عن هذه الحالات ، ويجمع عنها المعلومات ، علّه يحقق نظريته التى باءت ــ فيما بعد ــ بالفشل ، اذ ليس بشكل الراس يكون العقل !

لكن الملاحظة الطويلة والدقيقة التى جمعها الاطباء والجراحون عن سلوك الناس الذين اصيبوا فى امخاخهم باورام او تهتكات او صدمات.. الخ ، هذه الملاحظات بدات تتجمع بمرور عشرات السنين ، واكدت لنا ان شخصياتنا تكمن بالفعل فى امخاخنا .. الا ان المؤلف يستدرك ويعود الى القول بان العلاقة بين امخاخنا وما قد يصيبها من صحة او مرض، ثم ما قد ينعكس منها على انماط تفكيرنا ، ليس وليد القرن التاسع عشر حقا ، بل يرجع الامر الى (ابو قراط) الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد فبالرغم من ان تعاليمه كانت تعزو بعض الامراض الى قوى غيبية ، الا انه ادرك مثلا ان المرض « المقدس » المعروف باسم الصرع (او حتى الجنون نفسه) انما يرجع الى اضطرابات فى المخ ، ولقد ذهبت مدرسة ابو قراط الى ابعد من ذلك وقالت : ان ملذاتنا ومسراتنا ، ليست فقط هى التى تنبع من امخاخنا ، بل تنبعث منها ايضا احزاننا والامنا ودموعنا ، فبالمخ وحده نفكر وندرك ونرى ونسمع ونميز بين القبح والجمال ، وبين الطيب والردىء ، والخير والشر .

لم يتعرض لنظرة قدماء المصريين والاشوريين والسومريين المخ، فيقول انهم لم يعطوه حقه، كما اعطوا ذلك للقلب والكبد والامعاء ، اذ ظنوا ان جوهر النفس او الروح تكمن في تلك الاعضاء ، ومن اجل هذا دمر الفراعنة مثلا المخ بسحبه من خلال الانف على هيئة « مفرومة » ، وكانما هو بغير ذات فائدة ، في حين انهم حفظوا القلب والاحشاء كما هي في اوان انيقة .. على ان الفكر القديم ايضا قد اعتبر ان الدم والكبد هما مركزا الروح والعقل ، ولقد تبنى الفيلسوف اليوناني ارسطو هذا الراي ايضا ، واشار الى ان مركز العقل اوالروح او العاطفة في القلب الذي يوزع الروح في الدم ، ولا زالت هذه الظنون سارية بين عامة الناس حتى الآن ، فتراهم مثلا يرجعون العواطف والانفعالات الى القلوب دون العقول ، او انهم يتغنون بالقلوب ، وكانما القلب هو مركز الاحاسيس !

وينطلق المؤلف في سرده للموضوع سريعا من العصور القديمة الى العصور الوسطى التي عاب عليها التخلف من خلال القيود الرهيبة التي وضعتها الكنيسة على افكار العلماء عامة ، وعلى تشريح الجسم البشري خاصة ، ولقد حاول بعض رجال الكنيسة ان « يزاوجوا » بين معتقداتهم الدينية وبين افكار المدارس اليونانية ، فقالوا ان العقل او الجوهر يتركز في القلب والمخ والكبد والدم ، وان التكامل بين هذه الاعضاء يؤدي الى ما اسموه بالروح الحيوانية .

لم يتعرض الكاتب بعد ذلك لآراء العديد من العلماء والفلاسفة والمفكرين مثل جالين وليوناردو وابن سينا وديكارت ... الخ ، وكيف انهم اثروا بافكارهم على من جاء بعدهم ، ولا زالت بعض هذه الافكار تنتشر بين كتب الطب والفلسفة والعلوم والتشريح ، وهي ليست كلها ـ بطبيعة الحال ـ خطأ ، او كلها صوابا ، بل ان علمنا الحديث من شانه ان يفصل الغث من السمين .

ويبدأ المؤلف الفصل الثاني من كتابه بعنوان غريب « شوانج تسو والفراشة » .. وهو عنوان ـ كما يبدو ـ لا صلة له بالعقل ولا بميكانيكيته انما اراد بليكمور ان يستعيض عن العناوين التقليدية بعناوين فيها بعض الاثارة والغموض ، وهذا ما نلحظه في كل فصول الكتاب .. والعنوان على اية حال ماخوذة من مذكرات كان قد كتبها « تسو » في القرن الثالث قبل الميلاد ويجيء فيها « في يوم من الايام انا ـ شوانج تسو ـ قد رايت في المنام انني فراشة ، احلق هنا وهناك بسعادة ، وفجأة استيقظت لاجد نفسي شوانج تسو » !. ولهذا فان بليكمور قد تعرض في ذلك الفصل من الكتاب للنوم والاحلام والوعي في عالمي اليقظة والنوم .

ويقدم لنا المؤلف في بداية هذا الفصل سلسلة من التجارب المثيرة التي اجراها اثنان من العلماء الامريكان على نفسيهما في كهف « الماموث » بولاية كنتوكي ليعرفا ايقاعية الزمن على امخاخنا وسلوكنا وعملياتنا الفسيولوجية والبيوكيميائية ، فكانا يقضيان اياما طويلة بمعزل عن دورة الليل والنهار التقليدية ، ويستعيضان عنها بفترات من الضوء والظلام الصناعيين التي تمتد الى ٢٨ ساعة يوميا (اى اطول من ايامنا العادية باربع ساعات) ، ومن هذه التجارب استنتجا ان امخاخنا تحمل في طياتها « سجلات » الزمن ، وان التلاعب بها ، قد يؤدي الى تغيرات في الجسد والفكر .. اي كانما فسيولوجية اجسامنا تسير وفق « ساعة » بيولوجية تضبط فينا ايقاعية الحياة التي تكيفت بتعاقب الليل والنهار (١) .

(١) الواقع ان هذه الظاهرة ليست مقصورة فقط على الانسان ، بل نراها تنتشر في عالم الحيوان واحيانا في عالم النبات ، ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر دراستنا « الزمن البيولوجي » ـ عالم الفكر ـ العدد الثاني من المجلد الثامن ـ ١٩٧٧ .

ولقد حيرت طبيعة هذا الشعور الغامض بين اليقظة والاحلام (او الوعي واللاوعي) عقول الفلاسفة والعلماء ، ويشير المؤلف الى آراء بعض مشاهير المفكرين ، لكن هذه الآراء قد لا ترقى الى ما يرقى اليه البحث العلمي الذى يقوم على منهج تجريبي. صحيح أننا لانستطيع أن نزن العقل او الوعي او الذاكرة بموازين مادية ، ولا ان ندركها كما ندرك الماديات ، بل هي نابعة اساسا من كتلة مادية منظمة ادق تنظيم من بلايين الخلايا العصبية التي تتداخل في شبكة معقدة من الاتصالات الخلوية ، وكلما زاد تعقيد هذه الشبكة ، واكتسبت تطورا ، زاد فيها استيعاب الذاكرة ، وظهر الذكاء ، وانبثق الادراك ليصبح كل هذا تتويجا لمخ الانسان وعقله .

ويسرد بليكمور العديد من التجارب الكثيرة والمعقدة التي قام بها العلماء على الحيوان والانسان علهم يدركون السر الكامن في رؤوسنا، والذى ينعكس على انماط تفكيرنا ، ويؤدي الى ظهور هذا الشيء المثير الذى تطلق عليه اسم الوعي او العقل (او الروح في التصور القديم) ، فيذكر ضمن ما يذكر تلك الوسيلة القديمة جدا في طمس الشعور بالالم ، والتي تتمثل لنا في الابر الصينية ، ويعلل استجابة اهل الصين لها اكثر من غيرهم من الشعوب ، لانها اصبحت نوعا من التكيف البيئي والحضارى ، فاطفال الصين ــ منذ نعومة اظافرهم ــ يتلقون اصول هذا الفن الذى استمر فيهم لاجيال طويلة ، بحيث اصبح جزءا من حياتهم ، ولهذا كان غرز الابر نوعا من الاقتناع او الايحاء او العقيدة باختفاء الآلام والاوجاع ، وقد تختفي فعلا تحت هذا التأثير النفسي .

ويذهب المؤلف الى تأكيد ذلك بسرد بعض التجارب الرائدة التي قام بها العالم الروسي الشهير ايفان بافلوف على الكلاب وغيرها من حيوانات ، اذ كان الالم عندها ــ بالممارسة او التعود ــ يتحول الى لذة ، وملخص هذه التجارب ان بافلوف كان يقدم للكلاب ــ بعد تجويعها ــ وجبة شهية يسيل لها لعابها ، لكن قبل ان تقرب طعامها ، كان يصدمها صدمة كهربية مباغتة تجعلها تعوى من الالم، وبتكرار هذه العملية ، عرفت الكلاب ان الصدمة معناها طعاما شهيا ، ولهذا كانت تهز ذيولها ــ بعد ذلك ــ للصدمة ، دلالة على لذة قادمة ــ هى في الاساس الحصول على الطعام ، اي ان الالم قد تحول الى ظاهرة سعيدة في حياتها ، وربما كان اثر الابرة الصينية ــ على حد رأى بليكمور ــ بين الصينيين ، كاثر الصدمة الكهربية بين الكلاب !

ولقد دفعت هذه التجارب وغيرها المؤلف ليتحدث باختصار عن ميكانيكية الالم ، وكيف حاول الناس من قديم الزمن التغلب على آلامهم من خلال تعاطيهم المواد المسكرة والمخدرة ، ثم يشير الى كشف حديث ومثير عن كيفية تغلب اجسامنا على آلامها (او بالتحديد امخاخنا) ، فهي ايضا تصنع مادتها المخدرة على جزيئات بروتينية صغيرة اطلقوا عليها اسم الكيفالين enkephalin (وهذه يمكن ترجمتها الى دماغين نسبة الى الدماغ، لانها تصنع فيه) ، فهي ايضا تتداخل في تخفيف اوجاع الدماغ ، او تطمس الاثر الناتج من الآلام التي قد تتعرض لها الاعضاء والتي تصب في النهاية في امخاخنا ، اى كانما الدماغ يصنع لنفسه «افيونته» التي تعدل مزاجه ، وتطمس بعض آلامه ، لكن هناك فرقا جوهريا بين الانكيفالين والمواد المخدرة ، فليس من وراء الاولى اى اثر للادمان كما هو الحال في الثانية .

ومن خلال هذا لاكتشاف ايضا يعود ليذكر ان الصينيين قد اكتشفوا بدورهم ان غرس الابر الصينية في جسم ارنب قد دفعته دفعا لتخليق مادة في مخه ، وانه باستخلاص هذه المادة وحقنها في مخ ارنب آخر ، تبين انه يتحمل الآلام بدرجات اكبر ، وربما كانت هذه المادة هي مادة الدماغين او مادة قريبة منها .

ويعود المؤلف بعد ذلك الى التعرض لطبيعة الاحلام ، وكيف ان الكتب السماوية الثلاثة

قد اعتبرت رؤيا الانبياء حقيقة ، ويذكر ان الرسول محمدا قد راى في منامه انه ركب دابة من فضة اسمها البراق ، وانه عرج بها الى السماء (٢) ، وبعد ان ناقش موضوع الاحلام من الوجهة العقائدية والفلسفية ، عرج على معالجتها من الوجهة العلمية ، فاشار الى تطور فكرة جهاز رسام المخ الكهربي ، وكيف انه ساعدنا على تسجيل حالات الانسان اثناء النوم ، وان المخ يستطيع ان يبعث بموجات تختلف شدة او ترددا في حالات النوم المختلفة (اى نوم عميق او متوسط او سطحي) ، وانه من الممكن ان يسجل فترات الاحلام من خلال التغير الحادث في طبيعة الموجات ، وان كل هذا قد يساعدنا على فهم امخاخنا ، وما قد يعتريها اثناء النوم واليقظة ، لكن المؤلف لم يوضح لنا طبيعة هذا الفهم ، وما المقصود به حقا ، وربما كان يقصد التغيرات الكيميائية والكهربية والعصبية التي تتسلط على خلايا امخاخنا فيكون الوعي واللاوعي الذي يسيطر على اجزاء من المخ اثناء نومنا ويقظتنا .

وفي الفصل الثالث وبعنوان « صورة من الحقيقة » ، وهو ماخوذ من قول ماثور لوليام بليك « ان كل شيء يمكن تصديقه ، انما هو صورة من الحقيقة » . وفي هذا الفصل يتعرض المؤلف لواحدة من الحواس الهامة في حياة الانسان والحيوان ـ حاسة البصر ـ ويشير الى وجود حالات من بشر ذوى عيون سليمة لكنها غير مبصرة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى ان العينما هي الا وسيلة لنقل صورة من عالمنا ، وارسالها على هيئة سيل من نبضات عصبية لتصب في مركز محدد في المخ (مركز الابصار) ، وهو الوحيد الذى يستطيع ان يفك رموز النبضات ، ويحولها الى صورة مجسدة ايا كان شكلها ولونها وحجمها ، لكن مركز الابصار لم يكتشف فجاة ، بل ان من وراء اكتشافه وتحديد مكانه في المخ العديد من العلماء الذين اجروا تجارب كثيرة على الانسان والحيوان ، ومن هؤلاء مارى جين فلورنس الفرنسي ، وهيرمان مونك الالماني ، وسير جوردون هولمز البريطاني ، ويشير المؤلف الى ان اصابات الحروب كان لها الاثر الاكبر في رسم خريطة واضحة للمخ ، اذ كانت الحالات الكثيرة التي تقع بين ايدى الجراحين والتي اصيبت في امخاخها اصابات مختلفة ، ثم ما يتبع ذلك من اثر في مناطق الحواس ذاتها ، او في اداء الاعضاء التي يحتويها جسم الانسان .. كل هذا وغيره قد وضع بين ايدينا ان المخ ليس الا «لوحة» عصبية للاستقبال والتوجيه وفك لغات ورموز هذا العالم الذى نعيش فيه .

ومن نقل الصورة بواسطة العين نرى عرضا للنظريات القديمة والحديثة ، فلقد كان الظن السائد قديما ان العين ترى الاشياء عن طريق اشعاع يخرج من العين ليقع على المرئيات ، لكن ابن الهيثم ـ العالم العربي ـ كان أول من صحح هذا المفهوم في حوالي عام ١٠٠٠ م ، اذ قال ان الضوء هو الذي ينعكس من المرئيات الى العين ، وليس العكس ، ثم عرض المؤلف علينا صورة للعين ولاعصابها ولاداء وظيفتها كما قدمها ابن الهيثم ، ويرجع الفضل بعد ذلك الى رينيه ديكارت في انه اول من اجرى تجربة في القرن السابع عشر على انعكاس المرئيات على شبكية عين ثور ، اذا استخرج هذه العين ، وقطع جزءها الخلفي ، واستبدل به شريطا من الورق ، وعلى هذا الشريط استقبل صورة مصغرة ومعكوسة لحجرته المضيئة ، الا اننا ـ في الواقع ـ لا نرى عالمنا معكوسا ، ولا مصغرا ، ولا ذات بعدين اثنين كما هو مبين على الشبكية او الورق ، بل نرى العالم بكل ما فيه من ابداع وتجسيد ، وبكل ابعاده ومعانيه ، وهذا ماشحذ افكار العلماء والفلاسفة

(٢) الواقع ان المؤلف قد نقل ذلك من مثمنة فارسية قديمة ، وهو لم يتعرض ـ بطبيعة الحال ـ للآراء المتداولة في هذا الشأن بين علماء المسلمين ، فربما كان ذلك ليس مجالها .

على حد سواء ، ثم ما حدث بينهم من جدل كثير حول وجود العالم كما نراه ، او كما تصوره لنا عقولنا ، فواحد مثل جورج بيركلي قد شكك في وجود اي شيء مادي خارج العقل ، وراح يعلن ان العقل هو الذي يرسم لنا صور عالمنا ، فنحن مثلا عندما نلمس النار ، نحس بالالم ، اذن ليس الالم في النار ، انما الالم فينا ، وعندما نتذوق قطعة من السكر ، فاننا نحس بمتعة ، لكن المتعة ذاتها — كما يقول — ليست في السكر ، بل هي حاسة فينا فلماذا لا — اذن — نعتقد ان احساسنا بالشكل واللون وارتفاع النغمة او انخفاضها تنبع اساسا من الاشياء دون ان تنبع من داخلنا ؟

ويقارن المؤلف بين هذا الشك ، وشك ديكارت في وجوده ، ثم اثبات هذا الوجود بقوله « انا افكر » اذن فانا موجود .. لذلك يقول بيركلي « لكي توجد الاشياء فلا بد أن تدرك » .. لكن بيركلي لا يستنتج من ذلك ان الاشياء مثلا تختفي بمجرد ان ندير لها ظهورنا ، او ان الامتعة الموجودة في حجرة ما لا وجود لها في غياب الضوء ، بل لا بد ان تكون موجودة ، لان هناك عينا اخرى ترقبها — هي عين الله ، هذا ومما يذكر ان جورج بيركلي اسقف ديني مشهور .

لكن آراء الفلاسفة او رجال الدين لا تقوم اساسا على منهج علمي تساندة التجربة .. صحيح ان التجارب التي اجراها العلماء حتى الان لم تستطع أن توضح لنا بدقة كيفية ادراكنا او شعورنا بما يجري حولنا ، ولا كيف تتحول صور المرئيات في امخاخنا الى عالم حقيقي بكل ابعاده ومعانيه ، ومع ذلك فقد وضعت التجربة العلمية امامنا حقائق كثيرة عن الوسيلة التي تدرك بها امخاخنا .

فعالم الاعصاب البريطاني جون هولنجز جاكسون قد قدم لنا المخ — في السبعينات من القرن التاسع عشر — على هيئة خريطة او قارة مقسمة الى مناطق ، ولكل منطقة جزء محدد في الجسم تؤثر فيه ، وتتأثر به ، فلكل عقلة من اصبع في ايدينا او ارجلنا ، ولكل عضلة في وجوهنا او ظهورنا منطقة محددة في امخاخنا ، وان هذه المناطق يمكن تشبيهها بلوحة مفاتيح في بيانو ، وان اوتارها تتمثل في عضلاتنا التي تتقبل الاوامر من المخ بالحركة فتتحرك .

ومنذ ذلك الحين اخذ العلماء يستنبطون الوسائل العلمية للكشف عن مزيد من المناطق الحيوية في امخاخ الانسان والحيوان ، وعلاقتها بالامراض العصبية والنفسية والجسدية ، على ان اغرب ما اكتشفه العلماء ان وجود اجسامنا ذاتها مسجل في امخاخنا ، فالاصابات التي قد يتعرض لها المخ في المنطقة الواقعة خلف منطقة حاسة اللمس (في الفص الجانبي من المخ) قد تؤدي الى الاخلال بالعلاقة او الاتصال القائم دائما بين الجسم والعقل .. فالمرضى الذين يتعرضون للاصابات في تلك المنطقة قد لا يحسون بنصفهم الايمن او الايسر ، وكان هذا النصف او ذاك لا وجود له في امخاخهم ، فتراهم مثلا يحلقون نصف لحيتهم اليمنى ، ولا يشعرون اطلاقا بوجود النصف الايسر من وجوههم فلا يقربونه ، او قد يمشطون نصف رؤوسهم ويتركون النصف الاخر ، او قد يتصورون أن هناك من يشاركهم مخدعهم ، فيشيرون الى ذراعهم الايمن او الى ساقهم الايسر ، ويطلبون ابعاده ، لشعورهم بانه ذراع او ساق انسان آخر يسترخي على اجسامهم !

ويعود بليكمور مرة اخرى الى مركز الابصار ، فيقول انه اعجب واغرب منطقة في امخاخنا ، لكنه ليس مركزا وحيدا او متجانسا ، بل يبدو انه بدوره مقسم الى مناطق او خرائط كالتي يرسمها الجغرافي او الجيولوجي لتوزيع الامطار والسكان والصحاري والمعادن الارضية على خرائطه ... الخ ، وكذلك كانت « خريطة » الابصار فعليها اكثر من اثني عشر موقعا حساسا ، فموقع للالوان ، وثان لتقدير المسافات ، وثالث للاشياء المتحركة ... الخ ، ثم ان اي تدمير لاي موقع من تلك المواقع ، ينعكس

على فقدان الكائن الحى لمظهر هام من مظاهر عالمه المنظور .

ويسوق المؤلف بعد ذلك حقائق مثيرة عن امخاخنا ، ويشير انه يتعين علينا ان نبحث فى الوحدات الاساسية التى تكون المخ ـ اي الخلايا العصبية ، ففى مخ الانسان حوالى عشرة آلاف مليون خلية عصبية ، او ان كل بوصة مكعبة من نسيج قشرة المخ التى تحتوى من الالياف العصبية مايزيد طوله على عشرة آلاف ميل ، وهذا يعنى ان تلك الالياف او الوصلات او « الخطوط » التى تربط بين هذه البلايين من خلايا المخ يمكن ان تصل الى القمر وتعود منه لو انها اتصلت فى خيط واحد « اي يبلغ طولها الاجمالى اكثر من ٨٠٠ الف كيلو متر » ؛ ولهذا ، فان تلك المتاهات او الشبكة المدهشة الكامنة فى رؤوسنا هى التى تشعرنا بوجودنا ، فكل خلية عصبية تتصل بعدة آلاف من الوصلات الليفية العصبية مع جيرانها ، وبهذه الوصلات والاتصالات تستطيع أن « تتفاهم » وتؤدى وظيفتها .

وعلى هذه الخلية العصبية بدات بحوث العلماء العميقة ، فلكى تدرك طبيعة امخاخنا كان لا بد ان تدرك اولا سر هذه الخلية ، ولقد كان لورد آدريان من جامعة كيمبريدج اول من قام ـ فى عام ١٩٢٥ ـ بتسجيل النشاط العصبى لخلية عصبية وحيدة معزولة ، ويتمثل هذا النشاط فى ارسال نبضات كهربية محددة خلال الالياف الممتدة بين الخلايا ، فتحس بها ، كما ان هذه النبضات تختلف ايضا فى ترددها او شدتها ، وقد يصل هذا التردد الى الف فى الثانية الواحدة ، وفى مثل هذا التيه العظيم يمكن للمخ ان يتعامل مع طوفان هائل من المعلومات التى تصل اليه من عالمه الداخلى « الجسم » ومن عالمه الخارجى .. فنقل صور عالمنا بواسطة العين يستلزم وجود حزمة من الالياف العصبية التى يربو عددها على مائة مليون لكى تربط بين العين ومركز الابصار ، وفى النهاية يتعرض المؤلف لتكيف العين فى الحيوانات المختلفة ، لتكون مناسبة لبيئتها ، وملائمة لاستمرار حياتها .

وينتقل المؤلف من هذا الفصل الممتع الى الفصل الرابع بعنوان « طفل حتى تلك اللحظة » ويستهله بشعر لشكسبير من « هاملت » ، وهذا الفصل خاص بالذاكرة والتذكر ، فيقدم لنا حالة مريض اسمه هنرى ، وهذا المريض لا يستطيع أن يتذكر الا لحظته التى يعيش فيها ، فعلى سبيل المثال تذكر أن عالمة الاعصاب بريندا ميلنر من معهد مونتريال للبحوث العصبية قد قضت مع هذا المريض اكثر من عشرين عاما فى دراسة مستفيضة لحالته ، وبالرغم من كل الاف الزيارات والمقابلات التى تمت بينهما ، الا ان هنرى لم يتذكر انه رآها قبل ذلك مرة واحدة ، وكان يتعين عليها ان تقدم له نفسها فى كل مرة . صحيح ان ذكاء هنرى لا غبار عليه ، انما مشكلته تتركز فى انه لا يحتفظ فى ذاكرته باية خبرة تمر به ، فعمه ـ مثلا ـ قد مات منذ ثلاث سنوات من اصابته بهذه الحالة ، الا انهم كلما ذكروا له وفاة عمه ، تظهر عليه علامات حزن وكأن عمه قد مات فى التو واللحظة ، او كانما هو يسمع هذا الخبر لاول مرة ، ولهذا نراه يعبر عن حالته تلك بقوله : ان ما يقلقنى هو اننى كمن يقوم من نوم طويل ، اننى لا اتذكر شيئا ، فكل يوم فى حياتى قائم بذاته ، فلا اعرف فيه بعد ذلك ما جرى مهما كان سارا او محزنا .. اي انه ابن لحظته ، فلا ماضى له ، ولا يدرى كيف يتصور المستقبل .

وفى عام ١٨٩٢ لاحظ عالم الفسيولوجيا الالمانى فريدريك جولتز حالة مشابهة فى الكلاب التى اجرى عليها عمليات تدميرية فى بعض اجزاء من قشرة المخ ، ففقدت بذلك كل ما كانت تتذكره لتجارب سابقة مرت بها ،

ووعدها فى ذاكرتها ، ولهذا نرى جولتز يصف هذا النوع من الكلاب بانه « طفل لحظته » . وهنرى ايضا ! .. ومن هذه الدراسات وغيرها يستنتج العلماء أن هناك ذاكرة وقتية وذاكرة مستديمة (٣) .

لقد فقد هنرى ذاكرته من خلال عملية جراحية فى المخ ، اذ انه قد أصيب بحالة رهيبة من الصرع ، فاستلزم ذلك ـ رحمة به ـ ازالة جزء من المخ يعرف باسم قرن آمون أو حصان البحر (لانه يشبه هذا الحيوان فى التواء جسمه) .. وهذا القرن يتكون من جزئين صغيرين يقعان بين فصى المخ . هذا ومما يذكر أن الجراحين قد ازالوا احد هذين الجزئين فى حالات سابقة دون ان يصاب المريض بمضاعفات خطيرة ، لكن حالة الصرع الشديدة عند هنرى استوجبت ازالة جزئى قرن آمون ، فاصبح بدونه من غير ذاكرة تذكر ... اذن فهناك علاقة بين هذا القرن وبين الذاكرة والتذكر .

وفى الوقت الذى كانت حالة هنرى فيه تحت الدراسة (فى الاربعينات من هذا القرن) كان جراح المخ والاعصاب العالم الشهير وبلدربنفيلد الكندى يجمع من المعلومات ما يشير الى ان مخزن الذاكرة يوجد فى فصى المخ الكبيرين ، لكنه ـ فى الوقت ذاته ـ كان يقوم ايضا باجراء عمليات جراحية فى امخاخ المصابين بالصرع ، ولكى يتوصل الى المناطق المسئولة عن احداث هذا الصرع ، كان يتجسس على المخ بواسطة اقطاب كهربية على هيئة ابر رفيعة للغاية ، وفيها تنساب نبضات كهربية ضعيفة لتؤثر على مناطق محددة فى المخ ، وعندما كانت هذه المناطق تثار بالتيار الكهربى الضئيل ، ظهرت على المرضى امور غريبة ، اذ كانوا يشعرون باحاسيس عجيبة ، ثم أن هذه الاحاسيس كانت تختلف باختلاف الجزء المثار من المخ ، وكانما هذه الذكريات تنطلق فجأة من مكامنها عندما يمسها القطب الكهربى ويثيرها .

ففى واحدة من هذه التجارب التى اجراها بنفيلد على سيدة صغيرة ، وبينما القطب الكهربى يمس نقطة فى احد فصى المخ ، صرخت السيدة « اظن اننى الان اسمع نداء صبى صغير من مكان ما ، ويبدو أن هذا قد حدث منذ سنوات مضت ، وفى بيت مجاور لبيتى » .. وبعد لحظات أخرى مس بنفيلد نفس هذه النقطة من جديد ، فقالت السيدة « نعم .. اننى اسمع هذه الاصوات المألوفة .. انها تبدو لسيدة تنادى . انها السيدة نفسها » ! .. وعندما انتقل بنفيلد باقطابه الى منطقة اخرى ومسها ، قالت السيدة « اننى اسمع اصوات صادرة فى وقت متأخر من الليل ومن مدينة ملاهى فى مكان ما ، أو ربما من سيرك تنقل ، ثم اننى ارى الان عربات كبيرة من ذلك النوع الذى يحمل حيوانات السيرك » (٤) .

لكن ماذا يعنى ذلك ! .. يعنى ببساطة أن الاحداث أو الذكريات ربما كانت مرتبة ومنظمة فى « سجلات » خاصة فى امخاخنا ، لكننا لا ندرى عن طبيعتها شيئا ، وانه من الممكن استخراج هذه الاحداث باثارتها من مكامنها التى رتبت فيها ، لكن الذاكرة والتذكر ـ كما اشار المؤلف وكما المحنا الى ذلك فى المقدمة ـ لا زالت من التحديات الكبيرة التى يجابهها العلم فى وقتنا الحاضر .

---

(٣) انظر فى هذا العدد دراستنا « مستقبل المخ ومصير الانسان » .. مجلة عالم الفكر. المجلد الرابع ـ العدد الاول.

(٤) الواقع ان بنفيلد قبل موته بعام واحد (اى فى عام ١٩٧٦ عن ٨٥ عاما) قد قدم لنا كتابا ممتعا عن اسرار المخ بعنوان « لغز العقل » The Mystery of the Mind ـ الناشر مطبعة جامعة برنستون ، ولقد تضمن هذا الكتاب كثيرا من الحقائق المثيرة التى توصل فى هذا المجال .

ويحاول المؤلف ان يعطي لعقولنا حقها عندما يقارن بينها وبين « العقول » او الحاسبات الاليكترونية ، فهذه مهما اتقن الانسان فيها وابدع ، فانها لا ترقى الى مخ الحيوان ، ودعك من الانسان .. صحيح ان هذه الحاسبات تتكون من خلايا او دوائر كهربية تشبه « الدوائر » العصبية الموجودة في خلايا امخاخنا ، الا ان هذه الحاسبات — رغم كفاءتها — لا تعرف الانفعال ، ولا تحس بالجمال ، ولا تدرك الحب والخيال ، الى آخر هذه الصفات التي نراها في الانسان .. ومن مثل هذه المقارنة غير العادلة ينطلق المؤلف الى مقارنة اخرى اكثر واقعية ، فيذكر ان الذاكرة الكيميائية ليست شططا ولا بدعة ، لان هذه الذاكرة ذاتها هي التي تمنحنا كل صفاتنا الوراثية ، وهي اساسا موجودة في الخلية الجنسية ، او اية خلية جسدية ، وبالتحديد في نواتها التي تحتفظ بالمادة النووية او الوراثية التي نراها على هيئة سلاسل معقدة من جزيئات كيميائية ، وكأنما هذه الجزيئات « تتذكر » دائما (ولكن بطريقة لسنا ندري كل تفاصيلها بعد) كل صفة من صفات اي مخلوق فتمنحها اياه ، وربما كانت جزيئات الذاكرة تتكون ايضا بطريقة او باخرى ، ثم ان هنالك تجارب كثيرة تشير الينا من طرف خفي ان الذاكرة ما هي الا عملية تخزين وترتيب كيميائي ، وانه يمكن التداخل فيها من خلال مواد كيميائية خاصة ويميل بعض العلماء كذلك الى الاعتقاد بان الذاكرة تتأثر بفتح دوائر كهربية في المخ واغلاقها ، وان هذا العمل الرائع يتم بين ملايين الملايين من الالياف او « الاسلاك » العصبية التي تربط خلايا المخ في نسيج واحد ، وان ذلك يمكن تشبيهه — من حيث المبدأ — بعمل الدوائر الكهربية في «العقول» الاليكترونية ، لكن ليس كل هذا الا من قبيل التكهنات التي لا يساندها دليل واضح ومتين .

وتحت عنوان « نار موقدة » يبدأ بليكمور فصله الخامس بتقديم محادثة مثيرة بين انثى صغيرة اسمها لوسي وبين انسان عالم ، فيقول للانثى : ما هذا ؟ — وتجيبه : مفتاح . ثم يلتقط مشطا ويسأل : وما ذاك ؟ .. فتشير الى انه مشط ، ثم تأخذ المشط وتمشط شعرها ، وبعد هذا تتوقف وتطلب منه ان يمشط لها شعرها ، فيقول : حسنا هل تريدين ان تخرج ؟ . فتفكر قليلا وتشير وبيدها في تمشيطها .. ثم يسألها : لوسي .. تخرج .. لا . اريد طعاما .. تفاحة . فيرد: ليس عندي طعام .. آسف !!

لكن هذه المحادثة لم تكن في الواقع كلاما كالذي نستخدمه فيما بيننا ، بل كانت محادثة بالرمز او الاشارة او الايماء ، وهي شبيهة بلغة الاشارة الامريكية التي تستخدم مع الصم ، لكن لوسي لم تكن صماء ، ولا هي انسانة ، بل كانت قردا من نوع الشمبانزي !

بعد هذه المقدمة الطويلة والجذابة يريد المؤلف ان ينفذ الى موضوع اللغة عامة ، والكلام خاصة ، وهل يمكن ان تتعلم الحيوانات بعض لغاتنا ، ولماذا كان النطق لنا دون غيرنا ، وهل له مكان في امخاخنا من خلال عمليات التطور التي استمرت ملايين السنين .. ومن هنا يبدأ المؤلف في الاشارة الى ان تعليم اللغة للقردة العليا يرجع الى اكثر من ٥٠ عاما ، ويذكر اسماء عدد من القردة تستطيع ان تكتب وتقرأ وتكون جملا مفيدة (٥) ، وانها قد تعلمت عشرات الكلمات بما فيها من صفات وافعال واسماء، وهي تستطيع ان تكتب جملة ذات معنى ،

---

(٥) سبق ان قدمنا دراسة مستفيضة عن هذا الموضوع بعنوان « قرود تقرأ وتكتب .. ومن البشر امة جاهلة » .. مجلة الهلال القاهرية : عدد نوفمبر ١٩٧٦ .

وقد تصل كلماتها الى اربعة او خمسة ، لكن هذه الكلمات ليست مثل كلماتنا ، بل هي اشكال معينة تشبه اشكال اللغة عند قدماء المصريين .

والعلماء في سعيهم الغريب في ذلك المجال يريدون أن يعرفوا ان كان الانسان هو المخلوق الوحيد على هذا الكوكب الذي جاء بلغته دون سواه ، او ان اللغة يمكن ان يتعلمها الحيوان . صحيح ان العلماء يكتشفون كل يوم من وجود لغات محددة تستخدمها الحيوانات المختلفة ، لكن ذلك لا يعني ان للحيوان لغة متطورة ومعقدة كالتي يستخدمها البشر .. فاللغة – على اية حال – وسيلة من وسائل التخاطب ونقل الافكار والمعلومات والتعبير .. الخ ، لكن ليس امرا محتوما أن تكون اللغة منطوقة لكي تصبح مفهومة ، بل يمكن احيانا ان تعبر عما يجول في خاطرك بالاشارة او بتغيير قسمات الوجه .

ويسوق المؤلف امثلة تؤيد ذلك ، فيذكر ان الطفل المعزول عن تعلم او سماع اية لغة لا يستطيع ان يتكلم او يتحدث ، بل تصدر منه اصوات قريبة من اصوات الحيوان ، أي ان اللغة تلقين واستيعاب ، وانها تتطور بتطور مدارك المخ ، وقد يعترض معترض على ذلك ويقول : ان الانسان وحيد بين الكائنات لانه متفوق عليها فكريا ، لكن بعض العلماء يقولون : ان لبعض الحيوانات افكارا ، وهي احيانا تظهر في بعض الذكاء ، ويسوق المؤلف امثلة من التجارب التي تمت في هذا المجال ، وكيف ان بعض القردة العليا تستطيع ان « تفكر » في مشاكلها ، وتجد لها حلولها .. طبعا على قدر ادراكها ، وهذا يعني انه لا توجد حدود فاصلة ، او هوة سحيقة بين لغة الانسان ولغة الحيوان .

ويشير المؤلف الى ان الملاحظات التي جمعها العلماء عن سلوك بعض الحيوانات قد تكون المؤشر لوجود مبادىء لغة قريبة من لغاتنا ، فقبيل خروج كلاب البراري للصيد في جماعات ، فانها تتبادل بافواهها ما يشبه القبل الحارة ، وكانما هذه الكلاب – من خلال هذا السلوك ، وكما يضعها امامنا العالم الطبيعي ادوارد ويلسون – تقول لبعضها : اني وهبت نفسي معك للصيد الجماعي ، وسأقتسم مع المجموعة طعامي . دعنا ننطلق .. دعنا ننطلق » . وبعدها تنطلق الكلاب في رحلة الصيد .. ويضيف بليكمور الى ذلك رقصة النحل التي تتخذها كلغة خاصة لتوجه بها قومها نحو الطعام (٦) ، وتحذرها من خطر قادم .. الخ .

لكن لغة الحيوان لا يمكن ان تقارن بلغة الانسان الناطق ، ولا شك ان النطق خطوة هامة جدا في تطور المخ ، ومن اجل هذا انطلق العلماء في البحث في خفايا المخ عن امكان وجود منطقة خاصة بالكلام ، ولقد تحقق ذلك – كما يقول بليكمور – في القرن الماضي عندما قدم الجراح والعالم الشهير بيير بول بروكا في عام ١٨٦١ حالة مريض – في أحد المؤتمرات العلمية – فقد ملكة الكلام ، ولم يستطع ان ينطق الا كلمة « تان » .. وعند وفاته ، قام بتشريح مخه ، فلاحظ ضمور منطقة محددة وواضحة في الفص الايسر من المخ ، ثم تحقق من ذلك في ثماني حالات مماثلة وغريبة ، ثم يقدم المؤلف حالات اخرى اغرب ، وهي التي درسها العلماء حديثا .

(٦) الواقع ان لغات الحيوانات تتخذ صورا كثيرة جدا ،فقد تكون بالاشارة او الحركة او الصوت او الضوء، او الرائحة او الجزيئات الكيميائية العطرية ... الخ ... الخ،وهي بلا شك ذات فاعلية في توجيه الانواع المختلفة الى ما هو ميسر لحياتها .

وفي نهاية هذا الفصل يناقش المؤلف تطور الحياة ، والحقبة التي ظهرت فيها قدرة الانسان على النطق او الكلام (حوالي ١٠٠ الف عام قبل الميلاد) ، ويشير الى ان لغة الاشارة قد سبقت لغة الكلام ، فالطفل يعبر عن نفسه بالاشارة قبل ان يتكلم ، ثم يبدأ في تعلم الكلام من والديه ومرافقيه ، لكننا قد لا نتخلى احيانا ـ ونحن كبار ـ عن لغة الاشارة (وهو ما تستخدمه ايضا بعض الحيوانات للتفاهم) ، ثم يعرض علينا قصصا او اساطير شارحة لنشأة الكلام عند الانسان فيذكر ان احد ملوك الفراعنة قد سلم راعي غنم اخرس طفلين وليدين ، وكان يرضعهما لبن الماعز ، ولم يتصلا او يسمعا انسانا يتكلم ، ولما اصبحا صبيين ، وحضرا امام الفرعون ، لم يستطيعا ان ينطقا الا كلمة « بيكوس » ، وتعني الخبز .. ثم يحكي لنا قصة اخرى اغرب من الامبراطور المغولي اكبر خان ، ففي عاصمته اكرا ، وفي احدى القلاع ، وضع ١٢ وليدا مع مربيات خرساوات اصمات ، وبعد اثنى عشر عاما جيء بالصبيان الى بلاطه دون ان يعرفوا كلمة ، ولا ينطقوا كلمة ، ومع ذلك ، فلقد كانوا يتخاطبون مع بعضهم بسهولة من خلال لغة الاشارة او الايماءة ، وهي اللغة التي يحاول العلماء تعليمها ايضا للقرود ، لتكون اداة للتخاطب ، وهو ما قدمه المؤلف حقا في اول هذا الفصل من الكتاب .

ومن قديم الزمن عرف المهتمون بالعلوم التشريحية ان المخ يتكون من نصفين متماثلين ويصل بينهما ما يشبه القنطرة او القناة التي تمتد فيها ملايين الالياف العصبية ، ولقد تساءل العالم النفسي جوستاف تيدور فيشر منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر عما يمكن ان يحدث للوعي او العقل اذا ما قطعنا قناة الاتصال بين نصفي المخ ، ليستقل كل نصف بذاته ، ودون تعريض حياة الكائن الحي للخطر .

من هذا المنطلق يبدأ بليكمور فصله السادس والاخير بعنوان « الجنون والاخلاقيات » ، ويذكر ان عملية فصل نصفي المخ قد تمت اولا في عالم الحيوان دون ان يحدث اخلال بوظائف الاعضاء ، وهذا ما شجع بعض جراحي المخ على اجراء العملية ذاتها على مخ الانسان ، وتحت حالات خاصة تستدعي ضرورة عملها ، ففي حالات الصرع الشديد والميئوس من علاجه تم قطع القنطرة الواصلة بين نصفي المخ وفصلهما تماما في عدة حالات ، وبعدئذ خفت حدة الصرع الى ابعد الحدود ، ولم يبد على المرضى اية اعراض ظاهرة غير عادية ، لكن الدراسات الطويلة ، والملاحظات الدقيقة اثبتت ان كل نصف يشتغل دون الاعتماد او الاحساس بما يجري في النصف الاخر ، مما ادى الى عدم التناسق او التوازن الطبيعي .

ولقد انبثقت من عملية فصل نصفي المخ بعض حقائق مثيرة ، فلقد تبين ان كل نصف وحدة قائمة ومتكاملة بذاتها ووظائفها وان كل نصف يخدم جانبا معاكسا من الجسم ، فنصف المخ الايمن يخدم النصف الايسر ، والعكس ايضا صحيح ، كما اتضح ايضا ان النصف الايسر يسود على النصف الايمن ، ففي الايسر يوجد مركز الكلام او النطق ، لكن المريض الذي فصل فيه نصفا مخه لا يستطيع ان ينطق اسم شيء يراه بعينه اليسرى ، فاذا ما نظر اليه بعينه اليمنى عرفه ونطقه ، كما انه لو امسك شيئا بيده اليسرى (كمفتاح مثلا) ، فانه لا يعرف عنه شيئا ، فاذا نقله الى اليمنى ، عرفه ونطقه (لان اليد اليمنى والعين اليمنى ترسل تعليماتها الى النصف الايسر الذي فيه مركز الكلام ، في حين ان اليد اليسرى تنقل الاحاسيس الى الجزء الايمن ، وليس في

هذا الجزء مركز للكلام ، ومن هنا لا يستطيع ان ينطق كلمة او اسما او صفة ... الخ) .

ثم تتضح لنا ايضا امور اغرب ، فرغم ان الجانب الايمن من المخ لا يعرف شيئا عن النطق ، الا انه يستطيع ان يقرأ ، فلو ان كلمة « مشط » قد جاءت مضيئة على يسار شاشة واسعة ، وبحيث يستقبلها النصف الايمن فقط من المخ (اى تنتقل بالعين اليسرى فقط) ، فان المريض لا يستطيع ان ينطق كلمة مشط ، لكنه يعرف معناها ، يمد يده ليلتقط المشط من بين اشياء اخرى مبعثرة بدون نظام ! .. ومن التجارب الكثيرة التى اجريت فى هذا المجال يتضح ايضا ان النصف الايمن من المخ مختص بالصفات والاسماء ، لكنه ضعيف فى استيعاب الافعال او معرفة معناها .. ومن مجمل التجارب التى اجراها العلماء واوردها المؤلف يمكن القول باختصار ان النصف الايسر من المخ هو الذى يتحكم اكثر فى عمليات الكلام والكتابة والحساب والرياضيات والتفكير المنطقى المرتب ، فى حين ان النصف الايمن هو الذى يتعرف اكثر على اوجه الناس ويحب الموسيقى ، ويهوى الفنون الجميلة ، ويعمل بطريقة بدهية او فطرية ... الخ ، ولهذا ـ وكما يقول المؤلف ـ يذهب البعض الى القول بان اهل الشرق يعتمدون اكثر فى فنونهم وعواطفهم وحضاراتهم على النصف الايمن ، فى حين ان الغرب الان يشتغل اكثر بنصف راسه اليسرى (٧) .

ومن خلال هذه الكشوفات المثيرة التى حققها العلماء فى ثنايا امخاخنا ـ والتى لم تتعرض لها هنا تفصيلا لضيق المجال ـ ينتقل المؤلف ليعرض علينا محاولات العلماء فى السيطرة على هذه المراكز فى عالم الانسان والحيوان ، ومن اهم ما حققه العلماء فى هذا المجال هو زرع اقطاب كهربية جد صغيرة فى مناطق محددة بالمخ ، ولقد ظهر ان اكثر المناطق استجابة للاثارة بهذه الاقطاب منطقة صغيرة فى قاع المخ يطلق عليها اسم تحت المهاد البصرى او تحت سرير المخ Hypothanlamus .. ففى هذه المنطقة تكمن الدوافع التى تتحكم فى الجوع والعطش والجنس ، وبجوارها ايضا يوجد الجهاز اللمباوى Limbic System والذى يعتقد انه يتحكم فى عواطفنا مثل الهياج والخوف والفرح .. الخ ، فاذا امكن التلاعب فى هذه المناطق الحساسة من المخ ، فان الثور الهائج مثلا قد يتحول الى حمل وديع ، او انها قد تضحك الباكى ، او تبكى الضاحك ... الخ ، ثم يتساءل المؤلف : لكن .. هل يمكن ان ياتى اليوم الذى تتحكم فيه فى عقول البشر ونثيرهم ـ غضبا او ارضاء ـ بتلك الوسائل العلمية ؟

ويجيب المؤلف على ذلك بتقديم امثلة كثيرة ، منها الاثر الذى يتركه احد القواد فى تحريك جيش باكمله لياتمر بامره ، او الاقناع الذى يمليه زعيم على الجموع البشرية فيرضيها او يثيرها ، فهذا وغيره اعظم من كل ما قد نزرعه فى امخاخ الناس لنصل الى الهدف ذاته ، وهو يعنى بذلك سيطرة عقل على عقل ، لا سيطرة الوسيلة العلمية ـ قطبا كان ذلك او دواء ـ على العقل .

---

(٧) الواقع اننا لا نميل الى هذا الراى ، فهو مجرد تكهنات لا يقوم عليها دليل ، كما ان الانسان ابن بيئته التى نشا فيها، وهو عادة ما يتاثر بها ، ويؤثر فيها .

وفى النهاية يناقش المؤلف ظاهرة الخلل التى تصيب بعض العقول بالجنون أو بعض الامراض النفسية ، ويذكر ان الذين يزورون مصحات الاطباء النفسانيين فى بريطانيا وحدها يصل الى اكثر من ٦٠٠ الف فرد سنويا ، ويشير الى عبارة وردت على لسان ر. د. لاينج « ان مرض العقل ليس الا نتيجة حتمية لاخطاء المجتمع (٨) .. لم يذهب المؤلف الى القول بان بعض الامراض النفسية فى المجتمعات البدائية والمتخلفة لا تعتبر امراضا ، بل هى نتيجة لقوى غيبية ، فتمنح تلك الحالات او تقدس ، وهذا يتوقف على مصدر هذه القوة التى حلت بالنفس البشرية وغيرتها ـ على حد اعتقاد الناس .

واخيرا يناقش دور الطب والدواء والعلاج الحديث فى السيطرة على امراض العقل او المخ ، وهو دور ليس فعالا حتى الان ، ولا بد من بحوث اعمق فى ثنايا امخاخنا « فالمخ الذى يكافح لفهم المخ انما هو مجتمع يريد ان يفهم ذاته » ـ على حد تعبير بليكمور .

* * *

(٧) لكن ذلك ليس حتما ، فهناك عوامل كثيرة بيئيةوطبيعية وبيولوجية وسلوكية تتداخل فرادى او مجتمعة لتسبب الاجهاد والتوتر والانقباض وغير ذلك من امور تؤثرعلى العقل ـ وتصيبه باعراض شتى .

انشتين *

عرض وتحليل : د. محمود احمد الشربيني

مائة عام مضت على يوم ان ولد « **البرت اينشتين** » الذى قال عنه « برتراند رسل » انه لم يكن عالما عظيما فحسب ، بل كان قويا مع السلام فى دنيا على شفا حرب ، وصامدا مع العقل فى دنيا على حافة الجنون ، وداعيا الى التسامح فى دنيا تنادى بالتعصب .

وهكذا لم يكن غريبا على لجنة دولية لتدريس الفيزيقا وكنت أحد اعضائها لفترتين متتاليتين فور انشائها عام ١٩٦٠ لم يكن غريبا ان تجتمع هذه اللجنة عام ١٩٧٦ وتقرر الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد « البرت اينشتين » رجل الفيزيقا الذى يرى أن علم الفيزيقا جزء ضرورى فى حياة الانسان اليومية وحيوى للثقافة العامة .

اعود واقول لقد قررت اللجنة احياء ذكراه باصدار كتاب عنوانه « **اينشتين ، مجلد الذكرى المئوية** » وكان طبيعيا ان يصبح الاستاذ « فرنش » رئيس اللجنة الحالى المحرر المسئول من اخراج هذا الكتاب . وجاء الكتاب مجموعة من مختارات مأخوذة من كتب سبق نشرها او مقالات ظهرت فى مجلات ، وبذلك ساهم خمسة وعشرون كاتبا ، بين عالم وفيلسوف ومؤرخ ومصور ، فى اخراجه .

قرات الكتاب بامعان ، فقد سبق ان قرات كتبا كثيرة فى موضوعه ولكنى لمست فيه جديدا مع حسن اختيار . وهو يقع فى ٣٣٢ صحيفة ، وبه اربعة ابواب وثمانية وثلاثون شكلا بين رسم وصورة . واختص **الباب الوارد بالذكريات ، والباب الثانى بالسيرة والاعمال ، والباب الرابع بالمؤلفات** . وتشابك الابواب فى انسيابية لاتشعرك ابدا بملل رغم عمق ودقة ما عطه « اينشتين » من تغيير فى التفكير العلمى تعداه الى الفلسفة والاجتماع والاقتصاد .

* A. P. French : Einste n, A Century Volume, Heinemann, 1976.

تمهيد

دفعتني احاسيس مختلفة ، وقد استعرضت هذا الكتاب ، ان امهد له فقد رأيت « اينشتين » في « لندن » عام ١٩٣٣ ، **رأيته رؤية العين، وتنبيء النظرة العابرة اليه** بانه رجل ثائر . فشعره على رأسه ، وملابسه ثائرة على جسمه ، والكلمات الانجليزية تخرج من فمه كلمة اثر كلمة في صعوبة ، وكأن لسانه يبذل مجهودا فوق الطاقة بقذف الكلمة قوية متكسرة بين الحين والحين ، وتشعر انه أن يستطيع ان يتم محاضرته واذا به يقولها بتمامها دون ان ينقص منها شيئا .

ولم اعد اذكر من محاضرته غير نصيحة واحدة بوجوب العكوف على البحث العلمي والاخلاص له ، مع اختيار احسن الوظائف ملاءمة كمرفرق للعالم واقترح وظيفة حارس لفنار في وسط البحر وكان غريبا ان اسمع هذا من صاحب « النظرية النسبية الخاصة » وصاحب « النظرة النسبية العامة » وصاحب البحوث العدة في « الحركة البراونية » و « الديناميكيا الاحصائية » و « الميكانيكا الموجية » و « الكهرباء الضوئية » و « الحرارة النوعية » .

انى اعلم انه لم يكن حارس فنار ، بل ان الحياة كانت قاسية عليه ، ومن يدرى لعله **وهو قريب من الحياة بعيد عنها . ولعله** يعاني من الوحدة النفسية ما يعاني ، لكن غاظني انى دفعت مالا لحضور هذه المحاضرة ، واشتد غيظي من رصد هذا المال لغير العلم ، وما كنت اظن ان عالما ينادى بالنسك العلمي بجمع المال لغير العلم وكان ان اردت ان ارجع الامور الى اصولها فاستقصيت تاريخ حياته .

فاذا به قد ولد في ١٤ مارس من عام ١٨٧٩ في مدينة « أولم » من جنوب المانيا من اسرة **يهودية غير مستقرة انتقلت بعد عام من ميلاد** الطفل الى ضاحية من ضواحي « ميونخ » وكان ابوه يملك مصنعا كيميائيا كهربيا صغيرا، وساعد الاب في ادارة المصنع اخ له مهندس وهو عم الطفل ، وكانت هواية ام الطفل الموسيقى ولا سيما موسيقى « بيتهوفن » . فكان من الطبيعي ان تجبره امه على تلقى **دروس على الكمان وهو في السادسة من عمره** وكان ان اقبل على هذه الدروس كارها ثم روض نفسه على ما يكره حتى انقلبت الكراهية حبا ، فاصبح يحب الموسيقى ، بل كان يفزع اليها طوال أيام حياته لتهدىء من نفسه وتسبغ عليه نعمة الرضا والطمأنينة وراحة البال بعد عناء العمل ، وكان الاثير عنده من الفنانين « موزارت » .

وكان الله قد اراد له ان يتأمل قبل ان ينطق، وان يختزن في الوعى قبل ان يفيض في الحديث، فعجز عن ان يفصح عما في نفسه حتى موعد متأخر عن اترابه من الاطفال فتأخر في النطق حتى ظن به الشذوذ وخشى عليه من البله ، **وقد انف ان يشارك زملاءه العابهم وانطوى** على نفسه ينعم باحلام اليقظة وينأى عن اى مجهود عضلي ولو كان لعبا للتسلية ، وبان امتعاضه وعدم استساغته لما يتذوق الطفل العادى من مناظر مثيرة ، فقد كان يتألم عندما يرى التدريبات والاستعراضات العسكرية وما اكثرها وقتذاك في شوارع « ميونخ » وما كان يحتمل ان يرى الانسان يتصرف ولو في مشيته **تصرفا آليا كالالة الميكانيكية الصماء .**

ثم دخل « اينشتين » الطفل المدرسة وكانت مدرسة اولية كاثوليكية فقد كانت المدارس في « ميونخ » تحت اشراف هيئات دينية ولم تهتم اسرة « اينشتين » كثيرا بالدين فلم تجد

الاسرة لرابة وهي اليهودية دينا ان يكون ابنها كاثوليكيا تعليما .

وانتهى « اينشتين » من دراسته الاولية والتحق بمدرسة ثانوية وهو في العاشرة من عمره ودرس في هذه المدرسة تعاليم الديانة اليهودية ، وتفاعلت تعاليم اليهود مع تعاليم الكاثوليك التي سبق ان تعلمها في المدرسة الاولية ، وخرجت منه شابا ملحدا لايدين بدين ، ويشعر بان الاديان معوقات تعوق التفكير الحر الطليق ، وكفر بالقيم الروحية التي جاءت بها الاديان ، والانسان لا يفيق الى دينه حتى تأتيه القارعة ، والا استبق الحوادث واقول قد جاءته القارعة على يد « هتلر » عام ١٩٣٣ فاذا بـ « اينشتين » العالم يعود يهوديا متعصبا لليهود ولكني افضل ان اساير الحوادث خطوة خطوة واعود الى المدارس الثانوية وارى الطالب « اينشتين » يخطو خطوات بطيئة في دراسته ، فقد كان يكره استذكار الدروس عن ظهر قلب دون فهم او تفهم .

ويجمل ان اذكر الاثر الذي تركه عمه في نفسه وفي مستقبل حياته فقد حبب اليه دراسة الرياضيات وكانت لعمه طريقة طريفة في تقريب العلم الى ابن اخيه فكان يتحدث عن الجبر ، انه العلم الذي يقلل كمية العمل المطلوب لحل مسألة من المسائل ولقد فرح ابن الاخ بهذا العلم واعتبره علما للتسلية ، كان تخرج لصيد حيوان مجهول « س » حتى اذا وقع في الفخ عرفت ما هو « س » ثم ملك عليه تفكيره علم الهندسة وشعر بانه العلم الذي يرغبه ويريده فاخذ بلبه التسلسل في المنطق والدقة في التعبير ، والوصول بمعطيات معلومة الى الهدف المجهول ، وهو البرهان المطلوب .

وكثيرا ما كان يذكر بدء دراسته لهندسة « اقليدس » كأهم اثر مر عليه في شبابه ، وفي عامه الثاني عشر وعلى وجه التحديد ، بل ذهب الى ابعد من ذلك بان تنبأ بفشل الباحث النظري الذي لم يشعر في شبابه باهمية هندسة « اقليدس » وبقدر ما كان « اينشتين » مميزا في الرياضيات فقد كان متأخرا في العلوم التي تعتمد في دراستها على الاستذكار . ثم زاد الطين بلة ان شعر اساتذته في المدرسة الثانوية بعدم توقيره اياهم وخضوعه لهم خضوعا تاما مما ادى الى فصله من المدرسة . فصل وذهب ليلحق بابيه في « ايطاليا » فقد اضطر ابوه قبل فصله بعام الى ان يصفى اعماله في « ميونخ » ويرحل الى « ميلانو » ليبدأ عملا جديدا تاركا ابنه وهو في الخامسة عشرة من عمره في « ميونخ » ليتم دراسته الثانوية وكان ان فصل وذهب الى « ميلانو » .

ثم اخذ يفكر في مستقبل حياته وهو يرى اسرته وما وصلت اليه واستقر رأيه على ان يتخذ من التدريس مهنة له فررد ان يؤهل نفسه ليكون مدرسا في الفيزيقا النظرية ، واعتزم ان يلتحق بمدرسة « البولتكنيك الفيدرالية » السويسرية الشهيرة بـ « زيورخ » وتقدم الى الامتحان وخانه الحظ .

وقد استرعت اوراق اجابته اهتمام مدير « البولتكنيك » اذ بانت له القدرة الفائقة في الرياضيات والضعف الواضح في اللغات وعلوم الحياة .

فتطوع ليساعده وادخله مدرسة توطئة في « البولتكنيك » وكانت المدرسة على غير غرار مدرسة « ميونخ » فقد تركت الحرية للطلاب في ان يفكروا بانفسهم ولا يعتمدوا على الاستذكار . وكان ايضا على اتصال مباشر بالمدرسين يناقشونه ويمحضونه النصح ، وهناك شعر « اينشتين » بحياة افضل تتفق وميوله وكان ان نجح والتحق بمدرسة « البولتكنيك الفيدرالية » بـ « زيورخ » والدراسة تحتاج الى مال وقد عجز ابوه من القيام بأي مساعدة مالية ، ولكنه حصل على المال من قريب له ، واخذ يؤهل نفسه لمهنة

التدريس فاكتسب الجنسية السويسرية ، واصبح مواطنا سويسريا ، حتى لا تمتنع عليه الوظيفة المرجوة وهو الرجل الممتاز والحاصل على خطابات توصية من أساتذة تشهد بانه شخص من الطراز الاول .

ورغم كل هذا عزت عليه الوظيفة وقبل وظيفة فاحص في مكتب التسجيل السويسري في « برن » وكان ذلك عام ١٩٠٢ ولم تمنعه مهام الوظيفة من ان ينظر في العلم ويبحث عن المجهول فنال شهادة الدكتوراه عام ١٩٠٥ ، وقد كانت هذه السنة خصبة اذ انتج فيها «النظرية النسبية الخاصة» وأبحاثا أخرى في « الحركة البراونية » و «الديناميكا الاحصائية» و « الكهرباء الضوئية » . وبدأ يحتل مكانا مكينا بين العلماء ، وتهافتت عليه الجامعات تطلبه استاذا فكان استاذا فوق العادة في جامعة « زيورخ » عام ١٩٠٩ ثم استاذا ذا كرسي في جامعة «براغ» عام ١٩١١ واستعادته جامعة « زيورخ » عام ١٩٠٩ ثم استاذا في الاستاذية في « البوليتكنيك » حيث كان طالبا وذلك عام ١٩١٢ ، وحظيت به من بعد ذلك « برلين » استاذا متفرغا للابحاث عام ١٩١٤ فاصبح استاذا في معهد القيصر « ولهلم » وعضوا في الاكاديمية الملكية البروسية ، ولم يمض على تعيينه عام واحد حتى اذهل العالم بـ « النظرية النسبية العامة » عام ١٩١٥ .

وكان العالم عليه حق فقام بجولة علمية لالقاء محاضرات في « انجلترا » و « الولايات المتحدة الامريكية » ثم جرى عليه ما جرى على يهود المانيا عام ١٩٣٣ فتحركت فيه النوازع الدينية الكامنة فاصبح عضوا للحركة اليهودية ، وان نادى بوجوب قيام حكومة عالمية واعتذر عن ان يكون رئيسا لـ « دولة اسرائيل » معلنا عجزه عن معالجة المظالم البشرية وان نجح في معالجة المسائل الفيزيقية.

وقد احتضنته «الولايات المتحدة الامريكية» وعينته مديرا لمدرسة الرياضيات في معهد الدراسات العليا في « برنستون نيوجرسي » حيث ارسل خطابا الى الرئيس « فرانكلين روزفلت » في خريف عام ١٩٣٩ ينبئه بامكانية عمل قنبلة يدخل في تكوينها « اليورانيوم » ولها فاعلية قوية في الهدم والتدمير ... ثم ندم على ما فعل وذلك بعد ان القيت القنبلة الذرية على « هيروشيما » في ٦ اغسطس عام ١٩٤٥ .

وقد قدره العلم والعلماء اذ منح عام ١٩٢١ جائزة نوبل لاعماله في «الفوتونات» و «النظرية الكمية » .

وقد حاول ان يذيب القوانين في قانون واحد بان نشر عام ١٩٥٠ محاولة لذلك سماها « نظرية المجال الموحد » ومات في ١٨ ابريل عام ١٩٥٥ .

الباب الاول : ذكريات

أعود الآن الى الكتاب الذي نحن بصدد عرضه لنرى تفاصيل ما اجملت ، والخطوات التي انخلت ، والصعوبات التي ازيلت والجهد الذي بذل .. ونبدأ كما بدأ الكتاب بالذكريات : ذكريات ثمانية عشر عالما ومؤرخا وقد ترددت كثيرا في ان ابدأ كما بدأ الكتاب ، اذ ان بعض الذكريات تمس نظريات اينشتين وهي تحتاج الى شرح وتمهيد ، ولكني استخرت الله ان اخطو خطوة خطوة وابدأ بذكريات المستشار العلمي للحكومة الانكليزية « سنو » وقد نشرها في كتاب عنوانه « منوعات من الرجال » حيث استعرض تاريخ حياة « اينشتين » ونوه عن رباطة جاشه فقد كان معنيا بالابحاث العلمية والحرب العالمية على قدم وساق ، اذ ارسل عام ١٩١٥ خطابا الى العالم الفيزيقي « ارنولد سومرفيلد » يخبره عن توصله الى « نظرية التثاقل » وكيف ان اول تقريب لها يعطينا « نظرية نيوتن » للجاذبية الارضية ، وكيف انها نجحت في التنبؤ بخط سير الكوكب عطارد ثم انها بينت علة انحراف الاشعة الضوئية

الصادرة عن النجوم عند مرورها بجوار الكتلة الشمسية ، واخذ « سنو » يقارن بين « نيوتن » و « اينشتين » ويعيب على « نيوتن » قبوله رئاسة دار لصك العملة النقدية وتفرغه النظر فى الكتاب المقدس ، وعزوفه عن البحث العلمي الفيزيقى اراحة لنفسه فى اواخر ايام حياته وفى الوقت نفسه مدح « سنو » « اينشتين » لانه بقى مخلصا لعلم الفيزيقا حتى اخر نفس تردد فى صدره وكثيرا ما ردد « اينشتين » قوله ان الشخص الذى يتاح له كشف الغطاء عن سر من أسرار الطبيعة فقد اوتي علما واعطى فضلا كبيرا ، وكثيرا ما ردد ايضا قوله ان الله ما خلق القوانين ليلهو ويجعل للمصادفة مجالا فى قدره . . ردد هذا القول وهو يجادل العلماء المتمسكين والمنادين بسيطرة الاحتمالات والاحصاء على القوانين وبقى طيلة حياته يحاول الوصول الى « نظرية المجال الموحد » حيث تبرز من صلبها القوانين الاساسية فى حتمية وصيرورة محددة .

والان يحسن بنا أن نسرع بالقاء نظرة على « مقتطفات من سيرة » الصديق « موريس سوليفين » وقد بدات معرفته بـ « الشخص » عام ١٩٠٢ وتوطدت الصداقة وتبودلت الرسائل بينهما بعد ان افترقا وكانت الرسائل موضوع كتاب عنوانه « خطابات الى موريس سوليفين »

والمقتطفات جزء من الكتاب اذ جاء فيه انه قرا اعلانا في الصحف فى عام ١٩٠٢ يعلن ان « البرت اينشتين » طالب سابق فى البولتكنيك بـ « زيورخ » يعطى دروسا فى الفيزيقا ويتقاضى اجرا فى الساعة مقداره ثلاثة فرنكات .

وكان ان يمم شطر العنوان المذكور فى الاعلان وقابل « اينشتين » واخبره انه جاء الى « برن » لدراسة الفلسفة ويرغب فى ان يوصل معلوماته فى علم الفيزيقا حتى يعمق ويصل الى معرفة سليمة في هذا العلم لم تجاذبا اطراف الحديث وظهر له ان رغبة اينشتين الاولى كانت دراسة الفلسفة ولكنه عف عنها لغموض راه فيها ، ومعطيات تحكمية تسيطر عليها .

وما هي الا أسابيع حتى انضم اليهما ثالث هو « كونراد هابشت » جاء بدوره الى برن ليهيء نفسه ليصبح مدرسا فى الرياضيات .

وكثيرا ما كان يقول « اينشتين » لهما ان اسهل سبيل لكسب لقمة العيش هو ارتياد الاماكن العامة عازفا على الكمان ، ولكن عندما يفغر عن مطالب الحياة يكثر الحديث عن ابحاثه المنشورة ، فقد نشر عام ١٩٠٢ بحثا عن « نظرية فى أسس الديناميكا الحرارية » ونشر عام ١٩٠٤ بحثا عن « النظرية الجزيئية العامة للحرارة » ونشر عام ١٩٠٥ بحثا عن « الديناميكا الكهربائية للاجسام المتحركة » سمتها « نظريته الخاصة » وكان يفخر دائما ان الوحيد بين العلماء الذى استشعر اهمية « نظرية النسبية الخاصة » هو « ماكس بلانك » أول من نادى بان الاشعاع يتصرف احيانا كانه حبيبات او كمات ، وبذلك حكم بالتقطع على الاشعاعات واصبح الضوء مصابا بازدواج الشخصية نصفه بالاستمرار احيانا ، لاننا نراه كذلك ، ونصفه بالتقطع احيانا اخرى ، لانه يتصرف كذلك ، فهو موج احيانا وحبيبات او كمات احيانا أخرى ، وعندما يظهر فى صورة تختفى الصورة الاخرى ، وهذا عرض اساسي من أعراض ازدواج الشخصية .

ويجمل ان اذكر « **ميشيل بسو** » زميل اينشتين اذ عمل معه فى مكتب تسجيل براءات الاختراعات الذى عين فيه اول ما عين ، اذكره لان الخطابات المتبادلة بينهما ظهرت فى كتاب عنوانه « مراسلات اينشتين — بسو ١٩٠٣ — ١٩٥٥ » ولعل القارىء يجد فيها متعة وتسلية ولكنى اسرع لاسجل بعضا مما كتبه « لويس دى بروجلى » الذى كشف عن اصابة المادة بمرض ازدواج الشخصية كما أصيب الضوء من قبل ، فهي ذرات احيانا وهي أمواج احيانا اخرى . وجاء عام ١٩٢٣ وحاز على درجة الدكتوراه نتيجة لهذا الكشف الذى فتح افاقا فى العلم جعلته جديرا بجائزة نوبل فيما بعد .

وكان طبيعيا وقد استخدم « دى بروجلى » النظرية النسبية الخاصة » في استنتاج علاقة بين طول موجة الالكترون ، باعتباره موجا ، وسرعته وكتلته باعتباره جسيما ، وهذه العلاقة هي صلب رسالته للدكتوراه من جامعة السربون . كان طبيعيا ان يرسل الرسالة الى « اينشتين » الذى تفذ بفكره الثاقب الى لباب الموضوع واطن اهمية هذه الرسالة . وقد ساهم « دافسن » و « جيرمر » وكذلك « طومسن » عمليا في اثبات صحة هذه العلاقة وبجانب كل ذلك حرضت « شرودنجر » لاستنباط معادلة حركة اصبحت اساسا للميكانيكا الموجية » .

انتهز « دى بروجلى » الفرصة وقد دعا ، دعاة « لورنتز » لحضور مؤتمر « سولوفاى » عام ١٩٢٧ ليقابل « اينشتين » شخصيا وقد سبق ان استمع له محاضرا في جامعة السربون حيث استقبل « اينشتين » « دى بروجلى » الذى غمره الاحساس بالبساطة والشعور بعمق النظرة والاخلاص بدفء الصداقة ، وقد برآه من الافذاذ القدامى الذين يتمسكون بآرائهم لايحيدون عنها فما عجب ان وجده ينأى عن تفسيرات تزعزع اليقين العلمى وتجرى وراء المصادفة والاحتمالات .

اخشى ان اتهم انى اهملت ذكريات « روبرت اوبنهيمر » مدير معهد الدراسات العليا في « برنستون » وعذرى ان ذكرياته تدخل في صميم اعمال « اينشتين » وبالتالى من اختصاص الباب الثانى من الكتاب ، وعلى كل فانا نجدها ونجد غيرها في مجموعة « اليونسكو » التى عنوانها « العلم والتركيب » وقد ألقيت عام ١٩٦٥ في حفل بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة « اينشتين » .

الباب الثاني : « اينشتين واعماله »

جاء الفصل الاول من هذا الباب ليتحدث عن حياة « اينشتين » ، ثم جاء الفصل الثانى ليتحدث عن « النظرية النسبية الخاصة » ، والثالث والرابع عن « النظرية النسبية العامة » والخامس عن « اينشتين وتطور فيزيقا الكم » ويعرض في بقية الفصول آراءه في الثقافة والفلسفة والتدريس وغيرها .

التمهيد الثاني

اجد لزاما على ان امهد « النظرية النسبية الخاصة » و « النظرية النسبية العامة » واقول انكرت النظرية النسبية مالا تحسه ، فهى تتمسك بالواقعية ، تقبل الظواهر الطبيعية على علاتها وان جاءت على خلاف العادة المتبعة ، فالنور يمر في الفراغ الخلو من المادة بسرعة ثابتة جامدة مطلقة لاتحتاج الى اسناد ، ولايختلف اثنان في نتيجة قياس قيمتها مهما كان اختلاف ظروفهما او ظروف تجربتهما ، والتسليم بنتيجة هذه التجربة هو تسليم بالواقع التجريبى

والحكمة واضحة ضاقت النظرية النسبية بالوجود وانشقت عليه العدم وذلك اذا تساوى الوجود وعدم الوجود ، ولاعجب الآن اذا ضاقت النسبية بالاثير وسطا يحمل النور الينا وفى امكان النور ان يصل في غير وسط . ثم جعلت النسبية للنور مركز الامتياز فكانت سرعته في الفراغ مطلقة ثابتة دائما حتى ولو كان الراصد سرعة تقارب سرعة النور ، وكذلك انكرت النسبية المركزية في العالم وجعلت كل منطقة كفيلة بقوانينها وان تشابهت القوانين فقد قدست شكل القوانين ، وحفظت للشكل هيكليته مهما كانت الاحوال . .

وبينت النظرية النسبية انه لا يصح ان نستنتج سلوك الاجسام المتحركة بسرعات كبيرة من سلوكها عندما تتحرك بسرعة بطيئة ، ولكنها سلمت بالعكس ، فالعكس صحيح ، بمعنى ان الحركة البطيئة هى حالة خاصة من الحركة السريعة ... والزمن عندما يبطىء ويسرع حسب الحركة ، والمكان ينكمش ويستطيل

حسب الحركة والكتلة ايضا فقدت معناها اذ تزداد بازدياد السرعة .

ويحسن ان اقرر ان هذه الظواهر اتفقت والتجربة . واضيف ان **النسبية انكرت وجود زمان بمفرده ووجود مكان مستقل بمفرده وبينت ان بساطة العلم فى تفسير الظواهر الطبيعية تحتم اندماج الزمان والمكان حيث لايمكن تمييز شقيه ....** وهناك اتحاد لايقل اهمية عن الاندماج فاصبحنا نعجز عن التمييز بين الكتلة والطاقة ، حتى اننا وجدنا طاقة الجسم الساكن هو كتلته الساكنة لو اتخذنا سرعة الضوء وحدة للسرعات وبذلك وضعت الكتلة تحت وصاية الطاقة ... بل هناك اذابة لاتقل عن الاندماج والاتحاد وهى اذابة الطبيعة فى الشكل الهندسى فاصبح مجال التجاذب الطبيعى او ما يسمى بالتثاقل ليس مجال قوة ليزيقية بل هو مجال هندسى غير منبسط وغير مزود بقوة ما .. والحيز الخلو من المادة والكهرباء والاشعاعات حيز منبسط لو اردت وصفه وتحديد مواقعه لاستعنت بهندسة « اقليدس » ، ولكن اذا ادخلت على الحيز اجساما مادية او كهرباء او اشعاعات التوى الحيز واصبح جزء منه ملتويا لو اردت وصفه وتحديد مواقعه ما اسعفتك هندسة « اقليدس » ولكن تلجأ الى هندسة اخرى لاتعترف باستقامة اقصر خط يصل بين نقطتين ، وكما لاينبغي للمرء ان يجرى قياسات بالمسطرة على سطح غير منبسط كالكرة كذلك لاينبغي ان نستخدم هندسة « اقليدس » فى حيز غير منبسط ، ومن خصائص التواء الحيز ان المادة **تنحدر الى اسفل** ، ولا اقول تنجذب وعليه يصبح المجال هندسيا محضا لا علاقة له بقوى الطبيعة التثاقلية .. وبذلك اصبح لا معنى لقانون التربيع العكسى ، فكان فرقه خداعا ناتجا عن انفصام الزمان عن المكان ، اعنى كان حتما اختفاؤه ، وقد اصبح هناك اندماج بين الزمان والمكان ، فاصبح هناك زمكان ... ان جميع ماقيل ثبت بالتجربة تحقيقا .

الفصل الاول

اعود الى الكتاب الذى نحن بصدده واقول جمعت بعض كتابات اثنى عشر عالما ومؤرخا فى ثلاثة عشر فصلا فى الباب الثانى وكان الفصل الاول الذى كتبه « فرنش » محرر الكتاب عن سيرة حياة « اينشتين » وقد اعجبتني تعليقات مستخرجة من بعض المؤلفات امثال كتاب « اينشتين الرجل واعماله » تاليف « هوبترو » وكتاب « اينشتين » تاليف « برنشتين » **وضعت على هوامش الصفحات كاستفادته من وظيفته فى مكتب التسجيل ، اذ كان من واجباته ان يضع الطلبات المقدمة فى صورة واضحة مستلخصا الافكار الاساسية** من جمل غامضة كتبها **المخترعون** وبذلك اصبح من طبيعته ان **يضع اصبعه على لب الموضوع** وسرعان ما يتنبأ بالنتائج .. وذكر « فرنش » ما حققه علماء مرصد « موتت ولسن » بامريكا بارصادهم التى كشفت استطالة طول موجة الاشعاع الصادر من ذات لمروره فى مجال جاذبية قوية اقوى من جاذبية الارض عن طول موجة الاشعاع نفسه الصادر من ذرات على سطح الارض وهو ما تسميه «النظرية النسبية » بالزخرفة الحمراء .

كما انه ذكر ان منح » اينشتين « جائزة نوبل عام ١٩٢١ لغير ابحاثه فى النسبية بل لمعادلة له فسرت ظاهرة توليد الكهرباء بالضوء باعتباره جسيمات ضوئية « فوتونات » اعنى باستخدام فكرة ماكس بلانك ان الطاقة مؤلفة من جسيمات يقال لها الكم او الكوانتم .

الفصل الثانى

ويأتى الفصل الثانى بحديث عن «اينشتين» ونشأة « النظرية النسبية الخاصة » كتبه « سيلفيو برجيا » .. وقد سميت خاصة لانها تبحث القوانين الطبيعية المطبقة فى مناطق تتحرك بحركات منتظمة ، تخصصت الحركات بالانتظام او قيدت بالانتظام ، لذا فهى تسمى احيانا بـ « النظرية النسبية المقيدة » .

وحرصا من « سيلفيو برجيا » على ان يظهر الفضل الحقيقي لاينشتين في اعلان « النظرية النسبية الخاصة » تحدث من نشأة النظرية بل مما قبل قبل ظهورها.. ونوه بالعالم « جاليليو » الذي ذكر مبدأ النسبية ليثبت خطأ من يقول بعدم دوران الارض ، ونوه ايضا بـ العالمين « ديكارت » و « باخ » واحاديثهما عن النسبية .

اما « نيوتن » الذي ولد يوم وفاة « جاليليو » فقد كانت له نسبية اعلنها عام ١٦٨٧ وهي الا تغير في حركة الاجسام بالنسبة لبعضها مع بعض في مجال ما اذا تحرك المجال الذي يحوي الاجسام حركة منتظمة مستقيمة بعد ان كان ساكنا . ومعنى ذلك ان لا تتشكل القوانين التي تفسر الظواهر الميكانيكية تبعا لتغير منتظم للمكان . فما يطبق على مكان من قوانين ميكانيكية يطبق ايضا بنفس شكله على مكان اخر يتحرك حركة منتظمة بالنسبة للمكان الاول . ويجمل هنا ان اذكر الفرق بين نسبية « نيوتن » ونسبية « اينشتين » فقد ذهب « نيوتن » الى عدم تشكل القوانين الميكانيكية وقصر « اينشتين » عدم تشكل القوانين الفيزيقية اطلاقا ميكانيكية او ضوئية او كهربائية او مغنطيسية .

ويحوي هذا الفصل تفاصيل كثيرة جعلت العلماء يظنون ان الله خلق الخليقة وجعلها تسبح في بحر ساكن لا يتحرك ، وسمى العلماء هذا البحر الاثير فهناك سكون مطلق هو سكون هذا البحر ، وهناك حركة مطلقة هي الحركة بالنسبة لهذا البحر .

هذا الاثير من تخيلات العلماء يتخلل جميع الاجسام ويملأ الفضاء ولا يمنع متحركا ولا يقف في طريقه وكان للاثير وظيفتين :

الوظيفة الاولى انه وسط يحمل الضوء من الشمس الينا . اما الوظيفة الثانية فبحكم سكونه وعدم تحركه اصبحت الحركة بالنسبة اليه مطلقة ، فهو المربط الذي يقاس منه الابعاد .. والارض التي تستقبل الضوء وتدور حول الشمس تخوض في الاثير ، فطورا تقبل على الضوء وطورا تبتعد عنه ، فهل تختلف سرعة الضوء باختلاف اوضاع الارض من الاثير .

اجريت التجارب واهمها تجربة « ميكلسن » و « مورلي » وفي هذا الفصل وصف مستفيض لهذه التجارب التي لم تكشف عن اي اختلاف في سرعة الضوء نتيجة لاختلاف سرعة الارض في الاثير .. اذن فالقول باننا نتحرك في اثير ساكن قول كانت تعوزه التجربة ، ومعنى هذا ان هناك شكا في وجود مربط تبدأ منه القياسات فالقياس المطلق مشكوك في وجوده .. لم كان من فزع من هذه النتيجة فنادى العالم الايرلندي « فيتزجرالد » عام ١٨٩٢ انقاذا للموقف بانكماش الاطوال في اتجاه حركة الجسم وبقائها كما هي في اتجاه متعامد على الحركة ، وبذلك راى ان عجز التجارب هو في الواقع اثبات لاختلاف السرعة ، سرعة الضوء ، والمسئول عن عدم ظهورها هو الانكماش المفروض . ويسمى الانكماش انكماش « لورنتز ـ فيتزجرالد » ذلك لان « لورنتز » وهو على غير علم بما عمله زميله توصل الى الانكماش بمنطق اخر غير منطق زميله .

شعر العلماء باحتياج الى مزيد من البحث في هذا الموضوع ونادى « بوانكريه » عام ١٩٠٤ بوجوب اعادة النظر في القوانين .. وهنا استجاب « اينشتين » وكان ما كان كما قلنا في التمهيد لهذا الفصل ، ونجد في هذا الفصل استطرادا في هذا الموضوع انصح بقراءته لمن يريد التعمق ويحلو له تتبع منطق العلم والعلماء .

الفصل الثالث

قصة « النظرية النسبية العامة »

كتب هذه القصة الاستاذ « فرنش » محرر هذا الكتاب وقد مهدنا لها مع « النظرية الخاصة » في الفصل السابق فقد رأى « اينشتين » ان يحرر المناطق من قيد الانتظام في الحركة ، ومعنى الانتظام في الحركة ان المناطق لا تعمل

فيها قوى الا لو عملت قوة ما في منطقة لتسارعت هذه المنطقة وفقدت الانتظام في الحركة .

وبهذا التحرر جاءت « النظرية النسبية العامة » عام ١٩١٥ بعد عشر سنوات من اعلان « النظرية النسبية الخاصة » وامكن بالنظرية العامة صياغة القوانين لتطبيقها على حد سواء في اي من المناطق دون اعتبار لحركتها، وبذلك تحرر « اينشتين » من « نيوتن » اطلاقا فقد راى « نيوتن » ان القوة التى تعمل في جسم لتغير تحركه تساوى التغير في كمية التحرك ، وهذا هو احد قوانين « نيوتن » للحركة ، وله قانون اخر يسمى بقانون التربيع العكسى الجاذبية التثاقلية ، اذ تتناسب قوة التجاذب عكسيا مع مربع المسافة بين مركزى ثقل الجسمين وتتناسب طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما .

قانونان مختلفان جد الاختلاف مع «نيوتن» جمعهما « اينشتين » في نظرية واحدة هي النظرية العامة ، فسر بها ظاهرة الجاذبية الارضية ، وبين ان القانونين متكافئان .. وقد اهدى له في عيد ميلاده جهاز طريف لاثبات هذا التكافؤ .. وفي هذا الفصل ايضا شرح لاثر التثاقل على انتشار الضوء ، وانصح من على معرفة بالرياضيات العالية بقراءة هذا الموضوع في هذا الفصل اذ اراد ان يعرف كيف توصل الى النتيجة النهائية الموافقة للتجربة باستخدام اساليب « المرصوصات » .. ثم ذكرت التجارب الثلاث التى حققت النظرية العامة وهى حركة عطارد الزاحفة ، والزحزحة الحمراء واخيرا انحراف الاشعة عند مرورها بجوار الشمس ، وقد شرحت هذه التجارب باسهاب ، واستخدمت بعض الاساليب الرياضية، وحول الفصل حديثا من الامواج التثاقلية والثقوب السوداء .

الفصل الرابع — النظرية النسبية والتثاقل

كتب هذا الفصل العالم « هرمان بوندى » وهو فصل ممتع حقا لمن يتقن الرياضيات العالية ولا يخل بالكتاب لو تغاضى عنه من لا يحسن الرياضيات ، وملحق بهذا الفصل وصف الهدية التى قدمها « اريك روجرز » وزوجته الى « اينشتين » يوم عيد ميلاده ، وكيف امكن « اينشتين » بذكائه النفاذ ان يدخل الكرة التى في الجهاز في الفخ الذى اعد لها تطبيقا لمبدأ التكافؤ الذى سبق ان تحدثنا عنه .

تعمدت عدم وصف الجهاز لالهب خيال القارىء ليطلع على الكتاب ، وتقديرى ان وصف « اريك روجرز » لهوينه وشرح «برنارد توهين » لكيفية قيام « اينشتين » بالتجربة امامه محرض كاف لاقتناء الكتاب .

الفصل الخامس
« اينشتين وتطور فيزيقا الكم »

صاحب هذا المقال هو العالم « مارتن كلين » وكان حديثه من « نظرية الكم » ويذهب الفرض الذى هو اساس هذه النظرية الى ان الجسم يمتص الاشعة ويرسلها في وحدات معينة ، والمميز بين شعاع وشعاع هو طاقة الشعاع ، وتتناسب طاقة الشعاع وعدد تذبذباته في الثانية الواحدة .

وهكذا ادخل « ماكس بلانك » عام ١٩٠٠ فكرة غريبة عن المعتاد في العلم ذلك الوقت وهى ان المادة تبعث اشعاعات وتمتصها في كميات محددة تتناسب مع تذبذبات الاشعاعات وتذهب هذه الفكرة الى ان الطاقة مؤلفة من جسيمات يقال لها « الكم » او « الكوانتم » تكبر وتصغر حسب التذبذبات ، فالاحمر اكثر بلادة من الازرق ، ولذا كان جسيم الطاقة اصغر في حالة الاحمر عنه في حالة الازرق .

وهنا تبدأ فلسفة جديدة ادخلت الحبيبات على الطاقة ، وحل التقطع محل الاستمرار ، فأصبحت المادة من ذرات والطاقة من حبيبات، ولكن الطاقة لم تفقد موجيتها كلية فهى جسيمات حينا وموجات حينا اخر ، فأصيبت الطاقة فى عصرنا الحاضر بمرض الازدواج فى الشخصية واصبح هناك ازدواج فى التفكير العلمى بالنسبة للطاقة وهكذا ولدت «النظرية الكمية » على يد « ماكس بلانك » وطبقهابنجاح فى الوصول الى قانون الاشعاع المسمى باسمه، وطبقها من بعد ذلك بسنين « اينشتين » فى ميدان توليد الكهرباء من الضوء .

ضع قطعة من مادة امام اشعة ينبعث من المادة كهرباء على شكل الكترونات وطاقة الالكترونات تتناسب معمقدار تذبذبات الاشعة الساقطة ولكنها لا تتوقف على كثرتها، وعجزت القوانين الطبيعية من تفسير ذلك بغير الاستعانة « بالنظرية الكمية » فالضوء الازرق مهما خفت اقدر على اخراج الالكترونات من الضوء الاحمر مهما كثر، وقد توصل «اينشتين» الى قانون ليفسر هذه الظاهرة ومنح جائزة نوبل عام ١٩٢١ على قانونه هذا كما منح من قبل « ماكس بلانك » جائزة نوبل على قانونه الذى فسر السر فى اختلاف طاقات اشعاعات جمعها فرن ملتهب واحد محافظ على درجة حرارة واحدة ، ولم يقتصر جهود اينشتين فى « النظرية الكمية » على ذلك ، بل استخدم ايضا « النظرية الكمية » فى معرفة السر فى تناقص الحرارة الذرية لعنصر واحد مع برودة الجو المحيط به بل ذهب الى اكثر من ذلك . واستخدم النظرية الكمية فى استحداث احصائيات استخدمت فى الوصول الى قانون الاشعاع الذى سبق ان وصل اليه « ماكس بلانك » وسميت باحصائيات «بوز ــ اينشتين» وكان « بوز » شابا هنديا اشار بمعاملة الاشعاعات معاملة الغازات .

الفصل السادس

ومايلاه من فصول فى الباب الثانى

هى فصول تتضمن احاديثا عن المعرفة والثقافة وطرق التدريس والفلسفة والسياسة والاقتصاد ، وظنى ان العلماء جزء من جهاز عام يتأثر بما يؤثر على هذا الجهاز وليس من الامور العابرة حدوث نهضة علمية مع نهضة اجتماعية، فالتفاعل بينهما اكثر عمقا وابعد اثرا فكثيرا ما ساهمت قوى المجتمع فى رسم الطريق الواجب ان يتخذه العلم ، بل ساهمت فى اسراعه وتطوره كما ان الاختراعات والكشوف العلمية بدورها اثرت على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فقد توحدت الاغراض وتشابكت الاسباب والمسببات .

وانى اظلم هذه الفصول لو حاولت ان الخصها، بل يجب ان تقرأ بتمامها حتى لا تفقد رونقها ، ويقينى ان قارىء مقالى هذا لن يكتفى بهذا القدر ، بل سيرجع الى الكتاب ليروى ظمأه ، وهذه هى تعزيتى لضيق المجال عن الافاضة .

الباب الثالث والرابع

اختص البابان الاخيران من الكتاب بعينات من الرسائل العلمية واوراق البحث المنشورة والتى تهم فى الدرجة الاولى الباحثين والمتخصصين وظنى انها قرئت فى اصولها والتحدث منها تكرار لا موجب له .

خاتمة

لقد حرص العالم « فرنش » رئيس اللجنة الدولية لتدريس الفيزيقا ان يبعد عن الكتاب بعض مقالات ناشزة لبعض العلماء .. وكم هو جميل لو حشر مقالا واحدا منها حيث يستحب كبح جماح الحماس الزائد فى ذكر المحاسن تنزيها للعلم وارتفاعا بالعلماء الى مكانهم الصحيح .

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

فهرس المجلدات ١ - ١٠

١٩٧٠ / ١٩٨٠

اولا – فهرس الموضوعات

مسلسل	الموضوع	المؤلف/المترجم	المجلد والعدد	الصفحة
٥٩	اوجست رودان	بدر الدين ابو غازي	٤ – ٣	٢٥١ – ٢٧٨
٦٠	الابتولوجيا والمجتمع	تاليف : هيلاري كالان عرض وتحليل : د. احمد مرسي	٢ – ١	١٩٥ – ٢٠٥
٦١	الايديولوجيا	تاليف : جون بلامنتز عرض وتحليل : د. قباري محمد اسماعيل	٢ – ١	٢١٢ – ٢٢٦
٦٢	الايديولوجية والتطبيق	عرض وتحليل : د. حورية مجاهد	٦ – ١	٢٠٢ – ٢١٨
٦٣	الايمان بالله في عصر العلم	د. محمد عبد الهادي ابو ريدة	١ – ١	١٣٢ – ١٩٤
	« ب »			
٦٤	البتروكيماويات ومستقبل الصناعات الكيمائية البترولية	د. محمد يوسف محمد بكر	٩ – ٢	٩٧ – ١٢٦
٦٥	البترول والطاقة	د. محمود امين	٥ – ٢	٦٩ – ٩٠
٦٦	برتراند رسل	ترجمة : صدقي حطاب	١ – ١	٢١٥ – ٢٧٢
٦٧	بناء النماذج في علم الاجتماع	تاليف : بيتر ابل عرض وتحليل : د. اسحق يعقوب القطب	٥ – ٢	٢٦٧ – ٢٧٦
٦٨	بواكير العلم الافريقي	تاليف : ج. د. لويد عرض وتحليل : د. حسام محيي الدين الالوسي	١ – ٢	٢١٧ – ٢٢٨
٦٩	بيئة العصر بين البقاء والفناء	د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي	٧ – ٤	١٢٧ – ١٦٨
٧٠	البيئة والجريمة	د. حسن صادق المرصفاوي	٧ – ٤	٧٢ – ١٢٦
٧١	البيروقراطية	تاليف : مارتن البرو عرض وتحليل : د. محمد علي محمد	١ – ٢	٢٠١ – ٢١٢
٧٢	البيروقراطية بين مظاهر الحضارة	د. ليلى تكلا	٢ – ٢	١٢٥ – ١٥٤
٧٣	بيكاسو	احمد مرسي	٤ – ٢	٢١٥ – ٢٤٤
	« ت »			
٧٤	التاريخ هل هو علم	د. شاكر مصطفى	٥ – ١	١٦٧ – ٢١٤
٧٥	التاريخ والمؤرخون	د. حسين مؤنس	٥ – ١	٤٧ – ١١٤
٧٦	التاريخ ومشاكل اليوم والغد	د. محمد الطالب	٥ – ١	١١ – ١٦
٧٧	تجاربي مع الحشرات	د. سميرة الزيادي	١ – ٢	٢١١ – ٢٥٨
٧٨	التحضر السريع ومشكلاته	تاليف : فيليب هاوزر ترجمة / ميرفت مصطفى سيف الدين	١ – ٢	٦١ – ٧٦
٧٩	تحقيق التراث « تاريخا ومنهجا »	د. محمد طه الحاجري	٨ – ١	١١ – ٢٨
٨٠	التحول السياسي من الشيوعية الى الديمقراطية	د. ضحى شيخة	٨ – ٣	١٣ – ٤٠
٨١	التراث الشعبي بين الفولكلور وعلم الاجتماع	د. محمد الجوهري	٣ – ١	٨٢ – ١٢٠
٨٢	التربية في عالمنا المتغير	د. محمد ناصر	١ – ٢	١٢١ – ١٥٤
٨٣	التركيب الرياضي التعاضدي في الاجهزة الحاسبة	د. حسام البيلاوي	١ – ٤	٢٧ – ٩٨

مسلسل	الموضوع	المؤلف/المترجم	المجلد والعدد	الصفحة
١٧٦	الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق	د. منصور احمد منصور	٧ ـ ٤	١٦٩ ـ ١٨٨
١٧٧	دور العرب في كشف افريقيا	د. جمال زكريا قاسم	١ ـ ٤	١٨٩ ـ ٢٤٠
١٧٧ ب	ديناميات التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث	تحرير : دافيد .ا. شميت عرض وتحليل : د. محمد قاسم الرميحي	١٠ ـ ٢	٢٤٥ ـ ٢٦٠
	« ذ »			
١٧٨	الذرة بين البحث والتطبيق	د. فوزي مليجي عبدالكريم	٢ ـ ٢	٢٧ ـ ٦٢
	« ر »			
١٧٩	الرأسمالية الحديثة	تاليف : شو نفيلد عرض وتحليل : د. برهان الدين الشطي	١ ـ ٢	٢٠٥ ـ ٢١٦
١٨٠	ربة البيت	تاليف : ان اوكلي . عرض وتحليل : د. عليه حسن حسين	٨ ـ ٢	٢١٥ ـ ٢٣٢
١٨١	رسائل الدوس هكسلي	تاليف : جروفر سميث عرض وتحليل : محمود محمود	٢ ـ ٢	٢٨٥ ـ ٢٩٦
١٨٢	رفاعة الطهطاوي	د. محمود فهمي حجازي	٤ ـ ١	٢٠١ ـ ٢٧٢
١٨٣	الرمز والاسطورة في المجتمعات البدائية ...	تاليف : فيرنو/ارنجون عرض وتحليل : صفوت كمال	٩ ـ ٤	١٨١ ـ ٢٢٤
١٨٤	الرواية العربية وازمة الضمير العربي ...	د. شكري عياد	٢ ـ ٢	٩ ـ ٢٨
١٨٥	الرواية الفرنسية المعاصرة	د. سامية اسعد	١ ـ ٢	١١٢ ـ ١٦٦
١٨٦	الرواية الالمانية في القرن العشرين	د. مصطفى ماهر	٢ ـ ٢	١٦٧ ـ ٢٢٦
١٨٧	رياضيات العصر	د. محمد واصل الظاهر	٢ ـ ١	١٣١ ـ ١٦٠
١٨٨	الرياضيات النظرية والاجتماعية	د. ناهد صالح	٤ ـ ٤	٩٩ ـ ١١٦
١٨٩	الرياضيات للعقل الحديث	تاليف: دكتور والتر فوخس عرض وتحليل : دكتور سعد كامل مسعود	٢ ـ ١	٢٩١ ـ ٣٠٠
١٩٠	ريتشارد فاجنر بين العاطفة والعبقرية	د. ثروت عكاشة	٢ ـ ٢	٢٦٩ ـ ٣١٢
١٩١	رتيه ويج فيلسوف الجمال	د. ثروت عكاشة	٥ ـ ٤	١٧٧ ـ ٢٤٨
	« ز »			
١٩٢	الزراعة بدون تربة	تاليف : د. كوليني ترجمة : عبدالرحمن سلمان	١ ـ ٤	٢٧٣ ـ ٢٨٦
١٩٣	الزمن البيولوجي	د. عبد المحسن صالح	٨ ـ ٢	٩ ـ ٦٤
١٩٤	الزمن عند مارتن هيدجر	د. عبد الرحمن بدوي	٨ ـ ٢	١٨٧ ـ ٢١٠
١٩٥	الزمن في التراجيدى الاغريقية	تاليف : ج.د. رومياي عرض وتحليل : د. محمد جواد حسين	١ ـ ٤	٣٠١ ـ ٣١٤
١٩٦	الزمن في الفكر الديني والفلسفي القديم	د. حسام الالوسي.	٨ ـ ٢	١٠٩ ـ ١٨٦
	« س »			
١٩٧	ستانلي المستكشف القاهر	عرض وتحليل : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي	٧ ـ ٢	٢٧٣ ـ ٢٨٢
١٩٨	السرطان ـ مشكلة القرن العشرين ...	د. محمد نبيل رياض	٦ ـ ٢	٢٣٢ ـ ٢٥٦
١٩٩	سفر التكوين كاسطورة	تاليف : ادموند ليتش . عرض وتحليل : د. محمد الجوهري	٥ ـ ٢	٢٤٥ ـ ٢٥٤

مسلسل	الموضوع	المؤلف/المترجم	المجلد والعدد	الصفحة
٢٠٠	السلالة والذكاء والتربية	تأليف : هـ.ج. ايزنك عرض وتحليل : د. عاطف وصفي	٤ — ٣	٣٠٠ — ٢٨٧
٢٠١	السلوكية في علم النفس	د. فؤاد عبد اللطيف ابو حطب	٤ — ١	٣٠٠ — ١٦٧
٢٠٢	سوسيولوجيا العمل المنزلي	تأليف : ان اوكلي عرض وتحليل : د. سامية حسن الساعاتي	٨ — ٣	٢٥٠ — ٢٢٢
٢٠٣	سياسات العنف أو الثورة في عالمنا المعاصر	تألف : كارل ليدن ـ كارل .م سميث عرض وتحليل: د. اسماعيل صبري	١ — ١	٣٠٢ — ٢٩١
٢٠٤	السياسة الحضرية	تأليف : موراي ستيدمان عرض وتحليل : د. عبد الباسط محمد حسن	٥ — ١	٢٣٦ — ٢٢١
٢٠٥	السيبرنطيقا احدث علوم القرن العشرين	د. صلاح الدين طلبه	٢ — ٤	٦٨ — ٩
٢٠٦	سيرة فرجينيا وولف	تأليف : بل كوين عرض وتحليل : د. طيبه محمود طه	٥ — ٤	٢٧٢ — ٢٤٩
٢٠٧	السينما والأدب « ش »	فؤاد دوارة	٧ — ٢	٢٢٢ — ٢١١
٢٠٨	شبح المجاعة يبتعد او الحرب ضد الجوع	تأليف : ج بريد جرام دي سواسون عرض وتحليل : د. محفوظ غالي	٢ — ١	٢٨٢ — ٢٦٩
٢٠٨ ب	الشخصية الاسرائيلية	د. حسين فاظا	١ — ٤	٦٢ — ١٣
٢٠٩	الشعر الاسباني المعاصر في اسبانيا وأمريكا اللاتينية	د. محمود علي مكي	٤ — ٢	٢٢٨ — ١٦٣
٢١٠	الشعر الالماني في القرن العشرين (محن الحرية والصمت)	د. عبد الغفار مكاوي	١ — ٢	١٦٢ — ١٠٣
٢١١	الشعر الجاهلي	د. يوسف خليف	٤ — ٤	١٩٤ — ١٦١
٢١٢	الشعر الروسي الحديث ملامحه واتجاهاته	صبري حافظ	٧ — ١	٢٣٠ — ١٦٧
٢١٣	الشعر العربي المعاصر تطوره ومستقبله	د. سلمى الخضراءالجيوسي	٤ — ٢	٥٤ — ١١
٢١٤	الشعر الياباني الحديث	دونالد كين ترجمة .د. صفاء الشاطر	٤ — ٢	٢٦٧ — ٢٣٩
٢١٥	الشعر والنقد الاخلاقي	د. محمد مصطفى هدارة	٩ — ٣	٢٥٠ — ٢٢٩
٢١٦	شعراء المقاومة الفلسطينية	تأليف : مدرومارتنز مونتات عرض وتحليل د. حسين مؤنس	١ — ٢	٢٩٤ — ٢٨٥
٢١٧	شفرة الوراثة لغة الحياة	د. حسن عواض كامل	٧ — ٢	٩٤ — ٥٣
٢١٨	الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت	د. محمود حمدي زقزوق	٤ — ٢	٢٥٠ — ٢٠٥
٢١٩	شكسبير الحاضر ابدا	تأليف : لوتيع بروك عرض : د. عبد الواحد لؤلؤة	٣ — ٤	٦٢ — ٤١
٢٢٠	الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث	د. محمد زكي العشماوي	٩ — ٢	٣٦ — ١١

مسلسل	الموضوع	المؤلف/المترجم	المجلد والعدد	الصفحة
	« ظ »			
٢٤٩	ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة	د. محمد جواد رضا	٥ – ٣	١٤٧ – ١٧٦
٢٥٠	الظاهرة التكنولوجية	د. احمد ابو زيد	٢ – ٢	١٤٧ – ١٧٢
	« ع »			
٢٥١	عالم الجيولوجيا	د. محمد عز الدين حلمي	١ – ٢	٢٩٥ – ٣٠٤
٢٥٢	علم الحساب عند العرب	د. احمد سليم سعيدان	٢ – ١	١٦١ – ١٩٤
٢٥٣	عالم الشيخوخة	د. محمد عصام الدين فكري	٦ – ٢	١٣ – ٤٦
٢٥٤	العالم العربي ومشاكل الفن الحديث	د. حسن ظاظا	٢ – ٢	٢٢٧ – ٢٦٨
٢٥٥	عصر ازدهار بلاد الفرس	تاليف : ريتشارد.ن.فري عرض وتحليل : د. طه ندا	١٠ – ٢	٣٢٥ – ٣٣٦
٢٥٦	العقل الافريقي	د. علي حافظ	١ – ٢	١٥٥ – ٢٠٢
٢٥٧	العقل الثوري في رواية الأمل	سلوى عطر	٨ – ٢	٩٩ – ١٢٨
٢٥٨	عقوبة الاعدام بين البقاء والالغاء	د. عبد الوهاب حومد	٧ – ٤	١٨٩ – ٢١٠
٢٥٩	العقـول الالكترونية	د. صلاح الدين طليه	١ – ٢	٥١ – ٩٢
٢٦٠	العلاقات بين العلماء في العصر العباسي	د. وديعة طه النجم	١ – ١	٢٣١ – ٢٦٤
٢٦١	علم الاجتماع ـ الطلاب والمجتمع	تاليف : جيروم رابو عرض وتحليل : د. الفاروق زكي يونس	١٠ – ١	٢٦١ – ٢٧٢
٢٦٢	العلم والحرية الشخصية	د. فؤاد زكريا	١ – ٤	٤٥ – ٨٠
٢٦٣	العلوم الانسانية والصراع الايديولوجي	د. احمد ابو زيد	٢ – ٢	١٤١ – ٢٦٦
٢٦٤	علوم العرب القديمين « دراسة منهجية لبعض النماذج	د. سعد زغلول عبد الحميد	٨ – ١	١٦٧ – ٢٢٢
٢٦٥	على تخوم دار الاسلام	تاليف : ريتشارد هيل عرض وتحليل : د. مكي شبيكة	٢ – ٢	٢٠١ – ٢٠٨
٢٦٦	العمارة الاسلامية في الاندلس وتطورها	السيد عبد العزيز سالم	٨ – ١	٨٩ – ١٦٦
٢٦٧	العوامـل المؤثرة في الادب	محمود محمود	١ – ٤	٢٤١ – ٢٧٢
	« غ »			
٢٦٧ب	غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد	د. محمد احمد غالي	١٠ – ٣	٧٣ – ١١٠
٢٦٨	غـزو الفضـاء	د. فؤاد صروف	١ – ٣	٩ – ٤٢
	« ف »			
٢٦٩	فتجنشتين وفلسفة التحليل	د. عزمي اسلام	٢ – ٤	٢٢٧ – ٢٦٤
٢٧٠	الفخار الشعبي في مصر	عبد الغني النبوي الشال	٦ – ٤	١٣/ – ١٧٢
٢٧١	فرجينيا وليناردوولف	د. طه محمود طه	٩ – ٤	٢٢٥ – ٢٥٦
٢٧٢	فريدريش شيللر عالم الجمال وفيلسوف الحضـارة	د. زكريا ابراهيم	٤ – ٤	٢١٣ – ٢٢٤
٢٧٣	الفلسفة والطب للبدرمان	عرض وتحليل : د. عزمي اسلام	٦ – ٣	٢٨٥ – ٢٩٨
٢٧٤	الفكر العربي في العصر الليبرالي	تاليف : البرت حوراني د. جمال زكريا قاسم	٢ – ٤	٢٩١ – ٢٩٨
٢٧٥	الفكر الهندي من الهندوكية الى الاسلام	د. عبد العزيز محمد الزكي	٦ – ٢	٦١ – ١٤٨
٢٧٦	فكرة الخلق	د. فتح الله خليف	٢ – ٤	٥١ – ٧٤
٢٧٧	الفكرة الماركسية الثورية	تاليف : روبرت تكر عرض وتحليل : السيـد ياسين	٢ – ١	٢٨٣ – ٢٩٤
٢٧٨	فلسفة التاريخ	د. عبد العزيز الدوري	٢ – ٢	٦٥ – ٨٤

مسلسل	الموضوع	المؤلف / المترجم	المجلد والعدد	الصفحة
٢٧٩	الفلسفة وعلم الاجتماع	د. مصطفى الخشاب	٢ – ٢	٨٥ – ١٠٤
٢٨٠	فن التسجيات الشعبية الاسلامية	سعد محمد كامل	٦ – ٤	٣٩ – ٩٨
٢٨١	الفن الاسلامي ، فنه ومعناه	عرض وتحليل : د. سعد زغلول	١٠ – ١	٢٤٩ – ٢٦٠
٢٨٢	الفن الافريقي « النحت »	تاليف : بيير ميوزيه عرض وتحليل : صفوت كمال	٢ – ٢	٢٦١ – ٢٧٢
٢٨٣	الفن القصصي المعاصر في اسبانيا	د. محمود علي مكي	٣ – ٢	٢٩ – ١١٢
٢٨٤	الفوضوية	علي ادهم	١ – ٢	٢١٩ – ٢٤٠
٢٨٥	الفولكلور والتنمية	رشدي صالح	٦ – ٤	٩ – ٣٨
٢٨٦	الفولكلور والحضارة	د. احمد مرسي	٣ – ١	٢٠١ – ٢٢٦
٢٨٧	الفولكلور والميثولوجيا	د. عبد الحميد يونس	٢ – ١	١٥ – ٥٤
٢٨٨	الفولكلوريون البريطانيون	تاليف : ريتشارد م. ورسن عرض وتحليل : صفوت كمال	٥ – ١	٢١١ – ٢٠٠
٢٨٨ ب	في ذكرى روسو	تاليف موريس كرانستون ترجمة : بدرية محمد احمد	١٠ – ٢	٢٠٩ – ٢٢٤
٢٨٩	في مواجهة الحافة	تاليف : ادوارد يتفال – تشارلس بارتليت عرض وتحليل: د. اسماعيل صبري مقلد	٢ – ٢	٢٨٩ – ٣٠٠
٢٩٠	الفيزياء الكونية	تاليف : د.هـ. ماكريا ترجمة : زهير الكرمي	١ – ٢	١٥٥ – ١٨٤
	« ق »			
٢٩١	القانون والادارة	د. سمير السيد تناغو	٤ – ٢	١٥٩ – ٢٠٤
٢٩٢	القانون وامن المجتمع الدولي	د. اسماعيل صبري مقلد	٤ – ٢	٧٩ – ١١٨
٢٩٣	القتل بدافع الشفقة	د. عبد الوهاب حومد	٤ – ٢	١٢ – ٣٨
٢٩٤	القدرة العقلية للمراة ومتطلبات العلم	تاليف : اليانور ا. ماكوبي ترجمة : د. ملاك جرجس	٤ – ٤	١٩٥ – ٢١٢
٢٩٥	القصص الشعبي	د. سهير القلماوي	٣ – ١	١٣١ – ١٥٠
٢٩٦	قوة الضالين العرب	تاليف : ادجار اوبالنس عرض وتحليل : اسامة عبد الرحمن	٧ – ٤	٢٤٧ – ٢٥٦
٢٩٧	القيم العليا في فلسفة الاخلاق	د. توفيق الطويل	٦ – ٤	٢١١ – ٢٥٨
	« ك »			
٢٩٨	كتاب القانون لابن سينا	د. سليمان قطاية	٧ – ٢	١٩١ – ٢١٠
٢٩٨ ا	الكتابة العربية عنصر زخرفي	د. محمد مصطفى (ترجمة محمد عبد العزيز)	١٠ – ٣	٢٦٥ – ٢٤٤
٢٩٨ ب	كتشنر محطم النصر	تاليف : كاسار عرض وتحليل : د. احمد عبد الرحمن مصطفى	١٠ – ٤	٢٢١ – ٢٣٨
٢٩٩	كلمة وزير الارشاد والانباء		١ – ١	٢ – ٤
٣٠٠	كريكور زهراب	فاضل السباعي	٩ – ٢	٢٥١ – ٢٧٢
٣٠١	الكومبيوتر والعلم والمجتمع	تاليف : فرنك جورج عرض وتحليل : د. علي حلمي موسى	٤ – ١	٢٧٣ – ٢٨٠

مسلسل	الموضوع	المؤلف / المترجم	المجلد والعدد	الصفحة
٣٥٦	من وحي العلوم	د. عبد العزيز امين	٨ – ٢	١٦٢ – ١٩٤
٣٥٧	من يملك الفضاء	د. علي صادق ابو هيف	١ – ٢	١٤٠ – ١٥٤
٣٥٨	مناهج بحث الفولكلور العربي بين الاصالة والمعاصرة	صفوت كمال	٦ – ٤	١٧٣ – ٢١٠
٣٥٩	منع الحمل	د. سامي عمران	٨ – ٤	٩٥ – ١٢٤
٣٦٠	مهاجرون سود ومواطنون بيض	تاليف : دانيل لورنس عرض وتحليل : عبد الله عبد الغني غانم	٩ – ٢	٢٦٩ – ٢٧٦
٣٦١	الموارد المائية وعلاقتها بالسكان	تاليف : و . س . وينتكاي ترجمة : فاروق مصطفى اسماعيل	٥ – ٤	١١٩ – ١٤٦
٣٦٢	الموسيقى العربية وموقعها من الموسيقى العالمية	عبد الغني شعبان	٦ – ١	١٠٢ – ٢٠٠
٣٦٣	الموسيقى بين علم النفس وعلم اللغة	د. امال مختار	٩ – ٤	٩٧ – ١٤٦
٣٦٤	الموسيقى والموسيقيون والاداء	تاليف : جالد برنوف ترجمة : صدقي خطاب	٦ – ١	٢٠١ – ٢٤٦
٣٦٥	ميخائيل نعيمة ، ناقدا اديبا	د. مناف منصور	٧ – ٤	٢١١ – ٢٤٦
٣٦٦	ميكلانجلو (بمناسبة مرور ٥٠٠ عام على مولده)	د. ثروت عكاشة	٧ – ٢	٢١٣ – ٢٦٦
	« ن »			
٣٦٧	ناتالي ساروت	د. سامية احمد اسعد	٧ – ١	٢٣١ – ٢٧٦
٣٦٨	نحو علم اجتماع للسينما	تاليف : س. جارفي عرض وتحليل : هاشم النحاس	٣ – ٤	٢٦٥ – ٢٩٤
٣٦٩	نحو علم جمال عربي	د. عبد العزيز الدسوقي	٩ – ٢	٢٧ – ٤٨
٣٧٠	ندوة حول مشكلة الاغتراب	ادارها : د. احمد ابو زيد	١٠ – ١	١١٣ – ١٤٦
٣٧١	نشاة الفكر الاسلامي في بواكيره الكلامية	د. حسام محيي الدين الالوسي	٦ – ٢	١٤٩ – ٢٠٤
٣٧٢	نشاة الفكر الهندي وتطوره في العصور القديمة	عبد العزيز الزكي	١ – ٢	٢٢١ – ٢٧٢
٣٧٣	نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق الادنى القديمة	د. عبد الحميد زايد	٢ – ٢	١٥٥ – ٢٣٢
٣٧٤	نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق الادنى القديم	د. عبد الحميد زايد	٢ – ٤	١٧٣ – ٢٤٢
٣٧٥	نظرة الى قلبي	د. حسان حتحوت	١ – ٢	٢٥٩ – ٢٦٦
٣٧٦	نظرة البدائيين الى الكون	د. احمد ابو زيد	٦ – ٣	٤٣ – ٧٢
٣٧٧	نظرية الخيال عند كولريدج	د. محمد زكي عشماوي	٢ – ٢	٢٣٧ – ٢٧٠
٣٧٨	نقاط التلاقي والصراع بين اوروبا العصور الوسطى والشرق	تاليف : ياروسلاف سيراك – جوزيف فوزار ترجمة : جوزيف نسيم	١٠ – ١	٢٢٣ – ٢٤٨
٣٧٩	النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين	د. نور شريف	٩ – ٢	١٠٧ – ١٢٤
٣٨٠	النمو الانساني في عصر التحضر	تاليف : شيرون الكساندر عرض وتحليل : اسحق يعقوب القطب	٧ – ٤	٢٥٧ – ٢٦٤
٣٨١	النمو الجسمي في مرحلة الطفولة	د. سيد خيري	٧ – ٣	١٣ – ١٥٠

مسلسل	الموضوع	المؤلف / المترجم	المجلد والعدد	الصفحة
٢٨١	النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والمراهقة	د. عبد الرحمن عيسى	٧ — ٢	١٤٧ — ١٩٠
٢٨٣	النمو النفسي من الطفل الى الراشد	د. سيد محمد غنيم	٧ — ٢	٥٧ — ١١٤
٢٨٤	النويات الذرية ، شكلها وحجمها	تأليف : بارنجر وسوداسون ترجمة : اسامة احمد مصطفى	٢ — ٤	٥ — ٣ — ١٥٤
	« هـ »			
٢٨٥	الهجرات وتحركات السكان	د. عبد الكريم اليافي	٥ — ٤	١٥ — ٦٤
٢٨٦	الهرمونات ، اوامر ولقاءات	د. عبد المحسن صالح	٧ — ٢	٩٢ — ١٥٦
٢٨٧	الهيومانزم	علي ادهم	٢ — ٣	٢٢٢ — ٢٤٨
	« و »			
٢٨٨	الواقعية الرومانسية في الرواية الانجليزية	د. امين العيوطي	٩ — ٢	١٨١ — ٢٢٨
٢٨٩	الواقعية بين التنظير والنمذجة ـ دراسة تحليلية مقارنة	د. طلعت منصور	٩ — ٢	١٦٣ — ٢٠٦
٢٩٠	وجوه مختلفة للفتاة المراهقة	تأليف : ليليان كوهين كونار عرض وتحليل : د. محمد عبده محجوب	٣ — ١	٢٥٩ — ٢٦٨
٢٩١	الوشم في الفن الشعبي	سوسن عامر	٦ — ٤	٩٩ — ١٢٦
٢٩٢	وليم بتلر ييتس	سهيل بديع بشروئي	٤ — ٢	٢٦١ — ٣٠٠
٢٩٣	يحيى حقي بين المصرية والتركية	عبد العزيز محمد الزكي	٩ — ٢	٤٩ — ١٠٦

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٦٦	التحرير	التمهيد (التربية ماترو)	٨ – ٣	٣ – ١٢
٦٧	التحرير	التمهيد (افاق المعرفة)	٨ – ٤	٣ – ١٠
٦٨	التحرير	التمهيد (العلوم عند العرب)	٩ – ١	٣ – ١٢
٦٩	التحرير	التمهيد (الاتجاهات الحديثة في النقد الادبي)	٩ – ٢	٣ – ١٠
٦٩ ١	التحرير	اعلان حقوق الطفل	٩ – ٣	١٢ – ١٤
٧٠	د. توفيق الطويل	خصائص التفكير العلمي	١ – ٤	١٥٣ – ١٦٠
٧١	د. توفيق الطويل	القيم العليا في فلسفة الاخلاق	٦ – ٤	٢١١ – ٢٥٨
٧٢	د. توفيق الطويل	لفتات علمية من تاريخ الطب العربي	٥ – ١	٢٤٥ – ١٨٨
٧٣	د. ثروت عكاشة	التصوير الاسلامي بين الحظر والاباحة	٦ – ٢	٢٠٥ – ٢٣٢
٧٤	د. ثروت عكاشة	التصوير الاسلامي حرية الفنان	٤ – ٤	١٣١ – ١٦٠
٧٥	د. ثروت عكاشة	ريتشارد فاجنر بين العاطفة والعبقرية	٣ – ٣	٢٦٩ – ٣١٢
٧٦	د. ثروت عكاشة	رتيه ويج فيلسوف الجمال	٥ – ٤	١٧٧ – ٢٤٨
٧٧	د. ثروت عكاشة	ميكلانجلو « بمناسبة مرور خمسمائة عام على مولده »	٧ – ٢	٢١٣ – ٢٦٦
٧٨	د. جعفر آل ياسين	الانسان وموقفه من الكون في العصر اليوناني الاول	١ – ٢	٧٢ – ٩٦
٧٩	د. جلال الدين الغزاوي	اخفاق الثورة الجنسية (عرض) ، تاليف : جورج فرانكل	٩ – ١	٢٦٧ – ٢٧٤
٨٠	د. جلال محمد موسى	الطب والاطباء	٩ – ١	٤٢ – ٩٦
٨١	د. جمال زكريا قاسم	دور العرب في كشف افريقيا	١ – ٤	١٨٩ – ٢٤٠
٨٢	د. جمال زكريا قاسم	الفكر العربي في العصر الليبرالي ١٧٩٨ – ١٩٣٩ (عرض) تاليف : البرت حوراني	٢ – ٤	٢٩١ – ٢٩٨
٨٣	د. جوزيف نسيم	نقاط التلاقي والصراع بين اوربا العصور الوسطى والشرق (ترجمة) ، تاليف : جان سوفاج سيزار وجوزيف فوزار	١٠ – ١	٢٢٢ – ٢٤٨
٨٤	د. جوزين جودة عثمان	ماترو – ستجور وحضارة الانسان	٨ – ٣	٤١ – ٩٨
٨٥	د. حازم الببلاوي	الاوتوميشن والاقتصاد	٩ – ٤	٦٩ – ١٠٠
٨٦	د. حازم الببلاوي	التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث	٩ – ١	٤٥ – ٨٢
٨٧	د. حازم الببلاوي	الحقائق الاقتصادية والفن القانوني	٤ – ٣	١١٩ – ١١٨
٨٨	د. حبيب الشاروني	الاغتراب في الذات	١٠ – ١	٦٩ – ٨٢
٨٩	د. م حسام الببلاوي	الاجهزة الحاسبة في خدمة الطب	٩ – ٢	١٠٣ – ١٤٦
٩٠	د. م حسام الببلاوي	التركيب الرياضي التصاعدي في الاجهزة الحاسبة	٤ – ٤	٣٧ – ٩٨
٩١	د. حسام محي الدين الالوسي	بواكير العلم الاغريقي (من طاليس الى ارسطو) (عرض) تاليف : ج . ا . د . لويد	٣ – ٢	٢١٧ – ٢٢٨
٩٢	د. حسام محي الدين الالوسي	الزمن في الفكر الديني والفلسفي القديم	٨ – ٢	١٠٩ – ١٨٦
٩٣	د. حسام محي الدين الالوسي	نشأة الفكر الاسلامي في بواكيره «الكلامية»	٦ – ٢	١٤٩ – ٢٠٤
٩٤	د. حسان حتحوت	حبوب منع الحمل في الميزان (عرض) تاليف : بول فون	١٠ – ١	٢٩١ – ٣٠٠
٩٥	د. حسان حتحوت	نظرة الى قلبي (عرض) ، تاليف : فيليب بلايبرج	١ – ٢	٢٥٩ – ٢٦٦
٩٦	حسن الكرمي	الثنوية في التفكير	٣ – ٢	١٧٣ – ٢١٨
٩٧	د. حسن حنفي	الاغتراب الديني عند فيورباخ	١٠ – ١	٤١ – ٦٨

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٩٨	د. حسن صادق المرصفاوى	البيئة والجريمة	٧ – ٤	٧٢ – ١٢٦
٩٩	د. حسن صادق المرصفاوى	الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة	٤ – ٢	٣٩ – ٧٨
١٠٠	د. حسن صادق المرصفاوى	الشيخوخة فى نطاق القانون الجنائى	٦ – ٧	١٣٢ – ١٧٠
١٠١	د. حسن صعب	الانسان هو الرأسمال	٢ – ٤	١١١ – ١٢٤
١٠٢	د. حسن طه النجم	دراسة فى الفكر الجغرافى	٣ – ٢	١٠٥ – ١٤٠
١٠٣	د. حسن طه النجم	مستقبل التغذية فى العالم	١ – ٢	٦٣ – ١٢٠
١٠٤	د. حسن ظاظا	الشخصية الاسرائيلية	١٠ – ٤	١٣ – ٦٢
١٠٤ ب	د. حسن ظاظا	العالم العربى ومشاكل الفن الحديث	٣ – ٣	٢٢٧ – ٢٦٨
١٠٥	د. حسن حواس كامل	شفرة الوراثة لغة الحياة	١ – ٢	٥٣ – ٩٢
١٠٦	د. حسين مؤنس	التاريخ والمؤرخون	٥ – ١	٤٧ – ١١٤
١٠٧	د. حسين مؤنس	شعراء المقاومة الفلسطينيون (عرض) تأليف : بدرو مارتنز مونتافيث ومحمود صبح	١ – ٢	١٨٥ – ٢٩١
١٠٨	د. حلمى مرزوق	جوانب غير مطروقة من شعر شوقى	٨ – ٢	١٩٥ – ٢١٤
١٠٩	د. حورية مجاهد	الايديولوجية والتطبيق (عرض) تأليف: ج . س . هيونج	٩ – ١	٢٠٢ – ٢١٨
١١٠	د. داود حلمى أحمد السيد	معجم اكسفورد ، دراسة فى معجم اللغة الانجليزية على أسس تاريخية (عرض)	١ – ٤	٢٢٥ – ٢٧٨
١١١	رئيس التحرير	الافتتاحية	١ – ١	٥ – ٦
١١٢	رشدى صالح	دراسة فى التمثيل والمسرح المصرى	٦ – ٢	١٩٣ – ٢٢٦
١١٣	رشدى صالح	الفولكلور والتنمية	٦ – ٤	٩ – ٣٨
١١٤	د. زكريا ابراهيم	الطبيعة البشرية فى فلسفة كارل ماركس	٢ – ١	٢٥٥ – ٢٦٨
١١٥	د. زكريا ابراهيم	فردريش شيلر ـ عالم الجمال وفيلسوف الحضارة	١ – ٤	٢١٣ – ٢٢٤
١١٦	د. زكريا البرى	الاسلام وحقوق الانسان	١ – ٤	١٠٥ – ١٢٤
١١٧	زكريا فهمى	طبيعة الانسان	١ – ٤	١٤٧ – ١٧٦
١١٨	زهير محمود الكرمى	الفيزياء الكونية (ترجمة) تأليف : و . هـ . ماكريا	١ – ٢	١٥٥ – ١٨٤
١١٩	زهير محمود الكرمى	ماخ واينشتين والبحث عن الحقيقة (ترجمة) تأليف : جيرالد هولتون	١ – ٢	١٦٧ – ١٩٢
١٢٠	د. سامى خمارنه	الصناعة الطبية فى العصر الاسلامى الذهبى	١٠ – ٢	١٩٥ – ٢٢٤
١٢١	د. سامى عمران	منع الحمل	٨ – ٤	٩٥ – ١٢٤
١٢١ ب	د. ساميه احمد اسعد	الدلالة المسرحية	٧ – ٤	٦٣ – ١٠٢
١٢٢	د. سامية احمد اسعد	الرواية الفرنسية المعاصرة	٢ – ٢	١١٣ – ١٦٦
١٢٣	د. ساميه احمد اسعد	ناتالى ساروت	٧ – ٤	٢٣١ – ٢٧٦
١٢٤	د. ساميه حسن الساعاتى	سوسيولوجيا العمل المنزلى (عرض) تأليف : آن أوكلى	٨ – ٢	٢٣٢ – ٢٥٠
١٢٥	د. سعد أحمد شعبان	ماذا يحدث الآن فى علوم الفضاء	٩ – ١	١٦٩ – ٢٤٦
١٢٦	د. سعد زغلول عبد الحميد	الاسلام والتراث	١٠ – ٢	١١١ – ١٦٨
١٢٧	د. سعد زغلول عبد الحميد	علوم العرب القديمة دراسة منهجية لبعض النماذج	٨ – ١	١٦٧ – ٢٣٢
١٢٨	د. سعد زغلول عبد الحميد	الفن الاسلامى لغته ومعناه (عرض) تأليف : تيتوس بكهارت	١٠ – ١	٢٤٩ – ٢٦٠
١٢٩	سعد عبد الرحمن	مشكلات التعصب والتحامل	٧ – ١	٨٣ – ١٣٢
١٣٠	د. سعد كامل مسعود	رياضيات العقل الحديث (عرض) تأليف د . والترفوخس	٢ – ١	٢٩١ – ٣٠٠

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
١٣١	د. سعد محمد كامل	فن التسجيلات الشعبية الاسلامية	٦ ـ ٤	٣٩ ـ ٩٨
١٣٢	د. سعيد عاشور	الاسلام والتعريب	١٠ ـ ٢	١٦٩ ـ ١٩٤
١٣٣	د. سلمى الخضراء الجيوسي	الشعر العربي المعاصر تطوره ومستقبله	٤ ـ ٢	١١ ـ ٥٤
١٣٤	سلوى مطر	العقل التوركي رواية الأمل	٨ ـ ٣	٩٩ ـ ١٢٨
١٣٥	د. سليمان قطاية	الطب العربي	١٠ ـ ٢	٢٧٧ ـ ٢٩٤
١٣٦	د. سليمان قطاية	كتاب القانون لابن سينا	١ ـ ٢	١٩١ ـ ٢١٠
١٣٧	د. سمحه امين الخولي	الارتجال وتقاليده في الموسيقى العربية	٦ ـ ١	١٥ ـ ٣٢
١٣٨	د. سمحه امين الخولي	المغنون العظماء (عرض) تأليف : هـ . بليزانتر	٩ ـ ٤	٧٧ ـ ٩٦
١٣٩	د. سمير عبد السيد تناغو	القانون والارادة	٤ ـ ٢	١٥٩ ـ ٢٠٤
١٤٠	د. سميرة الزبادي	تجارب مع الحشرات	٩ ـ ١	٢٤١ ـ ٢٥٨
١٤١	د. سهير القلماوي	القصص الشعبي	١ ـ ٢	١٢١ ـ ١٥٠
١٤٢	سهيل بديع بشروئي	وليم بطلر ييتس	٤ ـ ٢	٢٦١ ـ ٣٠٠
١٤٣	سوسن عامر	الوشم في الفن الشعبي	٦ ـ ٤	٩٩ ـ ١٢٦
١٤٤	د. سيد أحمد حامد	جورج لوكاتش (المرحلة الباكرة) (ترجمة) بقلم : جورج ليشتهايم	١ ـ ٢	٢٤٩ ـ ٢٦٠
١٤٥	د. سيد خيري	النمو الجسمي في مرحلة الطفولة	٧ ـ ٢	١٣ ـ ٥٠
١٤٦	د. سيد محمد غنيم	اللغة والفكر عند الطفل	١ ـ ١	٩١ ـ ١٢٠
١٤٧	د. سيد محمد غنيم	مفهوم الزمن عند الطفل	٨ ـ ٢	٦٥ ـ ١٠٨
١٤٨	د. سيد محمد غنيم	النمو النفسي من الطفل الى الراشد	١ ـ ٢	٥١ ـ ١١٤
١٤٩	د. شاكر مصطفى	الأدب الهجري الآخر	١ ـ ٢	٢٠٣ ـ ٢٢٨
١٥٠	د. شاكر مصطفى	التاريخ هل هو علم	١ ـ ١	١٩٧ ـ ٢١٤
١٥١	د. شكري محمد عياد	الرواية العربية المعاصرة وازمة الضمير العربي	٢ ـ ٢	٩ ـ ٣٨
١٥٢	صبري حافظ	الشعر الروسي الحديث ـ ملامحه واتجاهاته	١ ـ ١	١٦٧ ـ ٢٣٠
١٥٣	صدقي خطاب	الأدب والسياسة .. مناقشة جديدة لقصة جرابانوند (ترجمة) بقلم : كوربجان	٢ ـ ١	٢٤٧ ـ ٢٦٦
١٥٤	صدقي خطاب	ارنولد توينبي	٥ ـ ١	٢٨٩ ـ ٣١٠
١٥٥	صدقي خطاب	برتراند رسل (ترجمة)	١ ـ ١	٢٦٥ ـ ٢٧٢
١٥٦	صدقي خطاب	الموسيقى والموسيقيون (ترجمة) مقابلة اجراها جاك بروتوف	٢ ـ ١	٢٠١ ـ ٢٤٦
١٥٧	د. صفاء الشاطر	الشعر اليابانى الحديث (ترجمة) بقلم : دونالد كين	٤ ـ ٢	٢٣٩ ـ ٢٦٠
١٥٨	صفوت كمال	تحليل عناصر الرواية (ترجمة) بقلم : ستيث تومسون	٣ ـ ١	١٨١ ـ ٢٠٠
١٥٩		الرمز والاسطورة والشعائر في المجتمعات البدائية عرض لكتابى : ١ ـ الشعوب البدائية : تأليف روبرت فرلو ٢ ـ الرقار والاقنعة والقوة في طقوس السلانيزين ـ تأليف : ل . ف .	٩ ـ ٤	١٨١ ـ ٢٢٤
١٦٠		ارنجتون الفن الافريقي (عرض) تأليف : بيير موزيه	٢ ـ ٢	٢٦١ ـ ٢٧٢

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
١٦١		الفولكلوريون البريطانيون (عرض)تأليف: ريتشارد . م . دورسون	٥ – ١	٢١١ – ٢٢٠
١٦٢		مفهوم الزمن بين الأساطير والنظريات العلمية	٨ – ٢	٢١١ – ٢٢٤
١٦٣		من أساطير الخلق	٢ – ١	٢٢٥ – ٢٥٤
١٦٤		مناهج بحث الفلكلور العربي بين الأصالة والمعاصرة	٦ – ٤	١٧٣ – ٢١٠
١٦٥	د. صلاح الدين طلبه	السيبرنطيقا أحدث علوم القرن العشرين	٢ – ٤	٩ – ٢٨
١٦٦		العقول الالكترونية	١ – ٢	٥١ – ٩٢
١٦٧	د. ضحى شيحه	التحول السياسي من الشيوعية الى الديجولية	٨ – ٣	١٢ – ٤٠
	د. طلعت منصور	تنشيط نمو الأطفال	١٠ – ٣	١٥٣ – ١٩٢
١٦٨	د. طلعت منصور	الواقعية بين التنظير والمعالجة (دراسة تحليلية مقارنة)	٩ – ٢	١٦٣ – ٢٠٦
١٦٩	د. طه محمود طه	سيرة فرجينيا وولف (مجلدان) (عرض وتحليل) ـ تأليف : بل كوين	٨ – ٤	٢١٩ – ٢٧٢
١٧٠		فرجينيا وليونارد وولف ، دراسة لثلاثة كتب : ١ ـ فرجينيا وولف ، كتب وصور شخصية ، اعداد ماري ليون ٢ ـ فرجينيا وولف ، اعداد جين شولكند ٣ ـ زواج عقول حقيقي ، اعداد جون سباتر ، ايان بارصونز	٩ – ٤	٢٢٥ – ٢٥٦
١٧١	د. طه ندا	عصر ازدهار بلاد الفرس (عرض وتحليل) تأليف : ريتشارد ن . فراي	١٠ – ١	٢٢٥ – ٢٣٦
١٧٢	د. عادل سلامه	اتجاهات الشعر الانجليزى والأمريكى المعاصر	١ – ٢	٥٥ – ١٠٢
١٧٣	د. عادل سلامة	الثقافتان	٢ – ٤	١٥٥ – ١٧٢
١٧٤		حوار مع الكاتب الانجليزى المعاصر انجس ولسون	٣ – ٢	٢٤٩ – ٢٨٤
١٧٥	عادل شعبان	حقوق الانسان بين الاعلان العالمي لحقوق الانسان، وأصول هذه الحقوق في الاسلام	٥ – ٣	١٧٧ – ٢٠٢
١٧٦	د. عاطف وصفي	السلالة والذكاء والتربية (عرض وتحليل) تأليف : هـ . ج . أيزنك	٦ – ٢	٢٨٧ – ٣٠٠
١٧٧	د. عبد الباسط محمد حسن	أنماط السيطرة (عرض وتحليل) ،تأليف: فيليب ماسون	٤ – ٢	٢١٢ – ٢٢٤
١٧٨		تشارلز رايت ميلز فلسفة البحث علم الاجتماع	٦ – ٢	٢٥٧ – ٣٠٦
١٧٩		السياسة الحضرية (عرض وتحليل) تأليف : موراى . ستيدمان	٥ – ١	٢٢١ – ٢٣٦
١٨٠		مكانة المرأة في التشريع الاسلامي	٧ – ١	٣٩ – ٦٦
١٨١	د. عبد الحافظ حلمي محمد	الحيوانات الأولية المتطفلة (عرض وتحليل) تأليف : جون بيكر	٣ – ١	٢٧٧ – ٢٩٠
١٨٢		طفيليات الملاريا وبوغيات الدم الأخرى (عرض وتحليل) تأليف : ب . جارنام	٣ – ١	٢٧٧ – ٢٩٠

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
١٨٢	عبد الحليم محمود السيد	التفكير الابداعي والمجتمع الحديث	٢ – ٥	٢١٤ – ١٧٩
١٨٣ ب	د. عبد الحميد زايد	الآثار الرياضية في مصر القديمة	٤ – ١٠	١٦٦ – ١٢٧
١٨٤	عبد الحليم محمود السيد	خصائص الفن المصرى القديم	٤ – ٨	٧٠ – ١١
١٨٥	د. عبد الحميد زايد	من أساطير الشرق الأدنى القديم	٢ – ٦	٢٢٩ – ١٧١
١٨٦	د. عبد الحميد زايد	نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق الأدنى القديم (١)	٢ –	٢٣٢ – ١٥٥
١٨٧	د. عبد الحميد زايد	نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق الأدنى القديم (٢)	٤ – ٢	٢٤٢ – ١٧٢
١٨٨	د. عبد الحميد يونس	الفولكلور والميثولوجيا	١ – ٣	٥٤ – ١٥
١٨٩		اللغة الفنية	١ – ٢	٦٤ – ٣٥
١٩٠	د. عبد الرحمن بدوى	أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب	١ – ٩	٤٢ – ١٢
١٩١		أحدث النظريات في فلسفة التاريخ	١ – ٥	٢٤٤ – ٢١٥
١٩٢		الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب	٢ – ١	٢٢ – ١١
١٩٣		الزمن عند مارتن هيدجر	٢ – ٨	٢١٠ – ١٨٧
١٩٤		الشيطان في الفلسفة الحديثة (عرض ونقد) تأليف : أرنست جيلنر	١ – ٨	٢٩٦ – ٢٨٧
١٩٥		اللغة والنطق في الدراسات الحالية	١ – ٢	٩٠ – ٦٥
١٩٦	عبد الرحمن سليمان	الزراعة بدون تربة (عرض وتحليل) تأليف : د . كوليني	٤ – ١	٢٨٦ – ٢٧٢
١٩٧	د. عبد الرحمن عيسوى	النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والمراهقة	٢ –	١٩٠ – ١٤٧
١٩٨	د. عبد الرزاق الدواي	مأزق الطب الحديث (ترجمة) ، تأليف هنري ميلر	٢ – ٩	٢٨٤ – ٢٧١
١٩٩	د. عبد السميع مصطفى	الطاقة في الحاضر والمستقبل	٢ –	١٤٦ – ٩١
٢٠٠	د. عبد الصبور شاهين	مشكلات القياس في اللغة العربية	٢ – ١	٢٣٠ – ١٨٥
٢٠١	عبد العال عبد المنعم الشامي	جغرافية المدن عند العرب	١ –	١٦٨ – ١٢٢
٢٠٢	د. عبد العزيز العيري	فلسفة التاريخ	٢ – ١	٨٤ – ٦٥
٢٠٣	د. عبد العزيز الدسوقي	نحو علم جمال عربي « تصور وتطبيق »	٢ – ٩	٤٨ – ٤٧
٢٠٤	د. عبد العزيز أمين	لوث ولكن ملعونا (عرض وتحليل) تأليف د . آرثر بورن	٢ – ١	٢٩٢ – ٢٧٢
٢٠٥	د. عبد العزيز أمين	تطور المعرفة العلمية وتنظيمها (عرض وتحليل) تأليف : هارولد هيمزورث	٤ – ٢	٢١٤ – ٢٠٧
٢٠٦	د. عبد العزيز أمين	من وحي العلوم	٢ – ٨	١٩٤ – ١٦٣
٢٠٦ ب		مع مسيرة العلوم نحو المستقبل	٤ – ١	٢١٠ – ١٦٧
٢٠٧	عبد العزيز محمد الزكي	طاغور ... الفنان	١ – ٨	٢٨٦ – ٢٥٥
٢٠٨		الفكر الهندي من الهندوكية الى الاسلام	٢ – ٦	١٤٨ – ٦١
٢٠٩		نشأة الفكر الهندي وتطوره في العصور القديمة	٢ – ١	٢٧٢ – ٢٤١
٢١٠		يحيى حقي .. بين الصرية والتركية	٢ – ٩	١٠٦ – ٤٩
٢١١	د. عبد الغفار مكاوى	الشعر الألماني في القرن العشرين (الحسن الحرية والصمت)	٢ – ١	١٦٢ – ١٠٣
٢١٢	عبد الغنى النبال	الفخار الشعبي في مصر	٤ – ٦	١٧٢ – ١٢٧
٢١٣	عبد الغنى شعبان	الموسيقى العربية وموقعها من الموسيقى العالمية	١ – ٦	٢٠٠ – ١٠٣

تسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٢١٤	د. عبد الكريم احمد	مشكلة التزايد السكاني وارهاق تطور التربة في البلاد النامية	٥ – ٤	٦٥ – ٩٠
٢١٥	د. عبد الكريم اليافي	الهجرات وتحركات السكان	٥ – ٥	١٥ – ٦٤
٢١٦	عبد الله عبد الغني غانم	مهاجرون سود ومواطنون بيض (عرض وتحليل) تأليف : دانيال لورنس	٩ – ٢	٢٦٩ – ٢٧٦
٢١٧	د. عبد المحسن صالح	الاتوميشن ومستقبل الانسان (عرض وتحليل) تأليف : س . ديمشتسكي	١ – ٢	٢٩٧ – ٣١٤
٢١٨	د. عبد المحسن صالح	تكنولوجيا بيولوجية في الكائنات الحية	٩ – ٣	١١ – ٦٠
٢١٩	د. عبد المحسن صالح	الزمن البيولوجي	٨ – ٢	٩ – ٦٤
٢٢٠	د. عبد المحسن صالح	شيخوخة الكون	٦ – ٣	٤٧ – ١٠٨
٢٢١	د. عبد المحسن صالح	صانعو الحياة (دراسة لثلاثة كتب هي : ١ – الذين يشكلون أو يطورون الناس (فانس باكارد) ٢ – مذكرات جراح (هيدلي الكتز) ٣ – اديسون : الرجل الذي صنع المستقبل (رونالد كلارك)	٩ – ٤	١٢ – ٤٠
٢٢٢	د. عبد المحسن صالح	الطاقة طبيعتها وصورها ونتائجها	٥ – ٢	١٢ – ٦٨
٢٢٣	د. عبد المحسن صالح	ماذا يحدث في العلوم البيولوجية	٨ – ٤	٢٣٧ – ٢٨٨
٢٢٤	د. عبد المحسن صالح	المدنية الحديثة ومشكلات التلوث	٢ – ٣	٧٧ – ١٢٤
٢٢٥	د. عبد المحسن صالح	مستقبل المخ ومصير الانسان		٧٥ – ١٢٠
٢٢٦	د. عبد المحسن صالح	الهرمونات – أوامر ولغات	٧ – ٢	٩٢ – ١٥٦
٢٢٦ ب	د. عبد الواحد لؤلؤه	أدب الرحلات والمغامرات	١٠ – ٢	٢٢٥ – ٢٦٤
٢٢٧	د. عبد الواحد لؤلؤه	شكسبير الحاضر أبدا (عرض لكتابين) : ١ – المشهد الاليزابيثي تأليف : مايكل لوليج ٢ – التمثال الحي تأليف : م. س. براد بروك	٦ – ٤	٤١ – ٦٢
٢٢٨		الموت والشاعر المصري المعاصر	١ – ٤	١٥٩ – ١٨٨
٢٢٩	عبد الوهاب بلال	المقامات العراقية	٦ – ١	٣٢ – ١٠٢
٢٣٠	د. عبد الوهاب حومد	عقوبة الاعدام بين البقاء والالغاء	٧ – ٤	١٨٩ – ٢١٠
٢٣١	د. عبد الوهاب حومد	القتل بدافع الشفقة	٤ – ٣	١٢ – ٢٨
٢٣٢		الجرم والقانون	٥ – ٣	٥٣ – ٩٠
٢٣٣	د. عبد الوهاب محمد المسيري	تنيسون وسيدة جزيرة شالوت	٦ – ٤	٢٥٩ – ٢٧٤
٢٣٤	د. عثمان خليل عثمان	تطور مفهوم حقوق الانسان	١ – ٤	١١ – ٤٤
٢٣٥	د. عدنان الدوري	الجريمة والمجرم	٥ – ٣	١٣ – ٥٢
٢٣٦	د. عدنان الدوري	الحرية والعدالة خلف الاسوار (عرض وتحليل) تأليف : ف. ي. امري	٤ – ٣	٢٧٩ – ٢٨٦
٢٣٧	د. عدنان الدوري	مجتمعنا المجرم (المصادر الاجتماعية والقانونية للجريمة في امريكا ، عرض وتحليل تأليف : ادوين ا.شور	١ – ٤	٢١٥ – ٢٢٤
٢٣٨	د. عدنان الدوري	المخدرات وطلبة المدارس (عرض وتحليل) تأليف : د. س. ب. ويثر	٧ – ٣	٢٦٧ – ٢٧٢
٢٣٩	د. عزت حجازي	ازمة المجتمع الصناعي (عرض وتحليل) تأليف : ه. برانيوم	٢ – ٣	٢٧٣ – ٢٨٤
٢٤٠	د. عزمي اسلام	الفرد نورث هوايتهد	٢ – ٢	٢٧١ – ٢٨٨
٢٤١	د. عزمي اسلام	فتجنشتين وفلسفة التحليل	٣ – ٤	٢٢٧ – ٢٦٤

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٢٤٣	د. عزمى اسلام	الفلسفة والطب (عرض وتحليل) تاليف : ليدرمان ...	٨ — ٣	٢٨٥ — ٢٩٨
٢٤٢	د. عزة هيكل	اندريه مالرو « قدر الانسان » ...	٨ — ٣	١٢٩ — ١٦٢
٢٤٤	د. عطيه محمود هنا	ابناء يوم الاثنين الاسود (عرض وتحليل) تاليف : جلوبدباج . باول ...	٧ — ١	٢٧٧ — ٢٩٦
٢٤٥	د. عطيه محمود هنا	الصحة النفسية (العقلية) والسياسية الاجتماعية (عرض وتحليل) تاليف : دافيد ميكانيك ...	٢ — ١	٢٦٩ — ٢٧٦
٢٤٦	د. علو الدين كمال	تطور الكائنات الحية ...	٣ — ٤	١٢ — ٥٠
٢٤٧	على ادهم	الفوضوية ...	١ — ٢	٢١٩ — ٢٤٠
٢٤٨	على ادهم	الهيومانزم ...	٤ — ٣	٢٣٣ — ٢٤٨
٢٤٩	د. على السلمى	اتجاهات جديدة فى الفكر التنظيمي ...	٨ — ٤	٧١ — ٩٤
٢٥٠	د. على السلمى	المدخل الادارى لعلاج المشكلة السكانية بالدول النامية ...	٤ — ٤	٩١ — ١١٨
٢٥١	د. على حافظ	العقل الافريقي ...	١ — ٢	١٥٥ — ٢٠٢
٢٥٢	د. على حلمى موسى	الكومبيوتر ـ والعلم والمجتمع (عرض وتحليل) تاليف : فرانك جورج ...	١ — ١	٢٧٤ — ٢٨٠
٢٥٣	د. على صادق ابو هيف	من يملك الفضاء ؟ ...	١ — ٣	١٤١ — ١٥٤
٢٥٤	د. عليه حسن حسين	ربة البيت (عرض وتحليل) تاليف : آن اوكلى ...	٨ — ٣	٢١٥ — ٢٣٢
٢٥٥	د. عمر محمد جبرين	الابصار : بمعنى الياته العضوية والنفسية	٤ — ٣	٢٠٢ — ٢٤٨
٢٥٦	د. فاروق زكى يونس	علم الاجتماع ـ الطلاب والمجتمع (عرض وتحليل) تاليف : جيروم وايلد ...	١٠ — ١	٢٦١ — ٢٧٢
٢٥٦ ب	د. فاروق احمد مصطفى	الازمة الحضرية العالمية (عرض وتحليل) تاليف : توماس ل. بليم ...	١٠ — ٤	٢٣٩ — ٢٤٦
٢٥٧	د. فاروق مصطفى اسماعيل	الاصول البشرية (ترجمة) تاليف : د. د. بليم ...	٢ — ٤	٢٢١ — ١٥٢
٢٥٨	د. فاروق مصطفى اسماعيل	حياة المرأة فى القرى العربية الاسلامية (ترجمة) ... تاليف : ريتشارد انطون ...	٧ — ١	١٣٧ — ١٦٦
٢٥٩	د. فاروق مصطفى اسماعيل	الموارد المائية وعلاقتها بالسكان (ترجمة) تاليف : ورس . ويتنكاى ...	٤ — ٤	١١٩ — ١٥٦
٢٦٠	فاضل السباعى	كريكور زهراب ...	٩ — ٣	٢٥١ — ٢٧٢
٢٦١	د. فاطمه القرباوى	الشيخوخة هل هى مرض ...	٦ — ٣	١٠٩ — ١٣٢
٢٦٢	د. فتح الله خليف	الاراء الاولى فى القوى بين الذرات ...	٢ — ٢	١١ — ٢٦
٢٦٣	د. فتح الله خليف	الاغتراب فى الاسلام ...	١٠ — ١	٨٣ — ٩٨
٢٦٤	د. فتح الله خليف	فكرة الخلق ...	٢ — ٤	٥١ — ٧٤
٢٦٥	فتحية محمد ابراهيم	الاطلبة القلوبة على امرها (عرض وتحليل) تاليف : كريستين اموند سين	٧ — ٤ ٧ — ٤	٢٤٧ — ٢٥٨ ٢٥٧ — ٢٨٦
٢٦٥ ب	فتحية محمد ابراهيم	دراسات نسائية (دراسة لاربعة كتب) : ١ ـ قرن من الكفاح ... تاليف : . فلكستر ... ٢ ـ التغير التسبب ... تاليف : س. دافيد سون ... ٣ ـ مازيات حوامل ... تاليف : ماستيتار ...		

المسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٢٩٥	د. محمد احمد غالي	التقويم النفسي للاطفال (عرض وتحليل) تاليف : جيمس بالمر	٤ - ٦	٢٩٢ - ٢٧٥
	د. محمد احمد غالي	غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد	٢ - ١٠	١١٠ - ٧٢
٢٩٦	د. محمد اسماعيل الوالي	تشوسرو والاهاجي العصر وسيطة في الطبقات (عرض وتحليل) تاليف : جيل مان	٢ - ٩	٢٨٤ - ٢٧٣
٢٩٧	د. محمد الجوهري	التراث الشعبي بين الفولكلور وعلم الاجتماع	١ - ٢	١٢٠ - ٨٢
٢٩٨	د. محمد الجوهري	سفر التكوين كاسطورة (عرض وتحليل) ، تاليف : ادموند ليتش	٢ - ٤	٢٥٤ - ٢٤٥
	د. محمد الجوهري	الفأل في التراث الشعبي	٢ - ١	٥٢ - ١٥
٢٩٩	د. محمد الطالبي	التاريخ ومشاكل اليوم والغد	١ - ٦	٤٦ - ١١
٣٠٠	د. محمد العصفوري	صور الاسلام والمسلمين في الأدب الغربي	٤ - ٨	١٥٤ - ١٢٥
٣٠١	د. محمد النادي	مصادر جديدة للطاقة	٢ - ٩	١٦٢ - ٦٣
٣٠٢	د. محمد توفيق بليع	المسجد في الاسلام	٢ - ١٠	٥٨ - ١١
٣٠٣	د. محمد توفيق حسين	الاسلام في الكتابات الغربية	٢ - ١٠	٢٥٤ - ٢٢٥
٣٠٤	د. محمد جواد رضا	الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق	٢ - ٧	١٤٦ - ١١٥
٣٠٥	د. محمد جواد رضا	ظاهرة الشك في المجتمعات المعاصرة	٢ - ٨	١٧٦ - ١٤٧
٣٠٦	د. محمد جواد رضا	مستقبل الكتابة (عرض وتحليل) تاليف : روبرت دبسك	١ - ١٠	٢٨٠ - ٧٢
٣٠٧	د. محمد رجب النجار	المرأة في الملاحم الشعبية	١ - ٧	٩٤ - ٦٧
٣٠٨	د. محمد زكي العشماوي	الحاضر عصر المستقبل	١ - ١	٤٤ - ١٢
٣٠٩	د. محمد زكي العشماوي	آفاق الفكر في القرن العشرين	١ - ٤	٤٤ - ١١
٣١٠	د. محمد زكي العشماوي	الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث	٢ - ٩	٢٦ - ١١
٣١١	د. محمد زكي العشماوي	نظرية الخيال عند كولريدج	٢ - ٢	٢٧٠ - ٢٣٧
٣١٢	د. محمد سلامة يوسف	ابن شرف القيرواني وآراؤه النقدية في في رسالته « اعلام الكلام »	٢ - ٩	٢٥٤ - ٢٠٧
٣١٣	د. محمد طه الحاجري	تحقيق التراث تاريخا ومنهجا	١ - ٨	٢٨ - ١١
٣١٤	د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي	بيئة العصر بين البقاء والفناء	٤ - ٧	١٦٨ - ١٢٧
٣١٥	د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي	متاهات المستكشف القاهر (عرض وتحليل) تاليف : ريتشاردز هول	٣ - ٧	٢٨٢ - ٢٧٢
٣١٦	د . محمد عبد الهادي أبو ريدة	الايمان بالله في عصر العلم	١ - ٩	١٩٤ - ١٢٢
٣١٧	د . محمد عبده محجوب	لافيدا او الحياة (عرض وتحليل) ، تاليف : اوسكار لويس	٢ - ١	٢٧٤ - ٢٦٧
٣١٨	د . محمد عبده محجوب	وجوه مختلفة للفتاة المراهقة (عرض وتحليل) تاليف : ليليان كوهين كوفار	١ - ٣	٢٦٨ - ٢٥٩
٣١٩	د . محمد عز الدين حلمي	عالم الجيولوجيا (عرض وتحليل) ، تاليف : ب . كالر مول	٢ - ١	٣٠٤ - ٢٩٥
٣٢٠	د. محمد عصام فكري	التكنولوجيا والطب	٢ - ٩	١٦٨ - ١٤٣
٣٢١	د. محمد عصام فكري	الحضارة والرقي	٢ - ٢	٦٠ - ٢٩
٣٢٢	د. محمد عصام فكري	عالم الشيخوخة	٢ - ٦	٤٦ - ١٣
٣٢٣	د. محمد علي أبو ريان	تصنيف العلوم بين الفارابي وابن خلدون	١ - ٩	١٢٢ - ٩٧
٣٢٤	د. محمد علي محمد	البيروقراطية (عرض وتحليل) ، تاليف مارتن البرو	٢ - ٤	٣١٢ - ٣٠١

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٣٢٥	د. محمد عواد حسين	الزمن في التراجيديا الافريقية (عرض وتحليل) تاليف : جي . دى روميلى	١ – ٤	٢١٤ – ٢٠١
٣٢٦	د. محمد عواد حسين	صناعة التاريخ	١ – ٥	١٦٦ – ١١٥
	د. محمد غانم الرميحي	ديناميات التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث (عرض وتحليل) تاليف ديفيد أ . اشمت	٢ – ١٠	٣٦٠ – ٣٤٥
٣٢٧	د . محمد عوض محمد	حقوق الانسان بين النظرية والتطبيق	٤ – ١	١٠٤ – ٨١
٣٢٨	د. محمد مصطفى هدارة	الشعر والنقد الاخلاقي	٢ – ٩	٢٥٠ – ٢٢٩
	د. محمد مصطفى	الكتابة العربية عنصر زخرف	٢ – ١٠	٢٨٤ – ٢٦٥
٣٢٩	د . محمد ناصر	التربية في عالمنا المتغير	٢ – ١	١٥٤ – ١٣١
٣٣٠	د . محمد نبيل رياض	السرطان ... مشكلة القرن العشرين	٢ – ٦	٢٥٦ – ٢٣٣
٣٣١	د . محمد واصل الظاهر	رياضيات العصر	١ – ٢	١٦٠ – ١٣١
٣٣٢	د . محمد يوسف محمد بكر	البتروكيماويات ومستقبل الصناعات الكيماوية البترولية	٢ – ٢	١٢٢ – ٩٧
٣٣٣	د . محمود ابو العمايم	الكيمياء عند الصينيين القدماء (عرض وتحليل) ، تاليف : ناثان سيفين	٢ – ٢	٢١٦ – ٢٠٦
٣٣٤	د . محمود ابو زيد	جان جاك روسو والعقد الاجتماعي	٢ – ١٠	٢٠٨ – ١٩٣
	د . محمود ابو زيد	جراهام والاس		
٣٣٥	د . محمود احمد الحفني	صفي الدين الارموي البغدادي	٢ – ٨	٢٥٦ – ٢٢٥
٣٣٦	د . محمود احمد الشربيني	لغة الأمواج	١ – ٧	٣٠٢ – ٢٨٣
٣٣٧	د . محمود احمد الشربيني	الانسان بين العلم والبيئة	٢ – ٧	٥٢ – ١٣
٣٣٨	د . محمود احمد الشربيني	التكنولوجيا بين الخبرة والعلم	٤ – ١	٧٢ – ٣٥
٣٣٩	د . محمود امين	البترول والطاقة	٢ – ١	٩٦ – ٦١
٣٤٠	م . محمود [illegible] رشوان	مجتمع الميكروبات (عرض وتحليل)	٢ – ٥	٩٠ – ٦٩
		تاليف : جيمس ماركس [illegible] د. فورمان	٢ – ٦	٣١٠ – ٣٠٣
٣٤١	د . محمود حمدي زقزوق	الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت	٢ – ٤	٢٥٠ – ٢٠٥
٣٤٢	د . محمود رياض	الالكترونيات وتقارب الثقافات	٢ – ١	٥٠ – ٣٧
٣٤٣	د . محمود علي مكي	الشعر الاسباني المعاصر في اسبانيا وامريكا اللاتينية	٢ – ٤	٢٢٨ – ١٦٣
٣٤٤	د . محمود علي مكي	الفن القصصي المعاصر في اسبانيا	٣ – ٢	١١٢ – ٣٩
٣٤٥	د . محمود فهمي حجازي	اصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية	١ – ٢	١٨٠ – ١٥١
٣٤٦	د . محمود فهمي حجازي	رفاعة الطهطاوي	١ – ٤	٢٧٢ – ٢٠١
٣٤٧	محمود محمود	رسائل أولدس هكسلي (عرض وتحليل) تاليف : جروفر سميث	٢ – ٣	٢٩٦ – ٢٨٥
٣٤٨	محمود محمود	العوامل المؤثرة في الادب	٤ – ١	٢٧٢ – ٢٤١
٣٤٩	د . مراد مراد وهبة	الاغتراب والوعي الكوني	١ – ١٠	١١٢ – ٩٩
٣٥٠	مستشار التحرير	تمهيد (عصر الازمات)	١ – ١	١٢ – ٧
٣٥١	مستشار التحرير	تمهيد (عالمنا المتغير)	٢ – ١	١٠ – ٣
٣٥٢	مستشار التحرير	تمهيد (الانسان والكون)	٣ – ١	٨ – ٣
٣٥٣	مستشار التحرير	تمهيد (حقوق الانسان)	٤ – ١	١٠ – ٣
٣٥٤	مستشار التحرير	تمهيد (الفكر واللغة)	١ – ٢	١٠ – ٣
٣٥٥	مستشار التحرير	تمهيد (العلم والتكنولوجيا)	٢ – ٩	١٠ – ٣
٣٥٦	مستشار التحرير	تمهيد (مع الكتب)	٤ – ٩	١٢ – ٣
٣٥٧	مستشار التحرير	تمهيد (الاغتراب)	١ – ١٠	١٢ – ٣

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٣٥٨	مستشار التحرير	تمهيد (التجربة الاسلامية)	١٠ – ٢	٢ – ١٠
٣٥٩	مستشار التحرير	تمهيد (الطفولة)	١٠ – ٢	٢ – ١٢
٣٦٠	مستشار التحرير	عالم الفكر ١٩٧٠ – ١٩٨٠ قصة هذه المجلة	١٠ – ٤	٢ – ١٢
٣٦٠ أ	د . مصطفى احمد تركي	الخطابات المتبادلة بين فرويد ويونج (عرض وتحليل) ، نشر : هوجبارت وروالدج	١٠ – ٤	٢٥٩ – ٢٧٠
٣٦٠ ب	د . مصطفى الخشاب	الفلسفة وعلم الاجتماع	٢ – ٢	٨٥ – ١٠٤
٣٦٠ جـ	د . مصطفى العوجي	الجرم والمنظمات الدولية	٥ – ٢	١١٢ – ١٤٦
٣٦٠ د	د . مصطفى كمال محمد	تكنولوجيا العصر والعالم العربي	١٠ – ٤	١٠٣ – ١٢٦
٣٦١	د . مصطفى كمال محمد	تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم سنة ٢٠٠٠	٩ – ٢	١٢٥ – ١٦٢
٣٦٢	د . مصطفى ماهر	الرواية الالمانية في القرن العشرين	٢ – ٢	١٦٧ – ٢٢٦
٣٦٣	د . مصطفى ناجي	مقدمة للسكان ، تحليل سيسيولوجي (عرض وتحليل) تاليف : جودا متراس	٩ – ٢	٢٥٥ – ٢٦٨
٣٦٤	د . مكي شبيكة	ازمة جنشك (عرض وتحليل) تاليف : دي والديك	١ – ٢	٢٧٥ – ٢٨٤
٣٦٥	د . مكي شبيكة	على تخوم دار الاسلام	٢ – ٢	٢٠١ – ٢٠٨
٣٦٦	د . ملاك جرجس	القدرة العقلية للمرأة ومتطلبات العلم (ترجمة) ، تاليف : اليانور أ. ماكوبي	١ – ٤	١٩٥ – ٢١٢
٣٦٧	د . مناف منصور	ميكائيل نعيمة ... ناقدا أدبيا	٧ – ٤	٢١١ – ٢٤٦
٣٦٨	د . منصور احمد منصور	الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق	١ – ٤	١٦٩ – ١٨٨
٣٦٩	د . منى سعد ابو سنة	الاغتراب في المسرح المعاصر من خلال مسرح بريشت	١٠ – ١	١٤٧ – ١٧٤
٣٧٠	ميرفت مصطفى سيف الدين	العصر الوسيط ومشكلاته (ترجمة) تاليف : فيليب [illegible]	١ – ٢	٦١ – ٧٦
٣٧١	د . نادر فرجاني	استخدام الاساليب الرياضية والاحصائية في العلوم الانسانية	١ – ٤	١١ – ٣٦
٣٧٢	نادية عبد العزيز عوض	دراسات حديثة عن الاوبرا دراسة لثلاثة كتب : ١ – الاوبرا من الالف الى الياء تاليف : اليزابيث فوربس ٢ – دفاعا عن الاوبرا تاليف : هاميس ف . ج سوانستون ٣ – الادب والاوبرا تاليف : جارى شمير جال	٩ – ٤	١٤٧ – ١٨٠
٣٧٣	د . ناهد صالح	الرياضيات النظرية والاجتماعية	١ – ٤	٩٩ – ١١٦
٣٧٤	د . نور الدين حاطوم	خصائص حضارة العصر	١ – ٢	٢٢ – ٣٦
٣٧٥	د . نور شريف	مقدمة نقدية للشعر العربي الحديث ، تصنيف : د. مصطفى بدوي	٨ – ٢	٢٥٧ – ٢٦٨
٣٧٦	د . نور شريف	صور السجن ومظاهره في روايات تشارلز ديكنز	٢ – ١	١٩٥ – ٢٢٤
٣٧٧	د . نور شريف	المرأة في ثلاثية نجيب محفوظ	٧ – ١	٩٥ – ١٣٦
٣٧٨	د . نور شريف	النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين	٩ – ٢	١٠٧ – ١٣٤
٣٧٩	د . نبيلة ابراهيم	الانسان والزمن في التراث الشعبي	٨ – ٤	١٨٢ – ٢١٤

مسلسل	المؤلف	الموضوع	المجلد والعدد	الصفحة
٢٨٠	هاشم النحاس	الامتداد السينمائي بين البناء الروائي والبناء الفيلمي --- --- --- --- ---	٦ – ١	٢٨٢ – ٢٤٧
٢٨١	هاشم النحاس	جان رينوار (سيرة ذاتية) – عرض ---	٩ – ١	٢٨٨ – ٢٧٥
٢٨٢	هاشم النحاس	نحو علم اجتماع السينما (عرض وتحليل) تأليف : أ. س جارفى --- --- --- ---	٢ – ٤	٢٩٤ – ٢٦٥
٢٨٣	د . وديعة طه النجم	العلاقات بين العلماء في العصر العباسي ---	١ – ١	٢٦٤ – ٢٢١
٢٨٤	سعادة وزير الارشاد والانباء	كلمة الافتتاحية --- --- --- --- --- ---	١ – ١	٤ – ٣
٢٨٥	ياسر الفهد	الصحافة في امريكا ، مدخل الى وسائل الاعلام (عرض وتحليل) --- --- --- تأليف : توماس اليوت بيري --- ---	٧ – ٤	٣١٠ – ١٩٩
٢٨٦	ياسر الفهد	الطب النفسي والطب النفسي المضاد (عرض وتحليل) ، تأليف : دافيد كوبر	٨ – ١	٣٠٤ – ١٩٧
٢٨٧	د . يحيى الجمل	الحرية في المذاهب السياسية المختلفة ---	١ – ٤	١٥٨ – ١٢٥
٢٨٨	يحيى حقي	الشجان عضو منتسب (سيرة ذاتية) ---	٥ – ٣	٢٦٦ – ٢٤٩
٢٨٩	يحيى فايز الحداد	قيمة الفقر (عرض وتحليل) ، تأليف : مارجريت هساولى --- --- --- ---	٨ – ٤	٢٥٨ – ٢٨٩
٢٩٠	د . يوسف خليف	الشعر الجاهلى --- --- --- --- --- ---	١ – ٤	١٩٤ – ١٦١
٢٩١	دكتور/يوسف عز الدين	التطور العضوي للكائنات الحية --- ---	٣ – ٤	١٠٤ – ٧٥
٢٩٢	دكتور/يوسف عز الدين	جول فرن والادب العلمى --- --- ---	١٠ – ١	٢٣٢ – ١٩٩
٢٩٣	دكتور/يوسف عز الدين	لغة الحيوان --- --- --- ---	٧ – ٢	١٩٠ – ١٥٧

ثالثا ـ فهرس الكتب

مسلسل	الموضوع	المؤلف / المترجم / الناقد	المجلد/العدد	الصفحة
١٤	تشوسر والاهاجي العصر وسطية في الطبقات	تاليف : جيل فان عرض وتحليل : د. محمد اسماعيل الموافي	٩ – ٢	٢٧٢ – ٢٨٤
١٥	تطور المعرفة العلمية وتنظيمها	تاليف : هارولد هيمزورث عرض وتحليل:د. عبدالعزيز امين	٢ – ٤	٣٠٧ – ٣١٤
١٦	التقويم النفسي للاطفال	تاليف : جيمس بالر عرض وتحليل : د. محمد احمد غالي	٦ – ٤	٢٧٥ – ٢٩٢
١٧	تكوين قومي عربي ... ... العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره	تاليف : وليم . ل.كليفلند عرض وتحليل : د. فيصل الوائلي	٦ – ٤	٢٩٣ – ٣٠٦
١٨	التنظيم الصناعي بين النظرية والواقع ...	تاليف : جوان ودورد عرض وتحليل : د. قيس النوري	٢ – ٤	٢٩٩ – ٣٠٦
١٩	جان رينوار	تاليف : جان رينوار عرض وتحليل : هاشم النحاس	٩ – ١	٢٧٥ – ٢٨٨
٢٠	جوع او وفرة	تاليف : كولن كلارك عرض وتحليل : د. فؤاد محمد الصقار	٣ – ٣	٢٨٥ – ٢٩٢
٢١	حبوب منع الحمل في الميزان ...	تاليف : بول فون عرض وتحليل : د. حسان حتحوت	١ – ١	٢٩١ – ٣٠٠
٢٢	الحرية والعدالة خلف الاسوار	تاليف : ف. ى. اموري عرض وتحليل : د. عدنان الدوري	١ – ٣	٢٧٩ – ٢٨٦
٢٣	الحيوانات الاولية المتطفلة	تاليف : جون بيكر عرض وتحليل : د. عبد الحافظ حلمي محمد	٢ – ١	٢٧٧ – ٢٩٠
	الخطابات المتبادلة بين فرويد ويونج ...	نشر : هوجارث ورتلدج عرض وتحليل : د. مصطفى تركي	١٠ – ٤	٢٥٩ – ٢٧٠
٢٤	دراسات حديثة من الاوبرا ــ دراسة ثلاثة كتب :		٩ – ٤	١٤٧ – ١٨٠
	١ ــ الاوبرا من الالف الى الياء	تاليف : اليزابيث فوربيس		
	٢ ــ دفاعا عن الاوبرا	تاليف : هاميش ف. ج. سوانستون		
	٣ ــ الادب والاوبرا	تاليف : جارى شميد جال بقلم : نادية عبد العزيز عوض		
٢٥	دراسات نسائية ــ دراسة لاربعة كتب :		٩ – ٤	٢٥٧ – ٢٨٦
	١ ــ قرن من الكفاح	تاليف : ا. فلكستر		
	٢ ــ الثغر التسيب	تاليف : س. دافيدسون		

مسلسل	الموضوع	المؤلف / المترجم / الناقد	المجلد/العدد	الصفحات
	٣ ـ ماريات حوامل	تأليف : ماسيتاير		
	٤ ـ صورة من النساء في قرية انجليزية	تأليف : م. شامبرلين ، فيتروميا بقلم : فتحية محمد ابراهيم		
	ديناميات التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث	تأليف : دافيد ا. شميت عرض وتحليل : د. محمد عاتم الرميحي	١٠ ـ ٢	٢٦٠ ـ ٢٤٥
٢٦	الرأسمالية الحديثة ... ... تغير ميزان السلطة بين القطاعين العام والخاص	تأليف : اندروشونفيلد عرض وتحليل : د. برهان الدين الشلي	١ ـ ٢	٢١٦ ـ ٢٠٥
٢٧	ربة البيت	تأليف : ان اوكلي عرض وتحليل : د. عليه حسن حسين	٨ ـ ٢	٢٣٢ ـ ٢١٥
٢٨	رسائل اولدس هكسلي	تأليف : جروفر سميث عرض وتحليل : محمود محمود	١ ـ ٢	٢٩٦ ـ ٢٨٥
٢٩	الرمز والاسطورة والشعائر في المجتمعات البدائية ... ... عرض لكتابين : ١) الشعوب البدائية ... ٢) الرمز والاقنعة والقوة في طقوس الييلانيزين	تأليف : روبير فرنو تأليف : ف. ف. ارنجتون بقلم : صفوت كمال	٩ ـ ٤	٢٢٤ ـ ١٨١
٣٠	رياضيات العقل الحديث	تأليف : ا. والتر فوكس عرض وتحليل : د. سعيد كامل مسعود	٦ ـ ١	٣٠٠ ـ ٢٩١
٣١	الزمن في التراجيديا الافريقية	تأليف : ج. دي روميلي عرض وتحليل : د. محمد جواد حسن	١ ـ ٤	٣١٤ ـ ٣٠١
٣٢	ستانلي المستكشف الفاصر	تأليف : ريتشارد هول عرض وتحليل : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي	٧ ـ ٢	٢٨٢ ـ ٢٧٢
٣٣	سفر التكوين كاسطورة	تأليف : ادمون ليتش عرض وتحليل : د. محمد الجوهري	٩ ـ ٢	٢٥٤ ـ ٢٤٥
٣٤	السلالة والذكاء والتربية	تأليف : هـ. ج. ايزينك عرض وتحليل : د. عاطف وصفي	٤ ـ ٢	٣٠٠ ـ ٢٨٧
٣٥	سوسيولوجيا العمل المنزلي	تأليف : ان اوكلي عرض وتحليل : د. سامية حسن الساعاتي	٨ ـ ٢	٢٥٠ ـ ٢٣٢
٣٦	سياسات العنف او الثورة في عالمنا المعاصر	تأليف : كارل ليدن ـ كارل سميث عرض وتحليل : د. صبري مقلد	١ ـ ١	٣٠٠ ـ ٢٩١

مسلسل	الموضوع	المؤلف / المترجم / الناقد	المجلد/العدد	الصفحات
٣٧	السياسة الحضرية	تأليف : موارى ستيدمان عرض وتحليل : د. عبدالباسط محمد حسن	٥ – ١	٢١١ – ٢٢٦
٣٨	سيرة فرجينيا وولف (مج ١ ، مج ٢)	تأليف : بلس كوين عرض وتحليل : د. طه محمود طه	٥ – ٤	٢٤٩ – ٢٧٢
٣٩	شبح المجاعة يشتد او الحرب ضد الجوع	تأليف : جوردون بريدجر موريس دى سواسون عرض وتحليل : د. محفوظ قاسم	٢ – ١	٢٦٩ – ٢٨٢
٤٠	شعراء المقاومة الفلسطينيون	تأليف : بدرومارتنز مونتابز وحسن صبح عرض وتحليل : د. حسين مؤنس	١ – ٢	٢٨٥ – ٢٩٤
٤١	شكسبير الحاضر ابدا ـ دراسة لكتابين : ١ ـ المشهد اللاطبيعى ٢ ـ التمثال الحى	 تأليف : مايكل لونج تأليف : م . س . براد بروك بقلم : د. عبد الواحد لؤلؤة	٩ – ٤	٤١ – ٦٢
٤٢	الشيطان فى الفلسفة الحديثة	تأليف : ارنست جلنر عرض وتحليل : د. عبد الرحمن بدوى	٨ – ١	٢٨٧ – ٢٩٦
٤٣	صانعو الحياة (دراسة لثلاثة كتب) ١ ـ الذين يشكلون او يطورون التقى ٢ ـ مذكرات جراح ٣ ـ اديسون .. الرجل الذى صنع المستقبل	 تأليف : فالس باكارد تأليف : هيدلى الكنز تأليف : رونالد كلارك بقلم : د. عبد المحسن صالح	٩ – ٤	١٢ – ٤٠
٤٤	الصحافة فى امريكا مدخل الى وسائل الاعلام	تأليف : توماس اليوت بيرى عرض وتحليل : ياسر الفهد	٨ – ٤	٢٩٩ – ٣١٠
٤٥	الصحة النفسية (العقلية) والسياسة الاجتماعية	تأليف : دافيد ميكانيك عرض وتحليل : د. عطيه محمود مهنا	٢ – ١	٢٦٩ – ٢٧٦
٤٦	الصناعات المؤممة	تأليف : و . لورنهل عرض وتحليل : د . قيس النورى	٥ – ٢	٢٧٧ – ٢٨٤
٤٧	الطب الرومانسى	تأليف : جون سكاربورو عرض وتحليل : د. بسول قليونجى	١ – ٤	٢٨٧ – ٣٠٠
٤٨	الطب النفسى والطب النفسى المضاد	تأليف : دافيد كوبر عرض وتحليل : ياسر الفهد	٨ – ١	٢٩٧ – ٣٠٤
٤٩	طعمة الفقر	تأليف : مارجريت هساولى عرض وتحليل : د. يحيى فايز الحداد	٨ – ٤	٢٨٩ – ٢٩٨

مسلسل	الموضوع	المؤلف / المترجم / الناقد	المجلد/العدد	الصفحات
٥٠	خلفيات الملاريا ووبائيات الدم الأخرى —	تأليف : ب . جار تام عرض وتحليل : د. عبد الحافظ حلمي محمد	٢ – ١	٢٧٧ – ٢٩٠
٥١	عالم الجيولوجيا — — — —	تأليف : ب . كارمول عرض وتحليل : د. محمد عزالدين حلمي	١ – ٢	٢٩٥ – ٣٠٤
٥٢	عصر ازدهار بلاد الفرس — — —	تأليف : ريتشارد ن. فراي عرض وتحليل : د. طه ندا	١٠ – ٢	٢٢٥ – ٢٣٦
٥٣	علم الاجتماع ـ الطلاب والمجتمع — —	تأليف : جيروم راباو عرض وتحليل : د. فاروق زكي يونس	١٠ – ١	٢٦١ – ٢٧٢
٥٤	على تخوم دار الاسلام — — — — —	تأليف : ريتشارد هيل عرض وتحليل : د. مكي شبيكة	٢ – ٢	٣٠١ – ٣٠٨
٥٥	الفكر العربي في العصر الليبرالي ١٧٩٨ – ١٩٣٩ — — — — — — — —	تأليف : ألبرت حوراني عرض وتحليل : د. جمال زكريا قاسم	٢ – ٤	٢٩١ – ٢٩٨
٥٦	الفترة الماركسية الثورية — — —	تأليف : روبرت تكر عرض وتحليل : السيد يس	٢ – ١	٢٨٣ – ٢٩٤
٥٧	الفلسفة والطب — — — —	تأليف : ليفرمان عرض وتحليل : د. عزمي اسلام	٦ – ٢	٢٨٥ – ٢٩٨
٥٨	الفن الاسلامي ، نشأته ونماؤه — —	تأليف : نيقولوس بكهارت عرض وتحليل : د. سمير زغلول	١٠ – ١	٢٤٩ – ٢٦٠
٥٩	الفن الافريقي « النحت »	تأليف : بيير موزيه عرض وتحليل : صفوت كمال	٢ – ٢	٢٦١ – ٢٧٢
٦٠	الفولكلوريون البريطانيون « دراسة تاريخية » — — — — — — — —	تأليف : ريتشارد ام . دورسون عرض وتحليل : صفوت كمال	٤ – ١	٣١١ – ٣٢٠
٦١	في مواجهة الحافة « دراسة في دبلوماسية الأزمات » — — — — — — — —	تأليف : ادوارد نيشال وتشارلس بارلت عرض وتحليل : د. اسماعيل صبري مقلد	٢ – ٢	٢٨٩ – ٣٠٠
٦٢	فرجينيا ولينار دو وولف (دراسة لثلاثة كتب) : — — — — — — — — ١ ـ فرجينيا وولف، كتب وصور شخصية ٢ ـ فرجينيا وولف — — — — ٣ ـ ازواج طفول حقيقي — — —	تأليف : ماري ليون تأليف : جين شولكيند تأليف : جورج سبانر وايان بارسونز بقلم : د. طه محمود طه	٩ – ٤	٢٢٥ – ٢٥٦
٦٣	قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧ – ١٩٧٢ —	تأليف : ادجار او بالانس عرض وتحليل : د. اسعد عبد الرحمن	٧ – ٤	٢٤٧ – ٢٥٦

مسلسل	الموضوع	المؤلف	المجلد/العدد	الصفحات
	كتشنر معصم النمر	تأليف : كاسار عرض وتحليل : د. احمد عبد الرحيم مصطفى	١٠ – ٤	٢٢١ – ٢٢٨
٦٤	الكومبيوتر ـ والعلم والمجتمع	تأليف : فرانك جورج عرض وتحليل : د. علي حلمي موسى	١ – ٩	٢٧٢ – ٢٨٠
٦٥	الكيمياء عند الصينيين القدماء : دراسات ميدانية	تأليف : ناثان سيفن عرض وتحليل : محمود ابو الصاير	١ – ٢	٢٠٩ – ٢١٦
٦٦	لاليفا او الحياة	تأليف : اوسكار لويس عرض وتحليل : د. محمد عبده محجوب	١ – ٢	٢٦٧ – ٢٧٤
٦٧	لغة الدراما الحديثة	تأليف : چارلت لويد ايفانز عرض وتحليل : فؤاد دواره	٩ – ٤	٦٢ – ٧٦
٦٨	لوت ولكن طموحنا	تأليف : د. ارازمونت عرض وتحليل : د. عبد العزيز امين	٧ – ٢	٢٧٢ – ٢٩٢
٦٩	لورنس العرب وعالمه	تأليف : ريتشارد بريسيفال جريفز عرض وتحليل : د. احمد عبد الرحيم مصطفى	٩ – ٢	٢٨٥ – ٢٩٤
٧٠	مجتمع الكمبيوترات	تأليف : جيمس مارتن / اندريان ر. د. نورمان عرض وتحليل : م. محمود حسام الدين رشوان	٦ – ٢	٢٠٢ – ٢١٠
٧١	مجتمعنا المجرم : المصادر الاجتماعية والقانونية للجريمة في امريكا	تأليف : ادوين ﻫ. شور عرض وتحليل : د. عدنان الدوري	١ – ٤	٢١٥ – ٢٢٤
٧٢	معجم الاسطورة	عرض وتحليل : د. داود حلمي احمد السيد	٤ – ٤	٢٢٥ – ٢٢٧
٧٣	المخدرات وطبيعة الممارس	تأليف : د. س.ب. وستر عرض وتحليل : د. عدنان الدوري	٧ – ٢	٢٦٧ – ٢٧٣
٧٤	مستقبل الكتابة	تأليف : روبرت ديسكا عرض وتحليل : د. محمد جواد رضا	١٠ – ١	٢٧٣ – ٢٨٠
٧٥	الفنون المعاصرة	تأليف : هنري بلزالاتس عرض : د. سميحة الخولي	٩ – ٤	٧٧ – ٩٦
٧٦	المفهوم الفكري للمدينة في العالم الروماني	تأليف : ليديه ستوروني مانسولي عرض وتحليل : د. لطفي عبد الوهاب يحيى	٤ – ١	٢٨١ – ٢٩٠
٧٧	مقدمة للسكان (تحليل سوسيولوجي)	تأليف : جوده شراس عرض وتحليل : د. مصطفى ناجي	٥ – ٢	٢٥٥ – ٢٦٨

مسلسل	الموضوع	المؤلف	المجلد/العدد	الصفحات
٧٨	مقدمة نقدية للشعر العربي الحديث	تاليف : د. محمد مصطفى بدوي عرض وتحليل : د. نور الشريف	٨ – ٢	٢٥٧ – ٢٦٨
٧٩	الموسيقى بين علم النفس وعلم اللغة (دراسة لكتابين) ... ... ١ – سيكلوجية الموسيقى ... ... ٢ – السؤال الذى لم يجب عليه	 تاليف : جون بوث دفيز تاليف : ليونارد برنشتين بقلم : امال مختار	٩ – ٤	٩٧ – ١٤٦
٨٠	مهاجرون سود ومواطنون بيض	تاليف : دانيال لورنس عرض وتحليل : عبد الله عبد الغنى غانم	٩ – ٢	٢٦٩ – ٢٧٦
٨١	نحو علم اجتماع للسينما	تاليف : أ . س جارفى عرض وتحليل : هاشم النحاس	٢ – ٤	٢٦٥ – ٢٩٤
٨٢	نظرة الى قلبى	تاليف : د. فيليب بلايبرج عرض وتحليل : د. حسان حتحوت	١ – ٢	٢٥٩ – ٢٦٦
٨٣	نقاط التلاقى والصراع بين اوربا العصور الوسطى والشرق	تاليف : ج. سيزارماج . فوزار ترجمة وتعليق : جوزيف نسيم يوسف	١٠ – ١	٢٣٣ – ٢٤٨
٨٤	النمو الانسانى فى عصر التحضر	تاليف : د. ثرون الكساندر عرض وتحليل : د. اسحق يعقوب قطب	٧ – ٤	٢٥٧ – ٢٦٤
٨٥	وجوه مختلفة للفتاة المراهقة	تاليف : ليليان كوهين كوفار عرض وتحليل : د. محمد عبده محجوب	٢ – ١	٢٥٩ – ٢٦٨